

فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد

للإمام محمد بن عبد الوهاب

كتبهُ الفقير إلى الله تعالى

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

كان الله لهُ في الدنيا والآخرة


بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم
وعلمك ما لم تكن تعلم
وكان فضل الله عليك عظيما
كنوز الإسلام
للنشر والتوزيع
اليمن- سيئون- واتس/٠٠٩٦٧٧١٤٧٥٦٩٤٢
البريد الألكتروني/a.aljahry@gmail.com
كنوز الإسلام



للإمام محمد بن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدَّمَةُ الشَّارِحِ

الحمد لله، المتفرد بالوحدانية، والمتصف بالصمدية، وبجميع الصفات العلية، والمسمى بالأسماء الحسنى السَنِية، تبارك وتعالى، وتنزه وتقدس عن المثيل، والتنديد، موجبًا على عباده التنزيه، والتوحيد، لا إله إلا هو الحميد المجيد، الفعال لما يريد.

والصلاة والسلام على أعظم من لازم التوحيد، ودعا إليه محذرًا من الشرك والتنديد، وأخرج الله به الناس من عبادة العبيد إلى خالص الإيمان وسبيل العرفان وسلك به الطريق السديد، وألزمهم كلمة التقوى وكل فعل حميد، وعلى آله وصحبه ومن سار على سيرهم في كل فعل حميد.

وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له شهادة أرجو نفعها في يوم الوعيد، وأرجوا بها فضل الله المزيد. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله القائل أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ما بقي التوحيد، أما بعد:

فإن "**كتاب التوحيد**"[(١)] الذي هو حق الله على العبيد، للإمام المجدد، محمد بن عبد الوهاب التميمي رَحِمَهُ اللهُ كتاب عظيم، وسفر نفيس، وهو اسم على مسماه، ولفظ يحمل معناه، حيث تضمن أعظم أبواب الدين، وهو التوحيد، فمن أجل الدعوة إليه أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الرسل، ولبيانه أنزل سبحانه وتعالى الكتب، ولظهوره شرع الله الجهاد، وقامت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة، ولمن حققه زخرفت الجنان، ولمن خالفه أضرمت النيران.

فكان لزامًا على طلاب العلم، وغيرهم من المسلمين، أن يشمروا في تعلم التوحيد، والعمل به، وتعليمه، والدعوة إليه، فهذا قطب العبادة ورحاها وأسها

---

(١) كان البدء في تدريس "**كتاب التوحيد**" في (دار الحديث بدماج)، في يوم الخميس (١٨) من شهر ذي القعدة الحرام، لعام (١٤٣٣هـ).

ومبناها، ولفظها ومعناها، ولهذه المنزلة كان القرآن كله دعوة إلى التوحيد.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ. فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ. اهـ من **"مدارج السالكين"** (٣/ ٤٥٠).

وقال الله عز وجل مبينا عظم التوحيد: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه بعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: في كل جماعة من الناس، وفي كل فترة من الزمان ﴿رَسُولًا﴾ يعلم الناس التوحيد، ويدعوهم إليه، وهذا لمنزلته الرفيعة، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ويحذرهم منه وذلك لمنزلته الوضيعة.

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فالله عز وجل أخبر في هذه الآية: بأنه ما أرسل من رسول إلا أوحى إليه بالتوحيد، علما وعملا، ومن هذا يُعلم أنّ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من نوح عليه السلام إلى أن ختمهم الله تعالى بمحمد ﷺ يدعون الناس إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بما يجب له في خلقه وملكه وتدبيره، وفي عبادته، وأسمائه وصفاته؛ لأن الله عز وجل هو المعبود بحق، وغير الله سبحانه إن عُبد فباطل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

وهذا التقسيم لابد أن يُفهم فهمًا دقيقًا؛ وذلك أن أهل البدع المخالفين لهذا الباب ينكرونه، وهو أشد عليهم من ضرب المطارق على الرؤوس.

والسبب في ذلك: أن أغلب الطوائف تعتقد أن توحيد الله تعالى هو إفراده بالخلق، والرزق، والملك، والتدبير. وهذا هو توحيد الربوبية وهو النوع الأول من أنواع التوحيد.

فأغلب من في الأرض من المشركين والمنددين يقرون بإفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، وقد أخبر الله تعالى عنهم بذلك في مواطن من كتابه على ما يأتي، بما فيهم اليهود والنصارى، ولا ينكر ذلك إلا شواذ من البشرية كفرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] وهذا على سبيل المكابرة فقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤]، وكم قصَّ الله تعالى علينا في القرآن من خبر المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا الاعتراف منهم والإقرار بالربوبية لم يدخلهم في الإسلام، بل قاتل النبي ﷺ كل من أبى أن يقول: (لا إله إلا الله) ويلتزم بمقتضاها ويعمل بمعناها.

وأكثر الناس من عبّاد القبور يشركون ويندِّدون، وإذا سألتهم عن التوحيد وعن معنى (لا إله إلا الله)؟ قالوا: لا معبود إلا الله، وربما قالوا: لا موجود إلا الله، وربما قالوا: لا خالق إلا الله، وكل هذه التعاريف لـ: (لا إله إلا الله) غير صحيحة، مخالفة لدلالة الكتاب والسنة، ومعناها الحق: لا معبود بحق إلا الله، وغير الله إن عُبِد فباطل، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

النوع الثاني: وهو توحيد الألوهية الذي أُنزلت به الكتب وأُرسلت به الرسل

وانقسم الناس بسببه إلى مؤمنين أبرار ومشركين فجار، وسيأتي تفصيله والكلام عليه في هذا الكتاب إن شاء الله ﷻ.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات وهو الدال على إثبات كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى وأثبتها له رسوله ﷺ بعيدًا عن التمثيل والتكيف وعن التعطيل والتحريف، على ما يأتي إن شاء الله.

فإن قال قائل: ما دليلكم على تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام؟

فالجواب: أنّ ذلك عُلِمَ بالاستقراء؛ لأدلة الكتاب والسنة، فأول سورة افتتح الله ﷻ بها كتابه؛ دالة على ذلك، قال تعالى -فيها-: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

فهذه الآيات تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتوحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله ﷻ بما يجب له في أسمائه وصفاته في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وهذا الكتاب الذي ألفه الإمام محمد بن عبد الوهاب، كتاب مفيد جدًا للعلماء والدعاة، بل لجميع المسلمين، بناه مؤلفه رحمه الله وصنفه على دلالة الكتاب والسنة، فهو يأتي بالآيات والأحاديث مستدلا بها على المقصود، وقد تنكر لهذا الكتاب ولمؤلفه، المشركون والمبتدعون المخالفون لدين الرسل، لأنه أتى على بدعهم وشركياتهم من أساسها.

وقد شُرح هذا الكتاب بشروح كثيرة، بين مطول، ومختصر، ومن أشهر هذه الشروح: "**فتح المجيد**" لمؤلفه العلامة عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد

الوهاب التميمي رحمه الله، حفيد المصنف المتوفى (١٢٨٥)، و "**تيسير العزيز الحميد**" للعلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، المتوفى (١٢٣٣) قتلًا أمر بقتله إبراهيم باشا، و "**التمهيد**" للشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله-، و "**القول السديد**" للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، المتوفى (١٣٧٦)، و "**القول المفيد**" للعلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، المتوفى (١٤٢١)، و "**إعانة المستفيد**" للعلامة صالح بن فوزان الفوزان -حفظه الله- وغيرها وهذه الكثرة في شروحه تدل على أهمية الكتاب ومنزلته عند الموحدين، وعند أئمة الدين.

ومن هذا الباب أحببت أن تكون لي مشاركة وشرح مع قلة البضاعة فالله أسأل أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله، وأن يعينني على سلوك سبيل السلف في العلم والعمل، وأن يغفر لي ولوالديَّ، ولمشايخي، ولجميع المسلمين.

واسميته "**فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب**"، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

وكان تدريس الكتاب في دماج الخير وتفريغه ومراجعته في صنعاء، ومكة المكرمة حرسهما الله بالتوحيد.

تَرْجَمَةُ الْمُؤَلِّفِ رحمه الله تَعَالَى

هو الإمام العلامة الشهير، والداعي الكبير، شيخ الإسلام، وعلم الهداة الأعلام، الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ سليمان بن علي بن محمد بن احمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مر بن أد بن طابحة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

مولده ونشأته: ولد رَحِمَهُ اللهُ في بلد العيينة من بلدان العارض بنجد سنة خمس عشرة ومائة وألف من الهجرة، فنشأ بها وقرآ القرآن حتى حفظه وأتقنه قبل بلوغه العشر، ثم اشتغل بطلب العلم فقرأ مباديء العلوم والفقه الحنبلي على والده الشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ سليمان بن علي وكان رَحِمَهُ اللهُ حاد الفهم سريع الإدراك والحفظ.

قال عنه أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: لكان أبوه يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه، ووالده الشيخ عبد الوهاب هو مفتي تلك البلاد وقاضيها، وجده الشيخ سليمان بن علي هو مفتي جميع الديار النجدية، آثاره تصانيفه وفتاواه تدل على غزارة علمه وفقهه، فهو مرجع أهل نجد في زمنه في الفتاوى، وكان معاصرًا للشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي اجتمع به في مكة المشرفة. فهو من بيت علم وفضل.

ولما بلغ سن الرشد، قدمه والده الشيخ عبد الوهاب في إمامة الصلاة، فأخذ رَحِمَهُ اللهُ يؤم الناس، ويصلي بهم، ثم طلب من والده الحج فأجابه إلى ذلك، فأدى فريضة الحج، واعتمر عمرة الإسلام وبعد فراغه من الحج والاعتمار، قصد المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأقام بها قريبًا من شهر...

ثم رجع إلى وطنه العيينة، وتزوج بها، وشرع في القراءة على والده في الفقه

على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ثم بعد ذلك سافر إلى الحجاز في طلب العلم وأخذ يتردد على علماء مكة المشرفة والمدينة النبوية وأقام بها مدة يقرأ فيها على الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، ثم المدني وعلى العالم الشهير محمد حياة السندي المدني صاحب الحاشية المشهورة على صحيح الإمام البخاري.

ثم رجع إلى وطنه ومكث فيه سنة ثم رحل إلى البصرة، وقرأ بها كثيرًا من الحديث والفقه والنحو، وكتب بها من الحديث والفقه واللغة ما شاء الله أن يكتب في ذلك الوقت، ولازم في البصرة عالمًا من علمائها الأجلاء، وهو الشيخ محمد المجموعي البصري، وأخذ الشيخ مدة إقامته في البصرة يدعو إلى توحيد الله -جل وعلا- ونبذ الإشراك، وهجر البدع، وأخذ يصرح بذلك، ويظهره لكثير من جلسائه. اهـ. من «**كتاب مشاهير علماء نجد**» (١٧).

ومن أراد التوسع فليرجع إلى المضان وإنما هذه إلماحة وإلا فمناقب الشيخ رحمه الله تعالى أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

مُؤَلَفَاتُه رحمه الله:

للشيخ محمد رحمه الله جهودٌ عظيمة في نشر الدين والدعوة الصافية، سواء كانت هذه الجهود في باب الكتب والمراسلات أو الفتاوى والمناصحات، وإليك مسرد بمؤلفاته التي تضمنها مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

١) «**مختصر زاد المعاد**».

٢) «**مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم**».

٣) «**كتاب فضائل القرآن**».

٤) «**كتاب التفسير**».

٥) "**المسائل التي لخصها** رَحِمَهُ اللهُ **من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ".

٦) "**مختصر تفسير سورة الأنفال**".

٧) "**بعض فوائد صلح الحديبية**".

٨) "**رسالة في الرد على الرافضة**".

٩) "**مجموع الخطب المنبرية**".

١٠) مجموع فتاوى ومسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومصدرها تاريخ نجد، وله مجموعة مستمدة من كتاب "**مجموع الرسائل النجدية**".

وآخر مستمد من "**الدرر السنية**".

١١) "**قواعد نور عليها الأحكام**".

١٢) "**مبحث الاجتهاد والخلاف**".

١٣) "**كتاب الطهارة**".

١٤) "**شروط الصلاة وأركانها وواجباتها**".

١٥) "**كتاب آداب المشي**"، ويتضمن أبواب الصلاة والزكاة والصوم.

١٦) "**أحكام الصلاة**".

١٧) "**أحكام تمني الموت**".

١٨) وله مجموعة من الرسائل في مواضع متعددة:

الأَوَّلَ: "**عقيدة الشيخ وبيان دعوته**"، ورد ما ألصق به من التهم، ضم المجموع منها سبعة عشر رسالة منها: "**رسالة الشيخ إلى أهل القصيم**".

الثَّانِيْ: "**بيان أنواع التوحيد**"، خمس رسائل.

الثَّالث: "**بيان معنى لا إله إلا الله وما يناقضها من الشرك في العبادة**"، وتضمنت ثمان رسائل.

الرَّابِعْ: "**بيان الأشياء التي يكفر مرتكبها ويجب قتاله**"، وتضم ستة رسائل.

الخَامِسْ: "**توجيهات عامة للمسلمين**"، وتضم أربعة عشر رسالة.

١٩) "**مختصر الإنصاف والشرح الكبير**".

٢٠) "**كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**".

٢١) "**كشف الشبهات**".

٢٢) "**الثلاثة الأصول**".

٢٣) "**القواعد الأربع**".

٢٤) "**فضل الإسلام**".

٢٥) "**أصول الإيمان**".

٢٦) "**مفيد المستفيد**".

٢٧) "**مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان**" وعددها (١٣) رسالة.

٢٨) "**كتاب الكبائر**".

٢٩) "**كتاب المظالم**".

وله غيرها من المؤلفات، نسأل الله ﷻ أن يغفر له ويكرم نزله، ويجزيه خيرًا على ما قدم للإسلام والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

***

شَرحُ مُقَدِّمَةِ المُؤَلِّفِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

بسم الله الرحمن الرحيم

قَوْلُهُ (بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ) لم تذكر البسملة، في كثير من النسخ، وقد أثبتها بعضهم، والكلام فيها يكون على الإثبات؛ لتتم الفائدة.

فأقول: افتتح المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الكتاب بالبسملة؛ اقتداءً بكتاب الله العزيز، و قد صح عن النبي ﷺ أنه لما كتب كتابًا إلى هرقل، قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»(١)، ولما كتب كتابًا بينه وبين كفار قريش، قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»(٢).

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنه لما كتب إلى مَلِكة سبأ باليمن، بدأ بالبسملة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .[النمل: ٣٠] ويؤتى بالبسملة تبركًا بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، واستعانة به سبحانه وتعالى على المقصود، ونحن بحاجة إلى عون الله تعالى، وإلى تسديده وتوفيقه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وفي الدعاء المأثور: «**اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**» صح في "**المسند**" (٢٢١١٩) وغيره عن عبد الله بن مسعود وأبي هريرة ومعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم. **والباء:** في البسملة للاستعانة، وقيل: للمصاحبة، والصحيح الأول، وتقدير الكلام: (بسم الله...) أؤلف، ويقدر الفعل على حسب المقام الذي تقدم عليه، فإذا قلت: (بسم الله) عند خروجك من الباب، كان

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١)، ومسلم (١٧٨٤) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

التقدير: (بِسْمِ اللهِ) أخرج، ويقدر الفعل متأخرًا، وذهب بعضهم إلى تقديمه.

وقد جاء القرآن بكليهما قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقدم الفعل، وقال الله ﷻ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١]، فأخر الفعل، لكن تأخير الفعل أولى؛ ليكون اسم الله هو المقدم ذكرًا وواقعًا.

والاسم مشتق من: السمو، وقيل: من السمة، والصحيح الأول؛ لأنه يجمع على (أسماء)، ولو كان مشتقًا من السمة، لجُمع على سِمات.

والفرق بينهما واضح، وهذا ترجيح شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم.

ويقال لهذه الجملة (البسملة) كما يقال: الحوقلة، لكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، والحمد له لـ: (الحمد لله) والحسبلة، لـ: (حسبي الله ونعم الوكيل)، ويسمى هذا النوع في علم البيان: بالنحت.

قَوْلُهُ (اللَّه) لفظ الجلالة علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف على الإطلاق، وهو اسم مختص بالله سبحانه وتعالى لا يسمى به غيره، وكل الأسماء الحسنى عائدة إليه وتابعة له؛ إذ لم يأت تابعا قط، وأما قول الله تعالى في سورة إبراهيم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، قال الطبري في "**تفسيره**" (١٣/ ٥٨٩): فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَالشَّام: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، بِرَفْعِ اسْمِ (اللَّهِ) عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَتَصْيِيرِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خَبَرَهُ. وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي﴾ بِخَفْضِ اسْمِ اللَّهِ عَلَى اتِّبَاعِ ذَلِكَ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] وَهُمَا خَفْضٌ. اهـ.

وذكر غيره أنه من عطف البيان، فإن الله تعالى هو العزيز الحميد، وقال ابن عادل في "**اللباب في علوم الكتاب**" (١١/ ٣٣١): فعلى هذا يجوز أن يعرب (العَزِيزِ الحَمِيدِ) صفة متقدمة. اهـ.

ولفظ الجلالة (اللَّه) هو: الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو مشتق، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه جامد، والصحيح: أنه مشتق من الإله، وهو المعبود محبة وتعظيمًا، يدل عليه قول رؤبة العجاج:

للهِ دَرُّ الغانِياتِ المُدَّهِ ... سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ من تألُّهِي

أي: من تعبدي. وليس المراد بالاشتقاق اشتقاق الفرع من الأصل، وإنما المراد به اشتقاق الكلمة من مصدرها.

وقَوْلُهُ (الرَّحمَنِ): اسم من أسماء الله الحسنى مختص به، ولم يُسمِّ أحد نفسه بالرحمن إلا ما كان من مسيلمة الكذاب، فإنه سمى نفسه: رحمان اليمامة، مكابرة، وبغيًا، وكان العرب يعرفون هذا الاسم ويقرون به، حتى قال الشاعر الجاهلي:

أَلا ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا ... أَلا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامة بن جَندلٍ السَّعْدي:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمُ ... وَمَا يَشَإِ الرحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

وأنكرته قريش قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولعله من باب المكابرة أو الجهل عند بعضهم والله أعلم، وفي "**صحيح مسلم**" (١٧٨٤) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «**اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ. واسم الرحمن متضمن لصفة الرحمة المتعلقة بالذات.

وقَوْلُهُ (الرَّحِيمِ): اسم من أسماء الله، وليس مختصًا به، حيث سمى الله عز وجل محمدًا ﷺ رَءُوفًا رحيمًا، كما في "**الصحيحين**" عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، وهو يتضمن صفة الرحمة المتعدية. والرحمن أبلغ؛ فإنه على وزن (فعلان)، وهو من أوزان السعة، وزيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

والبسملة آية من القرآن على الصحيح، أنزلها الله للفصل بين السور وإنما اختلف العلماء: هل هي آية من كل سورة؟ مع اتفاقهم أنها بعض آية من سورة النمل.

وليست آية من آيات سورة الفاتحة على الصحيح لما جاء في مسلم (٣٩٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ: مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قَالَ: «هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»؛ فلو صلى المصلي من غير قراءة البسملة، صحت صلاته، ولو كانت آية من الفاتحة، بطلت صلاة من تركها على القول بركنية قرأة الفاتحة في الصلاة وهو الراجح؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، يدل على أن الفاتحة سبع آيات، وتكون السابعة من آيات سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾، كما هي في قراءة ورش رحمه الله.

وافتتحت جميع السور بالبسملة إلا سورة التوبة؛ قيل لأنها سورة عذاب، وسميت بالفاضحة، وقيل: غير ذلك، والصحيح: أن سياقتها وسياقة سورة الأنفال واحدة، وشأن القرآن توقيفي فلو علم الصحابة البسملة لأثبتوها.

وقد توسعت بحمد الله في الكلام عليها في كتابي: "**الفوائد الذهبية على العقيدة الواسطية**"، و"**فتح العليم في شرح رسالة الإمام المجدد إلى أهل القصيم**"، والحمد لله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحَمْدُ للهِ

قَوْلُهُ (الحَمْدُ): هو ذكر محاسن المحمود، مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

وآلته: القلب واللسان، والألف واللام في (الحمد) للاستغراق: أي أنّ جميع أنواع المحامد ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، فهو المستحق لجميعها، فيحمد على عدله، وفضله، ويحمد على كل حال، حتى في دخول أهل النارِ النارَ، وأهل الجنة الجنة، ويُقضى بين العباد: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، يقول تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحمد مرادف للشكر، وهذا غير صحيح، فبينهما عموم وخصوص قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (١/ ١٣٥): مَعْنَى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] الشُّكْرُ خَالِصًا لِلَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ. اهـ.

ورد عليه ذلك ابن كثير في "**تفسيره**" (١/ ٤٢)، فقال: وَهَذَا الَّذِي ادَّعَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ اشْتُهِرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْقَوْلِ عَلَى الْمَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمُتَعَدِّيَةِ. اهـ.

والذي قاله ابن كثير أيضًا: أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ، قد رده العلماء إذ أنَّ الثناء هو الحمد بشرط التكرار قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "بدائع الفوائد" (٢/ ٩٥): إن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض ومنه ثنيت الثوب ومنه التثنية في الاسم، واستدل على ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الإمام مسلم (٣٩٥): قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:

٢] قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي».

وبين الشكر والحمد عموم وخصوص:

فالحمد يكون على صفاته اللازمة كالجمال والجلال والعظمة، والكبرياء، والجبروت، وغير ذلك، ويكون على صفاته المتعدية كالرحمة والإحسان والإكرام والإنعام، وغير ذلك، بينما الشكر لا يكون إلا على الصفات المتعدية، فتقول مثلا: أشكر الله على أن أعطاني علمًا، ورزقني مالًا، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالحمد أعم من حيث التعلق وأخص من حيث الآلة، والشكر أعم من حيث الآلة، وأخص من حيث التعلق، قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

ويكون الشكر باللسان ذكرًا، وبالقلب استكانة وتواضعًا، وخشية وبالجوارح انقيادًا.

فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له في ذلك؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، أخرجاه في "**الصحيحين**" من حديث المغيرة[1] وعائشة[2] رضي الله عنهما، وقد قال الله ﷻ لنبيه داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقد تكلمت على ما يتعلق بالحمد مع ذكر بعض مواطنه وفضله في كتابي "**الفوائد الذهبية على العقيدة الواسطية**" ولله الحمد والمنة.

---

(١) البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

قَوْلُهُ (وَصَلَّى اللَّهُ): قال ابن القيم في "جلاء الأفهام" (١٥٥): وأصل هَذِه اللَّفْظَة فِي اللُّغَة يرجع إِلَى مَعْنيين: أحدهمَا: الدُّعَاء والتبريك، وَالثَّانِي: الْعِبَادَة. اهـ.

فالصلاة هنا لغة: الدعاء، ومعناها على ما قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: «**صَلاَةُ اللَّهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلاَئِكَةِ، وَصَلاَةُ المَلاَئِكَةِ الدُّعَاءُ**» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يُصَلُّونَ: يُبَرِّكُونَ**، ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادعُ لهم، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ**» رواه مسلم (١٤٣١) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أي: يدعو للذي دعاه إلى الوليمة.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٤٥٩) «**وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ**»

وقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقد عَلَّمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته كيفية الصلاة عليه ففي حديث كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**فَقُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

واستشكل بعض أهل العلم: كيف تكون الصلاة على النبي ﷺ كآل إبراهيم، مع أنه أفضل من آل إبراهيم بل أفضل الناس، كما قال النبي ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ**»، متفق عليه(١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

فقال بعضهم: قال ذلك قبل أن يوحى إليه أنه أفضل الناس، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا القول صار دعاء يُدعى الله به في الصلوات وغيرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقال بعضهم إذا قيل: «آل إبراهيم» فيدخل فيه محمد ﷺ وهو أفضلهم، واستدل بقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فذكر الله تعالى آل إبراهيم عليه السلام وإبراهيم عليه السلام داخل فيهم.

قَوْلُهُ (مُحَمَّدٍ) هو علمٌ على النَّبِيِّ ﷺ، وهو أشهر أسمائه وله أسماء غير هذه، ففي "**صحيح مسلم**" (٢٣٥٥) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»، وله أيضا (٢٣٥٤) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ رَءُوفًا رَحِيمًا**»

وفي صحيح البخاري (٢١٢٥) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ:** ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ**

(١) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

وأسماء النَّبِيِّ ﷺ أعلام وأوصاف، قال ابن القيم في "**جلاء الأفهام**" (١٧٢): فَذكر رَسُول الله ﷺ هَذِه الْأَسْمَاء مُبينًا مَا خصّه الله بِهِ من الْفضل وَأَشَارَ إِلَى مَعَانِيهَا وَإِلَّا فَلَو كَانَت أعلامًا مَحْضَة لَا معنى لَهَا لم تدل على مدح وَلِهَذَا قَالَ حسانٌ رضي الله عنه

وَشَقّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُجِلّهُ ... فذو الْعَرْش مَحْمُود وَهَذَا مُحَمَّد

وَكَذَلِكَ أَسمَاء الرب تَعَالَى، كلهَا أَسمَاء مدح، وَلَو كَانَت أَلفاظًا مُجَرّدَة لَا مَعَاني لَهَا لم تدل على الْمَدْح وَقد وصفهَا الله سُبْحَانَهُ بِأَنَّهَا حسنى كلهَا فَقَالَ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨] فَهِيَ لم تكن حسنى لمُجَرّد اللَّفْظ بل لدلالتها على أَوْصَاف الْكَمَال. اهـ.

ورسول الله ﷺ أشرف الأنبياء والمرسلين، وفضائله كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها، وقد تكلمت عنها بتوسع ولله الحمد في كتابيّ: "**الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان**"، و"**سلامة الخلف في طريقة السلف**"، وذكرت فيهما ما يتعلق بفضل القرآن وفضل أمته ﷺ وكلها داخلة في فضائله ﷺ، وذكر ما له من الخصائص والشمائل والفضائل من الأهمية بمكان ففيها بيان للمنزلة الرفيعة لمن أمرنا الله تعالى بالتأسي به، وفيها ردّ على المخالفين لدعوته ورسالته، وفيها دلالة على حسن الأخلاق ومعالي القيم فقد كان رسول الله ﷺ متخلقًا بالقرآن في كل أحواله، وهو المبعوث ليتم صالح الأخلاق وقد جاء عَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أخرجه أحمد في مسنده (٨٩٥٢)، كما أن فيها نشر لدين الله تعالى ودعوة إليه فإنما جاء الدين من قبله إلى غير ذلك مما هذا ليس موطن بسطه.

قَوْلُهُ (وَعَلَى آلِهِ) الآل تطلق ويراد بها قرابة الرجل، وتطلق ويراد بها أتباعه، وقد اختلف أهل العلم في المراد بآله، فذهب كثير منهم إلى أن الآل هم الأتباع، حتى قال نشوان الحميري:

آلُ النَّبِيِّ هُمُو أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ ... مِنْ الْأَعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَرَبْ
لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتَهُ ... صَلَّى الْمُصَلِّي عَلَى الطَّاغِي أَبِي لَهَبْ

وذهب بعض أهل العلم: إلى أن الآل، هم القرابة، الذين حُرِّمتْ عليهم الصدقة، وهم: آل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل علي، كما في حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه ، في مسلم (٢٤٠٨)، وأزواجه ﷺ من أهل بيته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والآية في سياق أزواجه ﷺ.

وأخرجه مسلم (٢٤٠٤) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦١] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»».

قَوْلُهُ (وَسَلَّمَ) دعاء بالسلامة، والسلام بمعنى التحية، والسلامة من النقائص والرذائل، ومن أسمائه تعالى السلام، وسيأتي بابه إن شاء الله تعالى.

***

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

الكتاب بمعنى: مكتوب، وبمعنى مجموع، فهو مشتق من الجمع، ومنه كتيبة الخيل؛ لأنهم يجمعون خيلًا إلى خيل حتى تصير كتيبة، وكتيبة الرجال؛ لأنهم يجمعون أربعمائة، أو ثلاثمائة، وسمي كتابًا؛ لأنه تجمع فيه الكلمات والحروف والفصول والأبواب.

قَوْلُهُ (التَّوْحِيدِ) التوحيد مصدر: وحد يوحد توحيدًا، والمراد به هنا: إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بما يجب له.

والتوحيد هو أساس الدين ولبه وأول ما يُدعى إليه، وهو الركن الأول من أركان الإسلام بل والإيمان فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**» أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩)، وجاء في بعض الروايات: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**».

وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في "**الصحيحين**"(١): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ**»، وهذا لفظ مسلم.

وفي "**صحيح مسلم**" (٨٣٢) عن عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ

---

(١) البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»، والله ﷻ، يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام، كما تقدم، وهذا الكتاب معقود في الكلام على توحيد الألوهية، وتفاصيل ما يتعلق بذلك وفيه جمل من الأبواب التي فيها البيان لبقية الأقسام على ما يأتي إن شاء الله تعالى، وزد على ذلك أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية بل وفيه تلازم بينه وبين توحيد الأسماء والصفات.

فضل التوحيد وخطر الشرك:

وأذكر هنا فضل التوحيد إجمالا، وأُتبعه بخطر الشرك، وهو منقول من كتابي "**فتح الحميد المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد**" (١٢١) قلت فيه: إنَّ توحيد الله ﷻ هو الدين العظيم الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، ومهما تكلم المتكلم أو كتب الكاتب فلن يأتي بمثل ما حواه القرآن وسنة النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام وفضائله كثيرة، منها:

الأولى: أنه عبادة لرب العالمين ومؤدٍ إلى مرضاته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وهو رأس التقوى إذ أنه كلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وكم في القرآن من آياتٍ بيناتٍ وأدلة واضحات تبين حال المتقين، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

والثانية: أنه سبب الأمن المطلق، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا الشرك على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

والثالثة: أنه سبب للحياة السعيدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وكل آية فيها ذكر العمل الصالح فالتوحيد داخل فيه دخولًا أوليًا، بل لا قبول لأي عمل إلا به.

والرابعة: أنه سبب التمكين والاستخلاف، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والخامسة: أنه سبب عصمة الدم، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقد ثبت من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،**

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(١).

والسادسة: أنه سبب حفظ المال، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «... فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

والسابعة: أنه سبب رضى الله عز وجل، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقد ثبت عند مسلم في "صحيحه" (١٧١٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ»، ومعلوم أن ما رضيه الله عز وجل فإنه يحبه ويثيب عليه.

الثامنة: أنه سبب تقوى الله والكرامة الدنيوية والأخروية، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١]، والتقوى سبب الدرجات العلى على ما تقدم ويأتي، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

التاسعة: أنه سبب مغفرة الذنوب، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. [النساء: ٤٨].

وفي حديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وهو حديث صحيح.

العاشرة: أنه سبب دخول الجنة والنجاة من النار ومن عذاب القبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وَعَنْ عُثْمَانَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ». أخرجه مسلم (٢٦).

وَعَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

وإن كانت عنده معاصٍ فيما دون الشرك فهو تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

الحادية عشرة: أنه سبب بركة الأرزاق، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وكم من أمم كانت في غاية من القلة والذلة فلما استقامت على توحيد الله لأ تغير حالها، قال الله لأ عن هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وأول ما يدخل في الاستغفار تحقيق التوحيد وتجريده مما يشوبه من الشركيات.

الثانية عشرة: أنه سبب تفريج الكروب، ولهذا جاء في قصة ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه توسل إلى الله بالتوحيد، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وفي الدعاء الذي أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ، يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**».

الثالثة عشرة: أنه أعظم حسنة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ويوضح ذلك حديث البطاقة: فعَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ**

عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء. أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وهو حديث صحيح.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَلَيْهِ جُبَّةٌ سِيجَانٍ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ -أَوْ قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ- وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ»، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَقَالَ: «أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ»، فَقُلْتُ، أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ، لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: «سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْصُ النَّاسِ» أخرجه الإمام أحمد (٦٥٨٣)، والبخاري في "**الأدب المفرد**" (٥٤٨)، وهو حديث صحيح.

والرابعة عشرة: أنه أفضل ما يلهج به الإنسان، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**». أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في "**الكبرى**" (١٠٥٩٩)، وهو حديث صحيح.

الخامسة عشرة: أنَّ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، ولا عذاب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»(١).

السادسة عشرة: أنه ثباتٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

السابعة عشرة: وجوب تقديمه في الدعوة وغيرها، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**». أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

وقد أجمع الرسل على وجوب تقديمه، وقصصهم في القرآن طافحة بذلك، قال الله ﷻ عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

وهكذا هود عليه السلام قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. [الأعراف: ٦٥].

وجميع الرسل على هذا المنوال كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

الثامنة عشرة: أنه سبب قبول العمل، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، بينما قال في الكفار: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فلا يقبل الله من عامل عملًا ما لم يكن موحِّدًا. فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**» أخرجه مسلم (٢١٤).

أي: إنه لم يكن موحِّدًا بل كان مشركًا مندِّدًا ينكر البعث والنشور.

التاسعة عشرة: ويدل على فضل التوحيد: المنزلة الرفيعة لأهله عند الله عز وجل، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

وعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**». أخرجه البخاري (٥٠٩١).

العشرون: ويدل على فضله: اتفاق الرسل -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على الدعوة إليه.

الحادية والعشرون: أن الله ﷻ شَرَع لإعلاء هذه الكلمة الجهاد، ولو لم تكن في المنزلة الرفيعة ما كان ثمنها إزهاق النفس التي هي أغلى ما عند الإنسان، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وفضائله كثيرة عند التفصيل لكن هذه إشارات وإجمالات تكون طريقًا إلى غيرها. فكل فضيلةٍ للإسلام، والإيمان، والإحسان، في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ فهي فضيلة للتوحيد، ولو سردت كل ما يتعلق بذلك لخرجت عن المقصود ولطال الكتاب، واعلم أنَّ التوحيد يكون بالقلب، واللسان، والجوارح، فكل عملٍ أمر الله ﷻ به ففعله مع الإخلاص توحيد لله ﷻ، وكل عملٍ نهى الله ﷻ فتركه مع الإخلاص توحيد، فإذا حققت هذا وعلمته عرفت أن الدينَ كله عائد إلى التوحيد.

بعض ما ذكر الله عز وجل من أوصاف الشرك والمشركين القبيحة:

وقد ذكر الله ﷻ الشرك والمشركين بأقبح الأوصاف وما ذلك إلا لما في الشرك من فساد فهو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله ولا يرضاه، وذلك لأن فيه من التعدي على حق الله ﷻ ما لا يجوز عقلًا وشرعًا وفطرةً وقدرًا ولذلك وصفه الله ﷻ بعدة أوصاف، منها:

الأول: أنه الذنب العظيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «**أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟**»، قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ**

لِلَّهِ نِدًّا وهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» متفق عليه[1].

الثاني: أنه الذنب الذي لا يغفره الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

الثالث: أنه يخلد صاحبه في النار، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ﴾ [الأعراف: ٤٠].

الرابع: أنه سبب حياة الضنك، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]. وأشد أنواع الإعراض، إعراض المشركين والكافرين.

الخامس: أنه محبط لجميع الأعمال الصالحات إن وجدت، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا

---

(١) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾. [الأنعام: ٨٨]

السادس: وصف أصحابه بأنهم لا يعقلون في مواطن كثيرة من كتاب الله ﷻ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

السابع: وصف أصحابه بأنهم لا يفقهون في عدة آيات، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣]، وقَالَ تعَالَى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾. الحشر: ١٣]

الثامن: وصف أصحابه بأنهم لا يعلمون في عدة آيات، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

ومن هذه حاله فهو أجهل الناس بربه وبنفسه.

وهو المذموم المخذول، قَالَ تعَالَى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾ [الإسراء: ٢٢].

التاسع: أنه سبب للبعد والطرد من رحمة الله، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨]، وقَالَ تعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]،

وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

العاشر: سمى الله أصحاب الشرك بالكاذبين والمكذبين، قَالَ تَعَالَى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

وهو المدحور الملوم، قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادي عشر: سمى الله أصحابه بالمتكبرين، قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

والكِبْر بطر الحق كما صح من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ**

الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» أخرجه مسلم (٩١).

الثاني عشر: سمى الله أصحابه بالمعرضين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»**. أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

الثالث عشر: أخبر الله أنهم غافلون، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

الرابع عشر: شبههم الله بالأنعام بل هم أضلُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ

بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقَالَ تعَالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

الخامس عشر: صاحب الشرك حيران تتقاذفه الشبهات والشهوات، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

السادس عشر: المشركون صمّ بكم عمي، قَالَ اللَّهُ تعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وهذا وصف لهم في آيات كثيرة أنهم صم عن سماع الحق، وبكم عن النطق به، وعمي عن معرفته، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]، وهم لا يعقلونه مع علمهم بكثير من أمور الدنيا، قَالَ اللَّهُ تعَالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

السابع عشر: طبع الله على قلوبهم بسبب إعراضهم، قَالَ اللَّهُ تعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقَالَ تعَالَى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٩٣]، وقَالَ تعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

ووصفت قلوبهم بأقبح الصفات، منها: أنها غلف، قَالَ اللَّهُ تعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقَالَ تعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]،

وأنها مريضة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، وأنها تعمى، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وأنها لا تفقه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وعليها أقفال، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وأنها تشمئز من سماع الحق، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]، إلى غير ذلك.

الثامن عشر: هم الضالُّون والمغضوب عليهم، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، في آيات كثيرة.

التاسع عشر: هم الكافرون، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦]، وقَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، في آيات كثيرات.

العشرون: سماهم الله بالمشركين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، في آيات كثيرات.

الحادي والعشرون: هم شرُّ البرية، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وكم لهم من الأوصاف الذميمة في كتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا ﷺ بياناً لضلالهم وشرِّهم وحالهم في الدنيا والآخرة، فلا أشرُّ منهم ولا أضلُّ ولا أكذبُ وأظلمُ، فقد ضيعوا حق الله ﷻ ونسوه، فهم لما سواه أنسى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]، وهم الأشقياء دنيا وأخرى، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠-١٣]، وهم أصحاب العسر، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١٠-١١].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قَوْلُهُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، بدأ بهذه الآية لبيان الحكمة من خلق الخليقة وإيجادها من العدم، وأن أساس ذلك التعبد لله بالتوحيد، وفي هذا بيان أن من ضيع التوحيد ووقع في الشرك والتنديد أنه قد خالف ما خلق الله العباد لأجله، وهذا ضلالٌ وفسادٌ عريض، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قَوْلُهُ (وَمَا) نافية، فدلت هذه الآية وما بعدها من الآيات على بيان التوحيد وأن الحكمة من خلق المكلفين من الجن والإنس هو: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بما يجب له في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ومعنى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوحدون، وقيل ليطيعون والتوحيد داخل في الطاعة بل هو قطب رحاها.

واللام هنا: للحكمة لا للعاقبة، فلو كانت للعاقبة لكان جميع الناس على توحيد، لكن هذا مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فالحكمة من إرسال الرسل أن يُطاعوا، ومع ذلك ما كل الرسل اتُّبِعوا، بل قد قال النبي ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» متفق عليه(١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقولُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فِي قِرَاءَةِ ابْنِ

---

(١) البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

مَسْعُودٍ رضي الله عنه: ﴿إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، أخرجه أحمد (٣٧٤١).

وقد تكلم العلماء في حد العبادة ومن أحسن ما قيل فيها ما سطره شيخ الإسلام في كتاب "العبودية" (٤٤) فقال: الْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة.

فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة.

وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله.

وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خلق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى [الذاريات: ٥٦]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِهِ [الْأَعْرَاف: ٥٩]: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾... وَجعل ذَلِك لَازِما لرَسُوله إِلَى الْمَوْت كَمَا قَالَ [الْحجر: ٩٩]: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.. إلى أن قال فالدين كله داخل في العبادة. انتهى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الآية.

قَوْلُهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ [النحل: ٣٦] قال الراغب في "**المفردات**" (١٣٢): أصل البَعْث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بَعَثْتُهُ فَانْبَعَثَ، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به. اهـ، والمراد به هنا الإرسال.

قَوْلُهُ ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٣٦] الأمة تأتي على معانٍ:

الأول: على الجماعة كما في هذه الآية.

الثاني: بمعنى: الفترة من الزمن، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾. [يوسف: ٤٥].

الثالث: بمعنى الملة، كما في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾. [الزخرف: ٢٢].

الرابع: بمعنى الإمام كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

قَوْلُهُ ﴿رَسُولًا﴾ أي مرسلا من الله ليبلغ دينه، وشرعه، والرسول هو إنسان حر ذكر عاقل، وليس من الجن رسل وإنما نذر كما نص على ذلك غير واحد من العلماء قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ جُمْلَتِكُمْ. وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ، مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُر.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزاحم: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهَا مُحْتَمِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرَّحْمَنِ: ١٩ -٢٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمِلْحِ لَا مِنَ الْحُلْوِ. وَهَذَا وَاضِحٌ، ولله الحمد. وقد نصر هَذَا الْجَوَابِ بِعَيْنِهِ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٣ -١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: ٢٧]، فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجِنِّ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بِبَعْثَتِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٩]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِنَّ تَبَعٌ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. اهـ. من **"التفسير"** (٣/ ٣٠٥).

وقد تكلم العلماء في التفريق بين النبي والرسول فذهب جمهورهم إلى أن الرسول من أوحيّ إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحيّ إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وقالوا غير ذلك، والصحيح أن هذا الفارق لا يستقيم فالنبي مأمور بالتبليغ، والدعوة والنذارة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الرسول هو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا، والنبي هو الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، ومنها إن الرسول من بعث بشرع جديد، والنبي من بعث لتقرير شرع من قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يوحى إليهم أن يعملوا بما أنزل قبلهم في التوراة. ومنها أن الرسول من بعث بكتاب، والنبي من بعث بغير كتاب.انتهى من "**رحلة الحج إلى بيت الله الحرام**" (١٣٦-١٣٧)، وقد لا يستقيم قوله: أن الرسول من بعث بشرع جديد فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول مع أنه على ما كان من شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾.[غافر: ٣٤].

قَوْلُهُ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦] أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَفْرِدُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ. انتهى من "**تفسير**" الطبري (١٤/ ٢١٦)، وهذا الشاهد من سوق المصنف الآية في هذا الموطن، فالتوحيد هو عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده.

قَوْلُهُ ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أي ابتعدوا عنه واحذروه وهو أبلغ من قوله اتركوه.

قَوْلُهُ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ له عدة معانٍ:

الأول: الساحر، وهذا مروي عن أبي العالية، ومحمد بن سيرين.

الثاني: الكهَّان، وهذا مروي عن سعيد بن جبير، ورفيع، وابن جريج.

الثالث: الأوثان.

الرابع: الشيطان، وهذا مروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وقتادة، والسدي وكلها داخلة في جملة الطاغوت قال ابن جرير في "**تفسيره**" (٤/ ٥٥٨): وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي الطَّاغُوتِ أَنَّهُ

كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ فَعُبِدَ مِنْ دُونِهِ، إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ، وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ، وَإِنسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ، أَوْ شَيْطَانًا، أَوْ وَثنا، أَوْ صَنَمًا، أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ. اهـ.

والطاغوت مشتق من الطغيان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١]، أي: لما خرج عن مساره، وعن مقداره، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله في "**أعلام الموقعين**" (١/ ٤٠): مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. اهـ.

وقال المصنف في "**الأصول الثلاثة**" (٢٤): وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ. انتهى.

وهذه الآية متضمنة لمعنى: لا إله إلا الله: إذ أن أي آية في القرآن دلت على النفي، والإثبات في باب العبادة، فهي متضمنة لمعنى لا إله إلا الله فقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إثبات الألوهية لله ﷻ.

وقوله ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: نفي الألوهية عن غير الله سبحانه وتعالى، ومثله قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

ومثل هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

قَوْلُهُ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: دلت الآية على ما تقدم بيانه من أن الله عَزَّ وَجَلَّ قضى ووصى وحكم وأمر بإفراده بالعبادة، والأمر هنا فرضٌ وحتمٌ.

وعَنْ قَتَادَةَ في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] قَالَ: أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**»، انتهى من "**تفسير**" الطبري (١٤/ ٥٤٢)، وهي قِرَاءَة أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا هو الشاهد من استدلال المصنف بالآية، إذ أنّ أعظم ما أمر الله تعالى به ووصى هو التوحيد.

والقضاء يأتي بمعنيين: القضاء الكوني، والقضاء الشرعي، والمراد به هنا: القضاء الشرعي، والفرق بينهما: أن القضاء الكوني لا بد أن يقع، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، ويكون فيما يحبه الله، وما لا يحبه الله.

والقضاء الشرعي: قد يقع وقد لا يقع، ولا يكون إلا فيما يحبه الله سبحانه وتعالى. والقضاء الشرعي والكوني يجتمعان في حق المؤمن، ويفترقان في حق العاصي والكافر، وهذا التقسيم بعينه يكون في التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية، والإذن الكوني والشرعي، وبالله التوفيق.

قَوْلُهُ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمَا وَتَبَرُّوهُمَا. انتهى من "**تفسير**" الطبري (١٤/ ٥٤٣).

وقد أمر الله ﷻ ورغب في بر الوالدين، وقرنه بحقه في غير ما آية منها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله جل ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، والنبي ﷺ يقول: «**الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ، أَوْ احْفَظْهُ**»[(١)].

والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا، ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ وَأَسْحَقَهُ**» أخرجه أحمد (١٩٠٢٧) عَنْ أُبَيِّ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، وفي "**صحيح ابن حبان**" (٩٠٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: «**آمِينَ آمِينَ آمِينَ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ حِينَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ قُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، قَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ**».

وقَوْلُهُ تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فمن حقهما الدعاء، والرفق، والإحسان، والبر، وقال الله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإذا نهى الله ﷻ عن التأفف من الوالدين، فمن باب أولى ما هو أكثر من ذلك كرفع الصوت عليهما، وسبهما، وشتمهما أو ضربهما وحبسهما. إلى غير ذلك مما يفعله كثير من العصاة، وقد قص رسول الله ﷺ ما حصل لجريج بسبب عدم إجابة أمه مع أنه كان عابدًا لله ﷻ صالحا، فقد جاءت أمه إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٩) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، والترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجة (٣٦٦٣)، وغيرهم.

صومعته فَقَالَتْ: «يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي -يعني: أجيب أمي أو أقبل على صلاتي- فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ -أي: وجوه الزانيات- فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا؛ - لأنه كان طائعًا لله - فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا». أخرجه مسلم (٢٥٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وأمر الله عز وجل بالإحسان إليهما لاسيما في الكبر؛ لأن الوالد إذا كبر، قد يتضجر من أي شيء،فيحتاج إلى صبر واحتساب للأجر والثواب من الملك الوهاب.

وعن سَعِيدُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلُ ... إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرُ

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: «لَا، وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ». أخرجه البخاري في **"الأدب المفرد"** (١١).

وما أحسن قول بعضهم: أنت تحملها تنتظر موتها وكانت تحملك وتنتظر حياتك.

وقطيعة الوالدين تدخل في قطيعة الأرحام، والنبي ﷺ قال: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**» أي: رحم، متفق عليه[1] عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» متفق عليه[2].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**» متفق عليه[3].

ومع عظم حقهما فإنهما لا يطاعان في معصية الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»، متفق عليه[4]، عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

وتضمنت هذه الآيات الوصية بغير ذلك من وصايا الله تعالى يأتي بعضها في كلامنا على آية الحقوق العشرة، وبالله التوفيق.

***

---

(١) البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

(٤) البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦] الآيات.

وتمامها ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾. [النساء: ٣٦].

فدلت هذه الآية على فريضة التوحيد، والتحذير من الشرك، وتسمى هذه الآية آية الحقوق العشرة.

فأول الحقوق: حق الله تعالى في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

والثاني: حق الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾، وقد تقدم الكلام عليه.

والثالث: حق ذوي القربى وهم الأرحام في قوله تعالى: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، قال ابن جرير: وَأَمَرَ أَيْضًا بِذِي الْقُرْبَى، وَهُمْ ذَوُو قَرَابَةِ أَحَدِنَا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ مِمَّنْ قَرُبَتْ مِنْهُ قَرَابَتُهُ بِرَحِمِهِ مِنْ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِحْسَانًا بِصِلَةِ رَحِمِهِ.

الرابع: حق اليتيم في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: فَإِنَّهُمْ جَمْعُ يَتِيمٍ، وَهُوَ الطِّفْلُ الَّذِي قَدْ مَاتَ وَالِدُهُ وَهَلَكَ، وحقه عظيم حيث أمر الشرع بحسن تربيته، وحرم أخذ ماله، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وفي الحديث: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا» أخرجه البخاري (٥٣٠٤) من حديث سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ رضي الله عنه.

والخامس: حق المساكين والفقراء في إعطائهم من الزكاة، والإحسان إليهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، وَهُوَ جَمْعُ مِسْكِينٍ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ رَكِبَهُ ذُلُّ الْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ، وقد بين الله أن لهم حق في الصدقات فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية.

والمسكين هو: الذي لا يجد ما يكفيه، **والفقير** هو: المعدم، ومع ذلك معناهما متقارب، ويدل أحدهما على الآخر عند الافتراق.

والسادس: حق الجار القريب في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي الْجَارِ ذِي الْقَرَابَةِ وَالرَّحِمِ مِنْكَ.

والسابع: حق الجار البعيد في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] - قال بعضهم معنى ذلك: والجار البعيد الذي -لَا قَرَابَةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الْجَارُ الْمُشْرِكُ، قَالَ أبو جعفر: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى الْجُنُبِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْغَرِيبُ الْبَعِيدُ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ مُشْرِكًا، يَهُودِيًّا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًّا؛ لِمَا بَيَّنَّا قَبْلُ أَنَّ الْجَارَ ذِي الْقُرْبَى: هُوَ الْجَارُ ذُو الْقَرَابَةِ وَالرَّحِمِ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْجَارُ ذُو الْجَنَابَةِ الْجَارَ الْبَعِيدِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ وَصِيَّةً بِجَمِيعِ أَصْنَافِ الْجِيرَانِ، قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ.

والثامن: حق الصاحب بالجنب في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، قال أبو جعفر الطبري: اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنِيِّ بِذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ رَفِيقُ الرَّجُلِ فِي سَفَرِهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ امْرَأَةُ الرَّجُلِ الَّتِي تَكُونُ مَعَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الَّذِي يَلْزَمُكَ وَيَصْحَبُكَ رَجَاءَ نَفْعِكَ. وَقَدْ يَدْخُلُ فِي

هَذَا الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْمُنْقَطِعُ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي يُلَازِمُهُ رَجَاءَ نَفْعِهِ، لِأَنَّ كُلَّهُمْ بِجَنْبِ الَّذِي هُوَ مَعَهُ وَقَرِيبٌ مِنْهُ، وَقَدْ أَوْصَى اللَّهُ تَعَالَى بِجَمِيعِهِمْ لِوُجُوبِ حَقِّ الصَّاحِبِ عَلَى الْمَصْحُوبِ.

والتاسع: حق ابن السبيل في قوله تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، واخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْنُ السَّبِيلِ: هُوَ الْمُسَافِرُ الَّذِي يَجْتَازُ مَارًّا...، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الضَّيْفُ. انتهى مختصرًا مع زيادات من "**تفسير الطبري**" (٧/ ٥).

والعاشر: حق الموالي والعبيد في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، أي الذين ملكتموهم من أرقائكم. فهذه آية الحقوق العشرة وكم في السنة من الأحاديث المروية في بيان هذه الحقوق التي وصى الله تعالى بها في كتابه العظيم.

وأعظم هذه الحقوق التوحيد وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، متضمنة لمعنى: لا إله إلا الله، وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم فيدخل فيها النهي عن الشرك الأكبر والأصغر.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[الأنعام: ١٥١-١٥٣].

دلت هذه الآيات على أن أعظم المحرمات الشرك بالله، ومفهومها أن أعظم الواجبات توحيد الله عز وجل وإفراده بما يجب له فبضدها تتبين الأشياء، قال عيسى عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

فالشرك بالله حرام، وهو من أعظم الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والحرام الممنوع وهو يتفاوت منه ما يدخل تحت المشيئة، وقد يغفره الله عز وجل، ومنه ما لا يدخل تحت المشيئة كالشرك بالله سبحانه وتعالى.

ويأمر الله نبيه محمدًا ﷺ، بقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ أي: قل يا محمد لمن تدعوهم هلموا.

وقوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أخبركم وأعلمكم بما حرم ربكم ﷻ عليكم.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ أي لا تجعلوا له شريكا؛ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، ولا جنيًا ولا شمسًا، ولا قمرًا قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، فلا يجوز أن يُشرك مع الله ﷻ غيره، فالعبادة حقه كما سيأتي معنا، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي تدل على العموم، فلا يُشرك به في الدعاء، والنذر، والخوف، والتوكل، و الرجاء، ولا في غيرها من العبادات.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، تقدم الكلام عليه: وفي "**الصحيحين**"[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**»، وفي بعض الروايات: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ: «**أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**».

وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾: أي ومما حرم عليكم أن لا تقتلوا أبنائكم، وهذا كان يصنعه أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] وكانوا يقتلون أولادهم خشية

(١) البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

الإملاق وهو الفقر، والقلة، وكانوا يقتلون البنات خشية العار.

وكان من حالهم أنهم يبغضون الإناث قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وقتل الأبناء ذنب عظيم ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه في "**الصحيحين**"(١): أن النبي ﷺ سُئِلَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**...» الحديث، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

وقوله ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: ضمير الجمع للتعظيم أي: إنّ الله تعالى يرزق الآباء والأبناء فعلام الخوف، إذ أنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وهنا لطيفة في تقديم رزق الآباء في آية الأنعام، وعكسها في آية الإسراء، وذلك لأن التقدير في هذه الآية من فقر وقلة تلحق الآباء فقال: ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وهناك زيدت الخشية التي تتعلق بالمستقبل فالتقدير خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإياكم، وما من أحد إلا وقد كتب رزقه، وأجله، وحاله من حيث الشقاوة والسعادة، ففي "**الصحيحين**" عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**» متفق عليه(٢).

---

(١) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

وقَوْلُهُ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: الفواحش: كل ما فحش قولًا أو فعلًا، وهذا نهي تحريم عن غشيان الفواحش، سواء فواحش الزنى، أو اللواط، أو السحاق، أو العادة السرية، فكل الفواحش محرمة ومنها الغيبة، والنميمة، وكل ما هو مستقبح شرعا حرمه الله وحرمه رسوله ﷺ.

وقَوْلُهُ ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾: ما ظهر منها للناس وما بطن، مما يطَّلع عليه الله سبحانه وتعالى من السر ونحوه، فالإنسان ينبغي أن يزكي نفسه ظاهرًا وباطنًا.

وقَوْلُهُ ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾: أي ولا تسفكوا المعصوم من الدماء، والقتل: هو إزهاق النفس بآلة

وقد جاءت آيات كثيرة في النهي عن قتل النفس المحرمة منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ [النساء: ٢٩].

والنفس التي حرم الله قتلها: . هي نفس المؤمن، ثم المستأمن، والذمي، وقد ألفت كتابًا -بحمد الله ﷻ- بعنوان "**أحكام قتل النفس المعصومة**"، وخلصنا بأن الذين يجوز قتلهم مجموعة من الأصناف:

الأول: القاتل، **والثاني**: المرتد، **والثالث**: الزاني المحصن: لقول النبي ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»، متفق

عليه[١] عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

والمرتد يقتل، سواء كان المرتد رجلًا أو امرأة، وذهب أبو حنيفة وجمع من أهل العلم: إلى أن المرأة لا تقتل، والصحيح أنها تقتل لحديث النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» أخرجه البخاري (٣٠١٧) عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فهو دال على العموم.

الرابع: اللوطي: لإجماع الصحابة على قتل اللوطي، وإن اختلفوا في كيفية قتله؟ فذهب بعضهم إلى أنه يحرق بالنار، وذهب بعضهم إلى أنه يرجم بالحجارة، وذهب بعضهم إلى أنه يرفع من شاهق كما فعل الله عز وجل بقوم لوط، والصحيح أن التحريق بالنار لا يجوز لحديث حَمْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَّرَهُ عَلَى سَرِيَّةٍ، فَقَالَ: «**إِنْ أَخَذْتُمْ فُلَانًا فَأَحْرِقُوهُ بِالنَّارِ**»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ نَادَانِي، فَقَالَ: «**إِنْ أَخَذْتُمُوهُ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ، إِلَّا رَبُّ النَّارِ**» أخرجه أحمد (١٦٠٣٤).

الخامس: جاسوس الكافرين على المسلمين، يجوز قتله تعزيرًا؛ فلما قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «**دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ**» أي: حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، فَقَالَ النبي ﷺ: «**مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**»، متفق عليه[٢].

وإنما ترك النبي ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما علمه منه، وإلا فالأصل أنه يجوز لولي أمر المسلمين أن يقتل جاسوس الكافرين على المسلمين، سواء كان الجاسوس كافرًا أو مسلمًا، سواء كان الجاسوس امرأة أو رجلًا.

---

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

السادس: من فرّق جماعة المسلمين: فعَنْ عَرْفَجَةَ رضي الله عنه: قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ**». أخرجه مسلم (١٨٥٢).

السابع: ما جاء أيضًا في صحيح الإمام مسلم (١٨٥٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا**».

الثامن: الساحر حده القتل وقد ثبت عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ قتل السحرة، فإن حفصة رضي الله عنها قتلت جارية سحرتها، وصح عن عمر رضي الله عنه كتب إلى الأمراء: «**أَنْ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**»، رواه أحمد (١٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٣٤) بدون قوله: «وَسَاحِرَةٍ»، وأخرجه عبد الرزاق في "**المصنف**" (باب قتل الساحر) (٢٨٩٨٢)، وصح عن جندب القسري رضي الله عنه أنه قتل ساحرًا، وقرأ قول الله تعالى: ﴿**أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣] أخرجه الدارقطني (٣٢٠٥)، وسيأتي في باب السحر بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

التاسع: المحاربون، وهم قوم يمتنعون عن الشرائع، كالأذان، والزكاة، ويقطعون السبيل، فهؤلاء يقاتلون حتى يتوبوا إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ [المائدة: ٣٣] الآية.

العاشر: مستحل الحرام، لحديث معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فِي الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ**». أخرجه الترمذي (١٤٤٤).

وقد جاء في قتل المؤمن وعيد عظيم قال الله عز وجل: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣].

مسألة: هل للقاتل توبة؟

الجواب: الصحيح: أن له توبة لعموم أدلة الأمر بالتوبة من الكفر، فما دونه، وأما ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن آية النساء لم ينسخها شيء، فقول مرجوح، وقد أفتى بغيره ففي «**الأدب المفرد للبخاري**» (٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: تُبْ إِلَى اللَّهِ عز وجل، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ. فَذَهَبْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ عز وجل مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ**».

وإقامة الحد تسقط به تبعات الذنب في الآخرة على الصحيح لما في «**الصحيحين**»[1] عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ -وَأَكْثَرُ لَفْظِ سُفْيَانَ: قَرَأَ الآيَةَ- فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»، وفي حديث عَلِيٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ**» رواه الترمذي (٢٦٢٦)، والحديث في «**الصحيح المسند**» (٩٦٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

وقولُهُ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، إشارة إلى ما تقدم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] العقل هنا: حسن التصرف.

وقولُهُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:

---

(١) البخاري (٤٨٩٤)، ومسلم (١٧٠٩).

١٥٢]، فيها بيان لحرمة أكل مال اليتيم، وتعاطيه بجميع أنواع المعاطاة، فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ تحرزًا مما هو أشد منه، وهو الأكل والإتلاف.

وقوله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي هي أحسن تنميته بالتجارة ونحوها وأخرج الطبري (٣/ ٦٩٩): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وَ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ الشَّيْءُ مِنْ طَعَامِهِ، فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ».

وقال الربيع بن أنس رحمه الله: فَذَكَرَ لَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ أُنْزِلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فَكَبُرَتْ عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا لَا يُخَالِطُونَهُمْ فِي طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ فَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يَقُولُ: مُخَالَطَتُهُمْ فِي رُكُوبِ الدَّابَّةِ، وَشُرْبِ اللَّبَنِ، وَخِدْمَةِ الْخَادِمِ. يَقُولُ لِلْوَلِيِّ الَّذِي يَلِي أَمْرَهُمْ: فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَبَ الدَّابَّةَ، أَوْ يَشْرَبَ اللَّبَنَ، أَوْ يَخْدُمَهُ الْخَادِمُ.اهـ. وأخرجه بنحوه عن قتادة.

وقوله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ الْأَشُدَّ جَمْعُ شَدٍّ وهو القوة وبلوغ قوة شبابه عقلًا ورشدًا، ولا يكون إلا بعد البلوغ، لما أخرج أبو داود (٢٨٧٣) عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «**لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ**».

فإذا بلغ أشده دفع إليه ماله قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٥].

وأكل مال اليتيم من كبائر الذنوب، كما ثبت في "**الصحيحين**"(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**».

وقوله ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، الوفاء بلوغ التمام، وفيه وجوب العدل في كل شيء ولاسيما: الكيل والميزان، وخصا بالذكر لكثرة الخيانة فيهما، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ١-٢]، وقال النبي ﷺ: «**إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا**»(٢)، وقد أهلك الله عز وجل قوم شعيب بسبب تطفيفهم المكيال والميزان مع ما هم فيه من الكفر قال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢] يَقُولُ: لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا مِنْ إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ إِلَّا مَا يَسَعُهَا، وهكذا في جميع أمور الدين، وهذا من

---

(١) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما والحديث في «الصحيح المسند»(٢٣٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله .

رحمة الله ﷻ، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فهي محمولة على الاستطاعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، أخرجاه[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

وقولُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وذلك في الشهادات، وغيرها.

وفيها وجوب العدل في الأقوال كما يجب العدل في الأفعال، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وفي "**الصحيحين**"[2] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**»، وفي "**الصحيحين**"[3] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قال النبي ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ**» الحديث. إلى غير ذلك من الأدلة في وجوب العدل.

قَوْلُهُ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ خص القريب مع وجوب العدل مع غيره، لأن القريب قد تقع معه المداهنة، والمحاباة، فنهى الله ﷻ عن مداهنة القريب، بل يقول الإنسان العدل، ويفعله مع القريب وغيره،

---

(١) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).
(٣) البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١).

وفي "صحيح مسلم" (١٦٨٨) عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قالت: قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

قَوْلُهُ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] عهد الله شرعه، وهو ما عهد به إلى عباده من الأوامر والنواهي، ومثلها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، والمعنى أوفوا بما أمركم الله ﷻ، وأخذ عليكم العهد والميثاق أن تقوموا به، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ومنه: إقامة الصلاة: ففي الحديث «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»، أخرجه الترمذي (٢٦٢١) عَنْ بُرَيْدَةَ ﵁، ومنها: حفظ الفروج، وصلة الأرحام، وغير ذلك.

قَوْلُهُ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما تقدم.

قَوْلُهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] أي: تتذكرون، وتقومون بما أمر الله به، وتنزجرون عما نهى الله عنه.

قَوْلُهُ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إشارة إلى ما تقدم من الأوامر والنواهي، ففعل المأمور وترك المحظور، هو صراط الله المستقيم، والموصل إليه ﷻ وهو الإسلام، كما في حديث النواس بن سمعان ﵁ عند أحمد (١٧٦٣٤) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا

تَفْتَحْـهُ، فَإِنَّـكَ إِنْ تَفْتَحْـهُ تَلِجْـهُ، وَالصِّـرَاطُ الْإِسْـلَامُ، وَالسُّـورَانِ: حُـدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِـكَ الـدَّاعِي عَلَـى رَأْسِ الصِّـرَاطِ: كِتَـابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْـلِمٍ» وأضـافه الله تعـالى إلى نفسه بيانًا لفضله، وحثًـا عليـه، وصـراط الله واحـد، قـال تعـالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وينقسم الصراط إلى قسمين: صراط حسي، وهو الصراط الممدود عـلى مـتن جنهم، وصراط معنوي وهو الإسلام، فمن استقام على الصـراط المعنـوي جـاز الصراط الحسي، ومن اعوج عن الصراط المعنوي كان اعوجاجه عـلى الصـراط الحسي بقدر اعوجاجه عن الإسلام.

فالكفار، لا يصعدون على الصراط، بـل يتقـادعون في النـار تقـادع الفـراش، قال الله ﷻ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٦].

بينما المنافقون لما كان ظاهرهم الإسلام، وباطنهم الكفـر، يصـعدون عـلى الصراط، ثم ينطمس نورهم ويرجعون القهقرى فيتقادعون في النار، قـال تعـالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وأما أهل الإسلام فإنهم يحوزونه ففي الحديث: «...فَيَـأْتُونَ مُحَمَّـدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَـةُ وَالـرَّحِمُ، فَتَقُومَـانِ جَنَبَتَـيِ الصِّـرَاطِ يَمِينًـا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَـرِّ الْبَـرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُـمَّ كَمَـرِّ الـرِّيحِ، ثُـمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّـرَاطِ يَقُـولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْـذِ مَـنِ اُمِـرَتْ بِـهِ،

فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» أخرجه مسلم(١٩٥) عن أَبِي هُرَيْرَةَ وحذيفة رضي الله عنهما، وهو بمعناه عن أبي سعيد رضي الله عنه في "**الصحيحين**"[(١)].

قَوْلُهُ ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، يَقُولُ: فخذوا به، وأعملوا بما دل عليه، وهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. وقال سفيان: وجدنا الأمر كله في الاتباع. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: اتَّبِعُوا وَلاَ تَبْتَدِعُوا، فَقَدْ كُفِيتُم[(٢)]. وقد جعل الله علامة محبته اتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والأدلة على الاتباع كثيرة، ذكرت كثيرًا منها في كتابي: "**فتح الباري على شرح السنة للبربهاري**".

قَوْلُهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، جمع سبيل وهو الطريق، والمراد بها هنا الْبِدَعَ وَالشُّبُهَاتِ أخرجه ابن جرير عن مجاهد[(٣)]، وأفرد تعالى الصراط لأن سبيل الله تعالى واحد؛ وجمع السبل لأن طرق الشياطين كثيرة، ففي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند أحمد (٤٤٣٧) قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا**»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٧٧٠)، وابن بطة في الإبانة» (١٧٤)، والدارمي (٢١١)، وغيرهم.

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٦٧٠).

وقَوْلُهُ : ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي فتشتتكم، وتبعدكم عن سبيل الله تعالى، وهذا هو الواقع شرعا وقدرا فمن ترك الحق سلك الباطل.

وقَوْلُهُ : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أي ملازمة الصراط مما وصاكم به، فإن فعلتموه حصلت لكم التقوى، وسلمتم من سخط الله تعالى، وعقابه.

فتضمنت هذه الآيات حقوقًا عشرة أيضًا.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحمدٍ ﷺ الَّتِي عليها خَاتَمُهُ، فَلْيقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، **إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] **الآية.**

أخرجه ابن أبي حاتم في "**تفسيره**" (٨٠٥٦)، والطبراني في "**الأوسط**" (١١٨٦)، والبيهقي في "**الشعب**" (٧٥٤٠). من طريق دَاوُد الأَوْدِيِّ، عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ الله، وداود هو بن عبد الله ثقة وفي طبقته داود بن يزيد الأودي ضعيف، قال الذهبي في الميزان في ترجمة ابن عبد الله: قال أحمد: شيخ ثقة قديم، وهو غير عم ابن إدريس.

وروى الكوسج عن يحيى: ثقة.

وروى عباس عن يحيى: ليس بشيء، فيحرر هذا، لان هذا في ابن يزيد. انتهى.

قَوْلُهُ (**ابْنُ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، هو عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلي، أسلم في مكة، وفي مسند أحمد (٣٥٩٨) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، هَلْ مِنْ لَبَنٍ؟**» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ، قَالَ: «**فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟**» فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ، فَمَسَحَ ضَرْعَهَا، فَنَزَلَ لَبَنٌ، فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ، فَشَرِبَ، وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: «**اقْلِصْ**» فَقَلَصَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «**يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ**»

وفضائله كثيرة منها ما قال عن نفسه رضي الله عنه: «**وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْ كِتَابِ اللهِ سُورَةٌ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ نَزَلَتْ، وَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي، تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ**»، أخرجه مسلم (٢٤٦٣).

وعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، فَنَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ فَذَكَرْنَا يَوْمًا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَقَدْ ذَكَرْتُمْ رَجُلًا لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ فَبَدَأَ بِهِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**». أخرجه مسلم (٢٤٦٤).

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**» أخرجه أحمد (٣٩٩١)، وفي مسلم أيضًا (٢١٦٩) عن ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذْنُكَ عَلَيَّ أَنْ يُرْفَعَ الْحِجَابُ، وَأَنْ تَسْتَمِعَ سِوَادِي، حَتَّى أَنْهَاكَ**». وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه من المكثرين عن رَسُولِ اللهِ ﷺ وممن كان يُرجع إليه في الفتوى والعلم وأرشد رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى أخذ القرآن منه كما تقدم.

قَوْلُهُ (**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلى وَصِيَّةِ مُحمدٍ ﷺ**). دلّ هذا الأثر على أهمية ما تضمنته هذه الآيات من الوصايا، وكما أنها وصية الله تعالى فهي وصية محمد ﷺ، وما كان هذا حاله فينبغي أن نأخذ به، وإذا كانت وصية الوالد لا يجوز تغييرها قال تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ [البقرة: ١٨١]، فكيف بوصية الله ووصية رسوله ﷺ.

وقَوْلُهُ: (الَّتِي عَليها خَاتَمُهُ) الخاتم بمعنى التوقيع، والرسول الله ﷺ لم يوصِ بشيء مكتوب، لكن هذه الآيات، قد شملت الدين، فكانت كالوصية التي عليها الخاتم.

قَوْلُهُ (فَلْيقْرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآيَةَ). أي مع تدبرها، والعمل بها وهذا هو العلم الممدوح أما القراءة المجردة فقد ذمها الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقراءة الهذ ينكرها السلف ففي "**صحيح مسلم**" (٨٢٢): عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «**هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ**».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ: أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

قَوْلُهُ (مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ، الأنصاري الخزرجي أسلم معاذ وهو ابن ثماني عشرة سنة، وشهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، ثم شهد بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

رُوي له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسون حديثًا.

قال عنه النبي ﷺ: «مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حسن الصوت بالأذان، سمعه عمرو بن ميمون وهو يؤذن، فعاهد الله أن لا يفارقه حتى يموت، فما زال يلازمه حتى مات، وثبت عند الترمذي (٣٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٠٤)، وغيرهما: عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمِيرَةَ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ الْمَوْتُ قِيلَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَوْصِنَا. قَالَ: أَجْلِسُونِي. فَقَالَ: إِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا مَنِ ابْتَغَاهُمَا وَجَدَهُمَا، يَقُولُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَالْتَمِسُوا الْعِلْمَ عِنْدَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٩)، وله طرق بمجموعها حسن.

أَرْبَعَةِ رَهْطٍ: عِنْدَ عُوَيْمِرٍ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَعِنْدَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا، ثُمَّ أَسْلَمَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ عَاشِرُ عَشَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ**».

ولما فارق معاذ رضي الله عنه النبيَّ ﷺ إلى اليمن، قال له رسول الله ﷺ: يا معاذ: لعلك أن تعود ولا تراني، فبكى معاذ، فقال ﷺ: «**لَا تَبْكِ يَا مُعَاذُ لَلْبُكَاءُ، أَوْ إِنَّ الْبُكَاءَ، مِنَ الشَّيْطَانِ**» أخرجه أحمد (٢٢٠٥٤).

وكان عابدًا لله محتسبا، ففي "**صحيح البخاري**" (٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣) قَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَى رضي الله عنهما: كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى رَاحِلَتِي، وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي، وَضَرَبَ فُسْطَاطًا، فَجَعَلَا يَتَزَاوَرَانِ، فَزَارَ مُعَاذٌ أَبَا مُوسَى فَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: يَهُودِيٌّ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ، فَقَالَ مُعَاذٌ: لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ. وفي رواية: «**لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللهِ وَرَسُولِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ**».

قَوْلُهُ (كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِي ﷺ) أي: راكبًا خلفه على الدابة.

وفيه جواز إرداف المفضول خلف الفاضل.

والنبي ﷺ قد أردف عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وأمامه الحسن والحسين رضي الله عنهما، وليس في ذلك محظور شرعي، ولا خارم للمروءة، بل هو من التواضع.

وفيه: تواضع النبي ﷺ، ورحمته ﷺ بأصحابه.

قَوْلُهُ (عَلَى حِمَارٍ) في بعض الروايات: (يُقَالُ لَه: عُفَير) وفيه: جواز تسمية الدواب.

قَوْلُهُ (فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ)، فيه مناداة الطالب عند السؤال حتى ينتبه، والتعليم بصيغة السؤال.

قال: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟) أي: ما أوجبه الله ﷻ عليهم.

قَوْلُهُ (ومَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟) أي: ما أوجب على نفسه تفضلًا أن يعاملهم به إن أدوا حقه، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قَوْلُهُ (قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) عطف ورسوله يقال في حياة النبي ﷺ، أما بعد موته فيقال: الله أعلم، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في "**صحيح البخاري**" (٦٥٨٥): «**إِنَّكَ لاَ عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ القَهْقَرَى**»، وفي "**الصحيحين**"(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه ما: «**فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**، فَأَقُولُ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] قَالَ: «**فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ**»

قَوْلُهُ (قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ) وفي حديث أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه عند البخاري (١٩٦٨) في قصة سَلْمَانَ مع أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنهما، وفيه: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا**...». وحق الله تعالى على العباد معناه ما يستحقه عليهم بأن يوحدوه، ويفردوه بما يجب له، في ربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته وهذا الشاهد من الحديث.

وقَوْلُهُ (وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) نكرة في سياق النفي فهي عامة في الشرك الأصغر، والأكبر، قال الحافظ ابن حجر في "**الفتح**" (١١/ ٣٣٩): الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ عَمَلُ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَعَطَفَ عَلَيْهَا عَدَمَ الشِّرْكِ لِأَنَّهُ تَمَامُ

---

(١) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

التَّوْحِيدِ وَالْحِكْمَةُ فِي عَطْفِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ أَنَّ بَعْضَ الْكَفَرَةِ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً أُخْرَى فَاشْتَرَطَ نَفْيَ ذَلِكَ. انتهى.

قَوْلُهُ (أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) فيه معنى (لا إله إلا الله).

قَوْلُهُ (وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا): وهذا حق أوجبه الله على نفسه تفضلًا، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ**». رواه مسلم (٢٨١٦).

وقد يشكل على بعضهم الجمع بين هذا الحديث، وما جاء من الوعيد على المعاصي، والجواب أن يقال: لا يُعذب عذاب خلود، أو أنه فيمن جاء محققًا للتوحيد، فإن ذلك من تكفير الذنوب على ما يأتي، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» متفق عليه[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما كان من حقوق بني آدم فلعل الله عز وجل أن يتجاوز عنه، ويرضيهم بما شاء.

قَوْلُهُ (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ؟) فيه المسارعة إلى تبليغ العلم والحرص على ذلك، واستئذان العالم في نقل العلم عنه، والبشارة هي الإخبار بالخير غالبًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقد تطلق في الإخبار بالشر، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الإنشقاق: ٢٤].

قَوْلُهُ (قَالَ: لاَ تُبَشِّرْهُمْ) فيه: كتمان بعض العلم خشية أن يفتن الناس، وقد بوب البخاري رحمه الله على هذا (باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا).

---

(١) البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

قَوْلُهُ (فَيَتَّكِلُوا) أي: فيتركوا العمل؛ اعتمادًا على ما يظهر من الاكتفاء بها، وفي رواية قال: «**فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا**» أي أن معاذًا حدث بهذا الحديث في سياقة الموت خشية الإثم من كتم العلم وقد صح عند أحمد (٨٥٣٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللهُ عز وجل بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ فِي "الصَّحِيحَيْنِ") أي البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) ويسمى هذا بالمتفق عليه، ومعناه: ما اتفق عليه الإمامان: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي، صاحب كتاب الصحيح، الذي كتابه أصح كتاب مصنف، وتلقته الأمة بالقبول إلا أحرفا يسيرة توفي رحمه الله في خرتنك قرية من قرى سمرقند ليلة السبت بعد صلاة العشاء، وكانت ليلة عيد الفطر، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومائتين. ومدة عمره اثنتان وستون سنة إلا ثلاثة عشر يوما رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في كتابه "**البداية والنهاية**" (١٤/ ٥٣٣ طبعة هجر): وَقَدْ تَرَكَ رحمه الله بَعْدَهُ عِلْمًا نَافِعًا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَمَلُهُ فِيهِ لَمْ يَنْقَطِعْ بَلْ هُوَ مَوْصُولٌ بِمَا أَسْدَاهُ مِنَ الصَّالِحَاتِ فِي الْحَيَاةِ؛ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ، مِنْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**» الْحَدِيثَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. اهـ.

ثم صحيح الإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري رحمه الله تعالى (المتوفى: ٢٦١هـ)، وكتابه الصحيح في المرتبة الثانية بعد كتاب البخاري، وإن كان بعض علماء المغرب قد فضّل صحيح مسلم، لكن هذا ليس بصحيح، قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: لَوْلَا الْبُخَارِيُّ مَا رَاحَ مُسْلِمٌ وَلَا جَاءَ[1].

وفقه البخاري في تراجمه، حيث حلَّى كتابه بآيات، وآثار، وأحاديث كالشرح

(١) «فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي» (١/ ٤٤).

لما بوب عليه، وميزة كتاب مسلم أنه لم يذكر بعد المقدمة إلا الحديث السرد، ويسوق الحديث في موطن واحد بطوله بينما البخاري يُقطِّع الحديث كثيرًا و يكرره إما لفائدة فقهية أو إسنادية، وقد قال الصنعاني[1] في ذلك:

تَشَاجَرَ قَوْمٌ فِي الْبُخَارِيّ ومُسْلِمٍ ... لَدَيَّ وَقَالُوا أَيُّ ذَيْنِ تُقَدِّمُ
فَقُلْت لَقَدْ فَاقَ الْبُخَارِيُّ صِحَّةً ... كَمَا فَاقَ فِي حُسْنِ الصِّنَاعَةِ مُسْلِمُ

***

(١) «سبل السلام» (١/ ١٦).

١- بَابُ فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

أي: هذا باب فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب، و(ما) هنا موصولة بمعنى: الذي، فيكون المعنى: فضل التوحيد والذي يكفره من الذنوب، وأتى رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب بعد أن بين التوحيد؛ وعرفه وجلاه أنه حق الله على العبيد، ومن أجله خلق الله المكلفين، وأن الرسل أرسلت به، وهو قضاء الله وأمره وشرعه، وذكر رَحِمَهُ اللهُ فضل التوحيد لأن العبد إذا علم فضائل الأعمال حرص عليها أكثر، ولبيان فضل الله تعالى وكرمه على عباده، وفيه بيان لمنزلة التوحيد العلية حتى استحق أهله هذا الوعد العظيم من الرب الكريم.

وزعم بعضهم أن الفضائل إنما تكون في المستحبات، وهذا ليس بصحيح، بل هي لاحقة بالواجبات وهي أفضل الأعمال، أجرا ومنزلة، وهي محبوبة عند الله تعالى ففي البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ اللَّهَ قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ..»** الحديث، فالتوحيد أعظم حسنة على الإطلاق كما في حديث البطاقة الذي رواه الترمذي (٢٦٣٩) وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»، فلا يثقل مع التوحيد شيء، لاسيما إذا كان العبد محققًا له عاملًا به يكفر الذنوب والمعاصي ففي حديث أبي سعيد وأبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، أخرجه مسلم (٢٧).

وفي فضائل كلمة (لا إله إلا الله) أحاديث كثيرة، منها: قول النبي ﷺ «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»، أخرجه مسلم (٢٦) عن عثمان رضي الله عنه ، وسيأتي حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أخرجه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣)، وفي صحيح البخاري (٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»، وفي مسلم (٣١) عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا؟ فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ - فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبُو هُرَيْرَةَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ،

فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي، قَالَ: ارْجِعْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ، وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَخَلِّهِمْ**».

ومما يدل على أنّ التوحيد فضله عظيم ويكفر الذنوب حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند مسلم (١٢١): «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**» وأساس الإسلام التوحيد، ويقول الله عز وجل في بيان ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ﴾ أي: إلى الكفر: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: ٣٨]، أي: في هلاكهم ودمارهم، وخزيهم وبوارهم، وقد سقت فضائل التوحيد في الباب الأول، وبالله التوفيق.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَـوْلِ اللَّــهِ تَعَــالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

في هـذا الآيـة بيـان مـن الله عَجَّلَ لمنزلـة التوحيـد العاليـة، ودرجتـه الرفيعـة السامية، فقد ذكرها الله عَجَّلَ ممتنًا بها على عباده بعد بيـان مـا جـرى بـين إبـراهيم وقومه من الحجج القوية.

قَوْلُهُ ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ أي: يخلطوا.

وقَوْلُهُ ﴿بِظُلۡمٍ﴾ هو الشرك، فعـن عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه في البخـاري (٦٩٣٧) ومسلم (١٢٤): قَالَ: لَمَّا نَزَلَـتْ هَـذِهِ الآيَـةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَـالُوا: أَيُّنَـا لَـمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَـالَ لُقْـمَانُ لِابْنِـهِ:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقـمان: ١٣]»، وكلمـة (ظلـم) نكرة جاءت في سياق النفي فيفيد العموم، فيدخل فيه ظلم المـرء لنفسـه وغيـره، والظلم فيما بين المرء وبين الله سبحانه وتعالى وهو الشرك، فبين لهم رسـول الله ﷺ: أن الآية يُراد بها الخصوص، والمراد الظلمُ الأكبرُ الذي هو الشرك بالله عَجَّلَ.

وفي "**الصحيحين**"(١) من حديث عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه ، قـال: سَـأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**».

---

(١) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وحديث أنس رضي الله عنه في "**الصحيحين**"(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكَبَائِرِ، قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: شَهَادَةُ الزُّورِ**».

فالذين آمنوا ووحدوا الله تعالى، ﴿**وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ**﴾ ولم يخالط إيمانهم الشرك بالله عز وجل: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ**﴾ المطلق في الآخرة، ﴿**وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]، في الدنيا.

فالمراد: بالأمن: الأمن المطلق، الكامل، والاهتداء المطلق الكامل، فصاحب الظلم المطلق كافر بالله، وصاحب مطلق الظلم عنده إيمان وظلم، وصاحب مطلق الإيمان عنده إيمان ومعاصٍ، فالشيء المطلق يدل على الكمال، ومطلق الشيء يدل على المخالطة.

---

(١) البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»، أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصّامتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) هو أبو الوليد عبادة بن أبي عبادة الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، وهو أحد النقباء، شهد بدرا، وشهد جميع المواطن، ومات في خلافة معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في بيت المقدس، وقيل: بالرملة، سنة أربع وثلاثين، وهو ابن ثنتين وسبعين سنة، وقيل: توفى سنة خمس وأربعين، والأول أصح وأشهر.

رُوِيَّ له عن رسول الله ﷺ مائة وأحد وثمانون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على ستة، وانفرد البخاري بحديثين. انتهى مختصرًا من "**تهذيب الأسماء واللغات**" (١/ ٢٥٦).

فقَوْلُهُ (مَنْ شَهِدَ) الشهادة تطلق على معانٍ، فقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، يعني: اطلعوا، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] أي: حكم، وقوله الله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: مقرين، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: من حضر. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: شَهِدَ عِنْدِي رِجَالٌ مَرْضِيُّونَ وَأَرْضَاهُمْ عِنْدِي عُمَرُ[1]، أي: أخبر ولا بد فيها من الإخبار، فإن كان

(١) أخرجه البخاري (٥٨١).

الإخبار مطابقًا للواقع فهي شهادة حق، وإن كان الإخبار مخالفًا للواقع فهي شهادة باطلة.

قَوْلُهُ (أَنْ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ): أي أعتقد معنى هذه الكلمة وقالها بلسانه، وهذه كلمة الإخلاص، ومن إخلاصها: أن العبد يستطيع أن يتكلم بها من دون أن يحرك شفتيه، ومن إخلاصها أنها أعظم حسنة توجب للعبد الجنة، ومن إخلاصها: أنها أخلصت العبادة لله، فمعناها: لا معبود بحق إلا الله، خلافًا لمن فسرها بغير هذا التفسير.

وقد فسرها بعضهم بقوله: (لا موجود إلا الله!) وهذا تفسير الحلولية، وهو من أقبح التفاسير لهذه الكلمة. ومعناه على مقتضى تفسيرهم كل ما في الكون من إنسان وجان وشياطين وحجارة وقردة وخنازير، وخير وشر هو الله، تعالى الله عن قولهم، وبنوا هذا التفسير على أصلهم الفاسد القائم على وحدة الوجود، وأنّ ما في الكون إلا الله حتى قال بعضهم:

أنا أنت بلا شكٍ فسبحانك سبحاني
وتوحيدك توحيدى وعصيانك عصياني

وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على أنهم أكفر من اليهود والنصارى.

ومنهم من فسرها: بأنه لا معبود إلا الله، وهذا تفسير باطل يخالفه الواقع، فإن من المعبودات: هبل واللات والعزى، وبوذى، والنار والفرج، والشمس والقمر... وغير ذلك.

ومنهم من فسرها: لا خالق إلا الله، ولا صانع إلا الله، ولا رازق إلا الله، فأبو جهل أفقه منه بمعنى: لا إله إلا الله، كيف هذا؟ أبو جهل لما قال لهم رسول الله ﷺ: «**قولوا لا إله إلا الله**» قال هو ومن معه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، علموا أن قول: (لا إله إلا الله) يقتضي: أن الإله

المعبود بحق واحد، وهو الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

وجُمع بين النفي والإثبات؛ لأن النفي عدم، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة، فجيء بالنفي لمنع المشاركة، وجيء بالإثبات لإثبات الألوهية الحقة لله سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ (وَحْدَهُ) توكيد لإثبات الألوهية لله سبحانه.

وقَوْلُهُ: (لَا شَرِيكَ لَهُ) توكيد لنفي الألوهية عمن سواه.

قَوْلُهُ (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ) محمد: أحد أسماء النبي ﷺ، وقد تقدم ذكر أسمائه ﷺ، والجمع بين العبودية والرسالة ردّ على طائفتين وهم الغلاة والجفاة، فإن الغلاة من الصوفية رفعوا النبي ﷺ إلى مرتبة الألوهية، حتى قال البوصيري في قصيدته البردة وفيها من الشركيات:

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ

يعني: من علم النبي ﷺ علم اللوح والقلم! ومن للتبعيض، فغلوا في النبي ﷺ، وأتو بالزور، والفجور، وأعظم الزور: أن يوضع مخلوق في مرتبة الإله الحق، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، ومنه الشرك بالله وهو أعظمه، ويدخل في الزور المعاصي جميعًا، فمعاوية رضي الله عنه ، لما رأى قصة امرأة، وهو ما يوصل به الشعر، قال: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الزُّورِ، قَالَ: وَجَاءَ رَجُلٌ بِعَصًا عَلَى رَأْسِهَا خِرْقَةٌ، فَقَالَ: أَلَا وَهَذَا الزُّورُ**» أخرجه مسلم (٢١٢٧)، وفي رواية في "**الصحيحين**" عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: قَدِمَ مُعَاوِيَةُ

المَدِينَةَ، آخِرَ قَدْمَةٍ قَدِمَهَا، فَخَطَبَنَا فَأَخْرَجَ كُبَّةً مِنْ شَعَرٍ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَرَى أَحَدًا يَفْعَلُ هَذَا غَيْرَ اليَهُودِ «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَّاهُ الزُّورَ». يَعْنِي الوَاصِلَةَ فِي الشَّعَرِ[1].

ومن الزور قول المناوي:

يَا مُحَمَّدْ يَا حَبِيْبِي ... يَامُحَمَّدْ كُنْ طَبِيبِي
وَأَجِرْنِي مِنْ لَهِيبِي ... إِنّ أَوْزَارِي ثِقَالَ
كُنْ غَدًا يَوْمَ القِصَاصِ ... يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي
سَاعِيًّا لِي فِي خَلَاصِي ... مِنْ حِسَابٍ مَعْ سُؤَال
فَالمَنَاوِي فِي بَلِيَّة ... وِسَجَايَاكَ عَلِيَّة
كُنْ لَنَا خَيْرَ البَرِيَّة ... مُدْرِكًا يَا زَيْنَ وَال

فيسأل النبي ﷺ أن يجيره من النار، وأن يتجاوز عن ذنوبه وسيئاته، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقد وصف الله محمدًا ﷺ بالعبودية في أشرف المواطن، وهي موطن الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وموطن المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وموطن الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وموطن الإيحاء: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقد خيره ربه بين أن يكون عبدًا رسولًا، أو ملكًا رسولا، فقال له جبريل: تواضع لربك، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا.

ولما سمع رسول الله ﷺ المرأة، تقول: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ» فَقَالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣٨)، ومسلم (٢١٢٧)، عن مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه.

النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ» أخرجه البخاري (٤٠٠١) عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها.

قَوْلُهُ (وَرَسُولُهُ) تقدم معنى الرسول، وفي هذا رد على الجفاة من أمثال الفلاسفة الذين يزعمون أن محمدًا ﷺ رجل ذكي، استطاع أن يخيل للناس أشياء ويجمعهم عليها، وقد ألّف بعض الكفار كتابًا في عظماء الدنيا، فوضع محمدًا ﷺ في أول الكتاب؛ لاعتقاده أنه رجل عظيم ذكي، استطاع أن يجمع الناس حوله، واستطاع أن يُكون قوة عظيمة من البدو، وقطاع الطرق - زعموا - وقتلة الأنفس، وأكلة الجلود.. إلى غير ذلك.

وقالوا: لما كان الناس يحبون النساء، صور لهم أنهم إذا صبروا في هذه الحياة أن لهم نساء جميلات.

ولما كانوا يحبون الخمر، صور لهم أن هناك خمر أحسن من خمرهم، ولذة أحسن من لذات الدنيا، ولما كانوا يعيشون في الخيام ذكر لهم أن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، فهذا كله عندهم تخيلات، فكان في قوله (وَرَسُولُهُ) رد عليهم، وأنه رسول الله، ولفظة (رسول) تدل على وجود مُرْسِلٍ، وهو الله سبحانه وتعالى، ومحمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين، قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ» متفق عليه[1] وذكر الحديث.

وقد تكلمت عن فضائله وخصائصه في غير ما موطن، والحمد لله.

قَوْلُهُ (وَأَنَّ عِيسَى)، هو ابن مريم عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل خلقه الله تعالى من أم بلا أب قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

(١) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قَوْلُهُ (عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) ردٌ على النصارى الذين غلوا في عيسى وألهوه فأخبر الله أنه عبد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

قَوْلُهُ (وَرَسُولُهُ) رد على اليهود الذين اتهموه بأنه ولد زنا، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قَوْلُهُ (وَكلِمتُه) أي: أنه مخلوق بالكلمة لا هو نفس الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وزعمت النصارى أنه عين الكلمة؛ ولذلك ألهوه، وذهبوا إلى إثبات اللاهوت والناسوت والأب والابن وروح القدس إلى غير ذلك.

ومن العجيب أنك لو لقيت نصرانيًا وأردت أن تفحمه وقال لك: عيسى رب، فقل له: من كان رب موسى، وسليمان، وداود وهؤلاء الذين تقدموا عيسى؟ ومتى صار ربًا، وهو في البطن؟ هذا قول منكر قبيح، أن يعتقد أن ربه في بطن امرأة وفي أحشائها بين الدم وفي الظلمة.

وإن قال: لما خرج من البطن، فإن الطفل عندما يخرج من بطن أمه ملطخ بالدماء والقاذورات فيحتاج إلى غسل، ونظافة، فكيف برب هذا حاله؟

وإن قال: صار ربًا لما عمده يوحنا، أي: وضعه في الماء وغطسه، نقول:

أيهما أحق بالربوبية: المُغَطِّس أو المغطَّس؟ سيكون يوحنا أحق بالربوبية من عيسى، ثم أيضًا: كل نصراني رب على زعمهم، لأنهم يعمدون أبناءهم، فصار قولهم من أردأ الأقوال، ولا يمكن أن يجتمع النصارى على قول في عيسى، كما ذكرت ذلك -بحمد الله- نقلًا عن شيخ الإسلام وابن القيم، في كتاب "**الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان**"، فعيسى عليه السلام مخلوق بأمر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

قَوْلُهُ (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ)، وهذه إضافة تشريف، والمضاف إلى الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة معانٍ.

وإضافة الأعيان تنقسم إلى قسمين:

الأول: أعيان تقوم بنفسها، مثل الكعبة، والناقة، والمسجد، ومحمد صلى الله عليه وسلم، فإضافتها إلى الله عز وجل إضافة تشريف، شرف الله محمد صلى الله عليه وسلم حين أضافه إلى نفسه، وهكذا قوله: ناقة الله، وبيت الله، وقد تكون هذه الإضافة إضافة خلق وإيجاد.

الثاني: أعيان تقوم بغيرها: كاليد والوجه ونحوه فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

الثاني من أقسام الإضافات: إضافة المعاني: كالعلم، والكلام، والقوة، القدرة، والوجه، والحب، والسخط، والغضب، ونحوها فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

وقَوْلُهُ (ألقاها إلى مَرْيَمَ) أي أعلمها به، ونزل جبريل عليه السلام، ونفخ فيها، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا
﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا

﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ٢٢]

وعيسى عليه السلام خلق من أنثى من غير ذكر، وآدم عليه السلام خلق من غير ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام خلقت من غير أنثى، وبقية الناس خلقوا من ذكر وأنثى، والله عز وجل على كل شيء قدير.

وقوله (مَرْيَم)، هي ابنت عمران كان من شأنها ما ذكره الله عز وجل في كتابه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥]. وهي صديقة، قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وذهب ابن حزم أنها نبية وهذا قول ضعيف فليس من النساء نبي، وذهب بعضهم إلى أنها زوجة النَّبِيِّ ﷺ في الجنة ولا دليل على ذلك.

وقوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي: من الأرواح التي عنده، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، والروح: تدخل الجسد، وتخرج منه، ويراها الرجل عندما يموت، يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**»(١)، وتوضع في كفن، ويأخذها الملائكة، ولها رائحة، فإضافة الروح إلى الله عز وجل إما أن يكون من إضافة الخلق والإيجاد، أو إضافة التشريف.

والمعتزلة: لا يثبتون لله عز وجل سمعًا، ولا بصرًا، ولا يدًا، ولا قدرةً ولا إرادةً، ولا علمًا، ولا شيء من الصفات، ويجعلون إضافة هذه الصفات إلى الله كإضافة

(١) رواه مسلم (٩٢٠) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها.

بيت الله، وناقة الله، وعبد الله.. وهكذا.

وقولهم ظاهر الفساد على ما هو مبين في موطنه، ويأتي بيان بعضه في باب قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قَوْلُهُ (وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ) المراد بها جنة عدن التي أعدها الله للمؤمنين، فعن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**»[١]، وهي موجودة الآن قال الله ﷻ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وهي في أعلا عليين، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] وعليون في السماء السابعة، ففي مسند أحمد (١٨٥٣٤) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ -في السماء السابعة- وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ**»، ورآها النبي ﷺ كما أخبر بها في ليلة الإسراء وغيرها، وقد قال ﷺ: «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ**»[٢].

قَوْلُهُ (وَالنَّارُ حَقٌّ) على ما تقدم، وأنها موجودة الآن خلافًا للمعتزلة الذين يزعمون أن وجود الجنة والنار الآن عبث، والنار في الأرض السفلى قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، وفي الحديث: «(**اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا**». أخرجه أحمد (١٨٥٣٤) عَنِ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٤٢٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه .

قَوْلُهُ (أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ)، وفي روايـة « **أَدْخَلَـهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**»(١)، قـال النـووي في "**شـرح مسلم**" (١/ ٢٢٧): وهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى إِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ فِي الْجُمْلَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ مَعَاصٍ مِنَ الْكَبَائِرِ فَهُـوَ فِي الْمَشِيئَةِ فَإِنْ عُذِّبَ خُتِمَ لَهُ بِالْجَنَّةِ.اهـ.

وفي الحديث دليل إلى أن أبواب الجنة ثمانية، بينما أبواب النـار سـبعة، قـال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]

قَوْلُـهُ (أَخْرَجَاهُ) أي أخرجـه البخـاري في "**صـحيحه**" بـرقم (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُمَا: فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَـهَ إلا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

قَوْلُهُ (وَلهُمَا) أي: البخاري (٤٢٥، ١١٨٦، ٥٤٠١) ومسلم (٣٣- ٢٦٣).

قَوْلُهُ (عِتْبَانَ) بكسر العين، هو ابن مالك الأنصاري رضي الله عنه، كان قد أنكر بصره، فأرسل إلى رسول الله ﷺ أن يصلي في بيته مكانًا يتخذه مصلى، فجاء النبي ﷺ فصلى ركعتين ثم حبسه عتبان على خزيرة، أي: على نوع من الطعام، فجعل الناس يتذاكرون، فقال النبيّ ﷺ: «**أَيْنَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُم؟**» فقال بعضهم: ذلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورسولَهُ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا تَقُلْ ذلِكَ، ألاَ تَرَاهُ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ الله يَبْتَغي بذَلِكَ وَجهَ الله تَعَالَى**» فَقَالَ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ أمَّا نَحْنُ فَوَاللهِ مَا نَرَى وُدَّهُ وَلاَ حَدِيثَهُ إلاَّ إِلَى المُنَافِقينَ! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**فإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ الله يَبْتَغِي بذَلِكَ وَجْهَ الله**».

وقد اختلف العلماء في شأن مالك فبعضهم قال: هذه تزكية من النبي ﷺ له، وقال بعضهم: ليس فيها تزكية وإنما أخبر رسول الله ﷺ بما ظهر من حاله وأقر ذلك الصحابي لما قال: ما نرى وده وحديثه إلا مع المنافقين.

والذي يظهر أنه صحابي، ومع ذلك في الحديث التحذير من مجالسة أهل الباطل.

وقَوْلُهُ (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَـهَ إلا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ)، قد يُراد به تحريم خلود، وقد يراد به تحريم دخول لمن حقق التوحيد على ما يأتي إن شاء الله.

قال النووي رحمه الله (٢١٩/١): وهذه الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا سَرَدَهَا مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ

فَحَكَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ الله منهم ابن الْمُسَيَّبِ أَنَّ هَـذَا كَـانَ قَبْـلَ نُزُولِ الْفَرَائِضِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ هِيَ مُجْمَلَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ وَمَعْنَـاهُ مَنْ قَالَ الْكَلِمَةَ وَأَدَّى حَقَّهَا وَفَرِيضَتَهَا وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِـكَ لِمَنْ قَالَهَا عِنْـدَ النَّـدَمِ وَالتَّوْبَـةِ وَمَـاتَ عَلَـى ذَلِـكَ وَهَـذَا قَـوْلُ الْبُخَـارِيِّ وَهَـذِهِ التَّأْوِيلَاتُ إِنَّمَا هِيَ إِذَا حُمِلَتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى ظَاهِرِهَا وَأَمَّا إِذَا نَزَلَتْ مَنَازِلَهَا فَـلَا يُشْكِلُ تَأْوِيلُهَا عَلَى مَا بَيَّنَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَنُقَرِّرَ أَوَّلًا أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ بِـأَجْمَعِهِمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَأَهْلِ الْحَـدِيثِ وَالْفُقَهَـاءِ وَالْمُتَكَلِّمِـينَ عَلَـى مَـذْهَبِهِمْ مِـنَ الْأَشْعَرِيِّينَ أَنَّ أَهْلَ الذُّنُوبِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ عَلَـى الْإِيمَـانِ وَتَشَهَّدَ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَإِنْ كَانَ تَائِبًا أَوْ سَـلِيمًا مِـنَ الْمَعَاصِي دَخَلَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ وَحَرُمَ عَلَى النَّارِ بِالْجُمْلَةِ فَـإِنْ حَمَلْنَـا اللَّفْظَـيْنِ الْوَارِدَيْنِ عَلَـى هَـذَا فِـيمَنْ هَـذِهِ صِـفَتُهُ كَـانَ بَيِّنًـا وَهَـذَا مَعْنَـى تَـأْوِيلَي الْحَسَـنِ وَالْبُخَارِيِّ وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنَ الْمُخَلِّطِينَ بِتَضْيِيعِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَوْ بِفِعْلِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ فَهُوَ فِي الْمَشِيئَةِ لَا يُقْطَعُ فِي أَمْرِهِ بِتَحْرِيمِهِ عَلَى النَّارِ وَلَا بِاسْـتِحْقَاقِهِ الْجَنَّةَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بَلْ يُقْطَعُ بِأَنَّهُ لابد مِنْ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ آخِرًا وَحَالُهُ قَبْـلَ ذَلِـكَ فِـي خَطَرِ الْمُشِيئَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَّبَهُ بِذَنْبِهِ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْـهُ بِفَضْـلِهِ وَيُمْكِـنُ أَنْ تَسْتَقِلَّ الْأَحَادِيثُ بِنَفْسِهَا وَيُجْمَعُ بَيْنَهَا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِاسْتِحْقَاقِ الْجَنَّةِ مَـا قَـدَّمْنَاهُ مِنْ إِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهَا لِكُلِّ مُوَحِّدٍ إِمَّـا مُعَجَّـلًا مُعَـافًى وَإِمَّـا مؤخرا بعد عقابه وَالْمُرَادُ بِتَحْرِيمِ النَّارِ تَحْرِيمُ الْخُلُودِ خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ والمعتزلة فى المسئلتين وَيَجُوزُ فِي حَدِيثِ مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّـةَ أَنْ يَكُونَ خُصُوصًا لِمَنْ كَانَ هَذَا آخِـرَ نُطْقِـهِ وَخَاتِمَـةَ لَفْظِـهِ وَإِنْ كَـانَ قَبْـلُ مُخَلِّطًـا فَيَكُونُ سَبَبًا لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ وَنَجَاتِهِ رَأْسًا مِنَ النَّارِ وَتَحْرِيمِهِ عَلَيْهَا بِخِـلَافِ مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ آخِـرَ كَلَامِـهِ مِـنَ الْمُوَحِّـدِينَ الْمُخَلِّطِـينَ وَكَـذَلِكَ مَـا وَرَدَ فِـي حَدِيثِ عُبَادَةَ مِنْ مِثْلِ هَذَا وَدُخُولُهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ يَكُونُ خُصُوصًا لِمَنْ

قَالَ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَرَنَ بِالشَّهَادَتَيْنِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ الَّذِي وَرَدَ فِي حَدِيثِهِ فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا يَرْجَحُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَيُوجِبُ لَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ فِي نِهَايَةِ الْحُسْنِ. انتهى.

وفي الحديث بيان: أن من شروط لا إله إلا الله: الإخلاص على ما يأتي إن شاء الله.

وفيه: إثبات صفة الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو وجه حقيقي يليق بجلاله، والأدلة على إثباته كثيرة.

وفسر أهل الباطل (الوجه) بالثواب، ويُرد عليهم بما ثبت عن النبي ﷺ عند البخاري (٤٦٢٨) من حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**...»، ولو كان مخلوقًا ما جاز الاستعاذة به.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وهو سعد بن مالك الأنصاري، وهو من المكثرين في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ حتى قيل:

وَالْمُكْثِرُونَ فِي رِوَايَةِ الأَثَرْ ... أَبُو هُرَيْرَةَ يَلِيهِ ابْنُ عُمَرْ

وَأَنَسٌ وَالْحَبْرُ كَالْخُدْرِيِّ ... وَجَابِرٌ وَزَوْجَةُ النَّبِيِّ

قَوْلُهُ (قَالَ مُوسَى) هو موسى بني إسرائيل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، الذي اصطفاه الله بكلامه، ومن أولي العزم من الرسل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين بعد محمد، وإبراهيم -عليهما السلام-، وابتلي بلاء عظيما في ذات الله.

ففي البخاري (٣١٥٠)، مسلم (١٠٦٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي القِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا

وَجْهُ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

قَوْلُهُ (يَا رَبِّ) أي يا ربي.

قَوْلُهُ (عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ، وَأَدْعُوكَ بِهِ) أي: تخصني به دون غيري، وبين الذكر والدعاء عموم وخصوص، والذكر أعم، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الذِّكْرُ طَاعَةُ اللَّهِ، مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، فَقَدْ ذَكَرَهُ، وَمَنْ لَمْ يُطِعْهُ، فَلَيْسَ بِذَاكِرٍ وَإِنْ أَكْثَرَ التَّسْبِيحَ وَتِلاوَةَ الْكِتَابِ(١).

قَوْلُهُ (قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَهَ إِلا اللهُ) أي ادعني واذكرني بهذه الكلمة العظيمة، وهي أفضل الدعاء ففي سنن الترمذي (٣٥٨٥) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

قَوْلُهُ (كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا؟) أي كل عبادك الموحدين يقولون لا إله إلا الله، وكل تفيد العموم بحسبها لا العموم المطلق قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، والمساكن أشياء ولم تدمرها.

ثم إن عبودية المخلوقات لله تعالى تنقسم إلى قسمين:

الأول: العبودية العامة وهي عبودية قهر وملك وهذه يدخل تحتها كل أحد ودليلها قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ .[مريم: ٩٣].

الثاني: العبودية الخاصة وهي عبادة المؤمنين لربهم محبة وتعظيما

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (٥/ ١٠).

وخضوعا قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩]، وهذا في القرآن كثير.

قَوْلُهُ (السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ) كون السموات سبع ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢].

قَوْلُهُ (وَعَامِرهُنَّ غَيْرِي) بِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَى السَّمَاوَاتِ، قِيلَ: عَامِرُ الشَّيْءِ حَافِظُهُ وَمُصْلِحُهُ وَمُدَبِّرُهُ الَّذِي يُمْسِكُهُ مِنَ الْخَلَلِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ سَاكِنُ الْبَلَدِ وَالْمُقِيمُ بِهِ عَامِرَهُ مِنْ عَمَّرْتُ الْمَكَانَ: إِذَا أَقَمْتَ فِيهِ، وَالْمُرَادُ الْمَعْنَى الْأَعَمُّ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ لِيَصِحَّ اسْتِثْنَاؤُهُ تَعَالَى مِنْهُ بِقَوْلِهِ: (غَيْرِي) : قَالَهُ الطِّيبِيُّ[١]. انتهى.

قَوْلُهُ (وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ) دليله قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي "الصحيحين"[٢] عن سَعِيد بْن زَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»

قَوْلُهُ (فِي كِفَّةٍ) أي في كفة الميزان.

قَوْلُهُ (وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ) أي رجحت (لا إله إلا الله) ثقلها وعظمها وهذا هو الشاهد من سوق الحديث لبيان فضل التوحيد، وعلو منزلته.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ) في "صحيحه" (٦٢١٨)، وهو محمد بن حبان بن أحمد ابن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي رحمه الله (المتوفى: ٣٥٤هـ) صاحب التصانيف.

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (٥/ ١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

قَوْلُهُ (وَالحَاكِمُ) في «**المستدرك**» (١٩٣٦) وهو أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، صاحب كتاب المستدرك، وكتاب علوم الحديث، وسمي بالحاكم: لغزارة علمه وكان عنده تشيع رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَوْلُهُ (وَصَحَّحَهُ) أي الحاكم وهو متساهل في التصحيح، يظهر ذلك من كثرة الأحاديث التي ملأ بها المستدرك ويقول عقبها صحيح على شرط الشيخين، أو صحيح وليست كذلك.

والحديث أخرجه النسائي في «**عمل اليوم والليلة**» (٨٣٤)، وغيره وهو حديث ضعيف، من طريق دراج عن أبي الهيثم، ودراج هو ابن سمعان روايته عن أبي الهيثم - وهو سليمان بن عمرو بن عبد أو عبيد الليثي العتواري- منكرة وضعيفة.

وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أحمد (٦٥٨٣) وهو في «**الصحيح المسند**» (٨٠١) للشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ النبي ﷺ: «**إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قَالَ لِابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ**»، قَالَ: قُلْتُ أَوْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: الْكِبْرُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ، قَالَ: «**لَا**» قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: «**لَا**» قَالَ: الْكِبْرُ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: «**لَا**» قَالَ: أَفَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «**لَا**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: «**سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْصُ النَّاسِ**».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وللتِّرمذي وَحسَّنَهُ عَنْ أَنَس: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

قَوْلُهُ (وللتِّرمذي) أي أخرجه في جامعه (٣٥٤٠) والترمذي: محمد بن عيسى ابن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تلميذ البخاري، وروى عنه البخاري حديثًا، صاحب كتاب "**جامع الترمذي**"، و"**الشمائل**" و"**دلائل النبوة**"، و"**العلل**" وغيرها، وكتابه أحد الأمهات الست، وهو كتاب مفيد جدًا، جمع بين الأحاديث وأقوال الفقهاء مع الإشارة إلى ما في الباب من الأحاديث.

قَوْلُهُ (وَحَسَّنَهُ) أي: حكم بحسنه، والحسن: هو الحديث الصحيح إذا خف ضبط أحد رواته، وشروطه شروط الصحيح وهي: اتصال السند، وعدالة الرواة، وضبطهم، والسلامة من الشذوذ والعلة، والحسن ينقسم إلى قسمين حسن لذاته: وهو حديث خفيف الضبط، وحسن لغيره، وهو حديث الضعيف الذي ضعفه منجبر كالمغفل والمدلس، وغيرهما، ومن شرطه أن يروى من غير وجه فيقوي بعضها بعضًا.

والحديث بهذا السند فيه كثير بن فائد البصرى قال الحافظ في "**التقريب**"مقبول إي إن توبع وإلا فلين.

وقَوْلُهُ (أَنَسٍ) هو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، خادم النبي ﷺ، خدمه عشر سنين، ودعا له النبي ﷺ أن يطيل الله عمره ويكثر ماله وولده، فكانت له حديقة يقطفها في السنة مرتين، ودفن من صلبه ثمانين، وهو من

المكثرين في رواية الحديث.

قَوْلُهُ (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ..)، (سَمِعْتُ) يقولها المحدث لما سمعه مباشرة، وهي أعلى درجات التحمل، والتصريح بها يرفع تهمة التدليس إذا كان الراوي ثقة، أما الصحابة فكلهم عدول.

قَوْلُهُ (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى)، وهذا الحديث يسمى حديثًا قدسيًا، وسمي قدسيًا لإضافته إلى قداسة الله سبحانه وتعالى، وليس له أحكام القرآن، فمن يرى أنه لا يجوز قراءة القرآن إلا بالوضوء يرى قراءة الأحاديث القدسية من غير وضوء، ولا يُقرأ الحديث القدسي في الصلاة، وتجري عليه أحكام الحديث من حيث الصحة والضعف.

وفيه: إثبات كلام الله ﷻ على ما يأتي بيانه، إن شاء الله.

قَوْلُهُ (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا) أي: بملء الأرض سيئات، (ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا) وهذا شرط، ويدخل فيه نفي الشرك الأصغر والأكبر، وهذا هو الشاهد من الحديث.

قَوْلُهُ (لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)، فيه سعة رحمة الله ﷻ، وأن كل ذنب سوى الشرك تحت المشيئة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فالآية الأولى في حق من وافى بالذنب في الأخرة ولم يتب منه فما كان دون الشرك فهو تحت المشيئة، ولآية الثانية في حق المذنبين في الدنيا ففي البخاري(٤٨١٠) ومسلم (١٢٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ نَاسًا، مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ

ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وَنَزَلَتْ ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وحديث الباب حسن لغيره، فإن له شاهدًا عند أحمد (٢١٣١٥) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عز وجل أَنَّهُ قَالَ: «**الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ أَوْ أَغْفِرُ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**» قَالَ: وَقُرَابُ الْأَرْضِ: مِلْءُ الْأَرْضِ. وسنده حسن.

وفي الحديث: بيان خطر الشرك، وأن الله لا يغفره قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وفيه: أن التوحيد أعظم حسنة، تمحو المعاصي وتزيلها بالكلية، ويكون مآل صاحبها إلى الجنة على ما تقدم.

***

٢- بَاب مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَاب مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ

مناسبة الباب لما قبله أنّ المصنف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر باب فضل التوحيد ناسب أن يأتي بهذا الباب وهو: أن التوحيد الذي له فضل ومنزلة هو التوحيد الذي يُحقق ويُخلِص فيه لله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ (دَخَلَ الجنَّةَ) أي: دخولًا أوليًا، فمن حقق التوحيد تحقيقًا كما يريد الله عَزَّ وَجَلَّ مبتعدًا عن الشرك، وعن ذرائعه دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، إلا أن أصحاب المعاصي تحت المشيئة، وقد يتجاوز الله عَزَّ وَجَلَّ عن بعضهم، والذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قد جاء وصفهم في عدة أحاديث، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالى طرق هذه الأحاديث عند تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قَوْلُهُ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم هو ابن آزر عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أبو الأنبياء من بعده، ابتلاه الله عَزَّ وَجَلَّ بكلمات فأتمهن وهي الأوامر والنواهي، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ﴾ مع عملهم للصالحات يدعوان الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتقبل منهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: بما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ وافترض عليه، وابتلي بذبح ولده، فبادر إلى ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقد ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غير ما موطن، وهو أفضل الأنبياء بعد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتخذه الله خليلا.

وجمع الله لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذه الآية أربعة أوصاف:

الأولى: قَوْلُهُ ﴿كَانَ أُمَّةً﴾: والأمة: المراد به الإمام، فقد كان إمامًا يقتدى به في الخير، وقد تقدم ذكر معاني الأمة في القرآن.

الثانية: قَوْلُهُ ﴿قَانِتًا﴾: أي ملازما للطاعة ولفظ القنوت له عشرة معانٍ، ذكرها الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى كما في "**شرحه لصحيح البخاري**" (٢/ ٤٩١)، فقال:

وَلَفْظُ الْقُنُوتِ اعْدُدْ مَعَانِيَهُ تَجِدْهُ　　مَزِيدًا عَلَى عَشْـرِ مَعَـانِي مَرْضِـيَّهْ

دُعَاءٌ خُشُـوعٌ وَالْعِبَـادَةُ طَاعَـةٌ　　إِقَامَتُهَـا إِقْـرَارُهُ بِالْعُبُودِيَّـهْ

سُـكُوتٌ صَـلَاةٌ وَالْقِيَـامُ وَطُـولُهُ　　كَذَاكَ دَوَامُ طَاعَـةِ الـرَّابِحِ الْقُنْيَـهْ

الثالثة: قَوْلُهُ ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وسمي أهل الإسلام حنفاء لذلك وحتى قبل الإسلام كانوا يسمون الموحد حنيفًا، وفي الحديث «**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ، غَيْرُ الْمُشْرِكَةِ، وَلَا الْيَهُودِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ**» أخرجه أحمد (٢١٢٠٣)، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه .

الرابع: قَوْلُهُ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: كان بعيدًا عنهم ومخالفًا لهم، ومحذرًا منهم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧].

وقد قام على قومه وكسر أصنامهم مع أنه وحيد، قال الله عز وجل: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]، أي: من شيعة نوح، ممن سار على سيره: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٤-٨٨].

وقد جعل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، قوله: (إني سقيم) من كذباته، ففي "**الصحيحين**"[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ؛، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ**» وقوله (إني سَقِيم) أي:

---

(١) البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

مريض مما تعبدون، لما أرادوا أن يذهبوا إلى عيدهم، فلما خرجوا: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، أي يكسرهم تكسيرًا، وهذا من تغيير المنكر باليد، ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤] يهرعون، مجموعات، قال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] حاجهم، فقال الله ﷻ: خلقكم وخلق ما تعبدون من هذه الأصنام، ثم تكفرون به: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧-٩٨]، فنجاه الله ﷻ من كيدهم حيث قال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وبعد ذلك قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٠]، وهذا بعد أن نصره الله عليهم.

وفي سورة الأنبياء بيانٌ أكثر مما في سورة الصافات من المحاجّة التي وقعت بينه وبينهم، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]. وهذا على سبيل السخرية، فقالوا: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، فاعترفوا بألسنتهم على قبح آلهتهم وعجزها حتى عن النطق، وبهذا استدل أهل السنة على أن الله ﷻ متكلم، إذ الإله هو الذي يتكلم ويفعل ما يريد، قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، فلما خُصموا، وعجزوا عن الحجة، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٧-٧٠].

ومناسبة الآية للترجمة ما عليه إبراهيم الخليل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من تحقيق التوحيد، الذي هو حق الله تعالى على العبيد.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

قولُهُ ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾: اسم موصول يراد به من تقدم وصفهم وهم المؤمنون فمن صفاتهم أنهم لا يشركون بالله ﷻ، فإن الشرك ظلم عظيم، والفرق بين الشركين الأكبر، والأصغر أنّ الشرك الأكبر يخلد في النار، ويخرج صاحبه من الإيمان، ويبيح الدم والمال، ويذهب معه الإيمان بالكلية، بينما الشرك الأصغر لا يخلد في النار، وإنما يحبط العمل الذي داخله، ولا يذهب معه جميع الإيمان، وينقص به الإيمان.

ويجمعهما: أنهما لا يدخلان تحت المشيئة على الصحيح من أقوال أهل العلم، ومن تاب، تاب الله عليه حتى من الكفر قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفي حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**». أخرجه مسلم (١٢١).

أما من مات على الشرك فإنه داخل النار، إلا أن صاحب الشرك الأصغر يدخل ويخرج بعد أن ينقى، وصاحب الشرك الأكبر يدخل ويخلد فيها، قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله ﷻ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ حُصَيْنِ بن عَبدِ الرَّحْمن، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لا رُقْيَةَ إِلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

قَوْلُهُ (حُصَيْنِ بنِ عَبدِ الرَّحْمنِ) هو السلمي أبو الهذيل الكوفي ثقة تغير حفظه في أخره.

قَوْلُهُ (سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ) الأسدي مولاهم أبو محمد ثقة ثبت قتله الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يُكمل الخمسين، ظلمًا وعدوانًا، وقتله والناس في حاجة إلى علمه.

قَوْلُهُ (فَقَالَ) أي سعيد بن جبير.

قَوْلُهُ (أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ؟) أي من رأى منكم الكوكب الذي سقط وهي الشهب التي يرمى بها الشياطين من مسترقي السمع على ما يأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن النظر إلى الشهب التي يرمى بها، كما صح عن أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند أحمد (٢٢٥٤٩) قال: «إِنَّا قَدْ نُهِينَا أَنْ نُتْبِعَهُ أَبْصَارَنَا»[(١)].

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(٢٨٢) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ (الْبَارِحَةَ) الإخبار عن الليلة الماضية، قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ثَعْلَبُ، يُقَالُ: قَبْلَ الزَّوَالِ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ وَبَعْدَ الزَّوَالِ رأيت البارحة. أفاده النووي في "شرح مسلم" (٣/ ٩٣).

قَوْلُهُ (فَقُلْتُ) أي حصين.

قَوْلُهُ (أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ) فيه: دفع ما يُتوهم، والبعد عن التشبع.

قَوْلُهُ (وَلَكِنِّي لُدِغْتُ) اللدغة تأتي من العقرب وغيرها من الحميات.

قَوْلُهُ (قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟) فيه السؤال للتعلم والتقويم فإن كان فعله موافقًا للكتاب والسنة فذلك، وإن كان مخالفًا لهما قوم.

قَوْلُهُ (ارْتَقَيْتُ) يعني: رقيت نفسي، أو ارتقيت: طلبت من غيري أن يرقيني، والنبي ﷺ قد حث على رقية المحتاج فقال: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ»، أخرجه مسلم (٢١٩٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال النبي ﷺ: «بِهَا نَظْرَةٌ، فَاسْتَرْقُوا لَهَا»، أخرجه مسلم (٢١٩٧) عن أم سلمة رضي الله عنها.

قَوْلُهُ (قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟) فيه: أنه لا يقدم الإنكار؛ لأن الإنكار مقدمًا قد يؤدي إلى النفور، لكن لماذا تصنع هذا الصنيع؟ وما حجتك عليه، قال: أصنعه لكذا وكذا.

قَوْلُهُ (الشَّعْبِيُّ) هو عامر بن شراحيل، و قيل ابن عبد الله بن شراحيل، و قيل ابن شراحيل بن عبد، الشعبي، أبو عمرو الكوفي من شعب همدان من اليمن، كان حافظا وهو القائل: مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ قَطُّ، ولاَ حَدَّثني رَجُلٌ بِحَدِيثٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ، ولاَ حَدَّثني رَجُلٌ بِحَدِيثٍ إلاَّ حَفِظْتُهُ[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٢٣)، وابن حجر في «إتحاف المهرة» (٢٤٥١٦)، وغيرهم.

قَوْلُهُ (عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ) هو بن عبد الله بن الحارث الأسلمي أبو عبد الله، و يقال أبو سهل، و يقال أبو ساسان، و يقال أبو الحصيب صحابي شهد خيبر رضي الله عنه .

وقَوْلُهُ: (لا رُقْيَةَ إلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) أي لا رقية أنفع وقد ثبتت الأدلة على جواز الرقية من غير ما ذكر هنا. قال السندي: قيل: لم يرد الحصْر، بل أراد أنهما أحق بالرقية لِشدة الضرورة فيهما.

قَوْلُهُ (إلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) الحُمَة، قال ابن الأثير في "النهاية" (١/ ٤٤٦): الحُمَة بِالتَّخْفِيفِ: السَّمُّ، وَقَدْ يُشَدّد، وَأَنْكَرَهُ الْأَزْهَرِيُّ، ويُطْلَق عَلَى إبْرة العَقْرب للمُجاورة، لِأَنَّ السَّم مِنْهَا يَخْرج. اهـ.

وقد جاء هذا اللفظ مرفوعًا بسند صحيح عند أحمد (١٩٩٠٨)، وأخرجه أبو داود (٣٨٨٤)، والحميدي (٨٣٦)، والترمذي (٢٠٥٧) والبزار في "مسنده" (٣٥٩٧) عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا، وأخرجه البخاري (٥٧٠٥) عن عمران موقوفًا. ويشهد له حديث أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه ، في "الصحيحين"[(١)]: أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ.

فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟

---

(١) البخاري (٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى لَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا.

فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**».

قَوْلُهُ (قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ)، فيه تغبيط من عمل بما يعلم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاس، عَن النَّبيِّ ﷺ، أنَّهُ قَالَ: «عُرضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرِّجُلانَ، وَالنَّبيَّ وَلَيْس مَعَهُ أَحَدٌ، إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْر حِسَاب وَلا عَذَاب»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَن، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ؟» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

قَوْلُهُ (ابْنُ عَبَّاسٍ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما ابن عم النبي ﷺ، خدم النبي ﷺ ودعا له النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» رواه البخاري (١٤٣)، ورواه أحمد واللفظ له في "فضائل الصحابة" (١٥٦٠)، وفي "المسند" (٢٣٩٧).

وقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ». فَقَالَ: واعجبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ

تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ. فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «**كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي**». رواه الدارمي برقم (٥٩٠)، باب الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء فيه.

وكان عمر رضي الله عنه يجعله في مجلسه، فقد جاء في البخاري (٤٩٧٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: «**هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ**، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] **وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ**، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣]، فَقَالَ عُمَرُ: **مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ**».

قَالَ مجاهدٌ: عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، أُوقِفُهُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ، أَسْأَلُهُ فِيمَا نَزَلَتْ، وَكَيْفَ كَانَتْ؟[١]، وهذا ببركة دعوة النبي ﷺ، وهو أفضل أبناء عباس رضي الله عنه ، وهم عشرة، حتى قال:

تَمُّوا بِتَمَّامٍ فَصَارُوا عَشَرَهْ ... يَا رَبِّ فَاجْعَلْهُمْ كِرَامًا بَرَرَهْ

وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِكْرًا وأَنْمِ الثَّمَرَهْ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١٠٥).

قَوْلُهُ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ) يعني: جميع أمم الأنبياء السالفة، وهذا رؤيا منام فيما يظهر، أفاده الحافظ (١١/ ٤٠٧)، وغيره ومن المعاصرين العثيمين رحمه الله كما في "**القول المفيد**" (١/ ١٠٠).

قَوْلُهُ (فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ) العدد اليسير من الثلاثة إلى التسعة.

قَوْلُهُ (وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ): أي: ورأيت النبي ومعه الرجل أو الرجلان، وربما جاء بعضهم وليس معه أحد.

قَوْلُهُ (إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ) المراد بالسواد: الأشخاص، أي: أنه رأى أناسًا كُثُر، ولهذا جاء في الحديث: «**عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ**»[1].

قَوْلُهُ (فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي) لأن أمته ﷺ أكثر الأمم حتى قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**» أخرجه ابن ماجه (٤٢٨٩) عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه[2]، وقال: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، أَوْ يَدْخُلُ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ، لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْخَطَّاءُونَ**» قَالَ زِيَادٌ: «**أَمَا إِنَّهَا لَحْنٌ وَلَكِنْ هَكَذَا حَدَّثَنَا الَّذِي حَدَّثَنَا**»[3].

وجاء في حديث المعراج: أن موسى عليه السلام لما جاوزه محمد ﷺ بكى موسى عليه السلام، «**فقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلاَمًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي**». متفق عليه[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٤١٥)، وهو في «الصحيح المسند»(٥٤٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، عَنْ عَبْدَ اللهِ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه.

(٢) والحديث في «الصحيح المسند»(١٤٩) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٥٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٤) البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنهما.

وفيه دليل: على أن كثرة قوم موسى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ الأمة الثانية بعد أمة محمد ﷺ.

قَوْلُهُ (فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ) وكان ﷺ، رحيمًا بهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في **"صحيح مسلم"** (٢٠٢): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**».

وحين يرفع رأسه من السجود في القيامة يقول: «**يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**» متفق عليه[(١)].

قَوْلُهُ (وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا): عند البزار في **"البحر الزخار"** (٣٧٠٠) عَنْ عَاصِمِ ابْنِ كُلَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَالِهِ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا فِي الْمَجْلِسِ فَشَخَصَ بَصَرُهُ إِلَى رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ يَمْشِي، فَقَالَ: «**أَبَا فُلَانٍ**» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا يُنَازِعُهُ الْكَلَامَ إِلَّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ لَهُ: «**أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**أَتَقْرَأُ التَّوْرَاةَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **وَالْإِنْجِيلَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**وَالْقُرْآنَ؟**» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ نَشَاءُ لَقَرَأْتُهُ، ثُمَّ نَاشَدَهُ «**هَلْ**

---

(١) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

تَجِدُنِي فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؟» قَالَ: نَجِدُ مِثْلَكَ وَمِثْلَ هَيْأَتِكَ وَمِثْلَ مَخْرَجِكَ، فَكُنَّا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِينَا فَلَمَّا خَرَجْتَ خُوِّفْنَا أَنْ تَكُونَ أَنْتَ هُوَ فَنَظَرْنَا فَإِذًا لَسْتَ أَنْتَ هُوَ، قَالَ: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: مَعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ سَبْعُونَ أَلْفًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، وَإِنَّمَا مَعَكَ نَفَرٌ يَسِيرٌ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنَا هُوَ وَإِنَّهُمْ لِأُمَّتِي، وَإِنَّهُمْ لِأَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا.

قَوْلُهُ (سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ): وهذا ليس على الحصر فقد صح عن رسول الله ﷺ من طرق منها ما في "**مسند أحمد**" (٢٢٣٠٣) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سبعين أَلْفًا وَثَلَاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي**»

قَوْلُهُ (ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ): أي: قام من المجلس، فدخل بيته، فخاض الناس وتماروا في معرفة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ لأن الرسول ﷺ أعطاهم علمًا ولم يفصله لهم، فجعل كل يجتهد بحسب اجتهاده.

قَوْلُهُ (فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ): يعني: الذين أسلموا ورأوا النبي ﷺ وصحبوه وناصروه، وعزروه، ووقروه، وهذا يدل على فضل الصحابة رضي الله عنهم.

قَوْلُهُ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيئًا): أي: أنهم ردوا القول الأول، وقالوا: لعلهم من ولدوا على الإسلام وعلى التوحيد ولم يشركوا بالله شيئًا.

قَوْلُهُ (وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ): فيمن يدخل الجنة بغير حساب.

قَوْلُهُ (فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ): فيه العودة إلى العالم فيما

أشكل، وعند المعضلات، وقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

قَوْلُهُ (فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ): جاء في مسلم: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ**» وهي لفظة شاذة، شذ بها سعيد بن منصور، والشاذ: مخالفة المقبول لمن هو أولى منه حفظًا أو عددًا، فسعيد بن منصور إمام ثقة، ولكنه خالف من هو أولى منه حفظًا وعددًا. وقد رقى النبي ﷺ بعض أصحابه، وحث النبي ﷺ على الرقية.

فقَوْلُهُ (لاَ يَسْتَرْقُونَ): أي: لا يطلبون الرقية، لكن إذا رُقي من غير طلب، فليس فيه شيء.

وقد قال النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**» أخرجه مسلم (٢٢٠٠) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، وسيأتي باب الرقى في موطنه إن شاء الله.

قَوْلُهُ (وَلاَ يَكْتَوُونَ): وهذا على الكمال وإلا فقد رخص النبي ﷺ في الكي، قال ﷺ: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ: فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ تُصِيبُ أَلَمًا، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَيَّ وَلَا أُحِبُّهُ**» أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، وفي مسند أحمد (١٩٨٣١) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**نَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْكَيِّ فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا وَلَا أَنْجَحْنَا**» ولكن مع ذلك هو من الأدوية إذا احتاجه الإنسان.

وقد كوى النَّبِيُّ ﷺ سعدَ بنِ معاذٍ رضي الله عنه وغيره، والكي يكون بالنار أو الثلج، وبالنار أكثر، ويكون في الرأس، وأحيانًا في الصدر، وربما أسفل القدمين،

بحيث تأتي حرارة شديدة أو برودة شديدة تؤدي إلى إزالة المرض بعون الله ﷻ، وتكون من أسباب شفاء المرض، فإن بعض الأمراض تكون بسبب اليبوسة، وبعضها تكون بسبب البرودة.

قَوْلُهُ (وَلَا يَتَطَيَّرُونَ): التطير: أصله من الطير، وكانت العرب إذا خرجت لحرب أو تجارة يتطيرون فإن طار الطائر إلى اليمين مضوا في أمرهم، وإن سار شمالا رجعوا أو تشاءموا، «**فالطِّيَرَةُ: هي مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**»[1]، مع أن الحديث بهذا اللفظ لا يثبت، والمعنى صحيح.

وسيأتي الكلام على الطيرة في بابها إن شاء الله تعالى.

قَوْلُهُ (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ): التوكل: هو صدق الاعتماد على الله ﷻ، وهو فرض، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وفيه: فضل التوكل على الله ﷻ، وهو جامع لما تقدم، فالذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، هم الذين كمل توكلهم على الله ﷻ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**». أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) عن عمر رضي الله عنه ، وسيأتي في باب التوكل إن شاء الله.

مسألة: أيهما أولى: العلاج أو تركه؟

الجواب: اختلف العلماء في ذلك، والصحيح: أن العلاج أولى لاسيما إذا كان المرض قد يعيق العبد عن الطاعة، وقد صح عن النبي ﷺ من حديث أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَتِ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَدَاوَى؟ قَالَ: «**نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ: دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**الهَرَمُ**». رواه الترمذي (٢٠٣٨).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٠).

قَوْلُهُ (فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ): بتشديد الكاف وتخفيفها، قال الذهبي في "**سير أعلام النبلاء**" عند ترجمته (١/ ٣٠٧): السَّعِيْدُ الشَّهِيْدُ، أَبُو مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ، حَلِيْفُ قُرَيْشٍ مِنَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ البَدْرِيِّيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى سَرِيَّةِ الغَمْرِ فَلَمْ يَلْقَوْا كَيْدًا. وَرُوِيَ عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ قَالَتْ: تُوُفِّي رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وعكاشة بن أَرْبَع وَأَرْبَعِيْنَ سَنَةً قَالَ: وَقُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةٍ بِبُزَاخَةَ فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ الرِّجَالِ رضي الله عنه . وَقَدْ أَبْلَى عُكَّاشَةُ يَوْم بَدْرٍ بَلاَءً حَسَنًا وَانْكَسَرَ سَيْفُهُ فِي يَدِهِ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عُرْجُوْنًا مِنْ نَخْلٍ أَوْ عُوْدًا فَعَادَ بِإِذْنِ اللهِ فِي يَدِهِ سَيْفًا فَقَاتَلَ بِهِ وَشَهِدَ بِهِ المَشَاهِدَ... إلخ، ولأخته قصة مع النبي ﷺ: قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: وَأَخْبَرَتْنِي أَنَّ ابْنَهَا ذَاكَ: «**بَالَ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَاءٍ فَنَضَحَهُ عَلَى بَوْلِهِ وَلَمْ يَغْسِلْهُ غَسْلًا**» أخرجه مسلم (٢٨٧).

قَوْلُهُ (فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ؟): فيه جواز طلب الدعاء من الرجل الصالح في حياته، أما طلب الشفاعة من الميت المقبور، يا فلان اشفع لي، فهذا شرك أكبر، كما سيأتي بيانه.

ويذكر العلماء هذا من أنواع شفاعات النبي ﷺ، فإنه شفع لعكاشة بن محصن رضي الله عنه ، ودعا له بقوله كما في بعض الروايات: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**» أخرجه البخاري (٦٥٤١) ومسلم(٢١٦).

وفي الحديث الثناء على من لم يخشَ عليه الغرور، فإن النبي ﷺ أخبر عكاشة أنه من أهل الجنة وأنه من الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وأي ثناء أعظم من هذا، ومع ذلك كان متواضعًا رضي الله عنه ، وقتله طليحة بن خويلد، وكان طليحة بن خويلد قد صحب النبي ﷺ ثم ارتد وادعى النبوة ثم أسلم بعد ذلك، وقتل شهيدًا في القادسية.

والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك، أي: على

الإيمان، ولو تخللت ردة على الصحيح.

قَوْلُهُ (ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ): قال العلماء لعل هذا الرجل كان من المنافقين، وقال بعضهم: لعله أراد أن لا يستمر الدور، فلو دعا لهذا سيقوم آخر، ويقول: ادعُ الله أن يجعلني منهم.

وفيه: أهمية المسارعة إلى الخيرات، فعكاشة بن محصن رضي الله عنه، لما سارع كان من المبشرين بهذا الخير، وممن نال بركة دعاء النبي ﷺ.

وفيه: جواز طلب الدعاء من الرجل الصالح، وهذه مسألة اختلف فيها العلماء، فمنهم: من منع طلب الدعاء مطلقًا، ومنهم من رخص فيه مطلقًا، ومنهم من فصل، فرخص في طلب الدعاء من الرجل الصالح، ويستدل لذلك بحديث عمر رضي الله عنه عند مسلم (٢٥٤٢) في شأن أويس القرني: «**فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**»، وهكذا حديث: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَنِي**»(١).

وفي مسلم(٢٧٣٣) عَنْ صَفْوَانَ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ، قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعُ اللهَ لَنَا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**».

***

(١) أخرجه أحمد (٩٦٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

٣- بَابُ الخوفِ مِنَ الشِّرْكِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ الخوفِ مِنَ الشِّرْكِ

قَوْلُهُ (**بَابُ الخوفِ مِنَ الشِّرْكِ**): الخَوْف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، أفاده الراغب في "**المفردات**" (٣٠٣).

وناسب أن يذكر باب الخوف من الشرك، بعد ما تقدم؛ حتى لا يقع العبد في الأمن المفضي إلى تسلط الشيطان عليه، وقد جاء عند الإمام أحمد (٢٠٣٨١) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ**»، وجاء من حديث أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند ابن حبان (١٠٢٣) قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو، يَقُولُ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ**»، وأخرج البخاري في "**الأدب المفرد**" (٧١٦) وصححه الألباني: عَنْ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟**» قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»، وفي "**صحيح مسلم**" (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

وعند الترمذي (٢١٤٠) عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، وصح عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما عند أحمد (٢٤٦٠٤، ٢٦٥١٩) بنحوه.

وجاء في البخاري (٦٦١٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يقول: «لاَ وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ»، فالإنسان يخاف من تقليب قلبه، قال بعض السلف في النفاق: (ما أمنه إلا منافق وما خافه إلا مؤمن).

وفي حديث حنظلة رضي الله عنه في مسلم (٢٧٥٠): قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَـــولِ اللَّـــهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] الآية

أي: إن الله لا يغفر إشراكًا به، ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب، إن شاء فكل ذنب سوى الشرك إن مات صاحبه مصرًا عليه، أو لم يتب منه فهـو تحـت مشـيئة الله تعالى؛ إن شاء عامله بفضله وعفى عنه، وإن شاء عامله بعدلـه وجـازاه عليـه، وفي "**العقيدة السفارينية**" (٦٩):

وَمنْ يَمُتْ وَلمْ يَتُـبْ مِـن الخَطَـا ... فَــأمْرُهُ مُفَــوَّضٌ لِذِي العَطَـا

فَـإن يَشَـأْ يَعْفُـو وَإن شَـاءَ انْـتَقَم ... وَإن يَشَـأْ أعْطَـى وأجْـزَل النِعَـم

وهذه الآية دليل على خطورة الشرك بالله، وأنـه أعظـم ذنـب عُصـي الله بـه، وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ خلقك ورزقك وأعطاك وأنعم عليـك، فحـري بـك أن تحبـه وتخافه وترجوه وتتوكل وتعتمد عليه، فمن صرف شـيئًا مـن العبـادات لغيـر الله عَزَّ وَجَلَّ فقد أشرك، وخـالف الحكمـة مـن وجـوده، قـال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالذي يدعو الهادي أو الحسـين أو السـيدة زينب أو الدسوقي أو البدوي، أو أبا طير، أو العيدروس، وغيرهم من المقبورين والمخلوقين فهو مشرك مندد وإن قـال: لا إلـه إلا الله وصـلى وصـام وزعـم أنـه مؤمن.

ولعظم ذنب الشرك فـإن الله لا يغفـره، ولا يتجـاوز عنـه - مـع أنـه أرحـم الراحمين- إلا بتوبة قبل المـوت، وهـو القائـل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فمن تاب تاب الله عليه مـن الشـرك فمـا دونـه قـال تعـالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾.

وهنا مسألة: هل الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة في حق من مات عليه؟

أقول للعلماء في هذه المسألة قولان:

القول الأول: أن الشرك الأصغر، مثل بقية الكبائر تحت المشيئة، وقالوا إنَّ الآية في الأكبر فقط، وهذا قول جمهور العلماء، واستدلوا بالآية المذكورة قالوا: فقوله: «أن يشرك» أي الأكبر، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الشرك الأصغر والمعاصي كبائرها وصغائرها. قالوا: لأن سياق الآية يدل على أنه الشرك الأكبر.

واحتجوا: بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾. فيقولون كما أن إجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار فلا يدخل في تلك الآية وكذلك لا يدخل في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، لأن العمل هنا مفرد مضاف ويشمل الأعمال كلها، ولا يحبط الأعمال الصالحة كلها إلا الشرك الأكبر.

قالوا وإذا فارق الشرك الأكبر في تلك الأحكام السابقة بأنه لا يحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام ولا بالخلود في النار، وفارقه في كونه مثل الذنوب التي دون الشرك وأنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه؛ ولأن مشاركته للكبائر في أحكامها الدنيوية والأخروية أكثر من مشاركته للشرك الأكبر.

ويستدلون بأن الموازنة واقعة بين الحسنات وبين السيئات التي هي دون الشرك الأكبر لأن الشرك الأكبر؛ لا موازنة بينه وبين غيره فإنه لا يبقى معه عمل ينفع.

وأما السيئات التي دونه فيقع بينها الموازنة فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة بلا عذاب، ومن رجحت سيئاته على حسناته، استحق دخول النار

بقدر ذنوبه، ومن تساوت حسناته وسيآته فهو من أهل الأعراف الذين مـآلهم إلى دخول الجنة.

ولكن الأولون قد يجيبون عن هذا بأنه قد يعذب صـاحب الشـرك الأصـغر قبل الموازنة، إما في البرزخ، وإما قبل ذلك أو بعده في عرصـات القيامـة، فيقـول الآخرون: وكذلك الكبائر قد يعذب صاحبها قبل الموازنة فتسـقط الموازنـة بهـا فلا يختص بذلك الشرك الأصغر، ومن تأمل الأدلة من الكتاب والسنة أمكنـه أن يعرف الراجح من القولين. أفاده السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

واستدلوا بحديث عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال فيـه: كُنَّـا عِنْـدَ النَّبِـيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَقَـرَأَ آيَـةَ النِّسَاءِ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَـيْئًا فَعُوقِـبَ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّـهِ إِنْ شَـاءَ عَذَّبَـهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»، متفق عليه[٢]. فقوله: «**إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**» بعدما قال في أول الحديث: «**أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَـيْئًا**» دل أنـه تحـت المشـيئة، وقـالوا إن الحديث في سياق الشرك الأصغر.

القول الثـاني: أن الشرك الأصغر إذا مات عليـه الإنسـان لا يَكْفُـر، ولكنـه لا يغفر له، فمن مات وهو على الشرك الأصغر يؤاخذ به.

وهذه المسألة بحثها الشيخ ابـن سـعدي وذكـر فيهـا كلامًـا نفيسًـا، حيـث يقـول: مـن لحظ إلى عموم الآية، وأنه لم يخص شركًا دون شرك أدخل فيها الشـرك الأصـغر وقال إنه لا يغفر بل لا بد أن يعذب صاحبه، لأن من لم يغفر له لا بـد أن يعاقـب، ولكن القائلين بهذا لا يحكمون بكفره ولا بخلوده في النار وأنه يعذب عذابًا أبديا

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في تو ضيح العقيدة (١٨٨ – ١٨٩).

(٢) البخاري (٤٨٩٤)، ومسلم (١٧٠٩).

-لأن هذا مذهب الخوارج المنحرفين- وإنما يقولون يعذب عذابًا بقدر شركه ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة.

واستدلوا: بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وجه الدلالة «أن»: حرف مصدري «يشرك»: فعل مضارع، وإن وما دخلت عليه في تأويل مصدر، فيكون المعنى: إن اللَّه لا يغفر شركًا به، أو إن اللَّه لا يغفر الشرك به. وشركًا: نكرة في سياق النفي فتكون عامة تشمل الأكبر والأصغر، وفي الصيغة الثانية قال الشرك: فتكون الألف واللام للعموم.

واستدلوا أيضًا بحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٤٠): «**لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**». بدلالة مفهوم المخالفة، فإذا لقيتني تشرك بي شيئا لم آتيك بقرابها مغفرة، وقوله في الحديث «**لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا**»: نكرة فتشمل الشرك الأكبر والأصغر، وقالوا أيضًا الحديث في سياق المسلمين الذين يُمكن أن يغفر لهم.

واستدلوا بحديث عائشة رضي الله عنها عند البيهقي في "**الشعب**" (٧٠٦٩) أن رسول صلى الله عليه وسلم، قال: «**الدَّوَاوِينُ ثَلاَثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ يَقُولُ اللهُ** عز وجل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ٤٨] **وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُهُ اللهُ: ظُلْمُ الْعِبَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقْتَصَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ: ظُلْمُ الْعِبَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ، فَذَاكَ إِلَى اللهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ تَجَاوَزَ عَنْهُ**»، والشاهد من الحديث آخره وهو ديوان لا يغفره الله قالوا: المقصود به الشرك الأصغر لأن الحديث في المسلمين بدليل قوله ديوان لا يعبأ الله به أي قد يغفره وهذه ذنوب العصاة أما الكفار فلا يغفر الله ذنوبهم.

واستدلوا أيضا بما رواه ابن أبي عاصم في "**السنة**" (٨٣٠،٩٧٣) وحسنه الألباني رحمه الله، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنَّا نُوجِبُ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ، حَتَّى نَزَلَتْ

هَذِهِ الْآيَـةُ عَلَـى النَّبِـيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فَنَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُوجِبَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْـلِ الـدِّينِ النَّـارَ، وفي رواية: مَا زِلْنَا نُمْسِكُ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ حَتَّى سَمِعْنَا مِـنْ فِـي نَبِيِّنَـا ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَـنْ يَشَاءُ...**» الحديث، أن هذه في الكبائر أما ما قبلها ففيما فوق الكبائر وهـو الأكبـر والأصغر، وهذا فهم الصحابة كما قال ابن عمر رضي الله عنهما (كنَّا).

واستدلوا بقول عبد الله رضي الله عنه : «**لِأَنْ أَحْلِـفَ بِاللَّـهِ كَاذِبًـا أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا**» أخرجه عبد الرزاق في "**مصنفه**" (١٥٩٢٩).

واستدلوا بأن الشرك مسبة لله تعـالى وتـنقُّص وجعـل نـد لله ولـو مـن وجـه أصغر، والكبائر المحضة نقص في النفس وضعف فكيف يُجعل ضـعف الـنفس ونقصها مثل ما هو مسبة لله وتنقص ولو من وجة أصغر، لا يستوون.

وقـد اختـار هـذا القـول عبـد الـرحمن بـن حسـن كمـا في "**قرة عيون الموحدين**" (ص ٣٤) قال: أما الشرك الأكبر فلا عمل معه ويوجـب الخلـود في النـار وأمـا الأصـغر كيسـير الريـاء هـذا لا يُكَفَّـر إلا برجحـان السـيئات بالحسنات. اهـ.

واختاره أيضا أبا بطين فإنه لما ذكر كلام ابن تيمية فيما نقل عنه تلميـذه ابـن مفلح في الفروع قال ابن تيمية: إنّ الشرك قد لا يغفر وإن كـان أصـغر فعقّـب أبـا بطين فقال وذلك والله أعلـم لعمـوم قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النسـاء: ٤٨]. اهـ من كلامه في "**الدرر**" (١٠/ ٣٨٨).

وهـو اختيـار عبـد الـرحمن بـن قاسـم كمـا في "**حاشيته على كتاب التوحيد**" (٥٠) قال: والشرك الأصغر حكمه أنـه لا يغفـر لصـاحبه إلا بالتوبـة لعموم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ويدخل تحت الموازنة. اهـ.

قال شيخ الإسلام في "الرد على البكري" (٣٠١/١): وقد يقال الشرك لا يُغفر منه شيء لا أكبر و لا أصغر على مقتضى عموم القرآن و إن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلما لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة. انتهى.

وقال ابن عثيمين رحمه الله في "القول المفيد" (١١٣/١): قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك. انتهى[١].

قَوْلُهُ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: ما سوى ذلك من الذنوب، فإن كلمة (دون) تأتي لعدة معانٍ، فمن فسرها بمعنى سوى جعل معناها فيغفر ما سوى الشرك، ومن فسرها بمعنى ما هو أدنى جعل الآية في حق الشرك الأكبر، قالوا وما دون ذلك هو الشرك الأصغر وغيره من المعاصي، فهي تحت المشيئة، وقد تقدم القول في المسألة فلا داعي للتكرار.

وفي الآية ردّ على الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، أما الخوارج فإنهم يكفرون بالمعاصي، ويستبيحون دماء المسلمين بذلك، وإذا مات صاحب الكبيرة عندهم يكون في النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، وفي الآية فرقّ الله عز وجل بين الشرك وبين بقية الذنوب، وأخبر أن بقية الذنوب تحت المشيئة، وعقيدة أهل السنة والجماعة: أن أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، يدل على ذلك أحاديث الشفاعة كما سيأتي بيانه في باب خاص.

وأما المرجئة فيزعمون أن المعاصي لا تضر ولا تنقص الإيمان، وفي الآية

(١) منقول «فصل الخطاب في بيان عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» كما وردت في كتبه و رسائله و فتاواه (٤٧/ ٣٤) ترتيب الدكتور أحمد بن عبدالكريم نجيب.

ردّ عليهم، فالله ﷻ أخبر أنه يغفر الذنوب فيما دون الشرك لمن يشاء ومن لم يشأ لم يغفر له، بل يعذب بذنوبه.

وفيها رد على المعتزلة، من أصحاب عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال؛ حيث يزعمون أن صاحب الكبيرة في الدنيا لا مؤمن ولا كافر! وفي الآخرة يحكمون عليه بالخلود في النار موافقة للخوارج، وهذا خلاف معتقد أهل السنة، فصاحب الكبيرة عندهم مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ويعتقدون خروج الموحدين من النار على ما هو مبسوط في موضعه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قَوْلُهُ (الخليلُ): هو إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، والخلة: هي كمال المحبة وأعلى درجاتها، وكما قيل:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلاً

وقد اتخذ الله عَزَّ وَجَلَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا ففي حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم (٥٣٢): قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**».

قَوْلُهُ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾: قال الراغب في "**المفردات**" (٢٠٦): من: جنبته عن كذا أي: أبعدته، وقيل: هو من جنبت الفرس، كأنما سأله أن يقوده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفيّة. اهـ.

وهذه آية عظيمة، فيها التحذير من الشرك، وفيها خوف الأولياء من الشرك، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي كسر الأصنام بيده، يلجأ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ يَقُصُّ، وَيَقُولُ فِي قَصَصِهِ: مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ يَقُولُ: رَبِّ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. أخرجه ابن جرير في "**تفسيره**" (١٣/ ٦٨٧).

قال مجاهد: فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ دَعْوَتَهُ فِي وَلَدِهِ، قَالَ: فَلَمْ يَعْبُدْ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ صَنَمًا بَعْدَ دَعْوَتِهِ، ودعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الدعاء لكثرة من ضل بعبادة

الأصنام قال تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. انتهى من "تفسير" الطبري (١٣/ ٦٨٧).

وَالصَّنَمُ: التِّمْثَالُ الْمُصَوَّرُ، ذكره الطبري في "تفسيره" (١٣/ ٦٨٧). فما جاء على صورة مشخصة، كصورة إنسان أو حيوان ونحوه فهو صنم، والوثن أعم من ذلك فيشمل الصنم، وغيره مثل الأشجار والاحجار ونحوها.

ولما قرأ النبي ﷺ قول الخليل: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فقال: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، كما تقدم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

قَوْلُهُ (وَفِي الحَدِيثِ): الذي أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) ورجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع، فعمرو -وهو ابن أبي عمرو مولى المطَّلب- لم يسمعه من محمود بن لبيد، بينهما فيه عاصم بن عمر بن قتادة، وهو ثقة، وله شواهد.

وصحابي الحديث: أبو نعيم محمود بن لبيد بن عقبة بن رافع بن امرىء القيس ابن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهلي المدني. ولد في حياة رسول الله ﷺ، ولم يصح له سماع ولا رواية عن النبي ﷺ.

وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث مرسلة، واختلفوا في صحبته، فقال ابن أبي حاتم: قال البخاري: له صحبة. وقال أبي: لا نعرف له صحبة. قال ابن عبد البر: قول البخاري أولى.

قَوْلُهُ (أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم): أي أشد ما أتخوف عليكم، وهذا من رحمة رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم، وقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وخشيّ صلى الله علينا غير ذلك فقد ترك الوصال خشيت أن يفرض على أمته، وترك قيام رمضان في المسجد جماعة لذلك، وخشيّ علينا الدنيا وغير ذلك مما هو مذكور في صحيح سنته.

قَوْلُهُ (الشِّرْكُ الأَصْغَرُ): هو ما ورد في النصوص الشرعية من تسمية بعض الذنوب شركًا، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، ولكنه ذريعة إليه ووسيلة للوقوع فيه وهو غير مخرج من الملة، وقد ذكرت الفروق بينه وبين الأكبر فيما تقدم ولله الحمد.

والشرك الأصغر قسمان:

القسم الأول: شرك اللسان والجوارح، وهو ألفاظ وأفعال، فالألفاظ كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، والصواب أن يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان.

ومنه التسمية: بملك الملوك، أو قاضي القضاة، والتعبيد لغير الله تعالى؛ كتسمية الشخص بعبد النبي، وعبد الحسين، وغيرها.

والأفعال: كلبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه، وتعليق التمائم خوفًا من العين، على تفصيل يأتي في موطنه، وضابطه جعل ما ليس بسببٍ سببًا، فإن اعتقد أن هذا الشيء يستقل بالتأثير بدون مشيئة الله فهو شرك أكبر، كحال عبَّاد الأصنام وعبَّاد القبور الذين يعتقدون أنها تنفع وتضر استقلالًا، وإن اعتقد أن الله جعله سببًا، مع أن الله لم يجعله سببًا فهو شرك أصغر لأنه شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بالسببية مع أن الله لم يجعله سببًا.

والقسم الثاني: الشرك الخفي، وهو شرك النية، كأن يقصد بعمله رضا الناس؛ كالرياء والسمعة، وإرادة الدنيا ببعض الأعمال.

قَوْلُهُ (فَسُئِلَ عَنْهُ؟): فيه السؤال فيما يشكل لرفع الجهل، ودفع الالتباس.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: الرِّيَاءُ): هذا من تفسير العام ببعض معناه، والحديث دليل على خوف النبي ﷺ على أمته من الشرك الأصغر، وذلك لفشوه، وخفائه، وهوى النفس إليه، وسيأتي الكلام على الرياء في بابه إن شاء الله تعالى.

وفيه دلالة على انتشار هذا النوع من الشرك في المسلمين،وفي خشية رسول الله ﷺ وتخوفه على أمته منه دليل على فشوه ولهذا تجد هذا النوع منتشرا حتى بين بعض أهل الإستقامة ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه أنكر على أحد من الصحابة الوقوع في الأكبر؛ بينما أنكر على عمر رضي الله عنه الحلف بغير الله تعالى،

وأنكر على غيره حين قال: اجعل لنا ذات أنواط، وأنكر على كثير من الصحابة ممن يقول: ما شاء الله وشئت، على ما يأتي بيانه في مواطنه، ومن هذا ينبغي للمسلم التحرز مما تخوفه علينا رسول الله ﷺ، وقد تخوف رسول الله ﷺ على أمته الدنيا وقد فتنتهم عن دينهم ووقعت بينهم البغضاء والشحناء والتهاجر والتقاطع والتدابر من أجلها؛ أسأل الله السلامة فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا**» أخرجه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢).

وفي البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦): عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ، إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» قَالَ عُقْبَةُ: «**فَكَانَتْ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ**».

وفي "**الزهد والرقائق**" لابن المبارك (١١١٤) عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: يَا نَعَايَا الْعَرَبِ ثَلَاثًا إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، قال: «مَنْ مَاتَ وهُوَ يدْعُو مِنْ دُونِ الله ندًّا دخلَ النَّارَ». رواهُ البخاريُّ.

قَوْلُهُ (ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه): وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، تقدمت ترجمته.

قَوْلُهُ (مَنْ ماتَ وَهْوَ يدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا): الند هو المثيل، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] أي: مُثلاء ونظائر، والله عز وجل يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ويقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ويقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فإذا كان لا ند له ولا مثيل ولا سمي في صفاته كذلك لاند له في عبادته تعالى الله وتقدس أن يكون له شريك في ملكه.

فلا شريك لله تعالى في ألوهيته ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، يُدعى ويرجى ويخاف منه، كالخوف من الله ويستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يخشى من دون الله إلى غير ذلك، بل تصرف العبادات له سبحانه وتعالى، وكذلك لا يجعل لله ندًا في ربوبيته، أي: معينًا وظهيرًا، ولا في أسمائه وصفته شبيهًا، ومثيلًا تعالى الله عن قول المبطلين علوًا عظيمًا.

قَوْلُهُ (مَنْ ماتَ وَهْوَ يدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دخَلَ النَّارَ): مفهوم الحديث: أن من مات موحدًا لله عز وجل دخل الجنة، ودخول النار هنا: على التأبيد، لمن مات على الشرك الأكبر، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

والناس في دخول الجنة أنواع: صنف يدخل من غير حساب ولا عذاب، وقد تقدم ذكر بعض صفاتهم.

وصنف يسجن على باب الجنة بسبب ذنوب اقترفوها، فيتقاصون بينهم على القنطرة ففي البخاري(٢٤٤٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

وقسم يدخلون النار يهذبون ثم يخرجون منها، ويدخلون الجنة على ما تواترت به الأحاديث، وكلهم من أهل الإيمان وأما الكفار والمشركون ففي النار يخلدون ففي مسلم(١٨٥): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ -أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ- فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**».

قَوْلُهُ(رواهُ البخاريُّ): أي في "**صحيحه**" كتاب التفسير بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] رقم (٤٤٩٧)، وأخرجه مسلم (٩٢).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): أي في "**صحيحه**" رقم (٩٣)، (عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه) هو جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما، وأبوه أفضل منه، قتل أبوه رضي الله عنه يوم أحد، ففي "**صحيح البخاري**" (١٣٥١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «**لَمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دَعانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلاَّ مَقْتُولا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنِّي لا أَتْرُكُ بعْدِي أعزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرِ نَفْسِ رسُولِ اللهِ ﷺ، وإنَّ علَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، واسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا...**»، حضر المشاهد مع النبي ﷺ جميعها، ولم يتخلف إلا عن غزوة بدر وأحد بسبب أبيه رضي الله عنهما جميعًا، ثم كان مما قاله النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه: «**مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا**» أخرجه ابن ماجه (١٩٠) وغيره، أي: كلمه من غير واسطة ومن غير ترجمان.

وأخرجه جابر رضي الله عنه من قبره بعد ستة أشهر، ووجده لم يتغير، وكأن جرحه في ذلك الحين، وقال النبي ﷺ لما سمع الباكية تبكيه: «**تَبْكِينَ أَوْ لاَ تَبْكِينَ مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ**» أخرجه البخاري (١٢٤٤)، وجابر رضي الله عنه من المكثرين في الحديث.

قَوْلُهُ (مَنْ لَقِيَ اللهَ): اللقي يكون بمعاينة على ما دلت عليه الأحاديث، فعلى هذا يكون هذا الحديث من أدلة الرؤية، والمعنى أن من مات على توحيد الله تعالى، دخل الجنة.

قَوْلُهُ (لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا): نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

قَوْلُهُ (دَخَلَ الْجَنَّةَ): على التفصيل الذي تقدم، فإما أن يدخل ابتداء أو مآلًا.

قَوْلُهُ (وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ)، (شَيْئًا): نكرة في سياق الإثبات فتفيد العموم، وسواء في ذلك الشرك الأكبر أو الأصغر، فصاحب الشرك الأكبر يخلد في النار، وصاحب الشرك الأصغر يخرج من النار بعد التمحيص على ما تقدم.

ومن فوائد الباب منزلة دعاء الله سبحانه وتعالى، وحاجة العبد إلى ذلك، وفيه تعاهد الأنبياء والمرسلين، والأولياء والمتقين لأنفسهم، وفيه التحذير من الرياء، وأنه مفسد للعمل، وثبت في صحيح مسلم (٢٩٨٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وقال ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**» عن جندب وابن عباس رضي الله عنهما في "**الصحيحين**" البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

وفيه: أن الأعمال بالخواتيم، فمن مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار، وإن كان قبل ذلك موحدًا، ومن مات وهو يوحد الله عز وجل دخل الجنة وإن كان قبل ذلك مشركًا منددًا، وفي حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[1]، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: **فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»[2].

وفيه: فضيلة التوحيد، ومنزلته الرفيعة: فمن لقي الله به دخل الجنة.

وفيه: خطر الشرك، وأن من لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار.

---

(١) البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(٢) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

٤- بَابُ الدُّعاءِ إلى شَهَادَةِ أَنَّ لا إلهَ إلاَّ اللّهُ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ الدُّعاءِ إلى شَهَادَةِ: أَنَّ لا إلهَ إلاَّ اللّهُ

عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لبيان فضل الدعوة إلى التوحيد، وعلو منزلتها لأنها دعوة إلى حق الله تعالى المقدم على كل حق، ودعوة إلى طريق جميع الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، ودعوة إلى سبيل دخول الجنة، والسلامة من النار، ودعوة إلى سبيل السعادة في الدارين.

وناسب وضعه في هذا الموطن استطرادًا في الأبواب العامة فبعد أن بين التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وفضله، وبين أن من حققه دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وحذر من الخوف من الشرك ناسب أن يرغب في الدعوة إلى التوحيد، والداعي إلى الخير له مثل أجر فاعله، كما صح في مسلم (١٨٩٣) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»، وفي "**صحيح مسلم**" (٢٦٧٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»، والدعوة إلى التوحيد طريقة الرسل، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ونوح عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهكذا بقية الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يدعون إلى عبادة الله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، اللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا، وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**». أخرجه مسلم (١٢).

ومنها كتابات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى التوحيد: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**» أي: إثم المزارعين والأتباع، أخرجاه[1] من حديث أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه.

وأوجب وأولى ما يُدعى إليه التوحيد، مكث النبي ﷺ عشر سنين في مكة يدعو إلى التوحيد، قبل أن يفرض الله الصلاة والصيام والحج والزكاة، وغير

---

(١) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ذلك، فلما تقرر في نفوسهم التوحيد فرضت عليهم الفرائض؛ لأن من حقق التوحيد سهل عليه التخلص من غيره من الذنوب؛ أما المشرك فإنه مضيع لحق الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، ومن كان جاهلًا بالله، فهو لما سواه أجهل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها كما في "**صحيح البخاري**" (٤٩٩٣) لعروة رضي الله عنه: «**إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ وَالحَرَامُ**»، قوله: (ثَابَ النَّاسُ) أي: رجع الناس من شركهم، بعدها أنزل الله الأحكام.

والرافضة، الباطنية والصوفية، ومن إليهم عندهم التوحيد تشييد القبور وعبادتها، وتعظيم آل البيت حتى أوصلوهم إلى منزلة الربوبية.

فأغلب الفرق مخالفون لهذا الأصل كل بحسبه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ**»، أخرجه البخاري (٧٢٨١) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، وفي رواية **فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ**».

وفي اليمن وحدها من القبور التي تعبد من دون الله تعالى: أبو طير، والهادي، والعياني الذي قبره في ريدة يزعمون أن كلامه أفضل من كلام الله، والهادي، والعيدروس، وابن علوان، وأحمد بن العجيل، والمساوى، والجبرتي، وأبو بكر بن سالم وشلته السبعة في العينات بوادي حضرموت، وحنظلة، وسلطانة، وأحمد بن المهاجر، وصاحب الضحي، فهؤلاء بعض، وإلا فأغلب اليمن ملغم، منهم من يمسك البحر كالفازة، ومنهم من يعطي الأرزاق كابن علوان، ومنهم من يشفي المرضى، ومنهم من يحيي الموتى كالعيدروس، إذن: ماذا بقي من الإسلام عند من يعتقد في هؤلاء؟ ماذا بقي من التوحيد؟ والإمام محمد بن عبد الوهاب خرج في بلاد الحجاز، ونجد، وقد صارت القباب والقبور مشيدة، قبر ابن عباس، وقبر زيد بن الخطاب، وقبور آل البيت، وقبور

بقية الصحابة، وهكذا بالشام قبر ابن عربي، وفي العراق، قبور النجف، وفي مصر قبر الحسين والدسوقي والسيدة زينب، والسادة البكرية، وقد لغمت البلاد الإسلامية بالقبور.

فناسب أن الداعي إلى الله يبدأ بِتَعَلُّمِ التوحيد والدعوة إليه، وليكن إلى آخر حياته ملازمًا للدعوة إلى التوحيد والعمل به، وإذا نظرت إلى وصايا السلف تجد فيها الدعوة إلى التوحيد فيوصي عند موته: وأني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن الجنة حق والنار حق، وقبل ذلك النبي ﷺ كما جاء في صحيح مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه: قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»، وعند موته يقول: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**» متفق عليه[١]، ويقول: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ**» متفق عليه[٢].

وقَوْلُهُ (الدُّعاءِ إِلى شَهَادَةِ أَنَّ لا إِلـهَ إِلاَّ اللهُ): أي: الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وهي كلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، وكلمة التوحيد، والعروة الوثقى إلى غير ذلك من الأسماء.

وكلمة (لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) تتكون من ركنين أساسيين، النفي، والإثبات؛ لأن النفي وحده عدم، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة، وفي معنى هذه الكلمة كثير

---

(١) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، عَنْ عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.
(٢) البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٣٧)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

من الآيات، منها قول الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

يقول العلماء: التخلية قبل التحلية، يعني: إذا جئت إلى رجل مشرك، اخرج من قلبه ما يناقض الحق، ثم بعد ذلك ادخل في قلبه المعتقد الصحيح.

وتفسيرها كما تقدم: لا معبود بحق إلا الله، وشروطها ثمانية جمعها بعضهم في قوله:

عِلمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ مَعَ ... مَحَبَّةٍ وَانقيادٍ والقَبول لَهَا
وَزِيدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... دونَ الإلهِ مِنَ الْأَوْثَانِ قَدْ أُلِهَا

والإله: هو المعبود محبة وتعظيمًا.

فشروطها:

الأول: العلم، وضده الجهل: قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩]، وفي حديث عثمان رضي الله عنه عند مسلم (٢٦): قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

الثاني: اليقين، وضده الشك: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في مسلم (٣١) وفيه: أن النبي ﷺ قال له: «.. **فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، وجاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ وحذيفة رضي الله عنهما: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». أخرجه مسلم (٢٧).

الثالث: الإخلاص: وضده الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٨٥): «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند البخاري (٩٩)، أن النبي ﷺ قال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ».

الرابع: الصدق: وضده الكذب، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤-١٥]، وفي صحيح البخاري (١٢٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ».

الخامس: المحبة، وضدها البغض: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهكذا يقول النبي ﷺ كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عند الشيخين[1]: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ،..» الحديث.

السادس: الانقياد وضده الإعراض: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: ٥١]، وأما الكفار فهم معرضون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

مُّعۡرِضُونَ ﴾ [النور: ٤٨]، وكما قال الله ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ [النساء: ٦١].

السابع: القبول وضده الرد: فالمؤمن يقبل ما دلت عليه (لا إله إلا الله)، قال الله ﷻ مخبرًا عن الكافرين: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

الثامن: الكفر بالطاغوت: قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه عند مسلم (٢٣): «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قَوْلُهُ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾: أي: قل يا محمد هذه طريقي، وطريق رسول الله ﷺ واحد، وقد تقدم بيانه عند قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قَوْلُهُ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: أي إلى إفراده بالعبادة والطاعة.

قَوْلُهُ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: أي على علم، ويقين بما أعمل، وأدعوا إليه.

قَوْلُهُ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: أي أنا على بصيرة، ومن صدقني وآمن بي على بصيرة أيضًا، وهذه الآية فيها أمر من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ، أن يقول: يا أيها الناس: هذا سبيلي وطريقتي أدعو إلى الله سبحانه وتعالى على بصيرة، أي: على علم، **وقَوْلُهُ**: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ فيها معنيان:

الأول: أنا ومن اتبعني على بصيرة.

الثاني: أنا ومن اتبعني: ندعو إلى الله ﷻ على بصيرة، وكلا المعنيين حق، فإن أهل السنة يدعون إلى الله ﷻ على بصيرة، وأهل السنة على توحيد وبصيرة.

وقَوْلُهُ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: فيه الإخلاص لله ﷻ، وقَوْلُهُ: ﴿سَبِيلِي﴾: فيه المتابعة لرسول ﷺ، ومثله قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

قال الطبري في "تفسيره" (١٣/٣٧٩): قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] قَالَ: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾، هَذَا

أَمْرِي وَسُنَّتِي وَمِنْهَاجِي ﴿ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] قَالَ: وَحَقٌّ اللَّهِ وَعَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَيُذَكِّرُ بِالْقُرْآنِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَيَنْهَى عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ. اهـ.

قَوْلُهُ ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: يؤتى بها للتنزيه، ويؤتى بها للتعجب والتعظيم، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وهي من الباقيات الصالحات، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، وكلمة (وَسُبْحَانَ اللهِ) تتضمن تنزيه الله ﷻ عن جميع النقائص، وتستلزم إثبات جميع المحامد لله ﷻ، فإن نفي النقائص يلزم منه وجود المحامد، وإثبات المحامد يلزم منه نفي النقائص، كما أنّ الحمد لله تتضمن إثبات كل جميع المحامد، وإثبات جميع صفات الكمال لله ﷻ، وتستلزم نفي جميع صفات النقص؛ ولهذا كان (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) من أحب الكلام إلى الله، ففي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عند مسلم (٢١٣٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**».

قَوْلُهُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: فيه البراءة من الشرك، وأهله، والمشركون هم المُنَدِّدُون سموا بذلك لأنهم شَرّكوا مع الله في العبادة.

فالمراد من هذه الآية: أن طريقة النبي ﷺ الدعوة إلى شرائع الإسلام، ومن أعظمها التوحيد، وهو إفراد الله بما يجب له، في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَن ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لما بَعث مُعاذًا إلى اليمن، قَال لَه: «إنَّك تأْتِي قوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب، فَلْيكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ: شَهَادَةُ أنَّ لا إلهَ إلا اللّه»، وفي رواية: «إلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّه، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّه افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّه افْتَرَضَ علَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ، فَإيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللّه حِجَابٌ». أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا): تقدمت ترجمته، وهو أعلم من أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا جميعًا.

قَوْلُهُ (لما بَعثَ مُعاذًا إلَى اليمَنِ): أي للدعوة إلى التوحيد، وشرائع الدين، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان ممن حفظ القرآن في عهد النبي ﷺ، وكان يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع يصلي بقومه، حتى إنه كان يصلي بهم بسورة البقرة أو بنحوها، فشكا بعضهم معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ**» -أَوْ «**أَفَاتِنٌ**»- ثَلاَثَ مِرَارٍ: «**فَلَوْلاَ صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ**»، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (إلَى اليمَنِ): والمراد به هنا إقليم الجند، واليمن في المعنى العام من فرضة عمان، على بحر العرب إلى البحر الأحمر. ومن فضائل أهل اليمن أن النبي

---

(١) البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

ﷺ قَالَ: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ كَأَنَّهُمُ السَّحَابُ، هُمْ خِيَارُ مَنْ فِي الْأَرْضِ**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَلَا نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ. قَالَ: وَلَا نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، قَالَ: وَلَا نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ كَلِمَةً ضَعِيفَةً: «**إِلَّا أَنْتُمْ**»[١]، والأنصار من اليمن.

وحديث ثوبان رضي الله عنه ، في "**صحيح مسلم**" (٢٣٠١) قال النبي ﷺ: «**إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ**»، والنبي ﷺ يقول: «**الْإِيمَانُ يَمَانٍ، الْفِقْهُ يَمَانٍ، الْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**» أخرجه مسلم (٥٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

وكما في مسند الإمام أحمد (٧٧٢٣) وغيره، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، الْفِقْهُ يَمَانٍ، الْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**»، وجاءت وفودهم في ذلك العام، ونصر الله بهم الدين.

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، نزلت في أهل اليمن، ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه ، لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هُمْ قَوْمُ هَذَا**» أخرجه ابن أبي حاتم في "**تفسيره**" (٦٥٣٥)، وغيره، ولما أسلمت همدان سجد النبي ﷺ شكرًا لله، وقال: «**السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ**» أخرجه البيهقي (٣٩٣٢ في "**الكبرى**" عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه ، وهمدان من نجران إلى صنعاء، وحجة وحاشد، ومن إليها وما تفرع منها حجور وبكيل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٧٩)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ١٢٢) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه.

وقد ألف أخونا الشيخ أبو بشير رحمه الله تعالى كتابًا في فضائلهم، اسمه: "**البيان الحسن في فضائل أهل اليمن**".

قَوْلُهُ (قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ): وكان عندهم دين النصرانية واليهودية، كانت النصرانية في نجران، واليهودية في كثير من مناطق اليمن.

وفيه: وصية الداعي بالتأهب لمن يقدم عليهم حتى تقوى حجته.

قَوْلُهُ (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ» وفي رواية: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ»): فيه: تقديم الدعوة إلى التوحيد قبل غيره، والبداية بالأهم فالأهم.

قَوْلُهُ (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ): أي: أطاعوك ووحدوا الله، وأفردوه بما يجب له.

قَوْلُهُ (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ): وهي معلومة مذكورة، وفضلها عظيم بعد التوحيد، فمن تركها فقد كفر، قال النبي ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» أخرجه ابن ماجه (١٠٧٩)، والترمذي (٢٦٢١)، من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، وقال ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**» أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جَابِرٍ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (فَأَعْلِمْهُمْ): أي أخبرهم.

قَوْلُهُ (أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ): وهي الزكاة المفروضة، وبهذا الحديث احتج من احتج من أهل العلم: أن الزكاة لا تُخرج من البلد إلى بلد غيره: «**فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»، والشأن

يعود إلى الإمام، إن أراد أن يوزعها في غير البلد، أو كان أهل البلد في غنى عنها.

قَوْلُهُ (فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ): وهي أفضل ما معهم من الغنم، والشاة، والإبل، وإنما يؤخذ من المتوسط.

قَوْلُهُ (وَاتَّقِ): أي توقى من الوقاية.

قَوْلُهُ (دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ): حتى ولو كان كافرًا، فالمظلوم دعوته ربما تستجاب، كيف إذا كان أبًا أو أمًا، كيف إذا كان مسافرًا على ما ذكر ممن يستجاب دعوتهم، وفي الحديث: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ، حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم، يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»، أخرجه أحمد (٨٠٤٣)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ): أي ترفع إليه على ما تقدم.

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): البخاري (١٤٥٨،١٤٩٦)، مسلم (١٩).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُمَا: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

(يَدُوكُونَ) أي: يَخُوضُونَ.

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا): أي: للبخاري (٣٧٠١، ٣٠٠٩، ٢٩٤٢) بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ومسلم (٢٤٠٦) في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه): هو أبو العباس، وقيل: أبو يحيى سهل بن سعد ابن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي المدني رضي الله عنه، كان اسمه حزنًا، فسماه النبي ﷺ سهلًا. شهد سهل قضاء رسول الله ﷺ في المتلاعنين.

قال الزهري: سمع من النبي ﷺ، وكان له يوم وفاة النبي ﷺ خمس عشرة سنة. وتوفي بالمدينة سنة ثمان وثمانين، وقيل: سنة إحدى وتسعين. قال ابن

سعد: هو آخر من مات من أصحاب النبي ﷺ بالمدينة ليس فيه خلاف. وقال غيره: بل فيه خلاف. رُويَّ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وثمانية وثمانون حديثًا، اتفقا على ثمانية وعشرين، وانفرد البخاري بأحد عشر.

(يومَ خيبرَ): هو اليوم الذي فتح رسول الله ﷺ فيه خيبر، في السنة السادسة من الهجرة، وكان فيها اليهود، وغزاهم رسول الله ﷺ، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في "**الصحيحين**"(١): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَزَا خَيْبَرَ، قَالَ: فَصَلَّيْنَا عِنْدَهَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ بِغَلَسٍ، فَرَكِبَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَرَكِبَ أَبُو طَلْحَةَ، وَأَنَا رَدِيفُ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَجْرَى نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ، وَإِنَّ رُكْبَتِي لَتَمَسُّ فَخِذَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَانْحَسَرَ الْإِزَارُ عَنْ فَخِذِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَإِنِّي لَأَرَى بَيَاضَ فَخِذِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ الْقَرْيَةَ، قَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ**» ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: وَقَدْ خَرَجَ الْقَوْمُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ، وَاللهِ - قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: مُحَمَّدٌ، وَالْخَمِيسُ - قَالَ: وَأَصَبْنَاهَا عَنْوَةً، وَجُمِعَ السَّبْيُ، فَجَاءَهُ دِحْيَةُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ. فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً**»، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ؟ مَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ، قَالَ: «**ادْعُوهُ بِهَا**»، قَالَ: فَجَاءَ بِهَا، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: «**خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا**»، قَالَ: وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا...

قَوْلُهُ (الرَّايَةَ): العلم، وجمعه رايات قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٢٦): اللِّوَاءُ بِكَسْرِ اللَّامِ وَالْمَدِّ هِيَ الرَّايَةُ وَيُسَمَّى أَيْضًا الْعَلَمُ وَكَانَ الْأَصْلُ أَنْ يُمْسِكَهَا رَئِيسُ الْجَيْشِ ثُمَّ صَارَتْ تُحْمَلُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ اللِّوَاءُ غَيْرُ

---

(١) البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥).

الرَّايَةِ فَاللِّوَاءُ مَا يُعْقَدُ فِي طَرَفِ الرُّمْحِ وَيُلْوَى عَلَيْهِ وَالرَّايَةُ مَا يُعْقَدُ فِيهِ وَيُتْرَكُ حَتَّى تَصْفِقَهُ الرِّيَاحُ وَقِيلَ اللِّوَاءُ دُونَ الرَّايَةِ وَقِيلَ اللِّوَاءُ الْعَلَمُ الضَّخْمُ وَالْعَلَمُ عَلَامَةٌ لِمَحِلِّ الْأَمِيرِ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ وَالرَّايَةُ يَتَوَلَّاهَا صَاحِبُ الْحَرْبِ وَجَنَحَ التِّرْمِذِيُّ إِلَى التَّفْرِقَةِ فَتَرْجَمَ بِالْأَلْوِيَةِ وَأَوْرَدَ حَدِيثَ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ وَلِوَاؤُهُ أَبْيَضُ ثُمَّ تَرْجَمَ لِلرَّايَاتِ وَأَوْرَدَ حَدِيثَ الْبَرَاءِ أَنَّ رَايَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ سَوْدَاءَ مُرَبَّعَةً من نمرة وَحَدِيث بن عَبَّاسٍ كَانَتْ رَايَتُهُ سَوْدَاءَ وَلِوَاؤُهُ أَبْيَضَ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وبن مَاجَهْ وَأَخْرَجَ الْحَدِيثَ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا وَمِثْلُهُ لِابْنِ عَدِيٍّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلِأَبِي يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ سِمَاكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ عَنْ آخَرَ مِنْهُمْ رَأَيْتُ رَايَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَفْرَاءَ وَيُجْمَعُ بَيْنَهَا بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ وَرَوَى أَبُو يَعْلَى عَنْ أَنَسٍ رَفَعَهُ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ أُمَّتِي بِالْأَلْوِيَةِ إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ وَلِأَبِي الشَّيْخِ من حَدِيث بن عَبَّاسٍ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى رَايَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَسَنَدُهُ وَاهٍ وَقِيلَ كَانَتْ لَهُ رَايَةٌ تُسَمَّى الْعِقَابَ سَوْدَاءُ مُرَبَّعَةٌ وَرَايَةٌ تُسَمَّى الرَّايَةَ الْبَيْضَاءَ وَرُبَّمَا جُعِلَ فِيهَا شَيْءٌ أَسْوَدُ. انتهى.

قَوْلُهُ (رَجُلا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ): فيه: فضيلة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث أن النبي ﷺ زكاه بحبه لله ورسوله ﷺ، وهذه منزلة رفيعة، ودرجة علية.

قَوْلُهُ (وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ): فيه أيضًا فضيلة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث أخبر النبي ﷺ بحب الله ورسوله ﷺ له، وهل بعد هذا الشرف من شرف.

وفيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله، والحديث: رد على الأشاعرة والمعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يحب، والأدلة على إثبات هذه الصفة كثيرة في الكتاب والسنة، وصفة المحبة من الصفات الفعلية.

قَوْلُهُ (يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ): فيه دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، بحيث أخبر النبي ﷺ بالفتح قبل وقوعه، ولشيخنا مقبل رحمه الله تعالى كتابٌ حافلٌ في هذا الباب اسمه "**الجامع الصحيح من دلائل النبوة**".

قَوْلُهُ (فَبَاتَ): من البيتوتة وتكون بالليل.

قَوْلُهُ (النَّاسُ): من العام الذي أُريد به الخاص، والمراد به من كان حاضرًا.

قَوْلُهُ (يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ): أَيْ يخُوضُون ويمُوجون فِيمَنْ يَدْفَعُها إِلَيْهِ. يُقَالُ وقعَ الناسُ فِي دَوكَةٍ ودُوكَةٍ: أَيْ فِي خوضٍ واختلاطٍ. قاله ابن الأثير في "**النهاية**" (٢/ ١٤٠).

قَوْلُهُ (أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا): أي من الذي يُعطى الراية من رسول الله ﷺ، وفيه: التنافس على الخير والتسابق إليه، وكانت المنافسة في هذا الأمر من عدة أوجه، كونه مشهودا لمن يُعطى الراية بحبه لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وبحب الله ورسوله ﷺ له، ولكونه يفتح الله على يديه حصون خيبر بعد إن استعصت عليهم.

قَوْلُهُ (فَلَمَّا أَصْبَحوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا): أي: كلهم يأمل من الله ﷻ أن يُعطى الراية للفضيلة المذكورة.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟): فيه: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وهذا رد على غلاة الصوفية ونحوهم.

قَوْلُهُ (فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ): من الشكوى وهو المرض وكانت الشكوى رمدًا في عينيه.

قَوْلُهُ (فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ): القائل هو النبي ﷺ.

قَوْلُهُ (فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ): فيه بركة ريق النبي ﷺ، والبصاق، ويقال البساق، والبزاق؛ وهو خروج الريق من الفم، وهو غير النفث فالنفث

خروج رذاذ من الريق مع الهواء.

قَوْلُهُ (وَدَعَا لَهُ) أي بالعافية والشفاء من هذا المرض، فاستجاب الله دعاءه، وفي الحديث: جواز التبرك بآثار النبي ﷺ دون غيره، فلا يتبرك بريق الصالحين، ولا بعرقهم، إلا النبي ﷺ فكانوا يتبركون بعرقه وريقه ومخاطه، وكانوا يضعون عرقه في الطيب وهو أطيب الطيب، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ، قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟**» قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ، متفق عليه[1]، وفي حديث المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه ، وفيه: .. **قَالَ عروة بن مسعود: «فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ»**، وفيه أيضًا: «**فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا**». أخرجه البخاري (٢٧٣١).

والناس في مسألة التبرك: طرفان ووسط، منهم: من ينكر البركة مطلقًا، ومنهم من يثبتها مطلقًا، حتى إنهم يتبركون بكل شيء، بالأحجار والأشجار، والأتربة، وقبور الصالحين، وبمن توسموا فيه الصلاح، حتى إذا دخلوا المسجد الحرام يتبركون بكل أصفر، وهذا مخالف لشرع الله عز وجل، إنما يُتبرك بما شرع الله، والبركة: هي وضع الخير الإلهي في الشيء، ولا يتبرك بذات أحد وآثاره إلا بآثار النبي ﷺ.

قَوْلُهُ (فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ): أي مكنه منها.

---

(١) البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣١)، واللفظ له.

قَوْلُهُ (انْفُذْ): بِضَمِّ الْفَاءِ بَعْدَهَا مُعْجَمَةٌ أي سر، وانطلق.

قَوْلُهُ (عَلَى رِسْلِكَ): بِكَسْرِ أَوَّلِهِ أَيْ عَلَى مَهْلِكَ وَالرسل السّير الرفيق، قاله الحافظ في "**الفتح**" (٧/ ٢٣٤)، ففيه الحث على السكينة، وعدم العجلة.

قَوْلُهُ (حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ): أي بفناء حصونهم وبيوتهم، والساحة هي المكان الواسع، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ وخبرته بالقتال، فإن مثل هذا المكان أسمح للحركة والبِراز، والكر، والفر.

قَوْلُهُ (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ): فيه الدعوة قبل القتال، وهذا هو الشاهد من سوق الحديث في الباب، وهل تجب الدعوة مطلقًا قال النووي في "**شرح مسلم**" (١٢/ ٣٦): فِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الْإِغَارَةِ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ مِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ بِالْإِغَارَةِ وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ حَكَاهَا الْمَازِرِيُّ وَالْقَاضِي.

أَحَدُهَا: يَجِبُ الْإِنْذَارُ مُطْلَقًا قال مَالِكٌ وَغَيْرُهُ وَهَذَا ضَعِيفٌ.

وَالثَّانِي: لَا يَجِبُ مُطْلَقًا وَهَذَا أَضْعَفُ مِنْهُ أَوْ بَاطِلٌ.

وَالثَّالِثُ: يَجِبُ إِنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ وَلَا يَجِبُ إِنْ بَلَغَتْهُمْ لَكِنْ يُسْتَحَبُّ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وبه قال نافع مولى بن عُمَرَ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثور وبن المنذر والجمهور قال بن الْمُنْذِرِ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى مَعْنَاهُ فَمِنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ وَحَدِيثُ قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَحَدِيثُ قَتْلِ أَبِي الْحُقَيْقِ. انتهى.

قَوْلُهُ (وَأَخْبِرْهُمْ): أي أعلمهم.

قَوْلُهُ (بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ): أي: إذا أسلموا أخبرهم أن الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك، وأخبرهم أن الله افترض عليهم فرائض منها الصلاة والصيام والزكاة «**فَإِنْ**

أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ» كما في حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه عند مسلم (١٧٣١)، وقدم حق الله تعالى لمنزلته فهو المقدم رتبة، ومعنى، وكل حق تابع له.

قَوْلُهُ (فَوَاللَّهِ): فيه جواز الحلف بغير استحلاف. **(لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ):** فيه فضل الدعوة إلى الله عز وجل.

قَوْلُهُ (حُمْرِ النَّعَمِ): بِسُكُونِ الْمِيمِ مِنْ حُمْرٍ وَبِفَتْحِ النُّونِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَهُوَ مِنْ أَلْوَانِ الْإِبِلِ الْمَحْمُودَةِ قِيلَ الْمُرَادُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ فَتَتَصَدَّقَ بِهَا وَقِيلَ تَقْتَنِيهَا وَتَمْلِكُهَا وَكَانَتْ مِمَّا تَتَفَاخَرُ الْعَرَب. انتهى من "**فتح الباري**" (٧/ ٤٧٨).

مسألة: قد يقول قائل: ما ذكر الحج والصيام في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؟

فيقال: بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر الأحاديث على الأحوال والمناسبات، تارة يذكر هذا، وتارة هذا، وقد يقال: بأنه لم يكن قد فُرِضَ الحج بعد.

***

٥- باب تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلا اللَّهُ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رحمه الله:

بَابُ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أن لا إلَه إلا اللَّهُ.

قَوْلُهُ (تَفْسِيرِ): التفسير: البيان، ومنه قولهم تفسير القرآن.

قَوْلُهُ (التَّوْحِيدِ): والتوحيد: هو إفراد الله بما يجب له، وقد تقدم.

قَوْلُهُ (وَشَهَادَةِ أن لا إلَه إلا اللَّهُ): هذا من باب عطف الخاص على العام، أو من عطف الشيء على نفسه.

وفي تفسير هذه الكلمة ألف الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رسالة مستقلة بَيَّنَ فيها ما يتعلق بها مَبْنًى ومَعْنًى، وذلك لأنها أس الإسلام وأصله، ومن أسماء هذه الكلمة: كلمة التقوى، والعروة الوثقى، والكلمة التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه، وكلمة الإخلاص، وهي متضمنة للنفي والإثبات، وتقتضي إفراد الله عز وجل بما يجب له، وتستلزم الانقياد لله عز وجل بجميع الطاعات.

فالإله هو المعبود محبة وتعظيمًا، ويعبد بالخوف والرجاء، والتذلل وغير ذلك من أنواع العبادات.

وذكر هذا الباب في هذا الموطن؛ لبيان التوحيد على حقيقته، فكم ممن يقول لا إله إلا الله وما عرفوا معنى (لاَ إِلَهَ إلا اللَّهُ) حقيقة، فناسب أن يبين لهم معنى التوحيد، ومعنى قول: (لاَ إِلَهَ إلا اللَّهُ) قبل أن يشرع في بيان ما يناقض التوحيد.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقبلها، قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦] قال الطبري في "تفسيره" (١٤/ ٦٢٦): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ: ادْعُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَرْبَابٌ وَآلِهَةٌ مِنْ دُونِهِ عِنْدَ ضُرٍّ يَنْزِلُ بِكُمْ، فَانْظُرُوا هَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ عَنْكُمْ، أَوْ تَحْوِيلِهِ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، فَتَدْعُوهُمْ آلِهَةً، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَمْلِكُونَهُ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُهُ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ خَالِقُكُمْ وَخَالِقُهُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِينَ أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَعُزَيْرًا وَالْمَسِيحَ، وَبَعْضُهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ. انتهى.

قَوْلُهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: أي من يعبد الله تعالى من الصالحين، والمشركون يعبدونهم من دون الله أو مع الله.

قَوْلُهُ ﴿يَدۡعُونَ﴾: أي يعبدونهم بالدعاء، وغيره.

قَوْلُهُ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: أي يطلبون.

قَوْلُهُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: أي أنَّ المدعوين من دون الله يطلبون القربة من الله بدعائه، ورجائه، وحسن عبادته.

قَوْلُهُ ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾: أي أَيُّهُمْ بِصَالِحِ عَمَلِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي عِبَادَتِهِ أَقْرَبُ عِنْدَهُ زُلْفَةً. انتهى من "تفسير" الطبري (١٤/ ٤٢٦).

قَوْلُـهُ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾: أي بأفعالهم الصالحة يطمعون في رحمته، وتجاوزه عنهم، وقبوله لهم.

قَوْلُهُ ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾: أي يخافون عذابه بِخِلَافِهِمْ أَمْرَهُ[١] تعالى، فإن الطاعات من أسباب رضى الله تعالى عن العبد، والمعاصي من أسباب سخطه أسأل الله السلامة.

وكلما قوي إيمان العبد خاف الله تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخشية الخوف مع التعظيم، ويروى أنه دَخَلَ سَائِلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ لِابْنِهِ: أَعْطِهِ دِينَارًا، فَأَعْطَاهُ. فَلَمَّا انصَرَفَ، قَالَ ابْنُهُ عَقِيلٌ: تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْكَ يَا أَبَتَاهُ فَقَالَ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَقَبَّلَ مِنِّي سَجْدَةً وَاحِدَةً أَوْ صَدَقَةَ دِرْهَمٍ لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ، أَتَدْرِي مِمَّنْ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][٢].

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في سياقة الموت: «**وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا، لَا لِي وَلَا عَلَيَّ، لَا أَتَحَمَّلُهَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا**»[٣]، مع أنه قد بشر بالجنة.

وفي "**صحيح مسلم**" (١٢١) عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟

قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٢٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: **تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

قَوْلُهُ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: من الحذر أي مُتَّقَى.

وفي سبب نزول هذه الآية ما في مسلم (٣٠٣٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] قَالَ: «**كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْلَمُوا، وَكَانُوا يُعْبَدُونَ، فَبَقِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، وَقَدْ أَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ**»، والوسيلة القربة، قال بعضهم:

إِنَّ الرِّجَالَ لهمْ إليْكِ وسيلَة ... إنْ يأْخذوكِ تكحَّلي وتخضَّبي

فتضمنت الآية معاني عظيمة، ومراتب جليلة من العبادة، وأنّ الله يعبد بالحب والخوف والرجاء، فمن عبد الله بالمحبة والخوف والرجاء فهو الموحد، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ويعزى إلى رابعة العدوية ونازك الملائكة، ومن إليهن من زنادقة الصوفية قولهم: نعبد الله بالحب وحده، يعني: لا نخاف منه، ولا من ناره، ولا عندنا طمع في جنته وإنما نعبده بالحب وحده وهذا خلاف دين الأنبياء فقد كانوا يعبدون الله محبة، وخوفًا ورجاء،

قال الله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والنبي ﷺ كان يستعيذ من عذاب جنهم، ومن عذاب القبر ويسأل الله الجنة.

ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري خارجي، يُكفِر المسلمين، ويُقنِطهم من الله تعالى.

ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، لا يبالي أزنى أم سرق أم شرب الخمر، أو فعل أي كبيرة من الكبائر.

ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو متبع للنبي ﷺ، والنبي ﷺ يقول كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**»، أخرجه مسلم (٢٧٥٥)، ويقول الله ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويقول: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

قَوْلُهُ ﴿لِأَبِيهِ﴾: آزر كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

قَوْلُهُ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾: من أهل حران، وفي "**معجم البلدان**" (٢/ ٢٣٥): هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقّة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، قيل: سميت بهاران أخي إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنه أول من بناها فعرّبت فقيل حرّان، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيّون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل. انتهى.

قَوْلُهُ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: فيه البراءة من الشرك، والمشركين.

قَوْلُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: أي: الذي خلقني قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي: خالق السماوات والأرض، وفيها أنه يبرأ من كل إله يُعبد من دون الله تعالى الذي فطره أي خلقه، قال قتادة: يَقُولُ: «**إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَنِي**»(١). وفيها معنى لا إله إلا الله.

قَوْلُهُ ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: أي: فَإِنَّهُ سَيُقَوِّمُنِي لِلدِّينِ الْحَقِّ، وَيُوَفِّقُنِي لِاتِّبَاعِ سَبِيلِ الرُّشْدِ بالتوفيق، والبيان.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٧٦).

والهداية تنقسم إلى أقسام:

- **هداية توفيق:** وهذه خاصة بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

- **وهداية إرشاد ودلالة:** وهي عامة في كل من دعا إلى الخير، قال الله في حق نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

- **ومنها:** الهداية العامة للجن والإنس وسائر الحيوانات والحشرات والطيور، قال الله ﷻ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

- **وهداية إلى الجنة والنار:** قال الله في أصحاب النار: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقال تعالى عن المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

قَوْلُهُ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾: قال قَتَادَةَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالتَّوْحِيدُ لَمْ يَزَلْ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنْ يَقُولُهَا مِنْ بَعْدِهِ**»، أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢٠/ ٥٧٧)، وقال ابن زيد أنها الإسلام ولا تعارض فرأس الإسلام التوحيد.

وفيها دلالة على أن التوحيد باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويدل على ذلك حديث مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما، مرفوعًا: «**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**» متفق عليه[1]، وصح عن مجموعة من الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وإذا ذهب أهل التوحيد من الأرض قامت الساعة، قَالَ النبي ﷺ: «**لَا تَقُومُ**

---

(١) البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧).

السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ» أخرجه مسلم (١٤٨) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، حيث يقبض الله أرواح المؤمنين، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ» أخرجه مسلم (١١٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: يَقُولُ: لِيَرْجِعُوا إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَيَثُوبُوا إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ. انتهى من "**تفسير**" الطبري (٢٠/ ٥٧٨).

وفي هذه الآية تفسير (لا إله إلا الله) فقد تضمنت النفي والإثبات، فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ فيها معنى النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيها معنى الإثبات، و(لا إله إلا الله) هي الكلمة المتضمنة للنفي والإثبات، وقد ضُرب بإبراهيم عليه السلام المثل في البراءة من المشركين قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾، وهذه غاية الحب والبغض في الله: «**أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**»[1]، فإبراهيم عليه السلام يتبرأ من أبيه، وقومه، ويؤكد تلك البراءة بقوله (أبدًا).

وهذا هو الواجب لقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧/ ٥٩) ط أشبيليا، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

وفي قصة سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﵁ لما أسلم كما في «**تفسير**» الطبري (١٨/ ٥٥٢)، وأصلها في مسلم[١]: قَالَ سعد: لَمَّا أَسْلَمْتُ، حَلَفَتْ أُمِّي لَا تَأْكُلُ طَعَامًا وَلَا تَشْرَبُ شَرَابًا، قَالَ: فَنَاشَدْتُهَا أَوَّلَ يَوْمٍ، فَأَبَتْ وَصَبَرَتْ؛ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي نَاشَدْتُهَا، فَأَبَتْ؛ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ نَاشَدْتُهَا فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ لَخَرَجَتْ قَبْلَ أَنْ أَدَعَ دِينِي هَذَا؛ فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ، وَعَرَفَتْ أَنِّي لَسْتُ فَاعِلًا أَكَلَتْ. اهـ.

فأنزل الله في شأنه القرآن: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

***

(١) برقم (١٧٤٨) وفيها: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا... الحديث.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

قَوْلُهُ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾: أي اليهود والنصارى.

قَوْلُهُ ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: علماء اليهود قِيلَ وَاحِدُهُمْ حِبْرٌ وَحَبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ مِنْهُ وَفَتْحِهَا. انتهى من "تفسير" الطبري (١١/ ٤١٦).

قَوْلُهُ ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾: عباد النصارى.

قَوْلُهُ ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يَعْنِي: سَادَةً لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُطِيعُونَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، فَيُحِلُّونَ مَا أَحَلُّوهُ لَهُمْ مِمَّا قَدْ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا قَدْ أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُمْ، انتهى من "تفسير" الطبري (١١/ ٤١٧). وهذا شرك في التشريع على ما يأتي.

قَوْلُهُ ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: أي: واتخذوا المسيح ابن مريم ربًا من دون الله. وهذا يناقض ما أمر الله به من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٦٣].

قَوْلُهُ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: توكيد لنفي الألوهية عما سوى الله تعالى.

قَوْلُهُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: فيها: تنزيه الله ﷻ عن الشرك،

وادعاء الصاحبة والولد، فإن النصارى زعموا أن لله صاحبة وولدًا: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، حتى قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩٢].

ويُذكر عن الباقلاني الأشعري أنه ذهب إلى ملك الروم، وكان ذكيًا فطنًا، و أراد ملك الروم أن يدخل الباقلاني وهو منحني له، فأغلق الأبواب جميعًا وجعل كوة صغيرة لا يدخل منها الرجل إلا منحنيًا، فدخل موليًا ظهره، ثم بعد ذلك قالوا له: أيها الرجل: إن دينكم حسن، ونحب أن ندخل فيه لولا أن زوجة نبيكم اتهمت بالزنى، فتركنا دينكم من أجل هذا؟

فقال: أعطيكم مسألة وتجيبوني؟ قالوا: نعم، قال: امرأة كان لها زوج ولم يكن لها ولد، واتهمت بالزنى، وامرأة كان لها ولد ولم يكن لها زوج واتهمت بالزنى، فأيهن أحق بالتهمة؟

فقالوا: التي لها ولد وليس لها زوج، قال: هذه مريم، من باب الإلزام قالوا: هي منزهة وطاهرة، قال: وتلك منزهة وطاهرة.

ودخل رجل من رهبانهم، فقال له الباقلاني: مرحبًا وأهلًا: كيف الأهل والأولاد؟ فجعل النصارى يسبحون ويسترجعون، قال: ما شأنكم؟! قالوا: هذا لا يجوز له أن يتزوج، أو يكون له أبناء، قال: سبحان الله! تنزهون هذا عن الصاحبة والولد وتزعمون أن لله صاحبة وولدًا، فخصمهم.

وسمعت بعض النصارى يقول: أنتم أيها المسلمون لم تتصوروا معنى الولادة الربانية: يقول: نحن نؤمن بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، لكن أنتم لتمثيلكم وتشبيهكم، ظننتم أن ولادة عيسى كبقية الولادات، أقول:

هذا قول باطل، فدعواهم أن عيسى ابن الله دعوى باطلة.

ففي هذه الآية ينهى الله ﷻ عن اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، وينهى عن اتخاذ عيسى ربًا، فعيسى عبد الله ورسوله وكلمته، كما قال عن نفسه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ويوم القيامة يقول الله له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولهذا قال لهم عيسى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وعند أن ينزل عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان، فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويُعبد الله وحده سبحانه وتعالى، وفي حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، قال: قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»، أخرجه الطبراني في "**الكبير**" (٢١٨)، والحديث محتج به، وفيه غطيف بن أعين، ولكنه في الباب.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ **الآية** [البقرة: ١٦٥].

قولُهُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: من للتبعيض. ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾: وهذا حال المشركين؛ يتخذون من دون الله أندادًا، ونظراء ومثلاء، يصرفون لهم أنواع العبادات.

قَوْلُهُ ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: أي يحبون هذه الأنداد التي عبدوها من دون الله تعالى كحب الله، وهذا شرك في المحبة.

وفي الآية: أن الكفار يحبون الله ﷻ، ويحبون آلهتهم، ومحبتهم لآلهتهم كمحبتهم لله، على أحد التفسيرين، ومع ذلك لم يشفع لهم أنهم يحبون الله، بل أصبحوا مشركين ومنددين في المحبة، وجعلوا لله مثلاء ونظراء في ذلك، فكفرهم الله ﷻ بذلك حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والظلم هنا: الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فيقال لعباد القبور من الصوفية، والرافضة، والمكارمة، ومن إليهم هذه الأفعال التي تقومون بها من صلاة وصيام وحج وصدقة لا تنفعكم ولا تقربكم إلى الله لأنكم أشركتم مع الله سبحانه غيره.

والمعنى الثاني للآية: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: أن المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله، وهذا شرك أكبر.

قَوْلُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أي: والمؤمنون أكثر حبًا لله تعالى من المشركين لآلهتهم، وحب الله ﷻ عبادة جليلة، وفي حديث أنس رضي الله عنه في "**الصحيحين**": «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**...» الحديث. ففي هذه الآيات فيها تفسير كلمة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وأن من شروطها المحبة على ما تقدم. البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إلا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قَوْلُهُ (وَفِي الصَّحِيحِ): أي صحيح مسلم (٢٣) فقد أخرجه من حديث طارق ابن أشيم الأشجعي رضي الله عنه، وله في مسلم حديثان لا ثالث لهما، هذا أحدهما في كتاب الإيمان، والآخر في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٩٧) بلفظ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ، عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي».

ففي الحديث: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أي: وحد الله عز وجل، وقالها بلسانه، واعتقدها بجنانه: «وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ» أي: كفر بالطاغوت: حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»

فمن قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بلسانه، ولم يعقد عليها بقلبه، ولم يكفر بالطاغوت لا تنفعه هذه الكلمة، بل كان منافقا، وإنما تنفع هذه الكلمة صاحبها إذا اقترنت بالبراءة من الشرك وأهله على ما تقدم من قول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي "صحيح مسلم" (٣٣) من حديث محمود بن الربيع عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، قَالَ الزُّهْرِيُّ: «ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَائِضُ وَأُمُورٌ نَرَى أَنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى إِلَيْهَا فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَغْتَرَّ فَلَا يَغْتَرَّ».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَشَرحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

قَوْلُهُ (وَشَرحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ...): أي: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، ما بعد هذا الباب من الأبواب، حيث يبين في الأبواب التي تأتي نواقض (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) على تفصيل وتفريع، وسيبين ما هو من لوازم (لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ)، وهذه من أحسن الطرق التي يفهم بها هذا الباب إذا كان بيان التوحيد وضده بالإجمال ثم جاء بالتفصيل، وبيان ذلك أن المشركين من عباد القبور قد يستدلون بأدلة التوحيد الإجمالية وأدلة التحذير من الشرك لكنهم بالتفصيل يُخصَمون فيبين فساد ما هم عليه من صرف العبادات لغير الله عَزَّ وَجَلَّ على ما يأتي.

ثم أن التفصيل فيه بيان للأغلاط التي يقع فيها المكلف وقد يكون جهلًا ونسيانًا، والمسلم مأمور بمعرفة دينه إجمالًا وتفصيلًا، وبالله التوفيق.

❋❋❋

٦- بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيطِ وَنَحْوهِمَا لِرَفْعِ البَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ

هذا شروع في بيان التوحيد ونواقضه تفصيلًا بعد أن فسر معنى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، والتوحيد الذي دعت إليه الرسل إجمالًا، وهذا التفصيل له أهمية عظيمة فيتعلم الجاهل ويتذكر الناسي وتُزال به الشبه وتُقام به الحجج.

فقال: (مِنَ الشِّرْكِ): من للتبعيض أي: من بعض الشرك. **(لُبْسُ):** اللِّبَاسُ واللَّبُوسُ واللَّبْسُ ما يُلبس.

(الحَلْقَةِ وَالخَيطِ): والحلقة معروفة الشيء المحلق، والخيط معروف، وهو ما يصنع من الكتان وغيره، وقد عهدنا أناسًا إذا خافوا العين يربطون الخيط، وربما إذا كان فيهم ألم في موطن من المواطن يربطون خيطًا أيضًا على إصبع من الأصابع، ويعطون للأطفال حلقًا على أيديهم من النحاس أو غيره، وربما ربطوا لهم شيئًا في أعناقهم كل ذلك لدفع العين.

قَوْلُهُ (وَنَحْوِهِمَا): أي وما اتُخذ لنفس الغرض من لواصق، وكتابات وغير ذلك.

قَوْلُهُ (لِرَفْعِ البَلاءِ): أي الذي قد وقع **(أَوْ دَفْعِهِ):** أي الذي لم يقع بعد وهو قيدٌ مهم إذ لو لبسها للزينة لم يكن مشركًا.

وهذا من شرك الأسباب وهذا النوع من الشرك قد يكون أكبرًا، وقد يكون أصغرًا، حسب حال صاحبه قال السعدي في "**القول السديد**" (٤٢): يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببا إلا ما ثبت أنه سببٌ شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصدا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر. وهو شرك في الربوبية حيث اعتقد شريكا مع الله في الخلق والتدبير.

وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببا يستدفع بها البلاء، فقد جعل ما ليس سببا شرعيا ولا قدريا سببا، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي، وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة. وأما القَدَر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة. وكذلك هو من جملة وسائل الشرك؛ فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه.

فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضاء الله وثوابه، ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقا قلبه بها راجيا لنفعها. اهـ.

نقلتُ هذا لأهميته والحاجة إلى فهمه، ومعرفته حتى يتسنى تنزيل الحكم على كل مكلف بحسبه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قَوْلُهُ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، وهؤلاء المنددين: أخبروني: ما يُعبد من دون الله من الحجارة والأصنام والأوثان والجن والشياطين، والملائكة، وغيرهم من الصالحين.

قَوْلُهُ ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾: أي بشدة في معيشتي، وغيره من أنواع الضر.

قَوْلُهُ ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾: هل هن مزيلات مَا يُصِيبَنِي بِهِ رَبِّي مِنَ الضُّرِّ.

الجواب: لا، لايستطعن ذلك لعجزهن، والإله هو القادر القوي القاهر، سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته، أما هذه الأصنام لا تستطيع دفع الضر ولا جلب النفع لضعفها ولعجزها، ولموتها ولغير ذلك.

قَوْلُهُ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾: يَقُولُ: إِنْ أَرَادَنِي رَبِّي أَنْ يُصِيبَنِيَ سَعَةً فِي مَعِيشَتِي، وَكَثْرَةً مَالِي، وَرَخَاءً وَعَافِيَةً فِي بَدَنِي، قاله الطبري في "تفسيره" (٢٠/ ٢١٢)، وغير ذلك من أصناف الرحمات.

قَوْلُهُ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي مانعات ما أوصله إليّ.

الجواب: لا، لا يستطعن أن يمسكن الرحمة، ولا أن يجلبن الأرزاق، وإنما الواقع أنهن عاجزات عن إحياء، ورزق أنفسهن فضلًا عن رزق غيرهن، لكن الشيطان يلبس على الناس، ويزين لهم الشرك، ويحببه إلى قلوبهم، قال الطبري في "تفسيره" (٢٠/ ٢١٢): وَتُرِكَ الْجَوَابُ لِاسْتِغْنَاءِ السَّامِعِ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَدِلَالَةِ مَا ظَهَرَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. وَالْمَعْنَى: فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ لَا. اهـ.

قَوْلُهُ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي: الله كافيني لا سواه، ومغنيني عمن عداه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين.

قَوْلُهُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: كقول الله ﷻ مخبرًا عن قول نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وقول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

فالله ﷻ أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه سبحانه وتعالى، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته، فالله ﷻ هو الذي يجلب الخير وييسره ويدفع الضر ويصرفه، فليكن تعلق القلوب به سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وفي حديث ابن

عباس رضي الله عنهما الذي علمه النبي ﷺ إياه: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**». أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

فالتعلق يكون بالله عز وجل مع فعل الأسباب الشرعية، فالله عز وجل حين ابتلاك بالمرض حث على الدواء، كما في حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَتِ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعَلَيْنَا حَرَجٌ فِي كَذَا وَكَذَا فَقَالَ: «**عِبَادَ اللهِ وَضَعَ اللهُ الْحَرَجَ إِلَّا مَنِ اقْتَرَضَ امْرًا مُسْلِمًا ظُلْمًا فَذَلِكَ هَلَكَ أَوْ حَرِجَ وَهَلَكَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَتَدَاوَى قَالَ: «**نَعَمْ عِبَادَ اللهِ، إِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يُنْزِلْ أَوْ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ**» أخرجه ابن الجعد في "مسنده" (٢٥٨٦).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مِنْ جَهِلَهُ» أخرجه أحمد (٤٢٣٦).

وقد اختلف العلماء: أيهما أفضل التداوي أم الترك؟

والصحيح: أن المرض إذا كان يحول بين المرء وبين الطاعة فإن الأفضل له التداوي، وإذا كان مرضًا خفيفًا يستطيع أن يصبر عليه ويتحمل، فهو مخير مع أن الأضرار قد تسبب البعد عن الطاعات والكسل، وغير ذلك.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ الإِمَامُ بِسَنَدٍ لا بَأْسَ بِهِ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): بن عبيد بن خلف بن عبد نهم بن حذيفة ابن جهمة بن غاضرة بن حبشية بن كعب بن عمرو الخزاعي، هكذا نسبه ابن الكلبي ومن تبعه...، هو أبو نجيد، صحابي بن صحابي، أسلم هو وأبوه في عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، قاله ابن البرقي[1]. اهـ. وكانت تسلم عليه الملائكة حتى أكتوى أخرجه مسلم (١٢٢٦)، وفيه: «...وَقَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّى اكْتَوَيْتُ، فَتُرِكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ».

قَوْلُهُ (رَأَى رَجُلًا): هكذا جاء مبهمًا، ولا تضر الجهالة في المتن، ومثلها جهالة الصحابي لا تضر لأنهم كلهم عدول.

قَوْلُهُ (فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ): أي: نوع من الحلق والصفر هو النحاس.

قَوْلُهُ (مَا هَذِهِ؟): وهذا استفهام إنكاري.

قَوْلُهُ (قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ) وهو مرض كان يأتي في العضد، وفي الأرجل.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: انْزِعْهَا) أي: اقطعها، وأزلها عنك.

قَوْلُهُ (فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلا وَهْنًا): أي لاتزيل المرض، بل تزيده، وذلك: أن الشرك من أسباب الوهن، وهن القلوب والإيمان، ومن طرق استمتاع

(١) «الإصابة» للحافظ (٤/ ٥٨٤-٥٨٥).

الشيطان بالإنسي، والإنسان الذي يتعاطى الشرك لا يزال مريضًا أبدًا، بل ميتًا، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قوله (فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا): وذلك لأنَّ الشرك سبب من أسباب الهلكة، وعدم الفلاح، ومن أسباب الخسارة الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فتعليق الحلقة أو الخيط من الشرك الأصغر، فإذا اقترن معه: اعتقاد أن هذه الحلقة أو الخيط تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا بنفسها، صار من الشرك الأكبر لقوله: «مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»، وإنما الفلاح في الإسلام كما قال النبي ﷺ لذلك الرجل: «**لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ**»، أخرجه مسلم (١٦٤١) وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، وقال ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**» أخرجه مسلم (١٠٥٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَحْمَدُ الإِمَامُ): أي: أخرجه الإمام أحمد: وهو أحمد ابن محمد بن حنبل الشيباني أمام أهل السنة، أبتلي في فتنة القول بخلق القرآن فثبت، ونفع الله به، وهو صاحب "**المسند**"، و"**مسنده**" ديوان السنة، وكذلك "**كتاب الزهد**"، و"**فضائل الصحابة**" وغيرها، والحديث أخرجه في "**المسند**" (٤/ ٤٤٥)، وأخرجه ابن ماجه (٣٥٣١) من طريق... الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه .

وأخرجه ابن وهب في جامعه (٦٧٢،٦٧٣) عَنْ أَبِي عِيسَى الْخُرَاسَانِيِّ؛ وعن الحسن مرسلًا.

قوله (بِسندٍ لا بَأْسَ بِهِ): هكذا قاله المصنف، وفيه: مبارك بن فضالة مدلس وقد عنعن، وقد اُختلف على الحسن في رفعه ووقفه، والحسن لم يسمع

من عمران، فالحديث ضعيف، وأخرجه الطبراني في "**المعجم الكبير**" (١٨/ ١٧٩) وفي سنده أَسْلَمُ بْنُ سَهْلٍ الْوَاسِطِيُّ، لينه الدارقطني. وُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الطحان ضعيف، وأخرجه ابن بطة في "**الإبانة الكبرى**" (١١٧٢)، موقوفًا على عمران رضي الله عنه أَنَّهُ رَأَى فِي يَدِ رَجُلٍ حَلْقَةً مِنْ صُفَرٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: «**مِنَ الْوَاهِنَةِ**» قَالَ: «**أَمَا إِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، وَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهَا تَنْفَعُكَ لَمِتَّ عَلَى غَيْرِ الْفِطْرَةِ**».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَلَهُ عَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَرْفُوعًا : «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلا أَتَمَّ اللّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدعَةً، فَلا وَدعَ اللّهُ لَهُ».

قَوْلُهُ (وَلَه): أي: لأحمد في "**مسنده**"، برقم (١٧٤٠٤)، والحديث ضعيف في سنده خالد بن عبيد المعافري مجهول عين، ومجهول العين حديثه ضعيف جدًا.

قَوْلُهُ (عُقْبَة بْن عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): ابْن عبس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، من جهينة بْـن زَيْـد بْن سود بْن أسلم ابن عَمْرو بْن الحاف بْن قضاعة... يكنى أَبَا حَمَّـاد: وقيـل: أَبَـا أسيد. وقيل أَبَا عَمْرو، وقيل أَبَا سَعد، وقيل أَبَا الأسود، وقيل أَبَا عمّار، وقيـل أبـا عامر، أسلم، وبايع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام والهجـرة سـكن عقبـة بْـن عَـامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصر، وَكَانَ واليا عليها، وابتنى بها دارا، وتوفي فِي خلافـة مُعَاوِيَـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . انتهى من "**الإستيعاب في معرفة الأصحاب**" (٣/ ١٠٧٣) لابن عبد البر.

قَوْلُهُ (مَنْ تَعَلَّقَ): من التعليق، وسواء في ذلك التعليق الحسي، أو القلبي.

قَوْلُهُ (تَمِيمَةً): التميمة: ما يكتب أو يربط في الإنسـان أو الحيـوان لجلـب النفع ودفع الضر وغير ذلك، ويكون من الخيوط أو غيرها.

قَوْلُهُ (وَدَعَةً): والودع كالذي يخرج من البحـر مثـل الصـدف، يعلقونـه في رقاب الأطفال والحيوانات، لجلب النفع، ودفع الضر. ويوجد عند بعض النساء الساحرات والمشعوذات.

قَوْلُهُ (فَلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ): هذا دعاء عليه أن يعامل بنقيض قصده، فعلق التميمة ليتم أمره، فكان عكس ما فعلها من أجله، وقد يكون خبرًا محضًا، بمعنى أن الله لن يـتم لـه أمره. **وقَوْلُهُ**: (**فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ**): وهذا دعاء على المشركين الذين تتعلق قلوبهم بغير الله سبحانه وتعالى، أن لا تقع لهم الدعة والراحة.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»

قَوْلُهُ (مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ): أخرجها أحمد (٤/ ١٥٦)، وأخرجه الطبراني في "**الكبير**" (١٧/ ٨٨٥)، وأخرجه الحاكم (٤/ ٢١٩)، والحديث بهذا اللفظ محتج به.

فمن تعلق تميمة معتقدًا أنها تنفع وتضر من دون الله فقد أشرك شركًا أكبر مخرج من الملة، ومن تعلق بها على أنها سبب من أسباب الشفاء، فقد أشرك شركًا أصغر غير مخرج من الملة، لكنه في الحالين مرتكب لظلم عظيم، الظلم الأول: لا يغفره الله ويخلدون في النار، والثاني: لا يغفره الله تعالى، ولا يخلد في النار.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلابن أَبي حاتِمِ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلا: فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ وَتَلا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قَوْلُهُ (وَلابنِ أَبي حَاتِمٍ): برقم (١٢٠٤٠) من طريق عروة بن الزبير عن حذيفة ولم يسمع منه، وابن أبي حاتم هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي الرازي المتوفى (٣٢٧)، وأبوه هو الإمام أبو حاتم الرازي المحدث الحافظ، ومن أشهر مؤلفاته "**الجرح والتعديل**"، و"**الرد على الجهمية**"، و"**التفسير**" وغيرها.

قَوْلُهُ (عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه): هو ابن اليمان بن حسل رضي الله عنه، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم قبل بدر، ولم يشهدها؛ لأنه عاهد المشركين أن لا يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**» أخرجه مسلم (١٧٨٧).

قَوْلُهُ (خيط مِنْ الحُمَّى): أي ربطه يستشفي به من الحمى، والحمى: حرارة تصيب الجسم، وفي صحيح مسلم (٢٥٧٥) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيِّبِ فَقَالَ: «**مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟**» قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**».

وفي "**مسند أحمد**" (٨٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ قَطُّ؟**» قَالَ: وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: «**حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ**»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ:

«**فَهَلْ أَخَذَكَ الصُّدَاعُ قَطُّ؟**» قَالَ: وَمَا الصُّدَاعُ؟ قَالَ: «**عُرُوقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ**» ، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**».

قَوْلُهُ (فَقَطَعَهُ): أي هتكه وأزاله، وفيه تغيير المنكر باليد.

قَوْلُهُ (وَتَلا قَوْلَهُ تَعَالَى): محتجًا به أنَّ هذا من الشرك، وفيه ذكر الدليل لأنه أقوى في الإقناع.

قَوْلُهُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: أي: ما يؤمنون أكثر الناس بالله تعالى، إيمان ربوبية إلا وهم مشركون في الألوهية، فكثير من الناس يؤمنون بالله على أنه الخالق الرازق، المدبر، ولكنهم يشركون في باب الألوهية، في التعلق، والدعاء، والنذر، والرجاء، والخوف، وغير ذلك.

قال عِكْرِمَةَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قَالَ: «**مِنْ إِيمَانِهِمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَإِذَا سُئِلُوا: مَنْ خَلَقَهُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَهُمْ يُشْرِكُونَ بِهِ بَعْدُ**» أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (١٣/ ٣٧٣).

وفيه: جواز الاستدلال بعموم الأدلة، فقد ثبت في "**الصحيحين**"(١) عن الحسين بن علي رضي الله عنهما: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: إنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عليه السلام لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**» - يحثهما على الصلاة- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]).

---

(١) البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

والعجب أن كثيرًا من أهل البدع إذا تلوت عليهم أدلة تحريم الحزبية، والبدع، والشرك يقولون: أتستدل بهذه الآيات علينا؟ نقول: نعم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعروف: أننا لا نكفر عصاة المسلمين وإنما نخبر أنهم يستحقون العقاب، والوعيد.

***

٧- باب ما جاء في الرُّقَى والتَّمائم

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

قَوْلُهُ (مَا جَاءَ): أي ما جاء من الأدلة في حكمها، ولم يقل: من الشرك؛ لأن الرقى، والتمائم منها الشرعية، والشركية، وما أختلف فيه.

قَوْلُهُ (الرُّقَى): جمع رقية، من القراءة، وهي العُوذة الَّتِي يُرْقَى بِهَا صَاحِبُ الْآفَةِ كالحُمَّى والصَّرع[1]، وتجوز بشروط:

الأول: أن تكون بأسماء الله وصفاته.

الثاني: أن تكون مفهومة المعنى.

الثالث: أن لا يكون فيها شرك لقول النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**». أخرجه مسلم (٢٢٠٠) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (وَالتَّمَائِمِ): جمع تميمة، خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها، وهو ما يُعلق على الأولاد أو الحيوانات لدفع العين في زعمهم، فأبطلها الشرع، وسميت تميمة؛ لأنهم يعتقدون أنه يتم لهم بها أمرهم.

وقد تكون التميمة من آيات قرآنية ونحوها، وقد تكون حجرًا، أو نعلًا، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المسائل لشيوعها بين الناس.

---

(١) قاله ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٢٥٤).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي "الصَّحِيحِ" عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ؛ فَأَرْسَلَ رَسُولًا: أَنْ: لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

قَوْلُهُ (فِي "الصَّحِيحِ"): أي: "الصحيحين" البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥)، وقد يطلق الصحيح ويراد به أحدهما.

قَوْلُهُ (أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه): اختلف في اسمه، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٦١٠): لا يوقف له على اسم صحيح، ولا سماه من يوثق به ويعتمد عليه، وقد قيل: اسمه قيس بن عبيد بن النجار، ولا يصح؛ مات بعد الحرة، وقيل في اليمامة. اهـ.

قَوْلُهُ (فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ): الله أعلم أي سفر كان؟ لكن الشاهد: أن النبي ﷺ كان يعلم التوحيد في السفر والحضر، فلما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (وأبي) في السفر أنكر عليه، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» متفق عليه[1]، وأسفار رسول الله ﷺ كانت للهجرة والجهاد، والتجارة قبل البعثة نص على ذلك ابن القيم في "الزاد" (١/ ٤٤٤).

قَوْلُهُ (فَأَرْسَلَ رَسُولًا): أي رجلًا يبلغ عنه، وفيه: التوكيل في إنكار المنكر، وتبليغ العلم.

قَوْلُهُ (أَنْ: لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ): أي: في عنق جمل أو ناقة، وذكر البعير لشيوعه في ذلك، ويدخل فيه غيره، وليس التعليق خاص بالرقبة وإنما ذكرها على الغالب.

---

(١) البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ): هذا التردد على الشك من الراوي، فهل نهى عن القلادة مطلقًا أم عن قلادة الوتر فقط، والصحيح الإطلاق.

قَوْلُهُ (إِلا قُطِعَتْ): أي: أزيلت، والأوتار هي نوع من الحبال يربطون بها الأبعرة أو غير ذلك، وكانوا يربطونها لاعتقاد أنها تجلب النفع، أو تدفع الضر، فانكر عليهم رسول الله ﷺ هذا الصنيع.

وفي الحديث: تغيير المنكر باليد، وهو أحد مراتب تغير المنكر وأعلاها لكن بشرطه للمستطيع وأن لا يجر إلى ما هو أنكر منه، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»، أخرجه مسلم (٤٩).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَن ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رواه أَحْمَدُ، وَأَبو داودُ.

(التَّمَائِم): شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلادِ مِنَ العَينِ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَم يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُونَهُ مِنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ: ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ): سيأتي تفسير المصنف لها إن شاء الله تعالى.

قَوْلُهُ (شِرْكٌ): هذا عام، ويدخل فيه الشرك الأكبر والأصغر، لكنه يختلف بعقيدة المعلق، فإن كان يتخذه سببًا، فهو شرك أصغر، وإن كان يعتقد أنه ينفع ويضر من دون الله عَزَّ وَجَلَّ أو معه فهو شرك أكبر.

قَوْلُهُ (رواه أَحْمَدُ): أي في "**مسنده**" رقم (٣٦١٥)، قَوْلُهُ (وَأَبُو دَاودُ) وهو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) في "**سننه**" (٣٨٨٣) والحديث صحيح وهو في "**الصحيح المسند**" (١/ ٤١١) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ (التَّمَائِم): أي تعريفها.

قَوْلُهُ (شَيءٌ يُعَلَّقُ): وهذا على الغالب، إذ قد لا يكون غير معلقًا.

قَوْلُهُ (عَلَى الأَوْلادِ): أي الصغار لشدة الخوف عليهم، ولسرعة العين إليهم، وهذا على الغالب، وإلا فقد يعلق على غيرهم، وبعضهم قد لا يعلق شيئًا، وإنما يلبس لباسًا لنفس الغرض، فله حكمه.

قَوْلُهُ (مِنَ العَيْنِ): أي لاتقاء الإصابة بها، والعين حق ففي **"صحيح البخاري"** (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**العَيْنُ حَقٌّ**» وَنَهَى عَنِ الوَشْمِ.

وقَوْلُهُ: (العَيْنُ حَقٌّ) أي الإصابة بها ثابتة موجودة ولها تأثير في النفوس.

وفي **"صحيح مسلم"** (٢١٨٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**».

وهي عين حاسد من جني أو أنسي ففي **"صحيح مسلم"** (٢١٨٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه ، أَنَّ جِبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**».

ولها علاجان الأول الغسل كما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والثاني الرقية ففي **"صحيح البخاري"** (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «**اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**»

قَوْلُهُ (لَكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ، فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ): منهم عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ففي **"مسند أحمد"** (٦٦٩٦) من طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ: «**بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ**» قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: «**يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ**»، والحديث ضعيف بهذا الإسناد، فيه عنعنة ابن إسحاق.

قَوْلُـهُ (وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ): مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، ففي "**مصنف ابن أبي شيبة**" (٥/ ٣٥) عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ: دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى امْرَأَتِهِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ، فَإِذَا فِي عُنُقِهَا خَيْطٌ مُعَلَّقٌ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**» فَقَالَتْ: شَيْءٌ رُقِيَ لِي فِيهِ مِنَ الْحُمَّى، فَقَطَعَهُ فَقَالَ: «**إِنَّ آلَ عبدالله أَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ**» وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه لكن الأثر يصح من غير هذه الطريق، وهذا هو المذهب الصحيح فهو موافق لعمومات الأدلة.

ويذكر لنا بعض إخواننا أن واحدًا كان في دار الحديث بدماج إذا انتهى الأسبوع يقرأ، قال الإمام البخاري: حدثنا فلان، حتى ينتهي من جميع أحاديث الباب، التي قُرأت في الأسبوع، وفي يوم من الأيام قام فقال بعض الناس: فتح الشريط، فخر كالميت، وجاءوا يحركونه فلم يتحرك، فأمرهم الشيخ مقبل رحمه الله أن يتوضؤا له عملًا بحديث: «**وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»[(١)]، قال: فاغتسل جميع الطلاب إلا واحدًا انخنس، فبقي الشاب على حاله من العصر إلى عصر اليوم الثاني، قال الشيخ: توضؤا مرة أخرى، قال: فأراد ذلك الرجل أن يخرج فمسكه بعضهم بيده، وقال له: اتق الله تقتل الرجل: ثم توضأ مع الناس وذهبوا وغسلوه بالماء فكأنما نشط من عقال، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟**»[(٢)].

***

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أحمد (١٥٩٨٠)، عَنْ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَ(الرُّقَى): هِيَ التي تُسَمَّى: العَزَائِمُ، وَخصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَد رَخصَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن العَيْنِ وَالحُمَةِ.

وَ(التِّوَلَة): شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحبِّبُ المرْأَةُ إلى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلُ إلى امْرَأَتِهِ.

قَوْلُهُ (وَالرُّقَى): أي تعريفها.

قَوْلُهُ (تُسَمَّى: العَزَائِمُ): أي: في عرف الناس.

قَوْلُهُ (وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلا مِنَ الشِّرْكِ): لحديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**». أخرجه مسلم (٢٢٠٠)، فتكون بالأدعية القرآنية والنبوية، وما في بابها.

قَوْلُهُ (مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ): تقدم ذلك من حديث عمران رضي الله عنه ولفظه: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**».

قَوْلُهُ (وَالتِّوَلَة): نوع من العزائم.

قَوْلُهُ (يَصْنَعُونَهُ): ويعلقونه على الزوج أو الزوجة للتحبيب، وهذا شرك، والقول فيه على التفصيل السابق: إن كانوا يتخذونه سببًا فهو أصغر، وإن كانوا يعتقدون نفعه وضره مع الله أو من دون الله فهو شرك أكبر.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

قَوْلُهُ (عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ): هو الجهني، قيل له صحبة، ولا تثبت، وقد سمع كتاب رسول الله ﷺ إلى جهينة.

قَوْلُهُ (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا): أي: علق قلبه به، واعتمد عليه، وصار يعلقه رجاء نفعه، مع علم المسلم أنه يجب أن يعلق قلبه بالله تعالى على ما يأتي في باب التوكل.

قَوْلُهُ (وُكِلَ إِلَيْهِ): أي: أسند إليه، وفوض، وقد يبتليه الله ﷻ ويجعله موكل لذلك الشيء فلا يحصل على خير أبدًا.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَحْمَدُ): في "**المسند**" رقم (١٨٧٨١).

قَوْلُهُ (وَالتِّرْمِذِيُّ) (٢٠٧٢) وقال: وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُكَيْمٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: كَتَبَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَفِي البَابِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ. انتهى.

ولفظ أثر عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**مَوْضِعُ التَّمِيمَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالطِّفْلِ شِرْكٌ**» أخرجه ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٥/ ٣٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ رُوَيْفِعٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

قَوْلُهُ (أَحْمَدُ): أي في «**المسند**» رقم (١٦٩٩٥).

قَوْلُهُ (عَنْ رُوَيْفِعٍ): بن ثابت الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، توفي في عهد معاوية رضي الله عنه سنة (٤٦)، وفي الحديث: دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، لقوله ﷺ: «**لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ**».

قَوْلُهُ (فَأَخْبِرِ النَّاسَ): فيه: الحث على تبليغ العلم والتحذير من الشر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة.

قَوْلُهُ (أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ): قال البغوي في «**شرح السنة**» (١١/ ٢٨): وفسروا نَهيه عنْ عقد اللِّحْيَة على وَجْهَيْن: أَحدهمَا: مَا كانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجاهِلِيّة من عقد اللحى فِي الحروب، وذلِك زيُّ الْأَعَاجِم، يفتلونها، ويعقدونها. وقِيل: مَعْنَاهُ معالجة الشّعْر ليتعقد ويتجعد، وهِي عَادَة أهل التوضيع. اهـ.

قَوْلُهُ (أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا): أي: ربط وترًا في عنقه أو في عنق ولده أو في عنق دابته، أو في سيارته، أو في بيته، لجلب النفع ودفع الضر فهو على خطر عظيم جدًا، إن كان يتعلق بهذا الوتر، أو ما في معناه على أنه ينفع ويضر من دون الله فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أن هذا الوتر سبب لجلب النفع ودفع الضر فهو شرك أصغر، فهو بين ضلالتين أحدهما أعظم من الأخرى.

قَوْلُهُ (أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ): من النجو وهو إزالة الأذى من مخرجه، وقد يقع بالماء وهو انقى، ويجوز بالحجار. ففي صحيح مسلم (٢٦٢): عَنْ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَلْمَانَ ﵁ ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ «**لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ**» وفي حديث ابن مسعود ﵁ عند مسلم (٤٥٠)، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**».

والرجيع: هو ما يخرج من الإنسان أو الدابة، فلا يجوز أن يستجني برجيع دابة ولا برجيع إنسان ولا بعظم، وإنما يستنجي بالأحجار، أو ما في بابها من المناديل وغير ذلك، والاستنجاء بالماء أفضل وأحسن، مع أن حذيفة ﵁ ، كان ينكر الاستنجاء بالماء، وقد جاء عند الترمذي (١٩) عَنْ مُعَاذَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا قَالَتْ: مُرْنَ أَزْوَاجَكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالمَاءِ، فَإِنِّي أَسْتَحْيِيهِمْ، «**فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ**»[(١)]، وقد استنجى رسول الله ﷺ بالحجارة، وبالماء، ففي البخاري (١٥٦) عن ابن مسعود ﵁ ، قال: «**أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الغَائِطَ فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، فَوَجَدْتُ حَجَرَيْنِ، وَالتَمَسْتُ الثَّالِثَ فَلَمْ أَجِدْهُ، فَأَخَذْتُ رَوْثَةً فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَأَخَذَ الحَجَرَيْنِ وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ**».

وفي "**الصحيحين**"[(٢)] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ ، قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ الْخَلَاءَ فَأَحْمِلُ أَنَا، وَغُلَامٌ نَحْوِي، إِدَاوَةً مِنْ مَاءٍ، وَعَنَزَةً فَيَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ**».

قَوْلُهُ (فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ): فيه: أن هذه الأمور عظائم وكبائر فإن النبي ﷺ إذا برئ من شيء أو توعد عليه بالنار أو لعن فاعله على أنه من كبائر الذنوب، والكبائر إنما تُكفرها التوبة.مع اختلاف بين أهل العلم في الحج فذهب شيخنا الأثيوبي إلى أن الحج مكفر لقوة الأدلة في ذلك.

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(١٥٦٩) لشيخنا مقبل الوادعي ؒ.

(٢) البخاري (١٥٢)، ومسلم (٢٧١).

قال النووي في "**شرح مسلم**" (٢/ ٥٠): وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**فَلَيْسَ مِنَّا**» فَقَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ لَيْسَ عَلَى هَدْيِنَا وَجَمِيلِ طَرِيقَتِنَا كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِابْنِهِ لَسْتَ مِنِّي.اهـ.

وقال الحافظ في "**الفتح**" (١٢/ ١٩٧): **وَقَوْلُهُ**: «**فَلَيْسَ مِنَّا**» أَيْ عَلَى طَرِيقَتِنَا وَأُطْلِقَ اللَّفْظُ مَعَ احْتِمَالِ إِرَادَةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْمِلَّةِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْرِ وَالتَّخْوِيفِ. اهـ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ، كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»، رَوَاهُ وَكِيعٌ.

قَوْلُهُ (سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ): هو أبو محمد، تابعي مشهور قتله الحجاج ظلمًا.

قَوْلُهُ (مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ): أي منكرًا للمنكر، وأحسن من قطعها حسًا قطعها أيضا من قلبه.

قَوْلُهُ (كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ): أي كان كأجر عتق رقبة، وفضل العتق عظيم فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**»، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (رَوَاهُ وَكِيعٌ): هو أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس بن جمجمة ابن سفيان بن الحارث بن عمرو ابن عبيد بن رؤاس الرؤاسي (المتوفى: ١٩٧هـ) ولم أقف على الأثر عنده، وقد أخرجه ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٥/ ٣٦)، وفي سنده ليث بن أبي سليم، ضعيف ومختلط، ولكن معناه: أن من خلص رجلًا من الشرك كان كعتقه، بل هذا أعظم من أن يعتقه من رق العبودية؛ لأن به صلاح الدنيا والدين وكم في الدعوة إلى الله عز وجل من الأجور والنفع للداعي والمدعو.

---

(١) البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»

قَوْلُهُ (إِبْرَاهِيمَ): النخعي، وفي طبقته التيمي، وكلاهما إمام جليل، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٥/ ٣٦) بسند صحيح.

قَوْلُهُ (يَكْرَهُونَ): الكراهة في اصطلاح المتقدين تطلق على التحريم، على ما رجحه أهل الأصول.

قَوْلُهُ (التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ): وهذا هو المذهب الراجح في المسألة على ما تقدم بيانه قريبًا، والحمد لله.

ومن هذا القبيل ما يفعله كثير من جهال المسلمين من تعليق الآيات في البيوت وغيرها، فإن هذا من التشبه بأصحاب التمائم وكذلك من الامتهان لآيات الله عَزَّ وَجَلَّ وقد أمرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بتعظيم آياته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ونحن مأمورون بالعمل بالقرآن والسنة لا تعليقها في الجدران ونحوها.

***

٨ - بُابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بُابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

قَوْلُهُ (بُابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا): أي: حكمه.

قَوْلُهُ (تَبَرَّكَ): أي طلب البركة، تبرك يتبرك تبركًا.

قال أبو منصور في "تهذيب اللغة" (٢٣١/١٠): وأصل البَرَكة: الزِّيَادَة والنماءُ. اهـ. والبركة: هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

قَوْلُهُ (بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا): ذكر الحجر والشجر لشهرته، وإلا فقد يتبرك الناس بغيرهما.

وقد أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ القرآن مباركًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وجعل الله عَزَّ وَجَلَّ ماء زمزم مباركًا: «**طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**»(١)، وأنزل الله من السماء ماء طهورًا، ومباركًا.

وكان يؤتى النبي ﷺ بالأطفال فيحنكهم ويبرك عليهم، أي: يدعو لهم بالبركة، وإذا بارك الله عَزَّ وَجَلَّ في الشيء، كفى قليله، ولهذا جاء في **"صحيح مسلم"** (٢٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -شَكَّ الْأَعْمَشُ- قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**افْعَلُوا**»، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ

(١) أخرجه البزار «مسنده» (٣٩٤٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَدَعَا بِنِطَعٍ، فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «**خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ**»، قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ، حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلَّا مَلَئُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ**»

وفي "**صحيح مسلم**" (٢٠٥٧) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ، كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ مَرَّةً: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلَاثَةٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ**» أَوْ كَمَا قَالَ: وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَانْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ بِعَشَرَةٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بِثَلَاثَةٍ، قَالَ: فَهُوَ وَأَنَا وَأَبِي وَأُمِّي -وَلَا أَدْرِي هَلْ قَالَ: وَامْرَأَتِي وَخَادِمٌ بَيْنَ بَيْتِنَا وَبَيْتِ أَبِي بَكْرٍ- قَالَ: وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صُلِّيَتِ الْعِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حَتَّى نَعَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ بَعْدَمَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ -أَو قَالَتْ: ضَيْفِكَ؟- قَالَ: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، وَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وَقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئًا، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَايْمُ اللهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةِ عَيْنِي، لَهِيَ الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مِرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ

ﷺ، فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ: وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الْأَجَلُ فَعَرَّفْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ أَوْ كَمَا قَالَ.

وفي "**الصحيحين**"(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «**لَقَدْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ، حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ**».

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: اذْهَبْ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَغَدَّى عِنْدَنَا فَافْعَلْ، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَبَلَّغْتُهُ، فَقَالَ: «**وَمَنْ عِنْدِي؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**انْهَضُوا**» ، قَالَ: فَجِئْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ وَأَنَا مُدْهَشٌ لِمَنْ أَقْبَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا صَنَعْتَ يَا أَنَسُ؟ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ، قَالَ: «**هَلْ عِنْدَكِ سَمْنٌ؟**» قَالَتْ: نَعَمْ، قَدْ كَانَ مِنْهُ عِنْدِي عُكَّةٌ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ سَمْنٍ، قَالَ: «**فَائْتِ بِهَا**» ، قَالَ: فَجِئْتُهُ بِهَا فَفَتَحَ رِبَاطَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ فِيهَا الْبَرَكَةَ**» ، قَالَ فَقَالَ: «**اقْلِبِيهَا**» ، فَقَلَبْتُهَا، فَعَصَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُسَمِّي، قَالَ فَأَخَذَتْ تَقَعُ فِدَرٌ، فَأَكَلَ مِنْهَا بِضْعٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا، فَفَضَلَ فِيهَا فَضْلٌ، فَدَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَ: «**كُلِي وَأَطْعِمِي جِيرَانَكِ**». أخرجه الإمام أحمد (١٣٥٤٧).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لما دعا الرسول ﷺ وأصحابه يوم الخندق، وقال: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتِ العَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «**كَمْ هُوَ**»

(١) البخاري (٦٤٥١)، ومسلم (٢٩٧٣).

فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**»، قَالَ: «**قُلْ لَهَا: لاَ تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلاَ الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**»، فَقَالَ: «**قُومُوا**»، فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ، وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا**» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**». أخرجه البخاري (٤١٠١).

فالتبرك ينقسم إلى قسمين الأول التبرك المشروع: وهو أن يفعل المسلم العبادات المشروعة طلبًا للثواب المترتب عليها، ومن ذلك أن يتبرك بقراءة القرآن والعمل بأحكامه، فالتبرك به هو ما يرجو المسلم من الأجور على قراءته له وعمله بأحكامه، ومنه التبرك بالمسجد الحرام بالصلاة فيه ليحصل على فضيلة مضاعفة الصلاة فيه.

الثاني التبرك الممنوع: وينقسم من حيث حكمه إلى قسمين:

الأول: تبرك شركي: وهو أن يعتقد المتبرِّك أن المتبرَّك به -وهو المخلوق- يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالًا؛ لأن الله تعالى وحده موجد البركة وواهبها، فقد ثبت في صحيح البخاري (٥٦٣٩) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، عَنْ النبي ﷺ أنه قال: «**الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ**».

الثاني: تبرك بدعي: وهو التبرك بما لم يرد دليل شرعي يدل على جواز التبرك به، معتقدًا أن الله جعل فيه بركة، أو التبرك بالشيء الذي ورد التبرك به على غير الوجه الشرعي.

وهذا بدعة؛ لأن فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سنة، ولأنه جعل ما ليس بسبب سببًا، فهو من الشرك الأصغر؛ وهو ذريعة الشرك الأكبر.

ويدخل في ذلك التبرك بالأولياء والصالحين قياسا على التبرك بالنبي ﷺ.

وقد وردت أدلة كثيرة تدل على مشروعية التبرك بجسد وآثار النبي ﷺ، كشعره وعرقه وثيابه وغير ذلك.

أما غير النبي ﷺ من الأولياء والصالحين فلم يرد دليل صحيح صريح يدل على مشروعية التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم، ولذلك لم يرد عن أحد من أصحاب النبي ﷺ، ولا عن أحد من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحد من الصالحين، فلم يتبركوا بأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولا بغيره من العشرة المبشرين بالجنة، ولا بأحد من أهل البيت ولا غيرهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، لحرصهم الشديد على فعل جميع أنواع البر والخير، فإجماعهم على ترك التبرك بآثار غيره ﷺ من الصالحين دليل صريح على عدم مشروعيته.

ومن الممنوع التمسح بأحجار الكعبة، ومقام إبراهيم، وغيرها من الأحجار، والأشجار، فهذا إن كان لطلب البركة فهو تبرك بدعي، وإن كان لاعتقاد أن هذه الأحجار والأشجار تنفع وتضر من دون الله فهو تبرك شركي.

قال سليمان آل الشيخ في "التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق" (٢٧٣):

فنقول معنى تبرك أي طلب البركة وقصدها من الشجرة أو الحجر نفسهما، أو هما السببان في حصولها، فالأول هو اعتقاد المتبركين بهما من غالب مشركي أهل هذا الزمان كما هو مشاهد لمن تأمل وتحقق، والثاني هي ذات الأنواط التي قال عنها أهل العلم من أصحاب مالك وغيرهم: انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون بسببها البراء والشفاء ويضربون بها الخرق ويعلقونها عليها فاقطعوها فإنها ذات أنواط. انتهى.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠].

قَوْلُهُ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾: أي: أخبروني.

قَوْلُهُ ﴿ٱللَّٰتَ﴾: اسم وثنٍ لثقيف جهة الطائف، بنخلة وكان أهل ثقيف ومن إليهم يعبدون تلك الصخرة، ويذبحون عندها رجاء بركتها ويدعونها، ويتمسحون بها إلى غير ذلك من أنواع العبادات وتقرأ بالتشديد، والتخفيف، فعلى التخفيف، اشتقت من الإله، قال الطبري في "تفسيره" (٢٢/ ٤٦): اللَّاتَ، وَهِيَ مِنَ اللَّهِ أُلْحِقَتْ فِيهِ التَّاءُ فَأُنِّثَتْ، كَمَا قِيلَ عَمْرٌو لِلذَّكَرِ، وَلِلْأُنْثَى عَمْرَةُ؛ وَكَمَا قِيلَ لِلذَّكَرِ عَبَّاسٌ، ثُمَّ قِيلَ لِلْأُنْثَى عَبَّاسَةُ، فَكَذَلِكَ سَمَّى الْمُشْرِكُونَ أَوْثَانَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، فَقَالُوا مِنَ اللَّهِ اللَّاتَ، وَمِنَ الْعَزِيزِ الْعُزَّى؛ وَزَعَمُوا أَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ وَافْتَرَوْا. انتهى.

وعلى التشديد: اشتقت من فعل رجل كان يلت السويق للحجيج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه قال الطبري في "تفسيره" (٢٢/ ٤٧): قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قَالَ: «**اللَّاتُ بَيْتٌ كَانَ بِنَخْلَةَ تَعْبُدُهُ قُرَيْشٌ**» وَقَرَأَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ (اللَّاتَّ) بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَجَعَلُوهُ صِفَةً لِلْوَثَنِ الَّذِي عَبَدُوهُ، وَقَالُوا: كَانَ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ؛ فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ. اهـ.

قَوْلُهُ ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: شجرات كانت بغطفان، قَالَ مُجَاهِدٌ: «**الْعُزَّى: شُجَيْرَاتٌ**»، انتهى من "تفسير" الطبري (٢٢/ ٤٩). وكانوا يعبدونها، وكانت شيطانة تأتي سمرات ثلاث، فبنوا عليها بيتًا وسموه بيت العزى، وكان أبو سفيان يوم أحد يقول: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**»،

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**». أخرجه البخاري (٣٠٣٩).

واللَّاتُ هدمه المغيرة بن شعبة ﵁ حتى جعله كالجمل الأجرب، والعزى أرسل إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﵁، والقصة عند أبي يعلى (٩٠٢)، وساق سندها عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ ﵁، قال: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَكَانَتْ عَلَى تِلَالِ السَّمُرَاتِ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا**»، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّدَنَةُ -وَهُمْ حُجَّابُهَا- أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى خَبِّلِيهِ، يَا عُزَّى عَوِّرِيهِ، وَإِلَّا فَمُوتِي بِرَغْمٍ، قَالَ: فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْثُوا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: «**تِلْكَ الْعُزَّى**».

وكانت الجن تدخل في القبور، والأحجار، والأشجار حتى تفتنهم، ينادونها وتجيبهم، وربما قربوا الطعام وأكلته، من أجل أن تزيدهم إضلالًا.

قَوْلُهُ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: مناة: هي الصنم الثالث، والمشهور من أصنام العرب العظيمة، وكان بِالْمُشَلَّلِ بين مكة والمدينة، قاله ابن زيد، وقَالَ قَتَادَةَ: أَمَّا مَنَاةُ فَكَانَتْ بِقُدَيْدٍ[1]، وكلاهما على طريق المدينة، وكان للأوس والخزرج.

وقيل: كانت لهذيل وخزاعة، وقيل: كانت صنم لبني هلال، وكان الأوس والخزرج، إذا حجوا إلى بيت الله العظيم يهلون من مناة، ويطوفون بين الصفا

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠).

والمروة، فلما أسلموا تحرجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، قالوا: كيف نطوف بين الصفا والمروة ونحن كنا نبدأ بمناة، فأنزل الله ﷻ في شأن الأنصار: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وعند البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧) عَنِ عُرْوَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لاَ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٥٨]. الآيَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا**».

ومناة: مشتقة من اسم الله المنان، والعزى من العزيز، وهذا من الإلحاد في إسماء الله الحسنى وفي صفاته العلى، أن يشتق لمعبودات المشركين من أسماء الله ﷻ أسماء، فاستدل المصنف بالآية على النهي عن طلب البركة من الأشجار والأحجار ونحوها.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ، «إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **الآيَةَ، «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.**

قَوْلُهُ (أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه): ، مختلف في اسمه، قيل الحارث بن مالك، وقيل بن عوف، وقيل عوف بن الحارث بن أسيد بن جابر بن عبد مناة بن شجع بن عامر بن ليث ابن بكر بن عبد مناة بن علي بن كنانة، كان حليف بني أسد، قال البخاري، وابن حبان، والباوردي، وأبو أحمد الحاكم: شهد بدرًا. وقال أبو عمر: قيل شهد بدرًا، ولا يثبت.

وقال ابن سعد: أسلم قديما، وكان يحمل لواء بني ليث، وضمرة، وسعد بن بكر يوم الفتح، وحنين، وفي غزوة تبوك يستنفر بني ليث، وكان خرج إلى مكة، فجاور بها سنة فمات. وقال في موضع آخر: دفن في مقبرة المهاجرين. قاله الحافظ في "**الإصابة**" (٧/ ٣٧٠).

قَوْلُهُ (إِلَى حُنَيْنٍ): واد بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وهو بعد الشرائع اليوم، والمراد بها غزوة حنين، وكانت بعد فتح مكة بشهر، وغزا رسول الله ﷺ هوازن وثقيف، وعجب بعض المسلمين

فابتلاهم الله بالهزيمة في أول الأمر حتى تركوا رسول الله ﷺ ولم يبقَ معه إلا عدة نفر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وفي "**صحيح مسلم**" (١٧٧٥): عن كَثِير بْن عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: قَالَ عَبَّاسٌ ﷺ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ»، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ.

قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة، حتى أُعطي بعض المؤلفة قلوبهم مائة من الإبل كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصين، وأعطيّ مرداس الأسلمي مائة من الإبل، وكان قد أعطاه النبي ﷺ خمسين، ففي **"صحيح مسلم"** (١٠٦٠) عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه ، قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ
فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَخْفِضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِائَةً.

وبعد ذلك أسلمت ثقيف، فخيرهم رسول الله ﷺ بين الذراري والأموال، فاختاروا النساء والأطفال، ففي **"صحيح البخاري"** (٢٣٠٧) عَنِ مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، وَالمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا المَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ»، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ.

قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي المُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ»

فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا.

ووزعت الأنعام، ووقع في قلوب الأنصار، من إعطاء رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، وتركهم حتى أرسل الرسول ﷺ إلى بعض ساداتهم وشرفائهم، وممن هو ذو فضل في الإسلام كسعد بن عبادة رضي الله عنه ، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه ، أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا: يَوْمَ حُنَيْنٍ، حِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟».

فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ، قَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فَقَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَضِينَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ» قَالُوا: سَنَصْبِرُ. أخرجه مسلم (١٠٥٩).

وفي رواية له: قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَ الْأَنْصَارِ».

قَوْلُهُ (وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ): وهذا كالعذر من سوء ما طُلب، حيث كان إسلامهم في فتح مكة، ومنها يؤخذ أن حديث العهد بالبدعة، أو بالمعصية أو الكفر تبقى عنده رواسب، يحتاج أن يتخلص منها فتجده يحلف بالأمانة، وربما تلفظ بألفاظ ليست بطيبة، وفيه العذر بالجهل.

قَوْلُهُ (وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ): نوع من الشجر معروف قد أتخذها المشركون للبركة.

قَوْلُهُ (يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا): من العكوف وهو المكث عندها لطلب البركة.

قَوْلُهُ (وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ): أي يعلقون بها أسلحتهم، ويصنعون ذلك لطلب البركة.

قَوْلُهُ (يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ): أي تُسمى بهذا الإسم، وهو مشتق من صنيعهم، ونوطهم بها، فكانوا يعلقون أسلحتهم لطلب البركة، وهذا ما يصنعه كثير من الناس الآن في بلاد الإسلام، يأتون بعض الأشجار، والأحجار، والقبور، وربما عكفوا عندها الأوقات الطويلة لطلب البركة، وهذا صنيع من لا خلاق له؛ قال الله ﷻ مخبرًا عن صنيع قوم إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وقال مخبرًا عن قوم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، مع أن الإعتكاف عبادة يجب أن يفرد بها الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾.[الحج: ٢٥].

قَوْلُهُ (قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ): أي: سدرة أخرى غير السدرة، التي يعلق فيها المشركون.

قَوْلُهُ (فَقُلْنَا): أي: بعض الصحابة الذين هم حدثاء عهد بكفر أو بشرك.

قَوْلُهُ (يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ): اجعل لنا شجرة كما لهم شجرة ننوط بها أسلحتنا لطلب البركة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ»، منكرًا عليهم، ويؤتى بها للتعظيم، ويؤتى بها عند الصعود، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا» أخرجه البخاري (٢٩٩٣)، ويؤتى بها عند النصر، وغير ذلك.

قَوْلُهُ (إِنَّهَا السُّنَنُ): ويقال السَّنن بالفتح؛ أي: الطُرق.

قَوْلُهُ (قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ): فيه: الحلف بغير استحلاف، وهكذا كان أكثر حلف النبي ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ).

قَوْلُهُ (كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] الآية) أخبر النبي ﷺ أن هذا الصنيع هو طلب إله من دون الله، وأن الإله هو الذي يُعبد، ويُرجى، ويُستعان به، ويطلب منه البركة، إلى غير ذلك من خصائصه تعالى.

قَوْلُهُ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: بحق ربكم تعالى وتعاظم؛ عن الشرك والتنديد.

ثم قال: (لَتَرْكَبُنَّ) بضم الموحدة والمعنى لتتبعن.

قَوْلُهُ (سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ): أي طرقهم، وهذا خبر من النبي ﷺ، ومن دلائل نبوته، وقد حصل تقليد الكفار في كثير من أمورهم، وشعائرهم، فشيدت القباب، وزخرفتِ المساجد، وشدت الرحال إلى القبور، والمشاهد، ووقع الغلو في الدين، والتعلق بالأموات وغير ذلك.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ): أي في جامعه (٢١٨٠)، فقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَأَبُو وَاقِدٍ اللَّيْثِيُّ اسْمُهُ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ وَفِي البَاب عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أجمعين.

وفي هذا الحديث: خطورة تقليد الكفار والتشبه بهم.

وفيه: أهمية تعلم التوحيد، والاستمرار فيه.

وفيه: أن الجهل مخالفة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وفيه: التحذير من سلوك سبيل اليهود والنصارى فإنهم مشركون منددون.

وفيه: إنكار المنكر، فإن النبي ﷺ أنكر عليهم قولهم وصنيعهم.

وفيه: أن الذي ينكر المنكر له أن يغلظ، إذا استدعى الحال ذلك، فإن ظاهر الحديث يدل على أن النبي ﷺ تكلم بغضب، وأغلظ لهم القول: فقال: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ» أي: طرق اليهود والنصارى: قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَـ«مَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

وفيه: خطر الشرك، وأنه قد يكون يسيرًا على الناس وهو عظيم عند الله ﷻ، فهؤلاء الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ الذين هم حديثوا عهد بكفر لم يريدوا أن يعبدوا غير الله، فقالوا ما قالوا، فأنكر عليهم رسول الله ﷺ ذلك، وكم من مريد للخير لم يدركه، وإنما الخير في اتباع الكتاب والسنة، فهذا باب عظيم عقده المصنف رحمه الله محذرًا من طلب البركة من غير طرقها الشرعية، ولو رأيت الباطنية وهم يتمسحون برؤسائهم وأسيادهم، والرافضة وهم يتمسحون برؤسائهم وأسيادهم، والقبورية وهم يتمسحون بالقبور، وكأن بعضهم إذا تمسح بالقبر نال ما لم ينل غيره، وكثير ممن يحج إلى بيت الله الحرام، الحج عنده شيء زائد، والأصل عنده زيارة القبر، والتمسح بالحجرة، والتوجه إليها والتضرع، بل قد سمعنا من يقول: يا أبا فاطمة الزهراء اغفر لي!

يطلب المغفرة من النبي ﷺ وهو بشر، والله ﷻ هو الذي يغفر الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ويقول الله تعالى كما في الحديث القدسي: «فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ» أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه .

٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيرِ اللَّهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيرِ اللَّهِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيرِ اللَّهِ) أي: من الوعيد. والذبح لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأن الذبح عبادة أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بها ويتقرب بها إليه سبحانه وتعالى.

والذبح: هو إزهاق النفس بآلة حادة، والمشروع منه يكون بالتسمية، وقطع الأوداج، وأن لا يهل بها لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد استوعبت بحمد الله شروط الذبيحة في كتابي **"فتح ذي الجلال والإكرام في شرح منظومة ما يحل ويحرم من الحيوان"**.

وأغلب من أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ يقع في الذبح لغير الله، وفي البخاري (٣٨٢٦): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلاَ آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ، إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ.

وكانوا وما زالوا يتقربون إلى القبور بأنواع الذبائح، بل بأغلاها وأسمنها، وبعضهم يذبح للجن، وبعضهم للإنس، والأشجار والأحجار، ولما كان الذبح عبادة عظيمة قُرِن بالصلاة، كما سيأتي.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قَوْلُهُ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾: أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن كل ما أفعل من العبادات لله عَزَّ وَجَلَّ، وبدأ بالصلاة لأهميتها، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام وقواعده العظام، وهي العهد الذي بين العبد وربه، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

قَوْلُهُ ﴿وَنُسُكِي﴾: أي وذبحي؛ والنسك: بالمعنى العام هو التقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأنواع القرب،، فتدخل فيه جميع الطاعات، وبالمعنى الخاص هو التقرب لله تعالى بالهدي، والأضاحي، وما في بابها، وتكون من بهيمة الأنعام، الإبل والبقر والغنم، ويدخل فيها الضأن.

وفي الآية الحث على الإخلاص، لله عَزَّ وَجَلَّ إذ عليه مدار العبادة قبولًا وردًا.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا افتتح قيام الليل، يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ»(١).

أي: لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قَوْلُهُ ﴿وَمَحْيَايَ﴾: أي: وما أعمل من الأعمال الصالحة في حياتي، وهذا من الإجمال بعد التفصيل.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ ﴿وَمَمَاتِي﴾: أي ووفاتي، ومنه الوصية بالصدقات، وأنواع القربات.

قَوْلُهُ ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: لا شريك له تعالى، وهذا دليل الإخلاص.

قَوْلُهُ ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾: أي: أمره الله تعالى، والأمر له ﷺ أمر لأمته إلا ما دل الدليل على الخصوصية فيه، يدل على ذلك عموم أدلة المتابعة.

قَوْلُهُ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ وَأَذْعَنَ وَخَضَعَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِرَبِّهِ. انتهى من "**تفسير الطبري**" (١٠/ ٤٦).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رحمه الله:

وَقَوْلِهِ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيٍّ بنِ أبِي طَالِب رضي الله عنه **، قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ** ﷺ **بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رواهُ مسلمٌ.**

قَوْلُهُ ﴿ فَصَلِّ ﴾: فعل أمر بالصلاة، وقد اختلفوا في معنى ذلك، قال ابن جرير (٢٤/ ٦٩٠): اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَهَا بِهَذَا الْخَطَّابِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَضَّهُ عَلَى الْمُوَاظَبَةِ عَلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَعَلَى الْحِفْظِ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا. انتهى

وفسر بعض أهل العلم: أن المراد بالنحر الذبح في منى، والصلاة: صلاة العيد، قَالَ عطاء: صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَنَحرِ الْبُدْنَ.

وقال بعضهم: النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة.

والصحيح: أن الصلاة جميع الصلوات فرضها ونفلها، ويدخل فيها، صلاة عيد الأضحى.

والنحر هو ذبح النسك، والهدايا، والأضاحي، وغيرها.

قَوْلُهُ (عَنْ عَلِيٍّ بنِ أبِي طَالِبٍ رضي الله عنه**)** وهو أبو الحسن، ويقال: أبو الحسنين، وربما يقال: أبو الحسن والحسين، وكلاهما رضي الله عنهما سيدا شباب أهل الجنة، لقبه النبي ﷺ بأبي تراب، وقال ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ»، أخرجه أحمد (٢٢٩٤٥) عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه ، وقال له الرسول ﷺ: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»، أخرجه مسلم (٧٨) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، وقد تقدم

معنا حديث: «يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أخرجاه[1] عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﵁، وحديث: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»، متفق عليه[2]، وليس معناه: في النبوة، وإنما في الاستخلاف على المدينة، فإن موسى ﵇ لما ذهب لمقيات ربه استخلف هارون ﵇، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ولما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك استخلف عليًّا ﵁، فقال المنافقون: ما استخلفك إلا أنه لا يحبك، وجعلوا يطعنون فيه، ويقولون: جعلك مع الخوالف، فذهب إليه يشكو ذلك فقال له رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى»[3].

والناس في علي ﵁ ثلاثة أصناف:

الأول: من غلا فيه وهم الرافضة، والباطنية، فقد رفعوه إلى مراتب الألوهية والربوبية حتى قالوا: علي خير البشر من أَبَى فقد كفر! ويرفعون هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وهذا حديث موضوع، فإن خير البشر هو محمد ﷺ ثم الأنبياء بعده، ثم أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم يأتي علي رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وجعلوا من علومه علم اللوح والقلم، وقالوا: الرعد صوته، والسحاب هو الذي يسوقه، ولما حرقهم بالنار قالوا: الآن استقينا أنك أنت الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار، حتى قال ابْنَ عَبَّاسٍ ﵄: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»، وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، أخرجه البخاري (٣٠١٧)، وزعموا أنه يرجع بعد موته، وإنما أُخفي في السحاب! وأقوالهم فيه باطلة، وأكثرها كفرية.

---

(١) البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

الثاني: الخوارج، كفروه وقتلوه، قتله عبد الرحمن بن ملجم، وهو يصلي الفجر، ولما قتلوا ابن ملجم قطعوه عضوًا عضوا، فكانوا يقطعونه وهو يستغفر ويسبح، فلما جاءوا إلى لسانه جعل يتحرك فكلموه وقال: أردت أن أموت وأنا أذكر الله، قال عمران بن حطان في وصف ابن ملجم:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيَ مَا أَرَادَ بِهَا ... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانا
إنِّي لأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَى البَرِيَّةِ عِنْدَ الله مِيزَانا
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ بُطُونُ الطَّيْرِ أَقْبُرُهُمْ ... لَمْ يَخْلِطُوا دِينَهُمْ بَغيًا وَعُدْوَانا

الثالث: أهل السنة، عرفوا له قدره ومنزلته، ويحبونه حبًا شرعيًا، ويذكرونه بالخير والجميل، ويترضون عليه، ويستغفرون له، ويحبونه وأبناءه كالحسن والحسين، ويترضون عليه وعلى زوجته فاطمة رضي الله عنها، ابنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وكان رضي الله عنه يتألم من شيعته جدًا، حتى قال: يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ، مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَمًا وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا... إلى غير ذلك من أقواله فيهم التي سطروها في كتبهم، فهم الذين ظلموه وظلموا أبناءه، وظلموا أهل بيته.

قَوْلُهُ (حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبعِ كَلِمَاتٍ): هذا ليس على الحصر، فقد سمع منه كثيرًا؛ حيث لازمه صغيرا، إلى أن قبض الله نبيه محمدًا ﷺ.

قَوْلُهُ (لَعَنَ اللهُ) اللعن: هو الطرد من رحمة الله، وقد يكون الطرد جزئيًا وقد يكون كليًا، فالكافر يلعن، واللعن في حقه طردًا كليًا من رحمة الله سبحانه وتعالى، واللعن ينقسم إلى قسمين: لعن بالوصف، ولعن بالشخص، وجماهير أهل العلم على أنه لا يجوز لعن الشخص الحي المعين، وإنما يُلعن من يستحق اللعن بالوصف، والمسألة خلافية والخلاف فيها مبسوط. وقد نقلت نقولات كثيرة

عن ابن مفلح كما في "**الآداب الشرعية**"، وعن شيخ الإسلام وغيره في ردي على طارق السويدان الموسوم: بـ"**البيان في لعن اليهود والنصارى والرد على طارق السويدان**".

فمن العلماء من حرم لعن المعين مطلقًا: لا المؤمن ولا الكافر إلا من مات على كفره، قالوا: وذلك لأن اللعن دعاء بالطرد من رحمة الله، والكافر الحي قد يسلم.

ومن العلماء: من جوَّز لعن المعين، سواء كان كافرًا أو مسلمًا، فالكافر يلعن على الدعاء عليه بالطرد من رحمة الله مطلقًا، والمسلم يكون الطرد في حقه مقيدًا، أو يكون اللعن بمعنى السب، ويستدل من جوز لعن المعين بحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم (٢٦٠٠): قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ، لَا أَدْرِي مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ، فَلَعَنَهُمَا، وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا، مَا أَصَابَهُ هَذَانِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكِ**» قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا، قَالَ: «أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؟ قُلْتُ: اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ، أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا».

وقد يقول قائل: هذا النبي ﷺ قد قال: «**اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً**».

يقال: نعم، لكن الرسول ﷺ اشترط على ربه، لمن ليس لها أهل، وأما من كان لها أهل فلم تكن له زكاة ورحمة.

وقد لعن كثير من العلماء المريسي، وجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وغيرهم من رؤوس الضلال، و لعن يحيى بن معين، الكرابيسي.

وأما اللعن بالوصف، فمنها ما عند الترمذي (١٢٩٥) وغيره من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: «**عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ**

ثَمَنِهَا، وَالْمُشْتَرِي لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةُ لَهُ»، وفي صحيح مسلم (٢١٢٥): عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه ، قَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ**» قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ، لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ».

ويأتي اللعن بمعنى السب، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»، أخرجاه[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ): وبدأ به لعظم حرمته، ولكثرة الواقعين فيه، نسأل الله السلامة، وهو من المحرمات أكلا قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

بل قد حرم الله ما ذبح على انصاب الكفار ولو ذُبح له تعالى؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] قال مجاهد: قَالَ: حِجَارَةٌ كَانَ يَذْبَحُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، أخرجه الطبري (٨/ ٧٠).

قَوْلُهُ (لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ) أي: من سبهما، وتنقصهما، وفرَّط في حقهما

---

(١) البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

العظيم المقرون بحق الله تعالى على ما تقدم في أول الكتاب، وثنى به لكثرة المضيعين لحق آبائهم، ولعن الوالدين جريمة عظيمة وقع فيها كثير من العصاة في هذا الزمان بل قد تعدى الأمر في حق الكثير إلى ضربهم وطردهم من البيوت.

قَوْلُهُ (لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا): والمحدث يطلق على معنيين:

المعنى الأول: المبتدع، الثاني: القاتل، أو السارق أو قاطع الطريق، أو غير ذلك من المعاصي، وهذا وعيد عظيم من النبي ﷺ، نسأل الله السلامة، وإطلاقه على الثاني أوضح، وقد يكون الوعيد متعلق بمن آوى محدثًا في المدينة لما ثبت عن النبي ﷺ: «فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى فِيهَا مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، متفق عليه[1] عن أبي جحيفة رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ) أي: علامتها، ولها ثلاثة معانٍ:

الأول: ما يجعل من العلامات لمعرفة الطرق.

والثاني: ما يجعله الناس بين مزارعهم من علامات.

الثالث: قيل هي حدود الحرم، وعند الإطلاق كلها داخلة تحت هذا الوعيد وإن كان بعضها أشد من بعض.

والشاهد من الحديث هنا: أن النبي ﷺ «لَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» حيث صرف حق الله عز وجل لغيره وهذا يناقض التوحيد، والله المستعان.

قَوْلُهُ (رواهُ مسلمٌ): (١٩٧٨).

---

(١) البخاري (٣١٧٢)، ومسلم (١٣٧٠).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رواه أحمدُ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ): طارق بن شهاب رضي الله عنه صحابي صغير، لقي النبي ﷺ ولم يسمع منه، وروايته عنه مرسلة، ولكنها لا تضر؛ لأن مراسيل الصحابة كلها مقبولة، وقد أخرج الحديث أحمد في "**الزهد**" (٨٤)، وأبو نعيم في "**الحلية**" (١/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٦/ ٤٧٣)، كلهم من طريق الْأَعْمَشِ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه موقوفا عليه.

والحديث محفوظ عن سلمان رضي الله عنه، وله حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للعقل في مثل هذا، وقد قال بعضهم يُخشى أن يكون من الإسرائيليات.

قَوْلُهُ (دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ): أي كان دخوله الجنة بسبب ذباب.

قَوْلُهُ (وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ): أي بسبب ذباب، كقوله ﷺ: «دَخَلَتِ

امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ...»(١).

قَوْلُهُ (قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللهِ): فيه السؤال عما يشكل وهذا في السنة كثير.

قَوْلُهُ (عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ): أي يعبدونه من دون الله ﷻ.

قَوْلُهُ (لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ): لا يجاوز موضعه، وكأنه والله أعلم في طريق الناس.

ويدل الأثر على عظم التوحيد في قلوب أهله، فهذا الرجل الموحد طلبوا منه ذبابًا، فقرب نفسه للموت على أن لا يقرب ذبابًا لغير الله ﷻ.

وفيه: خطر الشرك، فلو قرب ذبابًا أو بعوضًا أو قملة أو غير ذلك لصنم أو حجر أو وثنٍ أو ما يسمونه بالسيد أو الولي أو الشريف لكفر بالله سبحانه وتعالى، سواء كان المقُربُ عظيمًا أو صغيرًا؛ لأن الشرك خطير وعظيم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفيه: حرص المشركين على إغواء الناس، وأنهم يرضون منهم باليسير.

وفيه: أن الذي لا يتعاهد توحيده، ولا يعرفه تفصيلًا، قد يقع في الشرك وهو لا يدري.

فتلخص مما تقدم أن الذبح لغير الله ﷻ شرك أكبر، مخرج من الملة يخلد صاحبه في النار إن مات على ذلك.

وأما الذبيحة للضيف فقد رخص الله فيها، وهي ذبح لله، لأنه يسمى الله عليها، وتذبح على ما شرع، والعقيقة من الذبائح المستحبة وقيل: الواجبة،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

والأضحية من الذبائح المستحبة، وهي سنة مؤكدة، على الصحيح.

وللشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة في "**أحكام الأضحية**" نافعة جدًّا، قرب فيها ما تفرق في غيرها من الكتب.

وهذا الحديث من اخبار بني اسرائيل وقد جاء عند البخاري (٣٤٦١) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

قال الحافظ في "**الفتح**" (٦/ ٤٩٩): قَوْلُهُ «**وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» وَلَا حَرَجَ، أَيْ: لَا ضِيقَ عَلَيْكُمْ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ كَانَ تَقَدَّمَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّجْرُ عَنِ الْأَخْذِ عَنْهُمْ وَالنَّظَرِ فِي كُتُبِهِمْ ثُمَّ حَصَلَ التَّوَسُّعُ فِي ذَلِكَ وَكَأَنَّ النَّهْيَ وَقَعَ قَبْلَ اسْتِقْرَارِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْقَوَاعِدِ الدِّينِيَّةِ خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَمَّا زَالَ الْمَحْذُورُ وَقَعَ الْإِذْنُ فِي ذَلِكَ لِمَا فِي سَمَاعِ الْأَخْبَارِ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الِاعْتِبَارِ، وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَا حَرَجَ» لَا تَضِيقُ صُدُورُكُمْ بِمَا تَسْمَعُونَهُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَعَاجِيبِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ كَثِيرًا.

وَقِيلَ: لَا حَرَجَ فِي أَنَّ لَا تُحَدِّثُوا عَنْهُمْ لِأَنَّ قَوْلَهُ أَوَّلًا حَدِّثُوا صِيغَةُ أَمْرٍ تَقْتَضِي الْوُجُوبَ فَأَشَارَ إِلَى عَدَمِ الْوُجُوبِ وَأَنَّ الْأَمْرَ فِيهِ لِلْإِبَاحَةِ بِقَوْلِهِ وَلَا حَرَجَ أَيْ فِي تَرْكِ التَّحْدِيثِ عَنْهُمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ رَفْعُ الْحَرَجِ عَنْ حَاكِي ذَلِكَ لِمَا فِي أَخْبَارِهِمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الشَّنِيعَةِ نَحْوَ قَوْلِهِم اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وقَوْلُهُمْ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا وَقِيلَ الْمُرَادُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْلَادُ إِسْرَائِيلَ نَفْسِهِ وَهُمْ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ وَالْمُرَادُ حَدِّثُوا عَنْهُمْ بِقِصَّتِهِمْ مَعَ أَخِيهِمْ يُوسُفَ وَهَذَا أَبْعَدُ الْأَوْجُهِ وَقَالَ مَالِكٌ الْمُرَادُ جَوَازُ التحدث عَنْهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ حَسَنٍ أَمَّا مَا عُلِمَ كَذِبُهُ فَلَا وَقِيلَ الْمَعْنَى حَدِّثُوا عَنْهُمْ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَقِيلَ الْمُرَادُ

جَوَازُ التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِأَيِّ صُورَةٍ وَقَعَتْ مِنَ انْقِطَاعٍ أَوْ بَلَاغٍ لِتَعَذُّرِ الِاتِّصَالِ فِي التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِخِلَافِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي التَّحَدُّثِ بِهَا الِاتِّصَالُ وَلَا يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ لِقُرْبِ الْعَهْدِ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُجِيزُ التَّحَدُّثَ بِالْكَذِبِ فَالْمَعْنَى حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبَهُ وَأَمَّا مَا تُجَوِّزُونَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّحَدُّثِ بِهِ عَنْهُمْ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَلَمْ يَرِدِ الْإِذْنُ وَلَا الْمَنْعُ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمَا يُقْطَعُ بِصِدْقِهِ. اهـ.

قَوْلُهُ (رواهُ أحمدُ): في "**الزهد**" (٨٤).

***

١٠- بَابُ لا يُذبحُ للهِ بمكانٍ يُذبَحُ فيه لغيرِ الله

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ لا يُذبحُ للهِ بمكانٍ يُذبحُ فيه لِغَيرِ اللهِ.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قَوْلُهُ (بَابُ لا يُذبحُ للهِ بمكانٍ يُذبَحُ فيه لِغَيرِ اللهِ) لما ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى حكم من ذبح لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، ثنى بهذا الباب، وهو أن بعضهم قد يذبح لله، لكن يذهب ويذبح عند قبر، أو في عيد أصحاب القبور، فكما أن الله عَزَّ وَجَلَّ حرم الذبح لغيره؛ لأنه شرك أكبر مخرج من الملة، كذلك حرم وسائل هذا الشرك. وهو الذبح عند القبور، وسيأتي معنا إن شاء الله تعالى باب في ذرائع الشرك.

قَوْلُهُ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ..﴾ [التوبة: ١٠٨] الآية، واستدل بهذه الآية على حرمة الذبح لله وعبادته في أماكن الزور، ونزلت الآية في شأن النبي ﷺ مع أصحاب مسجد الضرار؛ كما في **"تاريخ المدينة"** لابن شبية (٥٢): قال: حَدَّثَنَا عَفَّانُ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، «أَنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ابْتَنَوْا مَسْجِدًا وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَوْهُ لِيُصَلِّيَ فِيهِ، فَفَعَلَ، فَأَتَاهُمْ فَصَلَّى فِيهِ، فَحَسَدَهُمْ إِخْوَتُهُمْ بَنُو فُلَانِ بْنِ عَوْفٍ -يَشُكُّ- فَقَالُوا: أَلَا نَبْنِي نَحْنُ مَسْجِدًا وَنَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ فَيُصَلِّي فِيهِ كَمَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ إِخْوَتِنَا، وَلَعَلَّ أَبَا عَامِرٍ يُصَلِّي فِيهِ -وَكَانَ بِالشَّامِ- فَابْتَنَوْا مَسْجِدًا وَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُصَلِّيَ، فَقَامَ لِيَأْتِيَهُمْ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ

أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾». [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

قوْلُهُ ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: وهو مسجد قباء، ومسجد النبي ﷺ أسس أيضا على التقوى، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: تَمَارَى رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءٍ، وَقَالَ آخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» أخرجه مسلم (١٣٩٨).

قَوْلُهُ ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾: أي ابْتُدِئَ أَسَاسُهُ وَأَصْلُهُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ ابْتُدِئَ فِي بِنَائِهِ.

قَوْلُهُ ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾: يَقُولُ: أَوْلَى أَنْ تَقُومَ فِيهِ مُصَلِّيًا، اهـ، من كلام الطبري (١١/ ٦٨١).

قَوْلُهُ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فِي حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يُنَظِّفُوا مَقَاعِدَهُمْ بِالْمَاءِ إِذَا أَتَوُا الْغَائِطَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ بِالْمَاءِ. انتهى من كلام الطبري (١١/ ٦٨٨).

والطهارة النزاهة وهي منقسمة إلى قسمين الأول: وهو أشرفها طهارة الظاهر، والباطن، من الاعتقادات الفاسدة، وتليها طهارة الظاهر من الملابس والأجسام، ورفع الأحداث كالجنابة، وكلها مأمور به، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: وَأَتَاهُ رَجُلٌ وَأَنَا جَالِسٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤] قَالَ: لَا تَلْبَسْهَا عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَا عَلَى غَدْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٠٥).

قَوْلُهُ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: وَإِنَّمَا هُوَ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَلَكِنْ أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ، فَجُعِلَتْ طَاءٌ مُشَدَّدَةٌ لِقُرْبِ مَخْرَجِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى. انتهى من كلام الطبري (١١/ ٦٩٣).

وفي هذه القصة من الفوائد:

النهي عن حضور أماكن الشرك والزور قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وفيه: البعد عن أعياد المشركين، وعن أماكن تواجدهم.

وفيه: النهي عن التشبه بالكافرين، لما فيه من الضرر، وفيه: سد ذرائع الشرك.

وفيه: مكر المنافقين والكفار بهذا الدين.

وفيه: أن التسميات لا تغير الحقائق، فقد سموا باطلهم مسجدًا.

وفيه: الحرص على مجالسة الصالحين.

وفيه: إثبات محبة الله ﷻ، وهي من الصفات الفعلية التي دل عليها الكتاب، والسنة، والإجماع.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عنْ ثابتٍ بن الضَّحَّاكِ رضي الله عنه، قال: نَذرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إبلًا ببُوانَةَ، فسأَل النَّبيَّ ﷺ، فقال: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّه، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما.

قَوْلُهُ (ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه): هو ابن خليفة بن ثعلبة بن عديّ بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاريّ الأشهليّ.

شهد بيعة الرضوان، كما ثبت في "**صحيح مسلم**" من رواية أبي قلابة أنه حدثه بذلك. وذكر ابن مندة أن البخاريّ ذكر أنه شهد بدرا، وتعقّبه أبو نعيم فقال: إنما ذكر البخاريّ أنه شهد الحديبيّة. وذكر الترمذيّ أيضا أنه شهد بدرًا.

وقال ابن شاهين، عن ابن أبي داود وابن السّكن من طريق أبي بكر بن أبي الأسود: كان ثابت بن الضّحاك الأشهلي رضي الله عنه رديف رسول اللَّه ﷺ يوم الخندق ودليله إلى حمراء الأسد، وكان ممن بايع تحت الشّجرة مات في أيام ابن الزبير. انتهى من "**الإصابة**" (١/ ٥٠٧).

قَوْلُهُ (نَذَرَ رَجُلٌ): في مسند أحمد أن الرجل كردم بن سفيان رضي الله عنه، فقد أخرجه (١٥٤٥٦) عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ كَرْدَم، عَنْ أَبِيهَا كَرْدَم بْنِ سُفْيَانَ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَذْرٍ نُذِرَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلِوَثَنٍ أَوْ لِنُصُبٍ؟» قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «فَأَوْفِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا جَعَلْتَ لَهُ، انْحَرْ عَلَى بُوَانَةَ، وَأَوْفِ بِنَذْرِكَ».

وفي لفظ: فَقَالَ: «أَبِهَا وَثَنٌ أَمْ طَاغِيَةٌ؟»، وجاء التصريح باسمه أيضا عند الخرائطي في "**مكارم الأخلاق**" (٢٧٠) عن عبد الله بن عمرو ﭬ: ...فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعَلَى وَثَنٍ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَعَلَى جَمْعٍ مِنْ جُمُوعِهَا؟»، قَالَ: لَا. فَقَالَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ حَيْثُ كَانَ، وَاعْلَمَنَّ يَا كَرْدَمُ أَنَّهُ لَا نَذَرَ، وَلَا يَمِينَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِي قَطِيعَةٍ».

قَوْلُهُ(أَنْ يَنْحَرَ إِبِلا): فيه تعين نوع النذر، وأنه من الإبل، وسيأتي الكلام على النذر في بابه، إن شاء الله تعالى.

قَوْلُهُ (بِبُوَانَةَ): مكان ما بين مكة ويلملم، قرب ينبع على ساحل البحر، يقال له: بوانة، ويلملم ميقات أهل اليمن.

قَوْلُهُ(هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ): وعند ابن ماجة: (٢١٣٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭬ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ بِبُوَانَةَ، فَقَالَ: «فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» ومعنى الحديث هل كان فيها صنم أو وثن يعبد من دون الله ﻷ، فعُظم المكان عندهم لذلك فقال الرجل: لا.

والوثن والصنم بينهما عموم وخصوص، فكل صنمٍ وثن وليس كل وثن صنم، فالوثن قد يكون حجرًا، أو شجرًا، أو بيتًا، أو صنمًا، أو قبرًا، أو قبةً، ويكون على غير صورة، وعلى صورة.

أما الصنم لا يكون إلا على صورة، إما صورة إنسان أو حيوان.

قَوْلُهُ (فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ): لما نفى وجود الصنم سأله السؤال الآخر، هل كان لهم فيه عيد، والعيد ما يعود على الناس ويجتمعون فيه، ومعناه: هل كان فيها ذريعة من ذرائع الشرك؟ قال: لا.

قَوْلُهُ (أَوْفِ بِنَذْرِكَ): من الوفاء، يُقال وَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً، وأَوْفَى: إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه، أي أد ما التزمته.

قَوْلُهُ(فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ): أي: إنما الوفاء بنذر الطاعة، فمن نذر أن يزني أو يسرق لا وفاء لهذا النذر، ولكن كفارته كفارة يمين على الصحيح من أقوال أهل العلم.

قَوْلُهُ (وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ): هذه اللفظة من الحديث أخرجها البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠) عن ثابت بن الضحاك نفسه رضي الله عنه، وجاءت في مسلم (١٦١٤) عن عمران بن حصين رضي الله عنه، ولها قصة قَالَ: وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ، فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ، فَأَتَتِ الْإِبِلَ، فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ، فَلَمْ تَرْغُ، قَالَ: وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا، ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ، وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ.

قَالَ: وَنَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ، فَقَالُوا: الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، بِئْسَمَا جَزَتْهَا، نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ». أي لا نذر منعقد فيما لا يملك، كمن نذر أن يتصدق بعمامة زيد، أو كتاب عمرو؛ لأنه نذر فيما لا يملك، وإنما يتصرف العبد في ملك نفسه؛ فإن نذر وأقره صاحب الملك لزم الوفاء، وإن لم يقره اختلف العلماء هل يلزمه الكفارة.

قال النووي رحمه الله في "شرح مسلم" (١٠١/١١): فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ نَذَرَ مَعْصِيَةً كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَنَذْرُهُ بَاطِلٌ لَا يَنْعَقِدُ وَلَا تَلْزَمُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ وَلَا غَيْرُهَا وَبِهَذَا قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَدَاوُدُ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَقَالَ

أَحْمَدُ تَجِبُ فِيهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ بِالْحَدِيثِ المروي عن عمر أن بْنِ الْحُصَيْنِ وَعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِحَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ الْمَذْكُورِ فِي الْكِتَابِ وَأَمَّا حَدِيثُ كَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ فَضَعِيفٌ بِاتِّفَاقِ الْمُحَدِّثِينَ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَضَافَ النَّذْرَ إِلَى مُعَيَّنٍ لَا يَمْلِكُهُ بِأَنْ قَالَ إِنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي فَلِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أُعْتِقَ عَبْدَ فُلَانٍ أَوْ أَتَصَدَّقَ بِثَوْبِهِ أَوْ بِدَارِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَأَمَّا إِذَا الْتَزَمَ فِي الذِّمَّةِ شَيْئًا لَا يَمْلِكُهُ فَيَصِحُّ نَذْرُهُ مِثَالُهُ قَالَ إِنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي فَلِلَّهِ عَلَيَّ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ لَا يَمْلِكُ رَقَبَةً وَلَا قِيمَتَهَا فَيَصِحُّ نَذْرُهُ وَإِنْ شُفِيَ الْمَرِيضُ ثَبَتَ الْعِتْقُ فِي ذِمَّتِهِ. انتهى.

قَوْلُهُ (رواه أبو داود): (٣٣١٣)، **قَوْلُهُ (وإسناده على شرطهما)**: أي على شرط البخاري ومسلم، وقد قال أبو داود: حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو قِلَابَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ وذكره؛ والحديث في «**الصحيح المسند**» (١٨٦) للشيخ مقبل رحمه الله تعالى.

وفي الحديث من الفوائد: أن المعصية قد تؤثر على الأرض، فالنبي ﷺ: نهى أن يذبح في مكان ذبح فيه لغير الله، أو في مكان فيه عيد من أعياد المبتدعة، ولهذا امتدح رسول الله ﷺ المساجد فقال: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا» أخرجه مسلم (٦٧١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وفيه: سؤال أهل العلم فيما أشكل.

وفيه: الاستفصال من المفتي للمستفتي.

وفيه: حرص المؤمنين على التقرب إلى الله بأنواع القرب.

وفيه: النهي عن التشبه بالمشركين؛ لما في ذلك من الضرر على العقائد والأخلاق، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»، أخرجه أحمد

(٥١١٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

وفيه: البعد عن أماكن الزور، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ .[الفرقان: ٧٢].

وفيه: الوفاء بما التزم الإنسان من الطاعة.

وفيه: حرمة مال الغير إلا بوجه شرعي، لقول النبي ﷺ: وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ».

وفيه: خطر المعاصي، ووجوب البعد عنها، لقوله ﷺ: «لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ»، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ**»، أخرجاه[1] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

***

(١) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

١١- بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

قَوْلُهُ (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ) من للتبعيض؛ فالنذر عبادة وصرفها لغير الله تعالى من الشرك الأكبر.

والنذر لغةً: هو الالتزام. **وشرعًا:** هو أن يوجب الإنسان على نفسه شيئًا يقربه إلى الله ﷻ، لم يوجبه الله تعالى عليه.

فمثلًا صلاة الضحى ليست بواجبة، فإذا قال رجل: لله علي أن أصلي ركعتي الضحى، وجب عليه أن يصلي الضحى، وهكذا الحج يجب في العمر مرة، فإذا قال رجل: لله علي أن أحج بعد حجة الإسلام وجب عليه أن يحج، فعن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، قَالَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ». متفق عليه(١) مع أن الاعتكاف غير واجب.

والنذر أنواع:

الأول: نذر الطاعة: فهذا يجب الوفاء به، قال الله ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، فلما امتدحهم على الوفاء به دل على أنه عبادة؛ لأن الله يحب العبادات والطاعات.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وهذا أمر، للوفاء بالنذور التي كانوا نذروها ليتقربوا بها إلى الله من ذبح

---

(١) البخاري (٦٦٩٧)، ومسلم (١٦٥٦).

هدي، أو طواف بالكعبة، أو اعتكاف فيها أو غير ذلك.

الثاني: النذر المحرم: وهو نذر المقابل، وهو أن تقول: لله علي إن شفى مريضي أو رد غائبي أو كساني أو أعطاني أو كذا.. أن أصوم أو أتصدق أو أقوم الليل أو.. أو.. فهذا يسمى نذر مقابل، وهذا النذر ابتداؤه محرم؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَنْذِرُوا، فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»[(١)].

وبعض العلماء يرى أن جميع أنواع النذر محرمة ابتداء، والصحيح أن المحرم هو نذر المقابل؛ لأنه يقول: أنا لا أصوم لله إلا إذا فعل لي كذا، ولا أقوم الليل إلا إذا فعل لي كذا، وهذا النذر لا يغير من قدر الله شيء، إذا أراد الله أن يموت مريضك فسيموت: «وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»[(٢)].

الثالث: نذر اللجاج: وهو نذر الغضب، كما فعلت بعض النساء في زمن الصحابة، فعَنْ أَبِي رَافِعٍ أَنَّ مَوْلَاتَهُ أَرَادَتْ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَقَالَتْ: «هِيَ يَوْمًا يَهُودِيَّةٌ، وَيَوْمًا نَصْرَانِيَّةٌ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لَهَا حُرٌّ، وَكُلُّ مَالٍ لَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَلَيْهَا الْمَشْيُ فِي بَيْتِ اللهِ، إِنْ لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا»، فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَابْنَ عُمَرَ، وَابْنَ عَبَّاسٍ، وَحَفْصَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، فَكُلُّهُمْ قَالَ لَهَا: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَكُونِي مِثْلَ هَارُوتَ، وَمَارُوتَ؟»، وَأَمَرُوهَا أَنْ تُكَفِّرَ يَمِينَهَا، وَتُخَلِّيَ بَيْنَهُمَا[(٣)].

وكان عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يشدد فيه، فكان إذا جاءه أحد في النذر، فقال: نذرت أن أصوم شهرين، يقول: صم، وقال آخر: نذرت أن أحج، قال: حج، وبعض الصحابة كان يفتي بحديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن أخته نذرت أن تحج

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٠٠٤٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٦٠٠٠).

إلى البيت؛ وهي تمشي على قدميها، فقال النبي ﷺ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ». أخرجه مسلم (١٦٤٥).

الرابع: نذر المعصية: كأن يقول قائل: لله علي أن أسرق! أو يقول: لله علي أن أزني أو أغتاب، فهذا نذر معصية، والنبي ﷺ قال: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ» أخرجه مسلم (١٦٤١) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، وهو منعقد على الصحيح، ولا يجوز الوفاء به، وكفارته كفارة يمين، على ما يأتي.

وذهب بعضهم إلى أن نذر المعصية لا ينعقد، بمعنى: أنه إذا لم يوفِ به ليس عليه شيء؛ لأنه نذر باطل، والصحيح أنه ينعقد، لكن لا يجوز أن يفي به، فالوفاء به محرم، وكفارته كفارة يمين.

قال العثيمين رحمه الله في "القول المفيد" (٢٣٨/١): مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ، فَلَا يَعْصِهِ»[1].

ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له. لكان لا ينعقد، ففي قوله: «فَلَا يَعْصِهِ» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ. انتهى

الخامس: النذر الشركي: وهو أن ينذر لقبر أو حجر أو شجر أو وثن أو ملك، أو نبي أو صالح.. أو غير ذلك، يقول: هذا الكبش نذرت به للحسين أو لابن علوان، والشرك ذنب عظيم لا يغفره الله عز وجل؛ لأنه شرك أكبر مخرج من الملة، إلا أن يتوب منه، لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) أخرجه احمد (٢٥٧٣٨)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب: لأن أكثر الشرك الواقع في الأمة من هـذا البـاب، حتى أنهم ينذرون بالأبناء والبنات وغيرها.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في "الدرر" (٢/٣١٣): وأما النذر على القبور فلكون ذلـك ليس من النذر في الطاعة ولا من النذر الذي يبتغى به وجه الله تعالى، بل قد يكـون من النذر في المعصية إذا تسبب عنه اعتقاد باطل في صاحب القبر كما يتفق ذلـك كثيرًا، وقد أخرج أبو داود بإسناد صالح عن سعيد بـن المسـيب أن أخـوين مـن الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسـألني القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك كفر عـن يمينك ولا تنذر في معصية الرب ولا في قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك. وأخـرج مالك والبيهقى بسند صحيح وصححه ابن السكن عن عائشة: أنهـا سـئلت عـن رجل جعل ماله في رتاج الكعبة إن كلم ذا قرابة فقالـت: يكفـر عـن اليمـين. وإذا كان هذا في الكعبة فغيرها من المشاهد والقبور أولى. اهـ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

قَوْلُهُ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ الْأَبْرَارَ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا، بَرُّوا بِوَفَائِهِمْ لِلَّهِ بِالنُّذُورِ الَّتِي كَانُوا يَنْذِرُونَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ. وقَالَ مُجَاهِدٌ، إِذَا نَذَرُوا فِي حَقِّ اللَّهِ، وقَالَ قَتَادَةُ: بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِالصَّلَاةِ، وَبِالْحَجِّ، وَبِالْعُمْرَةِ. انتهى من "**تفسير الطبري**" (٢٣/ ٥٤١).

قال الطبري في "تفسيره" (٢٣/٥٤٢): وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ اجْتُزِئَ بِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا، كَانُوا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ، فَتَرَكَ ذِكْرَ كَانُوا لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا؛ وَالنَّذْرُ: هُوَ كُلُّ مَا أَوْجَبَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ فِعْلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَنْتَرَةَ:

الشَّاتِمَيْ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمْهُمَا ... وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمَ الْقَهُمَا دَمِي

قَوْلُهُ (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) أي يوم القيامة يوما مُمْتَدًّا طَوِيلًا فَاشِيًا. اهـ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ(١) وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وقولهُ: ﴿وَمَآ﴾: اسم موصول بمعنى الذي. ﴿أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: أي: والذي أنفقتم من النفقات في طاعة الله تعالى سواء كان ذلك من الصدقات أو غيرها، فإن الله يعلمه، ويجازي عليه، وفضل النفقة عظيم، ففي "**الصحيحين**"(٢)، قال رسول الله ﷺ: «**وإنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امرأتِك**»، وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ، وَيُغْنِيهِمْ؛ اخرجه مسلم (٩٩٤)، والأحاديث في الباب كثيرة.

قَوْلُهُ ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾: تقدم الكلام عليه، وعلى أحكامه فيدخل فيه جميع النذور. والنذر قد يكون مقيدًا؛ كأن يقول لله علي حج أو صدقة بكذا، وقد يكون مطلقا فيقول لله عليّ نذر. ويلزم الوفاء به فمن عجز أو شق عليه فكفارته كفارة يمين. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: أي: مطلع على فعلكم وعالم بصنيعكم ويؤجركم على نياتكم. وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: المراد بالظلم هنا: الكفر على ما هو مبين في موطنه. والفرق بين النفقة والنذر: أن النذر يكون بالتزام، والنفقة لا تكون بالتزام.

---

(١) إلى هنا في المتن.

(٢) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي "الصَحِيحِ": عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِهِ».

قَوْلُهُ (وفِي الصَحِيحِ): أي: البخاري (٦٦٩٦) في كتاب النذر باب ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وبَابُ النَّذْرِ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ وَفِي مَعْصِيَةٍ رقم (٦٧٠٠).

قَوْلُهُ (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ): أي من التزم عمل بر وصلاح فليأتي به.

قَوْلُهُ (وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِهِ): لما تقدم أنه لا وفاء في نذر المعصية، ولوجوب اجتناب المعاصي.

والشاهد من الحديث: وجوب الوفاء بالنذر الذي عقده صاحبه لطاعة الله تعالى، وأما المعصية فلا تجوز.

وأما حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا وفاء لنذر في معصية وكفارته كفارة يمين» فهذا حديث ضعيف بإجماع العلماء، كما نقله النووي وغيره، قال النووي في "**شرح مسلم**" (١١/ ١٠١): وَأَمَّا حَدِيثُ كَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ فَضَعِيفٌ بِاتِّفَاقِ الْمُحَدِّثِينَ. اهـ. ولكن العمل عليه.

***

١٢- بَابٌ مِنَ الشِّركِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّركِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشِّركِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ)، (مِنَ): للتبعيض، وكان ينبغي أن يقيده بقوله: (فيما لا يقدر عليه إلا الله)، والاستعاذة هي طلب العوذ، وفي الحديث: «فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَئًا أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ» أخرجه البخاري (٧٠٨٢)، مسلم (٢٨٨٦) عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الشيء الذي يتخذ ستارة من الشر.

والاستعاذة بالمخلوق جائزة بثلاثة شروط:

أن يكون حيًّا حاضرًا قادرًا.

وأما الإستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهي شرك أكبر.

والفرق بين الاستعاذة والاستعانة والدعاء، مع أنها كلها طلب:

أن الاستعاذة طلب العوذ أي من الشر، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، والاستعانة طلب العون على الخير قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والدعاء يشملها جميعًا، وهو أعم على ما يأتي إن شاء الله، والاستعاذة بالله عَزَّ وَجَلَّ من أسباب السلامة من الشرور والمتأمل لأدعية رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد ما لا يحصى في أدعيته وأذكاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلى المسلم أن يكون عوذه بالله الذي بيده تصريف نواصي العباد ودفع الشرور.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قَوْلُهُ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: الأنس هم بنوا آدم، وسموا ناس من الأنس، وقيل من النسيان. قال الطبري في "تفسيره" (١٦/ ١٨٢): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ.اهـ.

قَوْلُهُ ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي: يَسْتَجِيرُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فِي أَسْفَارِهِمْ إِذَا نَزَلُوا مَنَازِلَهُمْ. انتهى من "تفسير الطبري" (٢٣/ ٣٢٢).

وهذا إخبار من الله عَزَّ وَجَلَّ عن حال بعض المشركين؛ وذلك أن المشركين من الإنس كانوا إذا نزلوا واديًا من الأودية أو شعبًا من الشعاب وأتى عليهم الليل، يستعيذون بسيد الوادي من الجن.

وقَوْلُهُ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: قال ابن جرير في "تفسيره" (٢٣/ ٣٢٤): اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَزَادَ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِعَزِيزِهِمْ، جَرَاءَةً عَلَيْهِمْ، وَازْدَادُوا بِذَلِكَ إِثْمًا،.. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ فَزَادُوهُمْ فَرَقًا قال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَزَادَ الْإِنْسَ الْجِنُّ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ إِثْمًا، وَذَلِكَ زَادُوهُمْ بِهِ اسْتِحْلَالًا لِمَحَارِمِ اللَّهِ. وَالرَّهَقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْإِثْمُ وَغَشَيَانُ الْمَحَارِمِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى:

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَتِهَا ... هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقًا

يَقُولُ: مَا لَمْ يَغْشَ مَحْرَمًا. انتهى.

وفي هذا من الفوائد: تسمية الجن رجال، ومنهم الذكور ومنهم الإناث، وكان الكفار يزعمون أن إناث الجن زوجات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، فيقولون: الملائكة أبناء سروات الجن، وقد أكذبهم الله ﷻ في سورة الصافات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وفي الآية ما عليه الجن من أذية الإنسان إن لم يعتصم بالله ﷻ فهم يأزونهم على الشر أزًا ويستمتعون بهم ويضلونهم.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتُ حَكِيمٍ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتُ حَكِيمٍ): رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ابن أمية بن حارثة بن الأوقص بن مرة بن هلال ابن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم السلمية، امرأة عثمان بن مظعون.

يقال: كنيتها أم شريك، ويقال لها خويلة بالتصغير، قاله أبو عمر. قال: وكانت صالحة فاضلة، روت عن النبي ﷺ.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهنّ للنّبيّ ﷺ، علّقه البخاري. انتهى من "**الإصابة**" (٨/ ١١٦) لابن حجر.

قَوْلُهُ (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا): يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم. انتهى من قول العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في "**القول المفيد**" (١/ ٢٥٢).

قَوْلُهُ (أَعُوذُ): تقدم معناه وأنه طلب العوذ، والملجأ.

قَوْلُهُ (بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ): وكلمات الله تنقسم إلى قسمين: كلمات كونية وكلمات شرعية.

فالكلمات الكونية: هي التي لا تتخلف، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فما قضاه الله وقدره كونًا لابد أن يقع، ويكون في المحبوب وغيره.

والكلمات الشرعية: هي الأوامر والنواهي، وقد تقع وقد لا تقع، والمأمور به محبوب إلى الله عز وجل، والمنهي عنه مبغوض إليه تعالى، قال ابن القيم رحمه الله في "**شفاء العليل**" (٢٨٢): فأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وقوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ»[1] فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار وأما الديني فكقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والمراد به القرآن وقوله ﷺ في النساء واستحللتم فروجهن بكلمة الله أي بإباحته ودينه وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهى ويحل ويحرم وكلماته التي يخلق بها. انتهى.

وكلماته لا منتهى لها قال ابن القيم رحمه الله كما في "**مختصر الصواعق**" (٧٦): وَقَدْ نَبَّهَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] فَقَدَّرَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِالْعَالَمِ مِدَادًا وَوَرَاءَهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ تُحِيطُ بِهِ كُلُّهَا مِدَادًا يُكْتَبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللَّهِ نَفِدَتِ الْبِحَارُ وَنَفِدَتِ الْأَقْلَامُ الَّتِي لَوْ قُدِّرَتْ جَمِيعُ أَشْجَارِ الْأَرْضِ مِنْ حِينِ خُلِقَتْ إِلَى آخَرِ الدُّنْيَا لَمْ تَنْفَدْ كَلِمَاتُ اللَّهِ. انتهى.

قَوْلُهُ (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ): أي من شر الذي خلق، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ

---

(١) أخرجه احمد (١٥٤٦٠)، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَنْبَشٍ رضي الله عنه، والحديث في «الصحيح المسند»(٨٩٣) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله .

بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ١، ٢].

قال ابن القيم: كما في "الطب النبوي" (١٣٤): وَفِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، فَإِنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يُسْتَعَاذُ مِنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْأَجْسَامِ أَوِ الْأَرْوَاحِ. انتهى.

والنبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَقَلْبِي، وَمَنِيِّي»، أخرجه أحمد (١٥٥٤١) عن شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ رضي الله عنه، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[(١)]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ»[(٢)].

فالله عز وجل هو الذي يستعاذ به من شرور المخلوقات فهو القادر على دفعها ورفعها.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ»[(٣)]، وقد عقد رَسُول اللَّهِ ﷺ على امرأة، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيهِ وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ»[(٤)]، ثم ردها إلى أهلها.

قَوْلُهُ (لَمْ يَضُرَّهُ شَيءٍ): لم يقل لم يصيبه، فقد يُصاب، ولكن لا يضره.

قَوْلُهُ (حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ): أي حتى ينتقل منه.

وفي الحديث بركة الأذكار والأدعية النبوية، وفيه رد على الصوفية الذين يرون عدم جواز الأخذ بالأسباب، وأن هذا ينافي التوكل، فهذا من الأسباب

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والحديث في «الصحيح المسند»(٧٣٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٥٤)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

الشرعية لطرد المضرات.

وساق المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث دلالة على أنَّ الاستعاذة تكون بالله عَزَّ وَجَلَّ أو صفة من صفاته، وذلك فيما لا يقدر عليه إلا الله.

وأخرجه مسلم (٢٧٠٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رجل لدغته عقرب: «أَمَا لَوْ قُلْتَ، حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ».

ومن فوائد الحديث: أن الإنسان إذا نزل منزلًا جديدًا عليه أن يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ من شر ذلك المنزل، وعند النسائي في "**الكبرى**" (٨٧٧٥) من حديث صُهَيْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمْ يَكُنْ يَرَى قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا، إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرِ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا».

ومنها: جواز الإستعاذة بكلمات الله، وبغيرها من الصفات، وفيه أن الكلام غير مخلوق فلو كان مخلوقًا للزم أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعاذ بمخلوق.

ومنها: أن الله عَزَّ وَجَلَّ متصف بصفة الكلام، وهو كلام حقيقي تكلم الله عَزَّ وَجَلَّ بحرف وصوت سمعه منه جبريل، وسمع منه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، برفع لفظ الجلالة، أي: أن الله هو المتكلم، وموسى هو السامع.

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ -أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ: أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ: وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى، بِنَصْبِ اسْمِ اللَّهِ، لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا اللَّهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ

مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ؟! فَبُهِـتَ الْمُعْتَزِلِـيُّ![1]. أي: أنَّ الضـمير يعـود إلى أقرب مذكور، وينتفي تأويلهم.

وصفة الكلام من الصفات الذاتية الفعلية؛ ذاتية من حيث نوعها وفعليـة مـن حيث آحادها، وبيانـه: أن الله مـتكلم أبـدًا وأزلًا، والأزل في الماضـي والأبـد في المستقبل، لكن كلام الله لمحمد ﷺ ولموسـى عَلَيْـهِ الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ ولأهـل الجنة ولأهل الموقف صـفة فعـل، قـال تعـالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، والنداء يكون بصوت عالٍ يسمعه يوم القيامـة مـن بعـد كما يسمعه من قرب، والمناجاة تكون بصوت خافـت، قـال تعـالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وقَوْلُهُ: **(رَوَاهُ مُسْلِمْ)**: هو أبو الحسـين بـن الحجـاج القشـيري النيسـابوري في "**صحيحه**" كتاب الدعاء (٢٧٠٨).

***

---

(١) انظر «العقيدة الطحاوية» (١٣٠) ط الأوقاف السعودية.

١٣- بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أن يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اللهِ أو يدعو غَيْرَهُ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أن يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اللهِ أو يَدعُو غَيْرَهُ

قَوْلُهُ(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أن يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اللهِ أو يَدعُو غَيْرَهُ): أي: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، على ما تقدم بيانه.

والاستغاثة: طلب الغوث من الأمر الشديد، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وقال ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، ويا لله كم ترفع من كربات وتقضى من حاجات وتدفع من مضرات إذا تعلقت القلوب بالله ﷻ وهتفت الألسن بدعائه وسؤاله.

قَوْلُهُ(أو يَدعُو غَيْرَهُ): عطف الدعاء على الاستغاثة، من باب عطف العام على الخاص، وهذا يرد كثيرًا.

والإستغاثة أنواع:

فمنها: العبادة: وهي استغاثة الله ﷻ، وطلب الغوث منه، كما جاء من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في "**الصحيحين**"[(١)] في استغاثة النبي ﷺ واستسقائه: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا».

ومنها الاستغاثة الشركية: مثل الاستغاثة بالمقبورين، أو بغيرهم فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ومنها الاستغاثة الجائزة: وهي فيما يقدر عليه المخلوق الحي الحاضر، مثل

(١) البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

قولك: يا فلان أغثني، كأن يكون جائعًا فيقول: أغثني، ولهذا سمي طعام ما قبل الظهر غواث من هذا الباب؛ لأن الجائع يشتد به الجوع فيغيثوه بهذا الطعام.

والدعاء: هو الطلب من الأدنى إلى الأعلى، وإن كان الطلب من الأعلى إلى الأدنى سمي أمرًا قال النبي ﷺ: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أي: ما طلبته منكم فأتوا منه ما استطعتم، وإذا كان الطلب من المماثل يسمى التماسًا.

والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ودعاء المسألة يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر كلهم يقولون: يا الله! إذا اشتد بهم الحال! كما أخبر الله عن الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

ودعاء العبادة: هو فعل الأوامر واجتناب النواهي، وقد يتضمن دعاء المسألة، مثل الصلاة، فالمصلي يدعو الله عز وجل دعاء عبادة، وهذا الدعاء يتضمن دعاء المسألة، فإنك عند افتتاح الصلاة تقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، وتقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وتقول: سبحان ربي العظيم، اللهم اغفر لي، وتقول: سبحان ربي الأعلى رب اغفر لي ذنبي كله دقه وجله علانيته وسره، وعند التشهد تصلي على النبي ﷺ، ثم تستعيذ بالله من أربع على ما هو معلوم في مواطنه.

ودعاء العبادة يتضمن دعاء المسألة، ودعاء العبادة لا يكون إلا من المؤمن ويختص به؛ لأنه يشترط فيه شرطان للقبول: الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل، والشرط الثاني: المتابعة للنبي ﷺ.

ودعاء المسألة هو من الرزق العام الذي يؤتيه الله عز وجل للمؤمنين والكافرين، بينما دعاء العبادة هو من الرزق الخاص الذي يمتن الله عز وجل به على من يشاء من

عباده.

قال ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٢/٣): قوله ﷻ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٤].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا وذلك كثير في القرآن.

كقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ

رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير بيد أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألني وقيل أثيبه إذا عبدني والقولان متلازمان. انتهى.

ومن الشرك: أن يدعى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله ﷻ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد: ١٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فهذه آية عظيمة أخبر الله ﷻ أن الذين يدعوهم المشركون من دون الله ﷻ ما يملكون شيئًا، هم ملك لله سبحانه وتعالى، ما يملكون من قطمير، والقطمير: هو الغلاف الرقيق الأبيض الذي يحول بين التمرة وبين نواتها، والنقير، هي: النقطة الصغيرة التي في مؤخر النواة، والفتيل هي الخيط الصغير الأبيض الذي في وسط النواة، وقد ضرب الله ﷻ لهذه الثلاثة أمثلة وأن الآلهة التي يعبدونها من دون الله ﷻ ما تملك من قطمير ولا نقير.

وضرب الله ﷻ أبلغ الأمثلة في أن الذي يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كالرجل الواقف على البئر يريد أن يشرب فيمد يديه فلا يرجع بشيء، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾

[الرعد: ١٤].

وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، وكما قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢١]، فكيف سيستجيبون لهم، فهم في غفلة عن دعاء المشركين، وهم عاجزون عن الاستجابة لهم حتى قال الله ﷻ: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ ﴾ [فاطر: ١٤] أي: يتبرءون عند الله ﷻ من شركهم، وقد يكون معبودهم موحدًا كعيسى، ومحمد، وإبراهيم عَلَيْهِمْ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وهكذا الصحابة رضي الله عنهما ومن إليهم، وقد يكونوا على الإشراك كابن عربي وابن الفارض والتلمساني، وصدر الدين الرومي، والبدوي... ومن إليهم من أصحاب الخطوة وأصحاب الأعمال الشركية، وكله شرك والعياذ بالله.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. [يونس: ١٠٦-١٠٧].

قَوْلُهُ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: يَعْنِي بِذَلِكَ الْآلِهَةَ وَالْأَصْنَامَ، يَقُولُ: لَا تَعْبُدْهَا رَاجِيًا نَفْعَهَا أَوْ خَائِفًا ضُرَّهَا، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَدَعَوْتَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، يَقُولُ: مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ. اهـ من "**تفسير الطبري**" (١٢/ ٣٠٤). والظلم هنا يراد به الشرك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفيه: النهي عن دعاء غير الله عَزَّ وَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله، فالله عَزَّ وَجَلَّ بيده الخير، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

الجواب: لا هن رافعات لضره ولا هن ممسكات لرحمته، فإذا كان هذا هو فـ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] أي: الله عَزَّ وَجَلَّ كافيَّ من الشرور ومن غير ذلك.

وبهذه الحجة استدل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، فكان المستحق للعبادة هو الذي يسمع ويبصر ويغني، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل؛ وهو الله الواحد القهار.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ: وَإِنْ يُصِبْكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ بِشِدَّةٍ أَوْ بَلَاءٍ، فَلَا كَاشِفَ لِذَلِكَ إِلَّا رَبُّكَ الَّذِي أَصَابَكَ بِهِ دُونَ مَا يَعْبُدُهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ. اهـ من "**تفسير الطبري**" (١٢/ ٣٠٥).

ولما أُلقيَّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في البحر، وكان في بطن الحوت، قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فكان الكاشف لهذه الكربة العظيمة هو الله تعالى، وجاء في الحديث: «دُعَاءُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا بِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»(١)، ففي هذه الدعوة غاية التذلل مع غاية التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن المثل وعن الشريك وعن النظير، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيها الاعتراف بالتقصير والذنب، قال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وللشيخ ابن باز كلام نفيس بكى عنده رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال: هذه سنة الله في أوليائه، سنة الله في حملة دعوته؛ أنهم إذا وقع بهم الضر أكرمهم الله سبحانه وتعالى وجاء لهم بما ينجيهم من هذه الشدة وهذا الضيق أو كما قال، ومن هذا الباب كرامات الأولياء، وهو ما يحصل لكثير من المؤمنين عند الشدة والضيق.

وما حصل لنا في أيام الحصار من هذا الباب، فالفضل لله عَزَّوَجَلَّ، وما أحوجنا إلى رد الأمور إلى الله تعالى.

خرجت يومًا من المزرعة -بعد الحصار الأول وقبل خروجنا من دماج

---

(١) رواه الحاكم (٣٤٤٤)، والبزار (٣/ ٣٦٣)، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤)، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بسبب بغي الرافضة الحوثين- ونظرت إلى الجبال المحيطة بنا، فذكرت قول الله ﷻ في امتنانه على قريش: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

الحوثيون في أعلى دماج، والخانق، والزيلة، والدرب، ونحن في أمان من الله ﷻ نتعلم ونُعلِّم ونقيم شعائر الله ﷻ، هذه نعمة عظيمة، لماذا لا نستحضر مثل هذه الآيات، ولما كان بعد الحصار ذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦] أيام الحصار كنا قليل، وكنا مستضعفين، قلة الطعام، وقلة الزاد، وقلة الدواء، وقلة المناصرين، إلا الله سبحانه وتعالى، حالنا: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] وكنا نخاف أن يتمكن الحوثيون من هذا الخير ويتخطفون أهله، ويتخطفون حملة الدعوة، فكان من الله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦] آوانا وحفظنا وأيدنا بنصره على البغاة المعتدين: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] بقي الشكر، وهي التي علينا، والشكر يكون باللسان ذكرًا وثناء، فلا يتبجح شخص ويقول: فعلنا.. وفعلنا.. وفعلنا.. ذاك الله الذي فعل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال: ١٧]، مع أن النبي ﷺ رمى بيده وقام بالفعل، لكن الذي سدد هو الله، الذي ربط على قلوبنا، وقذف الرعب في قلوب أعدائنا، وبارك في القليل، وهذا من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

قَوْلُهُ ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال الطبري في "تفسيره" (١٢/ ٣٠٥): يَقُولُ: وَإِنْ يُرِدْكَ رَبُّكَ بِرَخَاءٍ، أَوْ نِعْمَةٍ، وَعَافِيَةٍ، وَسُرُورٍ، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧] يَقُولُ: فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَلَا يَرُدَّكَ عَنْهُ، وَلَا يُحْرِمُكَهُ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ وَدُونَ مَا سِوَاهُ. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [يونس: ١٠٧] يَقُولُ: يُصِيبُ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ بِالرَّخَاءِ وَالْبَلَاءِ، وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ مَنْ يَشَاءُ، وَيُرِيدُ مِنْ

عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ لِذُنُوبِ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ مِنْ عِبَادِهِ، مِنْ كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ، الرَّحِيمُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْهُمْ وَأَطَاعَهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ. اهـ.

فما أصاب الإنسان من خير فهو منَّة الله تعالى، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وكان في كلام الأنصار للنبي ﷺ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ(١)، فالمنة لله ﷻ، وما أحسن ما قيل:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ السامِعُ

أي: أن الله ﷻ إن عذب أحدًا عذبه بعدله وما ظلمه، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وإن أدخله الجنة فبفضله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقولُهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يقول إنَّ الذين تدعون من الأوثان والأصنام والألهة المزعومة من دون الله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ عاجزون عن رزق أنفسهم فضلا عن رزق غيرهم إذ لا ملك لهم، و إذا كانت هذه الأصنام لا تملك لكم رزقًا فليكن طلبكم للرزق من الله سبحانه وتعالى فهو الرزاق، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: (إني أنا الرزاق) وفي المصحف الذي بين أيدينا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قَوْلُهُ ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾: يقول اطلبوا الرزق من عندالله الرزاق فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ -أَوِ القَبْضُ- يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». متفق عليه[1]. قَوْلُهُ ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: وحدوه، ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ عَلَى رِزْقِهِ إِيَّاكُمْ، وَنِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْكُمْ، والشكر من التوحيد وداخل فيه، وهو من باب عطف الخاص على العام.

قَوْلُهُ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يَقُولُ: إِلَى اللَّهِ تُرَدُّونَ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ، وَفِي نِعَمِهِ تَتَقَلَّبُونَ، وَرِزْقَهُ تَأْكُلُونَ. اهـ من "**تفسير الطبري**" (١٨/ ٣٧٥).

(١) البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

قَوْلُهُ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] قال الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٧): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَأَيُّ عَبْدٍ أَضَلُّ مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا تَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: يَقُولُ: لَا تُجِيبُ دُعَاءَهُ أَبَدًا، لِأَنَّهَا حَجَرٌ أَوْ خَشَبٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَآلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي غَفْلَةٍ، لِأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَعْقِلُ وَإِنَّمَا عَنَى بِوَصْفِهَا بِالْغَفْلَةِ، تَمْثِيلُهَا بِالْإِنْسَانِ السَّاهِي عَمَّا يُقَالُ لَهُ، إِذْ كَانَتْ لَا تَفْهَمُ مِمَّا يُقَالُ لَهَا شَيْئًا، كَمَا لَا يَفْهَمُ الْغَافِلُ عَنِ الشَّيْءِ مَا غَفَلَ عَنْهُ وَإِنَّمَا هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِسُوءِ رَأْيِهِمْ، وَقُبْحِ اخْتِيَارِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُ، وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةِ مَنْ جَمِيعُ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَمَنْ بِهِ اسْتِغَاثَتِهِمْ عِنْدَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْحَوَائِجِ وَالْمَصَائِبِ.

وَقِيلَ: مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ، فَأَخْرَجَ ذِكْرَ الْآلِهَةِ وَهِيَ جَمَادٌ مَخْرَجَ ذِكْرِ بَنِي آدَمَ، وَمَنْ لَهُ الِاخْتِيَارُ وَالتَّمْيِيزُ، إِذْ كَانَتْ قَدْ مَثَّلَتْهَا عَبَدَتُهَا بِالْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الَّتِي تَخْدُمُ فِي خِدْمَتِهِمْ إِيَّاهَا، فَأَجْرَى الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ جَارِيًا فِيهِ عِنْدَهُمْ.

قَوْلُهُ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جُمِعَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ، كَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي يَدْعُونَهَا

فِي الدُّنْيَا لَهُمْ أَعْـدَاءً، لِأَنَّهُـمْ يَتَبَـرَّءُونَ مِـنْهُمْ ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] يَقُولُ تعَالَى ذِكْرُهُ: وَكَانَتْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا فِـي الـدُّنْيَا بِعِبَـادَتِهِمْ جَاحِـدِينَ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا أَمَرْنَاهُمْ بِعِبَادَتِنَا، وَلَا شَعَرْنَا بِعِبَـادَتِهِمْ إِيَّانَـا، تَبَرَّأْنَـا إِلَيْكَ مِنْهُمْ يَا رَبَّنَا. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وكقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، قال الشوكاني في "**فتح القدير**" (٤/ ١٦٩): إِذَا أثبت أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ فَهَلْ إِلَهٌ فِي الْوُجُودِ يَصْنَعُ صُنْعَهُ وَيَخْلُقُ خَلْقَهُ؟

فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَوْحِيدَ رَبِّهِمْ، وَسُلْطَانَ قُدْرَتِهِ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا الاستدلال مِنْهُ سُبْحَانَهُ، بِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَيْهِ عَلَى الْعُمُومِ، والمضطر: اسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ الِاضْطِرَارِ: وَهُوَ الْمَكْرُوبُ الْمَجْهُودُ الَّذِي لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ.

وَقِيلَ: هُوَ الْمُذْنِبُ. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي عَرَاهُ ضُرٌّ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ، فَأَلْجَأَهُ إِلَى التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ. وَاللَّامُ فِي الْمُضْطَرِّ لِلْجِنْسِ لَا لِلِاسْتِغْرَاقِ، فَقَدْ لَا يُجَابُ دُعَاءُ بَعْضِ الْمُضْطَرِّينَ، لِمَانِعٍ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ، بِسَبَبٍ يُحْدِثُهُ الْعَبْدُ، يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَائِهِ، وَإِلَّا فَقَدَ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دُعَاءِ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ.

وَالْوَجْهُ فِي إجابة الْمُضْطَرِّ أَنَّ ذَلِكَ الِاضْطِرَارَ الْحَاصِلَ لَهُ يَتَسَبَّبُ عَنْهُ الْإِخْلَاصُ، وَقَطْعُ النَّظَرِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ يُجِيبُ دُعَاءَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَإِنْ كَانُوا كَافِرِينَ فَقَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وَقَالَ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فَأَجَابَهُمْ عِنْدَ ضَرُورَتِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ سَيَعُودُونَ إِلَى شِرْكِهِمْ ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أَيِ: الَّذِي يَسُوءُ الْعَبْدَ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ، وَقِيلَ: هُوَ الضُّرُّ، وَقِيلَ: هُوَ الْجَوْرُ ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أَيْ: يَخْلُفُ كُلُّ قَرْنٍ مِنْكُمُ الْقَرْنَ الَّذِي قَبْلَهُ بَعْدَ انْقِرَاضِهِمْ، وَالْمَعْنَى: يُهْلِكُ قَرْنًا، وَيُنْشِئُ آخَرِينَ، وَقِيلَ: يَجْعَلُ أَوْلَادَكُمْ خَلَفًا مِنْكُمْ، وَقِيلَ: يَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ خَلَفًا مِنَ الْكُفَّارِ، يَنْزِلُونَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ الَّذِي يُوَلِّيكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ الْجِسَامَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: تَذَكُّرًا قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ. انتهى.

وكل ما تقدم من الأدلة ساقه المصنف لبيان أن طلب العوذ والعون يكون من الله ﷻ فيما يقدر عليه إلا هو تعالى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَرَوَى الطَّبَرَانِي بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قَوْلُهُ: (وَرَوَى الطَّبَرَانِي) كما في "**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**" للهيثمي (١١/ ٢٦) حيث قال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد، بغير هذا السياق. انتهى. قلت: أخرجه أحمد (٢٢٧٠٦) من طريق ابن لهيعة، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ، عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه يَقُولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ لِلَّهِ»، وفي سنده ابن لهيعة وهو عبد الله ضعيف، وفيه مبهم وهو الراوي عن عُبَادَةَ رضي الله عنه.

والطَّبَرَانِيُّ: هُوَ: الإِمَامُ، الحَافِظُ، الثِّقَةُ، الرَّحَّالُ، الجَوَّالُ، مُحَدِّثُ الإِسلاَمِ، علمُ المعمَّرينَ، أَبُو القَاسِمِ سُلَيْمَانُ بنُ أَحْمَدَ بنِ أَيُّوْبَ بنِ مُطَيِّرٍ اللَّخْمِيُّ، الشَّامِيُّ، الطَّبَرَانِيُّ، صَاحبُ المَعَاجِمِ الثَّلاَثَةِ، مَوْلِدُهُ: بِمدينَةِ عكَّا، فِي شَهْرِ صَفَرٍ، سنَةَ سِتِّيْنَ وَمائَتَيْنِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ عَكَّاوِيَّةً.

وَأَوَّلُ سماعِهِ فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَسَبْعِيْنَ، وَارْتَحَلَ بِهِ أَبُوْهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَانَ صَاحِبَ حَدِيْثٍ، مِنْ أَصْحَابِ دُحَيْم، فَأَوَّلُ ارتحَالِهِ كَانَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ، فَبقِي فِي الارتحَالِ وَلقِيِّ الرِّجَالِ ستَّةَ عشرَ عَامًا، وَكَتَبَ عَمَّنْ أَقبلَ وَأَدبرَ، وَبَرَعَ فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَجمعَ وَصَنَّفَ وَعُمِّرَ دَهْرًا طَوِيْلًا، وَازدحَمَ عَلَيْهِ المحدِّثُوْنَ، وَرحلُوا إِلَيْهِ مِنَ الأَقطَارِ. وَمِنْ تَوَالِيفِهِ "**المُعْجَمُ الصَّغِيْرُ**" فِي مُجَلَّدٍ،

عَنْ كُلِّ شَيْخٍ حَدِيْثٌ، وَ "**المُعْجَمُ الكَبِيْرُ**" وَهُوَ مُعْجَمُ أَسمَاءِ الصَّحَابَةِ وَتَرَاجِمِهِم وَمَا رَوَوْهُ، لَكِنْ لَيْسَ فِيْهِ مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلاَ اسْتوعبَ حَدِيْثَ الصَّحَابَةِ المُكثرينَ، فِي ثَمَانِ مُجَلَّدَاتٍ، وَ "**المُعْجَمُ الأَوسطُ**" عَلَى مشَايِخِهِ المُكثرينَ، وَغَرَائِبُ مَا عِنْدَهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ، يَكُونُ خَمْسَ مجلدَاتٍ.

قَالَ أَبُو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بنُ فَارِسَ اللُّغَوِيُّ: سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ ابنَ العَمِيْدِ يَقُوْلُ: مَا كُنْتُ أَظنُّ أَنَّ فِي الدُّنْيَا حَلاَوَةً أَلَذَّ مِنَ الرِّئَاسَةِ وَالوزَارَةِ الَّتِي أَنَا فِيْهَا، حَتَّى شَاهدتُ مذَاكرَةَ أَبِي القَاسِمِ الطَّبَرَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الجِعَابِيِّ بحضرتِي، فَكَانَ الطَّبَرَانِيُّ يغلِبُ أَبَا بَكْرٍ بكَثْرَةِ حِفْظِهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يغلبُ بفطنَتِهِ وَذكَائِهِ حَتَّى ارتفعتْ أَصواتُهُما، وَلاَ يكَادُ أَحدُهُمَا يغلبُ صَاحبَهُ، فَقَالَ الجِعَابِيُّ: عِنْدِي حَدِيْثٌ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ عِنْدِي، فَقَالَ: هَاتِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو خَلِيْفَةَ الجُمَحِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بنُ أَيُّوْبَ، وَحَدَّثَ بِحَدِيْثٍ، فَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بنُ أَيُّوْبَ، وَمِنِّي سَمِعَهُ أَبُو خَلِيْفَةَ، فَاسمعْ مِنِّي حَتَّى يعلُو فِيْهِ إِسنَادُكَ، فَخجلَ الجِعَابِيُّ، فَوَدِدْت أَنَّ الوزَارَةَ لَمْ تكنْ، وَكُنْتُ أَنَا الطَّبَرَانِيَّ، وَفرحتُ كفرحِهِ، أَوْ كَمَا قَالَ. انتهى مختصرا من "**سير أعلام النبلاء**" للذهبي (١٦/ ١١٩).

توفي سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني في ذي القعدة يوم السبت ودفن يوم الأحد لليلتين بقيتا منه سنة ستين وثلاثمائة ودفن بباب مدينة جي المعروف بتيره.

قَوْلُهُ (فَقَالَ بَعْضُهُمْ) في "**مسند أحمد**" أنه أبو بكر رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذَا المُنَافِقِ) أي نطلب منه كف شر هذا المنافق.

قَوْلُهُ (فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: **إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ** عز وجل) هذا الشاهد من ذكر الحديث، وأن الاستغاثة تكون بالله تعالى، وحال المنافقين أنهم

يؤذون المؤمنين والمؤمنات، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وفي الحديث سد ذرائع الشرك، فلما جاءوا إلى النبي ﷺ أنكر عليهم ذلك، فقال: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**». والحديث ضعيف، ومنكر، أما ضعف السند ففيه عبد الله بن لهيعة، والرجل المبهم.

وأما النكارة فإن الاستغاثة بالمخلوق الحاضر القادر جائزة، وهؤلاء استغاثوا بالنبي ﷺ وهو حي حاضر قادر، ومما يدل على نكارته ما في "**الصحيحين**" البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ، فَذَكَرَ الغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، قَالَ: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

والمنافقون قد كثر شرهم لا سيما في هذا الزمان، الذي اشتدت فيه غربة الدين، والله المستعان، ومن هؤلاء المنافقين الديمقراطيون والعلمانيون والماسونيون والحداثيون والاشتراكيون والبعثيون والعقلانيون والرافضة والباطنية، وفي "**صفة النفاق وذم المنافقين**" للفريابي (١١٠): عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَسُودَ كُلَّ قَوْمٍ مُنَافِقُوهَا. اهـ.

وقد تكلمت عليهم في كتابي: "**شروط التوبة إلى الله ﷻ**"، وهكذا في كتاب: "**عقائد الباطنية**"، وتوسعت في ذكر أوصافهم في "**تفسير أوائل سورة البقرة**".

١٤- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

هذا الباب امتداد للأبواب التي قبله، ومعناه: أن كثيرًا من المشركين الذين يدعون، وينذرون، ويذبحون لغيره عز وجل، يفعلون ذلك لأحجار جامدة غير خالقة، ولا قادرة، بل هي من خلق الله عز وجل، وجاء في البخاري (٤٨٥٤) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن قريشًا أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم لفداء الأسارى، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» فأسلم.

أي: هل هذه الأصنام خلقت من غير شيء، ووجدت بنفسها؟ وهذا ممتنع ومحال، أم هي الخالقة؟ وهذا ممتنع ومحال، فإذا لم توجد بنفسها ولم تكن خالقة، فهي مخلوقة مربوبة ولا يجوز أن تصرف لها العبادات من دون الله سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قَوْلُهُ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: يخلقهم الله عز وجل، والمخلوق دائمًا بحاجة إلى خالقه ومالكه ومدبره.

قَوْلُهُ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾: أي: لا يقدرون أن ينصروا المشركين الذين تعلقت قلوبهم بهم بل أعظم من ذلك: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾، وهذا بيان لشدة عجزها تبول عليهم الكلاب لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا أن يأكلوا أو يتكلموا أو غير ذلك.

وفي مقدمة "**سنن الدارمي**" (٣) عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي موْلَايَ: أَنَّ أَهْلَهُ بَعَثُوا مَعَهُ بِقَدَحٍ فِيهِ زُبْدٌ وَلَبَنٌ إِلَى آلِهَتِهِمْ، قالَ: فَمَنَعَنِي أَنْ آكُلَ الزُّبْدَ لِمَخَافَتِهَا، قَالَ: «فَجَاءَ كَلْبٌ فَأَكَلَ الزُّبْدَ وَشَرِبَ اللَّبَنَ، ثُمَّ بَالَ عَلَى الصَّنَمِ وَهُوَ: إِسَافٌ، وَنَائِلَةُ»، قَالَ هَارُونُ كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا سَافَرَ، حَمَلَ مَعَهُ أَرْبَعَةَ أَحْجَارٍ ثَلَاثَةٌ لِقِدْرِهِ وَالرَّابِعُ يَعْبُدُهُ، وَيُرَبِّي كَلْبَهُ، وَيَقْتُلُ وَلَدَهُ.

وهذه حجة قوية احتج بها الله ﷻ على عُبَّاد الأصنام العاجزة المخلوقة المربوبة، أما الإله الحق فهو القادر العالم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]

قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: أي ما يدعون من دون الله تعالى؛ من الأصنام، والأوثان، والشمس، والقمر، والصالحين، والملائكة.

قَوْلُهُ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: أي: هذه المعبودات التي يدعونها من دون الله ما تملك من قطمير وقد تقدم أن القطمير هي اللفافة البيضاء التي تحيط بالنواة، وهذا يدل على غاية الفقر والعجز.

وقَوْلُهُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾: أي إن تدعوا هذه المعبودات لا تسمعكم، وهذا لشدة عجزهم فهي حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولهذا قال إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال قوم إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: لقد علمت أن هذه الآلهة لا تتكلم، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[الأنبياء: ٦٧].

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾: أي: ولو قُدّر سماعهم ما حصلت منهم استجابة؛ لعجزهم، وفي هذا قطع جميع أنواع التعلقات.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: أي: أنهم يوم القيامة يقع منهم البراءة، على ما تقدم بيانه، وما سيأتي إن شاء الله فقطعت التعلقات الدنيوية والأخروية.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، يعني: لا يخبرك بعواقب

الأمور ومآلها، مثل العالم المطلع على هذا الأمر، فهو سبحانه العليم الخبير، وهذه الآية مثل قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

حتى الشمس والقمر تتبرأ ممن عبدها، والمعبودات من دون الله ﷻ في النار، وقد استثنى الله ﷻ الموحدين الذين يُعبدون من غير رضاهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال الطبري في تفسير هذه الآية (١٦/ ٤١٧): قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَجْلِسِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]. ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرِيِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ السَّهْمِيُّ حَتَّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزِّبَعْرِيِّ: وَاللَّهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آنِفًا وَمَا قَعَدَ وَقَدْ زَعَمَ أَنَّا وَمَا نَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرِيِّ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، فَسَلُوا مُحَمَّدًا: أَكُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ.

فَعَجِبَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَمَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

الزِّبَعْرِيِّ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدِ احْتَجَّ وَخَاصَمَ. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزِّبَعْرِيِّ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ».

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، إِلَى: ﴿خَٰلِدُونَ ٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٩] أَيْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَعُزَيْرًا، وَمَنْ عُبِدُوا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَا ذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَأَنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي "الصحيح": عَنْ أَنَس بن مَالِكٍ قال: شُجَّ النَّبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ، وكُسِرتْ رَبَاعِيَتُه، فقال: «كيف يُفلِح قومٌ شجُّوا نبيَّهم؟» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

قوله (وفي "الصحيح") أي: "**صحيح مسلم**" (١٧٩١)، وأخرجه البخاري تعليقًا في كتاب المغازي؛ باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] قَالَ حُمَيْدٌ وَثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .[آل عمران: ١٢٨].

قوله (عَنْ أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه)، هو أبو حمزة الأنصاري، خادم النبي ﷺ، وقد تقدم. **قوله** (شُجَّ النَّبيُّ ﷺ) الشَّجُّ فِي الرَّأْسِ خاصَّة فِي الْأَصْل، وَهُوَ أَنْ يَضْرِبَه بِشَيْءٍ فَيَجْرَحَه فِيهِ ويَشُقَّه، ثُمَّ استُعْمِل فِي غَيره مِنَ الأعْضاءِ. يُقَالُ شَجَّهُ يَشُجُّهُ شَجًّا؛ قاله ابن الأثير في "**النهاية**" (٢/ ٤٤٥).

قوله(يوم أُحُدٍ): أي في معركة أحد نسبة إلى جبل أحد التي كانت قريبة منه، وكانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، حين جاء أبو سفيان للثأر لمن قتل من المشركين في غزوة بدر الكبرى التي كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

قال ابن كثير رحمه الله في "**الفصول في السيرة**" (١٤٤): وهي وقعة امتحن الله عز وجل فيها عباده المؤمنين واختبرهم، وميز فيها بين المؤمنين والمنافقين، وذلك أن قريشًا حين قتل الله سراتهم ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم تكن لهم في حساب، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لعدم وجود أكابرهم، وجاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق، ولم ينل ما في نفسه: شرع يجمع قريشًا ويؤلب

على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فجمع قريبًا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش، وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبًا من جبل أحد بمكان يقال له: عينين، وذلك في شوال من السنة الثالثة.

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟ فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر إلى الإشارة بالخروج إليهم. انتهى.

وكان النصر للمسلمين في أول المعركة، وحصل مخالفة الرماة فتغير الحال ففي البخاري (٤٠٤٣) عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه ، قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله بن جبير، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لاَ تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا، وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي.

قَوْلُهُ (وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ): أي: من قوة ضربة السيف حتى فشج وجهه وكسرت رَبَاعيته وهي: بعض أسنانه، وكسرت البيضة على رأسه، والبيضة هي ما يُجعل على رؤوس الجنود تقيهم ضرب السيوف، ولشدة الضربة انكسرت

البيضة وكانت من الحديد على رأس النبي ﷺ بأبي هو وأمي، وسالت الدماء من وجهه، وجاء علي وفاطمة رضي الله عنهما يغسلان عنه الدماء، وكانوا كلما غسلوا عنه الدم زاد سيلانه، ثم عمدوا إلى حصير فأحرقوه، ووضعوا الرماد على وجه النبي ﷺ حتى توقف الدم.

ولما أصيب النبي ﷺ فرح الكفار وصاح الشيطان: إن محمدًا قد مات، فوقع في المسلمين غم عظيم، ونسوا الغم الأول؛ وهو غم الهزيمة، وقتل سبعون من الصحابة؛ وكان في هذا الغم رحمة لهم، فلما علموا أن النبي ﷺ حي زال عنهم الغم الشديد، فكان صيحة الشيطان منة من الله على المسلمين، قال الله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. وهذا يدل على أنه ﷺ بشر، وفيه رد على الصوفية الذين يرفعونه إلى مواطن الإلهية، وأنه ينفع ويضر من دون الله، مع أنّ الله يقول له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قَوْلُهُ (فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟): الاستفهام يراد به الاستبعاد، أي: أنه يبعد منهم الفلاح؛ لأن أذية النبي ﷺ أمرٌ خطير وعظيم.

قَوْلُهُ (فنزلت: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾): وهذا الشاهد: أن النبي ﷺ مع أنه أعظم الأولياء وأفضل الأنبياء والمرسلين يقول الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فمن باب أولى من يعبده الصوفية والرافضة، وانظر إلى قول البوصيري:

إن لم يكن في معادي آخذًا فضلًا وإلا فقل يا زلَّةَ القدمِ

يسأل الرسول ﷺ أن يتجاوز عن سيئاته وذنوبه، مع ما ذكره الله تعالى من أنه ليس له من الأمر شيء.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِيهِ: عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللهُمَّ الْعَنْ فُلانًا وَفُلانًا، بعدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٢٨].

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيلِ بنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

قَوْلُهُ (وَفِيهِ): أي: في صحيح البخاري (٤٠٦٩).

قَوْلُهُ (عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، القريشي العدوي المدني الصحابي الزاهد أسلم مع أبيه قبل بلوغه، وهاجر قبل أبيه، وأجمعوا أنه لم يشهد بدرًا لصغره، وقيل: شهد أُحُدًا، وقيل: لم يشهدها. وثبت في "**الصحيحين**"(١) عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي ثُمَّ عَرَضَنِي يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَجَازَنِي»، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وشهد غزوة مؤتة، واليرموك، وفتح مصر، وفتح إفريقية.

وثبت في "**صحيح البخاري**" (٤١٠٧)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أَوَّلُ يَوْمٍ شَهِدْتُهُ يَوْمُ الخَنْدَقِ»، وكان شديد الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى أنه ينزل منازله، ويصلي في كل مكان صلى فيه، ويبرك ناقته في مبرك ناقته.

---

(١) البخاري (٢٦٦٨)، ومسلم (١٨٦٨).

رُوى له عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستمائة حديث وثلاثون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على مائة وسبعين، وانفرد البخاري بأحد وثمانين، ومسلم بأحد وثلاثين.

وفي **"صحيح البخاري"** (٧٠١٥،٧٠١٦) ومسلم (٢٤٧٨)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ فِي يَدِي قِطْعَةَ إِسْتَبْرَقٍ، وَلَيْسَ مَكَانٌ أُرِيدُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا طَارَتْ إِلَيْهِ، قَالَ فَقَصَصْتُهُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهُ حَفْصَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرَى عَبْدَ اللهِ رَجُلًا صَالِحًا».

وفي رواية في **"الصحيحين"**: «إِنَّ أَخَاكِ رَجُلٌ صَالِحٌ، أَوْ قَالَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ» توفي ابن عمر رضي الله عنهما بمكة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وقيل: بستة أشهر. وقال يحيى بن بكير: توفي ابن عمر رضي الله عنهما بمكة بعد الحج، ودفن بالمحصب. قال: وبعض الناس يقول: بفخ، وفخ بالخاء المعجمة، موضع بقرب مكة، انتهى مختصرًا من **"تهذيب الأسماء واللغات"** للنووي.

قَوْلُهُ (إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ): في الحديث أن القنوت يكون بعد الرفع من الركوع في الركعة الأخيرة، وجاء في بعض روايات حديث أنس رضي الله عنه في مسلم (٦٧٧): أنه دعا قبل الركوع، وهذا القنوت يسمى بقنوت النازلة.

قَوْلُهُ (اللهُمَّ الْعَنْ فُلانًا وَفُلانًا): تقدم معنى اللعن وحكمه.

قَوْلُهُ (بعدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ): فيه أن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وأما المأموم فلا لحديث أبي موسى رضي الله عنه عند مسلم (٤٠٤) «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: سَمِعَ اللهُ

لِمَنْ حَمِدَهُ».

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (فَأَنْزَلَ اللهُ): هذا يسمى بأسباب النزول وقد ألف فيه العلماء مؤلفات؛ من أصحها "**الصحيح المسند من أسباب النزول**" للوادعي رحمه الله.

وقول الصحابي في أسباب النزول له حكم الرفع ففي "مقدمة ابن الصلاح" (٢٨): ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك كقول جابر رضي الله عنه : كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله عز و جل ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾. الآية. فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى رسول الله ﷺ فمعدودة في الموقوفات، والله أعلم. انتهى.

وكان القرآن ينزل منجما حسب الوقائع، ومنه ما كان نزوله بسبب، ومنه من غير سبب، ومع ذلك فالعبرة في الحكم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قال شيخ الإسلام في "**مقدمة أصول التفسير**" (١٦): والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضًا. ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. انتهى.

---

(١) البخاري (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٩).

قَوْلُهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾: أي: لَيْسَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَمْرِ خَلْقِي إِلَّا أَنْ تُنَفِّذَ فِيهِمْ أَمْرِي، وَتَنْتَهِي فِيهِمْ إِلَى طَاعَتِي، وَإِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَيَّ وَالْقَضَاءُ فِيهِمْ بِيَدِي دُونَ غَيْرِي أَقْضِي فِيهِمْ، وَأَحْكُمُ بِالَّذِي أَشَاءُ مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِي وَعَصَانِي، وَخَالَفَ أَمْرِي، أَوِ الْعَذَابِ إِمَّا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالنِّقَمِ الْمُبِيرَةِ، وَإِمَّا فِي آجِلِ الْآخِرَةِ بِمَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ بِي. اهـ من "**تفسير الطبري**" (٦/ ٤٢).

وجاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أن النبي ﷺ مكث فترة يدعو على رعل وذكوان، قال: فظننا أنه سكت لما أنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، أخرجه مسلم (٦٧٥)، ففي هذه الآية أن النبي ﷺ بشر، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ»[١].

وقال الله مخبرًا عنه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فليس له من أمر العباد شيء هداية، أو إضلالًا، أم هلاكًا فالأمر لله من قبل ومن بعد يضل من يشاء عدلًا، ويهدي من يشاء فضلا؛ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهذا الشاهد من سوق الحديث في الباب إذ كيف يُشرك مع الله تعالى من ليس له من الأمر شيء وإذا كان هذا في حق محمد ﷺ فغيره من باب أولى، فالعبادة لله وحده لا يجوز أن يُشرك معه ملكا مقربا أو نبيا مرسلا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قَوْلُهُ (وَفِي رِوَايَةٍ): أي للبخاري (٤٠٧٠).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ.

قَوْلُهُ (يَدْعُو عَلَى صَفْوَانِ بنِ أُمَيَّةَ): هو بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، أبو وهب الجمحيّ رضي الله عنه قتل أبوه يوم بدر كافرا. وحكى الزبير أنه كان إليه أمر الأزلام في الجاهليّة، فذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما، وأورده مالك في الموطأ عن ابن شهاب قالوا: إنه هرب يوم فتح مكّة، وأسلمت امرأته وهي ناجية بنت الوليد بن المغيرة، قال: فأحضر له ابن عمه عمير بن وهب أمانا من النّبي ﷺ، فحضر. وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم. ورد النبيّ ﷺ امرأته بعد أربعة أشهر. رواه ابن إسحاق عن الزهري.

وكان استعار النبيّ ﷺ منه سلاحه لما خرج إلى حنين، وهو القائل يوم، حنين: لأن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن، وأعطاه النبيّ ﷺ. قال الزبير: أعطاه من الغنائم فأكثر فقال: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبيّ، فأسلم رضي الله عنه . انتهى من "**الإصابة**" (٣/ ٣٥٠) لابن حجر.

قَوْلُهُ (وَسُهَيلِ بنِ عَمْرٍو): هو أبو يزيد سهيل ابن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود ابن نصر بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب القريشي العامري رضي الله عنه . أحد سادات قريش وأشرافهم وخطيبهم، أسره المسلمون يوم بدر، وعلى يديه انبرم الصلح يوم الحديبية، ثم أسلم يوم الفتح، رضي الله عنه .

قال سعيد بن مسلم: لم يكن أحد من كبراء قريش الذين أسلموا يوم الفتح أكثر صلاة وصومًا وصدقة واشتغالًا بما ينفعه في آخرته من سهيل بن عمرو، حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء، رقيقًا عند قراءة القرآن، كان يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن ويبكى، حتى خرج معاذ من مكة، فقيل له: تختلف إلى هذا الخزرجى، لو كان اختلافك إلى رجل من قومك؟! فقال: هذا الذي صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق لعمري اختلف، لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا في الجاهلية لا يذكرون، فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا، وإني لأذكر ما قسم الله لي في تقدم أهل بيتي من الرجال والنساء

فأسر به وأحمد الله عليه، وأرجو أن يكون الله نفعني بدعائهم أن لا أكون مت على ما مات عليه من يناظرني، فقد شهدت مواطن أنا فيها معاند للحق.

ولما توفي رسول الله ﷺ وبلغ خبره مكة، ارتجت مكة لما رأت من ارتداد العرب، فقام سهيل بن عمرو خطيبًا، فقال: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليمتدن هذا الدين امتداد الشمس والقمر، في خطبة طويلة.

وخرج بأهل بيته إلى الشام مجاهدًا، فاستشهد باليرموك، وقيل: بمرج الصفر، وقيل: توفي في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة على أحد الأقوال في تاريخها، وهو والد أبي جندل، رضي الله عنهما. انتهى من "**تهذيب الأسماء واللغات**" (١/ ٢٤٠) للنووي.

قَوْلُهُ (وَالحارثِ بنِ هِشَامٍ): ابن المغيرة أبو عبد الرّحمن القرشيّ المخزوميّ رضي الله عنه . أخو أبي جهل، وابن عمّ خالد بن الوليد، وأمّه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة.

حديثه في "**الصحيحين**" عن عائشة رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام سأل النبيّ ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ الحديث. قال الزّبير: كان شريفا مذكورًا، مدحه كعب بن الأشرف اليهودي، وشهد الحارث بن هشام بدرًا مع المشركين، وكان فيمن انهزم، فعيَّره حسان بن ثابت، فقال:

إنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الّذي حَدّثْتِني ... فَنَجَوتِ مَنْجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَرَكَ الأحِبّةَ أنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ... وَنَجَا بِرَأسِ طِمِرّةٍ وُلجَامِ

فأجابه الحارث:

اللهُ يَعْلمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ... حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأشْقَرَ مُزْبِدِ

فَعَلِمْــتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِــلْ وَاحِــدًا أَقْتَلْ وَلَا يَبْكِي عَـدُوِّي مَشْـهَدِي
فَفَــرَرْتُ عَـنْهُمْ وَالأَحِبَّـةُ فِــيهِمُ طَـمَعًا لَـهُمْ بِعِقَـابِ يَـوْمٍ مُــفْسِدِ

ويقال: إن هذه الأبيات أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار.

قال الزّبير: ثم شهد أحدًا مشركا حتى أسلم يوم فتح مكة، ثم حسن إسلامه. قال: وحدثني عمي، قال: خرج الحارث في زمن عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام، فتبعه أهل مكّة، فقال: لو استبدلت بكم دارا بدار ما أردت بكم بدلا ولكنها النقلة إلى اللّه، فلم يزل مجاهدا بالشام حتى ختم اللّه له بخير. انتهى من "**الإصابة في تمييز الصحابة**" (١/ ٦٩٨) لابن حجر.

وقد تاب الله على هؤلاء الثلاثة بعد ذلك في فتح مكة وحسن إسلامهم.

قَوْلُهُ (فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾): أي: أنزل الله ﷻ على نبيه ينهاه عن هذا الدعاء: أن ليس له من أمر الخلق شيء.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عليهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ الصَّفا، فقالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كلِمَةً نَحْوَهَا: اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

قَوْلُهُ (وفيه): أي في البخاري (٢٧٥٣) كِتَابُ الوَصَايَا، (بَابٌ: هَلْ يَدْخُلُ النِّسَاءُ وَالوَلَدُ فِي الأَقَارِبِ؟)، وأخرجه مسلم في كِتَابُ الْإِيمَانَ (٢٠٤)

قَوْلُهُ (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ): أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اختلف في اسمه إلى ثلاثين اسمًا، وأصحها: أنه عبد الرحمن بن صخر، وقيل: عبد شمس، وقيل: عبد الله، وهو يمني من دوس، ودوس من الحجاز، وهو أحفظ الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

قال: كنت أحفظ وأنسى، فقال النبي ﷺ: «ابْسُطْ رِدَاءَكَ» فَبَسَطْتُهُ، قَالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «ضُمَّهُ» فَضَمَمْتُهُ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ. أخرجاه في "**الصحيحين**"[(١)].

والجمع بينه وبين قوله: «مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ»[(٢)].

---

(١) البخاري (١١٩)، ومسلم (٢٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣).

أن عبد الله بـن عمـرو شـغل عـن التحـديث؛ لأن أبـاه كـان يحملـه معـه في الأسفار، والنبي ﷺ قال له: «أَطِعْ أَبَاكَ مَـا دَامَ حَيًّـا، وَلَا تَعْصِـهِ»(١)، وأبـو هريـرة رضي الله عنه تفرغ للتحديث، و بث العلم.

وقد أُنكر على أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كثرة التحديث حتى قالوا: أكثـر أبـو هريـرة، فقال أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : يَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدْ أَكْثَرَ، وَاللهُ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَـا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يَتَحَدَّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ؟ وَسَـأُخْبِرُكُمْ عَـنْ ذَلِـكَ: إِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَرَضِـيهِمْ، وَإِنَّ إِخْـوَانِي مِـنَ الْمُهَـاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْـتُ أَلْـزَمُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ عَلَـى مِـلْءِ بَطْنِـي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا(٢).

قَوْلُهُ (قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ): أي: قـام خطيبًـا مبلغًـا لكـلام ربـه عز وجل، وهـذه القصة لم يشهدها أبو هريرة رضي الله عنه ، فروايته لها مرسلة، ومراسـيل الصـحابة رضي الله عنهم مقبولة؛ لأنهم كلهم عدول.

قَوْلُهُ ﴿وَأَنذِرْ﴾: الإِنْذارُ: إخبارٌ فيـه تخويـف، كمـا أنّ التّبشـير إخبـار فيـه سرور. اهـ "**مفردات غريب القرآن**" للراغب (٧٩٧).

قَوْلُهُ ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾: أي قرابتك، والعشيرة: هي قرابـة الرجـل مـن الجد الرابع فما فوق، قال الراغب في "**المفردات**" (٥٦٧): فصار العَشِـيرَةُ اسـما لكلّ جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثّر بهم. اهـ.

قَوْلُهُ (صَعَدَ الصَّفَا): أي عـلاه ليسـمعهم جميعـا، وفيـه اسـتحباب اتخـاذ المنبر، والصفا جبل في مكة عند الكعبة، معروف.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٣٨)، عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٥٠)، ومسلم (٢٤٩٣).

قَوْلُهُ (قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا): وفي بعض الروايات عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ...»[1]، (فَعَمَّ وَخَصَّ) يعني: ناداهم بالاسم العام يا معشر قريش، وناداهم بالاسم الخاص: يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف.

قَوْلُهُ (اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ): وفي بعض الروايات: «مِنَ اللهِ»، وشراء النفس من الله يكون بطاعته، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

قَوْلُهُ «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا»: أي لا أملك لكم من الله شيئا، وأن الذي بيده النفع والضر، هو الله عز وجل، وأما رسول الله ﷺ إنما هو عبد من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤).

عباد الله؛ وهذا الشاهد من ذكر الحديث هنا.

قَوْلُهُ «يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ابن هاشم بن عبد مناف القرشيّ الهاشميّ رضي الله عنه. عمّ رسول اللَّه ﷺ، أبو الفضل. أمه نتيلة بنت جناب بن كلب.

ولد قبل رسول اللَّه ﷺ بسنتين، وضاع وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير، فوجدته فكست البيت الحرير، فهي أوّل من كساه ذلك، وكان إليه في الجاهليّة السّقاية والعمارة، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدرا مع المشركين مكرها، فأسر فافتدى نفسه، وافتدى ابن أخيه عقيل بن أبي طالب، ورجع إلى مكّة، فيقال: إنه أسلم، وكتم قومه ذلك، وصار يكتب إلى النّبي ﷺ بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين ومات بالمدينة في رجب أو رمضان سنة اثنتين وثلاثين، وكان طويلا جميلا أبيض. انتهى من **"الإصابة"** (٣/ ٥١٢).

ولم يسلم من أعمام النبي ﷺ إلا العباس، وحمزة رضي الله عنهما، ومن عماته صفية، وأروى رضي الله عنهما، والخلاف في عاتكة.

قَوْلُهُ «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ» هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية رضي الله عنها، عمة رسول اللَّه ﷺ، ووالدة الزبير بن العوام رضي الله عنه، أحد العشرة، وهي شقيقة حمزة رضي الله عنه، أمّها هالة بنت وهب خالة رسول اللَّه ﷺ.

وكان أول من تزوجها الحارث بن حرب بن أمية، ثم هلك، فخلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، فولدت له الزبير، والسائب، وأسلمت وروت وعاشت إلى خلافة عمر رضي الله عنه، قاله أبو عمر. انتهى من **"الإصابة"** (٨/ ٢١٤).

قَوْلُهُ (وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ) بنت إمام المتقين رسول اللَّه: محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشميَّة، صلّى اللَّه على أبيها وآله وسلّم

ورضي عنها، نقل أبو عمر عن عبيد اللَّه بن محمد بن سليمان بن جعفر الهاشمي -أنها ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النّبيّ صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم. وكان مولدها قبل البعثة بقليل نحو سنة أو أكثر، وهي أسنّ من عائشة بنحو خمس سنين، وتزوّجها عليّ أوائل المحرم سنة اثنتين بعد عائشة بأربعة أشهر، وقيل غير ذلك. وانقطع نسل رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم إلا من فاطمة. انتهى من "**الإصابة**" (٨/ ٢٦٤).

وهي سيدة نساء العالمين، وأول أهل بيت رسول الله ﷺ لحاقا به. ففي "**صحيح مسلم**" (٢٤٥٠) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي، مَا تُخْطِئُ مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَآهَا رَحَّبَ بِهَا، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسِّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، سَأَلْتُهَا مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟

قَالَتْ: مَا كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ، بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا حَدَّثْتِنِي مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «أَمَّا الْآنَ، فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ».

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ» قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ. ويكفي أن الله أكرمها بالصبر على موت

والدها رَسُولِ اللهِ ﷺ، ففي البخاري (٤٤٦٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ».

فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ، مَأْوَاهْ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ.

قَوْلُهُ (سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا): مع أنها سيدة نساء العالمين، أبوها ﷺ سيد الناس، ولا يغني عنها من الله عز وجل شيئًا.

وهذه الأحاديث تنزل على الصوفية أشد من نزول الصخر؛ لأنهم رفعوا النبي ﷺ فوق منزلته وغلوا فيه، حتى جعلوا له من خصائص الربوبية والألوهية، فأصبحوا يدعونه من دون الله عز وجل.. إلى غير ذلك، وهكذا غلو في غير النبي ﷺ، كالبرعي، والقادري، وغيرهم.

***

١٥- باب قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قوله (بَابُ قَوْلِ اللَّـهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]):

ساق المصنف هذا الباب لدلالة على أنه لا حق لأحد أن يكون شريكًا لله عز وجل، فكلهم عبيد لله تعالى خاضعين خاشعين خائفين له ومنه.

وسيأتي بيان هذه الآية وأنها نزلت في حق الملائكة سلام الله عليهم، وقبل هذه الآية، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: ٢٣]، فقطع الله بها كل تعلق بغيره، إذ لا ملك لهم، ولا شراكة، ولا شفاعة إلا بإذنه، فالكفار يعبدون الملائكة ويتخذونهم وسائط تقربهم من الله، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وأخبر الله عز وجل عنهم أنهم اتخذوهم شفعاء، بقولهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]؛ لأن لهم منازل ووجاهات، فأخبر الله عن الملائكة أنه حين يتكلم بالوحي يأتي الملائكة مثل الصعقة لعظم كلام الله ولتعظيمهم لله عز وجل، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: رفع عن قلوبهم ما وجدوا من الخوف: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ﴾ يسأل بعضهم بعضًا، ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ أي: قال الله عز وجل الحق وكلامه حق وهو الحق.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ [سبأ: ٢٣] على عرشه، ويُثبَتُ لله عز وجل من هذه الآية وغيرها جميع

أنواع العلو: علو القدر والقهر والذات، وهذه طريقة أهل السنة، بينما الصوفية ومن إليهم يأتون إلى أدلة العلو مثل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] يقولون: أعلى قدرًا وقهرًا، ولا يؤمنون أنه أعلى ذاتًا، وباب تفصيل القول فيها كتب العقائد، ويذكرون عن بشر المريسي أنه كان يقول: سبحان ربي الأسفل! لأنه يعتقد أن الله في كل مكان، تعالى الله عن قولهم.

وأدلة العلو كثيرة ومتنوعة، منها: كل دليل ذكر فيه الفوقية، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠].

وكل دليل ذكر فيه نزول الله تعالى أو التنزيل منه تعالى؛ يدل على العلو، لأن النزول يكون من أعلى إلى أسفل، مثل قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقول النَّبِيِّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ...»(١).

وكل دليل ذكر فيه العروج إليه يدل على العلو؛ لأن العروج يكون من أسفل إلى أعلى، والدليل على ذلك أحاديث المعراج، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

ومنها أدلة الاستواء على العرش، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومنها الأدلة التي ذكر فيها العلو، وذكر ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ في "**شرح الطحاوية**" أن أدلة علو الله تعالى على عرشه أتت على أكثر من عشرين وجهًا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنها: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. ففي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ»[١].

قَوْلُهُ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: أي العظيم الكبير الواسع، فإذا كان كرسيه وسع السموات والأرض، بل جاء في بعض الآثار: «ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة»، والله أجل وأعظم سبحانه وتعالى.

والشاهد من الآية: أن الملائكة الذين يُشرك بهم ويُدعون ويُرجون ويُتوكل عليهم ويُجعلون وسائط بين المخلوقين وبين الله من كثير من المشركين هم يخافون الله سبحانه وتعالى ويرجونه ويبغون إليه الوسيلة، ولا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فكما أنه لا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يكونوا شركاء لله، فكذلك غيرهم.

***

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ»، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: «أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

قَوْلُهُ (وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): أي: في "صحيح البخاري" (٤٨٠٠) كتاب التفسير بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾. [الحجر: ١٨]

قَوْلُهُ (إِذَا قَضَى اللهُ): المراد بالقضاء القول، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قَوْلُهُ (الأَمْرَ): أي: الشأن.

قَوْلُهُ (فِي السَّمَاءِ): المراد به العلو لأنه تعالى في العلو على عرشه، والملائكة حول العرش، ومنهم من هو في السماوات.

قَوْلُهُ (ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا): فيه دليل على أن للملائكة أجنحة، قال

تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] وأنهم سكان السماء، وهم الصافون وهم المسبحون، وهم ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات: ١-٤]، وهم: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]. الآيات، وهم الذين يحفظون ابن آدم من بين يديه ومن خلفه بأمر الله، وهم الموكلون بالقطر، وقبض الأرواح، وهم الموكلون بالقبر وما فيه، والموكلون بالجنة والنار وما فيهما، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهم خلق عظيم من خلق الله، قال النبي ﷺ في تفسير قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] «-رأيت جبريل له ستمائة جناح- مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»(١).

وجاء عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»(٢)، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، أفضلهم الروح الأمين وهو جبرائيل عليه السلام الموكل بالوحي، ومنهم ميكائيل عليه السلام الموكل بالقطر، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، قال النبي ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»(٣)، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وميكائيل الموكل بالقطر، وكم تنزل من القطرات والأمطار وتجري من

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ١١٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُما اللَّهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٣١)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

الأنهار، فوكل الله لها هذا الملك وجعل له أعوانًا وأتباعًا، حتى ذكر «أن كل قطرة تنزل معها ملك، كما في المطر والرعد والبرق» (١٠) لابن أبي الدنيا، وفي حديث الإسراء قال النبي ﷺ: «فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ» متفق عليه[١]، وقال النبي ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا مِنْهَا مَوْضِعُ قَدِمٍ إِلَّا وَبِهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ قَائِمٌ»[٢]، والكلام عن الملائكة يطول وهو مما يزيد الإيمان.

قَوْلُهُ (ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا): أي: حركتها.

قَوْلُهُ (خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ): بمعنى: خضوعًا وتذللًا لسماع كلامه.

قَوْلُهُ (كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ): أي: صوت القول، كأنه سلسلة الحديد التي تقع على صفوان وهو الحجر الصلب الأملس.

قَوْلُهُ (يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ): النفوذ هو الدخول في الشيء، ومعناه: أن كلام الله ﷻ حين سمعوه بلغ منهم مبلغًا عظيمًا.

قَوْلُهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: أزيل عنها الفزع.

قَوْلُهُ ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾: سؤال من الملائكة للمقربين منهم وهذا دليل أنهم لا يعلمون الغيب.

قَوْلُهُ ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾: أي قال الله الحق، وهو تعالى الحق وقوله حق ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ،

---

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أبي نعيم في كتابه «حلية الأولياء» (٦/ ٢٩٦)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُكَ حَقٌّ...» الحديث، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: وفي هذا دليل على أن الله يتكلم بحرف وصوت، وأن كلامه مسموع، خلافًا للمعتزلة والأشاعرة، فالمعتزلة يزعمون أن كلام الله مخلوق، والأشاعرة يزعمون أن كلام الله نفساني، أي: كلامه في نفسه، أما القرآن الذي بين أيدينا الذي تكلم به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهو عبارة عن كلام الله وليس بكلام الله عندهم، ويلزم من هذا القول أن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كانا يعلمان ما في نفس الله! تعالى الله عن هذا القول الباطل، ويلزم من ذلك أن القرآن ليس بكلام الله، فلو امتهنه أحدٌ متعمدًا لم يكفر عندهم؛ ولو حلف بالقرآن لما لزمه كفارة؛ لأنه حلف بغير الله.. إلى غير ذلك.

وفي الحديث دليل على أن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ بصوت فيسمع الملائكة كلامه كلامًا عظيمًا كوقع السلسة على صفوان، وليس في هذا تمثيل الخالق بالمخلوق، تعالى الله عن ذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لكن فيه أن كلام الله حقيقي ومسموع.

قَوْلُهُ (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ): أي: حين يتحدث الملائكة يسمع كلامهم مسترق السمع من الجن، فالجن يتراصون بعضهم على بعض إلى السماء الدنيا، فإذا ما تكلم الملائكة فيما بينهم سمع الجن كلامهم، فيلتقط الجني تلك الكلمة وينزل بها إلى الأرض ويعطيها للكاهن ويضيف إليها مائة كذبة ويقرقرها في أذنه كقرقرة الدجاجة، فيصبح الكاهن يحدث بتلك الكلمة الصحيحة، ويضيف إليها مائة كذبة، فيعتقد الناس في كلام الكاهن لتلك الكلمة الصحيحة، ولا يميزون الباطل الكثير.

---

(١) البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

قَوْلُهُ (ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هكَذا: بَعضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ): يكون بعضهم فوق بعض إلى أن يصلوا إلى السماء، والله ﷻ قد أرسل عليهم الشهب، وأحيانًا يلتقط هذه الكلمة ويبلغ بها من بعده، وربما وصلت الكلمة إلى الأرض قبل أن يقضى على ذلك الذي بلغها، وربما قضي عليه وقد فاتت الكلمة إلى غيره، فيفتن الناس بسبب ما يلقيه الجن على الكهان والعرافين، إلا أن الله قبل مبعث النبي ﷺ أرسل عليهم الشهب، «فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١-٢]، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ»[1]. ثم قص الله ﷻ علينا من خبرهم ما فيه بلاغ مبين.

قَوْلُهُ (فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ): وهذا من شدة حرص الجن على إغواء بني آدم.

قَوْلُهُ (السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ): بين الساحر والكاهن عموم وخصوص، من حيث أن كلًا منهم يدعي علم الغيب، ويستعين بالجن، إلا أن الكاهن يخبر عن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

الأمور المغيبة، والساحر يأتي ببعض الأمور كالصرف والعطف.. وغير ذلك على ما يأتي بيانه.

قَوْلُهُ (فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا): وقد جاء النهي عن النظر إلى الشهاب، كما صح عن أبي قتادة رضي الله عنه، عند أحمد (٢٢٥٤٩) قال: «إِنَّا قَدْ نُهِينَا أَنْ نُتْبِعَهُ أَبْصَارَنَا»[١].

قَوْلُهُ (وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ): أي: تفوته وتسلم منه، **قَوْلُهُ (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ)**: وهذه عادة الجن، وكثير من الناس يستعينون بالجن ويصدقونهم، والواقع أنه لا ينبغي أن يصدقوا ولا يستعان بهم ولا يسألوا.

قَوْلُهُ (فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا): يعني: هؤلاء الناس إذا قيل له: هذا ساحر وكاهن ولا يعلم الغيب، يقول: أليس قد قال يوم كذا كذا وكذا؟ إذًا: كل ما يقوله يعتقدونه حقًا.

وفي «**الصحيحين**»[٢] من حديث عَائِشَةُ رضي الله عنها، قَالَتْ: سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ».

قَوْلُهُ (فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ): أي: تلك الكلمة الحق التي سمعت من السماء، وهذا من الفتنة، وفيه دليل أن كل مبطل يمزج باطله بشيء من الحق حتى يروج على ضعفاء العلم والإيمان والشبه خطافة ولا يسلم منها إلا من سلمه الله تعالى.

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(٢٨٢) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) البخاري (٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨).

وهناك قصص لكثير من الكهان الذين أسلموا بسبب شياطينهم التي كانت تأتيهم، ففي البخاري (٣٨٦٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ، لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ، إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ، فَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، أَوْ: لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، قَالَ: فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي، قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ، جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وَإِبْلاَسَهَا؟ وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالقِلاَصِ، وَأَحْلاَسِهَا، قَالَ: عُمَرُ صَدَقَ بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ، عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ، لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَوَثَبَ القَوْمُ، قُلْتُ: لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا، ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ: هَذَا نَبِيٌّ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنِ النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ»، أَوْ قَالَ: رعدَةٌ شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِمَهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: «قَالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

قَوْلُهُ (وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سِمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد اللَّه بن أبي بكر بن كلاب العامريّ الكلابيّ.

له ولأبيه صحبة، وحديثه عند مسلم في "**صحيحه**".

والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في "**السنة**" (٥١٥)، والطبراني في "**تفسيره**" (٢٢/ ٦٣)، وابن خزيمة في "**التوحيد**" (١٤٤)، والبيهقي في "**الأسماء والصفات**" (٢٠٢).

وضعفه أبو زرعة وغيره وقال: لا أصل له، وفيه الوليد بن مسلم وقد عنعن، وعنعنته من شر أنواع العنعنة؛ لأنه يدلس تدليس التسوية، وفيه نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رأس في السنة، ولكنه ضعيف في الحديث، ويغني عنه الحديث الذي قبله، وما جاء في صحيح مسلم (١٢٤-٢٢٢٩): عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا» ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ: قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ.

فالشاهد من الباب أن الملائكة سلامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا فغيرهم من باب أولى، وأن الله ﷻ يتكلم بكلام يسمع، ويتكلم بصوت وحرف، وكلامه غير مخلوق، بل هو صفته، وما كان من الله فليس بمخلوق، ومن زعم أن كلام الله مخلوق فقد كفر.

وفيه من الفوائد: أن الملائكة لهم قلوب؛ لقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٣].

وأنهم يخافون الله، ويتكلمون، ولهم أجنحة، وقد تقدم أنهم رجال، كما في حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالَا الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ»[١].

والملائكة خُلقوا من نور، كما في **"صحيح مسلم"** (٢٩٩٦) من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٦).

مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، (وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) أي من طين.

ومن الفوائد: أن نجوم السماء خلقت لثلاثة أمور كما قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: رجومًا للشياطين وزينة للسماء وعلامات يهتدى بها، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] وسيأتي الكلام على النجوم في بابها إن شاء الله.

***

١٦- بَابُ الشَّفَاعَةِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ الشَّفَاعَةِ

قَوْلُهُ (بَابُ الشَّفَاعَةِ): الشفع ضد الوتر، وفي حديث الأذان: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «أُمِرَ بِلَالٌ أَنْ يَشْفَعَ الأَذَانَ، وَأَنْ يُوتِرَ الإِقَامَةَ» أخرجه البخاري (٦٠٥)، وأركانها ثلاثة: شافع، ومشفوع له، ومشفوع عنده، وقد جاءت في القرآن مثبتة ومنفية:

فالمثبتة لها ثلاثة شروط:

الأول: إذن الله للشافع، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

[البقرة: ٢٥٥]

الثاني والثالث: رضا الله عن الشافع والمشفوع له، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا بخلاف الشفاعة عند البشر، فإنها غالبًا تأتي على غير رضا المشفوع عنده، أما الله عَزَّ وَجَلَّ وله المثل الأعلى فالشفاعة بأمره وبإذنه يكرم الشافع، والمشفوع له، ولهذا خص الله عَزَّ وَجَلَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشفاعة العظمى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهي الشفاعة في أهل الموقف: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ - وَقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ: فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ - فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ، أَبُو الْخَلْقِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ

الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَـذَا، فَيَقُـولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِـنِ ائْتُـوا نُوحًـا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ نُوحًا ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَـذْكُرُ خَطِيئَتَـهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ ﷺ الَّذِي اتَّخَـذَهُ اللهُ خَلِـيلًا، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْـتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى ﷺ، الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ.

قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَـهُ، فَيَـأْتُونَ عِيسَـى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِـنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ،

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَـعْ رَأْسَـكَ، قُـلْ تُسْـمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَـدُ رَبِّـي بِتَحْمِيـدٍ يُعَلِّمُنِيـهِ رَبِّـي، ثُـمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، قُـلْ تُسْـمَعْ، سَـلْ تُعْطَـهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَـدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قَالَ: فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِـي الرَّابِعَـةِ - قَالَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِـيَ فِـي النَّـارِ إِلَّا مَـنْ حَبَسَـهُ الْقُـرْآنُ، أَيْ وَجَـبَ عَلَيْـهِ الْخُلُودُ.

قَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»، متفق عليه[1].

---

(١) البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣).

وجاء من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في "**صحيح مسلم**" (١٩٤) أيضًا: قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ

يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

وهذا السياق في الشفاعة العظمى، والرواة يكتفون بذكر ما يتعلق بها، ثم ينتقلون إلى الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

والشفاعة المنفية: هي ما تخلف أحد شروطها السابقة، وهي عدم الإذن من الله ﷻ للشافع، أو عدم رضا الله عن الشافع أو المشفوع له.

والدليل على ذلك: أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لعمه أبي طالب فنهاه الله ﷻ

عن ذلك، فقال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ثم بين الله ﷻ أن الاستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه كان وعد وعده، ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

ووقع شرك الكفار لأمرين حكاهما الله عنهم:

الأول: اتخاذهم زلفى وقربة قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ومفهوم الآية أنهم ما عبدوهم على أنهم الخالقون، الرازقون فهم يعترفون أن الله هو المتصرف في الكون، وإنما هؤلاء وسائط معه، حتى أنهم يعتقدون أن هذه الوسائط قد أذن الله أن يُشرك بها، كما جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»[1]، وهذا هو التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ، بل هو الإهلال الذي كان يهل به النبي ﷺ، كما في حديث جابر رضي الله عنه: «فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ، لَبَّيْكَ اللهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ». أخرجه مسلم (١٢١٨).

وكانوا يقولون: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» -أي: إلى هنا يكفي- فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ أخرجه مسلم (١١٨٥) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

والثاني: اتخذوهم شفعاء ووسطاء: كما أخبر الله ﷻ، بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، قالوا: هؤلاء لهم منزلة ورتبة، قوم صالحون،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٩١) والطبراني في «الكبير» (١٢٣٤٨).

ونحن عندنا معاصي وسيئات، فنحن نستشفع بهم عند الله، فأصبحوا يدعونهم، ويقول أحدهم: يا فلان اشفع لي، يا حسيناه، يا علي، يا محمد، يا عيسى، يا عيدروس. يسألونهم، ويدعونهم من دون الله ﷻ فعبدوهم ليقربوهم ويشفعوا لهم عند الله، فأنكر الله ﷻ عليهم صنيعهم وكفرهم بذلك، مع اعترافهم أن هذه الآلهة تقربهم من الله، فهم يعترفون بالله ويقرون به، وما نفعهم هذا الاعتراف؛ لأنهم ناقضوه من باب آخر.

ونحن نعرف أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية لزومًا لا محيد عنه، كما أننا نلزم السلفي أن يتبرأ من الحزبية وأن يتبرأ من الشركيات والخرفات، كذلك يُلزم من يقول: الله هو الخالق الرازق المالك؛ أنه يعبد الله وحده لا شريك له، وكونك تعبد الله وحده لا تشرك به شيئًا، فهذه العبادة تتضمن توحيد الربوبية؛ لأنك ما عبدت الله ودعوته ورجوته وسألته واستغفرته وخفته وتوكلت عليه، إلا وأنت تعتقد أنه هو الخالق الرازق المالك المدبر لهذا العالم علويه وسفليه.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

قَوْلُهُ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: يعني: يا محمد! أنذر بهذا القرآن، والنذارة: هي الدعوة مع التحذير، كما قَالَ: النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَخْطُبُ يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ» أخرجه أحمد (١٨٣٩٨)، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، والبشارة دعوة مع الترغيب.

وباب النذارة والبشارة هو باب الترغيب والترهيب، فالله يأمر نبيه محمدًا ﷺ أن ينذر بهذا القرآن ويخوف الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، الذين يؤمنون بالبعث والنشور، وهؤلاء هم المؤمنون الموحدون، وأما غير المؤمنين لا يستفيدون من نذارة القرآن ولا من بشارته، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، والمؤمن بعكسهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قَوْلُهُ ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: الحَشْرُ: إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه. افاده الرغب في "**المفردات**" (٢٣٧)، والحشر يكون بحشر الأجساد والأرواح، يوم القيامة ينبت الله الناس كما تنبت البقلة، فإذا ما استووا وقاموا نفخ في الصور، وعادت أرواحهم في أجسادهم فيحشرون إلى أرض بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٧]، وفي صحيح البخاري (٣٣٤٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ»: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧] -إِلَى قَوْلِهِ- ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قَوْلُهُ ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾: أي: ليس للمشركين من دون الله عز وجل من قربة تنفعهم وإلا فإن الشيطان وليهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: يشفع لهم عند الله تعالى إلا بإذنه، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قَوْلُهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي لعلهم بهذه النذارة تقع لهم التقوى، وقد شَرعَ الله عز وجل على عباده كثيرًا من العبادات وحذرهم من المعاصي ليتحلوا بهذه الشعيرة العظيمة، فقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، إلى غير ذلك. فمن اتقى الله عز وجل، وراقبه ووحده؛ استحق الشفاعة، وأذن الله له بها، ويشفع فيه النبيون، والصالحون، والملائكة، والله عز وجل يتفضل على من يشاء من عباده.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

قَوْلُهُ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾: أي: أخبرهم يا محمد أن الشفاعة لله عز وجل وحده، وهو الذي يأذن بها، وهو الذي يقبلها.

وأما ما جاء في حديث عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: فَادْعُهْ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ، اللهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ» أخرجه الترمذي (٣٥٧٨).

فليس فيه حجة للصوفية على جواز طلب الشفاعة من المخلوق، ولا دلالة لهم فيه، وإنما فيه أن الرجل جاء إلى النبي يسأله أن يشفع له عند الله، بمعنى أنه يدعو الله عز وجل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ»، فهذا الصحابي يقول: اللهم شفع محمد صلى الله عليه وسلم فيَّ، أي: اللهم اقبل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي سيدعوه في شأني، فالأعرابي يسأل الله عز وجل، والنبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله، فعاد سؤال الشفاعة إلى الله عز وجل جميعه، فليس فيه أنه سئل المخلوق المربوب فيما لا يقدر عليه وما لا يستطيعه إلا الله عز وجل.

وقولُهُ ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: كما قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالأمر أمره والملك ملكه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالشفاعة تطلب منه وحده، وسيأتي ما تقدم ذكره سابقًا: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، فلما كان الكفار يعبدون الملائكة على أنهم شفعاء، أخبر الله ﷻ أنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، وأن الملائكة يخافونه ويعبدونه، وهذا كقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلُه تَعَالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويجازيكم على أعمالكم، وهذا تهديد من الله ﷻ للمتمردين على شرعه، أسأل الله السلامة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قَوْلُهُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: أي: من هذا الذي يشفع عند الله ﷻ بغير إذنه مهما علا شأنه وارتفعت درجته، فالله ﷻ لا يشفع عنده إلا أولياءه وصفوة خلقه، ولا يشفعون إلا بإذنه، ولا يشفعون إلا فيمن رضي عنهم سبحانه وتعالى، ورضي أعمالهم.

قَوْلُهُ ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾: قال الحريري:

واجرُرْ بكمْ مَا كنتَ عنهُ مُخبِرَا ... مُعَظّمًا لِقَدرِهِ مُكَثِّرَا
تقولُ كَمْ مالٍ أفَادَتْهُ يَدِي ... وَكم إمَاءٍ مَلَكْتُ وأَعبُدِ

وقال:

وكَمْ إذا جِئْتَ بهَا مُستَفهِمَا ... فانصِبْ وقُلْ كمْ كوكبًا تَحوي

فهي هنا على التعظيم والتكثير، فهؤلاء الملائكة الذين لا يعلم عددهم ووصفهم إلا الله تعالى، الملائكة المقربون المكرمون، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يملكون الشفاعة إلا إذا أذن الله لهم:

قَوْلُهُ ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾: أي: لا تنفع، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتفيد العموم. قَوْلُهُ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾: أي: إلا من بعد إذن الله لمن شاء من الشافعين، ورضاه عنهم وعمن يشفعون فيهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قولُهُ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره" (١٤/ ٦٢٦): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ: ادْعُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَرْبَابٌ وَآلِهَةٌ مِنْ دُونِهِ عِنْدَ ضُرٍّ يَنْزِلُ بِكُمْ، فَانْظُرُوا هَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ عَنْكُمْ، أَوْ تَحْوِيلِهِ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، فَتَدْعُوهُمْ آلِهَةً، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَمْلِكُونَهُ. اهـ.

وقولُهُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

فكيف يطلب الفرج والمدد ممن هذا حاله، وهذه آية فيها بيان؛ أن الآلهة التي يعبدها الكفار من دون الله عَزَّ وَجَلَّ لا تملك شيئًا من هذا الكون، بل لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل هي مملوكة مخلوقة مربوبة عاجزة فكيف تكون آلهة، فسبحان الله عما يشركون.

قولُهُ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: يقول: وليس بينهم وبين الله مشاركة فيها؛ لأنه تعالى هو الغني الحميد. **قولُهُ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾:** يقول: وليس له منهم معين أو نصير، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الغني الحميد، فانتفت بهذه الآية جميع تعلقات المشركين بمعبوداتهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ ليس لهم ملك، ولا مشاركة، ولا إعانة فبقي لهم تعلق واحد، وهو التعلق بطلب الشفاعة، فرده الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] على ما تقدم بشروطها.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ أَبو العَبَّاس ابنُ تَيمِيَـةَ: نَفَـى اللهُ عمَّا سِواه كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِـهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْه، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لله، وَلَمْ يَبْقَ إلا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لا تَنْفَعُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَـهُ الـرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَـومَ القِيَامَـةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ» وَلا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

قَوْلُهُ (قَالَ أَبو العَبَّاس ابنُ تَيمِيَةَ): أبو العباس هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني المتوفي سنة (٧٢٨هـ)، كان هو وأبوه وجده من العلماء، إلا أنه أعلمهم، وأغلب من جاء بعده عالة على علمه، وابتلي فصبر، من أجل كتاب "**الواسطية**"، و"**الفتوى الحموية**"، و"**مسألة طلاق الثلاث**"؛ لأن الفتوى في حينه أن طلاق الثلاث في المجلس الواحد تقع، فقرر أن طلاق الثلاث -في مجلس واحد- لاتقع، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ»(١).

وابتلي في مسألة شد الرحال إلى قبر النبي ﷺ وغيره، وله مواقف جهادية عظيمة، جاهد الرافضة والباطنية والتتر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٢).

وقد تنكر له العلماء والأمراء واستباحوا دمه، فكان قاضي المالكية يقول: اقتله يا أمير المؤمنين ودمه في عنقي! ولما عفا عنه السلطان وقدر عليهم شيخ الإسلام وقال له السلطان: هؤلاء قد استباحوا دمك، ويفعلون ويفعلون، ما رأيك فيهم؟ قال شيخ الإسلام: فشعرت أنه يريد أن يقتلهم بفتوى مني، فقلت له: هؤلاء علماء أفاضل إنما أخطئوا وكذا وكذا، وجعلت ألتمس لهم الأعذار، فقال بعض أولئك العلماء: قدر علينا فعفا عنا، وقدرنا عليه فأردنا قتله!.

وفي مرة من المرات وشوا به إلى السلطان، فقالوا: ابن تيمية يريد ملكك، فأخذه السلطان، وقال: أحق ما بلغني عنك، فقال له: بلغك عني أني أريد الملك؟ قال: نعم، قال: والله لملكك وملك آل قازان لا يساوي عندي درهمين، فقال له: صدقت، وتركه، ثم بعد ذلك سجنوه ومات في السجن، مات لثمانية عشر يومًا خلت من رمضان، وكانت جنازته مشهورة.

ومن أقواله: مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي أَنَا جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي أَيْنَ رُحْت فَهِيَ مَعِي لا تُفَارِقُنِي، أَنَا حَبْسِي خَلْوَةٌ، وَقَتْلِي شَهَادَةٌ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ. انتهى من "**الوابل الصيب**" (٤٨) لابن القيم.

قَوْلُهُ (**نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ**) فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْه، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَومَ القِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ. وأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ» وَلَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وأَبِي هُرَيْرَةَ، وأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنهم، كلها في الصحيح[1].

---

(١) حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣)، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه =

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَن أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاّ اللّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ». فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الحديث أخرجه البخاري (٦٥٧٠،٩٩)، وفيه دليل على أن الشفاعة لا تنفع إلا الموحدين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، أي: بقلب سليم عن الشرك، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك به.

وفي الحديث منزلة التوحيد العلية ورتبته السنية، فأحرى الناس بشفاعة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أهل التوحيد الذي خلصت أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم لله عز وجل.

وفي الحديث أن الإخلاص عمل قلبي ولا قبول لعمل عامل إلا به كما أن المتابعة شرط كذلك في قبول العمل.

وفي الحديث رد على المرجئة الذين يرون أن القول يكفي في الإيمان بل لابد من عمل القلب واللسان والجوارح، وفي الحديث رد على الخوارج الذين يُكَفِّرون بمطلق المعصية فقد يغفر للموحد الذنوب.

=

أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، وحديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَحقِيقتهُ: أَنَّ اللهَ سُبحانَهُ هُوَ الَّذي يَتفضَلُ عَلَى أَهْلِ الإخْلاص، فيَغْفِرُ لَهُمْ بِواسِطَةِ دُعاءِ مَنْ أَذِنَ لهُ أَنْ يَشْفعَ، لِيُكْرِمَهُ، وَينَالَ المَقَامَ المَحْمُود

قَوْلُهُ (وَحقِيقتهُ...): أي: حقيقة الشفاعة فالله عَزَّ وَجَلَّ يُكرم الشافع بأن يقبل شفاعته، ويعطيه منزلة رفيعة بين الناس، ويكرم الله المشفوع له بأن يتجاوز عنه ويدخله الجنة.

وشفاعة النَّبيِّ ﷺ أنواع: فمنها: الشافعة العظمى التي تقدم بيانها، ومنها الشفاعة في دخول الجنة، فإن الجنة لا تفتح حتى يشفع النبي ﷺ، ففي حديث أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[(١)]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»[(٢)].

ومنها: الشفاعة بإخراج الموحدين من النار، «فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنَ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧).

رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ»، على ما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه وغيره في "**الصحيحين**"(١).

ومنها: الشفاعة في قوم قد استوجبوا النار ألا يدخلوها.

ومنها: الشفاعة في قوم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما تقدم في باب من حقق التوحيد.

ومنها: شفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، وهذه الشفاعة يؤمن بها المعتزلة والخوارج وينكرون الشفاعة في أهل الكبائر، والصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»(٢)، والخوارج والمعتزلة يوجبون على من دخل النار أنه لا يخرج منها؛ مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وبقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وهذه الشفاعة المنفية هي في حق الكفار.

إشكال:

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه، فقال: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(٣)، قال بعضهم: كيف شفع لعمه، والله يقول: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]؟

قيل: لا تنفعهم في خروجهم من النار، وإنما هذه شفاعة مقيدة بتخفيف

---

(١) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣٥)، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٦٤)، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه.

العذاب عنه؛ بسبب أنه كان يكرم النبي ﷺ، ويحوطه ويغضب له.

تنبيه: المقام المحمود: هو الشفاعة العظمى في اهل الموقف، وليس كما يقول بعضهم بأن الله يجلس محمدًا ﷺ على العرش، فلا دليل يثبت على هذا القول المخالف للمنقول عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بالأسانيد الثابتة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ: مَا كَانَ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ، فَتِلْكَ مَنْفِيَّةٌ مُطْلَقًا، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لا تَكُونُ إِلاَّ لأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلاَصِ.اهـ كَلامُهُ رحمه الله تعالَى.

قَوْلُهُ (فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ: مَا كَانَ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ): أي: دعاء المخلوقين والمقبورين وطلب الشافعة منهم.

قَوْلُهُ (فَتِلْكَ مَنْفِيَّةٌ مُطْلَقًا): لأنها شفاعة شركية.

قَوْلُهُ(وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ): منها، قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قَوْلُهُ (وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لا تَكُونُ إِلا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلاَصِ. اهـ كَلامُهُ رحمه الله تَعَالَى): أي: أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين منهم ولشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب "**جامع في الشفاعة**".

***

١٧- باب قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

مناسبة الترجمة للباب، ما تقدم من أنه ليس للنبي ﷺ من الأمر شيء، وأن الله ﷻ هو الذي يهدي ويضل، ويرفع ويخفض: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وكما قال: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهذه الترجمة موافقة لما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما في **"صحيح مسلم"** (٨٦٧): «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ» فهداية التوفيق محض منة الله ﷻ فلا تُطلبُ إلا منه ولا يُعطيها إلا هو، ولذلك كان دعاء المؤمنين في كل ركعة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قَوْلُهُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: يقول تعالى ذكره إنك يا محمد لا تهدي من أحببت هدايته أو من أحببته، ويكون الحب هنا طبيعيًا كحب الولد لأبيه، والقريب لقريبه. والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق، والتسديد.

والهداية أنواع:

الأول: هداية الدلالة والإرشاد: وهذه عامة يشترك فيها الخالق والمخلوق، قال الله ﷻ عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

الثاني: هداية التوفيق: وهذه خاصة بالله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

الثالث: هداية للجنة والنار: وهي ناتجة عن هداية التوفيق إن كان من أهل الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]. أو سلب التوفيق إن كان من أهل النار، قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

الرابع: الهداية العامة: ويشترك فيها جميع المخلوقات؛ وهي هداية إلى المعائش وما يصلح الحيوان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وفي الآية: إثبات مشيئة الله ﷻ النافذة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وينسب إلى الشافعي:

مَا شِئْتَ كَانَ وإنْ لم أشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ
خَلقْتَ العِبَادَ لِمَا قَدْ عَلِمْتَ ... فَفِي العِلْمِ يَجري الفَتَى وَالْمُسِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيد ... وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذا خَذلْتَ ... وذاكَ أعنتَ وَذا لَمْ تُعِنْ

قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ تفضلًا منه تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور: ٢١]، وقال ممتنًا على نبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، ولا يجوز الاعتراض على الله ﷻ (بلِمَ) في هذا الموطن فهو فضله وأفعاله على مقتضى حكمته فالكافر لا ينتفع بشيء، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: يقول والله تعالى أعلم بمن هو أهل للهدية والتوفيق وفيها إثبات صفة العلم لله ﷻ وأنه بكل شيء عليم، وهو أعلم بمن يوفقهم للهداية وأعلم بمن يخذلهم، قال الله ﷻ مخبرًا عن الكفار: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حضرتْ أَبَا طَالِبِ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بن أبي أميَّة، وَأَبُو جَهْلٍ، فقال لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أُحاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فقالا لهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِب، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

قَوْلُهُ (وَفِي "الصَّحِيحِ"): أي: في "**الصحيحين**" البخاري (٤٧٧٢)، كتاب التفسير بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ومسلم (٢٤) في كتاب الإيمان.

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ): وهو سعيد بن المسيب بن حزن رَحِمَهُ اللَّهُ: سيد التابعين في العلم والفقه، وهو أحد الفقهاء السبعة، كان زوجًا لابنة أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبوه أراد النبي ﷺ أن يغير اسمه، قَالَ: «مَا اسْمُكَ» قَالَ: حَزْنٌ، قَالَ: «أَنْتَ سَهْلٌ» قَالَ: لاَ أُغَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: «فَمَا زَالَتِ الحُزُونَةُ فِينَا بَعْدُ»[١]، أي: الشدة، ومراسيله من أصح المراسيل، قال

(١) أخرجه البخاري (٦١٩٠).

الشافعي: تتبعتها فما وجدته يروي إلا عن ثقة.

ويستدل بهذا على أن للأسماء تأثيرًا، فقد غير النبي ﷺ كثيرا من الأسماء المستقبحة، وأسماء التزكية منها: برة إلى زينب، والعاصي إلى مطيع، وعبد الحجر إلى عبد الله، وزُحم إلى بشير، وغير أصرم إلى زرعة، وعاصية إلى جميلة.

قَوْلُهُ (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ): أي حين حضره الموت، وأبو طالب هو عبد مناف والد علي بن أبي طالب، وهو ابن عبد المطلب بن هاشم عم النبي ﷺ، حفظ النبي ﷺ بعد حفظ الله له، ودافع عنه، وله قصيدة عظيمة في وصف النبي ﷺ، لكنه لم يُسْلِم، ومنها:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ المَلاَمَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا
وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ ... وَابْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا

وقال في أخرى: كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٧٦-٢٧٧)[١].

وأبيضَ يُسْتَسْقى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالَ اليَتامى عِصْمَةٌ للأرامِلِ
يَلوذُ بِهِ الهُلاّكُ مِنْ آلِ هاشِم ... فَهُمْ عِنْدَهُ في رَحْمَة وفَواضِلِ
جَزَى اللّهُ عَنّا عَبْدَ شَمْس وَنَوْفَلًا ... عُقوبَةَ شَرٍّ عاجِلًا غَيْرَ آجِلِ

قَوْلُهُ (جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ): لعيادته، ودعوته، وفيه جواز عيادة الكافر والعاصي لدعوته وتألفه.

(١) البيت الأول في «صحيح البخاري» (١٠٠٨،١٠٠٩).

قَوْلُهُ (وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بنِ أَبِي أَمَيَّةَ): أي وجد عنده عبد الله بن أبي أمية واسمه حذيفة وقيل سهل بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي رضي الله عنه، صهر النبي صلى الله عليه و سلم وابن عمته عاتكة وأخو أم سلمة، أسلم قبل الفتح، وشهد عبد الله رضي الله عنه الفتح وحنينا واستشهد بالطائف.

قَوْلُهُ (وَأَبُو جَهْلٍ): هو عمرو بن هشام، وكانت كنيته أبا الحكم، فكناه النبي ﷺ بأبي جهل، وحمله على عدم الإيمان الكبر والحسد، وهو أشد من آذى النبي ﷺ، ففي **"صحيح مسلم"** (٢٧٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل -لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٧] -يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٤]، زَادَ عُبَيْدُ اللهِ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]، يَعْنِي قَوْمَهُ

قتل في بدر ففي **"الصحيحين"**[(١)]: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ

---

(١) البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، قَالَ: فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ: مِثْلَهَا، قَالَ: فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَزُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ، قَالَ: فَابْتَدَرَاهُ فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُ، فَقَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟» قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ»، وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، وَالرَّجُلَانِ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، وَمُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ.

وفي هذا الحديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء للقريب أو البعيد، فقد جاء من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: «يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فَقَالَ: خَالٌ أَمْ عَمٌّ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ خَالٌ». وَقَالَ: خَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[(١)].

ومن حديث أَنَسٍ رضي الله عنه، عند البخاري (١٣٥٦): قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

وقد جاء الأمر بتلقين الميت، في حديث: «لَقِّنُوا هَلْكَاكُمْ[(٢)]: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -

---

(١) أخرجه الإمام احمد (١٣٥٢٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٥١٢)، وهو في «الصحيح المسند» (١/ ١٧) لشيخنا مقبل رحمه الله.

(٢) ولفظ «لَقِّنُوا هَلْكَاكُمْ» عند النسائي (١٩٦٦)، وهو في «الصحيح المسند»(١٥٧٨) لشيخنا مقبل رحمه الله، =

وفي رواية: مَوْتَاكُمْ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ-»[١]، وفي حـديث معـاذ رضي الله عنه عنـد الحـاكم (١٢٩٩): «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وفيه صالح بن عريب لكن له شواهد.

وفيه من الفوائد: أنها أول كلمة يدخل بها المرء الإسلام، وآخر كلمـة يخـرج بها من الدنيا.

قَوْلُهُ (قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ): فيها رد على من يمنع تلقين الميـت الشـهادة، وأن الأعمال بالخواتيم، وفيه أن قولها مع اعتقادها نـافع عنـد المـوت حتـى لمـن لم يأت بعمل أو عمل قليلًا.

قَوْلُهُ (كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ): أي: جملة ينفعك الله بها وأشفع لـك بها عند الله كما هي في الرواية الأخرى.

قَوْلُهُ (فَقَالا لَهُ): أي: أبو جهل وابن أبي أمية.

قَوْلُهُ (أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟): بمعنى: أتترك ملـة أبيـك عبـد المطلـب رغبة عنها، وعلقاه بشبهة عظيمة وهي شبهة التقليد، قال الله مخبرًا عن حـال الكفـار معها: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وعبد المطلب هو جد النبي ﷺ، ربى النبي ﷺ بعـد مـوت أبيـه؛ وذلـك أن عبد الله ابن عبد المطلب مات والنبي ﷺ في بطن أمه عـلى الصـحيح، فاحتضـنته أمه، ثم ماتت، ثم احتضنه جده عبد المطلب، ثم مات، ثم احتضنه أبو طالب.

وفيه من الفوائـد: خطر جلساء السـوء وأنهـم يصـدون عـن الحـق والهـدى، وأنهم سبب للردى.

=

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم (٩١٦،٩١٧) عن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

وفيه: تعلق الناس بما عليه الآباء إلا ما رحم الله.

وفيه: خطر التقليد.

قَوْلُهُ (فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ): أي: كرر عليه المقولة، وفيه تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك وعدم التضجر إن لم تقع الاستجابة، والأجر حاصل.

قَوْلُهُ (فَأَعَادَا): أي: عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، قولهم: أترغب عن ملة عبد المطلب.

قَوْلُهُ (فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ): وهذا نص في موت أبي طالب على الكفر. وفي هذا لطيفة، وهي: أن الراوي لم يعبر بقوله: (أنا على ملة عبد المطلب)؛ لأنه كلام مستبشع، وإنما جعل الكلام بضمير الغائب وهو عائد على أبي طالب.

قَوْلُهُ (وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ): ويسمى هذا النوع من الكفر كفر الإباء، وفي هذا رد على الصوفية والرافضة الذين يزعمون إسلام أبي طالب ويستدلون بتلك القصيدة التي تقدم ذكرها، وفي الرواية الأخرى عند مسلم (٢٥): قَالَ: «لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ): أي: لأدعون الله عز وجل لك بالمغفرة، وفيه: أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور طائع لله عز وجل من قوله: «مَا لَمْ أُنْهَ».

وفيه: أن من أسلم عند الموت وقبل الغرغرة صح إسلامه، فقد أتاه النبي ﷺ عند الموت، يدعوه إلى قول: لا إله إلا الله.

وهذا بيان للأحاديث التي فيها: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» (١)، أي: تعصم المال والدم ابتداء، ما لم يأتِ بمناقض.

فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فلا يجوز قتله، ففي **"صحيح مسلم"** (٩٧): عَنْ جُنْدَب بْن عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ رضي الله عنه إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي **"صحيح البخاري"** (٤٢٦٩) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الحُرَقَةِ، فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَكَفَّ الأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ.

ومن ناقض لا إله إلا الله بعد قولها لا تعصم دمه، فلو أن رجلًا قال: لا إله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

إلا الله ثم كفر حل قتله، أو قال: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فهنا لا تعصم دمه، بل يقتل لقول الله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وهكذا.

وفيه من الفوائد: رحمة النبي ﷺ، وشفقته، وحرصه على هداية الناس، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

قَوْلُهُ (فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَنْ يَدْعُوا بِالْمَغْفِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ ذَوِي قَرَابَةٍ لَهُمْ.

وقولُهُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا مَاتُوا عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَضَى أَنْ لَا يَغْفِرَ لِمُشْرِكٍ فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ فَإِنْ قَالُوا: فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا لِمَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وَعَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَدُوٌّ خَلَّاهُ وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ، وَآثَرَ اللَّهَ وَأَمْرَهُ عَلَيْهِ، فَتبَرَّأَ مِنْهُ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُهُ. انتهى مختصرًا من «تفسير» الطبري (١٢/ ١٩).

وفيه: أن الأصل العمل بعموم الدليل لا بخصوص السبب.

فالآية نزلت في أبي طالب وما زالت شرع، فلا يجوز أن نستغفر لمن مات على الكفر، كمن مات عابدًا للقبر؛ يدعوه ويرجوه ويذبح له ويخاف منه، ويعتمد عليه، وينذر له إلى غير ذلك.

والاستغفار للمشركين يعتبر من الاعتداء في الدعاء، والنبي ﷺ قد حذر من الاعتداء في الدعاء، وقال ﷺ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ

رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»، اخرجه مسلم (٢٧٣٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

وفيه: تعظيم جانب الولاء والبراء، وأن الرحمة تقع على القرابة أكثر من غيرهم، لكن مع ذلك الأخوة الدينية مقدمة على الأخوة الطينية، فيقول الله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]؛ لأن القريب قد تقع له رحمة وشفقة من قريبة، ومع ذلك قطع الله عز وجل أواصر الأخوة بين المسلمين والكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [التوبة: ٢٣].

وفيه: العذر بالجهل، إذ أنَّ من لم يتبين له الأمر فهو جاهل به.

وفيه: أن الكفار مخلدون في النار، وأنهم أصحاب الجحيم، ويضافون إليها من حيث أنهم أهلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، والنار لها أسماء كثيرة: الجحيم، وجهنم، وسقر... وغير ذلك من الأسماء، و قد ألفت مؤلفات في أسماء جهنم، أعاذنا الله منها.

وقول الصحابي (أنزل في كذا) له حكم الرفع على ما تقدم.

وقولُهُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾: يقول إنك لا توفق من أحببت هدايته.

وقولُهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾: يقول: ولكن الله يوفق من يشاء ممن علمه أهلا، وفيه أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، يهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وفيه إثبات مشيئة الله النافذة. وهذا رد على القدرية على ما يأتي إن شاء الله.

قولُهُ ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: فيه رد على القدرية الذين أوردوا سؤالًا،

وهو: لماذا هدى الله فلانًا ولم يهد فلان؟ وهذا سؤال قبيح، فيه قلة أدب مع الله ﷻ، واعتراض عليه، ولم يعرف هذا القائل أن الله ﷻ يقول عن نفسه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويقول عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وقد أجاب أهل السنة عن هذا السؤال، وهو: أن الهداية فضل من الله، وفضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء. فمثلًا: لو دللت شخصًا إلى الخير، هل يجب عليك أن تعينه عليه؟ الجواب: لا، والله ﷻ له المثل الأعلى، دلنا على الطريق المستقيم طريق الجنة، الموصل إليه، ولم يجب عليه أن يهدي العباد جميعًا، وإنما يوفق ويهدي من علمه أهلًا للهداية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

قال ابن القيم: في "طريق الهجرتين" (٣١٨): بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناءَ والمحبة عليه، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل: فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته:

مـا للْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... كَلاّ وَلا سَـعْيٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ
إنْ عُـذِّبُوا فَبِعَـدْلِهِ أو نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيمُ السـامِعُ

انتهى.

***

١٨- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ.

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ) وذلك أن أغلب الباطل الذي دخل على الأمم كان ابتداؤه بسبب الغلو في الصالحين، ويأتي بيان ذلك في أثر ابن عباس الذي أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وأما غير الصالحين فالأصل أن الناس يزهدون في متابعتهم، وتعظيمهم بل ربما احتقروهم وسخروا منهم، قال الطبري في «**تفسيره**» (٧/ ٧٠١): وَأَصْلُ الْغُلُوِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ: مُجَاوَزَةُ حَدِّهِ الَّذِي هُوَ حَدُّهُ، يُقَالُ مِنْهُ فِي الدِّينِ قَدْ غَلَا فَهُوَ يَغْلُو غُلُوًّا، وَغَلَا بِالْجَارِيَةِ عَظْمُهَا وَلَحْمُهَا: إِذَا أَسْرَعَتِ الشَّبَابَ، فَجَاوَزَتْ لِدَاتِهَا، يَغْلُو بِهَا غُلُوًّا وَغَلَاءً؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَارِثِ بْنِ خَالِدٍ الْمَخْزُومِيِّ:

خُمْصَانَةٌ قَلِقٌ مُوَشَّحُهَا ... رُؤْدُ الشَّبَابِ غَلَا بِهَا عَظْمُ

انتهى.

ومن تلبيس الشيطان على أكثر الناس أن التوحيد هو تعظيم الصالحين، وفي رسالة «**الأصول الستة**» بيان ذلك، وهو أن من الأصول: الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، وأن المخالفين لهذا الأصل جعلوا الإخلاص هو التشدد واحتقار الصالحين، وجعلوا الشرك الذي يتعاطوه: هو معرفة حق الصالحين وهذا من تقليب الحقائق، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،

وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»[١]، فرفع الصالحين إلى منزلة هي من خصائص الله ﷻ من الغلو، ولفظة الغلو تشمئز منها النفوس وتنقبض منها القلوب، فأبدلوها بكلمة تعظيم الصالحين، ومعرفة حقهم، وقد نهى الله ﷻ أهل الكتاب عن الغلو في الصالحين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، وقد غلا النصارى في عيسى عليه السلام حتى ألهوه واعتقدوا أنه ابنًا لله ﷻ، وربًا وإلهًا مع الله ﷻ، وغلت اليهود حتى اتهموا أمه بالزنا، وحاشاها، تلك المرأة الصديقة المنزهة المبرأة.

والنبي ﷺ قد نهى عن الغلو، ففي **"صحيح البخاري"** (٤٠٠١) عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ».

وفي مسند أحمد (١٣٥٢٩) وغيره: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٢٩٨)، والحديث في «الصحيح المسند» (١/ ١٦) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُما اللَّهُ.

قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ»، وفي سنن أبي داود (٤٨٠٦): عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[١]، أي: الذي له السيادة المطلقة سبحانه وتعالى، وإلا فلفظ (السيد) يجوز أن يطلق على غير الله عز وجل، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» أخرجاه عَنْ أَبِي بَكَرَةَ رضي الله عنه، وقال النبي ﷺ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» أخرجه أحمد (١٠٩٩٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، وقال: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه[٢] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وقال: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» متفق عليه[٣] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، وأخرج البخاري في "**الأدب المفرد**" (٢٩٦)، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه. «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟» قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ».

من الأدلة على تحريم الغلو حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[٤]، و(الْمُتَنَطِّعُونَ): هم المتشددون في غير موطن التشديد.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَجَاءَ بَعِيرٌ، فَسَجَدَ لَهُ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَسْجُدُ لَكَ الْبَهَائِمُ وَالشَّجَرُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَأَكْرِمُوا أَخَاكُمْ، وَلَوْ كُنْتُ آمِرًا

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٢٩٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

أَحَدًا، أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَلَوْ أَمَرَهَا أَنْ تَنْقُلَ مِنْ جَبَلٍ أَصْفَرَ إِلَى جَبَلٍ أَسْوَدَ، وَمِنْ جَبَلٍ أَسْوَدَ إِلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ، كَانَ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَفْعَلَهُ»(١).

وجمع الله ﷻ لنبيه ﷺ بين الرسالة والعبودية، ووصفه بالعبودية في أشرف المواطن، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]. فسماه عبدًا؛ وذلك سدًا لذرائع الغلو فيه، وكانت إضافة الله ﷻ عبودية النبي ﷺ إلى نفسه مؤذنة بتشريفه، وتكريمه.

وأمره الله ﷻ أن يقول: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فهو بشر ﷺ، كان يقول: «اللهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ»(٢)، والأحاديث والآيات الدالة على ذلك كثيرة.

***

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يقول يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وسموا بذلك لأن لهم كتبًا منزلة من السماء وهي التوراة المنزلة على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والإنجيل المنزل على عيسى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وقد حرفوهما، وبدلوهما كما أخبر الله تعالى عنهم.

قوله ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي لَا تُجَاوِزُوا الْحَقَّ فِي دِينِكُمْ فَتُفْرِطُوا فِيهِ.

قوله ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي وَلَا تَقُولُوا فِي عِيسَى غَيْرَ الْحَقِّ، فَإِنَّ قولكم فِي عِيسَى إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ كما قالت النصارى فيه، أو ولد زنية كما قالت اليهود قول مِنْكُمْ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، فَيَكُونُ عِيسَى أَوْ غَيْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ ابْنًا، وقد برأ أمه وجعل من الآيات البينات ما يدل على ذلك مثل كلام عيسى في المهد. انتهى من "**تفسير**" الطبري (٧/ ٧٠٠).

والنهي لبني إسرائيل في هذا الباب نهي لنا وكما هو معلوم أن الرسل متفقون في العقائد.

ثم هنا مسألة، وهي: هل شرع من قبلنا شرع لنا، حتى لا يأتي صوفي أو رافضي أو باطني ويقول: هذا شرع من قبلنا؟.

فيقال: النهي عن الغلو جاء في كتابنا، وجاء الإسلام مقرًا له، وما أقره النبي ﷺ وأقره ديننا فهو شرع لنا، فالله عز وجل نهى النصارى أن يقولوا في عيسى غير

الحق، وهو ﷻ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فلزم تنزيه الله عن الصاحبة والولد؛ لأن الذي يطلب الصاحبة المخلوق العاجز الناقص، والذي يطلب الولد هو الذي يموت، والله ﷻ هو الحي الذي لا يموت، وهو القيوم الذي لا يحتاج إلى غيره، بل هو مقيم لغيره سبحانه وتعالى.

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ». متفق عليه[1].

قَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾: **قال الطبري في "تفسيره" (٧/٧٠٢)**: وَأَصْلُ الْمَسِيحِ: الْمَمْسُوحُ، صُرِفَ مِنْ مَفْعُولٍ إِلَى فَعِيلٍ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ بِذَلِكَ لِتَطْهِيرِهِ إِيَّاهُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ وَقِيلَ: مُسِحَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَدْنَاسِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْآدَمِيِّينَ، كَمَا يُمْسَحُ الشَّيْءُ مِنَ الْأَذَى الَّذِي يَكُونُ فِيهِ فَيُطَهَّرُ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَمَنْ قَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ: الْمَسِيحُ: الصِّدِّيقُ. انتهى.

قَوْلُهُ ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: أي نسب إلى أمه؛ ولم يُنسب إلى غيرها لأنه لا أب له، والناس أصناف، منهم من ليس له أب ولا أم، كآدم عليه السلام، ومنهم من له أب ولا أم كحواء عليها السلام، ومنهم من له أم ولا أب كعيسى عليه السلام، وبقية البشر له أب وأم.

ومريم -عليها السلام- صديقة، فقد وصفها الله تعالى به فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وهذه أعلى مراتبها خلافًا لمن زعم أنها نبية كابن حزم.

---

(١) البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

قَوْلُهُ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: هذا تصريح بأن عيسى غير الله، خلافًا للنصارى، فقوله: (رَسُولُ) يشعر أن له مُرسل، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: قد تقدم معنا أنه خلق بالكلمة لا هو نفس الكلمة، فإن كلام الله صفته وليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقد بين الله عَزَّ وَجَلَّ أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلوق كما في سورة آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قَوْلُهُ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي: من الأرواح التي عنده، وأضافت الأرواح إليه إضافة تشريف، أو إضافة خلق وإيجاد، كقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي "الصَّحِيحِ" عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﭬ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَومِهِم: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

قَوْلُهُ (وَفِي "الصَّحِيحِ"): أي: البخاري (٤٩٢٠) في كتاب التفسير باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ [نوح: ٢٣].

قَوْلُهُ (عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) هو عبد الله بن عباس أبو العباس، وتقدمت ترجمته.

قَوْلُهُ (فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى): أي في تفسير وبيان قوله تعالى في هذه الآية.

قَوْلُهُ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾: أي: وقال الكفار عباد الأصنام يوصي بعضهم بعضًا، لا تتركوا آلهتهم التي تعبدونها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا مثل قول كفار قريش: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقَوْلُهُ: ﴿وَدًّا﴾: اسم صنم كان لحي من كلب بدومة الجندل.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾: اسم صنم كانت لهذيل برباط.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾: اسم صنم كان لبني غطيف من مراد بالجرف.

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَعُوقَ﴾: اسم صنم كان لهمدان.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَسْرًا﴾: اسم صنم كان لذي الكلاع من حمير.

قَوْلُهُ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: أي: وقد ضل بعبادة هذه الأصنام كثير من الناس، وهذا كقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قَوْلُهُ (هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ): وقيل: أسماء قوم صالحين من بني آدم، وبعض العلماء أعل هذا الحديث بهذه اللفظة، فيقال: بأنهم أضيفوا إلى نوح من باب أن نوحًا خرج في هؤلاء، لا من باب أن الشرك إنما وقع في زمن نوح.

قَوْلُهُ (فَلَمَّا هَلَكُوا): أي ماتوا.

قَوْلُهُ(أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلى قَومِهِم): إما بالوسوسة أو التصور المباشر.

قَوْلُهُ(أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا): وهذه بداية البدعة، فلو قال لهم اعبدوهم من أول الأمر لاستنكروا ذلك، فصوروا لهم الصور لتذكرهم بالله، ثم اتخذت للبركة، ثم عُبدت من دون الله تعالى.

وفيه: أن الشيطان قد يغرس المعتقد الباطل، ويكون أثره بعد حين.

وفيه: أن البدعة أول ما تظهر صغيرة، ثم تكبر حتى تكون عظيمة، فهؤلاء بدءوا بصورة، وهونوا من شأنها.

قَوْلُهُ (وَلَمْ تُعْبَد): لعلم الناس أنها إنما هي صور.

قَوْلُهُ(حَتَى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ): أي مات الذين صوروها فوقع الشرك فيمن بعدهم بسبب نسيان العلم.

وفيه: أن الجهل من أعظم أبواب الشرك، والمعاصي والسيئات، فهؤلاء لما اندثر العلم الذي كان عند أسلافهم، وهو علم التوحيد عبدوا هذه الأصنام،

والأوثان؛ لعدم معرفتهم بمعنى (لا إله إلا الله).

قَوْلُهُ (عُبِدَتْ): يعني أنّ هذه الصور عبدها الناس لما نسي العلم، وطال عليهم العهد، ثم عمدوا إلى نسخ تلك التصاوير إلى تصاوير أخرى يوزعونها في البلدان، وعند البيت، والأسفار، فكثرت الأصنام بعد ذلك، فأرسل الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعاهم إلى عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ دهرًا من الزمان، ومع ذلك ما ازدادوا إلا كفرًا وطغيانًا وما آمن معه إلا قليل، فدعا عليهم واستجاب الله دعوته: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثَمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

قَوْلُهُ (ابْنُ القَيِّمِ): هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تلميذ ابن تيمية صاحب التصانيف العظيمة.

ذكر هذا القول رَحِمَهُ اللَّهُ: في "**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**" (١/ ١٨٤).

قَوْلُهُ (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفُ): السلف المتقدم، والمراد به هنا غير واحد من المفسرين.

قَوْلُهُ (لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثَمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ): أي أنهم تدرجوا في البدعة حتى وصلوا إلى الشرك، فكان أول أمرهم العكوف حول قبورهم -زعموا لذكر الله تعالى-، ثم نحتوا لها الصور، فهلك الجيل الأول وتباعدت السنين، ونُسيّ العلم، ويكون ذلك إما بموت العلماء فيتخذ الناس رؤوسًا جهالا، وإما بالخلود إلى الدنيا، فلما حصل ذلك وتسلط الجهل عبدوهم .

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه): هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح، بالمثناة تحت، ابن عبد الله بن قرط بن رزاح، براء مفتوحة ثم زاي ثم ألف ثم حاء مهملة، ابن عدى بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوى المدني، أمير المؤمنين.

ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش. قالوا: وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيرًا، أي رسولًا، ولما بعث رسول الله ﷺ كان عمر شديدًا عليه وعلى المسلمين، ثم لطف الله تعالى به، فأسلم قديمًا، فأسلم بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، وقيل: بعد تسعة وثلاثون رجلًا وثلاث وعشرين امرأة، وقيل: بعد خمسة وأربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة.

وهو الفاروق، فَرَّق الله به بين الحق والباطل، واتفقوا على أنه أوَّل مَن سُمِّيَ أمير المؤمنين، وإنما كان يقال لأبى بكر رضي الله عنه، خليفة رسول الله ﷺ. وعمر رضي الله عنه، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار رسول الله ﷺ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم.

وشهد عمر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ سائر المشاهد، وكان شديدًا على الكفار والمنافقين، وهو الذى أشار بقتل أسارى بدر، ونزل القرآن على وفق قوله فى ذلك، وكان عمر رضي الله عنه ممن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

مَسْعُودٍ رضي الله عنه في بيان منزلته: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»[1]؛ فهو صاحب المناقب المشهورة، والفضائل المأثورة، قتله أبو لؤلؤة المجوسي، وهو يصلي بالناس الفجر في مسجد رسول الله ﷺ وكان من قصته ما ذكره البخاري في "**صحيحه**" (٣٧٠٠) عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ، وَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ، وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: «كَيْفَ فَعَلْتُمَا، أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ؟ قَالاَ: حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ، قَالَ: انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ، قَالَ: قَالاَ: لاَ، فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ، لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ العِرَاقِ لاَ يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا، قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ، قَالَ: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الكَلْبُ، حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ العِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ، لاَ يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلاَ شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ، حَتَّى طَعَنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا، فَلَمَّا ظَنَّ العِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ، فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي المَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَدْرُونَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلاَةً خَفِيفَةً، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي، فَجَالَ سَاعَةً ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: غُلاَمُ المُغِيرَةِ، قَالَ: الصَّنَعُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَاتَلَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مِيتَتِي بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ العُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ، -

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٣).

وَكَانَ العَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا - فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ، أَيْ: إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا؟ قَالَ: كَذَبْتَ بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ، وَصَلَّوْا قِبْلَتَكُمْ، وَحَجُّوا حَجَّكُمْ. فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: لاَ بَأْسَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: أَخَافُ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ فَخَرَجَ مِنْ جُرْحِهِ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَاءَ النَّاسُ، فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدَمٍ فِي الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِي، فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الغُلاَمَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ، فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا أَوْ نَحْوَهُ، قَالَ: إِنْ وَفَى لَهُ، مَالُ آلِ عُمَرَ فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَإِلَّا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَإِنْ لَمْ تَفِ أَمْوَالُهُمْ فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ، وَلاَ تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَأَدِّ عَنِّي هَذَا المَالَ انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلاَمَ، وَلاَ تَقُلْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ اليَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ السَّلاَمَ، وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قِيلَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَدْ جَاءَ، قَالَ: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ، فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي رُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، وَجَاءَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ تَسِيرُ مَعَهَا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا، فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ، فَوَلَجَتْ دَاخِلًا لَهُمْ، فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا

مِنَ الدَّاخِلِ، فَقَالُوا: أَوْصِ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ اسْتَخْلِفْ، قَالَ: مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ - كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ - فَإِنْ أَصَابَتِ الإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلاَ خِيَانَةٍ، وَقَالَ: أُوصِي الخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي، بِالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالأَنْصَارِ خَيْرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الأَمْصَارِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الإِسْلاَمِ، وَجُبَاةُ المَالِ، وَغَيْظُ العَدُوِّ، وَأَنْ لاَ يُؤْخَذَ مِنْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رِضَاهُمْ. وَأُوصِيهِ بِالأَعْرَابِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ أَصْلُ العَرَبِ، وَمَادَّةُ الإِسْلاَمِ، أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ، وَيُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلاَ يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ، فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، قَالَتْ: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ».

وقد ذكرت شيئًا من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابي "**سلامة الخلف في طريقة السلف**".

قَوْلُهُ (لا تُطْرُونِي): من الإطراء وهو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه وقيل هو المديح بالباطل والكذب فيه. فالإطراء هو المدح بغلو.

قَوْلُهُ (كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ): أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك من الغلو.

قَوْلُهُ (إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ): أي عبدٌ للهِ تعالى؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ.

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): الصحيح أنه أنفرد به البخاري (٣٤٤٥) في كتاب التفسير بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ [مريم: ١٦].

والشاهد من لحديث بيان خطر الغلو في الدين والنهي عنه؛ والنهي عن الغلو عامة، وعن الغلو في ذات النبي ﷺ خاصة، ومن باب أولى الغلو في غير النبي ﷺ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَال: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»

أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩) عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ، الْقُطْ لِي» فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ، قَالَ: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»

قَوْلُهُ (إِيَّاكُمْ): أي أحذروا.

قَوْلُهُ (وَالْغُلُوَّ): تقدم أنه مجاوزة الحد.

قَوْلُهُ (فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ): أي في الدين فالنصارى هلكوا لما عظموا عيسى ورفعوه إلى مرتبة الإله، واليهود هلكوا لما عظموا عزيرًا وغيره، والباطنية هلكوا لما عظموا أربابهم ومعبوداتهم، والرافضة هلكوا لما عظموا علي بن أبي طالب وغلاة الصوفية هلكوا لما عظموا القبور والصالحين، مثل تعظيمهم لله وأكثر، حتى بلغ قول بعض الروافض أخزاه الله:

كفانا فخر مولانا عليًّا ... حصول الشك فيه أنه الله

يعني: يقول: من مناقب علي بن أبي طالب أن الناس اختلفوا هل هو الله أو غير الله؟ قاتلهم الله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلاثًا.

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): في كتاب العلم (٢٦٧٠)

قَوْلُهُ (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ): هذا إخبار من رسول الله ﷺ، أو دعاء. قال النووي في "**رياض الصالحين**" (٧٩): الْمُتعمِّقونَ الْمُشَدِّدُون فِي غَيْرِ موْضَعِ التَّشْدِيدِ. اهـ.

فالواجب علينا أن نأخذ بالكتاب والسنة من غير إفراط ولا تفريط، وقد تكلمت على مسألة الغلو بتوسع في كتاب: "**المبحث البديع في أسباب وحلول ونتائج التمييع**"؛ لأن الغلو مرض خطير، فإن الخوارج غلو، والمرجئة جفوا، والرافضة غلو في باب وجفوا في أبواب، والصوفية غلو في أبواب وجفوا في أبواب، وأهل السنة هم العدل الخيار، كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال البخاري رحمه الله: وسطًا أي: عدلًا خيارًا، وسط بين الجبرية والقدرية، وبين الجهمية والرافضة والناصبة، وبين المرجئة والخوارج، وذلك لأنهم ملازمون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ علمًا وعملًا.

***

١٩- بَابُ مَا جَاءَ مِنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رجلٍ صَالحٍ فَكَيْفَ إِذَا عبدهُ عِندَ قبرِ غيرِه؟!

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ مِنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ عِندَ قَبرِ غَيرِهِ؟!

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ مِنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ عِندَ قَبرِ غَيرِهِ؟!)

قَوْلُهُ (التَّغْلِيظِ): أي: التشديد.

قَوْلُهُ (فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ): أي: تقرب إلى الله ﷻ ببعض العبادات عند القبر وأماكن عبادة المشركين لأن ذلك ذريعة للشرك، ومشابهة للمشركين، وحضور للزور، وعدم تميز عن المشركين وقد أمر الله تعالى بتمييز المسلمين عن المشركين، ومن ذلك تحريم دخول المشركين مكة، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ، نُؤَذِّنُ بِمِنًى: «أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ» قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ: «لاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»(١)، ومن ذلك النهي عن الصلاة في أوقات عبادات الكفار.

قَوْلُهُ (فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ عِندَ قَبرِ غَيرِهِ؟!): الجواب أنه إذا عبده فهو مشرك شركًا أكبر مخرج من الملة، ومن عبد الله عند قبر مرتكب لكبيرة من كبائر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩) ومسلم (١٣٤٧).

الذنوب، وعبادة الله ﷻ عند قبر أو صنم، أو وثن أو مسجد فيه قبر قد يؤدي إلى بطلان العبادة من أصلها، ولما بوب رحمه الله تعالى: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، ذكر بعده هذا الباب؛ لأن الغلو هو الذي يجعل الناس يعظمون هذه القبور، وفي الباب التغليظ فيمن شابه المشركين، والحث على سد ذرائع الشرك، فإن عبادة الله ﷻ عند القبور وأماكن أعياد الكافرين تؤدي إلى تعظيم ما عليه الكفار، وربما جر مع تعاقب الزمان إلى عبادة غير الله ﷻ كما تقدم معنا في أثر ابن عباس رضي الله عنهما في القوم الذين صوروا التصاوير، ثم جعلوا يجلسون عندها يذكرون الله، فلما هلك ذلك الجيل، جاء جيل آخر، لا يدري ما عليه القوم فعبد تلك الصور.

وتقدم حديث ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه ، وسؤال النبي ﷺ لرجل من أصحابه: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ...»[1].

وذكر رحمه الله قبر الرجل الصالح؛ دلالة على أن الشرك لا فرق فيه بين أن تعبد حجرًا أو ملكًا؛ ولأن الشرك إنما يقع أكثره من الغلو في الصالحين، وكلها مخلوقات لله ﷻ، خلقهم لعبادته وطاعته، وقد كَفَّرَ النبي ﷺ وقاتل النصارى الذين يعبدون عيسى عليه السلام، وقاتل وكفَّر مشركي العرب الذين يعبدون الأحجار والأصنام، والمجوس الذين يعبدون النيران، فلم يفرق بين هذا وهذا.

وفيه دلالة أن أعظم الشرك يقع عند قبور الصالحين، أو المنتسبين إلى الصلاح؛ لتكون لهم قربة عند الله، كما جاءت دعوى المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) اخرجه أبو داود (٣٣١٣)، والحديث في «الصحيح المسند»(١٨٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي "الصَّحِيح" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوُ العَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ؛ أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

فَهَؤُلاءِ جَمَعُوا بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ القُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

قَوْلُهُ (فِي "الصَّحِيحِ"): أي: "**الصحيحين**" البخاري (٤٣٤، ٤٢٧) كتاب الصلاة بَابٌ: هَلْ تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكِي الجَاهِلِيَّةِ، وَيُتَّخَذُ مَكَانُهَا مَسَاجِدَ، ومسلم (٥٢٨) كتاب المساجد.

قَوْلُهُ (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا): أم عبد الله الصديقة بنت الصديق أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وزوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة كما صح عن عمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند البخاري (٣٧٧٢)، قال النبي ﷺ في شأنها: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». أخرجه مسلم (٢٤٣١) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واختلف العلماء: أيهم أفضل عائشة أو خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟ فمن مقدم لخديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لفضائل عظيمة، منها: أنها ناصرت النبي ﷺ، وآزرته، وأول من آمنت به من النساء، وأرسل الله عَزَّ وَجَلَّ جبريل ليقرؤها من الله السلام، فَقَالَتْ: «إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»[1]، وبشرها الله عَزَّ وَجَلَّ بِبَيْتٍ مِنَ الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ[2]، لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ»[1]، وقال

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم الليلة» (٣٧٤) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢)أي: من ذهب ولؤلؤ.

النبي ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(٢)، وعند مسلم (٢٤٣٠) عَنْ علي رضي الله عنه: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»، وصنيع الإمام مسلم يشعر بتقديم عائشة على خديجة بنت خويلد، ويظهر ذلك بأنه ساق هذا الحديث في فضل خديجة رضي الله عنها ثم ثناه بحديث: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

ولشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم رحمهم الله تفصيل في هذه المسألة، وهو: أن عائشة رضي الله عنها أفضل في العلم والفقه، وخديجة أفضل في النصرة والسابقية، وكلهن على خير عظيم.

والذي يظهر لي: أن خديجة رضي الله عنها أفضل كون الله أقرأها السلام، بينما عائشة رضي الله عنها إنما أقرأها جبريل عليه السلام.

وذهب ابن حزم رحمه الله: إلى أن درجات نساء النبي ﷺ أرفع من درجات غيرهن من الصالحين وغيرهم؛ لأن الله عز وجل يرفعهن مع نبيه ﷺ، والله أعلم ولا يبعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وقد جعل الله في عائشة رضي الله عنها بركة للمسلمين، حتى قَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»(٣)، وفي رواية(٤) قَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ

=

(١) البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١)، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤) ومسلم (٣٦٧) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٤) البخاري (٣٣٦)، ومسلم (٣٦٧) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: «جَزَاكِ اللَّهُ خَيْرًا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ تَكْرَهِينَهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكِ لَكِ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا»، وذلك لما أضاعت القلادة أنزل الله آية التيمم، ولما اتهمها المنافقون برأها الله بآيات كثيرات طيبات، حتى قالت: «...وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا» أخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).

وعقد عليها رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعمرها ست سنوات ودخل بها وعمرها تسع سنوات[(١)]، وتوفي وعمرها ثمانية عشر سنة، وكانت أحب أزواجه إليه، ففي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند مسلم (٤٣٥٨) عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا» قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ» فَعَدَّ رِجَالًا، فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ.

وعرضها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، وهي طفلة صغيرة، وكان النبي ﷺ يقول: «إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، يُمْضِهِ»[(٢)]، فمن اتهمها بما برأها الله منه فهو كافر كفر أكبر مخرج من الملة.

قَوْلُهُ (أُمَّ سَلَمَةَ): هي هند بنت أبي أمية رضي الله عنها، وهي زوج النبي ﷺ تزوجها بعد عبد الله بن عبد الأسد، وكانت قد وضعت له سلمة وزينب، وقصتها في "**صحيح مسلم**" (٩١٨): أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٤)، ومسلم (١٤٢٢).
(٢) البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وهي من السابقين الأولين هاجرت إلى الحبشة.

قَوْلُهُ (ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ): أي أخبرته عن بعض ما رأت في الحبشة، وفيه تحدث المرأة مع زوجها، وذكر ما يستغرب، وربما ذكرته لمعرفة الحكم الشرعي في ذلك.

قَوْلُهُ (كَنِيسَةً): وهي مكان عبادة النصارى، كما أن البيّع أماكن عبادة اليهود.

قَوْلُهُ (بِأَرْضِ الحَبَشَةِ): هي غرب البحر الأحمر، تضم الآن إريتريا، وأثيوبيا، وكانت هجرة المسلمين إلى إريتريا من أرض الحبشة.

قَوْلُهُ (وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ): وهذا أصل شرك النصارى وغيرهم، وتشمل المنحوت، والمجسم، والمرسوم.

قَوْلُهُ (أُولَئِكِ): أي: النصارى واليهود.

قَوْلُهُ (إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوُ العَبْدُ الصَّالِحُ): هذا شك من الراوي، وكلمة العبد أعم، **وقَوْلُهُ (الرَّجُلُ)**: خرج مخرج الغالب. وهذه عادة جميع الناس، أنهم لا يعبدون إلا من يظنون فيه الصلاح، والخير والبركة، وعندنا في بلاد اليمن يعبدون من يسمى بالسيد، لظنهم أن السيد فيه الخير والبركة، وفي البلاد التهامية الشريف؛ لظنهم أن الشريف فيه الخير والبركة، وفي بلاد أخرى الولي والحبيب والمريد؛ لظنهم أن الولي والحبيب والمريد فيه الخير والبركة.

قَوْلُهُ (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا) يعني: اتخذوا قبره مصلى، يصلون،

ويدعون عنده، ويظنون أن الدعاء عنده أجوب، حتى وإن لم يبنوا مسجدًا.

وربما كان البناء على حقيقته، وفي كلا الحالين هذا الصنيع منكر، وزور، وهو من ذرائع الشرك، والله المستعان. فكونهم جعلوا هذا المكان للعبادة فهذا من اتخاذ القبور مساجد فالمساجد هي أماكن العبادة، قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ): أي: صور الرجل الصالح قال الحافظ في "**فتح الباري**" (١/ ٥٢٥): وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ أَوَائِلُهُمْ لِيَتَأَنَّسُوا بِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّوَرِ وَيَتَذَكَّرُوا أَحْوَالَهُمُ الصَّالِحَةَ فَيَجْتَهِدُوا كَاجْتِهَادِهِمْ ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ جَهِلُوا مُرَادَهُمْ وَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ أَسْلَافَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ وَيُعَظِّمُونَهَا فَعَبَدُوهَا فَحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى ذَلِكَ. انتهى.

قَوْلُهُ (أَوْلَئِكِ): بِكَسْرِ الْكَافِ وَيَجُوزُ فَتْحُهَا. انتهى من "**فتح الباري**" (١/ ٥٢٥).

قَوْلُهُ (شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ): لأنهم مشركون والمشركون هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة وفي الدنيا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦]، وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ»[2]، وَفِيهِ كَرَاهِيَةُ الصَّلَاةِ فِي الْمَقَابِرِ سَوَاءٌ كَانَتْ بِجَنْبِ الْقَبْرِ أَوْ عَلَيْهِ أَوْ إِلَيْهِ. انتهى من "**فتح الباري**" (١/ ٥٢٥).

---

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ **في "فتح الباري" (٥٢٥/١):** وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ لَمَّا كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَسْجُدُونَ لِقُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ وَيَجْعَلُونَهَا قِبْلَةً يَتَوَجَّهُونَ فِي الصَّلَاةِ نَحْوَهَا وَاتَّخَذُوهَا أَوْثَانًا لَعَنَهُمْ وَمَنَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَأَمَّا مَنِ اتَّخَذَ مَسْجِدًا فِي جِوَارِ صَالِحٍ وَقَصَدَ التَّبَرُّكَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ لَا التَّعْظِيمَ لَهُ وَلَا التَّوَجُّهَ نَحْوَهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْوَعِيد. انتهى.

قلت: نقلت هذا للتعقيب عليه، وهذه من الزلقات الفالجة التي صار عليها بعض شُرّاح الحديث كالحافظ والنووي وغيرهم، فالحذر من زلات العلماء ولا يجوز التبرك والتعبد إلا بما شرع الله تعالى.

وفي هذا الحديث من الفوائد: التحذير من الصور، وأنها من أسباب الشرك، ومن مضاهات خلق الله تعالى.

وفيه: أن اليهود والنصارى من شرار الخلق، فمثلهم لا يقتدى ولا يتشبه به، وفي الحديث: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]، وإنما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالاقتداء بالأنبياء والصالحين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وفيه: إثبات المعاد، وأهوال القيامة.

مسألة: وهنا مسألة يذكرها أهل العلم، وهي: إذا بُنِيَ مسجدٌ ثم أدخل فيه القبر فإن المسجد أحق بالبقعة، فيجب إخراج القبر من المسجد، وإذا وقع القبر، ثم بني عليه المسجد، فإن القبر أحق بالبقعة، فهنا يهدم المسجد، ويفرقون بين الصلاتين، فيقولون: الصلاة في المسجد الذي بني أولًا، ثم وضع فيه القبر صحيحة مع الإثم وإذا وجد غيره أفضل، وكان الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لا نستطيع أن نحكم على صلاة بالبطلان إلا بدليل شرعي، والمسجد الذي بني

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

على القبر يحكمون على الصلاة فيه بالبطلان؛ لأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ»(١).

قَوْلُهُ (فَهَؤُلاءِ جَمَعُوا بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ): أي: من ذكروا في الحديث ومن شابههم وهذا يقع كثيرا إذ قد يضل المرء، أو يكفر، أو يبتدع من عدة أوجه.

قَوْلُهُ (فِتْنَةِ الْقُبُورِ): بتعظيمها، والبناء عليها، والصلاة عندها أو إليها، والعكوف بجانبها، والطواف حولها، والتمسح بأركانها، وغير ذلك مما يفعله عباد القبور والله المستعان.

قال ابن الأمير في "تطهير الاعتقاد" (٦٣): وفي كلِّ قرية أمواتٌ يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعلُ المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادُوا بها معنَى سُواعٍ ومثلِه ... يغوثَ وود بئس ذلك من وُدِّ

وقد هتفوا عند الشَّدائدِ ... كما يهتِفُ المضطَرُّ بالصَّمد الفَردِ

وكم نحَروا في سُوحِها من نحِيرةٍ ... أُهلَّت لغير الله جهرًا على عمدِ

وكم طائفٍ حولَ القُبورِ ومقبِّلًا ... ويستلِمُ الأركانَ منهُنَّ باليدِ

انتهى.

(وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ): أي الصور، وقد حُرمت لأمرين:

الأول: سدا لذرائع الشرك. **الثاني**: لأنها مضاهة لخلق الله، وتعظيمهما من ذرائع الشرك، وهؤلاء أدخلوا القبور المساجد، ثم صوروا تلك الصور، وأصبحوا يعبدونها من دون الله ﷻ وصار هذا حال كثير من عباد القبور.

(١) رواه الإمام أحمد (١١٧٨٨)، وابن ماجه (٧٤٥)، وغيرهم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَـهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَـمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ: -وَهُوَ كَذَلِكَ- «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». -يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا- وَلَوْلا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُـهُ (وَلَـهُمَا): أي: للبخـاري (٤٣٥،٣٤٥٣،٤٤٤٣) عـن عائشـة وابـن عباس رضي الله عنهما كتاب الصلاة بَابُ الصَّلاَةِ فِي البِيعَةِ، وأخرجـه مسـلم في المسـاجد ومواضع الصلاة (٥٣١).

(عَنْهَا): أي: عن عائشة رضي الله عنها.

قَوْلُـهُ (قَالَـتْ: لَـمَّا نُـزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ): أي: نزلـت سـكرات المـوت، وحضرته الوفاة، وعلاه الغشي.

قَوْلُهُ (طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ): أَيْ يَجْعَلُهَا عَلَـى وَجْهِـهِ مِـنَ الْحُمَّى، والخَمِيصَةِ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ وَالصَّادِ الْمُهْمَلَـةِ وَهِـيَ كِسَـاءٌ مِـنْ صُـوفٍ أسود أوخز مُرَبَّعَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ وَلَا يُسَـمَّى الْكِسَـاءُ خَمِيصَـةً إِلَّا ان كَـانَ لَهَـا علـم. انتهى من "فتح الباري" (١٠/ ٢٧٧).

والنبي ﷺ مع كرمه على الله ومحبة الله عز وجل له اشتد عليه الحال، وكان يطـرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها، وإذا هدأت الغمة قليلًا أعادها عـلى وجهـه؛ لأن المريض أحيانًا يتألم حتى من ضوء الشمس، ومن الأصوات، والنبي ﷺ لمـا مرض لدوه - أشربوه الدواء إكراهًا - قال: «لاَ يَبْقَى أَحَـدٌ فِـي البَيْـتِ إِلَّا لُـدَّ»[١]،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٨)، ومسلم (٢٢١٣)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

وفي «**الصحيحين**»[١] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

وفي «**مسند أحمد**» (٨٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَم قَطُّ؟» قَالَ: وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: «حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: «فَهَلْ أَخَذَكَ الصُّدَاعُ قَطُّ؟» قَالَ: وَمَا الصُّدَاعُ؟ قَالَ: «عُرُوقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا».

قَوْلُهُ (فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا): أي إذا تسخن وضاق نفسه من شدة الحر رفعها وأزالها.

قَوْلُهُ (لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى): اللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، وخصهم لكثرة متابعة هذه الأمة لهم ففي البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»

قَوْلُهُ (اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ): وفي رواية: «وصالحيهم مساجد» أي: جعلوا القبور أماكن يعبدون الله فيها، أو اتخذوا تلك القبور أماكن يعبدون فيها هؤلاء الصالحين، وكلاهما خطر عظيم، فعبادة الله عند القبور لا تجوز وهي

---

(١) البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١).

من الكبائر، ومن ذرائع الشرك، وعبادة القبور، شرك أكبر.

قال ابن رجب في "فتح الباري" (٣/٢٤٨): قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأكره أن يعظم مخلوق حتى يتخذ قبره مسجدًا، خشية الفتنة عليه وعلى من بعده.

وقال صاحب "التنبيه" من أصحابه: أما الصلاة عند رأس قبر رسول الله ﷺ متوجها إليه فحرام.

قال القرطبي: بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا الداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين فتتصور إليه الصلاة بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره. ولهذا المعنى قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره. انتهى.

وفي الحديث من الفوائد: الدعوة إلى الله في كل وقت حتى في سياقة الموت، والاهتمام بالوصية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قَوْلُهُ (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا): أي يحذر أمته مما صنع اليهود والنصارى لاسيما في هذا الباب، فالنبي ﷺ إذا لعن شيئا دلّ على أنه من كبائر الذنوب، ويدل على التحذير منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ(**وَلَوْلا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ**): هذا من قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومعنى (أبرز قبره؟) أخرج إلى الصعيد بين قبور المسلمين، والصحيح في عدم إخراج قبره: أنه ﷺ قد أخبر أن النبي يقبر حيث يموت، فقد جاء في "**مسند أحمد**" (١/ ٢٠٦) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَقْبُرُونَ النَّبِيَّ ﷺ، حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُقْبَرَ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُ» فَأَخَّرُوا فِرَاشَهُ، وَحَفَرُوا لَهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ.

قَوْلُهُ (غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا): ولشدة خشيته من هذا جعل عند الموت يحذر من ذلك، وقبل الموت بخمسة أيام يحذر من ذلك، كما يأتي.

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): أي البخاري، ومسلم.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلِمُسْلِم: عَنْ جُنْدب بْن عَبْدِ الله قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إنِّي أَبْرَأُ إلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلا، كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلا. وَلَو كُنْتُ مُتَخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلا، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا. أَلا وَإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُون قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): كتاب المساجد (٥٣٢).

قَوْلُهُ (عَنْ جُنْدبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ): رضي الله عنه، هو ابنُ سُفْيَانَ البَجَلِيُّ ثـم العَلَقِـيُّ، أبو عبد اللَّه، وقد ينسب إلى جده فيقال: جنـدب بـن سـفيان، سـكن الكوفـة ثـم البصرة، قدمها مع مصعب بن الزبير.

قَوْلُهُ (قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ): قـال الحـافظ في "**فتح الباري**" (٥٢٥/١): وَفَائِدَةُ التَّنْصِيصِ عَلَى زَمَنِ النَّهْيِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمُحْكَمِ الَّذِي لَمْ يُنْسَخْ لِكَوْنِهِ صَدَرَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﷺ. انتهى.

قَوْلُهُ (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ): أي: أتخلى أن يكـون لي خليل منكم والعلة في ذلك.

قَوْلُهُ (فَإِنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا): وفي هـذا رد على من يزعم أن الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، وعلى هذا سـار الطحـاوي في عقيدته، فيقـول: وأنَّ محُمـدًا حَبِيـبُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ[١]؛ اعتمـادًا عـلى حـديث

(١) انظر «شرح الطحاوية»/ ط الأوقاف السعودية (١٢٢) لابن أبي العز.

ضعيف: «الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ»، والخلة هي صافي المحبة، وأعلى درجاتها، ومن درجات المحبة الود، والحب، والعشق، لكن العشق لا يكون إلا بشهوة، وقيل في الخلة:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلاَ

فإبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- خليل الله، قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، ومحمد ﷺ خليل الله، لهذا الحديث.

قَوْلُهُ (وَلَو كُنْتُ مُتَخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلا، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا): فيه فضيلة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه أفضل الصحابة، وهو رضي الله عنه أحب الناس إلى النبي ﷺ كما في حديث عَمْرو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه المتقدم، قَالَ: فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»(١).

وأبو بكر هو: هو الصديق الأكبر؛ ورفيق رسول الله ﷺ في هجرته، وصهره، وخليفته، واسمه عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة، ويلقب بعتيق.

ومن بركته رضي الله عنه أن الله ﷻ جعل عمره كعمر النبي ﷺ، وكان يظن أنه يموت في اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ، ففي البخاري (١٣٨٧) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: فِي كَمْ كَفَّنْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ؟ قَالَتْ: «فِي ثَلاَثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلاَ عِمَامَةٌ» وَقَالَ لَهَا: فِي أَيِّ يَوْمٍ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: «يَوْمَ الِاثْنَيْنِ» قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالَتْ: «يَوْمُ الِاثْنَيْنِ» قَالَ: أَرْجُو فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّيْلِ، فَنَظَرَ إِلَى ثَوْبٍ عَلَيْهِ، كَانَ يُمَرَّضُ فِيهِ بِهِ رَدْعٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ: اغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَا وَزِيدُوا عَلَيْهِ ثَوْبَيْنِ، فَكَفِّنُونِي فِيهَا، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا خَلَقٌ، قَالَ: إِنَّ الحَيَّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنَ المَيِّتِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُهْلَةِ فَلَمْ يُتَوَفَّ حَتَّى أَمْسَى مِنْ لَيْلَةِ الثُّلاَثَاءِ، وَدُفِنَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فأخره الله إلى الغد، فمات يوم الثلاثاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٥٨).

وعند ابن حبان (٣٠٣٦)، وغيره: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَتَمَثَّلْتُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

مَنْ لَا يَزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعًا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ مَدْفُوقًا

فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَلَكِنْ قُولِي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩]».

وفي ذكر موت النبي ﷺ ما ثبت في البخاري (٣٦٦٨-٣٦٧٠) عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، -يَعْنِي بِالعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: واللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ.

فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ، قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: واللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلاَمًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلاَمِهِ: نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ.

فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لاَ واللهِ لاَ نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لاَ، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ قَتَلَهُ اللهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَالِمٍ، عَنِ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَاسِمِ، أَخْبَرَنِي القَاسِمُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: شَخَصَ بَصَرُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ثَلاَثًا، وَقَصَّ الحَدِيثَ، قَالَتْ: فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتِهِمَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللهُ بِهَا لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ، وَإِنَّ فِيهِمْ لَنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللهُ بِذَلِكَ. ثُمَّ لَقَدْ بَصَّرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ الهُدَى، وَعَرَّفَهُمُ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَخَرَجُوا بِهِ، يَتْلُونَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إِلَى ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ثم اختلفوا كيف يدفنونه؟ فدلهم أبو بكر أنه يدفن فِي مكانه، واختلفوا كيف يغسلونه، فجعل الله عز وجل من يدلهم أنهم يغسلوه فِي ثيابه، ثم اختلفوا كيف يصلون عليه، فأخبرهم أبو بكر رضي الله عنه أنهم يصلون عليه أَرْسَالًا، فقد جاء عند أحمد (٢٠٧٦٦) عَنْ أَبِي عَسِيبٍ رضي الله عنه ، قَالَ بَهْزٌ: إِنَّهُ شَهِدَ الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالُوا: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْهِ؟ قَالَ: «ادْخُلُوا أَرْسَالًا أَرْسَالًا»، قَالَ: «فَكَانُوا يَدْخُلُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ».

قَالَ: فَلَمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ ﷺ، قَالَ الْمُغِيرَةُ: قَدْ بَقِيَ مِنْ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ لَمْ يُصْلِحُوهُ، قَالُوا: فَادْخُلْ فَأَصْلِحْهُ، فَدَخَلَ، وَأَدْخَلَ يَدَهُ فَمَسَّ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: أَهِيلُوا عَلَيَّ التُّرَابَ، فَأَهَالُوا عَلَيْهِ التُّرَابَ، حَتَّى بَلَغَ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَكَانَ يَقُولُ أَنَا أَحْدَثُكُمْ عَهْدًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ علي بن المديني: أيد اللَّه هذا الدين برجلين لا ثالث لهما، أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل فِي يوم المحنة[1].

---

(١) انظر «طبقات الحنابلة» (١/ ١٢) لأبي الحسين ابن أبي يعلى (المتوفى: ٥٢٦هـ).

وفي "**صحيح مسلم**" (٢٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ ﷻ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ. إلى غير ذلك، وأما قول بعض الصحابة، قال خليلي رسول الله ﷺ، فلا يعارض هذا الحديث؛ لأنهم اتخذوه خليلًا لهم، وأما هو فلا.

قَوْلُهُ (كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ): سواء جعلوها أماكن يعبدون الله فيها، أو يعبدونها، والحديث من الأدلة على سد ذرائع الشرك.

قَوْلُهُ (أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ): (ألا) للتنبيه، وفيها نهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا يعم كل القبور.

قَوْلُهُ (فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ): أي أمنعكم من ذلك، والأصل في النهي التحريم، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وفي "**صحيح مسلم**" (١٣٣٧) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا».

فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

قَوْلُهُ (فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ...): أي: عن اتخاذ القبور مساجد.

قَوْلُهُ (ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ): أي: لعن وهو في النزع من اتخذ القبور مساجد، وهذا يدل على شدة التحذير منها إذ ذكرها في هذا الموطن التي لا تذكر فيه إلا المهمات.

قَوْلُهُ (وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ): أي: أن الصلاة عندها يعتبر من اتخاذها مساجد؛ لأن الأرض كلها مسجد، فأينما صليت كان ذلك المكان مسجدًا، قال رسول الله ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»): أي: يُصلى ويدعى عنده.

قَوْلُهُ (فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا): فيه أن الصحابة رضي الله عنهم بعيدون عن الشرك؛ لأنهم عرفوا التوحيد حقًا، وتلقوا العلم عن

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما.

النبي ﷺ، وهذا عمر رضي الله عنه لما حلف بغير الله، فقال النبي ﷺ: «لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» متفق عليه[١]؛ وفي رواية قال: «فَوَاللَّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، ذَاكِرًا وَلاَ آثِرًا»[٢]، وفيه أنّ النهي للصحابة نهي لأمته جميعا.

قَوْلُهُ (وَكلُ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلاَةُ فِيهِ فَقَد اتُّخِذَ مَسْجِدًا): بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا، كما قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» متفق عليه[٣]، وهذه من خصائص أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فإن بقية الأمم كانوا لا يصلون إلا في بيعهم وكنائسهم، لكن هذه الشريعة لما كانت شريعة يسرية، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ، غَيْرُ الْمُشْرِكَةِ، وَلَا الْيَهُودِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ»[٤].

قَوْلُهُ (جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا): قطعة من حديث جابر رضي الله عنه في **"صحيح مسلم"** (٥٢١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»، وله (٥٢٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ:

---

(١) البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، تقدم.

(٢) البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، تقدم.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٠٣)، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلِأحْمَدَ بسَنَدٍ جَيْدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتْخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ»، رَوَاهُ أَبُو حَاتِم، ابنُ حِبَّانَ فِيْ "صَحِيحِهِ".

قَوْلُهُ (وَلأحْمَدَ): في المسند (٣٨٤٤)، وسنده حسن فقد اخرجه من طريق عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث.

قَوْلُهُ (بِسَنَدٍ جَيْدٍ): والسند الجيد هو دون الصحيح وفوق الحسن، وربما جعله بعضهم أدنى من الحسن، لكن سنده مقبول، وحكم عليه بهذا الحكم للخلاف في عاصم.

قَوْلُهُ (عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): وهو أبو عبد الرحمن الهذلي تقدم.

قَوْلُهُ (مَرْفُوعًا): أي مضافًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ (إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ): من للتبعيض، أو لبيان الجنس؛ أي أن شر الناس من هذا صفته.

قَوْلُهُ (مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ): لأن الساعة لا تقوم وعلى الأرض من يقول: الله الله، ولا تقوم إلا على شرار الخلق، ولا تقوم حتى تعبد اللات والعزى، ففي "صحيح مسلم" (٢٩٠٧) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ

آبَائِهِمْ» وفيه (١٤٨) عَنْ أَنَسٍ ﵁، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ».

قَوْلُهُ (وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ): أي ومن شرار الناس من يتخذ القبور مساجد؛ وقد حذر رَسُول اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- من فتنة القبور، قال رسول الله ﷺ لعلي ﵁: «أَنْ لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا»[1]، وفي "**صحيح مسلم**" (٩٧٠) عَنْ جَابِرٍ ﵁، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»، وفي "**سنن ابن ماجة**" (١٥٦٣) عَنْ جَابِرٍ ﵁، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى الْقَبْرِ شَيْءٌ».

***

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

٢٠- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ): ناسب ذكر هذا الباب بعد ما تقدم، لبيان أن الغلو في قبور الصالحين يؤول بالغالين فيها إلى عبادتها من دون الله تعالى. فتصير أوثانًا من جملة الأوثان.

وقد تقدم بعض أدلة الغلو، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، وقول رسول الله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[(١)]، وقول رسول الله ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[(٢)]، وقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]، وبوب عليه الإمام البخاري باب ما ينهى عن التكلف، والتكلف يؤدي إلى الغلو، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]، والغلو من الحرج.

قَوْلُهُ (فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ): أو ذواتهم، ودخل فيه الأنبياء ومن دونهم.

قَوْلُهُ (يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ): أي: يجعلها، ويصل حالها إلى أنها تعبد من دون الله، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، تقدم.

(٢) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: ٣١].

وقَوْلُهُ (مِنْ دُونِ اللهِ): وهي شاملة سواء أفردت بالعبادة من دون الله عز وجل أو أشركت مع الله عز وجل، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في مسلم (٢٩٨٥)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

رَوَى مَالِكٌ فِي الْـمُوطَأِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذَوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهُمْ مَسَاجِدَ».

قَوْلُهُ (رَوَى مَالِكٌ): وهو أبو عبد الله، ابن أنس الأصبحي اليماني، إمام دار الهجرة ومفتيها، قَالَ الشَّافِعِيُّ عنه: إِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ فَمَالِكٌ النَّجْمُ(١)، وقيل فيه:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً   وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ

أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى   فَهُوَ الْأَمِيرُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

وغلا بعضهم، وقال: لولا مالك كان الدين هالك!، وهو صاحب "**الموطأ**" الذي قال فيه الإمام الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ كِتَابٌ أَكْثَرُ صَوَابًا بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ مُوَطَّأِ مَالِكٍ(٢)، وهو قبل البخاري ومسلم، وأحسن شروحه "**كتاب التمهيد**" لابن عبد البر النمري رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَوْلُهُ (فِيْ الْـمُوَطْأِ): رقم (٤١٤) كتاب قصر الصلاة باب جامع الصلاة من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلا وفي "**التمهيد**" (٥/ ٤١): قَالَ أَبُو عُمَرَ لَا خِلَافَ عَنْ مَالِكٍ فِي إِرْسَالِ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى مَا رَوَاهُ يَحْيَى سَوَاءً وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ أَعْنِي قَوْلَهُ «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلُ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ وَزَعَمَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ أَنَّ مَالِكًا لَمْ يُتَابِعْهُ أَحَدٌ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ وَلَيْسَ بِمَحْفُوظٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا إِسْنَادَ لَهُ غَيْرُهُ إِلَّا أَنَّ عُمَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ أَسْنَدَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) «سير اعلام النبلاء» (٤/ ٧١٩) للذهبي.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/ ٣٢٠).

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ وَعُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ثِقَةٌ رَوَى عَنْهُ الثَّوْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ. انتهى، وذكر له شواهد.

قَوْلُهُ (اللَّهُمَّ): أصلها: يا ألله. **(لا تَجْعَلْ):** أي: لا تصير؛ لأنها تنصب مفعولين، الأول: **(قبري)**، والثاني: **(وثنًا)**.

قَالَ أَبُو عُمَرَ في «**التمهيد**» (٥/ ٤٥): الْوَثَنُ الصَّنَمُ وَهُوَ الصُّورَةُ مِنْ ذَهَبٍ كَانَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التِّمْثَالِ وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ وَثَنٌ صَنَمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ صَنَمٍ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُصَلِّي إِلَى الْأَصْنَامِ وَتَعْبُدُهَا فَخَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ أَنْ تَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ بَعْضُ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا إِذَا مَاتَ لَهُمْ نَبِيٌّ عَكَفُوا حَوْلَ قَبْرِهِ كَمَا يُصْنَعُ بِالصَّنَمِ فَقَالَ ﷺ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُصَلَّى إِلَيْهِ وَيُسْجَدُ نَحْوَهُ وَيُعْبَدُ فَقَدِ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَذِّرُ أَصْحَابَهُ وَسَائِرَ أُمَّتِهِ مِنْ سُوءِ صَنِيعِ الْأُمَمِ قَبْلَهُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ وَاتَّخَذُوهَا قِبْلَةً وَمَسْجِدًا كَمَا صَنَعَتِ الْوَثَنِيَّةُ بِالْأَوْثَانِ الَّتِي كَانُوا يَسْجُدُونَ إِلَيْهَا وَيُعَظِّمُونَهَا وَذَلِكَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُهُمْ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ وَأَنَّهُ مِمَّا لَا يَرْضَاهُ خَشْيَةً عَلَيْهِمُ امْتِثَالَ طُرُقِهِمْ وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ وَكَانَ يَخَافُ عَلَى أُمَّتِهِ اتِّبَاعَهُمْ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ على جهة التعيير وَالتَّوْبِيخ «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَوْ دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».اهـ

قَوْلُهُ (يُعْبَدُ): صفة لوثن.

وفي الحديث: تحذير النبي ﷺ من الشرك، وفيه: لجوء النبي ﷺ إلى الله ﷻ في أن يبعد قبره عن الشرك، وكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٤٠٩)، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ.

وكَانَ ﷺ، يَقُولُ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ»(١).

وهذا الحديث موافق لحديث: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا». متفق عليه(٢). وقد تقدم.

وفيه: أن كل ما عبد من دون الله فهو وثن وصنم وإن غيروا اسمه إلى السيد والشريف والولي.

وفيه: أن العبادة شاملة لجميع أنواعها، فمن دعا القبر، أو ذبح أو نذر، أو خاف من القبر أو صاحبه، فهو عابد لهذا الوثن.

قَوْلُهُ (اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ): أي: عظم غضب الله على من هذا حاله، وفيه إثبات صفة الغضب لله ﷻ، وهي من الصفات الفعلية، التي تليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والمعتزلة يفسرون الغضب بالانتقام، والأشاعرة يفسرونه بإرادة الانتقام؛ لأن الأشاعرة يثبتون صفة الإرادة.

والرد عليهم: أن الانتقام هو لازم الغضب، والله قد فرق بينهما، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم.

وقال الله ﷻ: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [النساء: ٩٣].

قَوْلُهُ (اتَّخَذَوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ): أي: جعلوها مساجد، وسواء كان ذلك بالبناء عليها، وتشييدها، أو كان ذلك بالدعاء والصلاة عندها، فإن كانوا يدعونها من دون الله ﷻ، فوجه المنع ظاهر، وهو الشرك الأكبر الذي وقعوا فيه،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٠٢٣)، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، عَنْ عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وإن كانوا يدعون الله عندها فالمنع سدًا لذرائع الشرك.

وذهب المبتدعة إلى أن النهي عن اتخاذ القبور مساجد، إنما هو لنجاسة المحل، وهذا قول ضعيف، فإن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض، والمؤمن لا ينجس، ومع ذلك نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد لما تقدم مما يحصل عندها ولها من المشاركة والمضاهاة لله تعالى، وهذا القول منهم من الحيل التي يُلبِّسون بها على العوام الجهال.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩] قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ.

قَوْلُهُ (وَلابْنِ جَرِيرٍ): أي في تفسيره المسمى بـ"**جامع البيان**" (٢٢/ ٤٧).

قَوْلُهُ (بِسَنَدِهِ): أي سلسلة الرجال الموصلة إلى المتن وهي هنا قال حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ - وهو محمد بن بشار الملقب ببندار ثقة - قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ - وهو ابن مهدي أبو سعيد ثقة - قَالَ: ثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ.

وابن جرير الطبري هو صاحب التفسير، وتفسيره من أوسع التفاسير؛ لأنه جاء بالأسانيد، و"**تفسير ابن كثير**" يعتبر ملخصًا لذلك التفسير، واتهم رَحِمَهُ اللَّهُ بتهم كثيرة، ومع ذلك ألف كتابًا بعنوان: "**صريح السنة**"؛ يبين فيه المعتقد الصحيح، فالداعي إلى الله إذا اتهم بشيء يجب عليه البيان، النبي ﷺ لما مشى بصفية، ورآه رجلان من الأنصار، قال: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ»[(١)]، واستدل العلماء بهذا الحديث على أن طالب العلم والداعي إلى الله ينبغي أن يبين ما هو عليه؛ لأن الناس إذا نفروا منه نفروا من علمه، وقد جعلت في كتابي: "**الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية**" بابًا لردِ الإشاعات، وذكرت فيها مثل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى: ١-٢]، هذه السورة أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ ردًا على امرأة، زعمت أن محمدًا ﷺ قلاه ربه، كما جاء عند البخاري (١١٢٥)، ومسلم (١٧٩٧) من حديث جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنبي ﷺ يقول: «ذُبُّوا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بِأَمْوَالِكُمْ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ»[١]. **قَوْلُهُ (عَنْ سُفْيَانَ):** هـو ابـن سـعيد الثـوري أميـر المؤمنين في الحديث، كان قوّالًا بالحق، عرض عليه القضاء فأبى.

قَوْلُهُ (عَنْ مَنْصُورٍ): وهو ابن المعتمـر. قـال الـذهبي رَحِمَهُ اللهُ في "**سير اعلام النبلاء**" (٦/ ١٣١): قَالَ العَلَاءُ بنُ سَالِمٍ: كَانَ مَنْصُوْرٌ يُصَلِّي فِي سَـطْحِه، فَلَمَّـا مَاتَ، قَالَ غُلاَمٌ لأُمِّهِ: يَا أُمَّه! الجِذعُ الَّذِي فِي سَطحِ آلِ فُلاَنٍ، لَيْسَ أَرَاهُ؟ قَالَـتْ: يَا بُنَيَّ لَيْسَ ذَاكَ بِجِذعٍ ذَاكَ مَنْصُوْرٌ، وَقَدْ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ.اهـ

قَوْلُهُ (عَنْ مُجَاهِدٍ): وهو ابن جبر الإمام المكي، قَالَ: عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَـاتٍ، أُوقِفُـهُ عَلَـى كُـلِّ آيَـةٍ، أَسْـأَلُهُ فِيمَـا نَزَلَـتْ، وَكَيْـفَ كَانَتْ؟[٢]، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَـنْ مُجَاهِـدٍ، فَحَسْـبُكَ بِـهِ[٣]؛ لأنه تلقاه من ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الذي قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِـي الـدِّينِ**»[٤]. وعند أحمد في "**المسند**" (٢٣٩٧) «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**».

قَوْلُـهُ (﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [الـنجم: ١٩] **قَـالَ: (كَـانَ يَلُـتُّ لَهُـمُ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ):** تقـدم الكـلام عـلى الـلات، وأن لـه معنيان عند أهل العلم: الأول: أنه اشتق من الإله، والثاني: أنه نسبة إلى رجل كـان يلت السويق لأهل مكة، وهي صخرة بالطائف بني عليها بيت، وصاروا يعبدونـه من دون الله. والعزى تقدم الكلام عليها، وهي شجرة بين مكة والطـائف، ومنـاة في المشلل على ساحل البحر.

قَوْلُهُ (وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءَ): هو الحارث بن ربعـي. **قَوْلُـهُ (كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ):** فاشتق اسمه من صنعته.

---

(١) أخرجه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١٠٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٨٥).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

قَوْلُهُ (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ): أي دعا باللعن على زائرات القبور.

وقَوْلُهُ: (زَائِرَاتِ الْقُبُورِ): جمع زائرة، والزيارة: هي الخروج إلى المقابر، ومنه الممنوع والمشروع، فالمشروع: ما كان للاتعاظ والدعاء للموتى، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْمَوْتَ» أخرجه مسلم (٩٧٦)، وفي لفظ له (٩٧٧): «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا»، والممنوع منه البدعة، وهي الزيارة التي تصاحبها البدع من نياحة ونحوها. والشركية: ما كان فيها دعاء المقبورين وصرف العبادات لهم.

وأما زيارة القبور للنساء، فقد اختلف العلماء فيها: فمنهم من حرمها مطلقًا، ومنهم من كرهها، ومنهم من أباحها، ومنهم من استحبها.

والصحيح: جوازها إذا خلت من الفتن، والدليل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها في مسلم (٩٧٤): قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ..» الحديث. وحديث أم عطية رضي الله عنها، قالت: «نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا» أخرجه البخاري (١٢٧٨) ومسلم (٩٣٨)، والشاهد قوله: «وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا» أي: في النهي.

والحاصل: أن النساء يقع منهن التسخط، وربما التكشف، والبدع والخرافات إلا من رحم الله عز وجل.

قَوْلُهُ (وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ): أي: المتخذين على القبور المساجد؛

لأن ذلك من ذرائع الشرك، ومن صنيع المشركين.

قَوْلُهُ (وَالسُّرُجَ): جمع سراج، وهي ما توقد على القبور ليلًا، فإن هذا يفضي إلى التعظيم والشرك، فحرمه الشارع سدًا لذرائع الشرك.

وهذا دليل على أن كل ما تضمنه الحديث كبيرة من كبائر الذنوب، وربما يصل إلى الشرك إذا قُصد به صرف العبادة، والاعتقاد: أن هذه القبور تنفع وتضر مع الله أو من دون الله ﷻ.

وفي الحديث دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، حيث وقد ظهرت مثل هذه الأفعال في بلاد الإسلام، بل إن بعضهم يكسو القبور ويجعل عندها المباخر وأفضل الطيب ويزخرفونها ويبنون حولها وفوقها القباب فيقعون في مخالفات كثيرة:

- منها: تشييد القبور، والسنة بالنهي عن تجصيصها.
- ومنها: رفع القبور، والسنة تسويتها.
- ومنها: الكتابة عليها، والسنة بمنع ذلك.
- ومنها: بناء القباب عليها، والسنة بهدمها.
- ومنها: الإسراف مع أنه من المحرمات.
- ومنها: مشابهة الكفار مع الوعيد الشديد في ذلك.
- ومنها: الغلو، وغير ذلك مما يطول ذكره.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ) تطلق على السنن الأربع، وهي سنن أبي داود (٣٢٣٦) للإمام سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، وسنن النسائي (٢١٨١) للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني (المتوفى: ٣٠٣هـ)، وجامع الترمذي (٣٢٠) للإمام محمد بن عيسى بن سورة

أبو عيسى، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، وسنن ابن ماجه (١٥٧٥) للإمام محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ).

وله شاهد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٨٦٧٠، ١٥٦٥٧)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٤) بلفظ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زُوَّارَاتِ الْقُبُورِ»، وقد قيل بأنَّ زوارات القبور هن المسبلات اللاتي يدعين علم حال المقبورين، وهذا الصنيع من الدجل وربما كان لتلبس الشياطين بهؤلاء النساء فلا شك في لعن من هذا حاله.

***

٢١- بَابُ مَا جاءَ فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ.

قَوْلُهُ (**بَابُ مَا جَاءَ**) أي من الأدلة والنصوص عن النبي ﷺ (**فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ**) والدفاع عنه (**وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ**).

وقد كنت سقت في كتابي "**فتح المجيد ببيان هداية القرآن للتوحيد**" هذا المبحث، وأسوقه باختصار لأهميته ولأني بحمد الله لم أر من جمعه بهذه السياقة، قلت فيه:

فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد بيَّنَ في القرآن ما يلزم من سد ذرائع تلك المخالفات الشرعية، وفي هذا الباب نجد أنَّ الإسلام حرَّم الشرك وكلَّ وسيلة تؤدي إلى الشرك، فمنها:

أولا: سد ذريعة الغلو:

فمما حرَّمَه الله عَزَّ وَجَلَّ الغلو، [وقد تقدم الكلام عنه في الأبواب قبل هذا فلا داعي للتكرار].

ثانيًا: سدُّ ذريعة اتباع الهوى:

ومن سد ذرائع الشرك، البعد عن إتِّباع الهوى، فإن أغلب ما جرَّ الكفار إلى عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ والرضا بالطاغوت وعبادته، لهو إتِّباع الهوى والركون إلى أهله، ولهذا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الراغب رحمه الله **: الْهَوَى:** ميل النفس إلى الشهوة. ويقال ذلك للنَّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقيل: سمِّي بذلك لأنَّه يَهْوِي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ، وَالْهُوِيُّ: سقوط من علو إلى سفل، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾ [القارعة: ٩] قيل: هو مثل قولهم: هَوَتْ أمُّه أي: ثكلت. وقيل: معناه مقرُّه النار، والْهَاوِيَةُ: هي النار.

وقيل: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: خالية كقوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: ١٠]، وقد عظَّم الله تعالى ذمَّ إتِّباع الهوى، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ [البقرة: ١٢٠] فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيها على أنَّ لكلِّ واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كلِّ واحد لا يتناهى، فإذا إتِّباع أهوائهم نهاية الضَّلال والحيرة.

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: ٧١] أي: حملته على إتِّباع الهوى. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [المائدة: ٧٧]، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ [الأنعام: ٥٦]، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. اهـ. **"مفردات غريب القرآن"** (٥٤٨).

وقال الشوكاني رحمه الله **:** ثُمَّ عَجِبَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَالِ الْكُفَّارِ فَقَالَ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ذَلِكَ الْكَافِرُ اتَّخَذَ دِينَهُ مَا يَهْوَاهُ فَلَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْبُدُ مَا يَهْوَاهُ أَوْ يَسْتَحْسِنُهُ، فَإِذَا اسْتَحْسَنَ شَيْئًا وهويه اتخذه إلهًا. قال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا رَأَى مَا هُوَ

أَحْسَنُ مِنْهُ رَمَى بِهِ وَعَبَدَ الْآخَرَ. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أَيْ: عَلَى عِلْمٍ قَدْ عَلِمَهُ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَضَلَّهُ عَنِ الثَّوَابِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُ ضَالٌّ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الصَّنَمَ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَى سُوءٍ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ ضَالٌّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ.اهـ. **"فتح القدير"** (٦/ ٤٤١-٤٤٢).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

قال الشوكاني رحمه الله: ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا تَمَسُّكَ لَهُمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ سِوَى التَّقْلِيدِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَقَالَ مُعَجِّبًا لِرَسُولِ الله ﷺ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أَيْ: أَطَاعَ هَوَاهُ طَاعَةً كَطَاعَةِ الْإِلَهِ، أَي: انْظُرْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ وَتَعَجَّبْ مِنْهُ. قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَى الْآيَةِ لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا اتَّبَعَهُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ، أَيْ: أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ حَفِيظًا وَكَفِيلًا حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَتُخْرِجَهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُطِيقُهُ، فَلَيْسَتِ الْهِدَايَةُ وَالضَّلَالَةُ مَوْكُولَتَيْنِ إِلَى مَشِيئَتِكَ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ.

وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وقَالَ تَعَالَى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ

وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥].

وكم بيَّن الله ﷻ في كتابه خطر إتِّباع الهوى وحذر من إتِّباع أهواء المشركين والمعرضين عن دين الله ﷻ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: ٨٧].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾ [المائدة: ٧٠]. هذا حال اليهود مع أنبيائهم.

ثم بيَّن الله تعالى خطورة إتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]،

وقال: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: ١٦]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، وقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠].

وكل هذه الآيات وما لم تذكر لتدل دلالة صريحة على أن إتباع الهوى سبب الشرك، فلذلك حرمه الله تعالى سدًا للذريعة وإقامة للشريعة.

ثالثًا: من سَدِّ ذرائع الشرك تقديم النقل على العقل:

ومن ذلك أن الله ﷻ أمر بالعودة إلى الكتاب والسنة، وخالف في ذلك

المشركون ومن إليهم فقدموا العقل على النقل فضلوا ضلالًا بعيدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف:٣]، وقَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾. [النساء: ٥٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: **وقوله**: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيْ: إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ.

وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يُرَدَّ التَّنَازُعَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشُّورَى: ١٠] فَمَا حَكَمَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَشَهِدَا لَهُ بِالصِّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أَيْ: ردوا الخصومات والجهالات إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَجَالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أَيِ: التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. وَالرُّجُوعُ فِي فَصْلِ النِّزَاعِ إِلَيْهِمَا خَيْرٌ ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ أَيْ: وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا كَمَا قَالَهُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَأَحْسَنُ جَزَاءً. وهو قريب.اهـ. "**تفسير القرآن العظيم**" (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

وأما تقديم العقل على النقل فهو قول مخالف لدلالة العقل والنقل معًا. فلو كانت العقول تهدي السبيل مجردة لكان إنزال الكتاب وإرسال الرسول تحصيل حاصل، بل إن الله أنزل الكتاب وأرسل الرسول وجعل وحيه وتنزيله هو ما يتحتم الأخذ به بعيدًا عن الأهواء المضلة والفتن المزلة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وكم من الآيات البيِّنات والأحاديث الصحيحات الواضحات في وجوب الأخذ بالكتاب والسنة.

وما ثبت وأجمع عليه سلف الأمة ولم يرد في دليل واحدٍ نصًا، ولا ظاهرًا، بالأخذ بالعقل فضلًا عن تقديمه على النقل، فيا لله كم من عبدٍ انحرف عن سواء السبيل بسبب هذا الطاغوت الذي لا يدل عليه دليل من سنة ولا تنزيل وقد تكلم العلماء في بيان ضلال هذا الطاغوت بكلام كثير يشفي العليل ويروي الغليل يتابعه من أراد أكثر مما ذكر.

رابعًا: سد ذريعة تشييد القبور واتخاذها مساجد:

ومن ذلك نهيه عن اتخاذ القبور مساجد بحيث يُصلى إليها أو عندها، وما ذلك إلا لما تفضي إليه هذه البدعة من الشرك العظيم، وقد زعم عُبَّاد القبور أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إنما نهى عن الصلاة في المقبرة خشية النجاسة، وهذا قول عاري من الصحة، بل الكتاب والسنة والنظر يرده. وإنما نهى عنه سدًّا لذريعة الشرك الذي لا يغفره الله.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بني عليه مسجد، فلا يصلي في هذا المسجد سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1]. وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم؛ واتخاذها مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن عليه بني مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلي فيه يسمى مسجدًا، كما قال ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[2]. وإن كان موضع قبر أو قبرين، وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولًا لتحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز، ولا يصلى فيه على غير الجنائز. وذكر حديث أبي مرثد رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لَا تُصَلُّوا عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢)، عنْ جُنْدَبٍ رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، تقدم.

الْقُبُورِ»[(١)]. وقال: إسناده جيد. انتهى من "**فتح المجيد**" (٢٤٣) للشيخ عبد الرحمن التميمي.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد، وغيّروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد، فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص المقبرة المسبلة، والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى، وهذا كله باطل من وجوه.

خامسًا: سد ذريعة الشرك بالنهي عن العصبية:

ومن ذلك: العصبية وهي داخلة تحت التقليد فإن الكفار تعصبوا لبعضهم ولقومهم ولآلهتهم فما زالوا في غيِّهم يعمهون وللباطل معاقرون ومعاشرون، قال الله عَجَلَّ هاديًا للتي هي أقوم ومحذرًا من هذا الداء العضال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾ [الفتح: ٢٦].

وقد أمر الله عَجَلَّ بالأخوة فيه فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

---

(١) اخرجه مسلم (٩٧٢).

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

سادسًا: سد ذريعة الشرك بالنهي عن مودة الكفار:

وحرَّم الله تقليد الكافرين ومودتهم ومشابهتهم لما يجر ذلك من كل شر، قَالَ تعَالَى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وقَالَ تعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

سابعًا: سد ذريعة الشرك بعبادة الله في أماكن عبادة المشركين:

وكذلك حرَّم الله تعالى التعبد له في أماكن عبادتهم، [وقد تقدم الكلام عند باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟].

ثامنًا: سد ذريعة الشرك بتحريم التقليد:

وحرَّم الله التقليد وهو باب من أبواب الشرك، قَالَ اللَّهُ تعَالَى مخبرًا عن الكفار: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢١-٢٥].

قال الشوكاني رحمه الله: ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ بِأَيْدِيهِمْ وَلَا شُبْهَةَ وَلَكِنَّهُمُ اتَّبَعُوا آبَاءَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ فَقَالَ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ سِوَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ، وَمَعْنَى ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: عَلَى طَرِيقَةٍ وَمَذْهَبٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: هِيَ الطَّرِيقَةُ وَالدِّينُ، وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْأُمَّةُ الطَّرِيقَةُ وَالدِّينُ، يُقَالُ فُلَانٌ لَا أُمَّةَ لَهُ: أَيْ لَا دِينَ لَهُ، وَلَا نِحْلَةَ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:

كُنَّا عَلَى أُمَّةِ آبائنا ... ويَقْتَدِي الآخِرُ بالأَوَّلِ

وقول الآخر: «وهل يستوي ذو أُمَّةٍ وَكَفُورُ...»، وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَقُطْرُبٌ: عَلَى قِبْلَةٍ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: عَلَى اسْتِقَامَةٍ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ النَّابِغَةِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ أُمَّةٍ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِكَسْرِهَا. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْإِمَّةُ بِالْكَسْرِ: النِّعْمَةُ، وَالْإِمَّةُ: أَيْضًا لُغَةٌ فِي الْأُمَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ:

ثمّ بعد الفلاح والملك والإمة ... وَارَتْهُمْ هُنَاكَ قُبُورُ

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ غَيْرَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ وَقَالَ بِهَا فَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾: أَغْنِيَاؤُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا، قَالَ قَتَادَةُ: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ مُتَّبِعُونَ، وَمَعْنَى الِاهْتِدَاءِ وَالِاقْتِدَاءِ مُتَقَارِبٌ، وَخَصَّصَ الْمُتْرَفِينَ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ التَّنَعُّمَ هُوَ سَبَبُ إِهْمَالِ النَّظَرِ. وَقَدْ أَوْضَحْتُ هَذَا غَايَةَ

الْإِيضَاحِ فِي كِتَابِي الَّذِي سَمَّيْتُهُ "**أَدَبَ الطَّلَبِ وَمُنْتَهَى الْأَرَبِ**" فارجع إليه إن رمت أن تجلي عنك ظلمات التعصب وتتقشع لَكَ سَحَائِبُ التَّقْلِيدِ. اهـ. "**فتح القدير**" (٦/ ٣٩٩-٤٠١)، مختصرًا.

وقد قال الله ﷻ ذامًّا للكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١].

تاسعًا: سد ذريعة الشرك بالنهي عن القياس الفاسد:

ومن ذرائع الشرك القياس الفاسد، فقد زعم إبليس عليه لعنة الله تعالى أنه خير من آدم عليه السلام معتمدًا على قياس فاسد، بل وجميع المشركين سلكوا هذا السبيل معتمدين على هذا النوع من القياس الفاسد قاسوا المخلوق بالخالق، والخالق بالمخلوق.

ونذكر هنا ما يتعلق بالباب حيث إن المشركين عبدوا الأصنام بقياسهم الفاسد فقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٨]، من حيث أنها تشفع وتنفع وترفع وتدفع، فصرفوا لها الصلاة، والدعاء، والنذر، والخوف، والرجاء، والتوكل، وغير ذلك من العبادات القلبية، والقولية، والفعلية.

وهنالك رسالة من الجامعة الإسلامية "**حول القياس الفاسد وأثره على العقيدة**"، فلينظر فيها.

عاشرًا: سد ذريعة الشرك بالنهي عن القول على الله بلا علم:

ومن سبل سد الذرائع: نهيه عن القول على الله بلا علم، فهو رأس كل شرٍّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد عدَّ بعض أهل العلم القول على الله تعالى بلا علم من أعظم الذنوب إذ منه وبه يقع الشرك، واستدل على ذلك بترتيب الآية من الأدنى إلى الأعلى.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِحَقِيقَتِهِ وَأَنَّ اللَّهَ قَالَهُ، وَهَذَا مِثْلُ مَا كَانُوا يَنْسُبُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ التَّحْلِيلَاتِ وَالتَّحْرِيمَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْذَنْ بِهَا. اهـ من «**فتح القدير**» (٣/ ٣١).

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَقُولُ: لَا تَقُلْ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بن الحَنفية: يَعْنِي شَهَادَةَ الزُّورِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تَقُلْ: رَأَيْتُ، وَلَمْ تَرَ، وَسَمِعْتُ، وَلَمْ تُسْمِعْ، وَعَلِمْتُ، وَلَمْ تَعْلَمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ، بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالْخَيَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الْحُجُرَاتِ: ١٢]، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أكذبُ الْحَدِيثِ». وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: «بِئْسَ مطيةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِنَّ أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِي عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا». وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ تَحَلَّمَ حُلْمًا كُلف يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرتين، وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ».

وقولُهُ: ﴿كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ ﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أَيْ: سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وتُسأل عَنْهُ وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا. وَيَصِحُّ اسْتِعْمَالُ أُولَئِكَ مَكَانَ تِلْكَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنزِلَةِ اللِّوَى ... وَالْعَيْشَ بَعْدَ أولئِكَ الْأَيَّامِ

انتهى من "**تفسير القرآن العظيم**" (٥/ ٧٥).

وقال الشوكاني رحمه الله: وَمَعْنَى الْآيَةِ: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَعْلَمُ أَوْ يَعْمَلُ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ، وَقَدْ جَعَلَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ خَاصَّةً بِأُمُورٍ. اهـ من "**فتح القدير**" (٤/ ٣٠٩).

فالقول على الله بلا علم هو مفتاح كل شر من شرك وبدعة وغيرها.

الحادي عشر: سد ذريعة الشرك بالنهي عن الجهل:

ومنها: نهي الله عز وجل عن الجهل وترغيبه في العلم لأن كل بلاء سببه الجهل بدين الله عز وجل وكل خير ناتج عن العلم بالله عز وجل وبدين الله تعالى.

قال الراغب رحمه الله في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" (١/ ١٦٦-١٦٥):

الإنسان في الجهل على أربع منازل:

الأول: من لا يعتقد اعتقادًا لا صالحًا ولا طالحًا، فأمره في إرشاده سهل، إذا كان له طبع سليم، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النظري: غُفل، وباعتبار العلم العملي: غُمر، ويقال له: سليم الصدر.

والثاني: معتقد لرأي فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به، واستنزاله عنه سهل وإن كان أصعب من الأول فإنه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاو وضال.

والثالث: معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه، وتراءت لـه صـحته فـركن إليـه لجهله وضعف نحيزته، فهو ممن وصفه اللَّه تعـالى بقولـه: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾، فهذا ذو داءٍ أعيا الأطباء فما كل داءٍ لـه دواء، فلا سبيل إلى تهذيبه وتنبيهه، كما قيل لحكيم يعظ شيخًا جاهلًا: ما تصـنع، فقال: أغسل مسحًا لعله يبيض.

والرابع: معتقدًا اعتقادًا فاسـدًا عـرف فسـاده، أو تمكـن مـن معرفتـه، لكنـه اكتسب دنيـة لرأسـه، وكرسـيًّا لرئاسـته، فهـو يحـامي عليهـا فيجـادل بالباطـل ليدحض به الحق، ويذم أهل العلـم ليجـر إلى نفسـه الخلـق، ويقـال لـه: فاسـق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾، وقولــــــه: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فنبَّـه تعـالى أنهـم ينكـرون مـا يقولونـه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه، ولكـن يسـتكبرون عـن التـزام الحـق وذلـك حـال إبليس فيما دعي إليه من السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. اهـ.

الثاني عشر: سد ذريعة الشرك بالأمر بالهجرة:

ومن ذلك أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالهجرة ومباينة الكفار، فكم من الآيات التي حث الله عَزَّوَجَلَّ فيها على الهجرة وفضلها وحذر فيها من مخالطة الكفار لما فيها من أضرار دينية ودنيوية على المسلم، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى في فضل الهجرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨]، إلى غيرها من الآيات.

وقال محذرًا من البقاء بين ظهراني الكفار وتكثير سوادهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٨٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وتكون الهجرة واجبة إذا كان لا يستطيع أن يقيم دينه أو كان في تحوله إلى المسلمين تكثيرًا لسوادهم وإعانة لهم على دينهم.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: أقسام الهجرة: الهجرة تكون للعمل، وتكون للعامل، وتكون للمكان.

القسم الأول: هجرة المكان: فأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي، ويكثر فيه الفسوق، وربما يكون بلد كفر إلى بلد لا يوجد فيه ذلك، وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلم إنه يجب على الإنسان أن يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان غير قادر على إظهار دينه.

وأما إذا كان قادرًا على إظهار دينه، ولا يعارض إذا أقام شعائر الإسلام؛ فإن الهجرة لا تجب عليه، ولكنها تستحب، وبناء على ذلك يكون السفر إلى بلد الكفر أعظم من البقاء فيه، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطن الإنسان؛ إذا لم يستطع إقامة دينه فيه؛ وجب عليه مغادرته، والهجرة منه. فذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام، ومن بلاد المسلمين؛ فإنه لا يجوز له أن يسافر إلى بلد الكفر؛

لما في ذلك من الخطر على دينه، وعلى أخلاقه، ولما في ذلك من إضاعة ماله، ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار، ونحن مأمورون بأن نغيظ الكفار بكل ما نستطيع، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالكافر أيًا كان، سواء كان من النصارى، أو من اليهود، أو من الملحدين، وسواء تسمى بالإسلام أم لم يتسم بالإسلام، الكافر عدو لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين جميعًا، مهما تلبس بما تلبس به؛ فإنه عدو!!. اهـ من "**شرح رياض الصالحين**" للعثيمين (١/ ٥-٩).

الثالث عشر: سد ذرائع الشرك بالنهي عن مجالسة الكافرين:

نهيه عن مجالسة المشركين الذين يخوضون في آيات الله ﷻ بالباطل، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

قال ابن كثير ؒ: أَيْ: إِذَا ارْتَكَبْتُم النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ. اهـ من "**تفسير القرآن العظيم**" (٢/ ٤٣٥).

وقد تكلمنا عن خطر مجالسة أهل البدع في عدة من كتبي، وفي مجالسة الكافرين من باب أولى لضررها على اللب والدين، وبالله العون.

بينما نجد في المقابل حث القرآن على مجالسة المؤمنين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال الشنقيطي رحمه الله: نَهَى اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ تَعْدُوَ عَيْنَاهُ عَنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَفُقَرَائِهِمْ، طُمُوحًا إِلَى الْأَغْنِيَاءِ وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَعْنَى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، أَيْ: لَا تَتَجَاوَزْهُمْ عَيْنَاكَ وَتَنْبُو عَنْ رَثَاثَةِ زِيِّهِمْ، مُحْتَقِرًا لَهُمْ طَامِحًا إِلَى أَهْلِ الْغِنَى وَالْجَاهِ وَالشَّرَفِ بَدَلًا مِنْهُمْ.

وقال رحمه الله: وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ طُمُوحِ الْعَيْنِ إِلَى زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مَعَ الِاتِّصَافِ بِمَا يُرْضِيهِ جَلَّ وَعَلَا مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، كَمُجَالَسَةِ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَشَارَ لَهُ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣٠-١٣١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الْآيَةَ [الحجر: ٨٧-٨٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

نَهَى اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ طَاعَةِ مَنْ أَغْفَلَ اللَّهُ

قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقَدْ كَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ نَهْيَ نَبِيِّهِ ﷺ عَنِ اتِّبَاعِ مِثْلِ هَذَا الْغَافِلِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِ هَوَاهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ الْآيَةَ [الأحزاب: ٤٨]، **وقولُهُ** تَعَالَى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ٨-١٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ أَمَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُتَوَلِّينَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غَيْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]. اهـ من «**أضواء البيان**» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣).

الرابع عشر: سد ذريعة الشرك بتصحيح الألفاظ:

ومن هذا الباب: تصحيح الألفاظ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقد عمل رسول الله ﷺ بهذه الآية وغيرها محذرًا من الحلف بغير الله ﷻ، وحذر من قول: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ».

عَنْ طُفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ رضي الله عنه، أَخِي عَائِشَةَ رضي الله عنها لِأُمِّهَا، أَنَّهُ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللَّهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ النَّصَارَى، فَقَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا

أَصْبَحَ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قَالَ عَفَّانُ: قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا صَلَّوْا، خَطَبَهُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا فَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ، أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا»، قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ». أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٧١٣)، والدارمي (٢٦٩٩)، وأبو يعلى (٤٦٥٥)، وهو حديث صحيح.

وعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». أخرجه أبو داود (٤٩٨٨)، وابن ماجه (٢١١٨)، وهو حديث صحيح.

وعَنْ قُتَيْلَةَ، امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ»[(١)]. أخرجه النسائي في "**السنن الكبرى**" (١٠٧٥٦،٤٦٩٦) وهو حديث صحيح.

وقد تكلمت على هذا الباب بتوسع في كتابي "**معجم المصطلحات العصرية وأثره على الشريعة الإسلامية**".

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٢٧) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.[التوبة: ١٢٨-١٢٩]

قوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: يقول لقد جاءكم أيها القوم رسول الله إليكم من أنفسكم، والخطاب قيل للعرب، وقيل: بل هو عام لجميع الأمة، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس، أي: ليس من الملائكة، ولا من الجن.

قوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: أي: صعب عليه، فإن العين والزاي في لغة العرب تدل على الصلابة، ومنه أرض عزاز.

قوله ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: ما مصدرية، أي: عنتكم ومشقتكم، مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: الحرص بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، فكان رسول الله ﷺ جامع بين الأمرين، دفع المكروه، وحصول المحبوب.

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: بالمؤمنين، خبر مقدم يفيد الحصر، والرأفة أشد الرحمة، أفاده الشنقيطي.

والشاهد من الآية: أن النبي ﷺ سد ذرائع الشرك؛ لأنه رحيم بهذه الأمة، ويخاف عليهم التعب والنصب والمشقة، فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، وقد تقدم شيءٌ من بيان ذلك ولله الحمد والمنة.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

قَوْلُهُ (لا تَجْعَلُوا): أي لا تصيروها فإن جعل تأتي بمعنى صير وهذا في القران كثير منه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] وقد غلط الجهمية والمعتزلة ومن إليهم حيث قالوا إن جعل بمعنى خلق، وقد تكلم العلماء هنا أن جعل تأتي بمعنى صير إذا نصبت مفعولين كما في هذه الآية، وتأتي بمعنى خلق إذا نصبت مفعولًا واحدًا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١].

قَوْلُهُ (بُيُوتَكُمْ قُبُورًا): أي: صلوا فيها. ومفهومه: أن القبور لا يصلى فيها، وهو موافق لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلاَّ الْمَقْبَرَةَ وَالحَمَّامَ» اخرجه الترمذي (٣١٧)، والحاكم في "**المستدرك**" (٩١٩).

قَوْلُهُ (وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا): أي: مكانًا تعتادون المجيء إليه، والدعاء عنده، فإن العيد مشتق من العود.

وقد ألف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة في تحريم شد الرحال إلى قبر النبي ﷺ فقام عليه الناس وضجوا وقالوا: هذا لا يعظم النبي ﷺ، وهو إنما بين أن الحق هو زيارة المسجد النبوي، لا شد الرحل لزيارة القبر، وإذا وصلت إلى المدينة استحب لك زيارة القبر.

قَوْلُهُ (وَصَلُّوا عَلَيَّ): والصلاة عليه تكون امتثالًا لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» أخرجه مسلم (٣٨٤).

قَوْلُهُ (فَإِنَّ صلاتَكمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ): أي: يبلغه الله ﷻ إياها. ففي سنن أبي داود (٢٠٤١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»، ويستدل الصوفية بمثل هذا الحديث على تجويز دعاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا دلالة لهم فيه فهذه حياة برزخية خاصة، وسماع خاص، فإن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يعلم ما أحدث الناس بعده.

وأكمل الصلاة على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ما صح عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُولُوا اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).

آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»(١).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»(٢).

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ): في «**سننه**» (٢٠٤٢) من طريق عَبْدِ اللَّهُ بْنُ نَافِعٍ الزبيري قال ابن معين فيه: ثقة، وقال أبو زرعة: لا بأس به.

قَوْلُهُ (بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ): جمع المصنف رحمه الله بين قَوْلُهُ (بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ)، و(رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ): مع أن الحسن الذي يكون في طبقة من طبقاته صدوق، لأن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ نَافِعٍ كما ترى قد وثق، واختلفت عبارات العلماء فيه، والراجح أنه حسن الحديث، والله أعلم.

***

(١) أخرجه مسلم (٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥٨).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عليِّ بن الحُسَيْن: أَنَّهُ رَأَى رَجُلا يَجِيءُ إلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِند قَبْر النَّبيِّ ﷺ، فيَدخُل فِيهَا فيَدعُو، فنَهَاهُ، وقَال: أَلا أُحدِّثُكمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جدِّي، عَنْ رَسُولِ اللّه ﷺ؟ قَال: «لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلا تَتَّخِذوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسلِيمَكمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَما كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي "المُخْتَارَةِ".

قَوْلُهُ (وَعَنْ عَليِّ بنِ الحُسَيْنِ): هو زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهما جميعًا، كان رجلًا صالحًا زكيًا، والرافضة ينتحلونه وليس منهم.

قَوْلُهُ (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِندَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ): أي: رأى رجلًا يدخل من فتحة إلى القبر، وتكرار المجيء إلى القبر يدل على اعتقاد مزية، وفضل، وهذا من ذرائع الشرك، والله المستعان.

قَوْلُهُ (فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ): فيه: النهي عن المنكر، وفيه ما عليه الناس من المسارعة في ما ليس عليه دليل من الكتاب أو السنة، وخطر الاستحسان.

قَوْلُهُ (وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟): فيه: سوق الحجة لبيان بطلان شيء أو ثبوته.

قَوْلُهُ (قَالَ: لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَما كُنْتُمْ): تقدم الكلام عليه.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ فِي "المُخْتَارَةِ"): أي: الضياء عبد الغني المقدسي صاحب "**المختارة**"، قال ابن كثير في "**اختصار علوم الحديث**" (٢٩): وقد جمع

الشيخ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي في ذلك -أي في الصحيح خارج "**الصحيحين**"- كتابًا سماه "**المختارة**" ولم يتم، كان بعض الحفاظ من مشايخنا يرجحه على مستدرك الحاكم. والله أعلم. اهـ.

والحديث أخرجه في "**المختارة**" رقم (٤٢٨) دون قوله: «وَصَلُّوا عَلَيَّ»، وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٧٥٤٢) وغيره من طريق زَيْد بْن حُبَابٍ، ثنا جَعْفَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، مِنْ وَلَدِ ذِي الْجَنَاحَيْنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَين وفيه علتان:

الأولى: جعفر بن إبراهيم مترجم في "**تأريخ البخاري**"، و"**الجرح والتعديل**" لابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا.

والثانية: علي بن عمر بن الحسين قال الحافظ في "**التقريب**": مستور.

والحديث حسن بما تقدم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

***

٢٢- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَان

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ): ومناسبة هذا الباب للترجمة الرد على من أنكر ذلك من الصوفية والرافضة والباطنية الذين يزعمون أن الشرك غير موجود في الأمة، ويستدلون بحديث جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النبي ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[(١)]، مع أنهم يشيدون القباب، ويذبحون لها ويعبدونها ويدعونها ويرجونها ويخافون منها، ويتوكلون عليها ويطوفون بها، ويبكون عندها ويطلبون منها المدد والغوث... إلى غير ذلك، والرد عليهم من أوجه:

الأول: جاء في "**صحيح مسلم**" (٢٩٠٧) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى»، وعند البخاري «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. وفي مسلم (٥٣٢) أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «...أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ، فإنه حذر من ذلك، ونهى عن تزيين المساجد وتجصيص القبور والكتابة عليها، وكل ذلك قد وقع.

الثاني: الواقع يدل على وجود الشرك في جزيرة العرب، فكم من الناس من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢).

كان يعبد قبر ابن عباس في الطائف، وقبر النبي ﷺ وقبور أزواجه وقبر الحسن وقبور غيرهم في المدينة، وفي اليمن، وفي نجد والحجاز، كقبر زيد بن الخطاب في اليمامة.

الثالث: لا يزال اليهود والنصارى موجودين في جزيرة العرب، مع أن النبي ﷺ أخبر أنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، أي: اجتماعًا شرعيًا.

فمعنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»، أي: أن يجتمع الناس على عبادته، وأن يعود الشرك ظاهرًا كما كان مع خفاء الإسلام، فهذا لا يكون إلا قبل قيام الساعة فتقوم الساعة وليس في الأرض من يقول: «اللهُ، اللهُ»، كما صح عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عند مسلم (١٤٨).

أما مع بقاء الإسلام فلا يزال الإسلام ظاهرًا قويًا مع وجود الشرك، والكفر والنفاق، وقد كان النفاق موجودًا في عهد رَسُولِ اللهِ ﷺ فكيف بعهد غيره؟.

والنبي ﷺ أخبر أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان، وقد تقدم: أن الفرق بين مشركي هذا الزمان والمتقدمين من مشركي العرب: أن أولئك عرفوا معنى لا إله إلا الله فأبوا أن يقولوها، وهؤلاء قالوا: لا إله إلا الله، وناقضوها، فكانوا في الشرك سواء، وكانوا في فهم لا إله إلا الله لا سواء.

أولئك قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وهؤلاء لا يعلمون أن معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله، فتجده يعبد الهادي ولا يدري أن هذا يناقض لا إله إلا الله، وربما جعل هذا عين التوحيد، وكثير من الناس غالط في معنى الإله فيشرك مع ظنه أنه غير مشرك، وقد ألف المعلمي رحمه الله رسالة بعنوان "**رفع الإشتباه عن معنى الإله**" بين فيها ما عليه المشركون في كل زمان ومكان.

يقول مجد الدين المؤيدي:

يـا سـائلي عـني وعـن مـذهبي ... اسـمع كلامًـا كلـه فصـلُ
جـدي نبـيٌّ وإمامـي أبي ... وديـني التوحيـد والعـدلُ

ويريد بالتوحيد، توحيد المعتزلة، وأن الله ﷻ ليس له سمع ولا بصر، ولا يتكلم ولا يريد ولا يشاء ولا يغضب ولا يضحك.. إلى غير ذلك.

قَوْلُهُ (مَا جَاءَ): أي: ما ثبت في الكتاب والسنة في بيان هذه المسألة.

قَوْلُهُ (بَعْضَ): وليس الكل لما صح عن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ»(١)، وما صح عن جملة من الصحابة رضي الله عنهم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(٢).

قَوْلُهُ (الأُمَّةِ): هي الجماعة، والطائفة من الناس.

قَوْلُهُ (الأَوْثَانَ): هي الأصنام وغيرها جمع وثن، وقد تقدم الفرق بينهما.

***

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٩)، وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٣٠٥) لشيخنا مقبل رحمه الله، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١) عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، ومسلم (١٩٢٠)، عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه واللفظ له.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي ألم تعلم.

قوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي اليهود والنصارى، وهذا تعجب من حالهم، مع أنهم يقرأون الكتاب، ويعلمون الحق مع ذلك يخالفونه قصدًا وعمدًا، والمراد بهم في هذه الآية اليهود.

قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾: أي يصدقون به، والجبت: السحر، وقيل: الشيطان، وقيل: الكهان، وهو اسم عام على ما تقدم.

قوله ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: تقدمت معانيه في أول الكتاب، وهو ما تجاوز حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فيؤمنون بهما مع علمهم أنهما شرك قال ابن جرير في "تفسيره" (٧/ ١٤٠): وَذَلِكَ أَنَّ الْجِبْتَ وَالطَّاغُوتَ اسْمَانِ لِكُلِّ مُعَظَّمٍ بِعِبَادَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ طَاعَةٍ أَوْ خُضُوعٍ لَهُ، كَائِنًا مَا كَانَ ذَلِكَ الْمُعَظَّمُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ شَيْطَانٍ. وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَتِ الْأَصْنَامُ الَّتِي كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَعْبُدُهَا كَانَتْ مُعَظَّمَةً بِالْعِبَادَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ كَانَتْ جُبُوتًا وَطَوَاغِيتَ، وَكَذَلِكَ الشَّيَاطِينُ الَّتِي كَانَتِ الْكُفَّارُ تُطِيعُهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ السَّاحِرُ وَالْكَاهِنُ اللَّذَانِ كَانَ مَقْبُولًا مِنْهُمَا مَا قَالَا فِي أَهْلِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَكَذَلِكَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا مُطَاعَيْنِ فِي أَهْلِ مِلَّتِهِمَا مِنَ الْيَهُودِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، فَكَانَا جِبْتَيْنِ وَطَاغُوتَيْنِ. انتهى.

والشاهد من الآية: كون أهل الكتاب قد وقع منهم ما تقدم، فسيقع لهذه الأمة

نحوه، ودليله ما يأتي من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». أخرجه البخاري (٧٣٢٠).

قَوْلُهُ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي يخاطبونهم بغير الحق وهو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش ﴿أَهْدَىٰ﴾ أي أقوم طريق وأسده، وأعدله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدَّقوا، وانقادوا بشرع الله والتزموا هدي رسول الله ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾ أي طريقا وهذا غاية الضلال وتقليب الحقائق، ولبس الحق بالباطل، وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥٤٤١): عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ. فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ وَنَنْحَرُ الْكَوْمَاءَ، وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُّ الْعُنَاةَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَمُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ قَطَعَ أَرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ سُرَّاقُ الْحَجِيجِ بَنُو غِفَارٍ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُمْ؟ قَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قَوْلُهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي أصحاب هذا القول من اليهود ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، طردهم من رحمته وأخزاهم جزاء كتمهم للعلم، وعملهم بخلافه.

قَوْلُهُ ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢] أي: ومن يطرده الله من رحمته، ويُخزيه فلن تجد له معيناً من كان، وذلك بسبب قول واعتقاد لباطل، وكتم الحق، وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه الإمام أحمد (٧٥٧١)، وكان كلام عمرو بن العاص ﷺ مع النجاشي أحسن من كلام اليهود مع كفار قريش؛ لأن عَمْرو بْنَ الْعَاصِ، قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ

مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ، والقصة في "**مسند أحمد**" (١٧٤٠) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها.

وأخرج البيهقي في "**الأوسط**" (٣٩٠٦) عَنْ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفْدُ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتُّونَ رَاكِبًا، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَالْأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَيْهِمْ يَئُولُ أَمْرُهُمْ، الْعَاقِبُ أَمِينُ الْقَوْمِ وَذُو رَأْيِهِمْ، وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ، وَالَّذِي لَا يَصْدُرُونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ وَأَمْرِهِ، وَاسْمُهُ: عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ عَالِمُهُمْ، وَصَاحِبُ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أُسْقُفُّهُمْ وَحَبْرُهُمْ وَإِمَامُهُمْ، وَصَاحِبُ مَرَامِيهِمْ وَكَانَ أَبُو حَارِثَةَ قَدْ شَرُفَ فِيهِمْ حَتَّى حَسُنَ عِلْمُهُ فِي دِينِهِمْ، وَكَانَتْ مُلُوكُ الرُّومِ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ قَدْ شَرَّفُوهُ وَقَبِلُوهُ، وَبَنَوْا لَهُ الْكَنَائِسَ، وَبَسَطُوا عَلَيْهِ الْكَرَامَاتِ، لِمَا يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنِ اجْتِهَادِهِ فِي دِينِهِمْ، فَلَمَّا وَجَّهُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَجْرَانَ، جَلَسَ أَبُو حَارِثَةَ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ مُوَجِّهًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى جَنْبِهِ أَخٌ يُقَالُ لَهُ: كُرْزُ بْنُ عَلْقَمَةَ، يُسَايِرُهُ، إِذْ عَثَرَتْ بَغْلَةُ أَبِي حَارِثَةَ، فَقَالَ كُرْزٌ: تَعِسَ الْأَبْعَدُ، يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَلْ أَنْتَ تَعِسْتَ، فَقَالَ: وَلِمَ يَا أَخُ؟ فَقَالَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُ، قَالَ لَهُ كُرْزٌ: وَمَا يَمْنَعُكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ هَذَا؟ قَالَ: مَا صَنَعَ بِنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ شَرَّفُونَا، وَأَمَّرُونَا، وَأَكْرَمُونَا، وَقَدْ أَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ، وَلَوْ قَدْ فَعَلْتُ نَزَعُوا مِنَّا كُلَّ مَا تَرَى، وَأَضْمَرَ عَلَيْهَا مِنْهُ أَخُوهُ كُرْزُ بْنُ عَلْقَمَةَ، يَعْنِي: أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ».

وفي "**سيرة ابن هشام**" (١١٩/٢)، **قال:** قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عمرو بْنِ حَزْمٍ قَالَ: حُدثت عَنْ صَفية بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ، وَإِلَى عَمِّي أَبِي: يَاسِرٍ، لَمْ أَلْقَهما قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاء فِي بَنِي عَمرو بْنِ عَوْفٍ غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيي بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنِ

أَخْطَبَ، مُغَلِّسَيْن. قَالَتْ: فَلَمْ يَرْجِعَا حَتَّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. قَالَتْ: فأتيا كَالَّيْن كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الهوينَى. قَالَتْ: فهشِشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللَّهِ مَا التفتَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الغَمِّ. قَالَتْ: وَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ، وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي، حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ: قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وتُثْبته؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا فِي نفسِك مِنْهُ؟ قَالَ: عداوتُهُ والله ما بَقِيتُ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾: يقول تعالى ذكره قل يا محمد لكفار قريش، ويجوز أن يقولها لأصحابه بياننا لحال كفار قريش؛ هل أخبركم، وأعلمكم؛ ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي بأسوأ حال ممن اتخذ دينه هزوًا ولعبًا ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي جزاء وعقوبة.

قوله ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: أي شر من أولئك، من طرده الله من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بسبب كفره وإعراضه، وبغيه، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي صير منهم قردة وخنازير فلما مسخوا عن الفطرة مسخت فطرهم وهؤلاء لم يجعل الله لهم نسلا ففي «**صحيح مسلم**» عن ابن مسعود رضي الله عنه (٢٦٦٣): قَالَ: وَذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْقِرَدَةُ، قَالَ مِسْعَرٌ: وَأُرَاهُ قَالَ: وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ».

قوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: أي وأشرهم عقوبة من عبد الطاغوت.

وهذا بيان لوقوع اليهود والنصارى في الشرك والشاهد من الاستدلال بالآية كما أن اليهود والنصارى وقعوا في عبادة الطاغوت، فهذه الأمة ستقع في عبادة الطاغوت إلا ما رحم ربي: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِقَوْلِهِ: أُولَئِكَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ، فَقَالَ: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ شَرٌّ مَكَانًا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّنْ نَقَمْتُمْ عَلَيْهِمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ. انتهى من «**تفسير**» الطبري (٨/ ٥٤٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾. [الكهف: ٢١].

قَوْلُهُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟﴾: أي الذين ظهروا على غيرهم.

قَوْلُهُ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾: أي لنبنين عليهم مسجدًا، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: عَمَّى اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ أَعْثَرَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ مَكَانَهُمْ، فَلَمْ يَهْتَدُوا، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَبْنِي عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، فَإِنَّهُمْ أَبْنَاءُ آبَائِنَا، وَنَعْبُدُ اللَّهَ فِيهَا، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: بَلْ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِمْ، هُمْ مِنَّا، نَبْنِي عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا نُصَلِّي فِيهِ، وَنَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ. انتهى من "**تفسير**" الطبري (١٥/ ٢١٧).

والآية في شأن أصحاب الكهف وما صنعه من غلب في شأنهم فإنهم بنوا على قبورهم مسجدًا يعبدون الله فيه، أو يعبدونها، وعلى كلا المعنيين، فصنيعهم محرم إما لأنه شرك أو يُفضي إليه.

فقد يقول قائل: هذه الأدلة في اليهود والنصارى، فنقول: أوتيت من قلة علمك وجهلك، أما دخل رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما، وقَالَ لهما: «أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟»، فَقَالَ علي بن أبي طالب: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]»[1]، والآية نزلت في الكفار.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

فهذه الأدلة التي ساقها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يستدل بها على وقوع الشرك في هذه الأمة من وجهين:

الأول: أن سنن الناس تتتابع.

الثاني: أن النبي ﷺ قد أخبرنا أن الأمة ستتابع اليهود والنصارى إلا ما رحم ربي.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟» أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): هو سعد بن مالك الخدري، وهو من صغار الأنصار والصحابة رضوان الله عليهم؛ يدل على ذلك ما جاء عند البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣) أَنَّ أَبَا مُوسَى، اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا، فَكَأَنَّهُ وَجَدَهُ مَشْغُولًا، فَرَجَعَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَلَمْ تَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، ائْذَنُوا لَهُ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ، قَالَ: «إِنَّا كُنَّا نُؤْمَرُ بِهَذَا» قَالَ: لَتُقِيمَنَّ عَلَى هَذَا بَيِّنَةً أَوْ لَأَفْعَلَنَّ، فَخَرَجَ فَانْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا إِلَّا أَصْغَرُنَا، فَقَامَ أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: «كُنَّا نُؤْمَرُ بِهَذَا» فَقَالَ عُمَرُ: «خَفِيَ عَلَيَّ هَذَا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ»، وأبو سعيد من المكثرين في رواية حديث رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ (لَتَتْبَعُنَّ): هذا خبر من رسول الله ﷺ مؤكد بالقسم واللام وقد وقع. **قَوْلُهُ (سَنَنَ):** السَّنَن والسُّنن بالضم والفتح: الطرق والسبل.

قَوْلُهُ (مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ): أي: اليهود، والنصارى لأنهم أهل كتاب، وللخلطة بينهم وبين المسلمين.

قَوْلُهُ (حَذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ): هذه اللفظة ليست في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أخرجها أحمد في "**مسنده**" (١٧١٣٥) من طريق شَهْر ابْن حَوْشَب، قال حَدَّثَنِي ابْنُ غَنْمٍ، أَنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ، حَدَّثَهُ عَنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» وشهر ضعيف.

والقذة رِيشُ السَّهم قال السندي: «حَذْوَ القُذَّةِ»: بضم قاف وتشديد ذال معجمة: ريش السهم.

والمعنى: فيساوونهم مساواة القذة بالقذة. أي: كما يقدر كل واحد منهما على قدر صاحبها ويقطع، وهو مثل يضرب للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. وفسر في القاموس القذة: بأذن الإنسان والفرس أيضًا. والله تعالى أعلم.

قَوْلُهُ (حَتَى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ): جُحر الضب تكثر فيه الالتواءات، وهذا يدل على شدة المتابعة لليهود والنصارى، والضب هو حيوان دون الورل، وهو حلال الأكل، فقد أكل على مائدة النبي ﷺ، ولو كان حرامًا ما أكل على مائدة النبي ﷺ، قال الرسول ﷺ: «لاَ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ»، متفق عليه[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ): أي: الصحابة سألوا رسول الله ﷺ مستفسرين ومسترشدين.

قَوْلُهُ (اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنِ؟»): وفي رواية: «فَمَنِ القَوْمُ إلا هُمْ»، **قَوْلُهُ** (أَخْرَجَاهُ)، أي في "**الصحيحين**" البخاري (٧٣٢٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم.

وفي "**صحيح البخاري**" (٧٣١٩) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ» وهذا الحديث يفسر وجه الاستدلال بالآيات السالفات.

---

(١) البخاري (٥٣٩١)، ومسلم (١٩٤٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي: أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِم فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ؛ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُم بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُم بَعْضًا».

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): في "**صحيحه**" كتاب الفتن، وأشراط الساعة (٢٨٨٩).

قَوْلُهُ (عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه): أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمن ثوبان بن بجدد، بموحدة مضمومة، ثم جيم ساكنة، ثم دال مهملة مكررة الأولى مضمومة، ويقال: ابن جحدر الهاشمي، من أهل السراة، موضع بين مكة واليمن، وقيل: إنه من حمير، وقيل: من الهان، أصابه سباء فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه، ولم يزل معه في الحضر والسفر، فلما توفى رسول الله ﷺ خرج إلى الشام فنزل الرملة، ثم انتقل إلى حمص وابتنى بها دارًا، وتوفى بها سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة أربع وخمسين، رُوِيَّ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وسبعة وعشرون حديثًا، روى له مسلم منها عشرة أحاديث. روى عنه جماعات من كبار التابعين. وفي صحيح مسلم[1]، عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ،

(١) برقم (٤٨٨).

فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً». اهـ من "تهذيب الأسماء واللغات" (١/ ١٤١).

قَوْلُهُ (إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ): أي: طواها له.

قَوْلُهُ (فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا): وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ حيث كانت الفتوحات إلى المشرق والمغرب.

قَوْلُهُ (وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِيَ مِنْهَا): وهذا قد وقع.

قَوْلُهُ (وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ): أي: الذهب والفضة، والذهب عُمْلة الروم والفضة عملة كسرى، وحصل المسلمون على هذه الكنوز العظيمة وأنفقت في سبيل الله، حتى قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : لَئِنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ، لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ العِرَاقِ لاَ يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا. أخرجه البخاري (٣٧٠٠) عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ.

قَوْلُهُ (وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي): أي: دعوت الله عز وجل لأمتي، وكان رسول الله ﷺ يدعوا لأمته كثيرا، ففي مسلم (٢٠٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: «إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ».

وفي مسلم (٨٢١) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى

حَرْفٍ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا».

وفي أحاديث الشفاعة ما يدل على حرصه على أمته، قال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

قَوْلُهُ (أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ): أي: دعوته أن لا يهلك الأمة بأمر عام كجدب الأرض -مثلًا- أو مرض واحد في جميع البلاد الإسلامية.

قَوْلُهُ (وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ):

وأن لا يسلط الكفار على المسلمين تسليطًا تذهب به بيضة الإسلام، وهذا أيضًا لن يكون، والواقع يدل عليه، فاليهود والنصارى وغيرهم من الكفار كم يحاولون في إذلال المسلمين، ومع ذلك تبقى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ويبقى الدين ظاهرًا قويًا بظهور الطائفة المنصورة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[٢]، فيتسلط الكفار على بعضٍ من بلاد المسلمين ويذلونه ويقهرونه، ويجعل الله في بلاد آخر

---

(١) اخرجه الإمام أحمد (٧٧١٤) واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، والبخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، وابن ماجة (٤٣٠٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له، عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه.

فرجة، ولا تزال الطائفة المنصورة تتنقل من بلد إلى بلد، يعز الله بها دينه ويحفظ الله بها الإسلام، فترة كانت الطائفة في الشام، وفترة كانت في العراق، وفترة كانت في نيسابور وبخارى، ثم في أرض نجد والحجاز ظهرت ظهورًا قويًا جليًا، والآن ما زال في تلك البلاد خير عظيم، وظهرت في اليمن ظهورًا قويًا جليًا، والحمد رب العالمين.

قَوْلُهُ (وَإِنَ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمّدُ): فيه: إثبات الكلام لله ﷻ وأنه يتكلم بحرف وصوت.

قَوْلُهُ (إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فإِنُّه لا يُردُّ): والقضاء هنا: الحكم الكوني قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، وأما القضاء الشرعي فقد لا يقع، قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

قَوْلُهُ (وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُم بِسَنَةٍ عامَّةٍ): وهذا من فضل الله ﷻ علينا، فله الحمد، وهذه من الدعوات المستجابات للنبي ﷺ، وتعتبر فضيلة لهذه الأمة.

قَوْلُهُ (وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُم بَعْضًا): وهذا هو الواقع: أن الله حفظ هذه الأمة من أعدائها من الخارج، ولكن وقع الشر العظيم بسبب ما بينهم وقوله: (حَتَّى): أي: إلا أن يهلك بعضهم بعضًا، فوقوع الخلل في الأمة كله بسبب التناحر والتقاطع والتهاجر الذي بينهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَوَاهُ البُرْقَانِي فِي "صَحِيحِهِ"، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

قَوْلُهُ (رَوَاهُ البُرْقَانِي، فِي "صَحِيحِهِ"): هو الإِمَامُ العَلاَّمَةُ الفَقِيْهُ، الحَافِظُ الثَّبْتُ، شَيْخُ الفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِيْنَ، أَبُو بَكْرٍ، أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ غَالِبٍ، الخُوَارَزْمِيُّ، ثُمَّ البَرْقَانِيُّ الشَّافِعِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ[1]. وهو صاحب "**المستخرج على صحيح مسلم**".

قَوْلُهُ (وَزَادَ: وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ): أي: أهل الفقه والعلم الذين هم على ضلالة، وفي الحديث: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»[2].

فهذا الحديث وإن لم يثبت عن النبي ﷺ، فهو ثابت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر ممن وافق القرآن في أكثر من أربعة عشر موضعًا، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٦٠) للذهبي.
(٢) أخرجه احمد (١٤٣) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»(١).

فالأئمة المضلون هم سبب ضلال الأمم، قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قَوْلُهُ (وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ): وهذا خبر من النبي ﷺ وقد وقع، إذ كان قتل عمر وقتل عثمان رضي الله عنهما نذيرُ شرٍ لهذه الأمة، فوقع السيف في أمة محمد، ولم يرقأ لهم دم، بل إن القتل يكثر قبل قيام الساعة حتى لا يدري القاتل فيما قَتل ولا المقتول فيما قُتل.

قَوْلُهُ (ولاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ): وهذا الشاهد من الحديث أن من أشراط الساعة: عبادة قوم من هذه الأمة الأصنام والأوثان، وهذا من دلائل نبوته ﷺ.

قَوْلُهُ (وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ): وهذا ليس على الحصر، فالدَّجَّالون أكثر بكثير ولكن هؤلاء أشهرهم.

والقاديانية يفسرون: (خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) بزينة النبيين، حتى يثبتوا النبوة لأحمد القادياني، وهي فرقة كافرة موجودة في الجزائر، ومصر، وفلسطين، ولبنان، والهند.

قَوْلُهُ (لا نَبِيَّ بَعْدِي): وهذا توكيد؛ لأن المراد بخاتم النبيين، أي: آخر النبيين، فمن زعم أن بعد النبي ﷺ نبي فهو كافر بالله العظيم.

(١) أخرجه أحمد (٥١٤٥)، ابن ماجه (١٠٨)، أبو داود (٢٩٦٢)، الترمذي (٣٦٨٢).

قَوْلُـهُ (وَلا تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِـي عَلَـى الحَـقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُـرُّهُمْ مَـنْ خَذَلَهُمْ): (وَلا تَزَالُ): يدل على الاستمرار. (طَائِفَةٌ): جماعة. (مِنْ أُمَّتِي): أي: من أمة الإجابة. قَوْلُهُ (عَلَى الحَقِّ): أي: على الكتاب والسنة وما أجمع عليه السلف الصالح. (مَنْصُورَةً): أي: ظاهرة كما بينتها الأحاديث الأخرى.

قَوْلُهُ (لا يَضُرُّهُمْ): أي: لا يلحقهم ضرر يؤدي إلى إنهاء دعوتهم. (مَنْ خَذَلَهُمْ): الْخَذْلُ: تَرْكُ الْإِغَاثَةِ والنُّصْرَةِ. والتخذيل يكون من داخل الصف. (ولاَ مَنْ خَالَفَهُمْ): والمخالفة تكون من خارج الصف، وقد يقع من الجانبين.

قَوْلُهُ (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى): وأمر الله هنا هو الريح التي يرسلها الله ﷻ من قبل اليمن حتى لا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته وحتى لا يبقى في الأرض إلا الكفار الذين لا يقولون الله وعليهم تقوم الساعة، وقد صحت هذه الجملة عن جمع من أصحاب النبي ﷺ منها ما جاء عن معاوية رضي الله عنه: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» في "**الصحيحين**"[1]، وعن ثوبان، والمغيرة، وجابر بن عبد الله، وجابر بن سمرة، وعبد الله بن عمرو، وبنحوه عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنهما أجمعين، وكلها مخرجه في آخر كتاب الإمارة من "**صحيح مسلم**".

***

(١) البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

٢٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ): أي: ما جاء من الوعيد العظيم على تعلمه وتعليمه وتعاطيه والسحر: هو ما دق ولَطُفَ سببه، ومنه سمي السَّحرُ سحرًا قال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٢):

قَالَ الرَّاغِبُ وَغَيْرُهُ السِّحْرُ يُطلَقُ على معَانٍ أَحدُها: مَا لَطُفَ وَدَقَّ.

- **وَمِنْهُ**: سَحَرْتُ الصَّبِيَّ خَادَعْتُهُ وَاسْتَمَلْتُهُ وَكُلُّ مَنِ اسْتَمَالَ شَيْئًا فَقَدْ سَحَرَهُ.
- **وَمِنْهُ**: إِطْلَاقُ الشُّعَرَاءِ سِحْرَ الْعُيُونِ لِاسْتِمَالَتِهَا النُّفُوسِ.
- **وَمِنْهُ**: قَوْلُ الْأَطِبَّاءِ الطَّبِيعَةُ سَاحِرَةٌ.
- **وَمِنْهُ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥]، أَيْ: مَصْرُوفُونَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ.
- **وَمِنْهُ**: حَدِيثُ «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

الثَّانِي: مَا يَقَعُ بِخِدَاعٍ وَتَخْيِيلَاتٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا نَحْو مَا يَفْعَلُهُ الْمُشَعْوِذُ مِنْ صَرْفِ الْأَبْصَارِ عَمَّا يَتَعَاطَاهُ بِخِفَّةِ يَدِهِ وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وَقوله تعَالَى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الإعراف: ١١٦]، وَمِنْ هُنَاكَ سَمَّوْا مُوسَى سَاحِرًا وَقَدْ يَسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ خَاصِّيَّةٌ كَالْحَجَرِ الَّذِي يَجْذِبُ الْحَدِيدَ الْمُسَمَّى الْمِغْنَطِيسُ.

الثَّالِثُ: مَا يَحْصُلُ بِمُعَاوَنَةِ الشَّيَاطِينِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كفرُوا يعلمُونَ النَّاس السحر.

الرَّابِعُ: مَا يَحْصُلُ بِمُخَاطَبَةِ الْكَوَاكِبِ وَاسْتِنْزَالِ رُوحَانِيَّاتِهَا بزعمهم قَالَ بن حَزْمٍ وَمِنْهُ مَا يُوجَدُ مِنَ الطِّلَّسْمَاتِ كَالطَّابِعِ الْمَنْقُوشِ فِيهِ صُورَةُ عَقْرَبٍ فِي وَقْتِ كَوْنِ الْقَمَرِ فِي الْعَقْرَبِ فَيَنْفَعُ إِمْسَاكُهُ مِنْ لَدْغَةِ الْعَقْرَبِ وَكَالْمُشَاهَدِ بِبَعْضِ بِلَادِ الْغَرْبِ وَهِيَ سَرْقُسْطَةُ فَإِنَّهَا لَا يَدْخُلُهَا ثُعْبَانٌ قَطُّ إِلَّا إِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ وَقَدْ يَجْمَعُ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ كَالِاسْتِعَانَةِ بِالشَّيَاطِينِ وَمُخَاطَبَةِ الْكَوَاكِبِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْوَى بِزَعْمِهِمْ. اهـ.

قال العيني في "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" (٦٣/١٤): هَل يجوز تعلم السحر أم لا؟

فَقَالَ الرَّازِيّ: إِن الْعلم بِالسحرِ لَيْسَ بقبيح وَلَا مَحْظُور، اتّفق الْمُحَقِّقُونَ على ذَلِك، فَإِن الْعلم لذاته شرِيف، وَلِأَنَّهُ لَو لم يعلم مَا أمكن الْفرق بَينه وَبَين المعجزة، وَالْعلم بِكَوْن المعجز معجزًا وَاجِب، وَمَا يتَوَقَّف عَلَيْهِ الْوَاجِب فَهُوَ وَاجِب، فَهَذَا يَقْتَضِي أَن يكون تَحْصِيل الْعلم بِالسحرِ وَاجِبا، كَيفَ: يكون حَرَامًا وقبيحًا، هَذَا لَفظه بِحُرُوفِهِ فِي هَذِه الْمَسْأَلَة، وَفِيه نظر من وُجُوه:

الأول: قَوْله: الْعلم بِالسحرِ لَيْسَ بقبيح، إِن عَنى بِهِ لَيْسَ بقبيح عقلا فمخالفوه من الْمُعْتَزلَة يمْنَعُونَ ذَلِك، وَإِن عَنى لَيْسَ بقبيح شرعا فَفِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ...﴾ [البقرة: ٢٠١]. الْآيَة تبشيع لتعلم السحر. وَفِي (الصَّحِيح): «من أَتَى عرافًا أَو كَاهِنًا فقد كفر بِمَا أنزل على مُحَمَّد ﷺ». وَفِي السّنَن[١]: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ».

الثَّانِي: قَوْله: وَلَا مَحْظُورًا، اتّفق الْمُحَقِّقُونَ على ذَلِك، وَكَيف لَا يكون مَحْظُورًا مَعَ مَا ذكرنَا من الْآيَة والْحَدِيث، والمحققون هم عُلَمَاء الشَّرِيعَة، وَأَيْنَ نصوصهم على ذَلِك؟

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٥٢٨).

الثَّالِث: قَوْله: وَلِأَنَّهُ لَو لم يعلم... إِلَى آخِره، كَلَام فَاسد، لِأَن أعظم معجزات رَسُولنَا ﷺ: الْقرَان الْعَظِيم، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِل من بَين يَدَيْهِ وَلَا من خَلفه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٢٤].

الرَّابِع: قَوْله: وَالْعلم بِكَوْنِهِ معجزًا، وَهَذَا الْعلم لَا يتَوَقَّف على علم السحر أصلا، ثمَّ من الْمَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ أَن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وأئمة الْمُسلمين وعامتهم كَانُوا يعلمُونَ المعجز ويفرقون بَينه وَبَين غَيره، وَلم يَكُونُوا يعلمُونَ السحر وَلَا تعلموه وَلَا علموه، وَالَّذِي نَص عَلَيْهِ الْعلمَاء وَالْفُقَهَاء أَن تعلم السحر وتعليمه من الْكَبَائِر. وَفِي (التَّلْوِيح): وَقَالَ بعض أَصْحَاب الشَّافِعِي: تعلمه لَيْسَ بِحرَام، بل يجوز ليعرف وَيرد على فَاعله ويميز عَن الْكَرَامَة للأولياء. قلت: الظَّاهِر أَن مُرَاده من بعض أَصْحَاب الشَّافِعِي الرَّازِيّ، وَقد ردينا عَلَيْهِ، وَمِنْهُم الْغَزالِيّ. انتهى.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن السحر له حقيقة، خلافًا للمعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم من العقلانيين وغيرهم ممن لا يؤمنون بحقيقة السحر، وقد ردّ محمد رشيد رضا ومشايخه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي، دَعَا اللَّهَ وَدَعَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ» قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ اليَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ»، قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى البِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: «وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ:

«لاَ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِيَ اللهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا» متفق عليه(١).

قالوا: كيف يُسحر النبي ﷺ؟ فيقال لهم: الحديث في "**الصحيحين**" ولا مطعن فيه من جهة الإسناد، ولا نكارة فيه من جهة المتن، فإن النبي ﷺ كان يمرض كما يمرض البشر، والسحر نوع من المرض، أما مسألة الدين فهو معصوم فيه.

قال ابن القيم رحمه الله **في** "**بدائع الفوائد**" **(٢٢٣-٢٢٦):** وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته وقد اعتاض على كثير من أهل الكلام وغيرهم وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه، أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء قال؛ لأن النبي لا يجوز أن يُسحر، فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال قوم صالح عليه السلام له: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وقال قوم شعيب عليه السلام له: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]، قالوا فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين، وما لهذا الشأن، وقد رواه غير هشام عن عائشة رضي الله عنها، وقد اتفق أصحاب "**الصحيحين**" على تصحيح هذا الحديث ولم يتكلم فيه أحد من أهل

(١) البخاري (٦٣٩١، ٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩).

الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن، والحديث والتاريخ، والفقهاء وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حباب، عَنْ زَيْدِ بْنِ الأَرْقَمِ رضي الله عنه، قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا. قَالَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وعَقَدَ لَكَ عُقَدًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا، فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَاءَ بِهَا، فَجَعَلَ كُلَّمَا حَلَّ عُقْدَةً وَجَدَ لِذَلِكَ خِفَّةً، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْيَهُودِيَّ وَلَا رَآهُ فِي وَجْهِهِ قَطُّ[(١)].

وقال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت هاتان السورتان فيه، قال البغوي: وقيل: كانت مغروزة بالدبر، فأنزل الله ﷻ هاتين السورتين، وهما أحد عشرة آية سورة الفلق، خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية، انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان.

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضًا من الأمراض عارضا شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فقد أغمي عليه في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته: «وأَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ»، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس،

---

(١) «المصنف» (٢٣٥١٨).

فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر كما ابتلى بالذي رماه فشجه، وابتلى بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم ولا عار في ذلك بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله، قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أَنَّ جِبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، فقَالَ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»(١)، فعوذه جبريل مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنِ حَاسِدٍ لما اشتكى.

فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره، قالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله تعالي عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح عليه السلام له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، فقيل: المراد به من له سحر وهي الرئة، أي: أنه بشر مثلهم يأكل ويشرب ليس بملك ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مرض وهو في غاية البعد، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]، وأما المسحور، فلم يريدوا به ذا السحر وهي الرئة، وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع ثم كيف يقول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]، أفتراه ما علم أنه له سحرًا، وأنه بشر ثم كيف يجيبه موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى عليه السلام، وقال: نعم أنا بشر أرسلني الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦).

إليك كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، ولم ينكروا ذلك فهذا الجواب في غاية الضعف.

وأجابت طائفة منهم ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده بمعنى ساحر، أي: عالم بالسحر، وهذا جيد إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له مسحور ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحره غيره كالمطبوب، والمضروب والمقتول وبابه: وأما من علم السحر، فإنه يقال له: ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر، وإن لم يسحره غيره، كما قال قوم فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، ففرعون قذفه بكونه مسحورًا، وقومه قذفوه بكونه ساحرًا.

فالصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف، وغيره: إن المسحور على بابه، وهو من سُحِرَ حتى جُنَّ، فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى والمجنون مرة والمسحور أخرى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه، فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها، فهكذا حال أعداء

رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالًا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب، وافتراء وبهتان.

وأما قولكم (إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم) فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم، ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم؛ ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم. اهـ.

ومما يدل على أن السحر له حقيقة، أن الله سماه علمًا، وأخبر أن الناس يتعلمونه، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال ابن القيم رحمه الله في "البدائع" (٢٢٧): وقد دل قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وحديث عائشة رضي الله عنها المذكور: على تأثير السحر وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له، سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث، وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء، والسحر الذي يؤثر مرضًا وثقلًا وحلًا وعقدًا وحبًا وبغضًا وتزينًا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به منه، وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرًا كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث، ولا للنفاثات شر يستعاذ منه. اهـ.

والساحر كافر، بل قد ذكر الإمام محمد بن إسماعيل الأمير في كتابه "تطهير الاعتقاد" (٨٧): أن من أعظم أبواب تعلم السحر: الكفر بالله. اهـ.

حيث يأمره الجن مثلًا بامتهان القرآن، والصلاة مع الجنابة، ويُؤمر أن يذبح كبشًا على صورة كذا وكذا، ولا يسمِّ الله عليه، أو ديكًا ويلقيه، فمن كفر بالله وأطاعهم أطاعوه وانقادوا له، فهم يستمتعون به، وهو يستمتع بهم، كما أخبر الله ﷻ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فالجني استمتع بالإنسي من حيث أنه جعله يشرك بالله ﷻ، وتلاعب بدينه، والإنسي استمتع بالجني من حيث أنه حقق له بعض المطالب، ومما يدل على كفره حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ سِحْرٍ، مَا زَادَ زَادَ»[1]، ويأتي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أخرجه أحمد (٩٥٣٦).

وكفر الساحر من عدة أوجه:

الأول: أنه ادعى علم الغيب المطلق، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ويقول النبي ﷺ مبينا أنه لا يعلم الغيب: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: «إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي» البخاري (٦٥٨٣، ٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩٥) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه .

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٤٠).

الثاني: لاستغاثته واستعانته بالجن فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

الثالث: من حيث أنه عبد الجن، وأطاعهم وتقرب إليهم بأنواع القرب.

الرابع: بامتهان القرآن، إلى غير ذلك من الأمور.

وما أكثر السحرة والمشعوذين في هذه البلاد لا كثرهم الله، وفي غيرها من البلدان، بل إنَّ هنالك بعض القنوات للسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، وبعض المواقع الالكترونية لبعض الساحرات والسواحر، وأغلب الرؤساء تعلقت قلوبهم بالسحرة والسواحر؛ لعدم تعلمهم التوحيد، وضعف اعتمادهم على الله سبحانه وتعالى فيتلاعب بهم الشيطان، وفي بعض المناطق اليمنية يسمون الساحر: المقذي، وفي بعضها: الفقيه، وربما: السيد، والشريف، والولي، والرمال، وقارئ الفنجال فتعددت أسماؤهم، وهم كفار على كل حال لا يصلى خلفهم، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا يزوجون، ولا يصلى عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وكان السحر منتشرًا في زمن فرعون، حتى أن موسى عليه السلام لما جاءه بالآيات البينات زعم فرعون أن هذا سحر: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢-٤٠]، وكان قول فرعون ذلك ظاهرا، وإلا فهو كما قال الله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، فلما جمع السحرة وهم خلق كثير، وأصحاب حيل ومخاريق، وأصحاب علم في هذا الباب لا يبارون ولا

يجارون، لكن مع الآيات الشرعية والمعجزات الإلهية كان السحرة هم المهزومون، فألقى السحرة عصيهم وحبالهم، فارتاع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رآها تمشي وتسير كالثعابين، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فسمى الله عَزَّوَجَلَّ صنيعهم إفكا، أي: كذبًا، فالتقمت عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كل ما ألقوا، وتقين السحرة أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس بسحر، بل إنّ الله عَزَّوَجَلَّ أحال العصا إلى حية، فعند ذلك تيقنوا أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرسل من ربه: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٧] وكل ما سوى الله عالم، سموا عالم من العلامة، ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨]؛ لأنهم هم الدعاة إلى عبادته، فعند ذلك أخذ فرعون الكبر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣] ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]، ولم يخف السحرة لما عرفوا الحق والتوحيد، وقد أحسن من قال:

وَإِذَا الفَتَى عَرَفَ الرَّشَادَ لِنَفْسِهِ ... هَانَتْ عَلَيْهِ مَلامَةُ الجُهَّالِ

ولم يبالوا لرجائهم في ربهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]، والقصة مبينة في مواطن من القرآن.

وكان فرعون جِبِّيرًا[١] على حملة الدين؛ فقد أخرج الإمام أحمد في "مسنده" (٢٨٢١) وغيره، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: «يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟» فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. قَالَ: قُلْتُ: «وَمَا شَأْنُهَا؟» قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا،

---

(١) الْجِبِّيرُ: الشَّدِيدُ التَّجَبُّرِ. «مختار الصحاح» (٥٢) مادة (ج ب ر).

وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

[البقرة: ١٠٢].

هذا هو الدليل الأول الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان كفر الساحر والآية بتمامها: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

وفي هذه الآية عدة مسائل:

الأولى: قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] الْفَرِيقَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَعُلَمَائِهَا الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِأَنَّهُمْ نَبَذُوا كِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، تَجَاهُلًا مِنْهُمْ وَكُفْرًا بِمَا هُمْ بِهِ عَالِمُونَ، كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَفَضُوا كِتَابَهُ الَّذِي يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، وَآثَرُوا السِّحْرَ الَّذِي تَلَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَاتَّبَعُوهُ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْخَسَارُ وَالضَّلَالُ الْمُبِينُ. انتهى من "**تفسير الطبري**" (٢/ ٣١٣).

وهذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ساحرًا، وذلك

أن الله ﷻ قد سخر لسليمان الجن ﵇ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥-٣٨]، واستدل بعضهم بقول الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾ [النمل: ٤٠] أن هذا ساحر، وهذا لا يكون، فإن سليمان ﵇ نبي معصوم من مثل هذه الشركيات والبدع والخرافات، ثم أيضًا هو معصوم أن يكون في مجلسه ساحر، ويرضى بصنيعه، ونحن نعلم أن الأنبياء كلهم متفقون على التوحيد، ومن زعم أن الأنبياء اختلفوا في مسائل الإيمان والتوحيد، فإما لغير علم وبصيرة، أو لعناد وجهل، وإلا فإن دين الأنبياء واحد كما أخبر الله ﷻ عنهم، فكل يقول: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقد ألف الشوكاني ﵀ رسالة على أن دين الأنبياء واحد، وعلى أنهم متفقون في مسائل الإيمان الستة، ومسائل الإسلام الخمسة، وإنما اختلفوا في الشرائع: قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: طريقًا وسبيلًا وسنة.

وقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾ قال الطبري في "**تفسيره**" (٢/ ٣٢١): أي فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﵇؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ تَضَعُ فِي مَوْضِعِ عَلَى وَعَلَى فِي مَوْضِعِ فِي، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] يَعْنِي بِهِ: عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، وَكَمَا قَالَ: فَعَلْتُ كَذَا فِي عَهْدِ كَذَا وَعَلَى عَهْدِ كَذَا، بِمَعْنًى وَاحِدٍ. انتهى.

الثانية: قَوْلُهُ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، دليل على أن السحر كُفر؛ حيث نزه الله ﷻ سليمان ﵇ عن السحر.

قَوْلُهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]:

كفروا بإعراضهم عن توحيد الله ﷻ وبتعلم وتعليم السحر والكهانة.

قَوْلُهُ ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

اختلف الناس في معنى هذه الآية، فذهب كثير من العلماء إلى أن هاروت وماروت ملكان، والصحيح أنهما شيطانان جنيان لأمور:

الأول: أن الله ﷻ قد أخبر عن الملائكة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والقصة في هذا: «أَنَّ آدَمَ ﷺ لَمَّا أَهْبَطَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْأَرْضِ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: أَيْ رَبِّ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قَالُوا: رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: هَلُمُّوا مَلَكَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، حَتَّى يُهْبَطَ بِهِمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ. قَالُوا: رَبَّنَا، هَارُوتُ وَمَارُوتُ. فَأُهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ، وَمُثِّلَتْ لَهُمَا الزُّهَرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ، فَجَاءَتْهُمَا، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَكَلَّمَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْإِشْرَاكِ. فَقَالَا: وَاللهِ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ أَبَدًا. فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَقْتُلَا هَذَا الصَّبِيَّ، فَقَالَا: وَاللهِ لَا نَقْتُلُهُ أَبَدًا. فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ بِقَدَحِ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَشْرَبَا هَذَا الْخَمْرَ. فَشَرِبَا، فَسَكِرَا فَوَقَعَا عَلَيْهَا، وَقَتَلَا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَفَاقَا، قَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَاللهِ مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا مِمَّا أَبَيْتُمَاهُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَا حِينَ سَكِرْتُمَا، فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا»[١].

وهذا إسناده ضعيف ومتنه باطل، من حيث اعتراض الملائكة على ربهم، والملائكة معصومون، وغير ذلك من النكارات.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦١٧٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

فَقَوْلُهُ ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: السحر لم ينزل على الملكين، وإنما السحر يُعلم ببابل، يعلمه جني اسمه هاروت وآخر اسمه ماروت، هذا هو معنى الآية كما رجحه القرطبي رحمه الله في "تفسيره"، وعليه شيخنا يحيى حفظه الله، وجمع من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

قال القرطبي في "تفسيره" (٢/ ٥٠): قوله تعالى: ﴿وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ «مَا» نَفْيٌ، وَالْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ» وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ بِالسِّحْرِ، فَنَفَى اللَّهُ ذَلِكَ. وَفِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، التَّقْدِيرُ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَهَارُوتُ وَمَارُوتُ بَدَلٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا﴾. هَذَا أَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَأَصَحُّ مَا قِيلَ فِيهَا وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سِوَاهُ، فَالسِّحْرُ مِنَ اسْتِخْرَاجِ الشَّيَاطِينِ لِلَطَافَةِ جَوْهَرِهِمْ، وَدِقَّةِ أَفْهَامِهِمْ. انتهى.

قَوْلُهُ ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، دل على أن تعلم السحر كفر، وأن له حقيقة، وأنّ هاروت وماروت لا يعلمان أحد إلا بعد إخباره بفتنتهما.

قَوْلُهُ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي من أنواع السحر الذي يتعلمونه الصرف والعطف، وذكر تعالى أشهره.

قَوْلُهُ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإذن الله الكوني لا الشرعي، وفيها دليل على أن الساحر لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال عز وجل: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٨]، وقد
قال ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾
[الزمر: ٣٨].

قَوْلُهُ ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ أي السحر الذي يتعلمونه لقصد النفع الواقع أنه يضرهم ولا ينفعهم ومضرته في الدنيا والأخرة حيث تتسلط عليه الشياطين، وتتلاعب في الدنيا، وهذا غاية السفه أن يتعلم العبد ما ضرره متيقن، وخطره متحقق ويخسر آخرته.

قَوْلُهُ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ **قال الطبري** رحمه الله **في «تفسيره» (٢/٣٦٣-٣٦٧):** قال السُّدِّيّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] يَعْنِي الْيَهُودَ، يَقُولُ: لَقَدْ عَلِمَتِ الْيَهُودُ أَنَّ مَنْ تَعَلَّمَهُ أَوِ اخْتَارَهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وقال قَتَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] يَقُولُ: قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي عَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ أَنَّ السَّاحِرَ لَا خَلَاقَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقال ابن زيد: قَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ مَنِ اشْتَرَى السِّحْرَ وَتَرَكَ دِيْنَ. اللَّهِ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، فَالنَّارُ مَثْوَاهُ وَمَأْوَاهُ.

قَوْلُهُ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾: مَعْنَى الْخَلَاقِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: النَّصِيبُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ مَعْنَاهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَيُؤَيِّدَنَّ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ» يَعْنِي لَا نَصِيبَ لَهُمْ وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ وَالدِّينِ. وَمِنْهُ قَوْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ فِيهَا لَا خَلَاقَ لَهُمْ إِلَّا سَرَابِيلَ مِنْ قِطْرٍ وَأَغْلَالِ

انتهى مختصرًا.

قَوْلُهُ ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: أي بئس ما باعوا به أنفسهم من تعلم السحر الذي يضرهم بذهاب دينهم، وفساد دنياهم، وأخرتهم.

وفي هذا دليل على أن السحر كبيرة من كبائر الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ...»، أخرجاه[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وكيد الساحر باطل لا سيما إذا استخدم الإنسان الرقى الشرعية من القرآن والسنة والدعاء واعتصم بالله، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وهذا دليل على أن الساحر ليس بمسلم؛ لأن الفلاح يلحق المسلمين قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وفي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ». أخرجه مسلم (١٠٥٤).

***

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: الجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ.

وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ.

قَوْلُهُ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: هذا وصف لليهود ومن تشبه بهم من تصديقهم بالجبت الذي هو السحر، وما هو أعم منه على ما تقدم، والطاغوت الذي هو الشيطان وما هو أعم منه.

قَوْلُهُ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي يقول اليهود لكفار قريش وقد ذكر ابن جرير في سبب نزولها مرسلا عن قتادة حيث قال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَرَجُلَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ لَقِيَا قُرَيْشًا بَمَوْسِمٍ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: أَنَحْنُ أَهْدَى أَمْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ؟ فَإِنَّا أَهْلُ السِّدَانَةِ وَالسِّقَايَةِ وَأَهْلُ الْحَرَمِ. فَقَالَا: لَا، بَلْ أَهْدَى مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. وَهُمَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ، إِنَّمَا حَمَلَهُمَا عَلَى ذَلِكَ حَسَدُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هَذِهِ صِفَةُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَحْدَهُ، وَإِيَّاهُ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. انتهى من «تفسيره» (٧/ ١٤٦).

قَوْلُهُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾: أي كفار قريش على هدى أحسن وطريق أقوم مما عليه المسلمون، وهذا من أسوء شهادة الزور.

وساق المؤلف الآية لبيان حكم السحر والسحرة.

قَوْلُهُ (قَالَ عُمَرُ): ﷺ، هو ابن الخطاب أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، قتله أبو لؤلؤة المجوسي لعنه الله، وقد تقدم.

قَوْلُهُ (الجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ): أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٤٣) من طريق حَسَّانَ بْنِ فَائِدٍ العبسي، عَنْ عُمَرَ ﷺ. قال البخاري في «التأريخ» (٣/ ٣٠): سَمِعَ عُمَر، رَوى عنهُ أَبو إِسحاق، وذكر الحافظ في «الإصابة» (٢/ ١٤٧): لم يرو عنه غير أبي إسحاق.

قَوْلُهُ (وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ): أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٥٢)، وابن جرير (٤/ ٥٥٨) وفي سنده حجاج بن أرطأة ضعيف ومدلس.

وهو في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٩) للبغوي، (باب الكهانة)، وفي البخاري (٦/ ٤٥) بلفظ: وَقَالَ جَابِرٌ: «كَانَتِ الطَّوَاغِيتُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا، فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ».

وكان الناس يتحاكمون إليهم في معرفة الغيب.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْموبِقَاتِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»، أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (اجْتَنِبُوا): أي: احذروا وابتعدوا.

قَوْلُهُ (السَّبْعَ): ليست للحصر قال ابن أبي العز في «**شرح الطحاوية**» (٣٦٠): وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكَبَائِرِ عَلَى أَقْوَالٍ: فَقِيلَ: سَبْعَةٌ.

- **وَقِيلَ**: سَبْعَةَ عَشَرَ.
- **وَقِيلَ**: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ.
- **وَقِيلَ**: مَا يَسُدُّ بَابَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ.
- **وَقِيلَ**: ذَهَابُ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ.
- **وَقِيلَ**: سُمِّيَتْ «كَبَائِرَ» بِالنِّسْبَةِ وَالْإِضَافَةِ إِلَى مَا دُونَهَا.
- **وَقِيلَ**: لَا تُعْلَمُ أَصْلًا. أَوْ: أَنَّهَا أُخْفِيَتْ كَلَيْلَةِ الْقَدْرِ.
- **وَقِيلَ**: إِنَّهَا إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ.
- **وَقِيلَ**: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.
- **وَقِيلَ**: إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَةِ، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبارَاتُ السلف في تعريف الصغائر:

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَةُ مَا دُونَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يُخْتَمْ بِلَعْنَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَةُ مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ، وَالْمُرَادُ بِالْوَعِيدِ: الْوَعِيدُ الْخَاصُّ بِالنَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبُ، فَإِنَّ الْوَعِيدَ الْخَاصَّ فِي الْآخِرَةِ كَالْعُقُوبَةِ الْخَاصَّةِ فِي الدُّنْيَا، أَعْنِي الْمَقْدِرَةَ، فَالتَّعْزِيرُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرُ الْوَعِيدِ بِغَيْرِ النَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبِ. وَهَذَا الضَّابِطُ يَسْلَمُ مِنَ الْقَوَادِحِ الْوَارِدَةِ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أَنَّهُ كَبِيرَةٌ، كَالشِّرْكِ، وَالْقَتْلِ، وَالزِّنَا، وَالسِّحْرِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَتَرْجِيحُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ هُوَ الْمَأْثُورُ عَنِ السَّلَفِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾. فَلَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعْدَ الْكَرِيمَ مَنْ أُوعِدَ بِغَضَبِ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ وَنَارِهِ، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَاتُهُ مُكَفَّرَةً عَنْهُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ مَرْجِعُهُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ حَدٌّ مُتَلَقًّى مِنْ خِطَابِ الشَّارِعِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ يُمْكِنُ الْفَرْقُ بِهِ بَيْنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، بِخِلَافِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ.

فَإِنَّ مَنْ قَالَ: سَبْعٌ، أَوْ سَبْعَ عَشْرَ، أَوْ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ -مُجَرَّدُ دَعْوَى. وَمَنْ

قَالَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ دُونَ مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ- يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ، وَالتَّزَوُّجَ بِبَعْضِ الْمَحَارِمِ، وَالْمُحَرَّمَ بِالرَّضَاعَةِ وَالصِّهْرِيَّةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ - لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَأَنَّ الْحَبَّةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالسَّرِقَةَ لَهَا، وَالْكِذْبَةَ الْوَاحِدَةَ الْخَفِيفَةَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ- مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ. وَمَنْ قَالَ: مَا سَدَّ بَابَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، أَوْ ذَهَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ -يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ، وَأَكْلَ الْخِنْزِيرِ وَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ، وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ- لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا سُمِّيَتْ كَبَائِرَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا دُونَهَا، أَوْ كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ -يَقْتَضِي أَنَّ الذُّنُوبَ فِي نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ!

وَهَذَا فَاسِدٌ، لِأَنَّهُ خِلَافُ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ الذُّنُوبِ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تُعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ إِنَّهَا مُبْهَمَةٌ -فَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُهَا، فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَهَا غَيْرُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.

قَوْلُهُ: (الْمُوبِقَاتِ): أي المهلكات قال ابن الأثير في **"النهاية"** (٥/ ١٤٦): (وَبَقَ) فِي حَدِيثِ الصِّراط وَمِنْهُمْ «الْمُوبَقُ بِذُنوبه» أَيِ المُهْلَك. يُقَالُ: وَبَقَ يَبِقُ، ووَبِقَ يَوْبَقُ، فهُو وَبِقٌ، إِذَا هَلَكَ. وَأَوْبَقَهُ غيرُه، فَهُوَ مُوبَقٌ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ «وَلَوْ فَعَلَ الْمُوبِقَاتِ» أَيِ الذنوبَ المُهْلِكَات. وَقَدْ تَكَرَّرَ ذكرُها فِي الْحَدِيثِ، مُفرداً وَمَجْمُوعًا. انتهى.

قَوْلُهُ: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟): فيه السؤال عما يشكل.

قَوْلُهُ: (الشِّرْكُ بِاللَّهِ): فبدأ بالشرك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، وهو أعظم ذنب عُصي الله به؛ ولأنه يخلد في النار ويبيح الدم والنفس والمال، ومفاسده كثيرة، على ما تقدم.

قَوْلُهُ: (وَالسِّحْرُ): هذا هو الشاهد من الحديث في سوقه في هذا الباب، ففيه بيان أنه ذنب عظيم حيث قُرن بالشرك وعُطف عليه.

قَوْلُهُ (وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ): تقدم الكلام على ذلك.

قَوْلُهُ (وَأَكْلُ الرِّبَا): ويسمونه الآن: الفوائد؛ تلبيسًا وتحيلًا، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عند ابن ماجه (٢٢٧٩): «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا، إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ»[1].

قال النووي في "شرحه على مسلم" (٩/١١): وَأَصْلُ الرِّبَا الزِّيَادَةُ يُقَالُ رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُو إِذَا زَادَ وَأَرْبَى الرَّجُلُ وَأَرْمَى عَامَلَ بِالرِّبَا وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي الْجُمْلَةِ وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي ضَابِطِهِ وَتَفَارِيعِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ. انتهى.

وأحكامه مذكورة في أبواب البيوع وذكرت بعضًا منها في كتابي "**الدر المكنون في احكام الديون**".

قَوْلُهُ (وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ): اليتيم: من فَقَدَ أبوه، وقد تقم الكلام عليه.

قَوْلُهُ (وَالتَوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ): وهو: الفرار عند التقاء الجيشين، فمن فر في ذلك الوقت فقد ارتكب كبيرة عظيمة من الذنوب، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤١١) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

قال القرطبي في "تفسيره" (٧/٣٨١): وَاخْتَلَفَ النَّاسُ هَلِ الْفِرَارُ يَوْمَ الزَّحْفِ مَخْصُوصٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ أَمْ عَامٌّ فِي الزُّحُوفِ كُلِّهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ فَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَبِهِ قَالَ نَافِعٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ وَالضَّحَّاكُ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ. وَأَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِأَهْلِ بَدْرٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَنْحَازُوا، وَلَوِ انْحَازُوا لَانْحَازُوا لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مُسْلِمُونَ غَيْرُهُمْ، وَلَا لِلْمُسْلِمِينَ فِئَةٌ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ، فَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّ بَعْضَهُمْ فِئَةٌ لِبَعْضٍ. قَالَ إِلْكِيَا: وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَمْ يَأْمُرْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْخُرُوجِ وَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ قِتَالٌ، وَإِنَّمَا ظَنُّوا أَنَّهَا الْعِيرُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَنْ خَفَّ مَعَهُ. وَيُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَسَائِرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْآيَةَ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. احْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِمَا ذَكَرْنَا، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فَقَالُوا: هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ، وَأَنَّهُ نُسِخَ حُكْمُ الْآيَةِ بِآيَةِ الضِّعْفِ. وَبَقِيَ حُكْمُ الْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ لَيْسَ بِكَبِيرَةٍ. وَقَدْ فَرَّ النَّاسُ يَوْمَ أُحُدٍ فَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَالَ اللَّهُ فِيهِمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وَلَمْ يَقَعْ عَلَى ذَلِكَ تَعْنِيفٌ. وَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّمَا ذَلِكَ إِشارة إِلَى يَوْمِ الزَّحْفِ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾. وَحُكْمُ الْآيَةِ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِشَرْطِ الضِّعْفِ الَّذِي بَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ نَسْخٌ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ الْقِتَالِ وَانْقِضَاءِ الْحَرْبِ وَذَهَابِ الْيَوْمِ بِمَا فِيهِ. وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ.

وَفِي **"صَحِيحِ مُسْلِمٍ"** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ - وَفِيهِ- وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ» وَهَذَا نَصٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ. وَأَمَّا يَوْمُ أُحُدٍ فَإِنَّمَا فَرَّ النَّاسُ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ ضِعْفِهِمْ وَمَعَ ذَلِكَ عُنِّفُوا. وَأَمَّا يَوْمُ حُنَيْنٍ فَكَذَلِكَ مَنْ فَرَّ إِنَّمَا انْكَشَفَ عَنِ الْكَثْرَةِ. انتهى.

قَوْلُهُ (وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ): القذف في اللغة الرمي، وفي الشرع هو رمي المحصن بالفاحشة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٣-٢٤]، قال القرطبي في "تفسيره" (١٢/ ١٧٢): وَقَذْفُ الرِّجَالِ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْآيَةِ بِالْمَعْنَى، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ. اهـ.

وحد القذف: ثمانين جلدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، وقال تعالى في شأن من يرمي زوجته بالفاحشة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٦-٧]

قال القرطبي في "تفسيره" (١٢/١٧٣)**:** لِلْقَذْفِ شُرُوطٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ تِسْعَةٌ: شَرْطَانِ فِي الْقَاذِفِ، وَهُمَا الْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ، لِأَنَّهُمَا أَصْلَا التَّكْلِيفِ، إِذِ التَّكْلِيفُ سَاقِطٌ دُونَهُمَا. وَشَرْطَانِ فِي الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطئ يلزمه فيه الحد، وهو الزنى وَاللِّوَاطُ أَوْ بِنَفْيِهِ مِنْ أَبِيهِ دُونَ سَائِرِ المعاصي. وخمسة في الْمَقْذُوفِ، وَهِيَ الْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ وَالْإِسْلَامُ وَالْحُرِّيَّةُ وَالْعِفَّةُ عَنِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي رُمِيَ بِهَا، كَانَ عَفِيفًا مِنْ غَيْرِهَا أَمْ لَا. انتهى.

وإذا تأملت هذه المنهيات وجدتها حارسة لمصالح العباد الدينية والدنيوية، وهذا مما يدل على شمول دين الإسلام، وكماله.

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): أي: البخاري (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ جُنْدَبٍ، مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : هو ابن كعب بن عبد اللَّه بن جزء بن عامر بن مالك بن دهمان الأزديّ الغامديّ، أبو عبد اللَّه وربما نسب إلى جدّه، وهو جندب الخير، وهو قاتل السّاحر.

قال ابن حبّان: جندب بن كعب الأزديّ له صحبة، وقال أبو حاتم: جندب بن كعب قاتل الساحر. انتهى من "**الإصابة**" (١/ ٦١٥).

قَوْلُهُ (مَرْفُوعًا): أي: مضافًا إلى النبي ﷺ.

قال البيقوني رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَا أُضِيفَ لَلنَّبِيِّ المَرْفُوعُ ... وَمَا لتَابِعٍ هُوَ المَقْطُوعُ

قَوْلُهُ (حَدُّ السَّاحِرِ): **قال ابن الإثير في "النهاية في غريب الحديث والأثر"** (١/٣٥٢): **الحدّ والحُدُود**: هِيَ محَارِم اللَّهِ وعُقُوبَاتُه الَّتِي قرَنَها بالذُّنوب. وأصْل الحَدّ المنْع والفَصْل بَيْنَ الشَّيئين، فكأنَّ حُدُود الشَّرع فَصَلَتْ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَام فَمِنْهَا مَا لَا يُقْرَب كالفَواحش المُحَرَّمة، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوها. وَمِنْهَا مَا لَا يُتعدّى كالموارِيث المعيّنَة، وتَزْوِيج الْأَرْبَعِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها.

وَمِنْهُ: الْحَدِيثُ «إِنِّي أَصَبْت حَدًّا فأقِمْه عَلَيّ». أَيْ: أَصَبْتُ ذَنْبًا أوْجب عَلَيَّ حَدًّا: أَيْ عُقوبَةً.

وَمِنْهُ: حَدِيثُ أَبِي الْعَالِيَةِ «إنَّ اللَّمَم مَا بين الحَدَّيْنِ: حَدّ الدُّنْيَا وحَدّ الْآخِرَةِ» يُرِيدُ بحَدّ الدُّنْيَا مَا تَجب فِيهِ الحُدُود الْمَكْتُوبَةُ، كالسَّرِقة والزِّنا والقَذْف، ويُريد

بحَدّ الْآخِرَةِ: مَا أَوْعَد اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ العَذابَ كالقَتْل، وعُقُوق الوَالِدَيْن، وأكْل الرِّبَا، فأرادَ أَنَّ اللَّمَم مِنَ الذُّنوب: مَا كَانَ بَين هذَيْن مِمَّا لَم يُوجب عَلَيْهِ حَدًّا فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَعْذِيبا فِي الْآخِرَةِ. انتهى.

قَوْلُهُ (ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ): أي قتله.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ): في **"جامعه"** (١٤٦٠) وقال: هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ المَكِّيُّ يُضَعَّفُ فِي الحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ العَبْدِيُّ البَصْرِيُّ، قَالَ: وَكِيعٌ هُوَ ثِقَةٌ وَيَرْوِي عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا، وَالصَّحِيحُ عَنْ جُنْدَبٍ مَوْقُوفًا وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وقَالَ الشَّافِعِيُّ: إِنَّمَا يُقْتَلُ السَّاحِرُ إِذَا كَانَ يَعْمَلُ فِي سِحْرِهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الكُفْرَ، فَإِذَا عَمِلَ عَمَلًا دُونَ الكُفْرِ فَلَمْ نَرَ عَلَيْهِ قَتْلًا. انتهى.

وله قصة ذكرها عبد الرزاق في **"مصنفه"** (١٠/ ١٨١)، وفيها: وَأَمَّا شَأْنُ أَبِي بُسْتَانٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجُنْدُبٍ: «جُنْدُبٌ، وَمَا جُنْدُبٌ يَضْرِبُ ضَرْبَةً يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» فَإِذَا أَبُو بُسْتَانٍ يَلْعَبُ فِي أَسْفَلِ الْحِصْنِ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ وَالنَّاسُ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ عَلَى سُورِ الْقَصْرِ -يَعْنِي وَسْطَ الْقَصْرِ- فَقَالَ جُنْدُبٌ: وَيْلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا يَلْعَبُ بِكُمْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَفِي أَسْفَلِ الْقَصْرِ، إِنَّمَا هُوَ فِي أَسْفَلِ الْقَصْرِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، وَاشْتَمَلَ عَلَى السَّيْفِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَتَلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَقْتُلْهُ، وَذَهَبَ عَنْهُ السِّحْرُ، فَقَالَ أَبُو بُسْتَانٍ: قَدْ نَفَعَنِي اللَّهُ بِضَرْبَتِكَ وَسَجَنَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ...، وقد صح قتل الساحر عن جندب، وحفصة رضي الله عنهما، وكتب عمر رضي الله عنه إلى الآفاق: «أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٩٨٢).

وهل يقتل حدًا أم ردة؟ إن قتل في حال تعاطيه السحر، وإيمانه به يقتل ردة، والفرق بين قتل الحد والردة أن صاحب الحد يصلى عليه ويدعى ويستغفر له، ويقبر على طريقة المسلمين، أما الذي يقتل ردة يوارى مواراة ولا يستغفر له ولا يُوْرث.

ثم اختلف العلماء في توبة الساحر: فذهب مالك وجمع إلى أنه لا توبة للساحر، والصحيح أن توبته مقبولة إن استوفت الشروط، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهو كافر فلنا ما ظهر منه، فإن أظهر التوبة قبل، وإن بقي على السحر قتل، وإن كان قد قتل بسحره فإنه يقتل حدًا إذا تاب من سحره.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي "صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ" عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدَةَ، قَالَ: (كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ).

قَوْلُهُ (وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ) (٣١٥٦) كتاب الجزية بَابُ الجِزْيَةِ وَالمُوَادَعَةِ مَعَ أَهْلِ الحرب فقال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرًا، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، وَعَمْرِو بْنِ أَوْسٍ فَحَدَّثَهُمَا بَجَالَةُ، -سَنَةَ سَبْعِينَ، عَامَ حَجَّ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَهْلِ البَصْرَةِ عِنْدَ دَرَجِ زَمْزَمَ-، قَالَ: كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الأَحْنَفِ، فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ، فَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ مِنَ المَجُوسِ، وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الجِزْيَةَ مِنَ المَجُوسِ.

وليس فيه قتل السواحر لكن أخرجه الشافعي في "**المسند**" من نفس طريق البخاري (٣٨٣) فقال: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، أَنَّهُ سَمِعَ بَجَالَةَ، يَقُولُ: كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ». قَالَ وَأُخْبِرْنَا أَنَّ حَفْصَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتَلَتْ جَارِيَةً لَهَا سَحَرَتْهَا.

وأخرجه عبد الرزاق في "**المصنف**" (١٨٧٤٦) باب قتل الساحر وهو في "**مصنف ابن أبي شيبة**" (٢٨٩٨٢)، وأحمد في "**مسنده**" (١٦٥٧) وأبو داود (٣٠٤٣) كلهم من طريق سفيان به.

وفيه: العمل بالكتابة إن سلمت من التزوير.

وفيه: ما ساقه المصنف بسببه، وهو قتل الساحر.

وفيه: طاعة الأمراء في طاعة الله.

وفيه: تعاهد الأمراء للحكم بشريعة الله ﷻ.

وفيه: رد على أبي حنيفة حيث زعم أن المرتدة لا تقتل، والصحيح: أن حكمها حكم المرتد، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ». أخرجه البخاري (٣٠١٧).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَصحَّ عن حفْصةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا أَمرتْ بقتْلِ جاريةً لَها سَحرَتْها فقُتِلَت، وكَذَلِكَ صحَّ عَنْ جُندبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ (وَصحَّ عن حفْصةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا أَمرتْ بقتْلِ جاريةً لَها سَحرَتْها فَقُتِلَت): أخرجه الشافعي في "**المسند**" (٣٨٣)، وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني في "**المصنف**" (١٠/ ١٨٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَوْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «أَنَّ جَارِيَةً لِحَفْصَةَ سَحَرَتْهَا، وَاعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ فَأَمَرَتْ بِهَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدٍ فَقَتَلَهَا، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ»، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَا تُنْكِرُ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ امْرَأَةٍ سَحَرَتْ وَاعْتَرَفَتْ» فَسَكَتَ عُثْمَانُ. وأخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٥٣) من طريق عَبْدَةُ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بالجزم وفيه: «فَكَأَنَّ عُثْمَانَ إِنَّمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قُتِلَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ».

قَوْلُهُ (وَكَذَلِكَ صحَّ عَنْ جُندبٍ): أي قتل الساحر وقد تقدم.

قَوْلُهُ (قَالَ أَحْمَدُ): هو الإمام أبو عبد الله بن حنبل.

قَوْلُهُ (عَنْ ثَلاثةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ): بمعنى أنه حجة؛ لأنه لا يوجد لهم مخالف.

بينما أخرج عبد الرزاق الصنعاني في "**المصنف**" (١٠/ ١٨٣): وغيره بسند صحيح عَنْ عَمْرَةَ، قَالَتْ: مَرِضَتْ عَائِشَةُ فَطَالَ مَرَضُهَا، فَذَهَبَ بَنُو أَخِيهَا إِلَى رَجُلٍ فَذَكَرُوا مَرَضُهَا، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَتُخْبِرُونِي خَبَرَ امْرَأَةٍ مَطْبُوبَةٍ قَالَ: فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ فَإِذَا جَارِيَةٌ لَهَا سَحَرَتْهَا، وَكَانَتْ قَدْ دَبَّرَتْهَا، فَسَأَلَتْهَا فَقَالَتْ: «مَا أَرَدْتِ

مِنِّي؟» فَقَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ تَمُوتِي حَتَّى أُعْتَقَ، قَالَتْ: «فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ تُبَاعِي مِنْ أَشَدِّ الْعَرَبِ مِلْكَةً، فَبَاعَتْهَا، وَأَمَرَتْ بِثَمَنِهَا، أَنْ يُجْعَلَ فِي غَيْرِهَا».

وأذكر هنا قصة عجيبة في هذا الباب، قال ابن جرير في "تفسيره" (٣٥٣/٢):

حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، قَالَ: حَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ دُومَةِ الْجَنْدَلِ، جَاءَتْ تَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ حَدَاثَةَ ذَلِكَ، تَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ دَخَلَتْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ السِّحْرِ وَلَمْ تَعْمَلْ بِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، فَرَأَيْتُهَا تَبْكِي حِينَ لَمْ تَجِدْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَشْفِيَهَا، كَانَتْ تَبْكِي حَتَّى إِنِّي لَأَرْحَمُهَا، وَتَقُولُ: إِنِّي لَأَخَافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ هَلَكْتُ، كَانَ لِي زَوْجٌ فَغَابَ عَنِّي، فَدَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزٌ فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنْ فَعَلْتِ مَا آمُرُكِ بِهِ فَأَجْعَلُهُ يَأْتِيكِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ جَاءَتْنِي بِكَلْبَيْنِ أَسْوَدَيْنِ، فَرَكِبَتْ أَحَدَهُمَا وَرَكِبْتُ الْآخَرَ، فَلَمْ يَكُنْ كَشَيْءٍ حَتَّى وَقَفْنَا بِبَابِلَ، فَإِذَا بِرَجُلَيْنِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَرْجُلِهِمَا، فَقَالَا: مَا جَاءَ بِكِ؟ فَقُلْتُ: أَتَعَلَّمُ السِّحْرَ؟ فَقَالَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرِي وَارْجِعِي، فَأَبَيْتُ وَقُلْتُ: لَا، فَقَالَا: اذْهَبِي إِلَى ذَلِكَ التَّنُّورِ فَبُولِي فِيهِ. فَذَهَبْتُ فَفَزِعْتُ فَلَمْ أَفْعَلْ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمَا، فَقَالَا: أَفَعَلْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَا: فَهَلْ رَأَيْتِ شَيْئًا؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَ شَيْئًا، فَقَالَا لِي: لَمْ تَفْعَلِي، ارْجِعِي إِلَى بِلَادِكِ وَلَا تَكْفُرِي. فَأَبَيْتُ، فَقَالَا: اذْهَبِي إِلَى ذَلِكَ التَّنُّورِ فَبُولِي فِيهِ. فَذَهَبْتُ، فَاقْشَعْرَرْتُ وَخِفْتُ. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ، فَقَالَا: فَمَا رَأَيْتِ؟ فَقُلْتُ: لَمْ أَرَ شَيْئًا، فَقَالَا: كَذَبْتِ لَمْ تَفْعَلِي، ارْجِعِي إِلَى بِلَادِكِ وَلَا تَكْفُرِي، فَإِنَّكِ عَلَى رَأْسِ أَمْرِكِ. فَأَبَيْتُ، فَقَالَا: اذْهَبِي إِلَى ذَلِكَ التَّنُّورِ فَبُولِي فِيهِ. فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَبُلْتُ فِيهِ، فَرَأَيْتُ فَارِسًا مُتَقَنِّعًا بِحَدِيدٍ خَرَجَ مِنِّي حَتَّى ذَهَبَ فِي السَّمَاءِ وَغَابَ عَنِّي حَتَّى مَا أَرَاهُ، فَجِئْتُهُمَا فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ، فَقَالَا: مَا رَأَيْتِ؟ فَقُلْتُ: فَارِسًا مُتَقَنِّعًا خَرَجَ مِنِّي فَذَهَبَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى مَا أُرَاهُ، فَقَالَا: صَدَقْتِ، ذَلِكِ إِيمَانُكِ خَرَجَ مِنْكِ اذْهَبِي.

فَقُلْتُ لِلْمَرْأَةِ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا وَمَا قَالَا لِي شَيْئًا، فَقَالَتْ: بَلَى، لَنْ تُرِيدِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ، خُذِي هَذَا الْقَمْحَ فَابْذُرِي، فَبَذَرْتُ، فَقُلْتُ: أَطْلِعِي، فَأَطْلَعَتْ، وَقُلْتُ: أَحْقِلِي، فَأَحْقَلَتْ، ثُمَّ قُلْتُ: أَفْرِكِي. فَأَفْرَكَتْ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيْبِسِي، فَأَيْبَسَتْ، ثُمَّ قُلْتُ: أَطْحِنِي. فَأَطْحَنَتْ، ثُمَّ قُلْتُ: أَخبزِي، فَأَخْبَزَتْ. فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنِّي لَا أُرِيدُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ سُقِطَ فِي يَدِي وَنَدِمْتُ وَاللَّهِ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ شَيْئًا قَطُّ وَلَا أَفْعَلُهُ أَبَدًا.

هذا سند لا بأس به، لكن كأن فيها بعض النكارات.

قال الحافظ في "فتح الباري" (١٠/٢٢٢): لَكِنْ مَحَلُّ النِّزَاعِ هَلْ يَقَعُ بِالسِّحْرِ انْقِلَابُ عَيْنٍ أَوْ لَا فَمَنْ قَالَ إِنَّهُ تَخْيِيلٌ فَقَطْ مَنَعَ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ إِنَّ لَهُ حَقِيقَةً اخْتَلَفُوا هَلْ لَهُ تَأْثِيرٌ فَقَطْ بِحَيْثُ يُغَيِّرُ الْمِزَاجَ فَيَكُونُ نَوْعًا مِنَ الْأَمْرَاضِ أَو يَنْتَهِي إِلَى الاحالة بِحَيْثُ يصير الجماد حَيَوَانًا مَثَلًا وَعَكْسُهُ فَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ إِلَى الثَّانِي فَإِنْ كَانَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَمُسَلَّمٌ وَإِنْ كَانَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْوَاقِعِ فَهُوَ مَحَلُّ الْخِلَافِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعِي ذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ إِقَامَةَ الْبُرْهَانِ عَلَيْهِ وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ أَنَّ قَوْمًا أَنْكَرُوا السِّحْرَ مُطْلَقًا وَكَأَنَّهُ عَنَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ تَخْيِيلٌ فَقَطْ وَإِلَّا فَهِيَ مُكَابَرَة. انتهى.

وبعضهم قال: لو سلمنا بأن الساحر يستطيع أن يفعل بعض الأشياء لكان مشابهًا للنبي وتلتبس معجزة النبي بفعل الساحر، وهذا القول غير صحيح وغير وارد؛ لأن الساحر لم يدعي النبوة، وإذا ادعى النبوة فهو كاذب. وتظهر على الساحر علامات المخذولين، من تضييع الصلوات والشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وغير ذلك.

وحكم الساحر القتل لما تقدم، وقد يقول قائل: وحديث النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:

الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»، متفق عليه(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه .

يقال: هذا الحديث قد استثنيت منه أنواع كثيرة، ومنهم اللوطي، والجاسوس على المسلمين للكافرين على الصحيح من أقوال أهل العلم، والساحر، وشارب الخمر في الرابعة إن رأى الإمام ذلك مع أن الحديث منسوخ، في أنواع ذكرتها في كتابي "**أحكام قتل النفس المعصومة**".

وقد يقول قائل: ما الحجة في قتل الساحر؟

نقول: من وجهين: الوجه الأول: من جهة الردة، والساحر كافر، وهو داخل في حديث ابن عباس عند البخاري (٣٠١٧): «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق: «وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»، والمرتد يقتل، سواء كان رجلًا أو امرأة على الصحيح، وأما حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، «فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»(٢)، فهو في حق الكفار الأصليين، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ»(٣).

والوجه الثاني: ثبوته عن ثلاثة من الصحابة.

ومن علامات السحرة والكهان: أنهم يسألون عن اسم الأم عند التداوي، ويأمرون بذبائح لا يذكر اسم الله عليها.. إلى غير ذلك.

والإنسان إذا استعان بالله حفظه، والنبي ﷺ أنزل عليه إحدى عشرة آية كان يعوذ نفسه بها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٥)، ومسلم (١٧٤٤).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٩٩٢).

[الناس: ١]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ مشروعية قراءة آية الكرسي فقد جاء في "صحيح البخاري" (٢٣١١) أنه قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ

شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»[(١)].

وحث على قراءة سورة البقرة، وأخبر أنها لا يستطيعها البطلة كما جاء من حديث أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عند مسلم (٨٠٤): «اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»، ويعوذ الإنسان نفسه بقراءة الآيتين من أخر سورة البقرة، كما قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[(٢)]، وقال ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[(٣)]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ، قَالَ: «أَمَا لَوْ قُلْتَ، حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ»[(٤)]، فيستعيذ الإنسان بالله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

***

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، من حديث خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

٢٤- بَابُ بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَوْلُهُ (بَابُ بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ) أي هذا باب فيه شيء من أنواع السحر، وذلك أن السحر شعب، والناس فيه على مراتب، وطرائق، ومناسبة الترجمة للباب أنه بعد أن بين حقيقة السحر، وحكمه ناسب أن يذكر أنواعه حتى لا تلتبس الأمور على الناس، فيقعون في شعب السحر المتنوعة.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في "تيسير العزيز الحميد" (٣٣٥): لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئًا من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور، فهو من الأولياء، وعدّوها من كرامات الأولياء وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورُجي منهم النفع والضر، والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتًا، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله، من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق.

فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون وليًّا لله تعالى، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع. وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياسة مخالفة للشريعة، كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم، فيطيرون بهم في الهواء، ويمشون بهم على الماء، ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى

شيطانية وبحيل وأدوية، كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن النارنج.

وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع، وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه.

وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر، وتقع كما أخبر، وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك استدراجًا والأحوال الشيطانية كثيرة.

وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه فاعتصم به وحده، لا إله إلا هو، فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. فذكر تعالى أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة. فدل أن الشخص قد يكون وليًّا لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمنًا متقيًا.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]. فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلًا عن أن يكون وليًّا لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا ما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا من يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع. وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد.

وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له، الذين لا يشركون بالله شيئًا وإن لم تجر على أيديهم

خوارق، فإن كانت الخوارق دليلًا على ولاية الله، فلتكن دليلًا على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرس، ورهبان اليهود والنصارى، وعباد الأصنام، فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف، ولكن هي من قِبَل الشياطين، فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقد طارت الشياطين ببعض من ينتسب إلى الولاية، فقال: لا إله إلا الله فسقط. وتجد عمدة كثير من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحيانًا، أو يمشي على الماء، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب، أو يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو يخبر بعض الناس بما سرق له، أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك.

وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلًا عن أن يكون وليًّا لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها وليًّا لله، وقد يكون عدوًّا له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع، وتكون لهؤلاء من قِبَل الشياطين أو تكون استدراجًا، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي لله، بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي المكتوبة ولا يتنظف ولا يتطهر

الطهارة الشرعية، بـل يكـون ملابسًـا للنجاسـات، معاشـرًا للكـلاب، يـأوي إلى المزابل، رائحته خبيثة، ركابًـا للفـواحش، يمشـي في الأسـواق كاشـفًا لعورتـه، غامزًا للشرع، مسـتهزئًا بـه وبحملتـه، يأكـل العقـارب والخبائـث التـي تحبهـا الشياطين، كافرًا بالله، ساجدًا لغير الله من القبـور وغيرهـا، يكـره سـماع القـرآن وينفر منه، ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشـيطان عـلى كـلام الـرحمن. فلو جرى على يدي شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون وليًّـا لله، محبوبًا عنده حتى يكون متبعًا لرسوله ﷺ باطنًا وظاهرًا.

فإن قلت: فعلى هـذا مـا الفـرق بـين الكرامـة وبـين الاسـتدراج والأحـوال الشيطانية؟ قيل: إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق، لأنه إذا كان الشخص مخالفًـا للشرع، فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة، بل هي إما استدراج وإما مـن عمل الشياطين، ويكون سببها هو ارتكـاب مـا نهـى الله عنـه ورسـوله ﷺ، فـإن المعاصي لا تكون سببا لكرامة الله، ولا يستعان بالكرامات عليها، فـإذا كانـت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصـل بمـا تحبـه الشـياطين كالاستغاثة بغير الله، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعـل الفـواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية، وكلما كان الإنسـان أبعـد عن الكتاب والسنة كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره، فإن الجـن الذين يقترنون بالإنس من جنسهم. فإن كان كافرًا ووافقهم على ما يختارونه مـن الكفر والفسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه، وللسجود لهـم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة فعلوا معه كثيرًا مما يشتهيه بسـبب مـا برطلهم به من الكفر وقد يأتونه بما يهواه مـن امـرأة وصـبي، بخـلاف الكرامـة، فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له، والتمسـك بكتابه، واجتناب المحرمات، فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة. وقـد اتفـق على هذا الفرق جميع العلماء.

وبالجملة فإن عرفت الأسباب التي بها تنال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة، وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مع كل ناعق وساحر ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. ولشيخ الإسلام كتاب "**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**". فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين. انتهى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بن الْعَلاءِ، حدثنا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عن أَبِيهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ، مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ.

وَالْجِبْتُ، قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاودَ، وَالنَّسَائِيِّ، وابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدِ مِنْهُ.

قَوْلُهُ (قَالَ أَحْمَدُ): أي: في «**المسند**» (٢٠٦٠٤).

قَوْلُهُ (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ): الملقب بغندر ثقة، ربيب شعبة بن الحجاج ويروي عنه كثيرًا لكثرة ملازمته له.

قَوْلُهُ (حَدَّثَنَا عَوْفٌ): هو ابن أبي جميلة الأعرابي ثقة.

قَوْلُهُ (عَنْ حَيَّانَ بنِ الْعَلاءِ): وقيل: حيان بن العلاء، وقيل: حيان بن مخارق، أبو العلاء لم يوثقه معتبر.

قَوْلُهُ (حدثنا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عن أَبِيهِ): قطن صدوق وأبوه هو قطن بن المخارق بن عبد اللَّه بن شداد بن معاوية بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالي، أبو بشر.

روى عن النبي صلّى اللَّه عليه وآله وسلم، وروى عنه ولده قطن، وكنانة بن نعيم، وأبو عثمان النهدي، وغيرهم، مترجم في «**الإصابة**».

قَوْلُهُ (إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ، مِنَ الْجِبْتِ): والمراد بالجبت: التكهن، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَوْلُـهُ (قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ): **وفي "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الاثير (٣/٣٣٠)**: العِيَافَة: زَجْر الطَّيـر والتَّفـاؤُل بأسْـمائِها وأصْـوَاتها ومَمرَّها. وَهُوَ مِنْ عَادَة العَرب كَثِيرًا. وَهُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ. يُقال: عَاف يَعِيـفُ عَيْفًا إِذَا زَجر وَحَدَس وظنَّ.

وَبُنو أَسَد يُذكَرون بالعِيَافَة ويُوصَفُون بهَـا. قِيـلَ عَـنْهُمْ: إنَّ قَومًـا مِـنَ الجِـنّ تَذَاكَرُوا عِيَافتَهم فأتَوْهُم، فَقَالُوا: ضَلَّت لَنَا ناقـةٌ فَلَـوْ أرْسَـلْتُم مَعَنـا مَـنْ يَعِيـفُ، فَقَالُوا لُغَلِّيم مِنْهُمْ: انْطلِق مَعَهم، فاسْتَرْدَفه أحَـدُهم، ثُـمَّ سَـارُوا فَلَقِـيَهُم عُقـابٌ كاسِرَةٌ إِحْدَى جَنَاحَيْها، فاقْشَعرَّ الغُلام، وبَكَى، فقالوا: مـا لـك؟ فقـال: كَسَـرتْ جَنَاحًا، وَرَفَعَتْ جَنَاحًا، وَحَلَفَتْ بِاللَّهِ صُرَاحًا، مَا أَنْتَ بِإِنْسِيٍ وَلَا تَبْغِي لِقَاحًا.

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ «أنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ المُطَّلـب أَبَـا النبـيِّ ﷺ مـرَّ بـامْرَأةٍ تَنْظُـر وتَعْتَافُ، فَدعَتْه إِلَى أَنْ يَسْتَبْضِع مِنْهَا فأبَى».

وَحَدِيثُ ابْنِ سِيرين «إنَّ شُرَيْحا كَانَ عَائِفًـا» أَرَادَ أَنَّـهُ كَـانَ صـادِقَ الحـدْس والظَّنِّ، كَمَا يُقَالُ لِلَّذِي يُصِيب بِظَنّه: مَا هُوَ إلاَّ كَاهِنٌ، وللبَلِيغ فِي قَوْلِهِ: مَا هُو إِلَّا ساحِر، لَا أنَّه كانَ يَفْعل فِعْلَ الجاهليَّة فِي العِيَافَة. انتهى.

قَوْلُهُ (وَالطَّرْقَ): الطَّرق: الضَّرب بِالْحَصَا الَّـذِي يَفْعلـه النِّسَـاءُ. وَقِيـلَ هُـوَ الخطُّ فِـي الرَّمْـل. اهــ مـن **"النهاية في غريب الحديث والأثر"** لابـن الاثيـر (٣/ ١٢١).

ويستدل بعضهم على جوازه بحديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ عنـد مسـلم (٥٣٧): «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ»، ولا دلالة في ذلـك، فإن ذلك نبي يُوحى إليه، ثم ما أدرى هذا أن خطـه وافـق خـط ذلـك النبـي ﷺ، والقول بأنه وافق يحتاج إلى دليل، فهو قائم عـلى الكهانـة والعرافـة وغيـر ذلـك، وليس في الحديث الإباحة، وإنما فيه المنع منهـا؛ لأنـه لا يمكـن أن يكـون هـذا

المتأخر الساحر خطه على خط ذلك النبي، ولو قال خطي على خطه أو كخطه لكان قائلًا بغير علم.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**شرحه على مسلم**» (٥/ ٢٣): قَوْلُهُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ قَالَ كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ فالصحيح أن معناه من وافق خطُّه فَهُوَ مُبَاحٌ لَهُ وَلَكِنْ لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ بِالْمُوَافَقَةِ فَلَا يُبَاحُ وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ حَرَامٌ لِأَنَّهُ لَا يُبَاحُ إِلَّا بِيَقِينِ الْمُوَافَقَةِ وَلَيْسَ لَنَا يَقِينٌ بِهَا وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فيمن وافق خَطُّهُ فَذَاكَ وَلَمْ يَقُلْ هُوَ حَرَامٌ بِغَيْرِ تَعْلِيقٍ عَلَى الْمُوَافَقَةِ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ هَذَا النَّهْيَ يَدْخُلُ فِيهِ ذَاكَ النَّبِيُّ الَّذِي كَانَ يَخُطُّ فَحَافَظَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حُرْمَةِ ذَاكَ النَّبِيِّ مَعَ بيان الحكم في حقنا فالمعنى أن ذلك النَّبِيَّ لَا مَنْعَ فِي حَقِّهِ وَكَذَا لَوْ عَلِمْتُمْ مُوَافَقَتَهُ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهَا وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عَنْ هَذَا الْخَطِّ إِذَا كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّةِ ذَاكَ النَّبِيِّ وَقَدِ انْقَطَعَتْ فَنُهِينَا عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ الْمُخْتَارُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ مَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاكَ الَّذِي يَجِدُونَ إِصَابَتَهُ فِيمَا يَقُولُ لَا أَنَّهُ أَبَاحَ ذَلِكَ لِفَاعِلِهِ قَالَ وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا نُسِخَ فِي شَرْعِنَا فَحَصَلَ مِنْ مَجْمُوعِ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِيهِ الِاتِّفَاقُ عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ الْآن. انتهى.

قَوْلُهُ (والطِيرة): مشتقة من الطير، قال ابن الأثير في «**النهاية**» (٣/ ١٥٢): الطِّيَرَة بِكَسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِ الْيَاءِ، وَقَدْ تُسَكّن: هِيَ التَّشَاؤُمُ بِالشَّيْءِ. وَهُوَ مَصْدَرُ تَطَيَّرَ. يُقَالُ: تَطَيَّرَ طِيَرَةً، وتَخَير خِيَرَةً، ولم يجيء مِنَ الْمَصَادِرِ هَكَذَا غَيْرُهُمَا. وأصلُه فِيمَا يُقال: التَّطَيُّر بالسَّوَانِح والبَوارِح مِنَ الطَّيْر وَالظِّبَاءِ وغيرهما. وَكَانَ ذَلِكَ يَصُدّهم عَنْ مَقَاصِدِهِمْ، فَنَفَاهُ الشَّرْعُ، وأبطله ونهى عنه، وأخبره أَنَّه لَيْسَ لَهُ تأْثِيرٌ فِي جَلْب نفْعٍ أَوْ دَفعِ ضَرٍّ. وَقَدْ تكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْحَدِيثِ اسْمًا وفِعْلًا. انتهى.

قَوْلُهُ (قَالَ الْحَسَنُ): هو الإمام المشهور المجمع على جلالته في كل فن،

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار التابعي البصري، بفتح الباء وكسرها، الأنصاري، مولاهم مولى زيد بن ثابت، وقيل: مولى جميل بن قطبة، وأمه اسمها خيرة مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها. ولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قالوا: فربما خرجت أمه في شغل فيبكى فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها فيدر عليه، فيرون أن تلك الفصاحة والحكم من ذلك.

ونشأ الحسن بوادي القرى، وكان فصيحًا، رأى طلحة بن عبيد الله، وعائشة رضي الله عنهما، ولم يصح له سماع منها. وقيل: إنه لقى على بن أبى طالب رضي الله عنه ، ولم يصح، وسمع ابن عمر، وأنسًا، وسمرة، وأبا بكرة، وقيس بن عاصم، وجندب بن عبد الله، ومعقل بن يسار، وعمرو بن تغلب، بالمثناة والغين المعجمة، وعبد الرحمن بن سمرة، وأبا برزة الأسلمي، وعمران بن الحصين، وعبد الله بن مغفل، وأحمر بن جزء، وعائذ بن عمرو المزني الصحابيين، رضي الله عنهما. وسمع خلائق من كبار التابعين، روى عنه خلائق من التابعين وغيرهم. انتهى من "**تهذيب الأسماء واللغات**" للنووي (١/ ١٦١).

قَوْلُهُ (رَنَّةُ الشَّيْطَانِ): الرنة هي: البكاء، والنياحة والأصوات التي تخرج عند التسخط، قال القرطبي في "**تفسيره**" (١/ ١٠٩): عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ رَنَّ أَرْبَعَ رَنَّاتٍ: حِينَ لُعِنَ، وَحِينَ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَحِينَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَحِينَ أُنْزِلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ. اهـ.

قَوْلُهُ (وَلأَبي دَاودَ): أي: في "**سننه**" (٣٩٠٧)، وهو أَبُو دَاوُدَ، سُلَيْمَانُ بنُ الأَشْعَثِ ابنِ إِسْحَاقَ بنِ بَشِيْرِ بنِ شَدَّادِ بْنِ عَمْرِو بنِ عِمْرَانَ الأَزْدِيُّ، السِّجِسْتَانِيُّ (المتوفى:٢٧٥هـ).

قَوْلُهُ (وَالنَّسَائِيِّ): في "**الكبرى**" (١١٠٤٣) والنَّسَائِيُّ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ عَلِيٍّ الخُرَاسَانِيُّ، النَّسَائِيُّ (المتوفى:٣٠٣هـ).

قَوْلُهُ (وابْنِ حِبَّانَ): في "**صحيحه**" (٦١٣١) هو مُحَمَّدُ بنُ حِبَّانَ بنِ أَحْمَدَ بنِ حِبَّانَ بنِ مُعَاذِ بنِ معبدِ، التَّمِيْمِيُّ الدَّارِمِيُّ، أَبُو حَاتِمٍ، البُسْتِيُّ (المتوفى: ٣٥٤هـ).

قَوْلُهُ (وابْنِ حِبَّانَ فِي "صَحِيحِهِ"): وهذا تجوّز، وإلا فكتابه الصحيح كثير من أحاديثه لا ترتقي إلى الصحة، بل فيه الموضوعات والضعاف، والحسان، و"**صحيح**" ابن خزيمة أحسن منه حالًا، وكان ابن حبان رحمه الله متساهلًا في التوثيق متشددًا في الجرح، وربما ترك من ليس بمتروك، وكان إذا عدَّلَ وثق المجاهيل.

قَوْلُهُ (الـمُسْنَدِ مِنْهُ): أي المرفوع منه إلى النبي ﷺ دون ذكر التفاسير لمعناه.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا): هو: أبو العباس عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ.

قَوْلُهُ (مَنِ اقْتَبَسَ): أي تعلم، قال الراغب في "**النهاية**" (٤/ ٤): قَبَسْتُ العِلْمَ واقْتَبَسْتُه إِذَا تَعلَّمْتَه. والقَبَس: الشُّعْلَةُ مِنَ النَّارِ، واقْتِبَاسُها: الأَخْذُ مِنْهَا.

وَمِنْهُ حَدِيثُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حَتَّى أَوْرَى قَبَسا لِقَابِس» أَيْ أظْهَر نُورًا مِنَ الْحَقِّ لطالبِه. والقابِس: طالبُ النَّارِ، وَهُوَ فاعلٌ مِنْ قَبَس.

وَمِنْهُ حَدِيثُ العِرْباض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَتَيْناك زَائِرِينَ ومُقْتَبِسين» أَيْ طَالِبِي الْعِلْمِ.

وَحَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «فَإِذَا رَاحَ أَقْبَسْنَاه مَا سَمِعْنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وَسَلَّمَ» أَيْ أعْلَمناه إيَّاه. انتهى.

قَوْلُهُ (شُعْبَةً): الطائفةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، والقِطعة مِنْهُ. انتهى من "**النهاية**" للراغب (٢/ ٤٧٧).

قَوْلُهُ (مِنَ النُّجُومِ): أي علم التأثير حيث يزعم أصحابه أنّ التغيرات الفلكية، والروحانية تنتج عنها الحوادث الأرضية، وهذا القول من الكفر الظاهر لمن تأمله.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ،

وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَـهُ بِـهِ، ذكـره البخـاري في "**صحيحه**" (٤/ ١٠٧)، وسـيأتي مزيد بيان لهذه المسألة إن شاء الله تعالى.

قَوْلُهُ (فَقَدِ اقْتَبَسَ): أي حصل.

قَوْلُهُ (شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ): أي قطعة وطائفة منه، ومن حصل شـيئا منـه فقـد ضيع دينه.

قَوْلُهُ (زَادَ مَا زَادَ): أي كلما زاد من علم النجوم زاد تعمقـه في السـحر، وزاد إثمه، وهذا يدل على أن السحر شُعب، وما يـزال الرجـل يتعمـق فيـه حتـى يبلـغ الزندقة المحضة.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وإِسنَادُهُ صَحِيحٌ): أي في "**سننه**" (٣٩٠٥) كتـاب الطب باب في النجوم قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَـيْبَةَ، وَمُسَـدَّدٌ الْمَعْنَـى، قَـالَا: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْنَسِ وهو صدوق، عَـنِ الْوَلِيـدِ بْـنِ عَبْـدِ اللَّـهِ وهو بن أبى مغيث العبدري مولاهم المكـي، الحجـازي ثقـة، عَـنْ يُوسُـفَ بْـنِ مَاهَكَ وهو ثقـة، عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ رضي الله عنهما وذكـر الحـديث، وأخرجـه ابـن ماجـه (٣٧٢٦)، وأحمد (٢٠٠١).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».**

قَوْلُهُ (وَلِلنَّسَائِيِّ): أي في "**السنن**" (٤٠٧٩) كتاب تحريم الدماء باب الْحُكْمُ فِي السَّحَرَةِ، من طريق عباد بن ميسرة المنقري، عن الحسن، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، وعباد بن ميسرة لين الحديث، والحسن لم يسمع من أَبِي هُرَيْرَةَ. و "**السنن**" المشهور، ربما سمي "**بالصغرى**"، أو "**المجتبى**"، وله "**السنن الكبرى**"، ويشمل كتاب التفسير، والنعوت، والجمعة، والخصائص، وفضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمل اليوم والليلة؛ إلى غير ذلك.

وفي الغالب إذا كان العزو إلى النسائي فإنه "**المجتبى**"، وإذا قالوا: أخرجه النسائي في "**الكبرى**" ذهب الإشكال.

قَوْلُهُ (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً): قال الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ **في "تيسير العزيز الحميد" (٣٤٣)**: اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط، ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدونه من السحر. ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾. يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر. فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيصيبه السحر بإذن الله الكوني الشرعي، لا الإذن القدري، قاله ابن القيم. انتهى.

قَوْلُهُ (**ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا**): مِنَ النَّفْثِ بالفَم، وَهُوَ شَبيه بالنَّفْخ، وَهُوَ أقَلُّ مِنَ التَّفْل؛ لِأَنَّ التَّفْل لَا يَكُونُ إِلَّا وَمَعَهُ شيءٌ مِنَ الرِّيق. انتهى من «**النهاية**» للراغب (٥/ ٨٨).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي». رواه مسلم (٢١٩٢).

قَوْلُهُ (**فَقَدْ سَحَرَ**): أي: فقد وقع منه عمل السحر.

قَوْلُهُ (**وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**): في هذا دليل على أن السحر شرك وكفر بالله العظيم؛ إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك على ما تقدم، ولأن الساحر يستعين بالجن والشياطين في قضاء غرضه، وهذا يستلزم منه تقربه إليهم بأنواع من العبادات.

قَوْلُهُ (**وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**): هذه العبارة قد تقدمت، وهو من مراسيل الحسن ومراسيله من أوهى المراسيل، لكن مع ذلك من تعلق بالجن والشياطين تركه الله عز وجل وتسلطوا عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَلا هَلْ أُنَبِّئُكُم مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ: الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وهو عبد الله بن مسعود الهذلي.

قَوْلُهُ (أَلا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟): قال النووي في "شرحه على مسلم" (١٦/ ١٥٩): هَذِهِ اللَّفْظَةُ رَوَوْهَا عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعِضَهُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ عَلَى وَزْنِ الْعِدَةِ وَالزِّنَةِ وَالثَّانِي الْعَضْهُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَإِسْكَانِ الضَّادِ عَلَى وَزْنِ الْوَجْهِ وَهَذَا الثَّانِي هُوَ الْأَشْهَرُ فِي رِوَايَاتِ بِلَادِنَا وَالْأَشْهَرُ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَكُتُبِ غَرِيبِهِ وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَنَقَلَ الْقَاضِي أَنَّهُ رِوَايَةُ أَكْثَرِ شُيُوخِهِمْ وَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ الْفَاحِشُ الْغَلِيظُ التَّحْرِيمِ. انتهى.

قَوْلُهُ (هِيَ النَّمِيمَةُ: الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ): أي نقل الحديث بين الناس، وخصه بعضهم على جهة الإفساد؛ قال النووي في "شرحه على مسلم" (٢/ ١١٢): فِي رِوَايَةٍ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ وَفِي أُخْرَى قَتَّاتٌ وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ فَالْقَتَّاتُ هُوَ النَّمَامُ وَهُوَ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ التَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فوق قال الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ يُقَالُ نَمَّ الْحَدِيثَ يَنُمُّهُ وَيَنِمُّهُ بِكَسْرِ النُّونِ وَضَمِّهَا نَمًّا وَالرَّجُلُ نَمَّامٌ وَنَمٌّ وَقَتَّهُ يَقُتُّهُ بِضَمِّ الْقَافِ قَتًّا قَالَ الْعُلَمَاءُ النَّمِيمَةُ نَقْلُ كَلَامِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْإِحْيَاءِ اعْلَمْ أَنَّ النَّمِيمَةَ إِنَّمَا تُطْلَقُ فِي الْأَكْثَرِ عَلَى مَنْ يَنِمُّ قَوْلَ الْغَيْرِ إِلَى الْمَقُولِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ فُلَانٌ يَتَكَلَّمُ فِيكَ بِكَذَا قَالَ وَلَيْسَتِ النَّمِيمَةُ مَخْصُوصَةً بِهَذَا بَلْ حَدُّ النَّمِيمَةِ كَشْفُ مَا يُكْرَهُ كَشْفُهُ سَوَاءٌ كَرِهَهُ الْمَنْقُولُ عَنْهُ أَوِ الْمَنْقُولُ إِلَيْهِ أَوْ ثَالِثٌ وَسَوَاءٌ

كان الكشف بالنكاية أَوْ بِالرَّمْزِ أَوْ بِالْإِيمَاءِ فَحَقِيقَةُ النَّمِيمَةِ إِفْشَاءُ السِّرِّ وَهَتْكُ السِّتْرِ عَمَّا يُكْرَهُ كَشْفُهُ فَلَوْ رَآهُ يُخْفِي مَالًا لِنَفْسِهِ فَذَكَرَهُ فَهُوَ نَمِيمَةٌ قَالَ وَكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إِلَيْهِ نَمِيمَةٌ وَقِيلَ لَهُ فُلَانٌ يَقُولُ فِيكَ أَوْ يَفْعَلُ فِيكَ كذا فعليه ستة أمور الأول أن لا يُصَدِّقَهُ لِأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ الثَّانِي أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْصَحَهُ وَيُقَبِّحَ لَهُ فِعْلَهُ الثَّالِثُ أَنْ يُبْغِضَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ الله تعالى الرابع أن لا يظن بأخيه الغائب السوء الخامس أن لا يَحْمِلَهُ مَا حُكِيَ لَهُ عَلَى التَّجَسُّسِ وَالْبَحْثِ عن ذلك السادس أن لا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا نُهِيَ النَّمَّامُ عَنْهُ فَلَا يَحْكِي نَمِيمَتَهُ عَنْهُ فَيَقُولُ فُلَانٌ حَكَى كَذَا فَيَصِيرُ بِهِ نَمَّامًا وَيَكُونُ آتِيًا مَا نُهِيَ عَنْهُ هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْغَزَالِيِّ رحمه الله وَكُلُّ هَذَا الْمَذْكُورِ فِي النَّمِيمَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ فَإِنْ دَعَتْ حَاجَةٌ إِلَيْهَا فَلَا مَنْعَ مِنْهَا وَذَلِكَ كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُ بِأَنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ الْفَتْكَ بِهِ أَوْ بأهله أو بماله أو أخبر الامام أومن لَهُ وِلَايَةٌ بِأَنَّ إِنْسَانًا يَفْعَلُ كَذَا وَيَسْعَى بِمَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الْوِلَايَةِ الْكَشْفُ عَنْ ذَلِكَ وَإِزَالَتُهُ فَكُلُّ هَذَا وَمَا أشبهه لَيْسَ بِحَرَامٍ وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ وَاجِبًا وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبًّا عَلَى حَسَبِ الْمَوَاطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.

والنميمة من أنواع السحر، لكن ليس بالسحر الكفري الشركي، وإنما هو سحر محرم ووجه إدخالها في باب السحر لشدة إفسادها ووقوع التفريق بين الناس بسببها، وذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب في هذا الموطن؛ ليدلل على أن النمام قد يفسد كما يفسد الساحر، ولهذا قال النبي ﷺ كما في حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه في "**الصحيحين**"[(١)]: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» وفي رواية: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»، وقال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

قوله: (رواه مسلم): في "**صحيحه**" (٢٦٠٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُما عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»

قَوْلُهُ (وَلَهُما): أي للشيخين البخاري (٥١٤٦)، ومسلم (٨٦٩).

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): تقدمت ترجمته.

قَوْلُهُ (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا): **قال النووي في "شرحه على مسلم" (١٥٩/٦)**: قَوْلُهُ ﷺ وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ هُوَ مِنَ الْفَهْمِ وَذَكَاءِ الْقَلْبِ قَالَ الْقَاضِي فِيهِ تَأْوِيلَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ذَمٌّ لِأَنَّهُ إِمَالَةُ الْقُلُوبِ وَصَرْفُهَا بِمَقَاطِعِ الْكَلَامِ إِلَيْهِ حَتَّى يَكْسِبَ مِنَ الْإِثْمِ بِهِ كَمَا يَكْسِبُ بِالسِّحْرِ وَأَدْخَلَهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ فِي بَابِ مَا يُكْرَهُ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ مَذْهَبُهُ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ وَالثَّانِي أَنَّهُ مَدْحٌ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى امْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمُ الْبَيَانَ وَشَبَّهَهُ بِالسِّحْرِ لِمَيْلِ الْقُلُوبِ إِلَيْهِ وَأَصْلُ السِّحْرِ الصَّرْفُ فَالْبَيَانُ يَصْرِفُ الْقُلُوبَ وَيُمِيلُهَا إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثاني هو الصحيح المختار. انتهى.

قال بعضهم:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ
تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ ذَمَمْتَ تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

وقول النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»، موافق أيضًا ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ

بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[١].

تنبيه: قال القحطاني:

وَالسَّحرُ كُفرٌ فِعلُهُ لا عِلمُهُ   مِن هَهُنا يَتَفَرَّقُ الحُكمانِ

وهذا على خلاف بين العلماء، فالشافعي يرى جواز تعلم السحر، وقال ابن قدامة في "**المغني**" (٩/ ٢٩): فَإِنَّ تَعَلُّمَ السِّحْرِ وَتَعْلِيمَهُ حَرَامٌ لَا نَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ. قَالَ أَصْحَابُنَا: وَيُكَفَّرُ السَّاحِرُ بِتَعَلُّمِهِ وَفِعْلِهِ، سَوَاءٌ اعْتَقَدَ تَحْرِيمَهُ أَوْ إبَاحَتَهُ. اهـ. وتقدم رد العيني على الرازي والحمد لله.

***

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها.

٢٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ): أي: ما جاء من الوعيد والبيان لحالهم.

قال الحافظ في "فتح الباري" (١٠/٢١٦): وَالْكَاهِنُ لَفْظٌ يُطْلَقُ عَلَى الْعَرَّافِ وَالَّذِي يَضْرِبُ بِالْحَصَى وَالْمُنَجِّمُ وَيُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَقُومُ بِأَمْرٍ آخَرَ وَيَسْعَى فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَقَالَ فِي الْمُحْكَمِ الْكَاهِنُ الْقَاضِي بِالْغَيْبِ، وَقَالَ فِي الْجَامِعِ الْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ أَذِنَ بِشَيْءٍ قَبْلَ وُقُوعِهِ كَاهِنًا.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ الْكَهَنَةُ قَوْمٌ لَهُمْ أَذْهَانٌ حَادَّةٌ وَنُفُوسٌ شِرِّيرَةٌ وَطِبَاعٌ نَارِيَّةٌ فَأَلِفَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَاسُبِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ومساعدتهم بِكُلِّ مَا تَصِلُ قُدْرَتُهُمْ إِلَيْهِ وَكَانَتِ الْكَهَانَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاشِيَةً خُصُوصًا فِي الْعَرَبِ لِانْقِطَاعِ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ وَهِيَ عَلَى أَصْنَافٍ مِنْهَا مَا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنَ الْجِنِّ فَإِنَّ الْجِنَّ كَانُوا يَصْعَدُونَ إِلَى جِهَةِ السَّمَاءِ فَيَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى أَنْ يَدْنُوَ الْأَعْلَى بِحَيْثُ يَسْمَعُ الْكَلَامَ فَيُلْقِيهِ إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى أَنْ يَتَلَقَّاهُ مَنْ يُلْقِيهِ فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ فَيَزِيدُ فِيهِ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ حُرِسَتِ السَّمَاءُ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَبَقِيَ مِنَ اسْتِرَاقِهِمْ مَا يَتَخَطَّفُهُ الْأَعْلَى فَيُلْقِيهِ إِلَى الْأَسْفَلِ قَبْلَ أَنْ يُصِيبهُ الشهَاب وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وَكَانَتْ إِصَابَةُ الْكُهَّانِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَثِيرَةً جِدًّا كَمَا جَاءَ فِي أَخْبَارِ شِقٍّ وَسُطَيْحٍ وَنَحْوِهِمَا وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَقَدْ نَدَرَ ذَلِكَ جِدًّا حَتَّى كَادَ يَضْمَحِلُّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

ثَانِيهَا مَا يُخْبِرُ الْجِنِّيُّ بِهِ مَنْ يُوَالِيهِ بِمَا غَابَ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ غَالِبًا أَوْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَنْ قَرُبَ مِنْهُ لَا مَنْ بَعُدَ.

ثَالِثُهَا مَا يَسْتَنِدُ إِلَى ظَنٍّ وَتَخْمِينٍ وَحَدْسٍ وَهَذَا قَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ لِبَعْضِ النَّاسِ قُوَّةً مَعَ كَثْرَةِ الْكَذِبِ فِيهِ.

رَابِعُهَا مَا يَسْتَنِدُ إِلَى التَّجْرِبَةِ وَالْعَادَةِ فَيُسْتَدَلُّ عَلَى الْحَادِثِ بِمَا وَقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ الْأَخِيرِ مَا يُضَاهِي السِّحْرَ وَقَدْ يَعْتَضِدُ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ بِالزَّجْرِ وَالطَّرْقِ وَالنُّجُومِ وَكُلُّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ شَرْعًا. انتهى.

وذكر النووي في "شرح مسلم" (٥/٢٢) بعض الفوارق بين الكاهن والعراف فقال: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَرَّافِ وَالْكَاهِنِ أَنَّ الْكَاهِنَ إِنَّمَا يَتَعَاطَى الْأَخْبَارَ عَنِ الْكَوَائِنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَيَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأَسْرَارِ وَالْعَرَّافُ يَتَعَاطَى مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ الْمَسْرُوقِ وَمَكَانَ الضَّالَّةِ وَنَحْوِهِمَا.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا فِي حَدِيثِ «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» قَالَ: كَانَ فِي الْعَرَبِ كَهَنَةٌ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رِئْيًا مِنَ الْجِنِّ يُلْقِي إِلَيْهِ الْأَخْبَارَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي اسْتِدْرَاكَ ذَلِكَ بِفَهْمٍ أُعْطِيَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمَّى عَرَّافًا وَهُوَ الَّذِي يَزْعُمُ مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتِ أَسْبَابٍ اسْتَدَلَّ بِهَا كَمَعْرِفَةِ مَنْ سَرَقَ الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ وَمَعْرِفَةِ مَنْ يُتَّهَمُ بِهِ الْمَرْأَةُ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الْمُنَجِّمَ كَاهِنًا، قَالَ: وَالْحَدِيثُ يَشْتَمِلُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ إِتْيَانِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ وَالرُّجُوعِ إِلَى قَوْلِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا يَدَّعُونَهُ هَذَا كَلَامُ الْخَطَّابِيِّ وَهُوَ نَفِيس. انتهى.

وناسب الإتيان بهذا الباب؛ لأن الكِهَانة نوع من السحر من حيث الاستعانة بالجن وادعاء علم الغيب.

والكهان: قوم يأتيهم الجن بالخبر المسروق من السماء ويخلط معه غيره من الكذب، وقد سُئِل النبي ﷺ عنهم كما في حديث عائشة رضي الله عنها في "**الصحيحين**"[(١)]، وقال: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»، فيقبل الناس الباطل بتلك الكلمة التي هي حق، ولا ينظرون إلى الباطل العظيم الذي يقوله هذا الكاهن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال الطبراني في "**المعجم الكبير**" رقم (١٧٠): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ السَّرِيِّ بْنِ مِهْرَانَ النَّاقِدُ، ثنا أَبُو السِّكِّينِ زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى الطَّائِيُّ، حَدَّثَنِي عَمُّ أَبِي زَحْرِ بْنِ حِصْنٍ، عَنْ جَدِّهِ حُمَيْدِ بْنِ مُنْهِبٍ الطَّائِيِّ، قَالَ: كَانَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ عِنْدَ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَكَانَ الْفَاكِهُ مِنْ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ لِلضِّيَافَةِ يَغْشَاهُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ فَخَلَا ذَلِكَ الْبَيْتُ يَوْمًا وَاضْطَجَعَ الْفَاكِهُ وَهِنْدٌ فِيهِ وَقْتَ الْقَائِلَةِ، ثُمَّ خَرَجَ الْفَاكِهُ فِي بَعْضِ حَاجَاتِهِ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَغْشَاهُ فَوَلَجَ الْبَيْتَ، فَلَمَّا رَأَى الْمَرْأَةَ وَلَّى هَارِبًا، فَأَبْصَرَهُ الْفَاكِهُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْبَيْتِ، فَأَقْبَلَ إِلَى هِنْدَ فَضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ، وَقَالَ لَهَا: مَنْ هَذَا الَّذِي كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: مَا كَانَ عِنْدِي أَحَدٌ، وَمَا انْتَبَهْتُ حَتَّى أَنْبَهْتَنِي، قَالَ: الْحَقِي بِأَهْلِكِ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا النَّاسُ، فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: يَا بُنَيَّةُ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَكْثَرُوا فِيكِ؛ فَنَبِّئِينِي نَبَأَكِ، فَإِنْ يَكُنِ الرَّجُلُ عَلَيْكِ صَادِقًا دَسَسْتَ إِلَيْهِ مَنْ يَقْتُلُهُ، فتنقطعَ عَنْكِ الْقَالَةُ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا حَاكَمْتَهُ إِلَى بَعْضِ كُهَّانِ الْيَمَنِ، فَحَلَفْتُ لَهُ بِمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ بِهِ إِنَّهُ لَكَاذِبٌ عَلَيْهَا، فَقَالَ لِلْفَاكِهِ: يَا هَذَا إِنَّكَ قَدْ رَمَيْتَ ابْنَتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَحَاكَمَنِي إِلَى بَعْضِ كُهَّانِ الْيَمَنِ فَخَرَجَ عُتْبَةُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَخَرَجَ الْفَاكِهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي

(١) البخاري (٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨). وقد تقدم.

مَخْزُومٍ وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ هِنْدٌ وَنِسْوَةٌ مَعَهَا، فَلَمَّا شَارَفُوا الْبِلَادَ وَقَالُوا نَرُدُّ عَلَى الْكَاهِنِ تنكَّرَ حَالُ هِنْدَ وَتَغيَّرَ وَجْهُهَا، فقَالَ لَهَا أَبُوهَا: إِنِّي قَدْ أَرَى مَا بِكِ مِنْ تَنَكُّرِ الْحَالِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَكْرُوهٍ عِنْدَكِ أَفَلَا كَانَ هَذَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَشْهَدَ النَّاسُ مَسِيرَنَا؟ فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ يَا أَبَتَاهُ مَا ذَاكَ لِمَكْرُوهٍ وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّكُمْ تَأْتُونَ بَشَرًا يُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَلَا آمَنُ أَنْ يُسْمِيَنِي بِسِمَةٍ تَكُونُ عَلَيَّ سُبَّةً فِي الْعَرَبِ، فَقَالَ: إِنِّي أَخْتَبِرُهُ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَمْرَكِ فَصَفَّرَ بِفَرَسِهِ حَتَّى أَدْلَى ثُمَّ أَخَذَ حَبَّةً مِنْ بُرٍّ، فَأَدْخَلَهَا فِي إِحْلِيلِهِ وَأَوْكَأَ عَلَيْهَا بِسَيْرٍ، فَلَمَّا صَبَحُوا أَكْرَمَهُمْ وَنَحَرَ لَهُمْ، فَلَمَّا قَعَدُوا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكَ فِي أَمْرٍ وَإِنِّي قَدِ اخْتَبَأْتُ لَكَ خَبَّأً اخْتَبِرُكَ بِهِ فَانْظُرْ مَا هُوَ؟ قَالَ: نَمِرَةٌ فِي كمرةٍ قَالَ: أُرِيدُ أَبْيَنَ مِنْ هَذَا. قَالَ: حَبَّةٌ مِنْ بُرٍّ فِي إِحْلِيلِ مَهْرٍ، قَالَ: صَدَقْتَ انْظُرْ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ، فَجَعَلَ يَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ، فَيَضْرِبُ كَتِفَهَا وَيَقُولُ انْهَضِي حَتَّى دَنَا مِنْ هِنْدَ فَضَرَبَ كَتِفَهَا وَقَالَ: قُومِي غَيْرَ وَحْشَاءَ، وَلَا زَانِيَةً وَلْتَلِدْنَ غُلَامًا يُقَالُ لَهُ مُعَاوِيَةُ، فَنَهَضَ لَهَا الْفَاكِهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَنَتَرَتْ يَدَهَا مِنْ يَدِهِ، وَقَالَتْ: إِلَيْكَ فَوَاللهِ لَأَحْرُصَنَّ عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِكَ فَتَزَوَّجَهَا أَبُو سُفْيَانَ فَجَاءَتْ بِمُعَاوِيَةَ.

والشاهد: أن الكهان يصيبون ويخطئون، لكن إصابتهم بما هو معلوم عند المسلمين؛ أنها من مسترقي السمع من السماء، وليس بعلمهم الغيب.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

رَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

قَوْلُهُ (رَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ"): كتاب الطب (٢٢٣٠)

قَوْلُهُ (عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ): في بعضها حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قَوْلُهُ (مَنْ أَتَى): أي: من جائه، وهل هذا شامل لمطلق المجيء أم أنه خاص بمن ذهب لسؤاله، والتخبر منه، وهذا في حق غير المصدق؛ أما من صدق الكهان والعرافين، والسحرة في ادعاء علم الغيب فهو كافر كفر أكبر على ما يأتي إن شاء الله.

قال الحافظ في "فتح الباري" (١٠/٢١٧): وَوَقَعَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسَنَدٍ لَيِّنٍ مَرْفُوعًا بِلَفْظِ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَمَنْ أَتَاهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ لَهُ لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» وَالْأَحَادِيثُ الْأُوَلُ مَعَ صِحَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا أَوْلَى مِنْ هَذَا وَالْوَعِيدُ جَاءَ تَارَةً بِعَدَمِ قَبُولِ الصَّلَاةِ وَتَارَةً بِالتَّكْفِيرِ فَيُحْمَلُ عَلَى حَالَيْنِ مِنَ الْآتِي أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ. انتهى.

«عَرَّافًا»، سمي بذلك؛ لأنه يدعي معرفة الغيب، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في "الفتح" (١٠/ ٢١٧): وَالْعَرَّافُ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ مَنْ يَسْتَخْرِجُ الْوُقُوفَ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ بِضَرْبٍ مِنْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ. اهـ.

قَوْلُهُ (فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ): من أمور الغيب.

قَوْلُهُ (فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ) ليست في "صحيح مسلم" وهي زيادة مخالفة، فإنَّ من صدق الكاهن أو العراف في ادعائه معرفة الغيب فهو كافر كفر أكبر مخرج من الملة.

قَوْلُهُ (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا): عقوبة له على هذا الذنب العظيم، ولا يجوز له أن يترك الصلاة في هذه الفترة، فإن تركها صار كافرًا، بل يجب عليه أن يصلي وصلاته غير مقبولة إلا أن يُحدِث توبة صادقة، وهذا في حق من يأتي الكاهن أو العراف ولا يصدقه بما يقول، أما إن صدقه بأنه يعلم الغيب المطلق فقد كفر كفرًا أكبر مخرج من الملة، ومن أشرك مع ذلك بالذبح أو النذر أو دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو الاعتماد على هذا الكاهن أو الساحر أو الجني.. وغير ذلك من التوكل عليهم فكل هذا كفر بالله العظيم.

وفي الحديث إشارة إلى عظم ذنب إتيان الكهان والعرافين، فنحن نعلم أن ترك الصلاة كفر كما قال النبي ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[1]، وقال: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[2].. إلى غير ذلك من الأحاديث، وهكذا يقول الله ﷻ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] مفهوم الآية: أنهم إذا لم يصلوا ليسوا بإخوانٍ لنا، وقول الله ﷻ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، مفهوم الآية أن الذي لم يؤدِ الصلاة لا يخلى سبيله، وهو الكافر.

وأما كونه لا يكفر بترك الزكاة فإنها خرجت بدليل آخر، وهو حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في "صحيح مسلم" (٩٨٧): «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٧)، الترمذي (٢٦٢١)، ابن ماجه (١٠٧٩)، عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما.

إِلَى النَّارِ». فهذا الحديث يدل على إخراج الزكاة من دلالة تلك الآية، وأن تارك الزكاة بخلًا ليس بكافر، وإنما يكفر من جحدها، وإتيان الكاهن من غير تصديق مؤداه إلى عدم قبول الصلاة، وإذا كان بتصديق فمؤداه إلى الكفر الأكبر، وهذا هو وجه الاستشهاد بالحديث في هذا الموطن.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

قَوْلُهُ (فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ): أي: قَبِلَ خبره الذي يقوله فيما يتكلم به من علم الغيب.

قَوْلُهُ (فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ): والكفر هنا أكبر، قال الشيخ سليمان في "**تيسير العزيز الحميد**" (٣٥٠): قال الطيبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة، أي: من ارتكب هذه فقد برئ من دين محمد ﷺ وما أُنزل عليه. انتهى. وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال: ينقل عن الملة. ذكروا فيها روايتين عن أحمد وقيل: هذا على التشديد والتأكيد، أي: قارب الكفر والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان. انتهى.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ): في "**سننه**" كتاب الطب (٣٩٠٤)، وأخرجه الترمذي في الطهارة (١٣٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٤٢٩)، والدارمي في الطهارة (١١٣٦) وهو حديث ضعيف بهذا السند فإنه من طريق أبي تميمة الهجيمي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم يسمع منه، لكن له شاهد عند البزار كما في "**كشف الأستار**" (٣٠٤٥) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسنده حسن، وثالث عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في "**الكشف**" (٣٠٤٤)، وفي سنده الحسن لم يسمع من عمران رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورابع موقوف عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسيأتي.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالحَاكِمِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «مَنْ أَتَى عَرّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيْدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا.

قَوْلُهُ (وَلِلأَرْبَعَةِ): وهم: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، كلهم من طريق أبي تميمة الهجيمي وقد تقدم تخريجه.

قَوْلُهُ (وَالحَاكِمِ): أي في "**المستدرك**" (١٥) كتاب الإيمان، والحاكم هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيع، سمي الحاكم لحفظه، لكن كتابه "**المستدرك**" فيه أوهام كثيرة.

قَوْلُهُ (وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا): وكلامه تاما: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا جَمِيعًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ سِيرِينَ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَحَدَّثَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ إِسْحَاقَ، عَنْ رَوْحٍ، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ خِلَاسٍ، وَمُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «قِصَّةَ مُوسَى أَنَّهُ آدَرُ»

قَوْلُهُ (وَلأَبِي يَعْلَى): رقم (٥٤٠٨) وأبو يعلى هو: أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ).

قَوْلُهُ (بِسَنَدٍ جَيْدٍ): رجاله ثقات.

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا): أي قوله ولم يرفعه إلى رسول الله ﷺ؛ وله حكم الرفع؛ فالقاعدة أنّ قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع، مثل قول عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ

حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١)، ومثله حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» أخرجه مسلم (٢٨٤٢)، ولأن تجويز أن يكون الصحابة أخذوا هذا عن رسول الله ﷺ أبلغ من كوننا نجوز أنهم أخذوه عن غير النبي ﷺ، فإن أغلب علومهم عن النبي ﷺ، وما جاء أن بعضهم أخذ عن غير النبي ﷺ كعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فإنه مبين.

ومثله مما له حكم الرفع حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ»(٢).

وهنا مسألة: وهي أن الصحابة إذا أجمعوا على شيء فإجماعهم حجة؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ولقول النبي ﷺ: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ»(٣). والإجماع على ذلك.

وإذا اختلف الصحابة في مسألة من المسائل، نظرنا إلى أقرب الأقوال موافقة للدليل فأخذنا به مع اعتقادنا أن مصيبهم له أجران ومخطئهم له أجر، وإذا لم نجد في المسألة إلا قول صحابي واحد ولم يوجد له مخالف فالأخذ بقول الصحابي أولى من إهداره، وهذا التفصيل ذكره ابن القيم في "**إعلام الموقعين**".

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١١٦)، عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٨٦)، ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٨)، ابن بطة في «الإبانة» (٢٦٩)، وغيرهم.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٩)، وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٣٠٥) لشيخنا مقبل رحمه الله، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

والناس في مسألة الصحابة بين إفراط وتفريط، فبعضهم يقبل كل ما رويَّ عنهم وإن خالف الدليل، وبعضهم لا يبالي بأقوالهم ولا بطريقتهم، وهذا مفرط ضال مضل، وأهل السنة هم العدل الخيار، الذين يأخذون من أقوالهم ما وافق الأدلة، ويستفيدون من طريقتهم، وما خالف الأدلة تركوه، وكل يؤخذ من قوله ويرد.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ؛ وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي "الأَوْسَطِ" بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى عَرَّافًا...». إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلُهُ: (وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه): وهو أبو نجيد الأنصاري.

قَوْلُهُ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيَّرَ لَهُ): يدل على تحريم التطير، والطِّيَرَةُ: مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ، على ما يأتي إن شاء الله، وسواء كان هو المتَطِير أو كلف غيره بذلك فهو على خطر عظيم.

قَوْلُهُ: (أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ): تكهن بنفسه أو تكهن له غيره إن كان راضيًا، أما إذا لم يكن راضيًا، فلا.

قَوْلُهُ: (أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ): أو سحر هو بنفسه أو جعل من يذهب إلى الساحر فيسحر له.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ): على ما تقدم من أنه كافر كفرًا أكبر.

قَوْلُهُ: (رَوَاهُ الْبَزَّارُ): كما في "كشف الأستار" (٣٠٤٤).

قَوْلُهُ: (بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ): بل ضعيف وله شواهد.

قَوْلُهُ: (وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي "الأَوْسَطِ"): الإِمَامُ الحَافِظُ أَبُو القَاسِمِ سُلَيْمَانُ بنُ أَحْمَدَ بنِ أَيُّوبَ بنِ مُطَيِّرٍ اللَّخْمِيُّ الشَّامِيُّ الطَّبَرَانِيُّ، المتوفى: (٣٦٠هـ)،

صَاحبُ المَعَاجِمِ الثَّلاَثَةِ: "**الكبير**"، و "**الأوسط**"، و "**الصغير**"، وطريقته في "**الكبير**" على المسانيد وفي "**الأوسط**" ذكر أحاديث شيوخه، وفي "**الصغير**" أن يذكر لكل شيخ حديثًا فصار كالترجمة.

قَوْلُهُ (بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ): أما إنه حسن لذاته فلا، فإن في سماع الحسن من عمران خلاف، وكذا في سنده إسحاق بن ربيع العطار ضعفه الفلاس؛ لكن الحديث في الشواهد، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في "**المجمع**" (٥/ ١٢٠): وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف، والحديث في الصحيحة: (٢/ ٢٢٨).

قَوْلُهُ (مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى عَرَّافًا»، إِلَى آخِرِهِ): فيه زمعة بن صالح ضعيف كما تقدم.

***

□

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ البَغَوِيُّ: العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الـمُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقْبَلِ. وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ. وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بْنِ تَيْمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

قَوْلُهُ (قَالَ البَغَوِيُّ): وهو: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، وكلامه في «شرح السنة» (١٢/ ١٨٢).

قَوْلُهُ (العَرَّافُ): ويسمى عندنا في اليمن المبشع، فإذا سرق شيء من المال ذهبوا إليه.

قَوْلُهُ (الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ): تقدم بيانها مثل الخط، وقراءة الفنجال وغيرها من الطرق.

قَوْلُهُ (وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ): لأنه بينهم عموم وخصوص، والكلام فيهم متقارب، فكلهم يدعي علم الغيب.

قَوْلُهُ (وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الـمُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ): وذلك بواسطة ما يوحيه إليه الجني على ما تقدم.

قَوْلُهُ (العَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ): أي: أن العراف أعم، فكل من ادعى علم الغيب والتوصل إليه فهو عراف.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ): كما في "**مساوئ الأخلاق**" للخرائطي (٧٤٢) بسند صحيح، وأخرجه البيهقي في "**الكبرى**" (١٦٥١٤)، والطبراني في "**الكبير**" (١٠٩٨٠)، وابن أبي شيبة (٢٥٦٤٨)، وغيرهم.

قَوْلُهُ (فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ): والأبا جاد هو: (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ)، ويحسبون الحروف، الألف: واحد، والباء: اثنين، والجيم: ثلاثة، والدال: أربعة، والهاء: خمسة، والواو: ستة، والزاي: سبعة، والحاء: ثمانية، والطاء: تسعة، والياء: عشرة، ثم يقول: (كلمن) الكاف: عشرين، واللام: ثلاثين، والميم: أربعين، والنون: خمسين... حتى يصل إلى المائة، فتكون مثلًا القاف: مائة، والراء: مائتين... حتى يصل إلى الألف).

فبعد ذلك يأتي إليه الرجل الذي يريد أن يتزوج، فيقول: أريد أن أتزوج، فيقول له: ما اسمك وما اسم أمك، فيحسب الأحرف، مثلًا: محمد فالميم أربعون، والحاء: ثمانية والميم الثانية أربعون والدال: أربعة، فيكون المجموع اثنين وثمانين، وأمه مثلًا: اسمها مريم، الميم على ما تقدم: أربعون والراء: مائتين والياء: عشرة والميم أربعون، فيجمع مجموع حروف محمد واسم أمه فيقسم هذا على هذا، فالنتيجة ستكون من عددًا معينًا، ثم يردونها إلى ترتيب الأبراج، الدلو أو السرطان أو الجدي.. والسنبلة والحوت والثور! فإذا أراد أن يتزوج صالح بفاطمة، قالوا: أنت نجمك الأسد، وهي نجمها الحوت فلا يصلح لأن الحوت مائي والأسد ناري لا يتقابلان، وربما قالوا العكس يجوز لك أن

تتزوج؛ لأن الماء يطفئ النار! أما إذا كان ناري مع ناري فلا يصلح.

فابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى تكفير من يتعلم أباجاد؛ لأن الذي يتعلم أباجاد خصوصًا لمثل هذه الأمور التي يدعون بها علم الغيب فهذا كفر؛ لأنهم يدعون ما هو من خصائص الله تعالى.

قَوْلُهُ (وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ): أي: مع اعتقادهم أن لها تأثير على الحوادث الأرضية، قال ابن رجب في "**فضل علم السلف على الخلف**" (٢): وكان النخعي لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به، ورخص في تعلم منازل القمر، أحمد وإسحاق، ويتعلم من أسماء النجوم ما يهتدي به: وكره قتادة تعلم منازل القمر: ولم يرخص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما. وقال طاوس رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق. خرجه حرب. وخرجه حميد بن زنجويه من رواية طاوس عن ابن عباس. وهذا محمول على علم التأثير لا علم التسيير، فإن علم التأثير باطل محرم، وفيه ورد الحديث المرفوع: «ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»[(١)]، خرجه أبو داود من حديث ابن عباس مرفوعًا، وخرج أيضًا من حديث قبيصة مرفوعًا، «الْعِيَافَةُ، وَالطِّيَرَةُ، وَالطَّرْقُ مِنَ الجِبْتِ»[(٢)].. «الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ»[(٣)].

فعلم تأثير النجوم باطل ومحرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر، وأما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزًا عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه،

---

(١) برقم (٣٩٠٥) ولفظه: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُوم...»، وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٣٢٢) لشيخنا مقبل رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٩٠٨).

وهو يشغل عما هو أهم منه. وربما أدى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم كما وقع ذلك كثيرًا من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا وذلك يفضي إلى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار وهو باطل.

وقد أنكر الإمام أحمد الاستدلال بالجدي، وقال إنما ورد ما بين المشرق والمغرب قبلة: يعني لم يرد اعتبار الجدي ونحوه من النجوم، وقد أنكر ابن مسعود على كعب قوله: «أن الفلك تدور»، وأنكر ذلك مالك وغيره، وأنكر الإمام أحمد على المنجمين قولهم: «إن الزوال يختلف في البلدان»، وقد يكون إنكارهم أو إنكار بعضهم لذلك؛ لأن الرسل لم تتكلم في هذا، وإن كان أهله يقطعون به، وإن كان الاشتغال به ربما أدى إلى فساد عريض.

وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين. ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض. وأن الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين.اهـ.

قَوْلُهُ: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق): بمعنى: أنه كافر ليس له نصيب أو حظ عند الله، وهذا كما قال الله ﷻ في السحرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

***

٢٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ): أي: ما حكمها، ناسب مجيء هذا الباب بعد معرفة حكم السحر حتى يُعرف طريقة حله والمشروع منها والممنوع، قال ابن الأثير في "**النهاية في غريب الحديث والأثر**" (٥/ ٥٤): النُّشْرَةُ بِالضَّمِّ: ضرْبٌ مِنَ الرُّقْيَة والعِلاج، يُعالَج بِهِ مَن كَانَ يُظَنُّ أَنَّ بِهِ مَسًّا مِنَ الجِنّ، سُمِّيَتْ نُشْرةً لِأَنَّهُ يُنْشَر بِهَا عَنْهُ مَا خامَره مِنَ الدَّاءِ: أَيْ يُكْشَف ويُزال... وَقَدْ نَشَّرْتُ عَنْهُ تَنْشِيرًا. اهـ.

وقال السندي: وسميت نشرة لانتشار الداء وانكشاف البلاء. اهـ.

فهي حل السحر عن المسحور؛ وهي نوعان:

الأول: إن كانت النشرة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ورقى مشروعة فهي جائزة ففي البخاري (٥٧٦٥) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ، قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا، فَقَالَ «يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلاَنِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا- قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ» قَالَتْ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ البِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ، فَقَالَ: «هَذِهِ البِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» قَالَ: فَاسْتُخْرِجَ، قَالَتْ:

فَقُلْتُ: أَفَلاَ؟ -أَيْ تَنَشَّرْتَ- فَقَالَ: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا».

وفي "**مصنف عبد الرزاق**" (١٩٧٦٣) قَالَ الشَّعْبِيُّ: «لَا بَأْسَ بِالنُّشْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لَا تَضُرُّ إِذَا وُطِئَتْ»، وَالنُّشْرَةُ الْعَرَبِيَّةُ: أَنْ يَخْرُجَ الْإِنْسَانُ فِي مَوْضِعِ عِضَاهٍ، فَيَأْخُذَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ يَدُقُّهُ وَيَقْرَأُ فِيهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ بِهِ، وفي "**الجامع**" لابن وهب (٦٨٠) قال: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، عَنِ النُّشْرَةِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ إِلَّا صَبًّا، قَالَ: يَعْقِدُونَ بِهَا، قَالَ: وَلَا أَدْرِي مَا يَصْنَعُونَ، قَالَ: فَأَيُّمَا شَيْءٍ تَصْنَعُهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وفي "**مسند ابن الجعد**" (٩٤٨) عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ يَقُولُ فِي النُّشْرَةِ: «لَا بَأْسَ بِهَا» قَالَ: قُلْتُ: أُحَدِّثُ بِهِ عَنْكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

قال الحافظ في "فتح الباري" (١٠/٢٣٤): وَذكر ابن بَطَّالٍ أَنَّ فِي كُتُبِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنْ يَأْخُذَ سَبْعَ وَرَقَاتٍ مِنْ سِدْرٍ أَخْضَرَ فَيَدُقَّهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ ثُمَّ يَضْرِبُهُ بِالْمَاءِ وَيَقْرَأُ فِيهِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَالْقَوَاقِلَ ثُمَّ يَحْسُو مِنْهُ ثَلَاثَ حَسَوَاتٍ ثُمَّ يَغْتَسِلُ بِهِ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ عَنْهُ كُلَّ مَا بِهِ وَهُوَ جَيِّدٌ لِلرَّجُلِ إِذَا حُبِسَ عَنْ أَهْلِهِ.

وَمِمَّنْ صَرَّحَ بِجَوَازِ النُّشْرَةِ الْمُزَنِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ وَأَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا، ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى صِفَةِ النُّشْرَةِ فِي كتاب الطِّبِّ النَّبَوِيِّ لِجَعْفَرٍ الْمُسْتَغْفِرِيِّ قَالَ: وَجَدْتُ فِي خَطِّ نَصُوح بْنِ وَاصِل عَلَى ظَهْرِ جُزْءٍ مِنْ تَفْسِيرِ قُتَيْبَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْبُخَارِيِّ قَالَ: قَالَ قَتَادَةُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أُخِذَ عَنِ امْرَأَتِهِ أَيَحِلُّ لَهُ أَنْ ينشر، قَالَ: لَا بَأْس إِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ الْإِصْلَاحَ فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ. قَالَ نَصُوحٌ: فَسَأَلَنِي حَمَّادُ بْنُ شَاكِرٍ مَا الْحَلُّ وَمَا النُّشْرَةُ فَلَمْ أَعْرِفْهُمَا، فَقَالَ: هُوَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُجَامَعَةِ أَهْلِهِ وَأَطَاقَ مَا سِوَاهَا فَإِنَّ الْمُبْتَلَى بِذَلِكَ يَأْخُذُ حُزْمَةَ قُضْبَانٍ وَفَأْسًا ذَا قِطَارَيْنِ وَيَضَعُهُ فِي وَسَطِ تِلْكَ الْحُزْمَةِ ثُمَّ يُؤَجِّجُ نَارًا فِي تِلْكَ الْحُزْمَةِ حَتَّى إِذَا مَا حَمِيَ الْفَأْسُ اسْتَخْرَجَهُ مِنَ النَّارِ وَبَالَ

عَلَى حَرِّهِ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى[١]، وَأَمَّا النُّشْرَةُ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ أَيَّامَ الرَّبِيعِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ وَرْدِ الْمُفَازَةِ وَوَرْدِ الْبَسَاتِينِ ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي إِنَاءٍ نَظِيفٍ وَيَجْعَلُ فِيهِمَا مَاءً عَذْبًا ثُمَّ يَغْلِي ذَلِكَ الْوَرْدُ فِي الْمَاءِ غَلْيًا يَسِيرًا ثُمَّ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا فتَرَ الْمَاءُ أَفَاضَهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ حَاشِدٌ تَعَلَّمْتُ هَاتَيْنِ الْفَائِدَتَيْنِ بِالشَّامِ قُلْتُ وَحَاشِدٌ هَذَا مِنْ رُوَاةِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِي. انتهى.

الثاني: إن كانت النشرة حل السحر بالسحر فهي محرمة؛ وهي من عمل الشيطان وذلك؛ لأن إتيان الكاهن والساحر تعاون معه على الإثم والعدوان، وإتيان الكاهن والساحر فيه الاستعانة بهم وتصديقهم والرضا بالشرك الذي يتعاطاه الساحر إلى غير ذلك من أنواع الفساد الديني والدنيوي.

***

(١) وهذا الكلام يحتاج إلى دليل.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ.

قَوْلُهُ (عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وهو ابن عبد الله بن حرام الأنصاري قتل أبوه يوم أحد.

قَوْلُهُ (سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟): أي عن حكمها، ولو كان السؤال عن ماهيتها لبينه.

وقَوْلُهُ (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ): وذلك أن السحر عمله؛ فهذا النوع من النشرة محمول على المنهي عنه مما يستخدم فيه السحر.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ): في "**مسنده**" (١٤١٣٥) بسند رجاله ثقات، ورواه أبو داود (٣٨٦٨) كتاب الطب باب في النشرة، وفي سنده انقطاع بين وهب بن منبه وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أخرجه البيهقي في "**السنن الكبرى**" (٩/ ٥٩٠) وقال: وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا، وَهُوَ مَعَ إِرْسَالِهِ أَصَحُّ. انتهى.

وله شاهد أخرجه الحاكم في "**المستدرك**" (٤/ ٤٦٤) عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: ذَكَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»، وقد روي عن الحسن مرسلًا، أخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٣).

قَوْلُهُ: (سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كَلَّهُ): وذلك على ما سبق من مذهبه في منع تعليق التمائم؛ قال البيهقي في "**السنن الصغرى**" (٤/ ٧٥): وَالنُّشْرَةُ ضَرْبٌ مِنَ الرُّقْيَةِ وَالْعِلَاجِ يُعَالَجُ بِهِ مَنْ كَانَ يُظَنُّ بِهِ مَسٌّ مِنَ الْجِنِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَتِ الرُّقْيَةُ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ، فَإِذَا كَانَتْ بِمَا يَجُوزُ فَلَا بَأْسَ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّبَرُّكِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي "صَحيح البُخَارِي" عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِابْنِ المُسَيّب: رَجُلٌ بِـهِ طِـبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَن امْرَأَتِـهِ، أَيُحـلُّ عَنْـهُ أَوْ يُنَشَّـرُ؟ قَـال: لا بَـأْسَ بِـهِ إنَّمَـا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاحِ، أَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ. انتهى.

وَرُوِيَ عَنْ الحَسَنِ أَنَّهُ قَال: لا يَحِلُّ السِّحْرَ إلا سَاحِرٌ.

قَوْلُـهُ (وَفِـي "صَحيحِ البُخَارِي"): كتـاب الطـب معلقًـا تحـت بـاب هـل يستخرج السحر.

قَوْلُهُ (عَنْ قَتَادَةَ): وهو ابن دعامة أبو الخطاب السدوسي ثقة رمي بالقدر.

قَوْلُهُ (ابْنِ المُسَيّبِ): وهو سعيد بن المسيب بن حزن، سيد التابعين.

قَوْلُـهُ (رَجُلٌ بِـهِ طِـبٌّ أَوْ يُؤَخَّـذُ): أي مسـحور ففـي حـديث عائشـة في "**الصحيحين**": «قَالَ: مَا وَجَـعُ الرَّجُـلِ؟ قَـالَ: مَطْبُـوبٌ»، إذ كـانوا يُسـمون المسحور مطبوبـا، وقـد أخـرج مالـك في "**الموطأ**" (٨٤٣) عَـنْ عَمْـرَةَ بِنْـتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ أَعْتَقَتْ جَارِيَةً لَهَا عَـنْ دُبُـرٍ مِنْهَـا، ثُمَّ إِنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ اشْتَكَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَشْتَكِيَ، ثُمَّ إِنَّـهُ دَخَـلَ عَلَيْهَـا رَجُلٌ سِنْدِيٌّ، فَقَالَ لَهَا، أَنْتِ مَطبُوبَةٌ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: وَيْلَكَ، مَـنْ طَبَّنِـي؟ قَـالَ: امْرَأَةٌ مِنْ نَعْتِهَا كَذَا وَكَذَا، فَوَصَفَهَا، وَقَـالَ: إِنَّ فِـي حَجْرِهَـا الآنَ صَـبِيًّا قَـدْ بَـالَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: ادْعُوا لِي فُلانَةَ جَارِيَةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا، فَوَجَدُوهَا فِـي بَيْـتِ جِيـرَانٍ لَهُمْ فِي حَجْرِهَا صَبِيٌّ، قَالَتْ: الآنَ حَتَّى أَغْسِـلَ بَـوْلَ هَـذَا الصَّـبِيِّ، فَغَسَـلَتْهُ ثُـمَّ جَاءَتْ، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: أَسَحَرْتِنِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَـتْ: لِـمَ؟ قَالَـتْ: أَحْبَبْـتُ الْعِتْقَ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لا تُعْتَقِينَ أَبَدًا، ثُمَّ أَمَـرَتْ عَائِشَـةُ ابْـنَ أُخْتِهَـا أَنْ يَبِيعَهَـا مِـنَ الأَعْرَابِ مِمَّنْ يُسِيءُ مَلْكَتَهَا، قَالَتْ: ثُمَّ ابْتَعْ لِي بِثَمَنِهَا رَقَبَةً، ثُـمَّ أَعْتِقْهَـا، فَقَالَـتْ

عَمْرَةُ: فَلَبِثَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَنَامِ أَنِ اغْتَسِلِي مِنْ آبَارٍ ثَلاثَةٍ يَمُدُّ بَعْضُهَا بَعْضا، فَإِنَّكِ تُشْفَيْنَ، فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ، فَذَكَرَتْ أُمُّ عَائِشَةَ الَّذِي رَأَتْ، فَانْطَلَقَا إِلَى قَنَاةٍ، فَوَجَدَا آبَارًا ثَلاثَةً يَمُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَاسْتَقَوْا مِنْ كُلِّ بِئْرٍ مِنْهَا ثَلاثَ شُجُبٍ حَتَّى مَلَئُوا الشُّجُبَ مِنْ جَمِيعِهَا، ثُمَّ أَتَوْا بِذَلِكَ الْمَاءِ إِلَى عَائِشَةَ، فَاغْتَسَلَتْ فِيهِ فَشُفِيَتْ.

وقول ابن المسيب وإن كان صحيحًا إليه فليس بحجة، وله طريق أخرى أخرجها غير واحد كما في «**تغليق التعليق**» (٥/ ٤٩): عن قتادة قال: سمعت ابن المسيب يقول في النشرة: لا بأس بها، قال قلت: أحدث به عنك؟ قال: نعم، فقد حمل العلماء هذا على النشرة المشروعة، وأما بلفظ المصنف فهي على الممنوعة، وقوله غير حجة، بل هي زلة عفا الله عنه.

قَوْلُهُ (وَرُوِيَ عَنْ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لا يَحِلُّ السِّحْرَ إلا سَاحِرٌ): أخرجه ابن جرير في «**تهذيب الآثار**» كما في «**فتح الباري**» (١٠/ ٢٣٣)، من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن الحسن والأثر، ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد، وهذا ليس على إطلاقه، فإن السحر يحل بالرقى الشرعية، فالنبي صلى الله عليه وسلم سُحِرَ وأنزل الله عليه المعوذتين، فكان يقرأهما على نفسه فبرأ وشفي بحمد الله عز وجل، ولكن مراده رحمه الله، لا يحل السحر بغير الطرق الشرعية إلا ساحر.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ. وَعَلَيهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيَبْطُلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ. فَهَذَا جَائِزٌ.

قَوْلُهُ (قَالَ ابْنُ القَيِّمِ): هو الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ الزُّرَعِيُّ الدِّمَشْقِيُّ، إِمَامُ الْجَوْزِيَّةِ وابن قيمها، ولد سنة (٦٩١) وسمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير، ولما عاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من مصر لازمه حتى مات، وكان حسن القراءة، كثير التودد لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكان كثير العبادة وهو صاحب التصانيف المشهورة التي لا يستغني عن كثير منها باحث.

والنص المذكور في كتابه العظيم النافع: "**إعلام الموقعين عن رب العالمين**" (٤/ ٣٠١).

قَوْلُهُ (النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرَ عَنِ المَسْحُورِ): أي من حيث معناها هي حل السحر عن المسحور، وعلاجه منه؛ ثم هي من حيث حكمها لها حالتان؛ المنع والإباحة.

قَوْلُهُ (أَحَدَهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلَهُ...): إلخ، وهذا هو المحرم، ولا يجوز أن تعمل هذه النشرة على ما تقدم.

قَوْلُـهُ (وَالثَّـانِي: النُّشْـرَةُ بِالرُّقْيَـةِ وَالتَّعَـوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَـةِ وَالـدَّعَوَاتِ المُبَاحَـةِ. فَهَذَا جَائِزٌ): وعلى هذا يحمل كلام من أباحها مـن أئمـة المسـلمين، وقـد رقـى النبيَّ ﷺ جبريلُ ورقى النبيُّ ﷺ غير واحد من الصحابة: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِـنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيـكَ، مِـنْ شَـرِّ كُـلِّ نَفْـسٍ أَوْ عَـيْنِ حَاسِـدٍ، اللهُ يَشْـفِيكَ» [(١)]، ورأى رسول الله ﷺ جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَـإِنَّ بِهَـا النَّظْـرَةَ» [(٢)]، وفي حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ﵁، قَالَ: «كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّـةِ فَقُلْنَـا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ: اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ» [(٣)].

وله أن ينفث مع الرقية قال النووي في "شرح مسلم" (١٨٢/١٤): قَوْلُهَـا: «كَـانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ» هِـيَ بكسـر الـواو والنفث نفخ لطيف بلا ريق فِيهِ اسْتِحْبَابُ النَّفْثِ فِـي الرُّقْيَـةِ وَقَـدْ أَجْمَعُـوا عَلَـى جَوَازِهِ وَاسْتَحَبَّهُ الْجُمْهُورُ مِـنَ الصَّـحَابَةِ وَالتَّـابِعِينَ وَمَـنْ بَعْـدَهُمْ قَـالَ الْقَاضِـي وَأَنْكَرَ جَمَاعَةٌ النَّفْثَ وَالتَّفْـلَ فِـي الرُّقَـى وَأَجَـازُوا فِيهَـا الـنَّفْخَ بِـلَا رِيـقٍ وَهَـذَا الْمَذْهَبُ وَالْفَرْقُ إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ ضَعِيفٍ قِيلَ إِنَّ النَّفْثَ مَعَهُ رِيـقٌ قَـالَ وَقَـدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي النَّفْثِ وَالتَّفْلِ فَقِيلَ هُمَا بِمَعْنًى وَلَا يَكُونَانِ إِلَّا بِرِيقٍ قَـالَ أَبُـو عُبَيْدٍ يُشْتَرَطُ فِي التَّفْلِ رِيقٌ يسير ولا يكون فِي النَّفْثِ وَقِيلَ عَكْسُـهُ قَـالَ وَسُـئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ نَفْثِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الرُّقْيَةِ فَقَالَتْ كَمَا يَنْفُثُ آكِلُ الزَّبِيبِ لا ريق معه قال ولا اعتبار بما يخرج عليه من بلة ولا يقصد ذلك وقد جاء في حديث الَّـذِي رَقَـى بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَجَعَلَ يَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفُلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ...

قال: وَفِي هَذَا الْحَـدِيثِ اسْـتِحْبَابُ الرُّقْيَـةِ بِـالْقُرْآنِ وَبِالْأَذْكَـارِ وَإِنَّمَـا رَقَـى

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

بِالْمُعَوِّذَاتِ لِأَنَّهُنَّ جَامِعَاتٌ لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ الْمَكْرُوهَاتِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا فَفِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ وَمِنْ شر النفاثات في العقد ومن السواحر ومن شر الحاسدين وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.

وكثير من الناس لا ينتفعون بالرقى والسبب في ذلك ضعف الإيمان ووجود المخالفات الشرعية من المعاصي وغيرها كتعليق صور ذوات الأرواح، وتعلق قلوبهم بالسماع، وغير ذلك من البلاء الذي عم الأمة إلا من رحم الله تعالى.

ثم إن كثيرًا من القراء قد اتخذ الرقية مهنة للتكسب، وزد على ذلك أنه يعرض نفسه للفتنة فيختلي بالنساء الأجنبيات، وربما مس أعضائهن، ونظر إلى وجوههن، إلى غير ذلك، وقد حصل من كثير منهم الأمر المستقبح، فنسأل الله العافية والسلامة، وربما استخدموا آلات للضرب، والخنق وربما تخاطبوا مع الجني فيتلاعب بهم، والله المستعان.

***

٢٧- بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ): أي: من النهي والوعيد، والطِّيَرة: بكسر الطاء مشتقة من الطير، والطيرة هي: مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ، وكان العرب في الجاهلية إذا أراد أحدهم أمرًا من الأمور - كسفرٍ مثلًا - إذا خرج من بيته، تطير بالسوانح والبوارح، فأول طير يصادفه تطير به، فإن كان حمامة أو نحوها من الطيور الجميلة المحبوبة اعتقد أن الأمر الذي يسير فيه أمر خير، وإن كان غرابًا أو بومة أو غير ذلك ظن أن الأمر الذي يسير إليه مذمومًا أو لن يتم، وربما استخدم طريقة أخرى، وهي: أنه يحرك الطير فإن ذهب يمينًا مضى في أمره، وإن مضى شمالًا رجع عن ذلك الأمر.

وقد لا يسلم مما يقع في النفس إلا الخلّص فمن لم يبال بها لا تضره؛ قال النووي في "**شرح مسلم**" (٥/ ٢٢): قَوْلُهُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ قَالَ ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ وَفِي رِوَايَةٍ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ أَنَّ الطِّيَرَةَ شَيْءٌ تَجِدُونَهُ فِي نفوسكم ضرورة وَلَا عَتَبَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ غَيْرُ مُكْتَسَبٍ لَكُمْ فَلَا تَكْلِيفَ بِهِ وَلَكِنْ لَا تَمْتَنِعُوا بِسَبَبِهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي أُمُورِكُمْ فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُكْتَسَبٌ لَكُمْ فَيَقَعُ بِهِ التَّكْلِيفُ فَنَهَاهُمْ ﷺ عَنِ الْعَمَلِ بِالطِّيَرَةِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ بِسَبَبِهَا وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّطَيُّرِ وَالطِّيَرَةُ هِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا لَا عَلَى مَا يُوجَدُ فِي النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ عَلَى مُقْتَضَاهُ عِنْدَهُمْ. انتهى.

والعمل بالطيرة طريقة من لا خلاق لهم كما سيأتي قول قوم فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقول قوم صالح لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال مخبرًا عن قصة ياسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨].

وقد تقدم حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ»، وهذا يدل على أنها كبيرة من كبائر الذنوب وصاحبها دائر بين الشرك الأكبر والأصغر على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (٢/٢٣٠): وَقد شفى النَّبِي أمته فِي الطِّيَرَة حَيْثُ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «ذَاك شَيْء يجده أحدكُم فَلَا يصدنه» وَفِي أثر آخر إِذا تطيرت فَلَا ترجع أَي أمض لما قصدت لَهُ وَلَا يصدنك عَنهُ الطِّيَرَة، وَاعْلَم أَن التطير إِنَّمَا يضر من أشْفق مِنْهُ وَخَافَ وَأما من لم يبال بِهِ وَلم يعبأ بِهِ شَيْئا لم يضرّهُ الْبَتَّةَ وَلَا سِيمَا إِن قَالَ عِنْد رُؤْيَة مَا يتطير بِهِ أَو سَمَاعه: «اللَّهُمَّ لَا طير إِلَّا طيرك وَلَا خير إِلَّا خيرك وَلَا إِلَه غَيْرك، اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْت وَلَا يذهب بالسيئات إِلَّا أَنْت وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك».

فالطيرة بَاب من الشّرك والقاء الشَّيْطَان وتخويفه ووسوسته يكبر ويعظم شَأْنهَا على من اتبعها نَفسه واشتغل بهَا وَأكْثر الْعِنَايَة بهَا وَتذهب وتضمحل عَمَّن لم يلْتَفت إِلَيْهَا وَلَا ألقى إِلَيْهَا باله وَلَا شغل بهَا نَفسه وفكره وَاعْلَم أَن من كَانَ معتنيا بهَا قَائِلا بهَا كَانَت إِلَيْهِ أسْرع من السَّيْل الى منحدر فتحت لَهُ أَبْوَاب الوساوس فِيمَا يسمعهُ وَيرَاهُ ويعطاه وَيفتح لَهُ الشَّيْطَان فِيهَا من المناسبات الْبَعِيدَة والقريبة فِي اللَّفْظ وَالْمعْنَى مَا يفْسد عَلَيْهِ دينه وينكد عَلَيْهِ عيشه، فَإِذا سمع سفر جلا أَو أهْدى إِلَيْهِ تطير بِهِ وَقَالَ: سفر وجلاء، وَإِذا رأى ياسمينا أَو سمع اسْمه تطير بِهِ وَقَالَ: يأس ومين، وَإِذا رأى سوسنة أَو سَمعهَا قَالَ: سوء يبْقى سنه، وَإِذا خرج من دَاره فَاسْتَقْبلهُ أَعور أَو أشل أَو أعمى أَو صَاحب آفَة تطير بِهِ وتشاءم بيومه.

ويحكى عَن بعض الْوُلَاة أَنه خرج فِي بعض الْأَيَّام لبَعض مهماته فاسْتَقْبلهُ رجل أَعور فتطير بِهِ وَأمر بِهِ إِلَى الْحَبْس فَلَمَّا رَجَعَ من مهمه وَلم يلق شرا أَمر باطلاقه فَقَالَ لَهُ سَأَلتك بِاللَّه مَا كَانَ جرمي الذى حبستنى لأَجله فَقَالَ لَهُ الوالى: لم يكن لَك عندنَا جرم وَلَكِن تطيرت بك لما رَأَيْتُك فَقَالَ: فَمَا أصبت فِي يَوْمك برؤيتي فَقَالَ: مِمَّا لم ألق إِلَّا خيرا فَقَالَ: أَيهَا الْأَمِير أَنا خرجت من منزلي فرايتك فَلَقِيت فِي يومي الشَّرّ وَالْحَبْس وَأَنت رأيتني فَلَقِيت فِي يَوْمك الْخَيْر وَالسُّرُور فَمن أشأمنا والطيرة بِمن كَانَت فاستحيا مِنْهُ الوالي وَوَصله.

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِم الزجاجي: لم أر أَشد تطيرا من ابْن الرومي الشَّاعِر وَكَانَ قد تجَاوز الْحَد فِي ذَلِك فعاتبته يَوْمًا على ذَلِك فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِم: الفأل لِسَان الزَّمَان والطيرة عنوان الْحدثَان. وَهَذَا جَوَاب من استحكمت علته فعجز عَنْهَا، وَهُوَ أَيْضا بِمَنْزِلَة من قد غلبته الوساوس فِي الطَّهَارَة فَلَا يلْتَفت إِلَى علم وَلَا إِلَى نَاصح، وَهَذِه حَال من تقطعت بِهِ أَسبَاب التَّوَكُّل وتقلص عَنهُ لِبَاسه بل تعرى مِنْهُ، وَمن كَانَ هَكَذَا فالبلايا إِلَيْهِ أسْرع والمصائب بِهِ أعلق والمحن لَهُ أَلزم بِمَنْزِلَة صَاحب الدمل والقرحة الذى يهدى إِلَى قُرْحَته كل مؤذ وكل مصادم فَلَا يكَاد يصدم من جسده اَوْ يصاب غيرهَا. والمتطير مُتْعب الْقلب منكد الصَّدْر كاسف البال سيء الْخلق يتخيل من كل مَا يرَاهُ أَو يسمعهُ أَشد النَّاس خوفًا وأنكدهم عَيْشًا وأضيق النَّاس صَدرا وأحزنهم قلبا كثير الِاحْتِرَاز والمراعاة لما لَا يضرّهُ وَلَا يَنْفَعهُ وَكم قد حرم نَفسه بذلك من حَظّ ومنعها من رزق وَقطع عَلَيْهَا من فَائِدَة وَيَكْفِيك من ذَلِك قصَّة النَّابِغَة مَعَ زِيَاد بن سيار الفزاري حِين تجهز إِلَى الْغَزْو فَلَمَّا أَرَادَ الرحيل نظر النَّابِغَة إِلَى جَرَادَة قد سَقَطت عَلَيْهِ فَقَالَ جَرَادَة تجرد وَذَات أَلوان عَزِيز من خرج من هَذَا الْوَجْه وَنفذ زِيَاد لوجهه وَلم يتطير فَلَمَّا رَجَعَ زِيَاد سالما غانما أنشأ يَقُول:

أَطَارَ الطِيرُ إِذْ سِرْنَا زِيَادُ ... لِتُخْبِرَنا وَمَا فِيهَا خَبِيرُ

أَقَــامَ كَانَ لُقْمَــانُ بْــنُ عَادٍ   أَشَــارَ لَهُ بِحِكْمَتِــهِ مُشِــيرُ
تَعَلَّــمْ أَنَّــهُ لَا طِــيرَ إِلَّا   عَلَى مُتَطَــيِّرٍ وَهُــوَ الثُّبُــورُ
بَــلَى شَيْءٌ يُوَافِــقُ بَعْــضَ شَيْءٍ   أَحَايِينَــا وَبَاطِلُــهُ كَثِــيرُ

وَلم يحك الله التطير إِلَّا عَن أعدَاء الرُّسُل كَمَا قَالُوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨-١٩]، وَكَذَلِكَ حكى الله سُبْحَانَهُ عَن قوم فِرْعَوْن فَقَالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] حَتَّى إِذا أَصَابَهُم الخصب وَالسعَة والعافية قَالُوا: لنا هَذِه أي نَحن الجديرون الحقيقون بِهِ وَنحن أَهله وَإِن أَصَابَهُم بلَاء وضيق وقحط وَنَحْوه قَالُوا: هَذَا بِسَبَب مُوسَى وَأَصْحَابه أصبْنَا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم كَمَا يَقُوله المتطير لمن يتطير بِهِ فَأخْبر سُبْحَانَهُ أَن طائرهم عِنْده كَمَا قَالَ تَعَالَى عَن أَعدَاء رَسُوله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨].

فَهَذِهِ ثَلَاثَة مَوَاضِع حكى فِيهَا التطير عَن أعدائه وَأجَاب سُبْحَانَهُ عَن تطيرهم بمُوسَى وَقَومه بِأَن طائرهم عِنْد الله لَا بِسَبَب مُوسَى وَأجَاب عَن تطير أَعدَاء رَسُول الله بقوله قل كل من عِنْد الله وَأجَاب عَن الرُّسُل بقوله إِلَّا طائركم مَعكُمْ وَأما قَوْله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فَقَالَ ابْن عَبَّاس: طائرهم مَا قضى عَلَيْهِم وَقدر لَهُم وَفِي رِوَايَة شؤمهم عِنْد الله وَمن قبله أي إِنَّمَا جَاءَهُم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته وَرُسُله وَقَالَ أَيْضا ان الأرزاق والأقدار تتبعكم وَهَذِه كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾ [الإسراء: ١٣] أي مَا يطير لَهُ من الْخَيْر وَالشَّر فَهُوَ لَازم لَهُ فِي عُنُقه وَالْعرب تَقول جرى لَهُ الطَّائِر بِكَذَا من

الْخَيْر وَالشَّر قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: الطَّائِر عِنْدهم الْحَظ وَهُوَ الذي تسميه الْعَامَّة البخت يَقُولُونَ هَذَا يطير لفُلَان أي يحصل لَهُ قلت: وَمِنْه الحَدِيث «فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ»(١) أي أَصَابَنَا بِالْقُرْعَةِ لما اقترع الْأَنْصَار على نزُول الْمُهَاجِرين عَلَيْهِم وَفِي حَدِيث رويفع ابْن ثَابت حَتَّى أَن أَحدنَا ليطير لَهُ النصل والريش وَالْآخر الْقدح أي يحصل لَهُ بِالشّركَةِ فِي الْغَنِيمَة.

وَقيل فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ أَن الطَّائِر هَهُنَا هُوَ الْعَمَل قَالَه الْفراء وَهُوَ يتَضَمَّن الرَّد على نفاة الْقدر وَخص الْعُنُق بذلك من بَين سَائِر أَجزَاء الْبدن لِأَنَّهَا مَحل الطوق الَّذِي يطوقه الْإِنْسَان فِي عُنُقه فَلَا يَسْتَطِيع فكاكه وَمن هَذَا يُقَال إِثْم هَذَا فِي عُنُقك وَافْعل كَذَا واثمه فِي عنقِي وَالْعرب تَقول طوقها طوق الْحَمَامَة وَهَذَا ربقة فِي رقبته وَعَن الْحسن بن آدم لتنظر لَك صحيفَة إِذا بعثت قلدتها فِي عُنُقك فخصوا الْعُنُق بذلك لِأَنَّهُ موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التَّعَالِيق فِيهَا كثير كَمَا خصت الأيدي بِالذكر فِي نَحْو: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] وَنَحْوه وَقيل الْمَعْنى أَن الشؤم الْعَظِيم هُوَ الَّذِي لَهُم عِنْد الله من عَذَاب النَّار وَهُوَ الَّذِي أَصَابَهُم فِي الدُّنْيَا وَقيل الْمَعْنى أَن سَبَب شؤمهم عِنْد الله وَهُوَ عَمَلهم الْمَكْتُوب عِنْده الَّذِي يجرى عَلَيْهِ مَا يسوؤهم ويعاقبون عَلَيْهِم بعد مَوْتهمْ بِمَا وعدهم الله وَلَا طَائِر أشأم من هَذَا وَقيل حظهم ونصيبهم وَهَذَا لَا يُنَاقض قَول الرُّسُل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي حظكم وَمَا نالكم من خير وَشر مَعكُمْ بِسَبَب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين لَيْسَ هُوَ من أجلنا وَلَا بسببنا بل ببغيكم. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٠٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]

هذه الآية ذكرها الله ﷻ في شأن قوم فرعون، وهو أنهم تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: إنما أصابهم القحط والسنين والجدب والقمَّل والضفادع.. وغير ذلك من الآيات التي جعلها الله ﷻ نصرة لموسى عليه السلام بسبب شؤم موسى عليه السلام، قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي: الخير من الله ﷻ والشر من الله ﷻ، والإنسان سائر على وفق ما قدر الله ﷻ وقضاه، فلا دخل للطير، ولا التشاؤم فيما يصيب الإنسان، والتطير يقع بأمور: فبعضهم إذا تحركت عينه، وبعضهم إذا حكته رجله، وبعضهم إذا رأى الحمار، وبعضهم إذا رأى الغراب، فكل من تشاءم بشيء كان ذلك طيرة في حقه.

والنبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ» متفق عليه[1]، يعني: الشؤم الحاصل قدرًا وشرعًا، ثم فسر هذا الشؤم، فشؤم المرأة في أخلاقها، وشؤم الفرس نفوره، وشؤم الدار ضيقها، والبيت إذا كان ضيقًا ضاق حال ساكنه، فلن يستطع أن يكرم ضيفًا ولا يوسع على عيال، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَنْزِلُ الْوَاسِعُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيُّ» أخرجه البزار "مسنده" (٣٧٣)، وعَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ» رواه الإمام أحمد (١٥٣٧٢)،

(١) البخاري (٥٧٧٢)، ومسلم (٢٢٢٥)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

فالكفار كانوا يتطيرون بأنبيائهم وبصالحيهم، وكان الله ﷻ يملي لهم: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس:١٩]

قبلها قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨] يقول تعالى ذكره: قال أصحاب القرية للرسل ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ يعنون: إنَّا تشاءمنا بكم، فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم.

فأجابهم الرسل بقولهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾، أي أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إن أصابكم سوء فبما كتب عليكم، وسبق لكم من الله وإنما هو مكتوب ومقدر عليكم كائن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾، أي: متجاوزون الحد في المعاصي فاستحققتم هذا العذاب وهذه الشدة التي نزلت بكم.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ، وَلا هَامَةَ، وَلا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلا نَوْءَ وَلا غُولَ».

قَوْلُهُ (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ): هو عبد الرحمن بن صخر على الصحيح من أقوال أهل العلم، وقد تقدم أنه حافظ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ (لا عَدْوَى): أي: تعدي بنفسها؛ لأنه سيشكل معنا قول النبي ﷺ: «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ» رواه الإمام أحمد (٩٧٢٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

والجمع بأنها لا عدوى بنفسها، ومع ذلك: فر من المجذوم؛ لأن مجالسة المجذوم قد يؤدي إلى المرض أحيانا، وينتقل المرض بأمور وأسباب قدرية، لكن ربما يقع في الناس ما تُلوث به العقائد ويعتقدون أن المرض حصل لهم بالمجالسة وحدها قال: «لَا عَدْوَى»،مع أنّ المرض يحصل بسبب تقدير الله له، ثم المجالسة، فلا عدوى بنفسها، ومع ذلك: «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»؛ لأنه قد وجد شرعًا وقدرًا أن الإنسان إذا جالس المريض قد يصاب بما في ذلك الرجل، لاسيما إذا كانت الأمراض معدية، فكم من إنسان يصاب بفيروس الكبد بسبب نقل الدم، وكم من إنسان يصاب بالزكام بسبب مجالسته للمزكومين، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ -أي الطاعون- بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»، متفق عليه[١] عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

قَوْلُهُ (وَلا هَامَةَ): وهو ما يعتقده الجاهليون أن الرجل إذا مات ودفن خرج

---

(١) البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

من رأسه طائر يسمى الهامة حتى قال ابن الأصبع:

يَــا عَمْــرُو إِنْ لا تَــدَعْ شَــتْمِي أَضْرِبْــكَ حَيْــثُ تَقُــولُ الهامَــةُ

وذكر الحافظ في "الفتح" (١٠/٢٤١): قول أَبِي عُبَيْدٍ: كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ عِظَامَ الْمَيِّتِ تَصِيرُ هَامَةً فَتَطِيرُ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الطَّائِرَ الصَّدَى. اهـ.

قَوْلُهُ (وَلا صَفَرَ): كانوا يتطيرون بشهر صفر، فكانوا لا يتزوجون فيه ولا يزوجون، ولا يخرجون أو يقاتلون؛ لأنهم يعتقدون شؤمه، فأراد رسول الله ﷺ إزالة هذا الاعتقاد الفاسد والتطير المذموم.

وما زال كثير من الناس إلى الآن يتشاءمون بشهر صفر، وشوال، والنبي ﷺ تزوج في شوال، قَالَتْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِي فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي؟»، قَالَ: «وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَسْتَحِبُّ أَنْ تُدْخِلَ نِسَاءَهَا فِي شَوَّالٍ»(١)، وكأنها تشير رضي الله عنها إلى ما يقع عند الناس من التشاؤم بذلك الشهر.

ومنها التشاؤم بيوم الأربعاء حتى وضع له المتشائمون أحاديث منها: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آخِرُ أَرْبَعَاءَ مِنَ الشَّهْرِ يَوْمَ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ» أخرجه الخطيب في **"تاريخ بغداد"** (ط العلمية، ١٤/ ٤٠٦)، وابن الجوزي في **"الموضوعات"** (٢/ ٧٣)، وله كذلك «يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ» من حديث جَابِرٍ رضي الله عنه .

وهذا يدل على ضعف التوحيد والتوكل على الله عز وجل، وإلا فالأيام أيام الله والشهور شهور الله، والطيور طيور الله، فلماذا تتشاءم؟ توكل على الله وامض لشأنك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿وَعَلَى

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٣)، من حديث عُرْوَةَ رضي الله عنه.

ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): أي: أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

قَوْلُهُ (زَادَ مُسْلِمٌ: وَلَا نَوْءَ): النَّوء واحد الأنواء وهي: ثمانية وعشرون منزلة، وهي منازل القمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، ويسقط في الغرب كل ثلاثة عشر ليلة منزلة، ويطلع أخرى مقابلها في ذلك الوقت في الشرق فتنقضي بانقضاء السنة، وكان الجاهليون يعتقدون بأن المطر يحصل في نوء كذا، وأن النوء هو الذي يمطر، والنبي ﷺ يقول مخبرًا عن ربه: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»، متفق عليه[1] عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله.

فمن اعتقد أن الكوكب والنوء هو الذي يأتي بالمطر فقد كفر، وكفره كفر أكبر مخرج من الملة، ومن اعتقد أن النوء سبب فإضافة المطر إلى النوء شرك أصغر، فينبغي أن يضيف المطر إلى الله عز وجل.

قَوْلُهُ (وَلَا غَولَ): **قال الراغب في "النهاية" (٣/٣٩٦)**: الغُولُ: أحَدُ الغِيلَان، وَهِيَ جِنس مِن الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، كَانَتِ العَرب تَزْعُم أَنَّ الغُول فِي الفَلاة تَتَرَاءَى لِلنَّاسِ فتتَغَوَّلُ تَغوُّلًا: أَيْ تَتَلَوّن تلَوُّنا فِي صُوَر شَتَّى، وتَغُولُهم أَيْ تُضِلُّهم عَنِ الطَّرِيقِ وتُهْلِكهم، فنَفاه النبي ﷺ وأبْطَله.

وَقِيلَ: قَوْلُهُ «لَا غُولَ» لَيْسَ نَفْيًا لعَين الغُول ووجُوده، وَإِنَّمَا فِيهِ إِبْطَالُ زَعْم الْعَرَبِ فِي تَلَوُّنه بالصُّوَر المخْتِلَفة واغْتِيَالِه، فَيَكُونُ المعْنى بِقَوْلِهِ «لَا غُولَ» أنَّها لَا تَسْتَطيع أَنْ تُضِلَّ أحَدًا. انتهى.

---

(١) البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

وأما حديث: «وَإِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمُ الْغِيلَانُ، فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ». رواه الإمام أحمد (١٤٢٧٧)، والنسائي في "**الكبرى**" (١٠٧٢٥)، وابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٢٩٧١٤)، كلهم عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما. والحسن لم يسمع من جابر رضي الله عنه.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا عَدْوَى، وَلا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ): أي: للبخاري (٥٧٧٦) كتاب الطب باب لا عدوى، ومسلم (٢٢٢٤) عن أنس رضي الله عنه، وهو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري، وأمه أم سليم رضي الله عنها، دعا له النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ» أخرجه البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٢٤٨٠)، وخدم النبي ﷺ عشر سنين، قال: لم يقل لي: لماذا صنعت كذا، أو لماذا لم تصنع كذا، وكان إذا أمرني بأمر لم أعمله قال: لو قدر لكان. عاش حتى دفن من صلبه ثمانين ولدًا، ويقولون: كان له من الأبناء أكثر من مائة، وكانت له حديقتان تثمر في الصيف والشتاء ببركة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو من المكثرين في الحديث.

قَوْلُهُ (وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ): قال النووي في "شرحه على مسلم" (٢١٩/١٤): الْفَأْلُ: مَهْمُوزٌ وَيَجُوزُ تَرْكُ هَمْزِهِ وَجَمْعُهُ فُؤُولٌ كَفَلْسٍ وَفُلُوسٍ. اهـ.

قَوْلُهُ (قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ): وقد جاء هذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النووي في "شرحه على مسلم" (١٤/ ٢١٩): وَقَدْ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْكَلِمَةِ الصَّالِحَةِ وَالْحَسَنَةِ وَالطَّيِّبَةِ قَالَ العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء والغالب في السرور والطيرة لا تكون إلا فيما يَسُوءُ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلأَبِي دَاوُدَ -بِسَنَدٍ صَحِيحٍ- عَنْ عُروةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلا تَرُدَّ مُسْلِمًا؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إلا أَنْتَ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلا أَنْتَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوّةَ إلا بِكَ».

قَوْلُهُ (وَلأَبِي دَاوُدَ): هو سليمان بن الاشعث السجستاني؛ في "سننه" (٣٩١٩) كتاب الطب باب في الطيرة.

قَوْلُهُ (بِسَنَدٍ صَحِيحٍ): أي بسند رجاله ثقات، وفي الغالب هذا اللفظ لا يكون تصحيحًا للحديث، ومع ذلك ففي هذا السند حبيب بن أبي ثابت مدلس، وروايته عن عروة منقطعة.

قَوْلُهُ (عَنْ عُروةَ بْنِ عَامِرٍ): هو المكي، مختلف في صحبته قال أبو حاتم: هو تابعي فحدثيه مرسل وهذه علة أخرى.

قَوْلُهُ (ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ...): تقدم أن الحديث ضعيف ولا يصلح ذكره فيما أعلم في هذا الباب؛ لأن العبادات متوقفة على الدليل.

وقَوْلُهُ (أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ): يدل عليه ما تقدم من أن الفأل خلاف الطيرة، وهو الكلمة الطيبة أو الفعل الطيب الذي يقع به الاستبشار، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ، فَأُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ، فَأَوَّلْتُ الرِّفْعَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا، وَالْعَاقِبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ» أخرجه مسلم (٢٢٧٠) في كتاب الرُّؤْيَا.

وقَوْلُهُ (وَلا تَرُدَّ مُسْلِمًا): هذا هو الذي عليه أهل التوحيد؛ لأنها تخالف

التوحيد، وفيها التعلق بغير الله ﷻ والظن أن بعض الأمور تأتي بالخير وتدفع الشر وليس كذلك.

قَوْلُهُ (لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلا أَنْتَ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلا أَنْتَ): أي: لا يأتي بالخير إلا الله، والذي يدفع الشرور هو الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقَوْلُهُ (وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ): قال النووي في "**شرح مسلم**" (١٧/ ٢٦): قَوْلُهُ ﷺ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وَتَفْوِيضٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاعْتِرَافٍ بِالْإِذْعَانِ لَهُ وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ. وَمَعْنَى الْكَنْزِ هُنَا: أَنَّهُ ثَوَابٌ مُدَّخَرٌ فِي الْجَنَّةِ وَهُوَ ثَوَابٌ نَفِيسٌ كَمَا أَنَّ الْكَنْزَ أَنْفَسُ أَمْوَالِكُمْ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْحَوْلُ الْحَرَكَةُ وَالْحِيلَةُ أَيْ لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتِطَاعَةَ وَلَا حِيلَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا حَوْلَ فِي دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ فِي تَحْصِيلِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقِيلَ لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته. انتهى.

وفيها حسن الاعتماد على الله ﷻ ووجوب ذلك، وقد دل على فضلها حديث أبي موسى رضي الله عنه، وغيره: «قُلْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»(١)، وغير ذلك من الأحاديث.

وفي هذه الكلمة غاية الاعتماد والتضرع على الله، وكم كنا نسمع من شيخنا مقبل رحمه الله، وهو يقول: ليس بحولنا ولا بقوتنا ولا بكثرة علمنا ولا بفصاحتنا، ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

نحن فيه، ولكن شيء أراده الله.

وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى هَمَسَ شَيْئًا لَا يُخْبِرُنَا بِهِ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ مِمَّا إِذَا صَلَّيْتَ هَمَسْتَ شَيْئًا لَا نَفْهَمُهُ؟ قَالَ: «أَفَطِنْتُمْ بِي»، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْطَى جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: مِنْ يُكَافِئُ هَؤُلَاءِ قَالَ: قِيلَ لَهُ: اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوِ الْجُوعُ، أَوِ الْمَوْتُ؟ قَالَ: فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمِهِ، قَالَ: فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ فَاخْتَرْ لَنَا فَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَكَانُوا مِمَّا إِذَا فَزِعُوا، فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِهِمْ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِمَّا أَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، قَالَ: فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، قَالَ: فَهَمْسِي الَّذِينَ تَسْمَعُونَ أَنِّي أَقُولُ: اللهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[(١)].

وهُزم الصحابة رضوان الله عليهم في يوم حنين في أول المعركة بسبب كلمة قالها بعض حديثي العهد بالإسلام: لن نغلب اليوم من قلة، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

***

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٨٠) واللفظ له، وأحمد في «المسند» (١٨٩٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٧٩)، وغيرهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، قَالَ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إلا، وَلَكِنِ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ. وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

قَوْلُهُ (مَرْفُوعًا): أي: إلى النبي ﷺ من قوله كما تقدم.

قَوْلُهُ («الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»): أي من الشرك؛ وذلك لأن الإنسان يظن أنها تأتي بالخير والشر، ومن زعم أن مع الله خالقًا، أو متصرفًا في الخير والشر فهو مشرك، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يدفع ويرفع، وهو الذي يأتي بالخير، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

قَوْلُهُ (وَمَا مِنَّا إلا): أي مما منا من أحد إلا وقد يقع في قلبه شيء من ذلك، وهذا من قول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهي لفظة مدرجة في الحديث؛ لأن النبي ﷺ معصوم عن مثل هذا بل هو ﷺ ذروة الموحدين والمتوكلين على الله عَزَّ وَجَلَّ، قال البيقوني رَحِمَهُ اللهُ:

وَالْمُدْرَجَاتُ فِي الْحَدِيثِ مَا أَتَتْ ... مِنْ بَعْضِ أَلْفَاظِ الرُّوَاةِ اتَّصَلَتْ

ويعرف الإدراج بأمور:

الأمر الأول: أن يقول الراوي: هذا ليس من كلام النبي ﷺ، ففي البخاري (٥٣٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غِنًى، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» تَقُولُ المَرْأَةُ: إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي، وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي، وَيَقُولُ العَبْدُ: أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي، وَيَقُولُ الِابْنُ: أَطْعِمْنِي، إِلَى مَنْ تَدَعُنِي، فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

قَالَ: «لاَ، هَذَا مِنْ كِيسِ أَبِي هُرَيْرَةَ».

وفي "**مسند أحمد**" (٧٩٧٦) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ، وَكَسْبِ الْبَغِيِّ، وَثَمَنِ الْكَلْبِ». قَالَ: «وَعَسْبِ الْفَحْلِ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «هَذِهِ مِنْ كِيسِي».

وفي "**جامع بيان العلم وفضله**" لأبي نعيم (١٦٠٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَالَ فِي شَيْءٍ بِرَأْيِهِ قَالَ: «هَذَا مِنْ كَيْسِي» ذَكَرَهُ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ وَلِيدِ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁.

الثاني: أن ينص العلماء على أن هذا ليس من قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

الثالث: ويعلم ذلك بكون ذلك تفسيرًا، مثل قول الزهري: التحنث: وَهُوَ التَّعَبُّدُ، فعائشة ﵂، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- فِيهِ اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ».

الرابع: ويعرف باستحالة أن يكون النبي ﷺ قال ذلك، ومنه حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالحَجُّ وَبِرُّ أُمِّي، لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ»[1]، فمرتبة النبي ﷺ أعلى من مرتبة المملوك الطائع لسيده، وأم النبي ﷺ كانت قد ماتت قبل البعثة على ما هو معلوم.

قَوْلُهُ (وَلَكِنِ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُلِ) أي: أن علاج التطير: حسن التوكل على الله ﷻ، وأنه لا يضر وينفع إلا الله سبحانه وتعالى، وعلى المرء أن يمضي فيما عزم عليه مستعينا بالله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٨) ومسلم (١٦٦٥).

قَوْلُهُ: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ): في كتاب الطب باب الطيرة (٣٩١٠)، (وَالتِّرْمِذِيُّ) في "**جامعه**" (١٦١٤) أبواب السير باب ما جاء في الطيرة.

قَوْلُهُ: (وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ): حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي البَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحَابِسٍ التَّمِيمِيِّ، وَعَائِشَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَسَعْدٍ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ وَرَوَى شُعْبَةُ أَيْضًا، عَنْ سَلَمَةَ هَذَا الحَدِيثَ، سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ يَقُولُ: كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ فِي هَذَا الحَدِيثِ، «وَمَا مِنَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». قَالَ سُلَيْمَانُ: هَذَا عِنْدِي قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَمَا مِنَّا. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، وَلا إلَهَ غَيْرُكَ». وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

قَوْلُهُ (ولأَحْمَدَ): في «المسند» (٧٠٤٥) قال: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ هُبَيْرَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فذكره، وعبد الله بن لهيعة ضعيف، قال: الهيثمي في "**مجمع الزوائد**" (٥/ ١٠٥): رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

والحديث عند ابن وهب في "**الجامع**" (١/ ١١٠)، ومن طريقه أخرجه ابنُ السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٣)، ورواية عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة يقبلها بعض أهل العلم عن خالد بن خداش قال: قَالَ لِيَ ابْنُ وَهْبٍ، وَرَآنِي لَا أَكْتُبُ حَدِيثَ ابْنِ لَهِيعَةَ: إِنِّي لَسْتُ كَغَيْرِي فِي ابْنِ لَهِيعَةَ فَاكْتُبْهَا.

قَوْلُهُ (عَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو): هو أَبُو مُحَمَّدٍ، وَقِيلَ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَقِيلَ: أَبُو نُصَيْرٍ، بضم النون، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ سُعَيدِ - بضم السين وفتح العين - بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، الْقُرَيشِيُّ، السَّهمِيُّ الزاهد العابد، الصحابي ابن الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كان بينه وبين أبيه في السن اثنتي عشرة سنة، وقيل: إحدى عشرة سنة، وَأُمُّهُ رَيْطَةُ بِنْتُ مُنَبِّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ سَعْيدِ بْنِ سَهْمٍ، أسلمت. انتهى

من "تهذيب الأسماء واللغات" (١/ ٢٨١).

قَوْلُهُ (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ): على ما تقدم بيانه من كونه علق النفع والضر بغير سبب شرعي.

قَوْلُهُ (قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟): أي كفارة ما يقع في النفس.

قَوْلُهُ (قَالَ: أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلا طَيْرُكَ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ): أي برد الأمر إلى الله، وعلى الإنسان أن يعالج نفسه بالتوكل على الله والاعتماد عليه والاستغفار، فالتطير ذنب، فإذا أذنبت استغفر الله ﷻ منه.

قَوْلُهُ (وَلَهُ): أي: لأحمد (٣/ ٢٤٠).

قَوْلُهُ (مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه): هو ابن عم رسول الله ﷺ وكان رديف النبي ﷺ من مزدلفة إلى منى، وهو من آخر من رأى النبي ﷺ.

قَوْلُهُ (إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ): أي أن الطيرة ما كان سببا لمضيك في ما عزمت عليه أو ردك عنه، وهذا تفسيرها، وفيه: حصر الطيرة في ذلك وهي أعم.

والحديث لا يصح، في سنده محمد بن عبد الله بن علاثة العقيلي، مختلف فيه والراجح ضعفه، قال البخاري: في حديثه نظر.

وفيه: مسلمة بن عبد الله الجهني لم يوثقه غير ابن حبان ولم يدرك الفضل، فهذه ثلاث علل، وبالله التوفيق.

***

٢٨- بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَوْلُهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ): أي من الأحكام، والتنجيم: مأخوذ من النجوم وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

قال الخطيب في القول في "علم النجوم" (١٢٦): إِنَّ عِلْمَ النُّجُومِ يَشْتَمِلُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا مُبَاحٌ، وَتَعَلُّمُهُ فَضِيلَةٌ. وَالآخَرُ مَحْظُورٌ، وَالنَّظَرُ فِيهِ مَكْرُوهٌ.

فَأَمَّا الضَّرْبُ الأَوَّلُ: فَهُوَ الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ، وَمَنَاظِرِهَا، وَمَطَالِعِهَا، وَمَسَاقِطِهَا، وَسَيْرِهَا، وَالاهْتِدَاءُ بِهَا، وَانْتِقَالُ الْعَرَبِ عَنْ مِيَاهِهَا لأَوْقَاتِهَا، وَتَخَيُّرُهُمُ الأَزْمَانَ لِنِتَاجِ مَوَاشِيهَا، وَضِرَابِهِمُ الْفُحُولَ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِالأَمْطَارِ عَلَى اخْتِلافِهَا، وَاسْتِدْلالُهُمْ عَلَى مَحْمُودِهَا وَمَذْمُومِهَا، وَالتَّوَصُّلُ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ بِالنُّجُومِ، وَمَعْرِفَةُ مَوَاقِيتِ الصَّلاةِ، وَسَاعَاتِ اللَّيْلِ بِظُهُورِهَا وَأُفُولِهَا.

وَقَدْ جَاءَ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي الآثَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنْ أَخْيَارِ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْخَالِفِينَ.

وقال: (١٦٨): وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي، وَهُوَ الْمَحْظُورُ، فَهُوَ مَا يَدَّعِيهِ الْمُنَجِّمُونَ مِنَ الأَحْكَامِ، وَلَيْسَ أَشَدُّ إِتْعَابًا لِلْفِكْرِ، وَإِنْصَابًا لِلْبَدَنِ، وَإِضْلالا لِلْفَهْمِ مِنْهُ، فَإِذَا أَنْفَدَ النَّاظِرُ فِيهِ عُمْرَهُ بِإِسْهَارِ اللَّيْلِ، وَشَغَلَ الْقَلْبَ عَنِ الْمَطْعَمِ، وَالْمَشْرَبِ، وَاللَّذَّاتِ، وَالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَتَبَاعَدَ مِنَ اللَّهِ، وَرَسُولِهِ، وَمِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَرَمَاهُ النَّاسُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ بِالْكُفْرِ وَالزَّنْدَقَةِ، كَانَ عُرْفُهُ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ، وَزُبْدَتُهُ الَّتِي مَخَضَ عَنْهَا عِلْمَ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَتَى يَكُونُ؟ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ يُحْدَثُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؟ وَمِقْدَارُ مَا يَكْسَفُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ

مِنْهُمَا، وَوَقْتُ الانْجِلاءِ؟ وَهَذَا عِلْمٌ لا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، لا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، وَإِنَّمَا الْكُسُوفُ شَيْءٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَيَكُونُ بِاجْتِمَاعِهِمَا أَوْ تَقَابُلِهِمَا، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَقْتَ الْكُسُوفِ حِينَ يَكُونُ مِنْ عَيْبٍ وَلا نَقْصٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعَيْبُ فِي الْجَهْلِ بِمَا تَعْلَمُهُ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النُّجُومِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ، فَإِنِ اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ، وَأَطْمَعَهُ فِي الْقَضَاءِ وَالأَحْكَامِ، وَاعْتَقَدَ فِي الْكُسُوفِ أَنَّهُ لِمَوْتِ أَحَدٍ أَوْ حَيَاتِهِ أَوْ حُلُولِ حَادِثَةٍ وَوُقُوعِ جَائِحَةٍ، فَقَدْ عَقِلَهُ الشَّيْطَانُ بِالْغُرُورِ، وَقَطَعَ أَسْبَابَهُ مِنَ الدِّينِ، لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَأْثَرَ بِالْغَيْبِ دُونَ أَنْبِيَائِهِ وَمَلائِكَتِهِ، إِلا مَا أَطْلَعَهُمْ عَلَيْهِ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينَ، وَعَلامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ. انْتَهَى.

قَوْلُهُ (قَالَ الْبُخَارِيُّ): وهو الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ بَرْدِزْبَهْ الْبُخَارِيُّ الْجُعْفِيُّ، جبل الحفظ.

قَوْلُهُ (فِي «صَحِيحِهِ»): وهو أصح كتاب مصنف على الإطلاق، وفقهه في أبوابه، وهذا الأثر يسمى مُعلقًا، والمعلق: هو أن يسقط المصنف شيخه أو من دونه ويقول العلماء: ما كان من المعلقات في البخاري بصيغة الجزم فهو عند البخاري صحيح، وما كان بصيغة التمريض كأن يقول: ذُكر ورُوي فالغالب أنه ضعيف.

قَوْلُهُ (قَالَ قَتَادَةُ): وهو ابن دعامة أبو الخطاب السدوسي البصري، من تلاميذ الأعمش اتهم بالقدر وهو عالم بالتفسير والحديث، ورمي بالتدليس وعنعنته في الصحيحين.

قَوْلُهُ (خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينَ، وَعَلامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا..): إلخ، أخرجه ابن جرير بلفظ البخاري وأخرجه ابن أبي حاتم - مطولا (٩/ ٢٩١٣) فقال: حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ، ثنا شُعَيْبُ بْنُ إِسْحَاقَ، ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثِ خِصَالٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَجَعَلَهَا يُهْتَدَى بِهَا، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ. فَمَنْ تَعَاطَى فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ: رَأْيَهُ وأخطأ حَظَّهُ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ وَإِنَّ نَاسًا جَهَلَةً بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ أَحْدَثُوا فِي هَذِهِ النُّجُومِ كَهَانَةً: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ سَافَرَ

بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَعَمْرِي مَا مِنْ نَجْمٍ إِلا يُولَدُ بِهِ الأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَالطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ وَالْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ. وَمَا عَلِمَ هَذَا النَّجْمُ وَهَذِهِ الدَّابَّةُ، وَهَذَا الطَّائِرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ. وَقضى اللَّهُ أَنَّهُ لا يعلم من في السماوات وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يبعثون ولعمري لو أن حدا عَلِمَ الْغَيْبَ لَعَلِمَهُ آدمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شيءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ يَأْكُلُ فِيهَا رَغَدًا حَيْثُ شَاءَ، وَنُهِيَ عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ الْبَلاءُ حَتَّى وَقَعَ بِمَا نُهِيَ عَنْهُ. وَلَوْ كَانَ يُعْلَمُ الْغَيْبُ لَعَلِمَتْهُ الْجِنُّ حِينَ مَاتَ نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ ﷺ فَلَبِثَتْ تَعْمَلُ لَهُ حَوْلا فِي أَشَدِّ الْهَوَانِ لَا يَشْعُرُونَ بِمَوْتِهِ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ أَيْ تَأْكُلُ عَصَاهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ وَهِيَ فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أن الجن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَكَانَتِ الْجِنُّ تَقُولُ قَبْلَ ذَلِكَ، أَنَّهَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ وَتَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَابْتَلاهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَجَعَلَ مَوْتَ سُلَيْمَانَ لِلْجِنِّ عِظَةً. انتهى.

ويدل على ما ذكره قتادة: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]، وقال تعالى: ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قوله (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ): أي من زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى في هذه الثلاث، فادعى بها علم الغيب فقد أخطأ وتكلم رجما بالغيب.

قوله (وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ): أي من الإسلام.

قوله (وَتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ): لأنه قال على الله بغير علم وكل هذا منهي عنه قال عمر رضي الله عنه: نهينا عن التكلف.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكَرِهَ قَتَادَةُ تعَلُّم مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

قَوْلُهُ (وَكَرِهَ قَتَادَةُ): والكراهة عند السلف تطلق على التحريم.

قَوْلُهُ (تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ): هي: ثمانية وعشرون منزلة وتقدم بيانها، وتعلم منازل القمر القول فيها كالقول في النجوم، فإن كنت تتعلم بحيث يُعلم بها ابتداء الشهر وانتصافه، والمواسم وما يتعلق بذلك فلا بأس، وإن كان يتعلمها لما يفعله المنجمون فهذا لا يجوز، والتعلق بالنجوم والكواكب صنيع قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ مخبرًا عن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، قال بعض أهل العلم: فيه تقدير محذوف، وهو همزة الاستفهام: أهذا ربي، إذ لم يكن إبراهيم على شك، حتى يضطر إلى أن يقول: هذا ربي، ثم ينقلب إلى إله آخر، ثم إلى إله آخر، حتى يتوصل إلى إثبات الإله الحق، ومما يدل على ذلك ما هو معلوم ضرورة من أن الأنبياء معصومون عن الشرك، بل وكبائر الذنوب قبل البعثة وبعدها وحتى الصغائر الذميمة.

قَوْلُهُ (وَلَمْ يُرَخِّصْ): أي: لم يأذن في تعلمه على ما تقدم.

قَوْلُهُ (ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ): هو سفيان بن عيينة أبو محمد الهلالي إمام جليل قيل فيه:

مَنْ كَانَ يَبْكِي وَرِعًا عَالِمًا ... فَلْيَبْكِ لِلإِسْلَامِ سُفْيَانَا
رَاحُوا بِسُفْيَانَ عَلَى نَعْشِهِ ... وَالْعِلْمُ مَكْسُوينَ أَكْفَانَا
لَا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ مِنْ هَالِكٍ ... أَوْرَثْتَنَا غَمًّا وَأَحْزَانًا

وقال سفيان رحمه الله:

خَلَتِ الديارُ فسُدْتُ غير مُسَوّدِ ومِنَ الشّقَاءِ تَفَرُّدِي بالسُّؤدَدِ

لازم عمرو بن دينار عشرين سنة، وكان من خواص طلابه، فانظر إلى حرص السلف على طلب العلم وتلقيه، والملازمة والمداومة عليه، وهو أمير المؤمنين في الحديث، وفي طبقته سفيان بن سعيد الثوري، أمير المؤمنين في الحديث أيضًا.

قَوْلُهُ (ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا): هو الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، أَبُو مُحَمَّدٍ حَرْبُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ الكِرْمَانِيُّ، الفَقِيْهُ، تِلْمِيْذُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ. انتهى من "**سير اعلام النبلاء**" (١٣/ ٢٤٤).

قَوْلُهُ (وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ): وهو ابن محمد بن حنبل، والمشهور بأحمد بن حنبل.

قَوْلُهُ (وَإِسْحَاقُ): وهو ابن راهويه، وهو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي، (توفي:٢٣٨ هـ)، واشتهر بإسحاق بن راهويه، وهو من أئمة السنة.

وما رخص فيه أحمد وإسحاق هو المتعلق بمعرفة الأزمنة والأوقات لا ما يَدَّعي فيه أصحابه معرفة الغيب المطلق أو تأثر الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية.

***

□

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ أَبِي مُوسَى: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

قَوْلُهُ: (وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): هو عبد الله بن قيس، أوتي مزمارًا من مزامير آل داود، كما قال النبي ﷺ لَهُ: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[1]، وهو من الأشعريين، والأشعريون من اليمن من زبيد، هاجروا إلى النبي ﷺ، وكانوا خمسين، فذهبت بهم السفينة إلى الحبشة، ثم رجعوا ووجدوا النبي ﷺ في غزوة خيبر.

ومن فضائل الأشعريين: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» متفق عليه[2]، والرافضة يبغضون أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويحتقرونه، ويتنقصونه، حتى أن مجد الدين المؤيدي في كتابه "**لوامع الأنوار**" يتهم أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخيانة والكذب في قصة موضوعه، وهي: أن أبا موسى قال: أنا أخلع علي كما أخلع السيف من الغمد، وعمرو بن العاص قال: وأنا أثبت معاوية كما أثبت السيف في الغمد، وهذه القصة غير صحيحة؛ لأنه لم يرد نص صحيح وبنقل ثابت أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ينازع عليًا الخلافة، والتاريخ قد شُوه، وربما تجد مثل هذه القصص عند ابن كثير والطبري في تاريخه، وابن الأثير، وغيرهم من مؤرخي أهل السنة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٢) البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠)، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعمدة في ذلك روايات عن الكلبي الكذاب ولوط بن أبي مخنف الرافضي وغيرهم.

قَوْلُهُ (ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ): أي: ثلاثة أصناف وليسوا أشخاص والحديث لا يدل على الحصر، فإن من توعدوا بهذا الوعيد أكثر من ذلك منها: ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» أخرجه مسلم (٤٦)، وعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ» متفق عليه[١]، وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» قَالَ سُفْيَانُ «قَاطِعُ رَحِمٍ»[٢]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ» أخرجه مسلم (٩١)، إلى غير ذلك.

قَوْلُهُ (مُدْمِنُ الْخَمْرِ): مدمن الخمر هو من لزم شربها، ومات ولم يتب منها، وهي من عمل الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقد جاء في شرب الخمر وعيد عظيم، قال النبي ﷺ: «وَمَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ» متفق عليه[٣] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ

---

(١) البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥).
(٢) البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللفظ له، وقد تقدم.
(٣) البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ، أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٧).

وثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «لَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» متفق عليه[1]، وثبت عند الترمذي (١٢٩٥) من حديث أنس بن مالك ﵁ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِي لَهَا، وَالمُشْتَرَاةُ لَهُ»، وفُشُو شربها من علامات الساعة فعَنْ أَنَسٍ ﵁، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ» متفق عليه[2].

بل ومن سوء صنيعهم أن يسموها بغير اسمها تلبيسًا، وتحيلًا نسأل الله السلامة، ففي "**المسند**" (١٨٠٧٣) عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا».

وكان تحريم الخمر تدريجيًا، فنهى الله أن تقرب الصلاة وهم سكارى، ثم عرَّضَ به فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّ اللهَ سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ

---

(١) البخاري (٦٨١٠)، ومسلم (٥٧).

(٢) البخاري (٥٥٧٧)، ومسلم (٢٦٧١).

مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَنْتَفِعْ بِهِ»، قَالَ: فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرَبْ، وَلَا يَبِعْ»، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ النَّاسُ بِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ فَسَفَكُوهَا، أخرجه مسلم (١٥٧٨)، فسمع أنس بن مالك رضي الله عنه، مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ» فَقَالَ له أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ، متفق عليه[1].

فشارب الخمر إن استحله كفر ولا يدخل الجنة مطلقًا، وإن لم يستحله فهو على كبيرة من كبائر الذنوب، وهو تحت المشيئة، إن شاء الله عز وجل عفا عنه، وإن شاء عذبه، وهذا الحكم عام في أصحاب الكبائر فيما دون الشرك الأكبر.

قَوْلُهُ (وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ): على ما تقدم في قول رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أخرجه أحمد (٩٥٣٦). فمن صدق السحرة والمشعوذين فهو كافر بالله العظيم، وهذا هو الشاهد من ذكر الحديث في هذا الباب، فإن الساحر يستخدم النجوم في باب ادعاء الغيب، والمنجم ساحر قال شيخ الإسلام كما في "**مجموع الفتاوى**" (٣٥/ ١٩٣): فَإِذَا كَانَ الْخَطُّ وَنَحْوُهُ الَّذِي هُوَ مِنْ فُرُوعِ النَّجَامَةِ مِنْ الْجِبْتِ؛ فَكَيْفَ بِالنَّجَامَةِ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُوَلِّدُونَ الْأَشْكَالَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ أَشْكَالِ الْفَلَكِ. وَرَوَى أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادِ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ» فَقَدْ صَرَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنْ السِّحْرِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ وَهَكَذَا الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الِاسْتِقْرَاءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النُّجُومِ لَا يُفْلِحُونَ؛ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

---

(١) البخاري (٢٤٦٤)، ومسلم (١٩٨٠).

وَرَوَى أَحْمَد وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ؛ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عُبَيْدٍ؛ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرَّافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ. وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ السَّائِلِ فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ. وَرَوَى أَيْضًا فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ قَوْمًا مِنَّا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: «فَلَا تَأْتُوهُمْ» فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إتْيَانِ الْكُهَّانِ وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْكَاهِنِ عِنْدَ الخطابي وَغَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ الْعَرَبِ. انتهى.

قَوْلُهُ (وَقَاطِعُ الرَّحِمَ): القاطع ضد الواصل، وهذا وعيد عظيم فيه بيان حق الرحم، ففي "**صحيح البخاري**" (٥٩٨٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتِ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهُوَ لَكِ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]».

وثبت في مسلم (٢٥٥٥) عن عائشة ﵂: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»، وفي "**الصحيحين**"[١] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، وفي "**الصحيحين**"[٢] من حديث جبير بن مطعم ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»، أي: لا يدخل دخولًا أوليًا، أو أنه

---

(١) البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللفظ له.

متوعد بالنار، أو إن استحل ذلك فهو كافر على ما هو معلوم من أصول الشريعة، ونحن نعتقد أن كل من مات على الإسلام فمآله إلى الجنة، وقد يدخله الله ﷻ النار ابتداءً فيمحصه، وقد يتجاوز الله ﷻ عنه ويدخله الجنة ابتداءً منّة منه وفضل.

وفي فضل صلتها: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» متفق عليه[1]، وفي «المسند» (٢٥٢٥٩) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»

ولتكن الصلة لله تعالى وليست على المكافئة ففي البخاري (٩٩١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»، وعند مسلم (٢٥٥٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».

قَوْلُهُ: (رَوَاهُ أَحْمَدُ): في «المسند» (١٩٥٦٩) **(وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»)**: (٥٣٤٦) وفي سنده أبو حَرِيز عبد الله بن الحسن الأزدي ضعيف لكن شواهد الحديث كثيرة؛ عند أحمد وغيره منها:

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ»، في «المسند» (٢/ ٢٠١)، وفي إسناده راو مجهول.

---

(١) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ»، (٣/ ٢٨)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «لَا يَلِجُ حَائِطَ الْقُدُسِ مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَلَا الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَا الْمَنَّانُ عَطَاءَهُ» أخرجه احمد (٣/ ٢٢٦)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ»، أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١)، وفي إسناده سليمان بن عتبة الدمشقي، مختلف فيه، وثقه دحيم، وأبو مسهر، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال أبو حاتم: ليس به بأس، وهو محمود عند الدمشقيين. وقال صالح جزرة: روى أحاديث مناكير، وكان الهيثم بن خارجة وهشام بن عمار يوثقانه، وقال أحمد ابن حنبل: لا أعرفه، وقال يحيى بن معين: لا شيء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني (١١١٦٨) و(١١١٧٠) بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ»، وفي إسناده خصيف الجزري، وهو ضعيف.

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عند الطحاوي في «مشكل الآثار» (٩١٥) بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا وَلَدُ زِنْيَةٍ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ»، وفي إسناده أبو إسرائيل الملائي، وهو ضعيف، وراويه عن أبي قتادة لا يعرف. انتهى من «تحقيق المسند» (١٠/ ٣٢٣).

وقَوْلُهُ (وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ): شاهده ما أخرجه أحمد ط «الرسالة» (١١١٠٧) عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ العوفي -وهو ضعيف- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ خَمْسٍ: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ، وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ، وَلَا كَاهِنٌ، وَلَا مَنَّانٌ».

والمراد به من صدَّق الساحر في ادعائه علم الغيب، وكل هذه الأحاديث وما في بابها تدل على خطر السحر والتعلق بالنجوم التي هي من خلق الله عَزَّوَجَلَّ ولا قدرة لها إلا بتسخير الله عَزَّوَجَلَّ لها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

***

٢٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ) :أي: ما جاء في بيان حال من طلب السقيا من الأنواء، أو أضاف السقيا إليها، والاستسقاء طلب السقيا، ومنه سميت صلاة الاستسقاء، ويجب أن يطلب من الله تعالى، وللاستسقاء الشرعي أوجه ذكرته في كتابي اتحاف النبلاء بأحكام الاستسقاء.

أحدها: الدعاء المجرد في أي وقت أو على أي حال لما صح عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ من حديث عُمَيْرٍ، مَوْلَى آبِي اللَّحْمِ رضي الله عنه: «أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَسْقِي عِنْدَ أَحْجَارِ الزَّيْتِ، قَرِيبًا مِنَ الزَّوْرَاءِ قَائِمًا، يَدْعُو يَسْتَسْقِي رَافِعًا يَدَيْهِ قِبَلَ وَجْهِهِ، لَا يُجَاوِزُ بِهِمَا رَأْسَهُ»(١).

الثاني: الدعاء في خطبة الجمعة لما في «الصحيحين»(٢) عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، يَذْكُرُ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ المِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَتِ المَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا» قَالَ أَنَسُ: وَلاَ وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلاَ قَزَعَةً وَلاَ شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلاَ دَارٍ قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ

(١) أخرجه أبو داود (١١٦٨)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٩٩) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.
(٢) البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا.

الثالث: الخروج إلى المصلى فعن عَبْدِ اللَّـهِ بْـنِ زَيْـدٍ بـن عاصـم رضي الله عنه ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى فَاسْتَسْـقَى فَاسْـتَقْبَلَ القِبْلَـةَ، وَقَلَـبَ رِدَاءَهُ، وَصَـلَّى رَكْعَتَيْنِ» متفق عليه[(١)].

والأنواء منازل القمر كما تقدم، فالاستسقاء بها بمعنى طلـب السـقيا منهـا شرك أكبر مخرج من الملة، فمن اعتقد أن سهيلًا أو غيره من النجـوم هـي التـي تأتي بالمطر فقد كفر كفرًا أكبر مخرج من الملة، وإن لم يقل: يا سهيل اسـقنا، وإن كان قد أضاف المطر إليها من باب أن هذه المواسم من أسبابها، فإضـافة المطـر إلى النوء من غير اعتقاد أنه هو الذي أنزله شرك أصغر على ما يـأتي بيانـه في كـلام النووي رحمه الله.

***

(١) البخاري (١٠١٢)، ومسلم (٨٩٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

قولُهُ (وقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾): في بيانها حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور في الباب وسيأتي، والشاهد منه **قولُهُ** وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا» قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. انتهى من «شرح النووي على شرح مسلم» (٢/ ٦٢)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٥٤٥): قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢]، بِمَعْنَى: شُكْرِكُمْ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أَيْ: تُكَذِّبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ. اهـ.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه): مختلف في اسمه قيل: اسمه عبيد وقيل: عبد الله، وقيل: عمرو، وقيل: كعب بن كعب، وقيل: عامر بن الحارث صحابي مات في طاعون عمواس سنة (١٨) انتهى من "التقريب".

قَوْلُهُ (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ): وهذا ليس على الحصر إذ أن مسائل الجاهلية كثيرة، نسأل الله السلامة وفي مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٥): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «النَّعْيُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»، وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: «الطَّعَامُ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالنَّوْحُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»

وفيه: رد على الخوارج الذين يكفرون المسلمين بمطلق المعصية، فلم يذكر النبي ﷺ أن أصحابها كفار.

وفيه: رد على المرجئة الذين يزعمون أن الذي يشهد أن لا إله إلا الله بلسانه، وأن محمدًا رسول الله، ويعتقد ذلك بقلبه لا يضره معصية، فالنبي ﷺ يخبر أن هذه المعاصي من أمر الجاهلية، وما كان من أمر الجاهلية فهو كبيرة من كبائر الذنوب، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وقَوْلُهُ (فِي أُمَّتِي): المراد به أمة الإجابة، فهذه الأربع موجودة فيهم فضلًا عن المشركين.

قَوْلُهُ (مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ): أي: من فعلهم وصنيعهم، والجهل ضد العلم هذا في اللغة، **وفي الاصطلاح:** الجاهلية عكس الإسلام، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، والجاهلية المطبقة كانت قبل مبعث النبي ﷺ، أما بعد مبعث النبي ﷺ فلن تكون جاهلية مطبقة إلى قرب قيام الساعة، ولهذا خطَّأ العلماء محمد قطب وسيد قطب في وصفهم للمجتمع المسلم بأنه جاهلي، حيث ألف محمد قطب كتابًا بعنوان جاهلية القرن العشرين، فهذا الإطلاق فيه نظر؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ» متفق عليه(١)، فلا يمكن أن تقع الجاهلية الجهلاء في أمة محمد ﷺ أبدًا، وإنما إذا أراد الله قيام الساعة قبض المسلمين فتقوم الساعة على شرار الخلق الذين لا يقولون: الله الله، وقد بينا ما في هذه الكلمة في كتابنا: "**المصطلحات العصرية وأثره على العقيدة الإسلامية**".

قَوْلُهُ (لا يَتْرُكُونَهُنَّ): هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ حيث وقع ما أخبر به، وليس في هذا الخبر إباحة لتعاطي هذه المخالفات ولكنه إخبار بالحال، ويدل على ذلك الإنكار والتحذير، وأن هذا الفعل من الكبائر.

قَوْلُهُ (الْفَخْرُ): الفخر هو: إظهار الفضل والعظمة، والمؤمن مأمور بالتواضع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه: «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

---

(١) البخاري (٧٤٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٩٢١)، عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (بِالأَحْسَابِ): جمع حسب وهو: ما يعده المرء من مناقبه أو شرف آبائه، وفي حديث بُرَيْدَةَ بْنَ الْحَصِيبِ رضي الله عنه: «إِنَّ أَحْسَابَ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ المَالُ»[١]، والنبي ﷺ قد نهى عن الفخر بالأحساب، ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند أحمد (٢٣٤٨٩)، وغيره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

وفي "**الكنى للدولابي**" (٩٥٠) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا النَّاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ»، وليس في هذا الحديث الدعوة إلى المساواة المطلقة من كل الوجوه، وإنما فيه أنهم من طينة وخلقة واحدة، فلا تفاخر باللون أو النسب أو المال وإنما التفاضل بالتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ للهِ»، متفق عليه[٢].

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا»[٣].

وقال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي، يَعْنِي فُلَانًا، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥٣١٦)، وأحمد (٢٢٩٩٠)، وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٨٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣٨٢٨)، وهو في «الصحيح المسند»(٧٧٠) للشيخ مقبل رحمه الله.

وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»[١]، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِي، وَلَيْسَ كَذَلِكَ. إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا. اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أُحِلُّ لَهُمْ فَسَادَ مَا أَصْلَحْتُ، وَايْمُ اللَّهِ لَتُكْفَأَنَّ أُمَّتِي عَنْ دِينِهَا كَمَا تُكْفَأُ الْإِنَاءُ فِي الْبَطْحَاءِ»[٢].

وقال النبي ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».. الحديث وقد تقدم.

والشاهد: أن الفخر بالأحساب مؤداه إلى ترك الاعتزاز بالدين، وإلى التفاخر والتعاظم ونحن مأمورون بالتواضع، والأخوة الدينية مقدمة على الأخوة الطينية.

قَوْلُهُ (وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ): وهو إنكار أن يكون نسب فلان كما ذكر، والطعن في الأنساب من كبائر الذنوب، وهو أن تقول: أنت لستَ من بني فلان، وفي **"صحيح مسلم"**(٦٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، والكفر هنا: كفر دون كفر، والمراد: أنها من أعمال الكفار، وفي حديث عائشة ﷺ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ فِرْيَةً اثْنَانِ: شَاعِرٌ يَهْجُو الْقَبِيلَةَ بِأَسْرِهَا»[٣]، كما أن تغيير الأنساب محرم، ولا يجوز أن تنتسب إلى غير أبيك، ففي حديث عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوِ انْتَمَى إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٢)، وهو في «الصحيح المسند»(٢/ ٣٢) لشيخنا مقبل الوادعي ﷺ.

(٣)أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٨٥) واللفظ له، والبخاري في «الأدب» (٨٧٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٢١١٢٩)، وغيرهم.

غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا» أخرجاه[١].

قَوْلُهُ (وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ): أي طلب السقيا منها، أو إضافة المطر إليها، وهذا هو الشاهد من الحديث في هذا الباب، وقد تقدم حكمه.

قَوْلُهُ (وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ): النياحة من النوح وهو صوت المرأة وعويلها مع بكاء على الميت، ومنه صوت سجع الحمام وصوت الريح، وليس المراد مجرد البكاء، فإن النبي ﷺ بكى على ولده إبراهيم، وقال: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ» أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، ولما دخل النبي ﷺ على ابن ابنته وهو في سياقة الموت دمعت عينه، فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ» أخرجاه[٢]، وبكى رسول الله ﷺ على سعد بن عبادة رضي الله عنه حين زاره وبكى الناس حوله[٣].

ولكن الممنوع هو النوح وما في بابه، ففي **"صحيح البخاري"** (٤٢٦٧) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: أُغْمِيَ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ عَمْرَةُ تَبْكِي وَاجَبَلاَهْ، وَاكَذَا وَاكَذَا، تُعَدِّدُ عَلَيْهِ، فَقَالَ حِينَ أَفَاقَ: «مَا قُلْتِ شَيْئًا إِلَّا قِيلَ لِي: آنْتَ كَذَلِكَ».

والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ» أخرجه البخاري (١٢٩٠)، ومسلم (٩٣٠)، وهذه المسألة خلافية بين أهل العلم، فكانت عائشة رضي الله عنها تنكر ذلك، وعمر رضي الله عنه ذهب إلى إثبات ذلك، والتفصيل فيه: أن الميت إذا

---

(١) البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٥)، ومسلم (٩٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، مسلم (٩٢٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

كان راضيًا بهذا الصنيع فهو معذب في قبره عليه، وإذا كان قد نهى عنه فلا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وكان الجاهليون إذا مات أحدهم قال:

فَإِنْ مُتُّ فَانْعِيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ ... وشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ
ولا تَجْعَلِيْنِي كَأَمْرِيءٍ لَيْسَ هَمُّهُ ... كَهَمِّي ولا يُغْنِي غَنَائِي ومَشْهَدِي

كما قال طرفة بن العبد. والبيت في "**جمهرة اشعار العرب**" (٣٣٨) لابن زيد القرشي (المتوفي ١٧٠هـ).

وكانوا يصعدون على القصور العظيمة المرتفعة ويقولون: مات فلان ابن فلان سيد الحجاز، ومات البطل، والشجاع، كما تفعل الآن وزارة الدفاع، وكما يفعل رؤساء البلدان بما يسمى بالنعي، فهذه من طرق الجاهلية، فالمسلم إذا مات يقال: نسأل الله أن يرحمه، قال رسول الله ﷺ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»[1]، أما النياحة فمحرمة.

ومن علامات النياحة: شق الجيوب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»، متفق عليه، البخاري (١٢٩٧)، مسلم (١٠٣).

ومنها الصياح برنة، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: أُغْمِيَ عَلَى أَبِي مُوسَى فَبَكَوْا عَلَيْهِ فَأَفَاقَ فَقَالَ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِمَّنْ حَلَقَ أَوْ خَرَقَ أَوْ سَلَقَ»، أخرجه أحمد في "**المسند**" (١٩٥٣٩، ١٩٥٤٠).

ولفظه في "**صحيح مسلم**" عن أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، قَالَ: وَجِعَ أَبُو مُوسَى وَجَعًا فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ فَصَاحَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٤٢٥) عَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه.

يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، «فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ، وَالْحَالِقَةِ، وَالشَّاقَّةِ».

وكانوا يستأجرون النساء للنياحة، وما زالوا إذا مات ميت في بيت تذهب النائحة ممن لم تُصَب وتَسمع لها العويل، (وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة)، تظل تبكي، وتقول أنت.. وأنت.. وأنت، وتهيج النساء على البكاء ولا تُصب لها دمعة.

وفي «صحيح مسلم» (٩٢٢) عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: لَـمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: غَرِيبٌ وَفِي أَرْضِ غُرْبَةٍ، لَأَبْكِيَنَّهُ بُكَاءً يُتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَكُنْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْبُكَاءِ عَلَيْهِ، إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ تُرِيدُ أَنْ تُسْعِدَنِي، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْهُ؟» مَرَّتَيْنِ، فَكَفَفْتُ عَنِ الْبُكَاءِ فَلَمْ أَبْكِ.

وعند الترمذي (٣٣٠٧) من حديث أم سلمة الأنصارية، قَالَتْ: قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ النِّسْوَةِ: مَا هَذَا الْمَعْرُوفُ الَّذِي لاَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْصِيَكَ فِيهِ؟ قَالَ: «لاَ تَنُحْنَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بَنِي فُلاَنٍ قَدْ أَسْعَدُونِي عَلَى عَمِّي وَلاَ بُدَّ لِي مِنْ قَضَائِهِمْ، فَأَبَى عَلَيَّ، فَعَاتَبْتُهُ مِرَارًا، فَأَذِنَ لِي فِي قَضَائِهِنَّ، فَلَمْ أَنُحْ بَعْدَ قَضَائِهِنَّ وَلاَ غَيْرِهِ حَتَّى السَّاعَةَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ النِّسْوَةِ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَقَدْ نَاحَتْ غَيْرِي.

قَوْلُهُ (النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا): فيه أن التوبة تهدم ما قبلها، فمن تاب توبة بشروطها تاب الله عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وللتوبة شروط تكلمت عليها في مؤلف مستقل، فمن شروطها: الإخلاص، وأن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، وأن يقلع عن الذنب، ويندم على فعله، ويعزم على عدم العود إليه، والتوبة واجبة من كل ذنب من الشرك فما دونه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١].

وفيه: الوعيد العظيم على هذا الذنب الذي لا يبالي به كثير من الناس، نسأل الله السلامة.

وفيه: بيان أن هذا الذنب كبيرة، وأنه من أفعال أهل الجاهلية.

قَوْلُهُ (تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ): أي: تبعث.

قَوْلُهُ (وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ): أي: لباسها من قطران وهذا لباس أهل النار قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، قال الطبري في «تفسيره»: (١٣/ ٧٤٢): قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] قَالَ: السَّرَابِيلُ: الْقُمُصُ، **وقَوْلُهُ**: ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] يَقُولُ: مِنَ الْقَطِرَانِ الَّذِي يَهْنَأُ بِهِ الْإِبِلُ، وَفِيهِ لُغَاتٌ ثَلَاثٌ: يُقَالُ: قِطْرَانٌ، وَقَطْرَانٌ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَسْكِينِ الطَّاءِ مِنْهُ، وَقِيلَ: إِنَّ عِيسَى بْنَ عُمَرَ كَانَ يَقْرَأُ: (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) بِكَسْرِ الْقَافِ وَتَسْكِينِ الطَّاءِ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي النَّجْمِ:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحَا ... لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُوحَا

بِكَسْرِ الْقَافِ، وَقَالَ أَيْضًا:

كَأَنَّ قِطْرَانًا إِذَا تَلَاهَا ... تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا

انتهى.

وقال ابن الأثير: وَقَدْ تُطلَق السَّرَابِيلُ عَلَى الدُّرُوعِ، وَمِنْهُ قَصِيدُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

شُمُّ العَرَانِينِ أبطالٌ لَبُوسُهُم ... مِنْ نسج دَاودَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيلُ

انتهى من النهاية في "**غريب الأثر**" (٢/ ٣٥٧).

قَوْلُهُ (وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ): بمعنى: أن كل جلدها يصير جربًا وهو مرض مؤذي، وهذا عذاب شديد، نسأل الله السلامة.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ): في "**صحيحه**" كتاب الجنائز (٩٣٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِيْ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا): أي البخاري كتاب الأذان (٨٤٦) بَابُ يَسْتَقْبِلُ الإِمَامُ النَّاسَ إِذَا سَلَّمَ، ومسلم كتاب الإيمان (٧١).

قَوْلُهُ (عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): هو أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو طلحة، وقيل: أبو زرعة، سكن المدينة، وشهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، رُويَّ له عن رسول الله ﷺ واحد وثمانون حديثًا، اتفقا على خمسة، وانفرد مسلم بثلاثة. روى عنه السائب بن يزيد، والسائب بن خلاد الصحابيان، وجماعة من التابعين. توفي بالمدينة، وقيل: بالكوفة، وقيل: بمصر، سنة ثمان وستين، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

قال النووي في "تهذيب الأسماء" (٢٠٤/١) في ترجمته لزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهو من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، والحديبية، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين معن بن عدى الأنصاري، فقتلا جميعًا باليمامة شهيدين وكانت اليمامة في خلافة أبي بكر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في شهر ربيع الأول سنة ثنتي عشرة، وقيل: سنة إحدى عشرة. اهـ.

قَوْلُهُ (صَلَّى لَنَا): أي صلى بنا إمامًا.

قَوْلُهُ (بِالْحُدَيْبِيَّةِ): تسمى الشميسي اليوم بين مكة وجدة، وهي أبعد حدود الحرم، وقد نَظَمَ مسافات حدود الحرم بعضهم، فقال:

وَلِلْحَرَمِ التَّحْدِيدُ مِنْ أَرْضِ طِيبَةَ ... ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِذَا رُمْتَ إِتْقَانَهْ
وَسَبْعَةُ أَمْيَالٍ عِرَاقٌ وَطَائِفُ ... وَجُدَّةُ عَشْرٌ ثُمَّ تِسْعٌ جِعْرَانَةْ
وَمِنْ يَمَنٍ سَبْعٌ بِتَقْدِيمِ سِينِهِ ... وَقَدْ كَمَلَتْ فَاشْكُرْ لِرَبِّك إِحْسَانَهْ

والأبيات في «**مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**» (٢/ ٣٠٨) لأحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى:٩٧٧هـ)

قَوْلُهُ (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ): أي: بعد مطر نزل من السماء، فنسب إلى السماء نسبة إلى ما ينزل منها.

والعرب تسمي المطر سماء؛ كما قال بعضهم:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

والبيت في «**أدب الكاتب**» لابن قتيبة المتوفي ٢٧٦هـ.

قَوْلُهُ (فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ): أي: لما انصرف من صلاته وسلم أقبل على الناس يعظهم ويذكرهم.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ): أي هل تعلمون.

قَوْلُهُ (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟): وفي بعض الروايات «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟»[(١)]؛ وفيه: إثبات أن الله ﷻ يتكلم بحرف وصوت، ويتكلم متى شاء وكيف شاء، وفيه بيان لفساد عقيدة المعتزلة والجهمية الذين يزعمون أن الله لا يتكلم، وفيه فساد

---

(١) أخرجه النسائي (١٥٢٥).

لعقيدة الأشاعرة الذين يزعمون أن الله يتكلم وكلامه نفسي بغير حرف ولا صوت، فالله ﷻ يتكلم بحرف وصوت يُسمع، سمعه موسى عليه السلام من الله، وسمعه جبريل عليه السلام، ويسمعه أهل الجنة، وأهل الموقف، ومحمد ﷺ ومن شاء الله من خلقه.

قَوْلُهُ (قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ): فيه: رد العلم إلى الله وإلى رسوله في حال حياته.

قَوْلُهُ (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَصْبَحَ): أي: دخل الصباح، (مِنْ عِبَادِي) (مِنْ) للتبعيض وهذا من العام الذي يراد به الخصوص، وكل من خلقه الله تعالى فهو عبدٌ للهِ، العبودية المطلقة، عبودية القهر قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٩٣-٩٤]، والعبودية الخاصة هي عبودية المؤمن التي أضافها الله إلى نفسه، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالفرق بين العبوديتين، أن تلك عبودية عامة يدخل فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر والحي والميت والحجر والشجر، والعبودية الخاصة مختصة بالمؤمنين الطائعين الموحدين ويؤجرون عليها.

قَوْلُهُ (مُؤْمِنٌ بِي): أي: موحد قولًا وفعلًا واعتقادًا.

قَوْلُهُ (وَكَافِرٌ): أي: جاحد لنعمتي عليه.

قَوْلُهُ (فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ): هذا بيان لحال أهل الإيمان حيث أضافوا النعمة إلى الله.

قَوْلُهُ (فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ): إشارة إلى المؤمن الذي يَردُّ النعمة إلى الله ﷻ.

قَوْلُـهُ (وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ):

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ **في "شرح مسلم" (٢/٦٠-٦١):** وَأَمَّا مَعْنَى الْحَدِيثِ: فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي كُفْرِ مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ كُفْرٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَالِبٌ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ مُخْرِجٌ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ قَالُوا وَهَذَا فِيمَنْ قَالَ ذَلِكَ مُعْتَقِدًا أن الكوكب فاعل مدبر منشيء لِلْمَطَرِ كَمَا كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَزْعُمُ وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ وَالشَّافِعِيُّ مِنْهُمْ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ قَالُوا وَعَلَى هَذَا لَوْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا مُعْتَقِدًا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبِرَحْمَتِهِ وَأَنَّ النَّوْءَ مِيقَاتٌ لَهُ وَعَلَامَةٌ اعْتِبَارًا بِالْعَادَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ مُطِرْنَا فِي وَقْتِ كَذَا فَهَذَا لَا يَكْفُرُ وَاخْتَلَفُوا فِي كَرَاهَتِهِ وَالْأَظْهَرُ كَرَاهَتُهُ لَكِنَّهَا كَرَاهَةُ تَنْزِيهٍ لَا إِثْمَ فِيهَا وَسَبَبُ الْكَرَاهَةِ أَنَّهَا كَلِمَةٌ مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ فَيُسَاءُ الظَّنُّ بِصَاحِبِهَا وَلِأَنَّهَا شِعَارُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: فِي أَصْلِ تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُرَادَ كُفْرُ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِاقْتِصَارِهِ عَلَى إِضَافَةِ الْغَيْثِ إِلَى الْكَوْكَبِ وَهَذَا فِيمَنْ لَا يَعْتَقِدُ تَدْبِيرَ الْكَوْكَبِ وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ الرِّوَايَةُ الْأَخِيرَةُ فِي الْبَابِ «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَكَافِرٌ» وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى «مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ» وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ» فَقَوْلُهُ «بِهَا» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُفْرٌ بِالنِّعْمَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَمَّا النَّوْءُ فَفِيهِ كَلَامٌ طَوِيلٌ قَدْ لَخَّصَهُ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَالَ: النَّوْءُ فِي أَصْلِهِ لَيْسَ هُوَ نَفْسُ الْكَوْكَبِ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ نَاءَ النَّجْمُ يَنُوءُ نَوْءًا أَيْ سَقَطَ وَغَابَ، وَقِيلَ: أَيْ نَهَضَ وَطَلَعَ وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ نَجْمًا مَعْرُوفَةَ الْمَطَالِعِ فِي أَزْمِنَةِ السَّنَةِ كُلِّهَا وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِمَنَازِلِ الْقَمَرِ الثَّمَانِيَةِ والعشرين

يسقط فى كل ثلاثة عَشْرَةَ لَيْلَةً مِنْهَا نَجْمٌ فِي الْمَغْرِبِ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَيَطْلُعُ آخَرُ يُقَابِلُهُ فِي الْمَشْرِقِ مِنْ سَاعَتِهِ وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ عِنْدَ ذَلِكَ مَطَرٌ يَنْسُبُونَهُ إِلَى السَّاقِطِ الْغَارِبِ مِنْهُمَا، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: إِلَى الطَّالِعِ مِنْهُمَا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَنْسُبُ النَّوْءَ لِلسُّقُوطِ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ثُمَّ إِنَّ النَّجْمَ نَفْسَهُ قَدْ يُسَمَّى نَوْءًا تَسْمِيَةً لِلْفَاعِلِ بِالْمَصْدَرِ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ فِي بَعْضِ أَمَالِيهِ السَّاقِطَةُ فِي الْغَرْبِ: هِيَ الْأَنْوَاءُ وَالطَّالِعَةُ فى المشرق هي البوارح والله اعلم. اهـ.

والحديث أخرجه مسلم (٧٢) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ. يَقُولُونَ الْكَوَاكِبُ وَبِالْكَوَاكِبِ»، وفي لفظ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ، يُنْزِلُ اللهُ الْغَيْثَ فَيَقُولُونَ: الْكَوْكَبُ كَذَا وَكَذَا».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاس بِمَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا): أي: البخاري وهذا وهم منه أو سبق قلم فالحديث ليس في البخاري، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٧٣).

قَوْلُهُ (مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ): أي: بمعنى حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه السابق، ولفظه: عن أبي زُمَيْل، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا» قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

قَوْلُهُ (وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءِ كَذَا وَكَذَا): ولم يقل: مطرنا بنوء كذا، كما تقدم، لكن حكم هذا القول على التفصيل السابق.

قَوْلُهُ (فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ): وهذا يُسمى عند العلماء بأسباب النزول، وقول الصحابي نزلت في كذا له حكم الرفع على القول الصحيح من أقوال أهل الحديث، وسورة الواقعة مكية، وهذه الآيات مدنية كما رجحه غير واحد من أهل العلم.

قَوْلُهُ ﴿[illegible]﴾: أي: أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم، رواه ابن جرير (٢٢/ ٣٥٩) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، و﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي: مَطَالِعُهَا وَمَسَاقِطُهَا، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن، ورجحه ابن جرير (٢٢/ ٣٦١)، فقال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَلَا أُقْسِمُ بِمَسَاقِطِ النُّجُومِ وَمَغَايِبِهَا فِي السَّمَاءِ.اهـ.

وقال الضحاك: يعني بذلك الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

والله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وقال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٢]، لكن العباد لا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]، وقال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[2]، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[3].

قَوْلُهُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به عظيم.

وفيه: أن مواقع النجوم عظيمة ورفيعة، وفيه رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذين يزعمون أن هناك عدة مجرات، وأصغرها مجرة درب التبانة، وأن هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥٣٧٥)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، وهو في «الصحيح المسند»(١٢٩٤) لشيخنا مقبل رحمه الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

الأرض التي نحن فيها ما هي إلا جزء من المجموعة الشمسية، وأن هذه المجموعة الشمسية هي أصغر المجموعات الشمسية. إذ أنهم لا يثبتون سماوات طباقًا، ولا يثبتون العرش، ولا الكرسي ولازمه أن لا يثبتون علو الله ﷻ.

وفيه: جواز القسم بغير استحلاف، وقد بوب البخاري: (بَابُ مَنْ حَلَفَ عَلَى الشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يُحَلَّفْ)، والنبي ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»، من غير استحلاف، ويُؤتى بالقسم لتأكيد أمرٍ أو لنفيه، وسيأتي بيانه في موطنه إن شاء الله.

قَوْلُهُ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: وهذا هو المقسم عليه، وفيه وصف للقرآن بأنه كريم ومن كرمه أن به صلاح العقائد والأقوال والافعال وما فيه من العلوم، وجاء بأنه عظيم، وأنه هدى، ونور، وضياء، وشفاء... إلى غير ذلك مما بينته في مقدمة تفسير سورة الفاتحة، وكيف لا يكون كذلك، وهو كلام رب العالمين، وحبله المتين.

قَوْلُهُ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: أي: في كتاب معظم محفوظ، موقر، أي أن ذكره في اللوح المحفوظ.

قَوْلُهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: أي: الملائكة، وبهذا استدل من استدل من أهل العلم على أنه لا يجوز للحائض أن تمس المصحف، وهذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن الله ﷻ ذكر أن الكتاب المكنون هو الذي لا يمسه إلا المطهرون وهو اللوح المحفوظ، ولو أراد بهم المتوضئين، لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، ثم إن المؤمن طاهر.

فالصحيح من أقوال أهل العلم: أنه يجوز للحائض أن تقرأ وتمس القرآن، فالنبي ﷺ قال: «إِنَّ المُؤْمِنَ لاَ يَنْجُسُ» أخرجه البخاري (٢٨٥)، ومسلم

(٣٧١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

قَوْلُهُ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: في هذا بيان لعقيدة أهل السنة من أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، فهو تنزيل من رب العالمين و(من) للابتداء، فالله عز وجل تكلم به حقيقة وسمعه منه جبريل ثم نزل به على محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

قَوْلُهُ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: أي: أتكذبون بالقرآن وهو قول جمهور المفسرين.

قَوْلُهُ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: أي: تصيرون شكركم لله عز وجل على نعمه أنكم تكذبون وتضيفون النعمة إلى غيره، وتزعمون أنه من الكوكب، وهذا من أعظم الضلال، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فلا سبيل للرزق الحلال الطيب المبارك إلا بلزوم الطرق المشروعة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه وبينها رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كما في صحيح سنته، وقد ذكرت عدة من الأسباب في كتابي "**الدر المكنون في أحكام الديون**".

***

٣٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (وَمِنَ النَّاسِ مِن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أندادا يحبونهم كحب الله)

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قَوْلُهُ (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]): مناسبة هذا الباب للذي قبله أن إضافة النعمة إلى غير الله ﷻ هو من اتخاذ النّدية لله ﷻ، وصاحب هذا الصنيع بين الشرك الأكبر المخرج من الملة والشرك الأصغر على التفصيل الذي سبق في الباب الذي قبله.

قَوْلُهُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. هاتان الآيتان تضمنتا وجوب محبة الله ﷻ، وأن الله ﷻ يحب ويعبد بالمحبة والتعظيم، كما يُعبد بالخوف والرجاء، والناس في هذا الباب أربعة أصناف:

الصنف الأول: من عبد الله بالمحبة والخوف والرجاء وهم الأنبياء وأتباعهم، قال الله ﷻ عن زكريا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال الله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى

ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، والنبي ﷺ كان يدعو ربه خوفًا ورجاء ويعبده محبة وتعظيمًا، وسلك هذا السبيل جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأولياء.

والصنف الثاني: من عبد الله بالمحبة فقط، وهم غلاة الصوفية الذين قال بعضهم: اللهم إن كنت أعبدك خوفًا من نارك وطمعًا في جنتك فأدخلني نارك، فالذي يعبد الله بالحب فقط فهو زنديق منافق يستتاب، إن تاب وإلا قتل، قالت نازك الملائكة:

عبدُّتكَ للحبِّ لا رغبة ... ولا رهبة بئس ما يأفكون

فتأمل كيف جعلت دين الأنبياء إفك، وهذا مخالف لعقيدة الرسل؛ أليس الله عَزَّوَجَلَّ يقول عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ويقول: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، ويقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. إلى غير ذلك من الآيات.

الصنف الثالث: من يعبد الله بالخوف فقط وهؤلاء الخوارج، حتى قال أهل العلم: من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، أي: خارجي، قال النبي ﷺ في شأنهم، كما في حديث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ» متفق عليه[1]، وفي رواية لمسلم (١٠٦٦) «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ

(١) البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». كان في رءوسهم مثل مبارك العنز، وكانت وجوههم شاحبة من قيام الليل، وأجسامهم نحيفة من صيام النهار، ومع ذلك لقوا عبد الله بن خباب رضي الله عنه، فأخذوه وقتلوه.

فقد أخرج ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٣٧٩٢١)، قال: بَيْنَمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ فِي يَدِ الْخَوَارِجِ إِذْ أَتَوْا عَلَى نَخْلٍ، فَتَنَاوَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ تَمْرَةً فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا لَهُ: أَخَذْتَ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ أَهْلِ الْعَهْدِ، وَأَتَوْا عَلَى خِنْزِيرٍ فَنَفَحَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا لَهُ: قَتَلْتَ خِنْزِيرًا مِنْ خَنَازِيرِ أَهْلِ الْعَهْدِ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ عَلَيْكُمْ حَقًّا مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: مَنْ؟ قَالَ: أَنَا، مَا تَرَكْتُ صَلَاةً وَلَا تَرَكْتُ كَذَا وَلَا تَرَكْتُ كَذَا؛ قَالَ: فَقَتَلُوهُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ عَلِيٌّ قَالَ: أَقِيدُونَا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ قَالُوا: كَيْفَ نُقِيدُكَ بِهِ وَكُلُّنَا قَدْ شَرَكَ فِي دَمِهِ، فَاسْتَحَلَّ قِتَالَهُمْ.

وقال لأصحابه: تَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ[(١)]. ثم حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ. خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ»[(٢)].

الصنف الرابع: من عَبَدَ الله بالرجاء فقط فهو مرجئ وهم من شر أهل البدع حتى قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَأَنَا لِفِتْنَةِ الْمُرْجِئَةِ أَخْوَفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَارِقَةِ[(٣)].

فالزاني عندهم كامل الإيمان، وفي "**السنة**" لابي بكر الخلال (١٦٠٧)

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٠٨)، والترمذي (٣٠٠٠)، وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٢٥٩) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٣)«السنة» لعبد الله بن أحمد (٦١٧).

قال: قَالَ نَصْرُ بْنُ الْمُثَنَّى الْأَشْجَعِيُّ: كُنْتُ مَعَ مَيْمُونٍ يَوْمًا، فَمَرَّ بِجُوَيْرِيَةٍ وَهِيَ تَضْرِبُ بِدُفٍّ وَتَقُولُ: وَهَلْ عَلَى مِنْ قَوْلٍ قُلْتُهُ مِنْ كَبِيرَةٍ؟، فَقَالَ مَيْمُونٌ: أَتَرَوْنَ إِيمَانَ هَذِهِ مِثْلَ إِيمَانِ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا؟ وَالْخَيْبَةُ لِمَنْ قَالَ: إِيمَانُهُ كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. اهـ.

قال أبو بكر بن أبي داود في "الحائية":

ولا تَكُن مُرْجِيًّا لَعُوبًا بِدِينِهِ ... ألا إنَّمَا المُرْجِي بالدِّينِ يَمْزَحُ

وفي ج الشريعة" للآجري (٢/٥٥٣): قَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمِصِّيصِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ قَالَ: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟

قَالَ: يَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَيَنْقُصُ حَتَّى لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْهُ مِثْلُ هَذِهِ، وَأَشَارَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، قَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ نَصْنَعُ بِقَوْمٍ عِنْدَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ؟ قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ الْقَوْلُ قَوْلَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ أَحْكَامُ الْإِيمَانِ وَحُدُودُهُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ كَافَّةً أَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالصَّلَاةِ، فَأَمَرَهُمْ فَفَعَلُوا، فَوَ اللَّهِ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نَفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ الْأَوَّلُ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَمَرَهُمْ فَفَعَلُوا، فَوَ اللَّهِ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نَفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ الْأَوَّلُ وَلَا صَلَاتُهُمْ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَكَّةَ فَيُقَاتِلُوا آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، حَتَّى يَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ، وَيُصَلُّوا صَلَاتَهُمْ، وَيُهَاجِرُوا هِجْرَتَهُمْ، فَأَمَرَهُمْ فَفَعَلُوا، حَتَّى أَتَى أَحَدُهُمْ بِرَأْسِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَأْسُ شَيْخِ الْكَافِرِينَ فَوَ

اللَّهِ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نَفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ الْأَوَّلُ، وَلَا صَلَاتُهُمْ، وَلَا هِجْرَتُهُمْ، وَلَا قِتَالُهُمْ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ ﷻ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ تَعَبُّدًا، وَأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ تَذَلُّلًا فَفَعَلُوا، فَوَ اللَّهِ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نَفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ الْأَوَّلُ، وَلَا صَلَاتُهُمْ، وَلَا مُهَاجَرَتُهُمْ، وَلَا قَتْلُ آبَائِهِمْ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ، فَأَمَرَهُمْ فَفَعَلُوا، حَتَّى أَتَوْا بِهَا، قَلِيلِهَا وَكَثِيرِهَا، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نَفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ الْأَوَّلُ، وَلَا صَلَاتُهُمْ، وَلَا مُهَاجَرَتُهُمْ، وَلَا قَتْلُهُمْ آبَاءَهُمْ، وَلَا طَوَافُهُمْ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ الصِّدْقَ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِيمَا تَتَابَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَحُدُودِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣] قَالَ سُفْيَانُ: فَمَنْ تَرَكَ خَلَّةً مِنْ خِلَلِ الْإِيمَانِ جَاحِدًا كَانَ بِهَا عِنْدَنَا كَافِرًا، وَمَنْ تَرَكَهَا كَسَلًا أَوْ تَهَاوُنًا، أَدَّبْنَاهُ، وَكَانَ بِهَا عِنْدَنَا نَاقِصًا، هَكَذَا السُّنَّةُ أَبْلِغْهَا عَنِّي مَنْ سَأَلَكَ مِنَ النَّاسِ. اهـ.

والصنف المباين للمؤمنين: الكفار الذين يحبون أندادهم كمحبة المؤمنين لله ﷻ أو أكثر، وهذا شرك في المحبة لا شرك في الخلق.

وللآية معنى آخر صحيح: وهو أن محبة أصحاب القبور والأصنام لله ﷻ كمحبتهم لأصنامهم، فتساوت محبة الله مع محبة أصنامهم في قلوبهم، فكانوا قد وقعوا في شرك المحبة وكفروا لهذا النوع من الشرك، بينما المؤمنون أشد حبًا لله، وإذا كان لم يجز لنا أن نحب أنفسنا وأبناءنا ونساءنا مثل محبة النبي ﷺ، وهو مخلوق بشر، فكيف بمحبة الله ﷻ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»، أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

قَوْلُهُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، (مِنْ) للتبعيض والمراد بهم هنا المشركون.

قَوْلُهُ ﴿مَن﴾: اسم موصول بمعنى: الذي.

قَوْلُهُ ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾: يجعل مع الله تعالى نظراء ومثلاء في المحبة والدعاء والرجاء وغير ذلك، لا في الخلق، ولم يذهب إلى إثبات الند في الخلق أحد فيما أعلم، حتى المجوس الذين يزعمون أن للكون خالقين خالق النور وخالق الظلمة، فعندهم أن خالق النور أكمل من خالق الظلمة.

قَوْلُهُ ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: أي: أنّ المشركين اتخذوا أصنامًا يحبونها كحب المؤمنين لله على ما تقدم، أو يحبون الأصنام كمحبتهم لله، وكلاهما شرك.

قَوْلُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: أي أنّ المؤمنين حقا أشد حبا لله من المشركين لألهتم، ويتعبدون له تعالى بذلك فهو المستحق تعالى لجميع أنواع العبادة وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ» أخرجه الترمذي (٣٤٩٠)، والحاكم (٣٦٢١)، والحديث ضعيف، فيه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ الدِّمَشْقِيّ، قال أحمد: أحاديثه موضوعة.

ولمحبة الله عز وجل علامات: ومن أظهرها متابعة رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قَوْلُهُ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾: يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْهِجْرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ الْمُقِيمِينَ بِدَارِ الشِّرْكِ: إِنْ كَانَ الْمُقَامُ مَعَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ وَعَشِيرَتِكُمْ. وَكَانَتْ ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤] يَقُولُ: اكْتَسَبْتُمُوهَا. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤] بِفِرَاقِكُمْ بَلَدَكُمْ. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ [التوبة: ٢٤] فَسَكَنْتُمُوهَا. ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة: ٢٤] مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ دَارِ الشِّرْكِ وَمِنْ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، يَعْنِي فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] يَقُولُ: فَتَنَظَّرُوا. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِفَتْحِ مَكَّةَ. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] يَقُولُ: وَاللَّهُ لَا يُوَفِّقُ لِلْخَيْرِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَفِي مَعْصِيَتِهِ. انتهى من "**تفسير الطبري**" (١١/ ٣٨٤).

وفيها بيان أن المؤمن حقًّا هو الذي يحب الله ورسول الله ﷺ ويقدم محبتهما على كل محبة، أما الذي يقدم محبة الأخوة والأخوات والأزواج والعشائر والأموال والمساكن فهو على خطر عظيم، قد تصل به هذه المحبة إلى

الشرك، وقد تصل إلى الحرام كل بحسبه.

والمحبة الشرعية أن تحب في الله وتبغض في الله، وهي أوثق عرى الإيمان، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قال النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» متفق عليه[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ... وذكر منهم: «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ» متفق عليه[2].

والمحبة الطبيعة: أن تحب ولدك وزوجتك وأمك وأباك، حتى وإن كان بعضهم عصاة، تحبهم محبة لقربهم، لا لما هم عليه من الباطل، وتكون كارهًا لما هم عليه من الباطل، فإن رسول الله ﷺ كان يحب عمه أبا طالب؛ لأنه كان يحوطه ويغضب له -على أحد التفسيرين- لقول الله عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فلو تزوج رجل نصرانية أو يهودية كتابية فأحبها؟ فهل نقول: كافر؟ لا يكون كافرًا إلا إذا أحب دينها ورضي طريقتها، فيكفر لهذا.

***

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (وعَنْ أنَسٍ رضي الله عنه): ، أبو حمزة الأنصاري وقد تقدم،

قَوْلُهُ (لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ): أي: لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان.

قَوْلُهُ (حتَى أكُونَ): أي: محمد ﷺ.

قَوْلُهُ (أحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ): قال النـووي في "**شرح مسلم**" (٢/ ١٥): قَالَ الْإِمَامُ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ: لَمْ يُرِدْ بِهِ حُبَّ الطَّبْعِ بَلْ أَرَادَ بِهِ حُبَّ الِاخْتِيَارِ لِأَنَّ حُبَّ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ طَبْعٌ وَلَا سَبِيلَ إِلَى قَلْبِهِ قَالَ فَمَعْنَاهُ لَا تَصْدُقُ فِي حُبِّي حَتَّى تُفْنِيَ فِي طَاعَتِي نَفْسَكَ وَتُؤْثِرَ رِضَايَ عَلَى هَوَاكَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ هَذَا كَلَامُ الخطابى، وقال بن ابَطَّالٍ وَالْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُمَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: الْمَحَبَّةُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مَحَبَّةُ إِجْلَالٍ وَإِعْظَامٍ كَمَحَبَّةِ الْوَالِدِ وَمَحَبَّةُ شَفَقَةٍ وَرَحْمَةٍ كَمَحَبَّةِ الْوَلَدِ وَمَحَبَّةُ مُشَاكَلَةٍ وَاسْتِحْسَانٍ كَمَحَبَّةِ سَائِرِ النَّاسِ فَجَمَعَ ﷺ أَصْنَافَ الْمَحَبَّةِ فِي مَحَبَّتِهِ. قال بن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ مَنِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ عَلِمَ أَنَّ حَقَّ النَّبِيِّ ﷺ آكَدُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لِأَنَّ بِهِ ﷺ اسْتُنْقِذْنَا مِنَ النَّارِ وَهُدِينَا مِنَ الضَّلَالِ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ مَحَبَّتِهِ ﷺ نُصْرَةُ سُنَّتِهِ وَالذَّبُّ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَتَمَنِّي حُضُورِ حَيَاتِهِ فَيَبْذُلَ مَالَهُ وَنَفْسَهُ دُونَهُ قَالَ وَإِذَا تَبَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ تَبَيَّنَ أَنَّ حقيقة الايمان لا يتم الابذلك وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ إِعْلَاءِ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْزِلَتِهِ عَلَى كُلِّ وَالِدٍ وَوَلَدٍ وَمُحْسِنٍ وَمُفَضِّلٍ وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ هَذَا وَاعْتَقَدَ سِوَاهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٦٠/١): وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِيمَانًا صَحِيحًا لَا يَخْلُو عَنْ وِجْدَانِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ الرَّاجِحَةِ غَيْرَ أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ بِالْحَظِّ الْأَوْفَى وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا بِالْحَظِّ الْأَدْنَى كَمَنْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي الشَّهَوَاتِ مَحْجُوبًا فِي الْغَفَلَاتِ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ لَكِنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ اشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَتِهِ بِحَيْثُ يُؤْثِرُهَا عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ وَوَالِدِهِ وَيَبْذُلُ نَفْسَهُ فِي الْأُمُورِ الْخَطِيرَةِ وَيَجِدُ مَخْبَرَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وجدانا لا تردد فِيهِ وَقَدْ شُوهِدَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يُؤْثِرُ زِيَارَةَ قَبْرِهِ وَرُؤْيَةَ مَوَاضِعَ آثَارِهِ عَلَى جَمِيعِ مَا ذُكِرَ لِمَا وَقَرَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ مَحَبَّتِهِ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ سَرِيعُ الزَّوَالِ بتوالي الغفلات وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ انْتهى مُلَخصا.اهـ.

وقال ابن القيم كما في التفسير القيم ج (٩٣-٩٤): فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علما عليها، وشاهدا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله، وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فلا

يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه.

أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله. فذلك المقدّم عنده أحب من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول.

فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقا، أو في بعض الأمور. ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به، فهذا الذي يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه. فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شيء قدرا. انتهى.

قَوْلُهُ (أَخْرَجَاهُ): البخاري كتاب الإيمان بَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ (١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان (٤٤)، وانفرد به البخاري عن عمر رضي الله عنه بنحوه (٦٦٣٢)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه (١٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سُوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا): أي: البخاري في كتاب الإيمان (٢١) بَابُ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ، ومسلم (٤٣) (عَنْهُ)، أي: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قَوْلُهُ (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ): أي: ثلاث خصال من جمعها وجد حلاوة الإيمان وهي استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٣٤): «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»، وفي حديث هرقل: «كَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ»[(١)]، وطعم الإيمان وحلاوته وبشاشته تقع في قلوب المؤمنين، فيستلذون الطاعات ويبغضون السيئات.

قَوْلُهُ (أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سُوَاهُمَا): هذه الأولى من الثلاث وهي إيثار محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة طاعتهما على كل محبوب ومرغوب ومطلوب.

قَوْلُهُ (وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ): وهذه الثانية: وهي تابعة للأولى من

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

حيث أن محبوباته تابعة لما يحبه الله ﷻ ويرضاه، والحب في الله درجته رفيعة ومنزلته عَلِيّة وهو من أوثق عرى الإيمان.

قَوْلُهُ (وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ): وهذه الثالثة وفيها بيان: أن المؤمن حقًا يكره العود إلى الوراء، ويكره الردة، فعنده القذف في النار، والعودة إلى ما كان عليه سواء، بل القذف في النار أحب إليه، لأنه يقذف في النار وهو مؤمن موحد طائع لله ﷻ أهون عليه من أن يرتد عن دين الله، ومحبة الدين نعمة، قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧]، وفي البخاري (٣٦١٢) عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

قَوْلُهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى...» إِلى آخِرِهِ): أخرجه البخاري كتاب الأدب» (٦٠٤١) باب الحب في الله، وهي بمعنى ما تقدم.

قال ابن رجب في "فتح الباري" (١/٥٠): فهذه الثلاث خصال من أعلى خصال الإيمان، فمن كملها فقد وجد حلاوة الإيمان وطَعِمَ طعمه، فالإيمان له حلاوة وطعم يذاق بالقلوب كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم، فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقوتها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقوتها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته فإذا سقم لم يجد حلاوة

ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السقم عليـه، فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان من أسقامه وآفاته، فإذا سلم مـن مـرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئـذ، ومتـى مـرض وسقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهـواء والمعاصـي. انتهى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: مَنْ أَحبَ فِي الله، وَأَبْغَض فِـي الله، وَوَالَـى فِي الله، وَعادَى فِي الله، فَإِنَّمَا تُنَال ولايَةُ الله بذَلِكَ. وَلَنْ يَجد عَبْـدٌ طَعْمَ الإيمَان، وَإِنْ كَثُـرَتْ صَـلاتُه وَصَـوْمُهُ، حَتَّـى يكُـونَ كَـذَلِكَ؛ وَقَـد صَارَتْ عامَّةُ مُؤاخَاةِ النَّاس عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا. رَوَاه ابْنُ جَريرٍ.

قَوْلُهُ (مَنْ أَحبَ فِي اللهِ): هذا أثر ضعيف، فيه ليث بن أبي سليم، لكن كثير من عباراته لها شواهد، فَقَوْلُهُ (مَنْ أَحَبَ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ) يدل عليهـا مـا تقدم من قوله ﷺ: «وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبّهُ إِلَّا للهِ».

وفي مسند أحمد (٢٢٠٣٠): عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ: دَخَلْـتُ مَسْـجِدَ دِمَشْقِ بالشَّام، فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُـوا فِـي شَـيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّـا كَـانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِـالْهَجِيرِ، وَقَـالَ إِسْـحَاقُ: بِـالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُـهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْـتُ لَهُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ فَقَـالَ: اللهِ؟ فَقُلْـتُ: اللهِ. فَقَـالَ: اللهِ؟ فَقُلْـتُ: اللهِ. فَأَخَـذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ: أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَـالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَجَبَـتْ مَحَبَّتِـي لِلْمُتَحَـابِّينَ فِـيَّ وَالْمُتَجَالِسِـينَ فِـيَّ وَالْمُتَـزَاوِرِينَ فِـيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ».

وفي مسلم (٢٥٦٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِـيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُـلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِـهِ، مَلَكًـا فَلَمَّـا أَتَـى عَلَيْـهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَـلْ لَـكَ عَلَيْـهِ مِـنْ نِعْمَـةٍ

تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»، وعند أبي داود (٣٥٢٧) وغيره: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ، قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَنْصَارِ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»(١)، وقال ﷺ في أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمِ الْمُؤْمِنِينَ» أخرجه مسلم (٢٤٩١)، وقال في علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» أخرجه مسلم (٧٨)، وجاء من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» أخرجه ابن أبي شيبة في "**المصنف**" (٣٤٣٣٨)، الطيالسي في "**مسنده**" (٧٨٣).

قَوْلُهُ (وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ): يدل عليه بعض ما تقدم، ومنه قول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ [التوبة: ٧١]، كما أن المنافقين والمنافقات

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البَرَاءِ رضي الله عنه.

بعضهم من بعض.

قَوْلُهُ (فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلايَةُ اللهِ بِذَلِكَ): أي: محبة الله تتحصل بطاعته وسلوك مرضاته، قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. وأولها الفرائض فعند البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» وللإمام الشوكاني رحمه الله كتابًا في شرح هذا الحديث؛ سماه "**قطر الولي على حديث الولي**"، وهو كتاب نافع، قال فيه (٢٢٣):

قَوْلُهُ «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا»: قَالَ فِي الصِّحَاحِ: وَالْوَلِيّ ضد الْعَدو. انْتهى. وَالْولَايَة ضد الْعَدَاوَة. وأصل الْولَايَة الْمحبَّة والتقرب كَمَا ذكره أهل اللُّغَة، وأصل الْعَدَاوَة البغض والبعد. قَالَ ابْن حجر فِي "**فتح الْبَارِي**": الْمُرَاد بولي الله الْعَالم بِاللَّه تَعَالَى المواظب على طَاعَته المخلص فِي عِبَادَته. انْتهى.

وَهَذَا التَّفْسِير للْوَلِيّ، هُوَ الْمُنَاسب لِمَعْنى الْوَلِيّ الْمُضَاف إِلَى الرب سُبْحَانَهُ. وَيدل على ذَلِك مَا فِي الْآيَات القرآنية. كَقَوْلِه سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. وَكَقَوْلِه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وَكَقَوْلِه سُبْحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٢-٥٤]. وَغير ذَلِك من الْآيَات. فأولياء الله هم خلص عباده القائمون بطاعاته المخلصون لَهُ.

وَأفضل أَوْلِيَاء الله هـم الْأَنْبِيَـاء، وَأفضـل الْأَنْبِيَـاء هـم الْمُرْسَـلُونَ، وَأفضـل الرُّسُل هم أولو الْعَزْم: نوح وَإِبْرَاهِيم ومُوسَـى وَعِيسَـى، وَمُحَمّـد ﷺ. وَأفضـل أولي الْعَزْم نَبينَا مُحَمَّد ﷺ، وَهُوَ الَّذِي أنزل الله سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فَجعل سُبْحَانَهُ صدق محبَّة الله عز وَجـل متوقفة على اتِّبَاعه، وَجعل اتِّبَاعه سَبَب حُصُول الْمحبَّة من الله سُبْحَانَهُ.

وَقد ادَّعَت الْيَهُود وَالنَّصَارَى أَنهم أَبنَاء الله وأحباؤه وأولياؤه: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]. بل ادعوا أَنه لَا يدْخل الْجنَّة إِلَّا من كَانَ مِنْهُم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢]. بل قد ادّعى ذَلِك مشركو الْعَرَب كَمَا حكى الله سُبْحَانَهُ ذَلِك عَنْهُم بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] إِلَى قَوْله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهم فِي الْحَقِيقَة أَوْلِيَاء الشَّيْطَان، كَمَا قَالَ عز وَجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وَقَالَ: ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وَقَالَ الْخَلِيل ﷺ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥]، وَثَبت عَنهُ ﷺ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغيرهمَا أَنه قَالَ: «إِن آل أبي فلَان لَيْسُوا لي بأولياء، إِنَّمَا ووليِّي الله وَصَالح الْمُؤمنينَ»[1]. وَهُوَ كَقَوْل الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤]. اهـ.

وقال رحمه الله **(٢٢٦):** وطبَقَات الْأَوْلِيَاء، قَالَ الإِمَام تَقِيّ الدّين ابْن تَيْمِية رحمه الله: (فصل) وأولياء الله على طبقتين: سَابِقُونَ مقربون، وأبرار أَصْحَاب يَمِين

---

(١) البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) عن عَمْرِو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه.

مقتصدون. ذكرهم الله سُبْحَانَهُ فِي عدَّة مَوَاضِع من كِتَابه، فِي أول الْوَاقِعَة، وَآخِرهَا، وَفِي سُورَة الْإِنْسَان، والمطففين، وَفِي سُورَة فاطر، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ ذكر فِي الْوَاقِعَة، الْقِيَامَة الْكُبْرَى فِي أَولهَا، وَذكر الْقِيَامَة الصُّغْرَى فِي آخرهَا، فَقَالَ فِي أولهَا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١-١٤]. فَهَذَا تَقْسِيم النَّاس إِذا قَامَت الْقِيَامَة الْكُبْرَى الَّتِي يجمع الله فِيهَا الْأَوَّلين والآخرين كَمَا وصف فِي كِتَابه فِي غير مَوضِع. ثمَّ قَالَ فِي آخر السُّورَة ﴿فَلَوْلَا﴾، أَي فَهلا، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦]... اهـ.

قَوْلُهُ (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَإِنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ وَصَوْمُهُ، حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ): بينه قول النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»(١)، وينقص إيمانه بقدر إعراضه عن محبة المؤمنين، وبقدر بغضه للمستقيمين، حتى لربما ذهب إيمانه بالكلية إذا أبغضهم من أجل استقامتهم، والدين الذي يحملونه، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤)، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ.

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وفي هذا بيان أن صلاح الأعمال الظاهرة وفسادها عائد إلى صلاح النية والطوية، وأن العبرة بصلاح النية والمتابعة لرسول الله ﷺ، ولما كان الخوارج خلاف هذا الوصف كفّروا المسلمين واستباحوا دماءهم ولم ينتفعوا بالعبادة.

قَوْلُهُ (وَقَد صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا): أي أصبح تآخي الناس، وصداقاتهم، بل ومصاهرتهم، وغير ذلك للدنيا، وهذا هو الواقع وهذا إخبار عن ذلك الزمان فكيف بزمننا اليوم، فقد صارت مؤاخاة الناس من أجل الدنيا، إذا أعطاه رضيَ، وإن منعه سخط، كما قال النبي ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» -ومنهم- رَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ»(1).

قَوْلُهُ (وَذَلِكَ): أي: المودة من أجل الدنيا، **(لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا)**: أي: لا ينفع أهله شيئًا وإنما هو كما قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. على ما يأتي.

***

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٢)، ومسلم (١٠٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ: الْمَوَدَّةُ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ: الْمَوَدَّةُ): أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٧)، وهذا يكون يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١-١٤].

قال الطبري في "تفسيره" (٣/ ٢٩): حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ أَسْبَابُ أَعْمَالِهِمْ، فَأَهْلُ التَّقْوَى أُعْطُوا أَسْبَابَ أَعْمَالِهِمْ وَثِيقَةً فَيَأْخُذُونَ بِهَا فَيَنْجُونَ، وَالْآخَرُونَ أُعْطُوا أَسْبَابَ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةَ فَتُقَطَّعُ بِهِمْ فَيَذْهَبُونَ فِي النَّارِ، قَالَ: وَالْأَسْبَابُ: الشَّيْءُ يَتَعَلَّقُ بِهِ. قَالَ: وَالسَّبَبُ الْحَبْلُ، وَالْأَسْبَابُ جَمْعُ سَبَبٍ، وَهُوَ كُلُّ مَا تَسَبَّبَ بِهِ الرَّجُلُ إِلَى طَلِبَتِهِ وَحَاجَتِهِ، فَيُقَالُ لِلْحَبْلِ سَبَبٌ؛ لِأَنَّهُ يُتَسَبَّبُ بِالتَّعَلُّقِ بِهِ إِلَى الْحَاجَةِ الَّتِي لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالتَّعَلُّقِ بِهِ، وَيُقَالُ لِلطَّرِيقِ سَبَبٌ لِلتَّسَبُّبِ بِرُكُوبِهِ إِلَى مَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِقَطْعِهِ، وَلِلْمُصَاهَرَةِ سَبَبٌ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْحُرْمَةِ، وَلِلْوَسِيلَةِ سَبَبٌ لِلْوُصُولِ بِهَا إِلَى الْحَاجَةِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ بِهِ إِدْرَاكُ الطَّلِبَةِ فَهُوَ سَبَبٌ لِإِدْرَاكِهَا. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ يَتَبَرَّأُ عِنْدَ مُعَايَنَتِهِمْ

عَذَابَ اللَّهِ الْمَتْبُوعُ مِنَ التَّابِعِ، وَتَتَقَطَّعُ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَلْعَنُ بَعْضًا، وَأَخْبَرَ عَنِ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ يَقُولُ لِأَوْلِيَائِهِ: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وَأَخْبَرَ تَعَالَى، ذِكْرُهُ أَنَّ الْأَخِلَّاءَ، يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَنْصُرُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: ٢٥] وَأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَا يَنْفَعُهُ نَسِيبُهُ وَلَا ذُو رَحِمَهُ، وَإِنْ كَانَ نَسِيبُهُ لِلَّهِ وَلِيًّا، فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وَأَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَصِيرُ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي أَسْبَابٌ يُتَسَبَّبُ فِي الدُّنْيَا بِهَا إِلَى مَطَالِبَ، فَقَطَعَ اللَّهُ مَنَافِعَهَا فِي الْآخِرَةِ عَنِ الْكَافِرِينَ بِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِخِلَافِ طَاعَتِهِ وَرِضَاهُ فَهِيَ مُنْقَطِعَةٌ بِأَهْلِهَا؛ فَلَا خِلَالُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ وُرُودِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَلَا عِبَادَتُهُمْ أَنْدَادَهُمْ وَلَا طَاعَتُهُمْ شَيَاطِينَهُمْ، وَلَا دَافَعَتْ عَنْهُمْ أَرْحَامٌ فَنَصَرَتْهُمْ مِنَ انْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَعْمَالُهُمْ بَلْ صَارَتْ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، فَكُلُّ أَسْبَابِ الْكُفَّارِ مُنْقَطِعَةٌ. اهـ.

***

٣١- باب قول الله تعالى (إنما ذلكم الشيطن يخوف أولياءه)

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قوله (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾): مناسبة الترجمة: أنه لما بين طريق المؤمنين في ولاية الله سبحانه وتعالى بين كيف يسعى الشيطان في نصرة أولياءه وذلك بتخويف المؤمنين منهم.

قوله ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾: يَعْنِي بِذَلِكَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّمَا الَّذِي قَالَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، فَخَوَّفُوكُمْ بِجُمُوعِ عَدُوِّكُمْ، وَمَسِيرِهِمْ إِلَيْكُمْ، مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ، أَلْقَاهُ عَلَى أَفْوَاهِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ لَكُمْ، يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ مِنْ قُرَيْشٍ، لِتَرْهَبُوهُمْ، وَتَجْبُنُوا عَنْهُمْ. عَنْ قَتَادَةَ «يُخَوِّفُ وَاللَّهِ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ، وَيُرْهِبُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ».

قوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: يقول فلا تخافوا أولياء الشيطان، فهم أضعف، وأحقر من أن يخاف منهم فإن معكم الله تعالى ينصركم عليهم، ويبور مكرهم، ويكسر شوكتهم، وهذا ما حصل في غزوة حمراء الأسد.

قوله ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: يقول: وليكن خوفكم من الله الذي بيده تصريف الأمور، فلما كان يوم أحد، ووقع للمسلمين من الجراحة الشيء الكثير، وقتل منهم سبعون، وأصيب رسول الله ﷺ؛ وأراد أبو سفيان أن يرجع بمن معه لاستئصال المسلمين، فانتدب رسول الله ﷺ الناسَ فخرجوا وهم في جراحاتهم إلى حمراء الأسد، فرد الله كيد الكافرين، قال تعالى في بيان ذلك:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤]، ثم قال الله عز جل مخبرًا عن طريقة الشيطان في تخويف المؤمنين من أولياءه موهمًا أنهم أولوا بأس شديد: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾، فهم دون ذلك، و﴿وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: إذا سول لكم الشيطان ذلك فلا تلتفتوا إليه وتوكلوا على الله واعتمدوا عليه فهو كافيكم.

ففي هذه الآية الحث على عبادته تعالى بالخوف، قال ﷻ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، والرهبة هي الخوف مع التعظيم، وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، والخشية هي الخوف مع التعظيم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: يخافونه ويرهبونه مع تعظيمهم له، وقال الله ﷻ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، فيه دليل على علو الله ﷻ على عرشه بذاته، وفيه دليل على أن من أنواع العبادة أن الله ﷻ يعبد بالخوف.

وبهذا أُرسِلَ الرسل، قَالَ تَعَالَى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، مبشرين بالجنة ومنذرين ومخوفين بالنار، فقد خرج النبي ﷺ كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه على أصحابه وقال: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ»، حَتَّى لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣٩٩)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٥٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

فالله ﷻ أرسل الرسل، وأنزل الكتب بالبشارة والنذارة، بالرجاء والخوف، والقرآن كله مليء بهذا، يخبر عما أعده الله ﷻ للمؤمنين، ويخبر عما أعده الله ﷻ للكافرين والمعرضين، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢١-٢٦] أي: بسبب أعمالهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٧-٣٠].

وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبرد النوم، وهو قول الزجاج وغيره من أهل العلم، وقال الله ﷻ بعد ذلك في المؤمنين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦]، فجمع الله في هذه الآيات بين الترهيب والتبشير، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا من كون القرآن مثاني كما قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، فعبادة الله ﷻ بالخوف واجبة وفرض، لا يجوز لعبد أن يقول: أنا ما أخاف الله، إذا قال ذلك فهو كافر؛ لأنه ما عبد الله بالخوف، وكيف لا يخاف الله الذي قهر العباد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وطرق الشيطان في تخويف الدعاة إلى الله ﷻ كثيرة لكن عليهم أن يأخذوا بأمر الله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وذلك لضعف الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، والنبي ﷺ بعثه الله إلى أهل الأرض جميعًا وليس في الأرض من يعبد الله ﷻ ولا يشرك به شيئًا، ومع ذلك قال: «أَتَتْنِي

رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي»، فَقِيلَ لِي: «لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ»(١)، وقال ﷺ: «وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ» أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، وقد ضرب الله المثل العظيم بنوح عليه السلام: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وهود عليه السلام تحداهم، قال تعالى -مخبرًا عنه-: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٤- ٥٨].

وقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]**:** دل على أن الخوف من الله إيمان، وعدم الخوف منه كفر، ومثله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فمن شروط الإيمان أن يكون العبد متوكلًا على الله عز وجل معتمدًا عليه، ومن شروطه: الخوف من الله سبحانه وتعالى.

وعند ابن حبان في "**صحيحه**" (٦٢٠)، من طريق عطاء، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٧٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٢٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، عن مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ رضي الله عنه.

لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]».

والخوف له أقسام:

الأول: الخوف من الله ﷻ، وهذه عبادة جليلة، دل عليها الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة والعقل.

الثاني: خوف السر: وهو الخوف من غير الله ﷻ من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره، قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

الثالث: خوف محرم: وهو أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من الناس.

الرابع: الخوف الطبيعي: وهو الخوف من عدو ونحوه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قبل: هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة: ١٧]، ثم يخبر الله عز وجل أن عُمَّار المساجد ظاهرًا وباطنًا حسًا ومعنًى هُم من توفرت فيهم صفات المهتدين:

وأولها: الإيمان بالله تعالى ويدخل فيه: الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بألوهيته.

ثانيها: الإيمان باليوم الآخر، ويدخل في الإيمان بالغيب؛ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]. واليوم الآخر أوله: القبر فما بعده، ففي الحديث: «الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ» أخرجه أحمد (٤٥٤) عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، ويدخل فيه الإيمان بالصراط، والحوض، والميزان، والإيمان بالرؤية وغير ذلك.

ثالثها: المحافظة على الصلاة المكتوبة، والزكاة المفروضة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أن أعرابيًا: أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، متفق عليه[1].

---

(١) البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).

رابعها: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الطبري في "تفسيره" (١١/ ٣٧٦): يَقُولُ: وَلَمْ يَرْهَبْ عُقُوبَةَ شَيْءٍ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ سِوَى اللَّه. اهـ.

قَوْلُهُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾: أي فحري بأولئك أن يكونوا مهتدين، وعسى من الله ﷻ على التحقيق، قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قَوْلُهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: من تقدم ذكرهم.

قَوْلُهُ ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: أي: يصيروا من أهل الهداية، والمهتدون: هم الطائعون لرب العالمين، وأصحاب الاهتداء التام في الدنيا، هم أصحاب الاهتداء التام في الآخرة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فمن كان متجردًا عن الظلم بأنواعه كان له الأمن المطلق، ومن كان واقعًا في ظلم بحسبه كان له أمن غير مطلق، وإن كان واقعًا في الظلم الأكبر، وهو الشرك، انتفي عنه الأمن بالكلية.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قَوْلُهُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: (مِنَ) للتبعيض، و(النَّاسِ) هنا المراد بهم أهل النفاق حيث يدَّعون الإيمان بالله تعالى قولًا ولم يحققوه اعتقادا، وهذا من البلاء حيث يراؤون المخلوقين، ويتعرضون لسخط الله تعالى.

قَوْلُهُ ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، **قال ابن كثير في تفسيره** (٢٦٥/٦): يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَمِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ﴾ أَيْ: وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ- وَفَتْحٌ وَمَغَانِمُ، لَيَقُولُنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَيْ كُنَّا إخوانكم في الدين، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النِّساء: ١٤١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ

أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المَائِدَة: ٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى -مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَاهُنَا-: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: أَوَلَيسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا تكنُّه ضَمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمُ الْمُوَافقَةَ. اهـ.

***

□

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

قَوْلُهُ: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه): هو سعد بن مالك بن سنان الخدري من صغار الصحابة، ومن المكثرين عن رسول الله ﷺ. **قَوْلُهُ: (مَرْفُوعًا)**، أي: عن رسول ﷺ.

قَوْلُهُ: (إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ...): الحديث، أخرجه البيهقي في "**الشعب**" (١/ ١٧٦)، وأبو نعيم في الحلية: (٥/ ١٢٢)، وحكم عليه الشيخ الألباني في "**الضعيفة**" (١٤٨٢) بالوضع وفي سنده محمد بن مروان ضعيف، وعطية العوفي ضعيف ومدلس، ومع ذلك فهو ضعيف سندًا وصحيح المعنى، واليقين تأتي بمعنى الثبات، فمن ضعف الإيمان عند الشخص أن يسعى في إرضاء الناس بالباطل الذي يؤدي به إلى سخط الله عز وجل عليه.

ومن ضعفه أن تشكر الناس وتحمدهم على رزق أعطاك الله عز وجل، وهو حري بالشكر، والحمد فهو مولي النعم، ومعطيها وقد أمر عباده بشكره، وذكر نعمه فقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وفيه ما تقدم من وجوب إضافة النعمة إلى الله مع أن حمد الله عز وجل على نعمه من أسباب البركة فيها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، أخرجه مسلم (٢٧٣٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ): أي ومن ضعف اليقين أن تتكلم في الناس بالذم على رزق منعك الله إياه، حيث والعباد لا قدرة لهم على منع أو إعطاء إلا بإذن الله تعالى الكوني، وفي حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦): «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

قَوْلُهُ (إِنَّ رِزْقَ اللهُ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةِ كَارِهٍ): لأن رزق العبد داخل تحت تقدير الله ﷿، وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ في الصحيحين [١]: فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»، كل ذلك وهو في بطن أمه، وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة (٢١٤٤): «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄، وفي هذا قول الناظم:

مَشَيْنَاهَا خُطًى كُتِبَتْ عَلَيْنَا ... ومَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًى مَشَاهَا
وأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَرِّقَاتٌ ... فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ مَشْيًا أَتَاهَا

***

---

(١) البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ؛ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»، رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

قَوْلُهُ (وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا): الصديقة بنت الصديق أحب زوجات رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرًا غيرها.

قَوْلُهُ (مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رضي الله عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ): (مَنِ الْتَمَسَ) أي: من طلب، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

فمن أرضى الله وأسخط الناس رضي الله عليه، ويوشك أن يُرضي عليه الناس، ويقبل الله ﷻ بقبول الصالحين عليه، ففي "**الصحيحين**" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا

فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»[1]، ويُمكِّن، وينصر، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ويدافع عنه، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، ويحفظ: قال رسول الله ﷺ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»[2]، ويحارب الله من حاربه ويعادي من عاداه، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[3].

قَوْلُهُ: (وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ): أي: حرص على رضى الناس ولو بسخط الله وفعل معاصيه فإن الله يسخط عليه، وأي حياة له إذا سخط الله عليه؟ قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح: ٦]، وإذا سخط الله عليه فسد دينه، ودنياه، وآخرته، وإن أثنى عليه الناس، لا ينفعه الثناء، إنما يزيده الله بذلك الثناء عذابًا، ووبالًا؛ لأنه ليس كذلك.

وفيه إثبات صفة السخط لله ﷻ وهي من الصفات الفعلية، وقد ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ٨٠]، وقال: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨]، وقال رسول الله ﷺ في قصة النفر الثلاثة: «فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله.

قَوْلُهُ: (رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ): وهو أبو حاتم محمد بن حبان البستي وقد تقدم.

---

(١) البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

والشاهد من هذه الأحاديث: ما يجب على العبد من المسارعة في مرضاة الله تعالى والحرص على ذلك فإن ذلك عنوان السعادة في الدنيا والآخرة وسبب التمكين لدين رب العالمين، والعبد المسلم يعتمد على الله عز وجل في شأنه كله، ولا يحمله ضعف الإيمان على الخوف من المخلوقين المربوبين فيتقرب إليهم بالباطل حتى يرضوا عنه أو يترك الطاعة حتى يرضوا عنه، فإن هذا لن يكون قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، بل إن الطاعة ورضى الله عز وجل سبب للأرزاق والبركات، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

وفي "**صحيح مسلم**" (٢٨٠٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».

***

٣٢- باب ما جاء في قول الله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾): مناسبة الباب للترجمة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعبد بالرجاء، وبما أن الشيطان يخوّف المؤمنين بأوليائه فالصارف لهذا التخوف: التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ فالأمر أمره، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] وَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وَقَالَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وَقَالَ لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وَقَالَ لَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وَقَالَ لَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَالَ لَهُ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَقَالَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وَقَالَ عَنْ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣](١).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٢).

قال الطبري في "**تفسيره**" (٨/ ٣٠٢) فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]: وَهَذَا أَيْضًا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، عَنْ قَوْلِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ يَخَافَانِ اللَّهَ أَنَّهُمَا قَالَا لِقَوْمِ مُوسَى يُشَجِّعَانِهِمْ بِذَلِكَ، وَيُرَغِّبَانِهِمْ فِي الْمُضِيِّ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالدُّخُولِ عَلَى الْجَبَّارِينَ فِي مَدِينَتِهِمْ: تَوَكَّلُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ عَلَى اللَّهِ فِي دُخُولِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَقُولَانِ لَهُمْ: ثِقُوا بِاللَّهِ فَإِنَّهُ مَعَكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. وعَنَيَا بِقَوْلِهِمَا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِي نَبِيِّكُمْ ﷺ، فِيمَا أَنْبَأَكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ رَبَّكُمْ قَادِرٌ عَلَى الْوَفَاءِ لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنْ تَمْكِينِكُمْ فِي بِلَادِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ. انتهى.

والتوكل: هو صدق الاعتماد على الله ﷻ، وهو من العبادات الواجبة، ومنزلته رفيعة، ففي حديث ابن عباس في الذين يدخلون الجنة بغير حساب قال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

وَفِي "**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**"[(١)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ، حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[(٢)]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ. وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ. وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي. أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»

---

(١) برقم (٤٥٦٣).

(٢) البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وَفِي السُّنَنِ(١) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَنْ قَالَ -يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مَنْ بَيْتِهِ- بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ وَوُقِيتَ وَكُفِيتَ. فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ لِشَيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟». وَفِي التِّرْمِذِيِّ(٢) عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٣).

وقد استدل بعض الصوفية بهذا الحديث على ترك العمل بالأسباب، وأصبح أحدهم يجلس في زاويته من المسجد، يهمهم بتلك الأذكار المبتدعة: هو هو.. أو لا إله لا إله لا إله ويتراقصون ويتمايلون، ثم إذا قيل لهم: اعملوا، قالوا: ينافي التوكل، وهم في هذا الصنيع يطعنون في شريعة الله عز وجل، فإن ترك العمل بالأسباب قدح في الشريعة؛ لأن الشريعة جاءت بالأمر بالعمل، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، والمراد بالأعمال في الآية: الأعمال الصالحة، لكن مع ذلك يدخل العمل من أجل إعفاف الأهل، والنفس، و من أجل التصدق. قال صلى الله عليه وسلم لما سئل: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» أخرجه مسلم (٨٤) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، وقال صلى الله عليه وسلم: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» أخرجه البخاري (١٤٧١) عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه، وفي الحديث «كَانَ زَكَرِيَّاءُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، وابن ماجه (٣٨٨٦).

(٢) برقم (٢٣٤٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣).

نَجَّارًا[١]، ومَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ» أخرجه البخاري (٢٢٦٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وقال ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي». أخرجه الإمام أحمد (٥١١٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

وأبو بكر رضي الله عنه لما ولي الخلافة قال: كانت مهنتي تكفيني وتكفي أولادي، وإني سآخذ من بيت المال بقدر نفقتي، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يغيب يومًا ويحضر يومًا لمجلس النبي ﷺ للعمل، والأنصار كانوا يعملون في مزارعهم، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَرَضِيهِمْ، وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ»[٢]، أي: البيع، ثم يأتي هذا الجاهل، ويزعم أن العمل ينافي التوكل؟ أليس رسول الله ﷺ بعث من يشتري له شاة، فاشترى شاة بدرهم، ثم باعها بدرهمين، واشترى شاة أخرى، ورد لرسول الله ﷺ درهمه، وهو عروة بن مضرس، فدعا له رسول الله ﷺ[٣]، وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: عَنْ أَفْضَلِ الْكَسْبِ فَقَالَ: «بَيْعٌ مَبْرُورٌ، وَعَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ» أخرجه الإمام أحمد (١٥٨٣٦).

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١١٩/٢): إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ. فَإِنَّ مَنْ نَفَاهَا فَتَوَكُّلُهُ مَدْخُولٌ. وَهَذَا عَكْسُ مَا يَظْهَرُ فِي بَدَوَاتِ الرَّأْيِ: أَنَّ إِثْبَاتَ الْأَسْبَابِ يَقْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ، وَأَنَّ نَفْيَهَا تَمَامُ التَّوَكُّلِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ نُفَاةَ الْأَسْبَابِ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ تَوَكُّلٌ أَلْبَتَّةَ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي حُصُولِ الْمُتَوَكَّلِ فِيهِ. فَهُوَ كَالدُّعَاءِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا فِي حُصُولِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٩)، الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٤٧)، ابن ماجه في «سننه» (٢١٥٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٥٠) ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٢)، وأحمد (١٩٣٥٦).

الْمَدْعُوِّ بِهِ. فَإِذَا اعْتَقَدَ الْعَبْدُ أَنَّ تَوَكُّلَهُ لَمْ يَنْصِبْهُ اللَّهُ سَبَبًا. وَلَا جَعَلَ دُعَاءَهُ سَبَبًا لِنَيْلِ شَيْءٍ. فَإِنَّ الْمُتَوَكِّلَ فِيهِ الْمَدْعُوَّ بِحُصُولِهِ إِنْ كَانَ قَدْ قُدِّرَ حَصَلَ، تَوَكَّلَ أَوْ لَمْ يَتَوَكَّلْ، دَعَا أَوْ لَمْ يَدْعُ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَمْ يَحْصُلْ، تَوَكَّلَ أَيْضًا أَوْ تَرَكَ التَّوَكُّلَ.

وَصَرَّحَ هَؤُلَاءِ أَنَّ التَّوَكُّلَ وَالدُّعَاءَ عُبُودِيَّةٌ مَحْضَةٌ. لَا فَائِدَةَ لَهُمَا إِلَّا ذَلِكَ. وَلَوْ تَرَكَ الْعَبْدُ التَّوَكُّلَ وَالدُّعَاءَ مَا فَاتَهُ شَيْءٌ مِمَّا قُدِّرَ لَهُ. وَمِنْ غُلَاتِهِمْ مَنْ يَجْعَلُ الدُّعَاءَ بِعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الْخَطَإِ وَالنِّسْيَانِ عَدِيمَ الْفَائِدَةِ؛ إِذْ هُوَ مَضْمُونُ الْحُصُولِ.

وَرَأَيْتُ بَعْضَ مُتَعَمِّقِي هَؤُلَاءِ -فِي كِتَابٍ لَهُ- لَا يُجَوِّزُ الدُّعَاءَ بِهَذَا. وَإِنَّمَا يُجَوِّزُهُ تِلَاوَةً لَا دُعَاءً. قَالَ: لِأَنَّ الدُّعَاءَ بِهِ يَتَضَمَّنُ الشَّكَّ فِي وُقُوعِهِ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. وَالشَّكُّ فِي وُقُوعِ ذَلِكَ شَكٌّ فِي خَبَرِ اللَّهِ. فَانْظُرْ إِلَى مَا قَادَ إِنْكَارُ الْأَسْبَابِ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَتَحْرِيمِ الدُّعَاءِ بِمَا أَثْنَى اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِالدُّعَاءِ بِهِ وَبِطَلَبِهِ. وَلَمْ يَزَلِ الْمُسْلِمُونَ -مِنْ عَهْدِ نَبِيِّهِمْ ﷺ وَإِلَى الْآنَ- يَدْعُونَ بِهِ فِي مَقَامَاتِ الدُّعَاءِ. وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الدَّعَوَاتِ.

وَجَوَابُ هَذَا الْوَهْمِ الْبَاطِلِ أَنْ يُقَالَ: بَقِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ غَيْرُ مَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْقِسْمَيْنِ لَمْ تَذْكُرُوهُ. وَهُوَ الْوَاقِعُ. وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَضَى بِحُصُولِ الشَّيْءِ عِنْدَ حُصُولِ سَبَبِهِ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالدُّعَاءِ. فَنَصَبَ الدُّعَاءَ وَالتَّوَكُّلَ سَبَبَيْنِ لِحُصُولِ الْمَطْلُوبِ. وَقَضَى اللَّهُ بِحُصُولِهِ إِذَا فَعَلَ الْعَبْدُ سَبَبَهُ. فَإِذَا لَمْ يَأْتِ بِالسَّبَبِ امْتَنَعَ الْمُسَبَّبُ. وَهَذَا كَمَا قَضَى بِحُصُولِ الْوَلَدِ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ مَنْ يُحِبُّهَا. فَإِذَا لَمْ يُجَامِعْ لَمْ يُخْلَقِ الْوَلَدُ. وَقَضَى بِحُصُولِ الشِّبَعِ إِذَا أَكَلَ، وَالرِّيِّ إِذَا شَرِبَ. فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَشْبَعْ وَلَمْ يُرْوَ. وَقَضَى بِحُصُولِ الْحَجِّ وَالْوُصُولِ إِلَى مَكَّةَ إِذَا سَافَرَ وَرَكِبَ الطَّرِيقَ، فَإِذَا جَلَسَ فِي بَيْتِهِ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَكَّةَ. وَقَضَى بِدُخُولِ الْجَنَّةِ إِذَا أَسْلَمَ، وَأَتَى بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. فَإِذَا تَرَكَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يَعْمَلِ الصَّالِحَاتِ لَمْ يَدْخُلْهَا أَبَدًا. وَقَضَى بِإِنْضَاجِ الطَّعَامِ بِإِيقَادِ النَّارِ تَحْتَهُ. وَقَضَى بِطُلُوعِ الْحُبُوبِ

الَّتِي تُزْرَعُ بِشَقِّ الْأَرْضِ، وَإِلْقَاءِ الْبَذْرِ فِيهَا. فَمَا لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا الْخَيْبَةُ.

فَوِزَانُ مَا قَالَهُ مُنْكِرُو الْأَسْبَابِ: أَنْ يَتْرُكَ كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّبَبَ الْمُوصِّلَ. وَيَقُولُ: إِنْ كَانَ قُضِيَ لِي وَسَبَقَ فِي الْأَزَلِ حُصُولُ الْوَلَدِ، وَالشِّبَعُ، وَالرِّيُّ، وَالْحَجُّ وَنَحْوُهَا. فَلَابُدَّ أَنْ يَصِلَ إِلَيَّ، تَحَرَّكْتُ أَوْ سَكَنْتُ، وَتَزَوَّجْتُ أَوْ تَرَكْتُ، سَافَرْتُ أَوْ قَعَدْتُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُضِيَ لِي لَمْ يَحْصُلْ لِي أَيْضًا، فَعَلْتُ أَوْ تَرَكْتُ. فَهَلْ يَعُدُّ أَحَدٌ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْعُقَلَاءِ؟ وَهَلِ الْبَهَائِمُ إِلَّا أَفْقَهُ مِنْهُ؟ فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ تَسْعَى فِي السَّبَبِ بِالْهِدَايَةِ الْعَامَّةِ.

فَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ، وَيَنْدَفِعُ بِهَا الْمَكْرُوهُ. فَمَنْ أَنْكَرَ الْأَسْبَابَ لَمْ يَسْتَقِمْ مِنْهُ التَّوَكُّلُ. وَلَكِنَّ مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ عَدَمَ الرُّكُونِ إِلَى الْأَسْبَابِ، وَقَطْعَ عَلَاقَةِ الْقَلْبِ بِهَا؛ فَيَكُونُ حَالُ قَلْبِهِ قِيَامَهُ بِاللَّهِ لَا بِهَا. وَحَالُ بَدَنِهِ قِيَامَهُ بِهَا.

فَالْأَسْبَابُ مَحَلُّ حِكْمَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَدِينِهِ. وَالتَّوَكُّلُ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. فَلَا تَقُومُ عُبُودِيَّةُ الْأَسْبَابِ إِلَّا عَلَى سَاقِ التَّوَكُّلِ. وَلَا يَقُومُ سَاقُ التَّوَكُّلِ إِلَّا عَلَى قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. انتهى.

والتوكل أنواع:

الأول: توكل العبادة: وهو الاعتماد على الله ﷻ في جلب المنافع ودفع المضار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذا واجب وحتم بل هو من أعظم العبادات قال الله مخبرًا عنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]،

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

الثاني: التوكل الشركي: وهو الاعتماد على غير الله كالاعتماد على المقبورين في جلب المنافع ودفع المضار، وتجلية الكروب، وجلب الأرزاق، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

الثالث: توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه كالبيع والشراء، وهذا جائز.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِـــــهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: حصر الإيمان فيمن هذه صفته، قال الطبري في "**تفسيره**" (١١/ ٢٧): فَيَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يُخَالِفُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتْرُكُ اتِّبَاعَ مَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ حُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ، وَالِانْقِيَادَ لِحُكْمِهِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَ قَلْبُهُ وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَخَضَعَ لَذِكْرِهِ خَوْفًا مِنْهُ وَفَرَقًا مِنْ عِقَابِهِ، وَإِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ كِتَابِهِ صَدَّقَ بِهَا وَأَيْقَنَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَازْدَادَ بِتَصْدِيقِهِ بِذَلِكَ إِلَى تَصْدِيقِهِ بِمَا كَانَ قَدْ بَلَغَهُ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ تَصْدِيقًا وَذَلِكَ هُوَ زِيَادَةُ مَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ إِيمَانًا. اهـ. وفي هذه الآية إخبار من الله عَزَّ وَجَلَّ بصفات المؤمنين الخلّص، الذين إذا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وجلت قلوبهم، وتأثرت بالموعظة والذكر، ومعنى ﴿وَجِلَتْ﴾: فزعت خوفًا ورقت؛ استعظامًا وهيبة، والوجل: استشعار الخوف، بخلاف حال الكافرين والمنافقين، قال ابن كثير في "**تفسيره**"(٤/ ١١): وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقَّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَ قَلْبُهُ، أَيْ: خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١].اهـ.

ومن صفات المؤمنين: أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]،

وتطمئن قلوبهم بذكره، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ويكون الله معهم ففي الحديث القدسي: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»[(١)]، وحال المعرض عكس ما هم عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

قوله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: أي: إذا سمعوا كلام الله وكلام رسوله ﷺ زاد إيمانهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ رضي الله عنه: أنه جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٢)]، ولهذا كانت منزلة الذكر عظيمة إذ هي من أسباب التذكير بالله تعالى، ومن أسباب زيادة الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

قَوْلُهُ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾**:** دليل على مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان يزيد وينقص، وتعريفهم للإيمان: أنه قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهذه الآية دالة على هذا التعريف الذي نقل الإجماع عليه الشافعي والبغوي وغير واحد من أهل العلم، فقول اللسان يدل عليه قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٢]، وعمل الجوارح يدل عليه قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال: ٣]، واعتقاد القلب يدل عليه قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند مسلم (٣٥): «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

وكون الإيمان يزيد وينقص يدل عليه غير ما ذكر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وفي الحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، أخرجه مسلم (٤٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه .

وخالف في هذه المسألة: الخوارج والمرجئة حيث زعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، بل قالوا: زيادته ونقصانه كفر، وهذا لجهلهم بدين الله عز وجل وبُعدهم عن عقيدة السلف، فإن الإنسان إذا عمل بالطاعة وجد في نفسه الزيادة، وإذا عمل المعصية وجد النقص، ولبيان فساد مذهبهم تراجع كتب الإيمان مثل كتاب الإيمان للقاسم بن سلام ولي بحمد الله تحقيق عليه، وبالله التوفيق.

قَوْلُهُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]: أي: ومن صفاتهم أنهم يعتمدون على الله عز وجل في قضاء حوائجهم وشؤنهم، وقد تقدم الكلام على التوكل ومنزلته وفضله، وهذا هو الشاهد من ذكر الآية في هذا الموطن.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

قَوْلُهُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا خطاب من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ أن الله عز وجل كافيه وكافي من اتبعه من المؤمنين ما أهمهم، وأنه ناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته إلا إذا دلَّ الدليل على الخصوصية.

وليس معنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسبك المؤمنون، فإن التوكل على الله عبادة لا يجوز أن تصرف لغيره.

والمتأمل لغزوات النبي ﷺ يجد ما أمتَّن عليه به ظاهرًا جليًا ففي غزوة الأحزاب، إذ رد الله الذين كفروا بغيضهم بريح سلطها عليهم وغيرها كثير كما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

قَوْلُهُ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: (مَنْ) اسم موصول بمعنى الذي أي: الذي يتوكل على الله فإن الله تعالى كافيه كل ما يهمه على ما تقدم.

قَوْلُهُ (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ): وقصته مذكورة في القرآن في سورة الأنبياء، وآخرها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠]، فالله ﷻ دافع عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونجاه في حال لا يتوقع له نجاة، إلا أن الله ﷻ على كل شيء قدير، وكان سبب ذلك هذا الدعاء العظيم.

ويذكر بعضهم حديثًا موضوعًا في ترك الدعاء، وهو زعمهم «أن إبراهيم حين ألقي في النار جاءه جبريل، وقال: هل لك من حاجة؟ قال: أما لك فلا، لكن إلى الله فنعم، قال له جبريل: وما هي؟ قال: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي»، وهذا مخالف لأمر الله بدعائه، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، والأنبياء وعلى رأسهم النبي ﷺ وأصحابه يستغيثون، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

قوله: (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾): أي: ودعا بها محمد ﷺ وذلك في غزوة حمراء الأسد لما أراد أبو سفيان أن يرجع، فكان قول المؤمنين: حسبنا الله ونعم الوكيل، فربط الله على قلوبهم، ونصرهم ودافع عنهم، قَالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما يدل على ذلك: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

فما أعظم أن يعتمد العبد على ربه! فيحفظه الله حالًا ومآلًا، وهذا كما ترى حال خلص المؤمنين بخلاف ما عليه كثير من الناس الآن من طلب المدد والغوث والنصر من المقبورين الذين لا يملكون لأنفسهم نصرًا فضلًا عن غيرهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

[الأعراف: ١٩٢]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقَوْلُهُ (رَوَاهُ البُخَارِيُّ): أي: في "**صحيحه**" (٤٥٦٣) كتاب التفسير باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآيةَ، (وَالنَّسَائِيُّ) في "**سننه**" (١٠٣٦٤)، وهو أحمد بن شعيب صاحب السنن.

***

٣٣- باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قَوْلُهُ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾: الأمن: ضد الخوف. ومناسبة الباب أنه لما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ ما يتعلق بالتوكل وحسن الاعتماد على الله، ثنى بالتحذير من الأمن من مكر الله، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

وبأس الله لا يرده راد، فقد قص الله عَزَّ وَجَلَّ علينا ما حصل لأصحاب الجنة بالليل، فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧- ٢٠]، وقال تعالى عن صاحب الجنة أيضًا: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وصبّح قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالعذاب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، وهكذا قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٨١- ٩٤].

ودمر على عاد وهم ينتظرون المطر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥].

وأغرق فرعون حين ظن أنه محيط بقوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٥].

وغيرهم كثير قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، مع أن الله عَزَّ وَجَلَّ يملي للظالم، لكن إذا أخذه، أَخَذَه أخْذ عزيز مقتدر كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتضمنت الآية: أن الأمن من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ سبيل الخاسرين وهم الكافرون، ولا يظن ظان حين يعطي الله الكافرين والمعرضين، ويملي لهم أنه غافل عنهم كلا إنما يستدرجهم: فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أخرجه أحمد (١٧٣١١).

وصفة المكر ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ على ما يليق به، وهي من صفات المقابلة، كما في

هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومثلها صفة الكيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، فإن قال قائل: المكر مذموم، نقول: المكر في محله محمود، وللمزيد من البيان تراجع كتب العقائد.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]

قَوْلُهُ ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: (مَنْ) بمعنى: الذي، والقنوط هو اليائس، والمراد بالضلال هنا ضلال الكفر، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].. الآية، وقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وفي الحديث: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» أخرجه مسلم (٢٧٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالقنوط من رحمة الله سبيل الخسران وسُلَّم الحرمان، وهكذا تقنيط العباد من هذا الباب فعلى الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون مبشرًا كما قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» أخرجه مسلم (١٧٣٢) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ».

الحديث في "**المعجم الكبير**" للطبراني (١٣٠٢٣): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]، قَالَ: أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ قَالَ اللهُ: ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والأمنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

وَمِنْهَا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، جَعَلَ الْعَاقَّ جَبَّارًا شَقِيًّا، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] الْآيَةَ.

وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ يَقُولُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

وَأَكْلُ الرِّبَا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ وَالسِّحْرُ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] وَالزِّنَا

لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ الْفَاجِرَةُ، لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] الْآيَةَ.

وَالْغُلُولُ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وَمَنْعُ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] وَشَهَادَةُ الزُّورِ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وَشُرْبُ الْخَمْرِ، لِأَنَّ اللهَ ﷻ عَدَلَ بِهَا الْأَوْثَانَ، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ مُتَعَمِّدًا أَوْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضَ اللهُ، لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»، وَنَقْضُ الْعَهْدِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ.

الحديث في سنده بكر بن سهل ضعفه النسائي، وعبد الله بن صالح كاتب الليث ضعيف، وعلي بن طلحة روايته عن ابن عباس يضعفها بعض أهل العلم.

ومع ذلك، فإن المعنى قد صح في غير ما حديث، وقد تقدم بيان أن الشرك أكبر الكبائر في أول الكتاب، وقوله: «وَالْيَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ»، تقدم بيانها وبيان دليلها على أنها من كبائر الذنوب، بل إن اليأس المطلق كفر بالله ﷻ، والأمن من مكر الله يدل عليه ما تقدم.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإشْرَاكُ بِاللّه، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّه، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللّه، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللّه»، رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

تقدم بيان مفردات الأثر، فإذًا: علمنا أن الأمن من مكر الله لا يجوز، وأن الأمن المطلق من مكر الله يعتبر كفرًا، وعلمنا أن اليأس من روح الله لا يجوز، واليأس المطلق مما عند الله عَزَّ وَجَلَّ يعتبر كفرًا، وعلى المسلم أن يكون وسطًا بين طرفين، وهدى بين ضلالتين وحق بين باطلين، وهكذا هم أهل السنة في كل باب، وما من عمل ديني إلا وللشيطان فيه نزغتان، نزغة إلى الغلو، ونزغة إلى الجفاء، فلا ينزغنك الشيطان إلى الغلو والتشدد، ولا ينزغنك إلى الجفاء والتميع، كن وسطًا خيارًا عدلًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال عَزَّ وَجَلَّ في وصية يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]..فمن هذا الوجه دخل اليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله في هذا الباب؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ كما أنه يعبد بالخوف كذلك يعبد بالرجاء، وكما يعبد بالمحبة والتعظيم يعبد بالخوف والرجاء.

وينبغي للداعي إلى الله إذا وصل إلى مجتمع تكثر فيه البدع والمعاصي أن يُغَلِّبَ الترهيب، وإذا وصل الى مجتمع تكثر فيه الطاعات أن يُغَلِّبَ الترغيب، وإذا وجد رجلًا أسرف على نفسه ومازال ينوع في المعاصي أن يستخدم في حقه باب الترهيب من مكر الله، وبطشه، وغضبه، وسخطه، وقوته، وجلاله،

وجبروته، وقهره، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وإذا وجد رجلًا أسرف على نفسه، وفي حالة من الخوف والذعر والرعب، ويظن أن الله لن يغفر له ولن يتجاوز عنه، فلا يقنطه من رحمة الله بل يرغبه فيها.

وكان في سجن النصيرية بحجة رجل قد قتل أباه وأمه وزوجته، فلما دخل السجن أقبل على القرآن، والمسجد، وقيام الليل، ويستشعر ما هو فيه من المعصية، فجاءه أناس جهال في السجن، فمازالوا به حتى قنطوه من رحمة الله، وكانوا يقولون له: أمثلك يغفر الله له؟! قتلت أمك وأباك وزوجتك وترجو من الله المغفرة، ومازالوا به حتى وجدناه قد قنط من رحمة الله، فترك الصلاة، وترك كل طاعة.

وفي "**الصحيحين**" عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»[1].

وفي "**صحيح مسلم**" (١٢٢) عن ابن عباس ﷺ: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ

(١) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وَنَزَلَ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومما يدل على سعة رحمة الله ما أخرجه مسلم (٢٥٧٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا» وفي "**الصحيحين**": عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(١).

وفي مقابل ذلك ما صح عن ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم (٢٢٤٢): «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ». ومع هذا فيجب على المسلم أن يلزم الطاعة ويؤمل من الله القبول، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وإن وقع في المعصية ان يبادر بالتوبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وبالله التوفيق.

---

(١) البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤)، واللفظ له.

٣٤- بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

قَوْلُهُ (بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ): مناسبة ذكر هذا الباب أنه لما بوب على القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أتى بهذا الباب في بيان وجوب الصبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأن الصبر عبادة من وجه أن المتصرف في هذا الكون هو الله عَزَّوَجَلَّ فيجب الرضاء بقضائه وقدره، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، والأقدار واقعة على وفق حكمة الله عَزَّوَجَلَّ خيرها وشرها، وحلوها ومرها.

والصبر في اللغة: الحبس، **قال ابن القيم في "المدارج" (٢/١٥٥): وَالصَّبْرُ فِي اللُّغَةِ:** الْحَبْسُ وَالْكَفُّ. وَمِنْهُ: قُتِلَ فُلَانٌ صَبْرًا. إِذَا أُمْسِكَ وَحُبِسَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ أَيِ احْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ؛ فَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ. وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى. وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ. اهـ.

وفي الشرع: هو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

والصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام دل هذا التقسيم الكتاب والسنة بالاستقراء:

الأول: صبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾. [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

الثاني: صبر عن معصية الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال عز من قائل: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الثالث: صبر على طاعة الله ﷻ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقد تكلم على هذه الأنواع بتوسع ابن القيم رحمه الله في كتاب "**عِدة الصابرين**".

والمؤمن تتحقق فيه جميع أنواع الصبر، قال ﷺ كما في حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٩٩): «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»، أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) والأدلة في ذلك كثيرة، فإذا صبر كان له أجر الصبر وأجر المصيبة.

وإذ لم يقع منه الصبر فقد اختلف العلماء في هذه المسألة فذهب بعضهم إلى أنه ليس له أجر، وإنما يؤجر على صبره واحتسابه.

وقال بعضهم: بل يؤجر مطلقًا، فإن صبر زاد أجره والصحيح في هذه المسألة: أن المصاب يؤجر صبر أم لم يصبر، إلا أنه قد يأثم من وجه آخر، وهو التسخط على أقدار الله ﷻ، والدليل على ذلك ما جاء من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً، فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»[(١)]، وفي لفظ عند البخاري (٥٦٤٠) «مَا مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٢).

مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(١)، وفي حديث جابر رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيِّبِ فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: «لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» أخرجه مسلم (٢٥٧٥).

والصابر أجره أعظم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» اخرجه مسلم (٢٢٣) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه ، ويكون الصبر على الأذية، وعلى البلاء، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، والصبر عن المعاصي أمره عظيم وشديد، فكم من إنسان لا يستطيع أن يصبر عن النظرة، وآخر ما يصبر عن الزنا، وثالث ما يصبر عن الخمر، وآخر ما يصبر عن السرقة، وآخر ما يصبر عن الغيبة والنميمة، فلو صبر لسلم من هذه الذنوب والمعاصي، لكنه ما استطاع الصبر، فتعاطاها فاستحق الوعيد العظيم، وكم من إنسان حال بينه وبين الطاعة عدم الصبر، وقد جاء الوعيد في من لم يصبر على الطاعة.

ففي حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١) ومسلم (٢٥٧٣).

عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى» قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟» قَالَ: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ...» وفي آخر الحديث، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: «فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟» قَالَ: قَالاَ لِي: «أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ» أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

فطريق السنة والاستقامة يحتاج إلى صبر. وإن تنكر لك الناس، فإن ابتلاك الله بقلة الرزق، أو بشيء من الأمراض والأسقام، فالجأ إلى الله، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وقد يبتلي الله ﷻ الناس ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقد يبتلي الله ﷻ بنقص الذرية، وقد يبتلي الله ﷻ بفساد الزوجة، وقد يبتلي بولدك وبجارك: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وإن ابتلاك الله بمن يتكلم فيك، فقد ابتلى أنبياءه بأشد منك، حتى قال الله ﷻ لنبيه محمد: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠]، قالوا ساحر، وقالوا كاهن، وقالوا كذاب.

ولهذا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لَا يُمَكَّنُ الرَّجُلُ حَتَّى يُبْتَلَى. ذكره ابن القيم في "**زاد المعاد**" (٣/ ١٣).

وابتلي الإمام أحمد في المحنة فخرج كالذهب الأحمر، وبعضهم يبتلى فيخرج كالفحمة أحرقتها النار وأفسدتها.

فالإنسان يصبر على أقدار الله، وعن معاصيه، ويصبر على أوامر الله، ويحتسب في ذلك كله الأجر من الله ﷻ، ولهذا ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى

في آخر كتابه التدمرية» أن الإنسان بحاجة إلى ثلاثة أشياء: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، ثم بعد ذلك يحتاج إلى رابع، وهو: الاستغفار، ويكون الاستغفار إما من تفريطه في فعل المأمور، أو بارتكابه للمحظور، أو بعدم تحقيقه للصبر على المقدور، ولهذا كان النبي ﷺ إذا انتهى من صلاة قال: «أَسْتَغْفِرُ اللَّه، أَسْتَغْفِرُ اللَّه، أَسْتَغْفِرُ اللَّه» أخرجه مسلم (٥٩١) عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، وكان ﷺ ممتثلًا لأمر الله ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٨- ١٩٩]، والرسل بعثوا بالاستغفار، قال تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠].

وأقدار الله ﷻ الكونية ماضية على البر والفاجر، وعلى المؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [التغابن: ١١]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

مَا قَضَى اللهُ كَائِنٌ لا مَحَالَهْ وَالشَّقِيُّ الْجَهُولُ مَنْ لامَ حَالَهْ

وهذا قدر الله الكوني، ومشيئته النافذة، لا يمكن أن تتأخر أو تتخلف.

مَا شِئْتَ كَانَ، وإنْ لم أشَأْ وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ

وإرادة الله تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية وإرادة شرعية.

فالإرادة الشرعية: قد تقع وقد لا تقع، وتكون في المحبوب، وهي الأوامر والنواهي، والإرادة الكونية لابد أن تقع وتكون في المحبوب وغير المحبوب.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قوله (وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [التغابن: ١١]): يقول الله تعالى لم يُصب أحد بمصيبة إلا بإذن الله تعالى وهو قضائه، وتقديره؛ وهو هنا الإذن الكوني لا الشرعي، فبعض الناس تصيبه مصيبة الزنا، أو مصيبة السرقة، ونحو ذلك، وهناك فرق بين الإذن الكوني والإذن الشرعي، والإذن الكوني لا يمكن أن يتخلف بحال، على ما تقدم تفصيله في الكلام على الإرادة؛ ويكون في المشروع وغير المشروع، ووقوعه لحكمه أرادها الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾: (مَنْ): اسم موصول بمعنى: الذي، فالمعنى أن الذي يؤمن بالله ربًا ومالكًا وخالقًا ومدبرًا، ويصرف له جميع أنواع العبادات مع إيمانه بأسمائه وصفاته ويرضى بقدره يهدي الله قلبه للرضا بالقدر، فيؤجر ويوفق للاسترجاع فيتحصل على الأجور، قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧]، وفي الحديث: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». أخرجه مسلم (٩١٨) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فمن أسباب الهدى: الإيمان بأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ

لِيُصِيبَهُ»[١]، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ»[٢]، فلو رأيت شخصًا ذكيًا فهذا بقدر الله، ولو رأيت آخر خاملًا فهذا بقدر الله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، و(كل) من ألفاظ العموم، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وباب القدر باب عظيم ظلت فيه طائفتان: الجبرية والقدرية، فالجبرية زعموا أن الإنسان كالريشة في مهب الريح، أو كالميت بين يدي المغسل، فعطلوا العبد من قدرته ومشيئته وفعله واستطاعته.

والقدرية النفاة: زعموا أن لا قدر، وأن الله ﷻ لم يخلق أفعال العباد، فعطلوا الله من قدرته واستطاعته ومشيئته وخلقه.

وأهل السنة والجماعة هداهم الله لأقوم الطرق وأهدى السبل، وهو أن الخير والشر من الله، قال ﷺ: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[٣]، لكن الشر لم يرضه الله، ولم يأمر به، ولم يدعوا إليه، ونهى عنه، والخير أمر الله به، فالعبد هو الفاعل حقيقة والله ﷻ هو الذي خلقه وخلق فعله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ»[٤].

قَوْلُهُ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: (كُل) من ألفاظ العموم، فيدخل فيه

---

(١) أخرجه البزار (٦٣٥٧) وهذا لفظه، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤٩٠)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، وغيرهم، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٥) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٨). عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٥،٨٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ١٤٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

العلم بالكليات والجزئيات، وفيه بيان لعقيدة أهل السنة: أن علم الله تعالى محيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية.

وذهب المعتزلة من القدرية إلى أن الله ﷻ لا يعلم الجزئيات، قاتلهم الله عما يقولون، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، هل خرج من هذه الآية شيء من المعلومات؟

وهنا فائدة: وهي أن الكليات لا تكون إلا في الذهن، أما ما كان خارج الذهن فهو جزئي، فوجودنا الآن في هذا المكان جزئي، وهذا المسجد جزئي ودماج جزئي، وكل ما في الأرض من كائنات جزئية، فالقول بأن الله لا يعلم إلا الكليات، ولا يعلم الجزئيات قول باطل، ودعوى أن ما في الكون كليات دعوى باطلة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤].

فإنك تتعجب من كلام المبتدعة، ولكن لا يتعجب من هذا إلا من بصره الله بالحق، فتصور قوله: إن الله لا يعلم! فهي جرأة وقلة أدب مع الله ﷻ، قال ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٩): قَالَ مَالِكٌ رحمه الله وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد فِي الْقَدَرِيِّ: إنْ جَحَدَ عِلْمَ اللَّهِ كَفَرَ، وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ: نَاظَرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خَصَمُوا وَإِنْ جَحَدُوهُ كَفَرُوا. اهـ

أي: إذا لقيت قدريًا فقل له: الله يعلم أو لا يعلم؟ فإن قال: يعلم فقد خصم نفسه؛ لأن القدر هو علم الله، وإن قال: لا يعلم فقد كفر، والدليل على أن القدرية الذين ينكرون علم الله كفار قول ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» أخرجه مسلم (٨).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمْ

قَوْلُهُ (قَالَ عَلْقَمَةُ): وهو علقمة بن قيس النخعي، كوفي والنخع من اليمن، من كبار تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه، وفي طبقته علقمة بن وقاص، الراوي عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه حديث: «**إنما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» متفق عليه[١].

قَوْلُهُ (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمْ): هذا تفسير منه للآية، وهذا موافق لما جاء عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ»[٢].

وهنا مسألة: هل يجب الرضى بالقضاء والقدر؟

قال السفاريني، في منظومته كما في "**العقيدة السفارينية**" (٦٧):

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِ الرِّضَا ... بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

أي: أنه لا يجب على العبد أن يرضى بكل ما وقع منه، ولكن يرضى من حيث أن الله قضاه، فإن حكمة الله اقتضت ذلك، إذ قد يقع من العبد المعصية، فكيف يرضى بالمعصية، إذا امتهن المصحف متعمدًا، ثم يقول: من تمام الإيمان بالقدر أني أرضى بهذا الفعل! هذا كفر، فالذي يرضى بالكفر كافر، لكن يجب عليه أن يرضى بالقضاء الذي هو من الله تعالى. والأثر أخرجه الطبري في تفسيره» (٢٣/ ١٢).

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧). تقدم.

(٢) أخرجه البزار (٦٣٥٧) وهذا لفظه، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤٩٠)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، وغيرهم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي «صَحِيح مُسْلِم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَان فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

قَوْلُهُ: (وَفِي صَحِيحِ مُسْلِم): كتاب الإيمان (٦٧).

قَوْلُهُ: (اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ): وهذا ليس على الحصر.

قَوْلُهُ: (هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ): أي: من صنيع الكفار وهما من الكفر الأصغر على ما تقدم بيانه.

قَوْلُهُ: (الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ): أَيِ القذف، والْقَدْحُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ فِي نَسَبِ بَعْضٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ. ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في الفتح (٧/ ١٦١).

قَوْلُهُ: (وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ): تقدم بيانها، قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على مسلم» (٢/ ٧٥): وَفِيهِ أَقْوَالٌ أَصَحُّهَا: أَنَّ مَعْنَاهُ هُمَا مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَأَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ، وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ كُفْرُ النِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّابِعُ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَحِلِّ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَغْلِيظُ تَحْرِيمِ الطَّعْنِ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نُصُوصٌ مَعْرُوفَةٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا): أي للبخاري (١٢٩٧) كتاب الجنائز باب ليس منا من ضرب الخدود، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

قَوْلُهُ (لَيْسَ مِنَّا): قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "**شرحه على مسلم**"(١/ ١٠٩): وَمَعْنَاهُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنِ اهْتَدَى بِهَدْيِنَا وَاقْتَدَى بِعِلْمِنَا وَعَمَلِنَا وَحُسْنِ طَرِيقَتِنَا كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِوَلَدِهِ إِذَا لَمْ يَرْضَ فِعْلَهُ: لَسْتَ مِنِّي وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي كُلِّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِنَحْوِ هَذَا الْقَوْلِ.اهـ.

قَوْلُهُ (مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ): أي: ضرب وجهه تسخطًا.

قَوْلُهُ (وَشَقَّ الْجُيُوبَ): أي: شق وقطع ثيابه تسخطًا على قدر الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ (وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ): دعوى الجاهلية: النياحة، وما في بابها، والشاهد من الحديث: أن هذه الأفعال مذمومة والواجب على المسلم الصبر والبعد عن هذه الأخلاق.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرُّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَى يَوافَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

أخرجه الترمذي في "سننه"(٢٣٩٦)، والحاكم في "المستدرك" (٨٧٩٩).

قَوْلُهُ (إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ): أي علامة إرادة الله عز وجل لعبده الأجر والمثوبة.

قَوْلُهُ (عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا): أي: ابتلاه، كما قَالَ ﷺ: لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[1].

قَوْلُهُ (وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرُّ، أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَى يَوافَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةَ): أي: أراد عقوبته رفع عنه البلاء، وعند أحمد (٨٣٩٥) وغيره: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَم قَطُّ؟» قَالَ: وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: فَهَلْ أَخَذَكَ الصُّدَاعُ قَطُّ؟» قَالَ: وَمَا الصُّدَاعُ؟ قَالَ: عُرُوقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، وهذا مثل قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٨٥٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٤)، والترمذي في «سننه» (٢٣٩٩)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ١٥١،١٥٠) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال ﷺ كما في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أخرجه أحمد (١٧٣١١).

وفي "الصحيحين"(١): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

وكان إذا اشتد به الصداع يربط على رأسه بالعصابة وابتلي بالشقيقة ﷺ، حتى أنه احتجم في يافوخته منه، وكانت تأتيه الحمى، حتى أنه أمر أن يغتسل بسبع قرب، وكانوا يعملون له الماء في المخضب ويغتسل ويغمى عليه من شدة البلاء بأبي هو أمي.

***

---

(١) البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان» (٩٣٢٥).

قَوْلُهُ (إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ): أي: أن عظيم الأجر والمثوبة في الدنيا والآخرة.

قَوْلُهُ (مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ): أي: مقارن لحال المسلم في البلاء وصبره عليه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وكما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ»[1].

قَوْلُهُ (وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ): يدل على ذلك ما كان يحصل للأنبياء والمرسلين والصالحين مع محبة الله عَزَّ وَجَلَّ لهم، وفي حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند أحمد (١٦٠٧): أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: فَقَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

وفي «**صحيح البخاري**» (٦٩٤٣) أَنَّ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

ونحن خفف الله عنا وله الحمد والمنة، فلنصبر ولنتصبر: إنما الصبر بالتصبر، كما أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم، والعادات منها المكتسبة ومنها الجبلية، والذين يكونون على الجبيلة قليل، ولهذا جاء في حديث أبي سعيد في وفد عبد القيس أن النبي ﷺ قال لسيدهم: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ» أخرجه مسلم (١٧)، في بعض الروايات: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا تَخَلَّقْتُهُمَا، أَوْ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أخرجه الإمام أحمد (٣٩/ ٤٩٠)، فكم من أناس كانوا على أفعال غير مرضية فلما سلكوا سبيل الاستقامة تعودوا الطاعة، فأثرت فيهم، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»، أخرجه مسلم (١٠٥٣)، قال الله عز وجل في الآية: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قَوْلُهُ (فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى): أي: من رضي بأقدار الله عز وجل واحتسب الأجر من الله عز وجل ناله رضى الله عز وجل؛ جزاء من ربك عطاء حسابًا، وإذا رضي عنه أكرمه في الدارين بأنواع الكرامات وفضائل الهبات.

قَوْلُهُ (وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ): أي: ومن سخط قضاء الله عز وجل، ولم يصبِّر نفسه على ذلك، بل حصل منه ما يحصل من أفعال الجاهلية ليس له حظ إلا هذا التسخط، زد على ذلك أنه يخشى عليه من سخط الله عز وجل جزاءً وفاقًا.

قَوْلُهُ (حَسَّنَهُ): الحسن هو الحديث الصحيح إذا خف ضبط بعض رواته
وشروط الحديث الصحيح خمسة:

الأول: أن يتصل سنده. **الثاني**: أن يكون بنقل العدول. **الثالث**: أن يكونوا ضابطين. **الرابع**: السلامة من الشذوذ. **الخامس**: السلامة من العلة.

وفي الحديث سعد بن سنان، قال أبو البركات في الكواكب النيرات (٤٦٥): قال الامام أحمد: لم أكتب أحاديث سنان بن سعد لأنهم اضطربوا فيها، فقال بعضهم: سعد بن سنان وبعضهم سنان بن سعد، وقال أيضا تركت حديثه لأنه مضطرب غير محفوظ، وقال أيضا يشبه حديثه حديث الحسن لا يشبه حديث أنس.

وقال النسائي منكر الحديث.

ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن معين توثيقه كما نقل عنه أنه قال: سمع عبد الله بن يزيد من سنان بن سعد بعد ما اختلط، وقال الحافظ في التقريب»: سعد بن سنان ويقال سنان بن سعد الكندي المصري وصوب الثاني البخاري وابن يونس صدوق له أفراد من الخامسة / بخ د ت ق. انتهى.

قَوْلُهُ (التِّرْمِذِيُّ): في كتاب الزهد من "**جامعه**" (٢٣٩٦).

***

٣٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ): أي: من التحذير والوعيد، فالرياء من كبائر الذنوب وعظيم الآثام، ومن أسباب حبوط الأعمال، وذهاب أجرها ومن أسباب مقت الله عَزَّ وَجَلَّ وغضبه على العبد وهو دين المنافقين ومخافة المؤمنين.

الرياء: هو من المراءة، قال الجرجاني في التعريفات» (١١٣): الرياء ترك الإخلاص في العمل بمراءة غير الله فيه. اهـ.

وكأن العامل للعمل يعمل ذلك العمل لهذا القيد؛ ليراه الناس وليحمدوه عليه.

خرج بذلك: الذي يعمل العمل من أجل أن يُعَلِّمَ الناسَ، كأن يتوضأ كوضوء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكأن يصلي بالناس من أجل أن يعرف الناس صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كما ثبت في "**الصحيحين**" من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَنَزَلَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ آخِرِ صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»[1].

ومن أدلة الوعيد على الرياء: ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»، أخرجه البخاري (٦٤٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٦).

---

(١) البخاري (٩١٧)، ومسلم (٥٤٤).

عن ابن عباس وجندب رضي الله عنهما. وقد تقدم.

وقد فرَّق العلماء بين الرياء والسمعة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في "**الفتح**" عند حديث (٦٤٩٨): قَوْلُهُ (بَابُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ) الرِّيَاءُ الْمُرَادُ بِهِ إِظْهَارُ الْعِبَادَةِ لِقَصْدِ رُؤْيَةِ النَّاسِ لَهَا فَيَحْمَدُوا صَاحِبَهَا وَالسُّمْعَةُ الْمُرَادُ بِهَا نَحْوُ مَا فِي الرِّيَاءِ لَكِنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِحَاسَّةِ السَّمْعِ وَالرِّيَاءُ بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ وَقَالَ الْغَزَالِيُّ الْمَعْنَى طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بِأَنْ يُرِيَهُمُ الْخِصَالَ المحمودة والمرائي هُوَ الْعَامِلُ وَقَالَ بن عَبْدِ السَّلَامِ الرِّيَاءُ أَنْ يَعْمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَالسُّمْعَةُ أَنْ يُخْفِيَ عَمَلَهُ لِلَّهِ ثُمَّ يُحَدِّثَ بِهِ النَّاس. انتهى.

والرياء ضد الإخلاص المأمور به، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢-٣]، فالله عز وجل غني حميد لا يقبل إلا الدين الخالص.

وفي الحديث المشهور عن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»، وفي رواية: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، متفق عليه[1]، حتى قال بعض أهل العلم: هذا الحديث ينبغي أن يذكر في سبعين بابًا من أبواب الفقه، قال الله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند مسلم (١٩٠٥) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) . تقدم.

فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ» أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، وقال النبي ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»، أخرجه مسلم (١٠١٤) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وقد أخبر الله ﷻ أنه يضاعف الصدقات، قال الله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعند أبي داود (٢٥٢٧) وغيره[١]: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ، أَنَّ يَعْلَى بْنَ مُنْيَةَ ﷺ، قَالَ: آذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْغَزْوِ وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ لِي خَادِمٌ فَالْتَمَسْتُ أَجِيرًا يَكْفِينِي، وَأُجْرِي لَهُ سَهْمَهُ، فَوَجَدْتُ رَجُلًا، فَلَمَّا دَنَا الرَّحِيلُ أَتَانِي، فَقَالَ: مَا أَدْرِي مَا السُّهْمَانِ، وَمَا يَبْلُغُ سَهْمِي؟ فَسَمِّ لِي شَيْئًا كَانَ السَّهْمُ أَوْ لَمْ يَكُنْ، فَسَمَّيْتُ لَهُ ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَلَمَّا حَضَرَتْ غَنِيمَتُهُ أَرَدْتُ أَنْ أُجْرِيَ لَهُ سَهْمَهُ، فَذَكَرْتُ الدَّنَانِيرَ، فَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرْتُ لَهُ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «مَا أَجِدُ لَهُ فِي غَزْوَتِهِ هَذِهِ فِي

---

(١) الحاكم في «المستدرك» (٢٥٣٠)، الإمام أحمد (١٧٩٥٧).

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا دَنَانِيرَهُ الَّتِي سَمَّى».

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، متفق عليه(١).

فعلى كل مسلم أن يعالج نيته على الإخلاص لله عز وجل؛ حتى يقبل الله العمل منه ويحفظه له.

***

(١) البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رحمه الله:

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إنما أنا بشر مثلكم، فمن زعم أني كاذب فليأتِ بمثل ما جئت به.

وفي هذا رد على الصوفية الذين يرفعون مرتبة النبي ﷺ إلى مرتبة الإلهية، والربوبية، ومن أمثلة أقوالهم ما قاله البوصيري في قصيدته المشهورة «البردة»:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُوْلِ الحَادِثِ العَمَمِ
ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بي ... إذا الكريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ
فإنَّ لي ذِمَّةً منه بتَسمِيَتي ... مُحَمَّدًا وهُوَ أوفَى الخلقِ بالذِّمَمِ
إنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي ... فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللوْحِ

فماذا أبقى لله ﷻ؟! وقال المناوي:

يَا مُحَمَّدْ يَا حَبِيْبِي ... يَامُحَمَّدْ كُنْ طَبِيبِي
وَأَجِرْنِي مِنْ لَهِيبِي ... إنّ أوْزَاري ثِقَالَ
كُنْ غَدًا يَوْمَ القِصَاصِ ... يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي
سَاعِيًّا لِي فِي خَلَاصِي ... مِنْ حِسَابٍ مَعْ سُؤَال
فَالمَنَاوِي فِي بَلِيَّة ... وسَجَايَاكَ عَلِيَّة
كُنْ لنَا خَيْرَ البَرِيَّة ... مُدْرِكًا يَا زَيْنَ وَال

يسأله مغفرة ذنبه، وشفاء مرضه وسقمه، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، وإنا لله وإنا إليه راجعون، أين هم من قول الله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

قَوْلُهُ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: أي: يأتيني دين الله ﷻ عن طريق وحي الله ﷻ، وكان ينزل على رسول الله ﷺ بالوحي جبريلُ عليه السلام، قال الراغب (٨٥٨): الوَحي: أصلُه الإشارة الخفية السريعة واصطلاحًا: يقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى نبي من الأنبياء وقد انقطع بخاتم النبيين ﷺ. اهـ بتصرف واختصار.

وفي البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣) واللفظ له: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَام سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، ثُمَّ يَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُهُ، وَأَحْيَانًا مَلَكٌ فِي مِثْلِ صُورَةِ الرَّجُلِ، فَأَعِي مَا يَقُولُ».

قَوْلُهُ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: مما أوحاه الله ﷻ إليّ التوحيد، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ وهو الله، فأفردوه بالعبادة، والرجاء، والخوف، وأفردوه بالخشية والمحبة والتوكل والإنابة، وغيرها. فقوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فيها معنى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

قَوْلُهُ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: أي: ثوابه وجزاءه الصالح، واستدل بها بعض أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية الله ﷻ يوم القيامة.

وقد اختلف العلماء فيمن يرى الله يوم القيامة، فذهب بعض أهل السنة إلى أن الله يراه المؤمنون فقط، وذهب غيرهم إلى أن الله ﷻ يراه المؤمنون والمنافقون وغبرات من أهل الكتاب، وذهب طائفة من أهل السنة إلى أن الله ﷻ يراه جميع من في الموقف من المؤمنين والكفار، واستدل أصحاب هذا القول بعموم أدلة اللقاء، ونقل شيخ الإسلام وابن القيم الإجماع على أن اللقاء بمعنى الرؤية، واستدلوا بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٦٨)، قَالَ: قَالُوا: يَا

رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟

فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ».

وهذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم: أنه يراه جميع من في الموقف، ثم يحتجب عن الكافرين، وهذا هو الموافق لقول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والحجب إنما يكون بعد الرؤية، إلا أن رؤية المؤمنين لربهم رؤية تنعم، ورؤية الكافرين لربهم رؤية سخط، كرؤية المسجون المجرم للسجان ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠]، ولي بحمد الله مؤلف بعنوان رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار».

قَوْلُهُ ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾: فليخلص لله العبادة ويتقرب إليه ﷻ بالأعمال الصالحة، والعمل الصالح هو ما أخلص فيه العامل لله ﷻ، وتابع فيه النبي ﷺ.

ويدل على شرطية الإخلاص في العمل ما تقدم من الأدلة في الباب، ويدل على المتابعة حديث عَائِشَةَ ﵂: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»، متفق عليه[1]، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2].

في أدلة كثيرة ليس هذا موطن بسطها ذكرت كثيرًا منها في كتاب الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية».

قَوْلُهُ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾: هذا هو الشاهد من الاستدلال بهذه الآية، قال الطبري في تفسيره» (١٥/ ٤٤٠): يَقُولُ: وَلَا يَجْعَلْ لَهُ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ إِيَّاهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَاعِلًا لَهُ شَرِيكًا بِعِبَادَتِهِ إِذَا رَاءَى بِعَمَلِهِ الَّذِي ظَاهِرُهُ أَنَّهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُرِيدٌ بِهِ غَيْرَهُ. وروى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] قَالَ: لَا يُرَائِي -بعباده ربه أحدًا-.

وروى نحوه عَنْ سُفْيَانِ، وأخرج مرسلًا عَنْ طَاوُسٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأُحِبُّ أَنْ يُرَى مَوْطِنِي وَيُرَى مَكَانِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷿: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]». -وهو كما ترى وإن كان مرسلًا والمرسل لا تقوم به حجة في قول جماهير المحدثين، لكن مثل هذا يكون من أوجه تفسير الآية-.

وروي من طريق شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ وهو ضعيف في قول شعبة وغيره من أهل العلم، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: أَنْبِئْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا يُصَلِّي يَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ، وَيَصُومُ وَيَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ؟ فَقَالَ عُبَادَةُ: لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ، إِنَّ اللَّهَ ﷿ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَعِي شَرِيكٌ فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. اهـ مختصرًا.

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (مَرْفُوعًا: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى): هذا الحديث يسميه العلماء حديثًا قدسيًا: وهو الحديث الذي يسنده النبي ﷺ إلى الله ﷻ، والقدسي نسبة إلى القدس، وهو يحمل معنى التكريم والتعظيم والتنزيه.

قَوْلُهُ (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ): قال النووي في "**شرحه على مسلم**"(١٨/ ١١٥-١١٦): وَمَعْنَاهُ أنا غنى عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِي وَلِغَيْرِي لَمْ أَقْبَلْهُ بَلْ أَتْرُكُهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ والمراد أن عمل المرائى باطل لاثواب فِيهِ وَيَأْثَمُ بِهِ. اهـ.

وفي الحديث بيان لغنى الله ﷻ المطلق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وفي المستدرك للحاكم (١٥٣٤)، والترمذي (٢٨٦٣): عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنَّ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ» وفيه: «أُولَاهُنَّ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ، أَوْ وَرِقٍ، ثُمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا، فَقَالَ: اعْمَلْ، وَارْفَعْ، إِلَيَّ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيَرْفَعُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، والله خلقنا، ورزقنا وأعطانا وأنعم علينا، ثم يذهب أناس ويصرفون حق الله لغير الله، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ؟»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ

يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[(١)]، فالله ﷻ غني عن المشركين وعن الأعمال التي أشركوا فيها.

ومن العجب أيضًا: أنهم كانوا يشركون بالله ﷻ، فإذا ما فسدت الأغنام التي هي لشركائهم عوضوها من الأغنام التي هي لله ﷻ، وإذا فسدت الأغنام التي هي لله، لم يعوضوها من الأغنام التي هي لشركائهم، كما قص الله ﷻ في سورة الأنعام فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية (٣/ ٣٤٤): هَذَا ذَمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدَعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًا، وَجَعَلُوا لِلَّهِ جُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أَيْ: مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأَ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أَيْ: مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أَيْ: جُزْءًا وَقَسْمًا، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالعَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ كَانُوا إِذَا حَرَثُوا حَرْثًا، أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ، جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْهُ جُزْءًا وَلِلْوَثَنِ جُزْءًا، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الْأَوْثَانِ حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ. وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سُمِّي لِلصَّمَدِ رَدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ. وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.

جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ. فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لِلَّهِ جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَثَنِ. وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرْثِ وَالثَّمَرَةِ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ، فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ، قَالُوا: هَذَا فَقِيرٌ. وَلَمْ يَرُدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ. وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ. فَسَقَى مَا سُمِّي لِلْوَثَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَثَنِ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَ، فَيَجْعَلُونَهُ لِلأَوْثَانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الْآيَةَ.

وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي تَفْسِيرِهِ: كُلُّ شَيْءٍ جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنْ ذِبْحٍ يَذْبَحُونَهُ، لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ. وَمَا كَانَ لِلْآلِهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: سَاءَ مَا يُقَسِّمُونَ، فَإِنَّهُمْ أخطؤوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَلَهُ الْمُلْكُ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. ثُمَّ لَمَّا قَسَّمُوا فِيمَا زَعَمُوا لَمْ يَحْفَظُوا الْقِسْمَةَ الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ، بَلْ جَارُوا فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النَّحْلِ: ٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخْرُفِ: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النَّجْمِ: ٢١،٢٢].اهـ.

قَوْلُهُ (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا): (عَمِلَ) نكرة في سياق الإثبات تفيد العموم، والمعنى: أن أي عمل من الطاعات تعمله وتريد به غير الله فهو مردود غير مقبول.

قَوْلُهُ (أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي): ولو كان ملكًا، أو رسولًا، أو قبرًا لا فرق في ذلك.

قَوْلُهُ (تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ): أي لم يقبل ما كان من العمل لـه تعـالى وذلـك لأن الله تعالى لا يقبل المشاركة وغني عن ذلك، قـال تعـالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْـدَةَ رضي الله عنه: أَنَّـهُ قَـالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: «بَعَثَنِي اللهُ بِالْإِسْلَام». قَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: شَـهَادَةُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَوْبَةً أَشْرَكَ بَعْـدَ إِسْـلَامِهِ». أخرجـه أحمـد (٢٠٠١١). أي مـا لم تتحقق شروطها بالإقلاع عن الشرك.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» رَوَاهُ أحمد.

قَوْلُهُ (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ): هو الخدري سعد بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. **قَوْلُهُ (مَرْفُوعًا)**، أي: إلى النبي ﷺ.

قَوْلُهُ (أَلا أُخْبِرُكُمْ) بمعنى: ألا أعلمكم وأطلعكم.

قَوْلُهُ (بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي): أي: بالعمل الذي اتخوفه عليكم أكثر من فتنة المسيح الدجال مع شدتها، وفيه خوف رسول الله ﷺ على أمته، وهذا من شفقته عليهم وحاله كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عند مسلم (٢٠٢): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ».

قَوْلُهُ (مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟): اختلفوا في معنى المسيح إلى أقوال منها: أنه

يمسح الأرض، ويقال له المسيخ بالخاء المعجمة من فوق، وهو رجل من بني آدم من اليهود، له فتنة عظيمة في الأرض -نسأل الله العافية منها ومن جميع الفتن- ولي بحمد الله كتاب في بيان فتنته وشره بعنوان تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال» وأذكر هنا حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٣٧) من باب بيان ما عنده من الفتنة: قَالَ رضي الله عنه: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟

قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ

فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ.

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

قَوْلُهُ (قَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ): أي: الرياء وسمي خفيًا؛ لأنه شرك قلبي، ويكون في النيات والمقاصد، فعند أحمد (١٩٦٠٦) من حديث، أَبِي عَلِيٍّ رَجُل مِنْ بَنِي كَاهِلٍ، قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَزْنٍ، وَقَيْسُ بْنُ الْمُضَارِبِ فَقَالَا: وَاللهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ.

قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»، وأخرج نحوه البخاري في الأدب المفرد» (٧١٦): عن مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ يَقُولُ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟» قَالَ: قُلِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ».

قَوْلُهُ (يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي): أي: لله عز وجل فتكون العبادة ابتدأ على الإخلاص.

قَوْلُهُ (فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ): أي يحسن صلاته، وعبادته ليراه الناس، وهذا هو الشرك حيث يُشرِّك غير الله عز وجل مع الله في العبادة، وهذا سر خفاء هذا النوع من الشرك إذ قد لا يُتفطن له إلا مع التدقيق.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أحمد): هو بمعناه ولم يخرجه أحمد بهذا اللفظ، وهذا لفظ ابن ماجة (٤٢٠٢)، وأخرجه أحمد في المسند» (١١٢٥٢) بنحوه وفيه: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِمَكَانِ رَجُلٍ».

وهذا النوع من الشرك الأصل فيه أنه مـن الشـرك الأصـغر، وبيانـه: أن مـن يعمل العمل الصالح ثلاثة أصناف:

الأول: أن يعمل العمل لا يريد به الله، فهذا لا يكون إلا من المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وسيأتي بيان هذا في الباب الذي يليه إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثـاني: أن يعمل العمل الصالح يريد به الله تعالى، ثم يحصل الرياء فيه، فـإن حاربه ودفعه صح عملـه، وإن اسـتمر فيـه فسـد عملـه، والأعمـال منقسـمة إلى قسمين:

الأول: الأعمال المتصلة: كالصلاة، فلـو دخلهـا الريـاء ولم يدافعـه بطلـت صلاته.

والثـاني: الأعمال المنفصلة كالصدقة، فلو تصدق بعشرة ريال مخلصًا فيها، ثم تصدق بعشرة أخرى مرائيًا فيها فما أخلص فيه كان مقبولًا ومـا دخلـه الريـاء كان مردودًا.

الثالث: أن يعمل العمل لله سبحانه وتعالى، ثم بعد العمل يُذكر بالخير؛ فهـذا كما قال النبي ﷺ كمـا في حـديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنـد مسـلم (٢٦٤٢): «تِلْـكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».

وذكر بعض أهل العلم للرياء أربع صور:

الأولى: أن لا يكون قصده الثواب أصلًا كالذي يصلي أمام الناس، وإذا انفـرد لا يصلي بل ربما دفعه الرياء إلى الصلاة بغير طهارة، قال في الزواجر: وأقبح أنواع الرياء ما تعلق بأصل الإيمان وهو شـأن المنـافقين، يـلي ذلـك: المـراءة بأصـول

العبادات الواجبة كأن يعتاد تركها في الخلوة وفعلها في الملأ.

الثانية: أن يكون قصده إظهار العمل أكثر من قصد الثواب، فهذا قريب من الذي قبله.

الثالثة: أن يتساوى قصد الثواب والرياء بحيث يحمله على العمل اجتماع الأمرين فهذا لا يسلم من العقاب.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجحًا لنشاطه، ولو لم يكن ذلك ما ترك العبادة، وهذا النوع لا يحبط أصل الثواب، ولكنه ينقص منه أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب.

ويُدفع الرياء بأمور منها:

الأول: مجاهدة النفس على الإخلاص لله ﷻ إذ أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

الثاني: الدعاء، فهو من أنفع ما يذهب الرياء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

الثالث: الزهد في مدح الناس، إذ أن الحامل على الرياء هو طلب ما عند الناس من الثناء ونحوه وهو بالرياء يعرض نفسه لغضب الله تعالى.

الرابع: عدم المبالاة بقدح الناس، فكما أن مدحهم لا يقدم ولا يؤخر، فكذلك قدحهم، قال رجل لرسول الله ﷺ: أَلَا إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَاكَ اللَّهُ ﷻ»[1].

الخامس: معرفة أن الرياء يحبط العمل، فإذا عرف ذلك كان من دواعي ترك الرياء والحذر منه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٩٩١) والترمذي (٣٢٦٧)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٦٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، عَنِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ رضي الله عنه.

السادس: مجاهدة النفس في الزهـد فيمـا في أيـدي النـاس سـواء كـان مـا في أيديهم حسيًا كالمال، أو معنويًا كالثناء وخوف القدح.

السابع: التشمير في دفع ما يطرأ في القلب مـن دواعـي الريـاء، فـإن أعجـب بالعمل فغيره أشد عملًا منه، وإن أراد المدح فالريـاء بـاب القـدح، وإن أراد بـه الدنيا ضاعت منه الدنيا والآخرة... إلى غير ذلك.

فتلخص لنا مما تقدم: خطر الرياء على العبادات، وأنه مـن الشـرك والشـرك خطره عظيم إذ هو الذنب العظيم كما وصفه الله تعالى، وقـد تقـدم معنـاه في أول الكتاب بيان ذلك، والحمد لله.

***

٣٦- بَابُ مِنَ الشِّرْك: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِه الدُّنْيَا

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

قَوْلُهُ: (بَابُ مِنَ الشِّرْك: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِه الدُّنْيَا): هذا الباب تتمة للذي قبله، وذكر نوعًا واحدًا من أنواع الرياء، وهو أن يعمل الصالح من العمل لا لطلب الثواب أصلًا، ولكن لطلب حظ الدنيا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "**تفسيره**" (٧/ ١٩٨): قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠]، أَيْ: عَمَلَ الْآخِرَةِ ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾ أَيْ: نُقَوِّيهِ وَنُعِينُهُ عَلَى مَا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَنُكْثِرُ نَمَاءَهُ، وَنَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أَيْ: وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعْيُهُ لِيَحْصُلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هِمَّة أَلْبَتَّة بِالْكُلِّيَّةِ، حَرَمه اللهُ الْآخِرَةَ وَالدُّنْيَا إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ لَا هَذِهِ وَلَا هَذِهِ، وَفَازَ هَذَا السَّاعِي بِهَذِهِ النِّيَّةِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هَاهُنَا مُقَيَّدَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي «سُبْحَانَ» وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مُغيرة، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بالسَّنَاء وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمِنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»[1].اهـ.

فإن عمل المؤمن العمل الصالح، وأعقبه الله عز وجل رزقًا من فضله، لم يكن ذلك من تقديم الآخرة؛ ولكنه رزق تفضل الله عز وجل به، ويدخر له الحسنة إلى يوم القيامة، ففي صحيح مسلم» (٢٨٠٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».

وفي حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عند أحمد (١٧٧٦٣) قال: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي»، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَرْغبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَام، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ».

وليس في التبويب ما يدل على تحريم التكسب بل التبويب في حق من عمل العمل الصالح بنية الدنيا فقط، ففي مستدرك الحاكم» (٢٥٣٠): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ، أَنَّ يَعْلَى بْنَ أُمَيَّةَ رضي الله عنه، قَالَ: أَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْغَزْوِ وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ لِي خَادِمٌ، فَأَلْتَمِسُ أَجِيرًا يَكْفِينِي، وَأُجْرِي لَهُ سَهْمَهُ، فَوَجَدْتُ رَجُلًا، فَلَمَّا دَنَا الرَّحِيلُ، أَتَانِي فَقَالَ: مَا أَدْرِي مَا السُّهْمَانِ وَمَا يَبْلُغُ سَهْمِي فَسَمِّ لِي شَيْئًا كَانَ السَّهْمُ أَوْ لَمْ يَكُنْ، فَسَمَّيْتُ لَهُ ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَلَمَّا حَضَرَتْ غَنِيمَةٌ، أَرَدْتُ أَنْ أُجْرِيَ

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠).

لَهُ سَهْمَهُ، فَذَكَرْتُ الدَّنَانِيرَ، فَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ أَمْرَهُ فَقَالَ: «مَا أَجِدُ لَهُ فِي غَزْوَتِهِ هَذِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا دَنَانِيرَهُ الَّتِي سَمَّى». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال البيضاوي في "تفسيره"(٣/ ١٣٠): قَوْلُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [هود: ١٥]: وَزِينَتَهَا بإحسانه وبره. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرئ يوف» بالياء أي: يوف الله و توف» على البناء للمفعول و نُوَفّ» بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

وَإِنْ أَتَاهُ كَرِيمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالي وَلاَ حَرَمُ

وَهُمْ فِيها لاَ يُبْخَسُونَ لا ينقصون شيئًا من أجورهم. والآية في أهل الرياء. وقيل في المنافقين. وقيل في الكفرة بربهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مطلقًا في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن؛ لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص... ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ في نفسه. ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. اهـ.

وأخرج الطبري في تفسيره» (١٢/ ٣٤٧): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -من طريق العوفي في- قَوْلُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥] الْآيَةَ، وَهِيَ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسَنَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا، يَقُولُ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا لِالْتِمَاسِ

الدُّنْيَا؛ يَقُولُ اللَّهُ: أُوَفِّيهِ الَّذِي الْتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثَابَةِ، وَحَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ الْتِمَاسَ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.اهـ.

وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الآية وهل هي على إطلاقها أم أنها في حق الكفار وإن كان قد فسرها مجاهد بأن المراد بهم أهل الرياء، فالمراد به الأكبر المخرج من الملة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ: إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ؛ تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

قَوْلُهُ (فِي الصَّحِيحِ): أي: البخاري (٢٨٨٧) كتاب الجهاد والسير بَابُ الحِرَاسَةِ فِي الغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ (تَعِسَ): بكسر العين أي: هلك ولم يسعد.

قَوْلُهُ (عَبْدُ الدِّينَارِ): أي المقدم له على طاعة الله ﷻ، الدينار هو المثقال، وهو من الذهب وهو أربعة جرامات.

قَوْلُهُ (عَبْدُ الدِّرْهَمِ): والدرهم من الفضة، وسماه عبد الدينار والدرهم لأن عمله من أجلها.

قَوْلُهُ (الخَمِيصَةِ): قال أبو السعادات: هو ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة.

قَوْلُهُ (الخَمِيلَةِ): نوع من اللباس، قال أبو السعادات: ثياب لها خمل من أي شيء كان.

قَوْلُهُ (إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ): أي: أن رضاه وسخطه تابع

للدنيا لا للدين، وهذا هو حال كثير من الناس، وهؤلاء داخلون في حديث النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللهِ لَأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ» متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (تَعِسَ وَانْتَكَسَ): قيل: عاوده المرض وقيل: هو دعاء عليه بالخيبة.

قَوْلُهُ (وَإِذَا شِيكَ): أصابته شوكة.

قَوْلُهُ (فَلا انْتَقَشَ): أي: لا يقدر على إخراجها فيبقى متألمًا منها، وهذا دعاء من النبي ﷺ على هؤلاء الذين آثروا الفاني على الباقي.

قَوْلُهُ (طُوبَى): اسم للجنة، وقيل: لشجرة في الجنة.

قَوْلُهُ (لِعَبْدٍ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ): عبد صالح مخلص لله عز وجل، آخذ بعنان فرسه ينطلق به في سبيل الله عز وجل، يرجو رحمته ويخاف عذابه، والعنان: هو سير اللجام الذي تمسك به الدابة والجمع أعنَّة.

قَوْلُهُ (أَشْعَثَ رَأْسُهُ): يعني: أن شعره أغبر متلبد ما يهتم به ترجيلًا ونحوه.

قَوْلُهُ (مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ): أي: ليس عنده نعال، ويعلوه الغبار من كثرة المشي.

قَوْلُهُ (إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ): أي: إن قيل له كن في الحراسة لم يغضب ويطلب أرفع منها.

قَوْلُهُ (وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ): وإن كان مع من يسوق

---

(١) البخاري (٢٦٧٢،٧٢١٢)، ومسلم (١٠٨)، واللفظ له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

الأبل والدواب كان فيها ولم يكترث لذلك.

قَوْلُهُ (إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ): لأنه لا يعرف بينما ذلك الذي يكون مشهورًا لا يُرد له طلب إن قال: أريد أن أذهب إلى أهلي، قالوا: اذهب نحن نكفيك، وإن قال: أنا تعبت أريد أن أنام، قالوا: نم واسترح، أما هذا المسكين تارة في الباب، وتارة في الجبل، لا أحد يعرفه، حاله كما جاء في حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ، عند البخاري (٦٤٤٧): أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».

ويستفاد من الباب والذي قبله فضل الإخلاص ومنزلته الرفيعة في العمل الصالح قبولًا وردًا، فعلى المسلم أن يحققه في جميع ما يفعل ويذر من الأعمال؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، أي: كان لله ﷻ نيةً، وعلى طريقة رَسُول اللَّهِ ﷺ هديًا وطريقة، وقد تكلمت عن ذلك بتوسع في كتابي الوسائل الجلية لنصرة الدعوية السلفية» ولله الحمد.

***

٣٧- بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّهِ.

قَوْلُهُ (بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّهِ): هذا باب عظيم عقده الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى ردًا على المقلدة الذين يعظمون أقوال علمائهم وأمرائهم، ويقدمونها على حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وذكر العلماء والأمراء دون غيرهم؛ لأن الناس لهم تبع فكم من بدع أحدثت، ومعالم من دين الله عَزَّ وَجَلَّ دُرِست بسبب طاعة العلماء والأمراء فيما ليس من دين الله عَزَّ وَجَلَّ، والتحليل والتحريم هو حق الله، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمْ نَعْدُ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ فَوَقَعْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلًا شَدِيدًا، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرِّيحَ فَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ» فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللّهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا» أخرجه مسلم (٥٦٥).

وجاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ

فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ» أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

وقال الله ﷻ مخبرًا عن نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فما أحله الله فهو الحلال، وما حرمه الله فهو الحرام، فمن اعتدى على حق الله ﷻ فقد ارتكب جرمًا عظيمًا، وهو أن يحل ما حرم الله، أو يحرم ما أحل الله، والأول صنيع المفرِّطين، والآخر صنيع المتشددين، ولهذا قال النبي ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[1]، وقد أنكر رسول الله ﷺ على من أراد أن يحرم على نفسه شيئًا أباحه الله: فعن أنس رضي الله عنه: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[2].

فلا بد أن يكون عندك نص من كلام الله وكلام رسوله ﷺ على تحليل الحلال وتحريم الحرام، أما أن تحرم على الناس ما أحل الله، أو تحل للناس ما حرم الله فهذا شرك والعياذ بالله، ويكون تفصيله على ما سيأتي: إن كان يستحل ما حرم الله ﷻ فهو كافر، وإن كان يستحل تحريم ما أحل الله ﷻ فهو كافر، وإن لم يكن مستحلًا فهو عاصٍ مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، ويكفر الرجل باتباعه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه. تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

لأمرائه، وعلمائه في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله إذا اعتقد أن حكمهم مقدم على حكم الله، أو اعتقد أن تحليلهم وتحريمهم كتحريم الله، أما إذا كان يتابعهم لشهوة ولرغبة دنيوية أو لخوف فهذا عاصٍ وليس بكافر، ولابد أن يعتني الطالب بالتفصيل في هذه المسائل لأن كثيرًا من الجهال وأصحاب الأفكار المنحرفة في هذا الباب لا يتورعون عن التكفير بمثل هذه الإطلاقات، والله المستعان.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ ابْنُ عَبَاسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!

قَوْلُهُ (يُوشِكُ): من أفعال المقاربة.

قَوْلُهُ (أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ): عذابًا بسبب ما أنتم عليه.

قَوْلُهُ (أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ؟!): أي: أنكم تردون حكم رسول الله ﷺ وقوله لقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

والأثر محفوظًا بلفظ: «أَرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ»، وفي لفظٍ: وَيَقُولُونَ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ»[١].

فإذا كان هذا في حق من يتابع أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اللذين قال عنهما النبي ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[٢]، وقال النبي ﷺ: «فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ يَرْشُدُوا»[٣]، والذي قال عنهم: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ»[٤]، فكيف بمن يقلد غيرهم.

والتقليد هو اتباع قول القائل بغير حجة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣١٢١)، وابن حزم في «حجة الوداع» (٣٩١)، ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٧٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٤٥) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨١) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢)، والإمام أحمد (١٧١٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٩)، وغيرهم من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه.

تَقْلِيـــدُنَا قَبُـــولُ قَـــوْلِ الْقَائِـــلِ   مِـنْ غَـيْرِ ذِكْـرِ حُجَّـةٍ لِلسَّــائِلِ

أما متبع الدليل فليس بمقلد؛ لأن الله أمر بذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكم كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يستدل بهذه الآية، ويقول: لقد رأيت رسول الله ﷺ يفعل كذا.

والتقليد هو دين الكفار، قال الله ﷻ مخبرًا عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فأنت مطالب بالاتباع لا التقليد، وقد تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه المسألة في كتابه إعلام الموقعين»، وألف الشوكاني كتابًا في فساد هذا المذهب، وبين السيوطي في كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض» فساده، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله»، والخطيب في الفقيه والمتفقه»، وقد نقلت كثيرًا من أقوالهم في كتاب فتح الباري على شرح السنة للبربهاري»، وتكلم غيرهم من العلماء بالمطولات والمختصرات في فساد التقليد أنه أعظم باب للابتداع في دين الله ﷻ.

ووصل الحال ببعض المقلدة أن يقول:

أَنَا حَنْبَلِيٌّ مَـا حَيِيْـتُ وَإِنْ أَمُـتْ   فَوَصِـــيَّتِي لِلنَّـــاسِ أَنْ يَتَحَنْبَلُـــوا

وقال الآخر:

أَنَـا حَـنَفِيٌّ مَـا حَيِيْـتُ وَإِنْ أَمُـتْ   فَوَصِـــيَّتِي لِلنَّـــاسِ أَنْ يَتَحَنَفُـــوا

وقال الآخر:

أَنَـا مَـالِكِيٌّ مَـا حَيِيْـتُ وَإِنْ أَمُـتْ   فَوَصِـــيَّتِي لِلنَّـــاسِ أَنْ يَتَمَلَّكُـــوا

وقال الآخر:

أَنَا شَافِعِيٌّ مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ فَوَصِيَّتِي لِلنَّاسِ أَنْ يَتَشَفَّعُوا

وكان الواجب أن يوصي بعضهم بعضًا باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وأئمة المذاهب صح عنهم خلاف هذا، فالإمام أحمد كان دينه الدليل، وهو القائل: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ - ﷺ - أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ.

وَالشَّافِعِيُّ يقول: إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي. اهـ. ذكره ابن دقيق العيد إحكام الإحكام» (١/ ٢٣٧)، والعراقي في طرح التثريب» (٢/ ٢٦٣)، والحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح» (٢/ ٢٢٣)، وغيرهم.

وقال الذهبي رحمه الله في "**سير أعلام النبلاء**"(٨/ ٢٤٨): قَالَ الحُمَيْدِيُّ: رَوَى الشَّافِعِيُّ يَوْمًا حَدِيْثًا فَقُلْتُ: أَتَأْخُذُ بِهِ؟ فَقَالَ: رَأَيْتَنِي خَرَجْتُ مِنْ كَنِيْسَةٍ، أَوْ عَلَيَّ زِنَّارٌ حَتَّى إِذَا سَمِعْتَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ حَدِيْثًا لا أقول به؟!. اهـ.

قال أبو بكر بن أبي داود:

وَدَعْ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ فَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ أَزْكَى وَأَشْرَحُ

وقال الآجري رحمه الله في "**الشريعة**" (١/ ٤٤٥): قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ رحمه الله تعالى: عَلَيْكَ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ، وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءِ الرِّجَالِ، وَإِنْ زَخْرَفُوا لَكَ بِالْقَوْلِ.اهـ.

وابن عمر رضي الله عنهما جاءه رجل وقال له في شأن الحجر الأسود: أَرَأَيْتَ إِنْ زُحِمْتُ، أَرَأَيْت إِنْ غُلِبْتُ، قَالَ: «اجْعَلْ أَرَأَيْتَ بِاليَمَنِ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ»، أخرجه البخاري (١٦١١).

وقَالَ الشَّعْبِيُّ: لِأَنَّ أَتعَنَّى بِعَنِيَّةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ مَسْأَلَةً بِرَأْيِي. وقال: إِيَّاكُمْ وَالْمُقَايَسَةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ أَخَذْتُمْ بِالْمَقَايِيسِ لَتُحِلُّنَّ الْحَرَامَ وَلَتُحَرِّمُنَّ الْحَلَالَ، وَلَكِنْ مَا بَلَغَكُمْ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاعْلَمُوا بِهِ[(١)].

وإنما هو الاستسلام والانقياد، وقد تنكر المبتدعة لأهل السنة والجماعة، بسبب دعوتهم إلى الدليل وتعظيمه.

وقد قال الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله: لما قيل له: بأنه يقلد الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، لو كنت مقلدًا أحدًا لقلدت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال ابن عبد البر رحمه الله في "**جامع بيان العلم وفضله**" (٢/ ٩٧٥): بَابُ فَسَادِ التَّقْلِيدِ وَنَفْيِهِ وَالْفَرَقِ بَيْنِ التَّقْلِيدِ وَالِاتِّبَاعِ، قَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى التَّقْلِيدَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وَرُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ وَغَيْرِهِ، قَالَ «لَمْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ فَاتَّبَعُوهُمْ» وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ فَقَالَ لِي: يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ: أَلْقِ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ». وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٍ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْهُمْ أَرْبَابًا، قَالَ: «بَلَى، أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»، عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: قِيلَ لِحُذَيْفَةَ فِي قَوْلِهِ

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٥٩،٢٦٠).

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] أَكَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ كَانُوا يُحِلُّونَ لَهُمُ الْحَرَامَ فَيُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَيُحَرِّمُونَهُ».

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤] فَمَنعَهُمُ الِاقْتِدَاءُ بِآبَائِهِمْ مِنْ قَبُولِ الِاهْتِدَاءِ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] وَفِي هَؤُلَاءِ وَمِثْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وَقَالَ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ وَقَالَ اللَّهُ ﷻ عَائِبًا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَذَامًّا لَهُمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وَقَالَ ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ مِنْ ذَمِّ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ ؒ: وَقَدِ احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ كُفْرُ أُوَلَئِكَ مِنَ جِهَةِ الِاحْتِجَاجِ بِهَا؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ لَمْ يَقَعْ مِنْ جِهَةِ كُفْرِ أَحَدِهِمَا وَإِيمَانِ الْآخَرِ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ التَّقْلِيدَيْنِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ لِلْمُقَلِّدِ كَمَا لَوْ قَلَّدَ رَجُلٌ فَكَفَرَ وَقَلَّدَ آخَرُ فَأَذْنَبَ وَقَلَّدَ آخَرَ فِي مَسْأَلَةِ دُنْيَاهُ فَأَخْطَأَ وَجْهَهَا، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مَلُومًا عَلَى التَّقْلِيدِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْآثَامُ فِيهِ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥]. وَقَدْ ثَبَتَ الِاحْتِجَاجُ بِمَا قَدَّمْنَا فِي الْبَابِ قَبْلَ هَذَا وَفِي ثُبُوتِهِ إِبْطَالُ التَّقْلِيدِ أَيْضًا، فَإِذَا بَطَلَ التَّقْلِيدُ بِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا وَجَبَ التَّسْلِيمُ لِلْأُصُولِ الَّتِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهَا وَهِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَوْ مَا كَانَ فِي مَعْنَاهُمَا بِدَلِيلٍ جَامِعٍ بَيْنَ ذَلِكَ. انتهى.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحْتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنبَلٍ): وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ابتلي فصبر، نصر الله به الدين في المحنة كما قال علي بن المديني رَحِمَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحْتَهُ): أي: عرفوا الحديث الصحيح من الضعيف، وميزوا السليم من السقيم؛ بحيث يميزون ويستنبطون الأحكام الشرعية بأدلتها الثابتة التي تقوم بها الحجة وتعبدنا لله بالعمل بها.

قَوْلُهُ (وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ): أي: يأخذون بمذهب سفيان: وهو أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري إمام أهل الكوفة، المتوفى سنة (١٦١) قال الذهبي في **"سير أعلام النبلاء"** (٧/ ٢٣٠): هُوَ شَيْخُ الإِسْلَامِ، إِمَامُ الحُفَّاظِ، سَيِّدُ العُلَمَاءِ العَامِلِيْنَ فِي زَمَانِهِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الثَّوْرِيُّ، الكُوْفِيُّ، المُجْتَهِدُ، مُصَنِّفُ كِتَابِ الجَامِعِ.

وُلِدَ: سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِيْنَ اتِّفَاقًا، وَطَلَبَ العِلْمَ وَهُوَ حَدَثٌ بِاعتِنَاءِ وَالِدِه المُحَدِّثِ الصَّادِقِ سَعِيْدِ بنِ مَسْرُوْقٍ الثَّوْرِيِّ، وَكَانَ وَالِدُهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّعْبِيِّ، وَخَيْثَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمِنْ ثِقَاتِ الكُوْفِيِّيْنَ، وَعِدَادُهُ فِي صِغَارِ التَّابِعِيْنَ... وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: كَتَبْتُ عَنْ أَلْفٍ وَمائَةِ شَيْخٍ، مَا كَتَبْتُ عَنْ أَفْضَلَ مِنْ سُفْيَانَ.

وَعَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ، قَالَ: مَا لَقِيتُ كُوفِيًّا أُفَضِّلُهُ عَلَى سُفْيَانَ.

وَقَالَ البَرَاءُ بنُ رُتَيْم: سَمِعْتُ يُوْنُسَ بنَ عُبَيْدٍ يَقُوْلُ: مَا رَأَيتُ أَفْضَلَ مِنْ سُفْيَانَ. فَقِيْلَ لَهُ: فَقَدْ رَأَيتَ سَعِيْدَ بنَ جُبَيْرٍ، وَإِبْرَاهِيْمَ، وَعَطَاءً، وَمُجَاهِدًا، وَتَقُوْلُ هَذَا؟ قَالَ: هُوَ مَا أَقُوْلُ: مَا رَأَيتُ أَفْضَلَ مِنْ سُفْيَانَ.

وَقَالَ ابْنُ المَهْدِيِّ: مَا رَأَتْ عَيْنَايَ أَفْضَلَ مِنْ أَرْبَعَةٍ -أَوْ مِثْلَ أَرْبَعَةٍ-: مَا رَأَيتُ أَحْفَظَ لِلْحَدِيْثِ مِنَ الثَّوْرِيِّ، وَلاَ أَشَدَّ تَقَشُّفًا مِنْ شُعْبَةَ، وَلاَ أَعقَلَ مِنْ مَالِكٍ، وَلاَ أَنصَحَ لِلأُمَّةِ مِن ابْنِ المُبَارَكِ.

وَرَوَى: وَكِيْعٌ، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: سُفْيَانُ أَحْفَظُ مِنِّي.

وَقَالَ رَوَّادُ بنُ الجَرَّاحِ: سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ يَقُوْلُ: كَانَ المَالُ فِيْمَا مَضَى يُكْرَهُ، فَأَمَّا اليَوْمَ، فَهُوَ تُرْسُ المُؤْمِنِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ البَاهِلِيُّ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الثَّوْرِيِّ يُشَاوِرُهُ فِي الحَجِّ.

قَالَ: لاَ تَصْحَبْ مَنْ يُكرَمُ عَلَيْكَ، فَإِنْ سَاوَيتَه فِي النَّفَقَةِ أَضَرَّ بِكَ، وَإِنْ تَفَضَّلَ عَلَيْكَ اسْتَذَلَّكَ.

وَنَظَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَفِي يَدِهِ دَنَانِيْرُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! تُمْسِكُ هَذِهِ الدَّنَانِيْرَ؟!

قَالَ: اسْكُتْ، فَلَوْلاَهَا لَتَمَنْدَلَ بِنَا المُلُوْكُ.

قَالَ: قَدْ كَانَ سُفْيَانُ رَأْسًا فِي الزُّهدِ، وَالتَّأَلُّهِ، وَالخَوْفِ، رَأْسًا فِي الحِفْظِ، رَأْسًا فِي مَعْرِفَةِ الآثَارِ، رَأْسًا فِي الفِقْهِ، لاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّيْنِ، وَاغْتُفِرَ لَهُ غَيْرُ مَسْأَلَةٍ اجْتَهَدَ فِيْهَا، وَفِيْهِ تَشَيُّعٌ يَسِيْرٌ، كَانَ يُثَلِّثُ بِعَلِيٍّ، وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ بَلَدِهِ أَيْضًا فِي النَّبِيذِ. وَيُقَالُ: رَجَعَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَكَانَ يُنْكِرُ عَلَى المُلُوْكِ، وَلاَ يَرَى الخُرُوْجَ أَصْلًا. انتهى مختصرًا.

وكان له مذهب وانقرض، فسفيان أمير المؤمنين في الحديث، لكنه يصيب

ويخطئ، ويعلم ويجهل، كل من سوى رسول الله ﷺ ليس بمعصوم، ومع ذلك لا يعني هذا أننا نهدر أقوال علمائنا ونزدريهم، فهم إذا خالفوا الدليل خالفوه إما لأنه لم يصح عندهم، أو لوجود حديث آخر يعارضه هو أقوى منه عندهم، أو أنه لم يبلغهم الدليل المخالف، وهذه الثلاثة الأقوال ذكرها شيخ الإسلام في رسالته "**رفع الملام عن الأئمة الأعلام**"وهم مجتهدون، وفي الحديث قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»، أخرجه مسلم (١٧١٦)، عن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾: أي أمر رسول الله ﷺ والأصل أنه يفيد الوجوب ولا يصرف منه إلى الندب أو الإباحة إلا بقرينة تدل على ذلك على ما هو مبسوط في الأصول.

قَوْلُهُ (﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾): أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ)، هذا رد على من يقدم أقوال الرجال المجردة على الدليل، وبعض الناس إذا قلت له: حذّر من الشرك، يقول: أخشى أن تقع فتنة، الفتنة: الشرك، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أما أن تسكت عن دعوة التوحيد من أجل ألا تكون فتنة، من أجل أن يرضى عنك الصوفي والتبليغي والرافضي والباطني؟ بل على هذا الحال لربما رضي النصارى واليهود.

فالفتنة هي الشرك بالله، والبدع والمعاصي، أما الطاعات والدعوة إلى التوحيد والسنة فمن أسباب السلامة، والتوفيق، والحفظ.

فمن يخالف أمر النبي ﷺ متعمدًا يخشى عليه من الفتنة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»[(١)]، وفي رواية: «فَقَدْ ضَلَّ»[(٢)].

وفي "**ذم الكلام**" للهروي (٣/ ١١٥): حَكَى ابْنُ الْعَرَبِيِّ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مِنْ أَيْنَ أُحْرِمُ؟ قَالَ: مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، مِنْ حَيْثُ أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنَ الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ، قَالَ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ عِنْدِ الْقَبْرِ، قَالَ: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ هَذِهِ؟! إِنَّمَا هِيَ أَمْيَالٌ أَزِيدُهَا، قَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَى أَنَّكَ سَبَقْتَ إِلَى فَضِيلَةٍ قَصَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟! إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[النور: ٦٣].

***

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٩٥٨)، وهو في «الصحيح المسند»(٨٠٢)، لشيخنا مقبل رحمه الله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٤٧٤)، وهو في «الصحيح المسند»(١٤٨٦) لشيخنا مقبل رحمه الله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

قَوْلُهُ: (وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٣٢٧): هو أبو طريف، وقيل: أبو وهب عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن حشرج بن امرىء القيس بن عدي بن ربيعة بن جرول، بفتح الجيم وإسكان الراء، ابن ثعل، بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة، ابن عمرو بن الغوث بن طي بن زيد بن أدد بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان الطائى الكوفى الصحابى.

وأبوه حاتم هو المشهور بالكرم. ويختلف النسابون في بعض الأسماء إلى طيء، قدم عدي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة، فأسلم وكان نصرانيًا. رُوى له عن رسول الله ﷺ ستة وستون حديثًا، اتفقا منها على ثلاثة، وانفرد مسلم بحديثين. روى عنه قيس بن أبى حازم، ومصعب بن سعد، وسعيد بن جبير، والشعبي، وأبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان، وهمام بن الحارث، وتميم بن طرفة، وغيرهم، نزل الكوفة، وتوفى بها سنة تسع وستين، وقيل: سنة ثمان، وهو ابن مائة وعشرين سنة.

قال ابن قتيبة: وكان عدي طويلًا، إذا ركب الفرس كادت رجله تخط الأرض. وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل، ثم صفين. قال: ولم يبق له عقب إلا من قبل ابنتيه أسدة وعمرة، وإنما عقب حاتم من ولده عبد الله بن حاتم، وهم ينزلون نهر كربلاء. ولما توفى رسول الله ﷺ قدم عدي على أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، فى وقت الردة بصدقة قومه، وثبت على الإسلام، وثبت معه قومه، فلم يرتدوا فيمن ارتد من العرب، وكان جوادًا، شريفًا فى قومه، معظمًا عندهم وعند غيرهم، حاضر الجواب. انتهى.

وحاتم الطائي يُذكر بأنه أكرم العرب، لكن ليس ذلك بنافعه؛ لأنه مات على الشرك، وإنما الكريم ابن الكريم هو يوسف عليه السلام، وأكرم العرب هو النبي ﷺ، كان يعطي الغنم بين الجبلين[(١)]، وَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لاَ»، كما في الصحيحين»[(٢)].

قَوْلُهُ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] ، قال البيضاوي في "**تفسيره**"(٣/ ٧٨): أي: عُلَمَاءَهُمْ وَقُرَّاءَهُمْ، وَالْأَحْبَارُ الْعُلَمَاءُ وَاحِدُهَا حِبْرٌ، وَحَبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا، وَالرُّهْبَانُ مِنَ النَّصَارَى أَصْحَابُ الصوامع واحدها راهب، كصاحب وصحبان، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ بأن جعلوه ابنًا لله. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أربابًا فيكون كالدليل على بطلان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢)، عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما.

الاتخاذ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول ﷺ وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله. لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك. اهـ.

قَوْلُهُ **(إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ)**: يعني: ظن عدي بن حاتم أن العبادة للرهبان والأحبار هي الصلاة؛ بحيث يُركع أو يُسجد لهم.

قَوْلُهُ **(قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ)**: وهذا تفسير من رسول الله ﷺ لمعنى كونهم اتخذوهم أربابًا من دونه ﷻ.

قَوْلُهُ **(رَوَاهُ أَحْمَدُ)**: لم يخرجه الإمام أحمد، ولعله سبق قلم من المؤلف رحمه الله، **قَوْلُهُ** **(وَالتِّرْمِذِيُّ)**: في جامعه (٣٠٩٥)، **(وَحَسَّنَهُ)**: أي: حكم عليه بالحسن.

والحديث يشهد له ظاهر القرآن، وإن ضعفه بعضهم بجهالة غطيف بن أعين، وقد خرج الحديث العلامة الألباني في "**الصحيحة**"(٧/ ٨٦١).

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى. ذكره ابن تيمية في "**مجموع الفتاوى**"(١/ ١٩٧).

وقال بعضهم:

وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا الْمُلُوكُ ... وأحبارُ سُوءٍ وَرَهْبَانُهَا

ومع ذلك الناس في باب العلماء والأمراء ثلاثة أصناف طرفان ووسط:

الأول: من يطيعهم طاعة مطلقة في الحق والباطل وهؤلاء على خطر عظيم.

الثاني: من يعصيهم مطلقًا ولا يبالي بهم ولا يرفع لهم قولًا ولا فعلًا بل هو مشاق لهم، مخالفًا للحق منهم وهؤلاء كسابقيهم.

الثالث: من أطاعهم في طاعة الله ﷻ وخالفهم في المعصية وما في بابها، وعرف لهم قدرهم ومنزلتهم ملتزمًا قول رسول الله ﷺ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[1]، وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

ولما كانت منزلة العلم رفيعة فقد رُفع حاملوه، وأكرِموا ولذلك كانوا ورثة أنبياء الله ﷻ كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»، والحديث عند أبي داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، ومن واجباتنا نحو علمائنا توقيرهم واحترامهم، وفي حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه عند أحمد (٥/ ٣٢٣) رقم (٢٢٨٠٧)، «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا (حَقَّهُ)[2]»، وجاء عند البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣١٢) ترجمة (١٣٢٩).

فهم قادة المسلمين إلى جنات الخلود بإذن الله ﷻ، ورحم الله الإمام أحمد إذ يقول فيهم مبينًا منَّة الله ﷻ علينا بهم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زمان فترة مِنْ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى؛ فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإبليس قَدْ أَحْيَوْهُ وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ فَمَا أَحْسَنَ أَثَرِهِمْ عَلَى النَّاسِ وَأَقْبَحَ أَثَرِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ؛ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ وَأَطْلَقُوا عِقَالَ الْفِتْنَةِ...»، انظر خطبة رسالته: الرد على الزنادقة والجهمية» (٥٥).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٠) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الهيثمي في «الزوائد» (٥٣٢).

وكما أن الله ﷻ أوجب علينا طاعة آبائنا الذين خرجنا من أصلابهم وأوصانا بهم خيرًا بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فهم داخلون كذلك في هذا المعنى؛ قال ابن القيم في أعلام الموقعين» (١/ ٩): فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ دَارَتْ الْفُتْيَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ بَيْنَ الْأَنَامِ، الَّذِينَ خُصُّوا بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَعَنَوْا بِضَبْطِ قَوَاعِدِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، بِهِمْ يَهْتَدِي الْحَيْرَانُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَحَاجَةُ النَّاسِ إلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. اهـ.

وللعلماء حقوق أيضًا يجب على المسلم أن يعمل بها.

وقد نقل الطبري ﵀ في "**تفسيره**"(٥/ ١٤٩): عن مجموعة من السلف بأن أولي الأمر هم العلماء.

قال شيخ الإسلام ﵀ كما في "**المجموع**"(٢٨/ ١٧٠): وَأُولُو الْأَمْرِ أَصْحَابُ الْأَمْرِ وَذَوُوه؛ وَهُمْ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ؛ وَذَلِكَ يَشْتَرِكُ فِيهِ أَهْلُ الْيَدِ وَالْقُدْرَةِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ؛ فَلِهَذَا كَانَ أُولُوا الْأَمْرِ صِنْفَيْنِ: الْعُلَمَاءُ؛ وَالْأُمَرَاءُ. فَإِذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ. اهـ.

وقال ابن القيم ﵀ في "**إعلام الموقعين**"(١/ ٨): وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْأُمَرَاءَ إنَّمَا يُطَاعُونَ إذَا أَمَرُوا بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ؛ فَطَاعَتُهُمْ تَبَعٌ لِطَاعَةِ الْعُلَمَاءِ. اهـ.

وكذلك العلماء فهم آباء الدين ذاك يطعمك ما ينمي جسمك، وهذا يعطيك ما يزكي روحك وعقلك، فالحذر الحذر من قطيعة الأرحام، فإنها سبب للذلة والهوان.

ومن حقهم: أن ندعوا لهم ونذكرهم بالجميل، فإنهم قد بصرونا بسواء السبيل.

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح حديث الباب رقم (٤٤) من "**رياض الصالحين**": وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك أن يبجل ويعظم ويكرم.. وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يتبقَ لهما قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم فتطيح الشريعة. اهـ.

ومن حقهم: شكرهم بعد شكر الله عَزَّوَجَلَّ، ونحن إذا شكرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ على فضله وإنعامه، وشكرنا علماءنا ومشايخنا على تعليمهم لنا، وصبرهم علينا، زادنا الله من فضله، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَمَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَلْقَى الْمَزِيدَ وَمَنْ يَكْفُرِ اللَّهَ يَلْقَى الْغِيَرْ

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند أبي داود (٤٨١١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»، والعلماء من أخص الناس، فيجب أن يشكروا ولا يكفروا وينصروا ولا يخذلوا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "**مجموع الفتاوى**"(٢٨/ ١٣): وَعَلَى الْمُتَعَلِّمِ أَنْ يَعْرِفَ حُرْمَةَ أُسْتَاذِهِ وَيَشْكُرَ إحْسَانَهُ إلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ وَلَا يَجْحَدَ حَقَّهُ وَلَا يُنْكِرَ مَعْرُوفَهُ. اهـ.

وفي الحديث عند أبي داود (٥١٠٩) والنسائي (٢٥٦٧) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ»، والعلماء هم أهل المعروف الحقيقي، فيكافئون بالجميل والتبجيل، وبالنصرة، والتواضع لهم، ورحم الله عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ يقول كما عند البيهقي في شعب الإيمان» (١٦٥١): تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُوهُ الْعِلْمَ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ

عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ»، فهل من التواضع احتقارهم والتزهيد، والبعد عنهم والجفاء لهم ألا فلا بارك الله فيمن كان هذا دأبه وطريقته، أين أنت من سلفك الصالحين، هذا الإمام شعبة بن الحجاج يقول كما في "**السير**" (٧/ ٢٠٨): كُلُّ مَنْ كَتَبْتُ عَنْهُ حَدِيْثا فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ. إلى غير ذلك من حقوقهم.

***

٣٨- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

مناسبة الباب للذي قبله: أن في الباب الأول التحذير من طاعة العلماء والأمراء في غير طاعة الله ﷻ، فناسب أن يأتي بعده بما يوجب التحاكم إليهم في حكم الله ﷻ، وما ذكره الله تعالى في هذه الآية هو حال أهل النفاق مع رسول الله ﷺ وأصحابه، عند رخاء المسلمين يأتون إلى النبي ﷺ، وعند الشدة على المسلمين يعرضون عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال الله فيهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٩-٥٠]، فإن كانوا يعتقدون أن الحق لهم جاءوا إلى النبي ﷺ، وإذا كان الحق عليهم خنسوا، وذهبوا للتحاكم إلى الطواغيت.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨٨/٧): يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] يَا مُحَمَّدُ بِقَلْبِكَ فَتَعْلَمَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ صَدَّقُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ، وَإِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَلْبِكَ مِنَ

الْكُتُبِ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ [النساء: ٦٠] فِي خُصُومَتِهِمْ ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] يَعْنِي: إِلَى مَنْ يُعَظِّمُونَهُ، وَيَصْدُرُونَ عَنْ قَوْلِهِ، وَيَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ مِنْ دُونِ حُكْمِ اللَّهِ، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] يَقُولُ: وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُكَذِّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ الطَّاغُوتُ الَّذِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ، فَتَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ الشَّيْطَانِ. ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] يَعْنِي أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَى الطَّاغُوتِ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، فَيُضِلَّهُمْ عَنْهَا ضَلَالًا بَعِيدًا، يَعْنِي: فَيَجُورُ بِهِمْ عَنْهَا جَوْرًا شَدِيدًا، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ دَعَا رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ فِي خُصُومَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا إِلَى بَعْضِ الْكُهَّانِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٦١] يَعْنِي بِذَلِكَ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا هَلُمُّوا إِلَى حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٦١] لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا [ص: ١٩٦] ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ [النساء: ٦١] يَعْنِي بِذَلِكَ: يَمْتَنِعُونَ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَيْكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، وَيَمْنَعُونَ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَيْكَ كَذَلِكَ غَيْرَهُمْ صُدُودًا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ، وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦] يَعْنِي: إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ نِقْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

[البقرة: ٩٥] يَعْنِي: بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ يَقُولُ: ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ كَذِبًا وَزُورًا ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنًا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢] وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ لَا يَرْدَعُهُمْ عَنِ النِّفَاقِ الْعِبَرُ وَالنِّقَمُ، وَأَنَّهُمْ وَإِنْ تَأْتِهِمْ عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى تَحَاكُمِهِمْ إِلَى الطَّاغُوتِ، لَمْ يُنِيبُوا وَلَمْ يَتُوبُوا، وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ كَذِبًا وَجَرْأَةً عَلَى اللَّهِ مَا أَرَدْنَا بِاحْتِكَامِنَا إِلَيْهِ إِلَّا الْإِحْسَانَ مِنْ بَعْضِنَا إِلَى بَعْضٍ، وَالصَّوَابَ فِيمَا احْتَكَمْنَا فِيهِ إِلَيْهِ. انتهى.

وقد دعى الله تعالى إلى الإعراض عمن هذا حاله فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣].

بينما تجد المؤمن بعكسهم فإذا دعي إلى الله ورسوله ﷺ تجده مسارعًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

***

□

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

يقول تعالى ذكره وإذا قيل للمنافقين لا تفسدوا في الأرض بشرككم ونفاقكم، وما دون ذلك؛ زعموا أنهم مصلحون، وهذا من تقليب الحقائق؛ إذ أنّ هذا القول يخالفه صنيعهم، وما هم عليه من فساد الظاهر والباطن يعرف ذلك من تدبر ما أخبر الله به عن أحوالهم في كثير من سور القرآن، ومن فسادهم المخادعة، ومنها أنهم يؤدون العبادة وهم كسالى، وأنهم أصحاب رياء إذ لا إخلاص عندهم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١ - ١٤٣].

ثم قال الله تعالى مكذبا لهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، قال القرطبي في تفسيره» (١/ ٢٠٤): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ يُقَالُ: مَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مُفْسِدٌ مِنَ الذَّمِّ، إِنَّمَا يُذَمُّ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مُفْسِدٌ ثُمَّ أَفْسَدَ عَلَى عِلْمٍ، قَالَ: فَفِيهِ جَوَابَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْفَسَادَ سِرًّا وَيُظْهِرُونَ الصَّلَاحَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ يَظْهَرُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ فَسَادُهُمْ عِنْدَهُمْ صَلَاحًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ ذَلِكَ فَسَادٌ، وَقَدْ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي تَرْكِهِمْ تَبْيِينَ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ. انتهى.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قَوْلُهُ (و قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦])، يقول تعالى ذكره، ولا تتعاطوا الفساد في الأرض بالشرك وغيره بعد إصلاحها بالتوحيد. ومن أنواع فسادهم: التحاكم إلى غير شرع الله عَزَّ وَجَلَّ. قال الطبري في تفسيره» (١٠/ ٢٤٩): ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] يَقُولُ: بَعْدَ إِصْلَاحِ اللَّهِ إِيَّاهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ بِابْتِعَاثِهِ فِيهِمُ الرُّسُلَ دُعَاةً إِلَى الْحَقِّ، وَإِيضَاحِهِ حُجَجَهُ لَهُمْ. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، يَقُولُ: وَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ وَالْعَمَلَ، وَلَا تُشْرِكُوا فِي عَمَلِكُمْ لَهُ شَيْئًا غَيْرَهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلْيَكُنْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ دُعَاؤُهُ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَخَفْ عِقَابَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ ثَوَابَهُ لَمْ يُبَالِ مَا رَكِبَ مِنْ أَمْرٍ يَسْخَطُهُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَاهُ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَرِيبٌ مِنْهُمْ. وَذَلِكَ هُوَ رَحْمَتُهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَى ذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ كَرَامَتِهِ، إِلَّا أَنْ تُفَارِقَ أَرْوَاحُهُمْ أَجْسَادَهُمْ. انتهى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قَوْلُهُ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾: يقول أيطلبون حكم الجاهلية الفاسد الجائر القائم على الهوى والظلم، وهذا من أعظم الأدلة وأظهرها على فساد عقول الكفار من اليهود، والمنافقين حيث يتركون حكم الله تعالى الذي به صلاح الظاهر والباطن، والحال، والمآل؛ ثم يعمدون إلى الأحكام العرفية، والأهواء الجاهلية.

قَوْلُهُ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] فحكمه تعالى مبني على العلم والحكمة فلا ظلم فيه ولا جور.

قَوْلُهُ ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: أي عند قوم يوقنون.

وكل هذه الآيات تضمنت ما عليه اليهود والمنافقون من الإعراض عن تحكيم الله وشرعه، والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ لاعتقادهم أن طريقهم صلاح وطريق المسلمين فساد، والله ﷻ قد أكذبهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وأكد ذلك بحرف التوكيد.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَـنْ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ عَمْـرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «لا يُـؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

قَالَ النَّـوَوِيُّ: حَـدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَـاهُ فِـي كِتَـابِ «الْـحُجَّةِ» بِإِسْـنَادٍ صَحِيحٍ.

الحديث ضعيف، فيه نعيم بن حماد شيخ البخاري، مع أنه رأس في السنة.

قَوْلُهُ (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ): أي لا يتحقق إيمانه.

قَوْلُهُ (حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ): أي إلى أن يكون ما يهواه، ويريده.

قَوْلُهُ (تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ): يعني سائرًا على طريق الوحي وعاملا به، ويدل على معنى هذا الحديث آيات الاتباع، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وغيرها من الآيات.

قَوْلُهُ (قَالَ النَّوَوِيُّ): هو العلامة يحيى بن شرف النووي، صاحب المؤلفات المشهورة، منها: شرح مسلم»، ورياض الصالحين»، والمجموع شرح المهذب»، والتبيان في آداب حملة القرآن»، وغيرها.

قَوْلُهُ (حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ): هكذا قال، وفيه من تقدم. والحديث في السنة» لابن أبي عاصم (١٥) وابن بطة في الإبانة» (٢٧٩).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ وَلَا يَمِيلُ فِي الْحُكْمِ. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ، لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ وَيَمِيلُونَ فِي الْحُكْمِ. فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] الْآيَةَ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ الشَّعْبِيُّ): وهو عامر بن شراحيل الشعبي، من شعب همدان، كان يكره القياس، حتى قال: إِيَّاكُمْ وَالْمُقَايَسَةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ أَخَذْتُمْ بِالْمَقَايِيسِ لَتُحِلُّنَّ الْحَرَامَ وَلَتُحَرِّمُنَّ الْحَلَالَ، وَلَكِنْ مَا بَلَغَكُمْ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وقال: إِنَّمَا هَلَكْتُمْ حِينَ تَرَكْتُمُ الْآثَارَ، وَأَخَذْتُمْ بِالْمَقَايِيسِ[١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة» (١/ ٢٨) نقلا عن الشعبي، انه قال: لَوْ كَانَتِ الشِّيعَةُ مِنَ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمُرًا، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا. اهـ.

وكان حافظًا فقد قال: مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ قَطُّ، ولاَ حَدَّثني رَجُلٌ بِحَدِيثٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ، ولاَ حَدَّثني رَجُلٌ بِحَدِيثٍ إلاَّ حَفِظْتُهُ[٢].

وحديث الباب مرسل؛ لأن الشعبي تابعي، وحديث التابعي الذي لم يلق

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٦٢،٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٢٣)، وابن حجر في «إتحاف المهرة» (٢٤٥١٦)، وغيرهم.

النبي ﷺ مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

وظاهر الآية يكفي أنها في سياق المنافقين، فالمنافقون كانوا إذا دعوا إلى التحاكم إلى الله وإلى رسول الله ﷺ نفروا، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى الطواغيت أجابوا.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ. فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ. فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

قَوْلُهُ (وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا): ساقه بصيغة التمريض، وهي تدل على ضعف الأثر.

قَوْلُهُ (وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ): وكعب بن الأشرف قتله رسول الله ﷺ، أرسل إليه محمد بن مسلمة رضي الله عنه، ففي «الصحيحين»[1]، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: ائْذَنْ لِي، فَلْأَقُلْ، قَالَ: «قُلْ»، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً، وَقَدْ عَنَّانَا، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ: وَأَيْضًا وَاللهِ، لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ، وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ، قَالَ: وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تُسْلِفَنِي سَلَفًا، قَالَ: فَمَا تَرْهَنُنِي؟ قَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَرْهَنُنِي نِسَاءَكُمْ، قَالَ: أَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ، أَنَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا؟ قَالَ لَهُ: تَرْهَنُونِي أَوْلَادَكُمْ، قَالَ: يُسَبُّ ابْنُ أَحَدِنَا، فَيُقَالُ: رُهِنَ فِي وَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وَلَكِنْ نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ - يَعْنِي السِّلَاحَ -، قَالَ: فَنَعَمْ، وَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْحَارِثِ، وَأَبِي عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ، وَعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، قَالَ: فَجَاءُوا فَدَعَوْهُ لَيْلًا فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ، قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ دَمٍ، قَالَ: إِنَّمَا هَذَا

---

(١) البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١)، واللفظ له.

مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَرَضِيعُهُ، وَأَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ لَيْلًا لَأَجَابَ، قَالَ مُحَمَّدٌ: إِنِّي إِذَا جَاءَ، فَسَوْفَ أَمُدُّ يَدِي إِلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَدُونَكُمْ، قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ نَزَلَ وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ، فَقَالُوا: نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الطِّيبِ، قَالَ: نَعَمْ تَحْتِي فُلَانَةُ هِيَ أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، قَالَ: فَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ مِنْهُ، قَالَ: نَعَمْ فَشُمَّ، فَتَنَاوَلَ فَشَمَّ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَعُودَ، قَالَ: فَاسْتَمْكَنَ مِنْ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: دُونَكُمْ، قَالَ: فَقَتَلُوهُ.

قَوْلُهُ (ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ. فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ. فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ): الحديث موضوع ولا يثبت، أخرجه البغوي في "**تفسيره**" (٢/ ٢٤٢).

وفي الباب عدة آثار ومراسيل ذكرها ابن جرير في "**تفسيره**"، منها مرسل الشعبي الذي تقدم، ومرسل قتادة بنحوه، ومرسل السدي، ومجاهد وغيرهم من التابعين، وجاء عن ابن عباس، ولكنه مسلسل بالسلسلة العوفية.

فالتحاكم يكون إلى كتاب الله ﷻ، وإلى سنة النبي ﷺ بعد موته، ومن تحاكم إلى غير الله لاعتقاده أن حكم غير الله أفضل من حكم الله، أو لاعتقاده أن حكم غير الله مثل حكمه، أو لاعتقاده أن حكم الله وحكم رسول الله لا يصلحان لهذا الزمان فهو كافر، أما من تحاكم إلى غير الله لمطمع دنيوي فهو عاصٍ ضال على خطر عظيم.

وبهذا التفصيل تسلم من بدعة الخوارج الذين يكفرون المسلمين، فإنهم يكفرون كل من تحاكم إلى غير الله مطلقًا مع أن واجب المسلمين جميعًا أن يكون تحاكمهم إلى شرع الله ﷻ ووحيه سواء كان ذلك في الأقول أو الأفعال أو الاعتقادات وفي الشهادات والدعاوى والمرافعات فإن شرع الله ﷻ به صلاح الدنيا والدين وما حصل البلاء بالأمة الإسلامية إلا حين حَكَّموا القوانين

الوضعية والأحكام العرفية المبنية على الجور والظلم والاختلاف والهوى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وأقبح ما يقوم به واضعوا الدساتير هو المنابذة لدين الإسلام والاعتراف بالأديان والدعوة إلى اللواط ومساواة الرجال بالنساء، والله المستعان.

***

٣٩- بَابُ مَنْ جحدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَنْ جَحدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ): الجحود: هو إنكار الشيء مع علمه به، ويكون غالبًا عن مكابرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤]، وهو من شر أنواع الكفر؛ لأن الحامل عليه في الغالب الكبر والتعالي والظلم.

وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ معلومة بالكتاب والسنة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فمن جحد شيئًا من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، أو شيئًا مما تضمنته من المعاني فقد ألحد، ومال بهذه الأسماء والصفات عن دلالتها، وعن كمالها على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

والناس في باب الأسماء والصفات أقسام:

القسم الأول: أهل السنة والجماعة أتباع الرسل؛ الذين يسمون الله عَزَّوَجَلَّ بما سمى به نفسه في كتابه، وبما سماه به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فطريقتهم: أنهم جمعوا بين التنزيه والإثبات لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأثبت الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه سمعًا وبصرًا، وأخبر أن سمعه وبصره ليس كبصر المخلوق، ولا سمع المخلوق، وهذا الطريق سلكه السلف رضوان الله عليهم فسلم لهم دينهم وطريقهم.

القسم الثاني: الممثلة الذين زعموا أن صفات الله ﷻ كصفات المخلوقين سواء، فيقول أحدهم: سمع الله كسمعي وبصره كبصري، ويده كيدي، وهذا كفر والعياذ بالله، فالقاعدة أنّ من شبه الله بخلقه كفر، ويدل على فساد مذهبهم قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقول الله ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: مثيلًا، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] أي: نظراء. وقال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ليس كمثله شيء لا في أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله، بل هو سبحانه متصف بالكمال المطلق من كل وجه.

القسم الثالث: المعطلة، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الجهمية وهم أتباع جهم بن صفوان، فيزعمون أن الله ليس له أسماء ولا صفات على الحقيقة، وقالوا: هي مجاز في حق الله، وحقيقة في حق المخلوق، فهذه أسماء للمخلوقات، وإنما أضيفت إلى الله من باب المجاز لا من باب الحقيقة، وعندهم: أن الله لا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يشاء، ولا يفعل ما يريد... إلى غير ذلك، تعالى الله عن قولهم.

القسم الثاني: المعتزلة وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد بن باب، وهم وإن كانوا ضلالًا، إلا أنهم دون سابقهم في الضلال، فإن المعتزلة يثبتون لله الأسماء، ويعطلون الصفات، حتى قال بعضهم: سميع بلا سمع بصير بلا بصر، وهذا القول من أقبح الأقوال وأفسدها، إذ لا يكون العالم إلا بعلم، ولا سميع إلا بسمع، ولا بصير إلا ببصر، ولا مريد إلا بإرادة، وعطلوا جميع صفات الله سبحانه وتعالى، فلا يثبتون له يدًا، ولا يثبتون له عينًا، ولا يثبتون له وجهًا إلى غير ذلك من صفاته.

القسم الثالث: الأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري، وأبو الحسن الأشعري

أخذ عقيدته متأثرًا بمحمد بن عبد الله بن كلاب، والكلابية، يثبتون لله ﷻ الأسماء، وبعض الصفات، ثم يعطلون الباقي موافقة للمعتزلة، قيل لهم: لماذا تثبتون لله بعض الصفات؟ قالوا: دل عليها العقل، وهي:

حَيٌّ مُرِيدٌ قادِرٌ عَلّامُ   لَهُ السَّمعُ والبَصَرُ والكَلامُ

فإثبات الصفات بالعقل المجرد وحده طريقة فاسدة، وإنما تثبت الصفات بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة، ثم لا بأس باستخدام الدلالة العقلية، ثم إن انتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فإذا كان -كما يقولون- العقل لا يدل على هذه الصفات؛ كصفة الاستواء، والعلو، والوجه، وغير ذلك من الصفات، نقول لهم: إذا لم يدل العقل عليها كما تزعمون، فقد دل عليها القرآن والسنة، وهما أعظم في الدلالة؛ لأن العقول تتفاوت، أما القرآن والسنة فمن عند عليم خبير، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، والأشاعرة كُثُر لا كَثَّرهم الله، فأغلب الشافعية، والمالكية أشاعرة، بل قد تأثر بهم بعض الحنابلة، وأكثر الجامعات في العالم تدرس المذهب الأشعري، وتدعو إليه، وتعظمه، وإذا شئت أن تعرف شيئًا من ذلك فارجع إلى كتاب المذاهب الإسلامية لمن يسمونه بالإمام الأعظم؛ محمد أبو زهرة الماتريدي، الذي يُعظم منهج الماتريدية على منهج السلف في هذا الباب.

والقسم الرابع: أصحاب التجهيل، وهم المفوضة، وطريقتهم أنهم يزعمون أن الله ﷻ خاطبنا في القرآن بأمور لا معاني لها، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، ليس هناك معنى لكلمة السميع إلا مثل معنى: ﴿الٓمٓ﴾، ومثل معنى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وهؤلاء طريقتهم تجهيل السلف بل يُجَهِّلُون النبي ﷺ، ويجهلون الصحابة رضوان الله عليهم، ويجهلون جبريل، بل وطريقتهم فيها طعن في الله ﷻ، إذ يلزمهم أن الله لم ينزل القرآن شفاءً ولا هدى، ولا نورًا، ولا موعظةً، ولازمها أن أمر الله ﷻ بتعقل القرآن وتدبره تكليف بما لا يطاق.

والعجب أن النووي وغيره ربما ذكروا مذهب المفوضة، ويزعمون أنه مذهب السلف في هذا الباب، فكن على حذر من كلام النووي والمازري والخطابي والحافظ ابن حجر والقرطبي وغيرهم من الذين تأثروا بالمذهب الأشعري، في هذا الباب.

هذا ملخص لطرق الناس في هذا الباب، والطريق الحق هو ما تقدم بيانه: من أن الله ﷻ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى وتؤخذ أسمائه وصفاته من الكتاب والسنة، إذ لا مجال للعقل في هذا الباب، وإنما هو باب توقيفي، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وسيأتي مزيد بيان في باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾.

فمن عطل الله ﷻ من صفاته كفر، ومن مثل الله ﷻ بخلقه كفر، وليس فيما وصف الله ﷻ به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ تمثيل ولا تعطيل.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قَوْلُهُ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾: أي: أن هذا حال كفار قريش، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقولهم وما الرحمن مكابرة، وإلا فهم يعرفون الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه هو الخالق الرازق المالك المدبر، حتى إن حجتهم في عبادة الأصنام، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، وقد كان بعض الجاهليين يثبتون اسم الرحمن كما قال بعضهم:

أَلاَ ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا ... أَلاَ قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

فدعا على تلك المرأة التي سرقت شيئًا من المتاع أن يقضب الرحمن يمينها، ثم يأتي هؤلاء من باب المكابرة فيقولون: وما الرحمن؟

فلما كفروا باسم الرحمن وبدلالته، كان هذا كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ، وقد سماهم الله كفارًا، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠]، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: الرحمن ربي: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقد جاء اسم الرحمن غير تابع، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!).

قَوْلُهُ: (وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»): كتاب العلم -بَابُ مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا، رقم (١٢٧).

قَوْلُهُ: (عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): أول من أسلم من الصبيان، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته، ورابع الخلفاء، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وفضائله كثيرة.

قَوْلُهُ: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!): أي: حدثوا الناس بما تدركه عقولهم، لا تأتوهم بما يحيله العقل، فيقع لهم ما لا يحمد من تكذيب الله ورسوله ﷺ، قال الحافظ في "**فتح الباري**"(١/ ٢٢٥): وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يذكر عِنْد الْعَامَّة وَمثله قَول بن مَسْعُودٍ مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَمِمَّنْ كَرِهَ التَّحْدِيثَ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ أَحْمَدُ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا الْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَالِكٌ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَأَبُو يُوسُفَ فِي الْغَرَائِبِ وَمِنْ قَبْلِهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فِي الْجِرَابَيْنِ وَأَنَّ الْمُرَادَ مَا يَقَعُ مِنَ الْفِتَنِ وَنَحْوُهُ عَنْ حُذَيْفَةَ وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَنْكَرَ تَحْدِيثَ أَنَسٍ لِلْحَجَّاجِ بِقِصَّةِ الْعُرَنِيِّينَ لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا وَسِيلَةً إِلَى مَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ بِتَأْوِيلِهِ الْوَاهِي وَضَابِطُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يُقَوِّي الْبِدْعَةَ وَظَاهِرُهُ فِي الْأَصْلِ غَيْرُ مُرَادٍ فَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِظَاهِرِهِ مَطْلُوبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.

وبهذا الحديث احتج أهل الباطل على تعطيل الله عَزَّ وَجَلَّ من صفاته، وعلى مذهب التفويض، وقالوا: هذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نهانا أن نحدث الناس بأحاديث الأسماء والصفات! وهذا من جهلهم وبغيهم وعنادهم، وإلا فإن

الصحابة رضوان الله عليهم هم من بلغوا ونقلوا لنا هذا الباب نقلًا عظيمًا لم نحتج إلى غيرهم فيه، بل ما أجمعوا عليه فهو المأخوذ والمقبول، وقد أجمعوا على أن الله ﷻ مسمى بما سمى به نفسه، وبما سماه به رسوله ﷺ، وقد تكلمنا على هذا الحديث بتوسع في كتابنا: ضوابط تحديث العوام بأحاديث الأسماء والصفات».

وفي توجيه أثر علي رضي الله عنه ما قاله العلامة العثيمين: في القول "**المفيد على كتاب التوحيد**" (٢/ ١٣٣): قوله في أثر علي رضي الله عنه (حَدِّثُوا النَّاسَ) أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قَوْلُهُ (بِمَا يَعْرِفُونَ): أي: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم؛ حتى لا يفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنك لن تحدث قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[1]، ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدا رويدا، حتى تستقر عقولهم، وليس معنى بِمَا يَعْرِفُونَ» أي: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»: الاستفهام للإنكار؛ أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله، وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب؛ إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله؛ فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس، وإن كانوا محتاجين لذلك؟

(١) أخرجه مسلم (١/ ١١).

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويدًا رويدًا؛ حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك: العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس، ويستنكرونها؛ فإننا نعمل بها، ولكن بعد أن نخبرهم بها؛ حتى تقبلها نفوسهم، ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

ومناسبة هذا الأثر لباب الصفات ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة، فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حَدَّثت العاميَّ بأنه تعالى نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا نزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليًا منه، وحينئذٍ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم، فَتُبين لهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينزل نزولًا لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته، يقول: «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ...»[(١)] الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الساعة من الليل.اهـ.

والله عَزَّ وَجَلَّ قد أمرنا بالإيمان بالله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والكتاب الذي نزل على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦]، ومن الإيمان بالله الإيمان بأسمائه وصفاته،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الإيمان برسوله الإيمان بما أخبر ﷺ من أسماء الله وصفاته، ومن الإيمان بكتاب الله ﷻ الإيمان بما فيه من الأسماء والصفات. والحمد لله الناس يعرفون معاني الأسماء والصفات، ألسنا نقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] في كثير من صلواتنا، وهي تتضمن الأسماء والصفات، الصفات الثبوتية، والصفات السلبية، وفيها النفي المجمل، والإثبات المفصل، ألسنا نقرأ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] في أذكار الليل، ونعلمه العوام والنساء والصبيان، ثم يستدل مستدل بهذا الحديث على أنهم لا يُعلمون آيات الأسماء والصفات؟!.

ثم إنّ آيات الأسماء والصفات من المحكم البين الواضح يعلم ذلك كل عربي سلمت فطرته ولم يقع عنده تمثيل؛ لأنه يعلم أن الله ﷻ هو الإله الحق الكامل من كل وجه، وأن المخلوقين المربوبين هم العاجزون الناقصون، فلا يمثل الله ﷻ بخلقه إلا من فسدت فطرته وعقيدته، وإلا فإن الله عظيم في قلوب المؤمنين والموحدين.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ؛ فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ. انْتَهَى.

قَوْلُهُ (وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ): (٢٩٦٠)، وهو أبو بكر بن همام الصنعاني، صاحب "**المصنف**"، و"**التفسير**"، و"**الأمالي**"، رحل إليه العلماء كأحمد بن حنبل وابن معين، وغيرهما.

قَوْلُهُ (عَنْ مَعْمَرٍ): وهو أبو عروة ابن راشد البصري، كثير الحديث.

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ طَاوُسَ): وهو عبد الله بن طاوس.

قَوْلُهُ (عَنْ أَبِيهِ): وهو طاوس بن كيسان الأبناوي اليمني، إمام في الحديث.

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ): وهو عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهذا سند صحيح، على شرط الشيخين.

قَوْلُهُ (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا): كالمنكر أو المتعاظم التحدث بهذا الحديث، والحديث هو: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»(١)، والصورة ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الحديث وغيره، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ»(٢).

قَوْلُهُ (عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ): أي: صفات الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

قَوْلُهُ (استِنْكَارًا لِذَلِكَ): أي مستنكرا للتحديث به.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟): أي: ما الذي يخوف هؤلاء؟

قَوْلُهُ (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ. انْتَهَى): أي: ترق قلوبهم عند سماع المحكم وهذا أمر محمود، لكن ينبغي كذلك الإيمان بالمتشابه، وأنه من عند الله ﷻ، وسؤال أهل العلم فيما يشكل عليهم، والمحكم هو البين الواضح، قال الله ﷻ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فالقرآن محكم بين واضح، أمر الله ﷻ بتدبره وتعقله وتفهمه، ولو كان غير محكم لما أمرنا الله بتدبره وتعقله وتفهمه، وما جاء من أن الله ﷻ وصفه بأنه متشابه فالمراد به التشابه في سياقته، وفي قصصه، والتشابه في إحكامه وإتقانه، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وما جاء من أن الله وصف بعضه بأنه آيات محكمات وأخر متشابهات، فالمراد بالمتشابه: ما أشكل معناه على بعض الناس.

وبالمحكم ما ظهر معناه للناس، فالذي يشكل عليه شيء يرجع إلى أهل العلم ويسأل: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦]، وما جاء في قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فالمراد بالمتشابه هنا: تتبع الغرائب، والبحث عن ضرب القرآن بعضه ببعض، فيأتي المبطل، تقول له: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، يقول لك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]، ويكون هذا عنده من المتشابه، أما عند المسلمين فهو معنا وهو على عرشه استوى سبحانه وتعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، فافتتح

الآية بالعلم وختمها بالعلم، ثم عُلم أن الله على عرشه فكانت المعية معية علم واطلاع وإحاطة وقهر وسلطان وغير ذلك من خصائص ربوبية الله ﷻ، فالذي يهمنا أن نعلم هنا أن باب الأسماء والصفات من المحكم البين الواضح، وإذا وقع التشابه فهو تشابه نسبي يكون عند بعض الناس، أما عند جميع الأمة فلا، والذي وقع عنده الاشتباه يرجع إلى أهل العلم ويسألهم عن المعاني.

إلا إذا كان المراد التشابه في كيفية الصفات فكيفية الصفات لا يعلمها إلا الله، إذ لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى.

فالشاهد: أن ابن عباس أنكر على هذا الذي ذُكِرتْ عنده صفات الله ﷻ فتعاظم ذلك في نفسه، وإذا ذكر الجنة والنار رَقَّ قلبه. وهذا حال كثير من الناس والله المستعان، مع أن الكلام على التوحيد أكثر نفعًا وأبلغ وقعًا في قلوب أهل العلم والإيمان.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ (الرَّحْمَنَ) أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

سبب النزول ضعيف. أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٣٠،٥٣١)، وابن المنذر مرسلًا عن ابن جريج ذكره السيوطي في الدر المنثور» (٤/ ٦٥٠)، وظاهر الآية يكفي في إنكارهم لاسم الرحمن، كما قال الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] .

قَوْلُهُ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾: أي: يجحدون وحدانية الله ويكذبون بها، فمن جحد شيئًا مما ثبت لله ﷻ بالكتاب والسنة والإجماع فهو متشبه بهؤلاء الجاحدين المكذبين.

وسيأتي مزيد لهذا الباب إن شاء الله.

والاهتمام بهذا الباب من مهمات الدين فهو أحد أركان الإيمان بالله ﷻ وقد خالف فيه طوائف كثيرة من أهل البدع والإلحاد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

***

٤٠ - باب قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قَوْلُهُ (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣]): هذا بيان من الله عز و جل لحال الكفار، ومن شابههم ممن يعرف نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه ثم يضيفها إلى غيره، وكان الواجب عليه حمد الله تعالى عليها، وشكره ليزيدها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي الآية التحذير من مشابهة الكفار.

قَوْلُهُ (نِعْمَةَ اللهِ): هي المساكن والأنعام، وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، وغير ذلك من النعم، فقوله (نِعْمَةَ) نكرة مضافة فتفيد العموم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠،٨١] فيعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه.

قَالَ مُجَاهِدُ مَا مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي

قَوْلُهُ (قَالَ مُجَاهِدُ): مجاهد هو ابن جبر المكي المفسر، تلميذ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، أُوقِفُهُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ،

أَسْأَلُهُ فِيمَا نَزَلَتْ، وَكَيْفَ كَانَتْ؟[١]، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ، فَحَسْبُكَ بِهِ؛ والأثر أخرجه ابن جرير في التفسير» (١/ ٨٥).

قَوْلُهُ (هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ): بل والمرأة، وإنما ذكره على التغليب.

وقَوْلُهُ (هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي): هذا مثل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩]، وصواب العبارة هنا أن يقول: هذا مال رزقنيه الله من آبائي.. ونحوه.

وفي هذا وجوب إضافة النعمة إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ٦٩]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الاعراف: ٧٤].

فينبغي للإنسان أن يضيف النعمة إلى الله ﷻ، فهو خالقها ومسديها ومعطيها ومموليها، وما أحسن ما قاله الشافعي:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةٌ ... عَلَيَّ وَفِي أَمْثَالِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

يعني: إذا كان شكري لنعمة الله عبادة، فهي نعمة ويجب علي أن أشكر الله ﷻ على أن يسرني لشكره على ما أعطاني، فيشكر الله على ما أنعم، ويشكر الله ﷻ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١٠٥).

على أن وفقك لشكره، فالأمر أمره، قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1]، وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَل رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[2].

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لَهُمْ: «أَتُحِبُّونَ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[3]، حتى قيل:

وَخَيْرُ مَا يَدَّخِرُ الإِنْسَانُ فِي ... دُنْيَاهُ كَيْمَا يَسْتَقِيم دِيْنَهُ
قَلبًا شَكُورًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا ... وِزُوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعِيْنَهُ

فالله عز وجل أنكر على الكفار الذين يعرفون نعمة الله ويضيفونها إلى غيره، فهو الذي أنعم عليهم بالمساكن، والمراكب، والزوجات والأموال، ففي مسلم (٢٩٨٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يلقي الله العبد يوم القيامة فيقول: «أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى...» الحديث، ثم بعد ذلك ينكرونها ويضيفونها إلى غير الله عز وجل.

فإذا أضيفت النعمة إلى غير الله عز وجل، على أنه موجدها، فهذا كفر أكبر مخرج من الملة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦٣٥٧)، والبزار (٢٠٧٥) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي...» والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٢٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) ، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٣١) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٨٣٨) وأحمد (٧٩٨٢).

وإذا أضيفت إلى غير الله ﷿ لا على أنه موجدها ولكن سببها، فإن كـان سـببًا شرعيًا فلا بأس، كما قال رسول الله ﷺ، لما سُئل عن عمه أبي طالب: «هُـوَ فِـي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِـنَ النَّـارِ»، أخرجـه مسـلم (٦٥٦٤) عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، وإن كان سـببًا غيـر شـرعي فهـذا شرك لفظي أصغر، وإنما تقول: هذا من الله ثم فلان.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: يَقُولُونَ: لَوْلا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا وَكَذَا.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِـهَتِنَا.

قَوْلُهُ (وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ): هو ابن عتبة بن مسعود، ثقة، عابد.

قَوْلُهُ (يَقُولُونَ: لَوْلا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا وَكَذَا): الأثر أخرجه ابن جرير (١٤/ ٣٢٦)، وفيه ليث بن أبي سليم، ومعناه صحيح، على ما تقدم.

قَوْلُهُ (وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ): هو الإمام محمد بن قتيبة الدينوري، صاحب التصانيف الكثيرة.

قَوْلُهُ (يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا): وقد ذكر القول ابن جرير، ولم يعزه إلى قائل، وذكره ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن» (٢٤٨).

يعني: إذا نزل المطر، قالوا: هذا بشفاعة آلهتنا؛ وذلك لأنهم قبل أن يذهبوا للتكسب يمرون على الأصنام، فيتمسحون بها، ويدعونها ويرجونها ويسألونها، فإذا ما وقع لهم الرزق، قالوا: هذا بفضل إلهنا ومعبودنا الصنم على لسانهم، كما يفعل عباد القبور الآن، إذا ذهب للتكسب أو الترزق ربما على قبر ابن علوان أو العيدروس أو البدوي أو الحسين أو غيرها من القبور، يدعوهم ويسألهم ويرجوهم، ويسترزقهم، فإذا حصل له الرزق ظن أنه منهم.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ: بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بن خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الحدِيثُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيْبَةً، وَالمَلاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ. انتهى.

قَوْلُهُ (وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ): وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَوْلُهُ (بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ): وهو الجهني.

قَوْلُهُ (أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الحدِيثُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ): في باب من الشرك من قال: مطرنا بنوء كذا.

قَوْلُهُ (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ): أي: أن الأدلة التي فيها ذم هذا الصنف كثيرة سواء من القرآن، أو السنة الصحيحة، كما رأيت.

ومنها: حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي (٢٨٦٣)، أن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي

بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ المَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟...» الحديث، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وقوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيْبَةً، وَالمَلاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ. انتهى): قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ومنها: قولهم: لولا الكلب لفسد الزرع، ولولا أنت لكان كذا، فالواجب إضافة النعم إلى الله ﷻ، ونعمه تعالى ظاهرة وباطنة، وأعظمها على الإطلاق نعمة الإسلام والسنة ولذلك أضاف الله ﷻ هذه النعمة إليه، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] إذ بها صلاح الدنيا والآخرة والظاهر والباطن وفي الدعاء المأثور: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»(١).

***

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٩)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

٤١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

مناسبة الباب لما سبق: أن إضافة النعمة إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ، هي من اتخاذ الند لله عَزَّ وَجَلَّ، وحكمها: على ما تقدم تفضيله، ومما يدل على ذلك أن الله تعالى عدَّد نعمه على عباده فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ثم أتي بالفاء، فكان المعنى فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادًا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، (ولا) ناهية، مفيدة للعموم، فلا يجعل له ندًا في ألوهيته أو ربوبيته، أو أسمائه وصفاته.

و(جعل) هنا بمعنى: صيَّر، فمن صرف العبادة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد اتخذه ندًا، سماه صنمًا، أو وليًا، أو قبرًا، أو مشهدًا، والند: هو المثيل والنظير، والشريك والشبيه.

قوله (وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ): يعني: وأنتم تعلمون أن الله هو خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم وبيده الأمر، فكما أنكم تعترفون لله بالربوبية، فلا يجوز أن تصرفوا العبادة لغيره.

وفي أثر ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند ابن أبي حاتم في تفسيره» (٢٣١): أَيْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الْحَقُّ لَا يُشَكُّ فِيهِ. اهـ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنَّ تَقُولُ: وَاللَّهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولُ: لَوْلا كُلَيْبَةُ هَذَا لأتَانَا اللُّصُوصُ. وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأتَانَا اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. وَقَوْلُ الرَّجُلُ: لَوْلا اللَّهُ وَفُلانٍ. لا تَجْعَلُ فِيهَا فَلانًا؛ هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

أخرجه ابن أبي حاتم رقم (٢٢٩). وفيه شبيب بن بشر البجلي، قال البخاري: منكر الحديث، وقد حسنه الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيقه على ابن كثير. والمعاني التي ذكرها هنا صحيحة.

قَوْلُهُ (الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ): فالأنداد أن تجعل لله ندًا، نظيرًا أو مثيلًا، أو شريكًا، سواء في الخلق، أو الخوف، أو الرجاء أو المحبة، أو غير ذلك من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] يستدل بها أيضًا في الرد على الممثلة والمعطلة، فلا تجعلوا لله أندادًا في أسمائه وصفاته، وأفعاله وألوهيته، تعالى الله عن قول الكافرين علوًا كبيرًا.

قَوْلُهُ (أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلُ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ): أي الشرك الخفي الذي هو في الغالب الأصغر أخفى من مشي النملة السوداء في الليلة المظلمة على الصخرة الصماء وهذا النوع قد لا يتفطن له إلا خُلص الموحدين. وقد تقدم حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في أول الكتاب وفيه، أنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» متفق عليه.

قَوْلُهُ (وَهُوَ أَنَّ تَقُولَ: وَاللَّهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلانُ، وَحَيَاتِي...): إلى آخره وهذا من الشرك اللفظي وقد تقد بيان حكم الحلف بغير الله تعالى، وهكذا التفصيل في حكم إضافة النعمة إلى غيره تعالى.

وقَوْلُهُ (مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ): قد جاء النهي عنه؛ لأنه لفظ يقتضي التشريك مع الله حيث عطفه بالواو. وفي حديث عائشة رضي الله عنها، أن عمها الطُّفَيْلُ بْنُ سَخْبَرَةَ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللَّهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ النَّصَارَى، فَقَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قَالَ عَفَّانُ: قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا صَلَّوْا، خَطَبَهُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا فَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ، أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا» ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ»، أخرجه أحمد (٢٠٦٩٤)، وهكذا حديث قُتَيْلَةَ، امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ، وفيه: أَنَّ يَهُودِيًّا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ»(١).

مَا شِئْتَ كَانَ وإنْ لَمْ أشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشَأْ لَمْ يكُنْ

وقبل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]،

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٦٩٦، ١٠٧٥٦) وأحمد (٢٧٠٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨١٥)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٢٧) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١].

قَوْلُهُ (هَذَا كَلُّهُ بِهِ شِرْكٌ): أي: أن حكمه دائر بين الشرك الأكبر والأصغر على ما في قلب العبد.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

هو حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكأن المصنف وهم، أو أنه سبق قلم، والحديث من طريق سعد بن عبيدة، ولم يسمعه من ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مع أنه سمع من ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا غير هذا الحديث، ومع ذلك للحديث شواهد يحسن بها، فالحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ شرك، والأصل فيه أنه من الشرك الأصغر، إلا إذا اقترن بتعظيم المحلوف به، اعتقاد أنه مساوٍ لله في التعظيم والعظمة، فإنه يكون شركًا أكبر، وقد قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ» أخرجه أحمد (٢٢٩٨٠) عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحاكم في المستدرك» (٧٨١٦)، وقال النبي ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ»[١]، وقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[٢]، وقد ألفتُ بحمد الله تعالى في هذا الباب كتابًا بعنوان: التبيان بأحكام الأيمان».

وذكر شيخ الإسلام أن أيمان المسلمين ستة، والصحيح: أنه يمين واحد، وهو الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ فلا ينعقد من الأيمان إلا هو، أما من حلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ فلا ينعقد يمينه، ويجب عليه التوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن حلف بغير الله معظمًا له كتعظيمه لله، أو أكثر من تعظيمه لله، فهو كافر كفرًا أكبر مخرج من الملة، والعجب أن كثيرًا من عباد القبور ومعظميها إذا استحلفته بالله حلف، وإذا استُحلف بمعبوده

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، وهو في «الصحيح المسند»(٢/ ١٠٧-١٠٨) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومربوبه ارتعد وانزجر.

واختلف العلماء: إذا كان الحالف لا يعظم الله ﷻ، ويعظم صاحب القبر، هل تستحلفه بصاحب القبر أم تستحلفه بالله، والصحيح الذي لا يجوز أن يقال غيره: أنه يُحَلَّف بالله العظيم، وإذا حَلَفه القاضي بغير الله، فيجب عزل هذا القاضي كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله؛ لأن الحلف بغير الله شرك، ولا يجوز الإعانة على الشرك.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ): في "**جامعه**" في أبواب النذر والأيمان بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ (١٥٣٥) وقال عقبه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَفُسِّرَ هَذَا الحَدِيثُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ: «أَنَّ قَوْلَهُ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» عَلَى التَّغْلِيظِ، وَالحُجَّةُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ عُمَرَ يَقُولُ: وَأَبِي وَأَبِي، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ، وَالعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: هَذَا مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرِّيَاءَ شِرْكٌ» وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الآيَةَ، قَالَ: لَا يُرَائِي. انتهى.

قَوْلُهُ (وَحَسَّنَهُ): أي: حكم عليه بالحسن، وهي درجة دون الصحيح، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في النخبة»: فَإِنْ خَفَّ الضَّبْطُ فَالْحَسَنُ لِذَاتِهِ. اهـ.

قَوْلُهُ (الحَاكِمُ): أي في المستدرك على الصحيحين» (٤/ ٣٣٠).

وقولنا: إن اليمين بالله هي التي تنعقد لقول الله ﷻ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، واللغو هو قول الرجل: كلا والله وبلى والله، لا يريد اليمين، وإنما هو كلام يصدر على ألسنة العرب، فإذا عقد اليمين بقلبه، فحنث وجبت عليه الكفارة، وتمضي عليه

الأحكام الخمسة، فقد يجب الحنث، وقد يستحب، وقد يكره، وقد يحرم، وقد يباح، فإذا حلف بالله ﷻ لا يزور أباه، فهنا يجب عليه أن يحنث، ويكفر عن يمينه، وإذا حلف على ترك مستحب، مثلًا قال: والله ما أصلي الضحى، يستحب له أن يكفر عن يمينه ويصلي الضحى، وإذا حلف على أمر مكروه أنه يفعله، يكره أن يكفر عن يمينه، وإذا حلف على أمر محرم أن يفعله، يحرم أن يحنث، مثلًا قال: والله لأزنين بفلانة، يحرم عليه أن يحنث في اليمين، ولا يجوز له ذلك، والمباح كأن يقول: والله ما آكل هذه التفاحة، شأنه، إن أحب أن يكفر ويأكلها أكل، وإن أحب ألا يفعل ترك، قال النبي ﷺ: «وَاللَّهِ، لَأَنْ يَلِجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ» متفق عليه[1] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، والحديث في الرجل الذي يحلف على قطيعة أرحامه، وهجر صديقه، كأن يقول: أنا قد حلفت، فولوجه في اليمين واستمراره على اليمين آثم من أن يعطي الكفارة ويصل أرحامه وصديقه، وذلك لما في القطيعة من التهاجر والتقاطع والتدابر.

***

(١) البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم (١٦٥٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: لأنْ أَحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا

الأثر في «**مصنف عبد الرزاق**» (١٥٩٢٩)، ولم يقل عن ابن مسعود، وإنما عن عبد الله، فإن كان عبد الله بن عمر، فالأثر صحيح، فإنه من رواية وبرة عن ابن عمر، ووبرة هو ابن عبد الرحمن سمع من ابن عمر وحديثه عنه في الصحيحين».

ووجه هذا الأثر: أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من كبائر الذنوب، والحلف بغير الله صادقًا شرك، والشرك أكبر الكبائر.

ثم إن الحلف بغير الله ﷻ كاذبًا يمين غموس، واليمين تنقسم إلى قسمين:

الأول: يمين إنشاء: وهي أن تقول: والله ما أفعل على أمر مستقبل، فهذه اليمين مكفرة على ما هو معلوم في أحكام الأيمان.

والثاني: يمين إخبار فإن كنتَ كاذبًا كفارتها التوبة، وهي اليمين الغموس التي أخبر النبي ﷺ أنها تدع الديار بلاقع، وجاء في حديث أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ[١]، وفي بعضها: «وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»[٢]، وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عند البخاري (٦٦٧٥) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ».

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٤،٦٢٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٧٥)، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه): هو ابن اليمان بن حسل، صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب سره.

(لا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلانٌ): والنهي يقتضي التحريم، وعلة النهي التشريك بين الله والمذكور معه.

قَوْلُهُ (وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ): إذا أن العطف بثم يقتضي المغايرة.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ): في "**السنن**" (٤٩٨٠)، وهذا الحديث معل بسبب الانقطاع بين عبد الله بن يسار وحذيفة، وقد تقدمت شواهده.

وفي الحديث ما عليه رسول الله ﷺ من تصحيح الألفاظ، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إثبات مشيئة الله عز وجل النافذة، وإثبات مشيئة العبد، وهذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن العبد لا مشيئة له، بل هو كالريشة في مهب الريح.

وفي الحديث: ما عليه هذا الدين من الشمول؛ حيث نهاهم عن لفظ، وبين لهم المباح من الألفاظ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعَيِّ: أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلا اللهُ ثُمَّ فُلانٌ؛ وَلا تَقُولُوا وَلَوْلا اللهُ وَفُلانٌ.

قَوْلُهُ (و إِبْرَاهِيمُ النَّخَعَيِّ): وهو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي، ثقة إلا أنه يرسل كثيرًا.

والأثر أخرجه معمر في «**جامعه**» (١٩٨١١)، وابن أبي الدنيا (٣٤٤)، وفي سنده إسماعيل بن إبراهيم التيمي ضعيف، لكن المعنى صحيح على ما تقدم بيانه.

قَوْلُهُ (أَنَّهُ يَكْرَهُ): والكراهة عند السلف تطلق على التحريم.

قَوْلُهُ (أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ): لما تقدم من أن الواو تقتضي المشاركة.

قَوْلُهُ (وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ): لما تقدم من أنَّ ثم تدل على التراخي والمغايرة.

فالاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر، وهي محرمة، وأما الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر فجائزة على ما تقدم، لكن عطف الاستعاذة بالمخلوق على الاستعاذة بالله بحرف الواو تقتضي المساواة فتجتنب سدًا لذرائع الشرك وصيانة للتوحيد، وبالله التوفيق.

***

٤٢ - بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ): أي: من التغليظ والوعيد، قال العلماء: والذي يُحْلَف له بالله ﷻ ولا يقبل عنده قصور في تعظيم جانب الربوبية لله تعالى، وقد «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: سَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَقَالَ: عِيسَى آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ نَفْسِي»[(١)]، قال ابن الجوزي في كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ٤٩٩): فَإِن قَالَ قَائِل: أَعلَى الْيَقِين الْمُشَاهدَة، فَكيف يكذب وَيقدم قَول زاعم؟ فَالْجَوَاب: من وَجْهَيْن:

أَحدهمَا: أَن النَّاظر إِلَى الشَّيْء قد لَا يتثبت فِي نظره فَلَا يحصل لَهُ الْيَقِين.

وَالثَّانِي: أَن يكون هَذَا من المعاريض، وَيكون تَقْدِيره: كذبت عَيْني فِي غير هَذَا. انتهى.

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الفتح**» (٦/ ٤٨٩): قَالَ ابْنُ التِّينِ: قَالَ عِيسَى ذَلِكَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي تَصْدِيقِ الْحَالِفِ.اهـ.

والنبي ﷺ كان يأتيه المنافقون يحلفون له بالله على الكذب، فيقبل منهم على ظاهرهم تعظيمًا للمحلوف به، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

فإذا حلف بالله فاقبل، إلا إذا كان لديك شهود يردون هذا اليمين، وإلا فإن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النبي ﷺ قضى بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر[١]، وإذا كان للمـدعي شاهد واحد «فإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بِيَمِينٍ وَشَاهِدٍ»[٢]، أما الدماء فلابد من شاهدين عدلين من غير النساء، وفي الزنا أربعة من الشهود الـذكور الأحـرار عـلى مـا هـو معلوم ومقرر في موطنه، وباب الشهادات والأيمان باب عظيم تحفظ به الحقوق وتؤكد به الأمور وله فقه عظيم يعرف في موطنة.

***

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٤)، ومسلم (١٧١١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم (١٧١٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ؛ مَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيُصَدِّقْ؛ وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ؛ وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

الحديث رواه ابن ماجه (٢١٠١) من طريق مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورواية ابن عجلان عن نافع مضطربة، قاله يحيى بن معين. ومع ذلك لألفاظه شواهد.

فقوله ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» فيه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "**الصحيحين**"[(١)]: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ»، ومن حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (١٦٤٨) «لَا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي، وَلَا بِآبَائِكُمْ».

قَوْلُهُ (مَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيُصَدِّقْ): تعظيمًا للمحلوف به، **وقولُهُ: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ):** عملًا بالشرع لما تقدم واليمين على من أنكر.

ومنها: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[(٢)]، وما تقدم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى رجلًا يسرق.

وكفارة الحلف كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ

---

(١) البخاري (٧٤٠١)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، وهو في «الصحيح المسند»(٢/ ١٠٧-١٠٨) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد تقدم.

أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، فهو بالخيار في الثلاثة فإن عجز ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وهل يشترط فيهن التتابع أم لا؟ الذي يظهر أنه يستحب لقراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ثلاثة أيام متتابعات) ومن صامهن متفرقات صح صيامه.

والشاهد من حديث الباب **قوله: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)** لأن هذا يدل على تعظيم الربوبية، إلا إذا كان يعلم منه الكذب، فله أن يرد، وإن قبل على ظاهره فهو أحسن.

وقوله: (وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ): دليل على أن عدم الرضا كبيرة من الكبائر قال الشوكاني في نيل الأوطار» (٨/ ٣٥٧): وَهَذَا أَمْرٌ مِنْهُ ﷺ بِالرِّضَا لِمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ، وَوَعِيدٌ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ اللَّهِ. اهـ.

فما أحسن تعظيم هذا الباب في قلوب أهله، إذ أن الله عز وجل لا يضيع من رضي به ففي الحديث «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[1]، وفي رواية لمسلم (١٣٩) «أَمَا لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا، لَيَلْقَيَنَّ اللهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه .

وهذا باب ضيعه الناس لا سيما في عصرنا مع اندراس العلم وظهور الجهل فقل تعظيم هذا الباب عند الحالف والمحلوف له وقد كان السلف رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يضربون على الأيمان والشهادة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

***

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (١٣٨).

٤٣ – بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ.

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ): أي من النهي وقد تقدم معنا أن هذا من الشرك اللفظي وينبغي اجتنابه، ويضاف الأمر إلى الله عز وجل؛ لأن مشيئة الله نافذة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ولا يعطف على مشيئة الله بحرف الواو أو الفاء لما تدل عليه من المساواة بين المعطوف والمعطوف عليه، لكن إن كان ولابد فيأتي بـ(ثم) التي تدل على التراخي والمغايرة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ قُتَيْلَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ **(عَنْ قُتَيْلَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا):** هي بنت صيفي الأنصارية، أو الجهنية صحابية من المهاجرات، لها حديث، قاله الحافظ في «**التقريب**» (٨٦٦٢).

والحديث في «**الصحيح المسند**»(٢/ ٢٧) للشيخ مقبل رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وله شواهد، منها**:** حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الذي روته في قصة الطفيل بن سخبرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد تقدم.

قَوْلُهُ (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ): فيه ما عليه اليهود من معرفة الحق وكفرهم به قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

قَوْلُهُ (فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ): أي منكم من يتلفظ به، وذلك لما عُلم من ملازمة الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لتوحيد الله وطاعته، وكانوا في هذا معذورين، ولعله لم ينزل وحي على رسول الله ﷺ ينهى عن ذلك.

قَوْلُهُ (تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ): وهذا من الشرك الأصغر على تفصيل سبق.

قَوْلُـهُ (وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةَ): الكعبة هي بيت الله المعظم وهي قبلة المسلمين، ولكن لا يحمل تعظيمها على أن تُشَرَّكْ مع الله.

وفيه: أن الحلف بغير الله ﷻ شرك، وإن كان صاحبه لا يقصد به حقيقة التعظيم، أي: كتعظيم الله ﷻ، لكن هذا الأمر خاص بالله، فالواو والتاء والباء لا يجوز إدخالها للقسم إلا على أسماء الله الحسنى، أو مع الإضافة كـ«وَرَبُّ الكَعْبَةِ»، وَرَبُّ مُحَمَّدٍ»، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»، لاَ وَمُقَلِّب القُلُوبِ»... وهكذا.

قَوْلُهُ (فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا) فيه سرعة مبادرة رسول الله ﷺ بتعليم أمته، وفيه أن الشرع هو ما جاء من قبله ﷺ.

قَوْلُـهُ (أَنْ يَقُولُوا: وَرَبُّ الْكَعْبَةِ) أي علمهم اللفظ الصحيح وهو (وَرَبُّ الْكَعْبَةِ)، وفيه ما جعله الله من رفع الحرج بالألفاظ الشرعية.

قَوْلُهُ (وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ) لما تقدم من البيان.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ): أي في سننه» (٤٦٩٦، ١٠٧٥٦) والنسائي، هو أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، صاحب السنن.

وفي الحديث من الفوائد: إضافة المشيئة إلى الله ﷻ؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئة الله نافذة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفيه أخذ الحق ولو من غير أهله، فالنبي ﷺ أخذ ما قال به اليهودي، ويدل على ذلك أيضًا حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، الذي علقه البخاري (٢٣١١) وفيه: قال: «ما فعل صاحبك يا أبا هريرة؟» قال: يا رسول الله! زعم أنه لن يعود، قال: بلى سيعود»، وفي الليلة الثالثة، قال: إني أعلمك آية إذا قرأتها لا يقربك شيطان حتى تصبح: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقال النبي ﷺ: أَمَا

إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، لكن يأخذ به إذا عُلم أنه حق، لا كما يقول المبتدعة: يجوز أخذ العلم من المخالفين؛ لأن الصحابي أخذ العلم من الشيطان، فالجواب أن الصحابي أخذ العلم بإقرار النبي ﷺ، فإذا عُلم أن هذا الكلام الذي قاله المخالف عليه أدلة الكتاب والسنة وجب الأخذ به.

وفيه: أن اليهود كانوا يعرفون الحق في كثير من المسائل، لكنهم يعاندون كبرًا وحسدًا وبغيًا، قال رسول الله ﷺ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»[1]، قال الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال الله ﷻ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وفيه: أن قول: ما شاء الله وشئت من الشرك اللفظي، إلا إذا جعل مشيئة العبد كمشيئة الله ﷻ، أو شَرَّك مشيئة العبد بمشيئة الله ﷻ فيجعلها نافذة، فيصير شركًا أكبر.

وفيه: أن الناس قد يتكلمون بكلام لا يتبينون معناه، فإذا تبين لهم المعنى الفاسد تركوه، فكان الصحابة ينطقون ما تقدم ذكره على أن ليس فيه محذور، وما أكثر الكلمات التي هذا حالها في هذا الزمان، ومن هذا الباب ألفتُ كتاب «المصطلحات العصرية وأثرها على الشريعة الإسلامية».

وفيه: حث النبي ﷺ أمته على مكارم الأخلاق، إذ أن الخلق الحسن إنما حسنه بالتوحيد والطاعة لله ﷻ.

وفيه: مسارعة النبي ﷺ لدلالة أمته على كل خير، كما في حديث عَبْدُ اللهِ بْنُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٥٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(١٥٨٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»(١).

وفيه: حرص النبي ﷺ على هداية الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفيه: أن أمر النبي ﷺ للوجوب حتى تأتي قرينة تصرفه إلى الاستحباب، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وفيه: أنك إذا نَهيتَ عن الشر فأرشدْ إلى غيره من الحق.

وفيه: أن الإضافة في قوله: (وَرَبُّ الْكَعْبَةِ) إضافة تشريف، فالكعبة مشرفة، وليس من باب الصفات على ما يأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيه: أن إدخال حرف العطف «ثم» يمنع المشاركة ويدل على المغايرة، ولهذا قال لهم النبي ﷺ: «قولوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ».

وفيه: وجوب ضبط الألفاظ حتى تكون موافقة للشرع، وفيه رد على القدرية إذ أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه رد على الجبرية فإن للعبد مشيئة.

وفيه: دلالة صريحة على العذر بالجهل، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ورسول الله ﷺ لم يؤاخذهم بما كانوا يقولونه زمن جهلهم بهذا الحكم، إلى غير ذلك من الفوائد والعلوم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلا قَالَ لِلنَّبي ﷺ: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

قَوْلُهُ (وَلَهُ أَيْضًا): أي: للنسائي في "**الكبرى**" (١٠٧٥٩).

قَوْلُهُ (أَنَّ رَجُلا): هكذا جاء مبهما والإبهام في المتن لا يضر، وحتى لو كان في السند وهو من الصحابة فجهالة اسمه لا تضر لأن الصحابة كلهم عدول.

قَوْلُهُ (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ): في الحديث على ما تقدم بيانه؛ وجوب إنكار المنكر، وفيه: أن الحلف بالمخلوق يصيره ندًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه النهي عن الشرك اللفظي، وإن لم يعتقده صاحبه، وفيه أن الأمر لله وحده، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي هذا الحديث رد على كثير من المبطلين بقول: أنا ما أقصد ونيتي سليمة إلى غير ذلك، وفيه رد على من قَسَّمَ الدين إلى قشور ولباب فقد قوم رَسُول اللَّهِ ﷺ من خالف الدليل قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا، وفيه جواز الإغلاظ في الإنكار إذا استدعى ذلك، وفيه أن رَسُول اللَّهِ ﷺ ليس له من خصائص الألوهية شيء بل هو بشر، وفيه النهي عن الغلو.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلابْنِ مَاجَه عَنِ الطُّفَيْلِ -أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُم الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنْتُم الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُم الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنْتُم الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

قَوْلُهُ (وَلابْنِ مَاجَه): في "سننه" (٢١١٨).

قَوْلُهُ (عَنِ الطُّفَيْلِ -أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا-): أي من أم رومان زوجة أبي بكر إذ كانت تحت عبد اللَّه بن الحارث بن سخبرة حيث قدم مكّة فحالف أبا بكر فمات فخلفه أبو بكر بعده على أم رومان.

قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمِ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ» فيه: أن اليهود لديهم بعض الحق، ولديهم كثير من الباطل والكفر، فقولهم: (عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) هذا كفر، قال الله ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قَوْلُهُ (قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنْتُمِ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ) أي أنكروا عليه بنفس إنكاره.

قَوْلُهُ (ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى): ولا يقال لهم المسيحيون؛ لأن النصارى يكرهون هذه التسمية، ويضيفون أنفسهم إلى المسيح، والصحيح أنهم نصارى وليسوا بمسيحين، وهذه التسمية سماهم الله بها، فنحن نطلقها عليهم، وتجد القرضاوي يتحرج أن يسميهم نصارى أو كفارًا، وإنما يقول: إخواننا المسيحيين! كما في كتابه نحن والغرب، وغيرها من الكتب وقد بينت ما في قوله من الضلال في كتابي الزجر والبيان على دعاة الحوار والتقارب بين الأديان».

قَوْلُهُ (فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُم الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ): فيه رد على النصارى الذين يألهون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو عبد من عبيد الله، كما قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقد تقدم الحديث، وفيه: (وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ).

قَوْلُهُ (قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنْتُمِ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ): فتوافق قول اليهود والنصارى على الإنكار على المسلمين، لهذا اللفظ.

قَوْلُهُ (فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ): وفي هذا من الفوائد: الإخبار بالرؤية الصالحة، وكان النبي ﷺ إذا صلى الصبح أقبل على الناس: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟»، كما صح عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصحيحين»[١].

وفيه: أن الرؤيا لا تقام عليها أحكام، لكن يستفاد منها بشارة أو نذارة، فعَنِ

---

(١) البخاري (١٣٨٦)، ومسلم (٢٢٧٥).

ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ...»(١)، والرؤيا علم يحتاج إلى عالم لتفسيرها، ولا ينبغي أن يقال فيها بغير علم؛ لأنها جزء من وحي الله، قال ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٢)، وفي رواية: مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٣)، وهذا يدل على أن منزلتها عظيمة، يأتي بها الملك إلى المؤمن يأخذ منها إيحاءات وإشارات إلى أمور ستقع، وربما تكون على ظاهرها، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا، وفي آخر الزمان قال النبي ﷺ: «لَا تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ»(٤)، وكان مبدأ وحي النبي ﷺ الرؤيا الصالحة، وأما الحلم فهو من الشيطان وهو تهاويل، ويكون للتخويف وغير ذلك.

ولها أحكام ذكرت بعضها في آخر كتاب أحكام النوم في الكتاب والسنة».
ولما ألفته كنت أظن أن أحكام النوم قليلة، فإذا به تضمن أحكام النوم في الطهارة، والحيض، والصلاة، والحج، والصيام.. إلى غير ذلك، وأحكام متعلقة بالأدعية والأذكار، فكان بحمد الله في مجلد متوسط.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ): فيه مبادرة الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إلى رسول الله ﷺ فيما أشكل عليهم.

قَوْلُهُ: (قَالَ: هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ): ومن آداب الرؤيا ألا يخبر بها إلا من يُحَب إذا كان الرائي متخوفًا منها؛ لأنه قد يفسرها على أحسن الأوجه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا لفظ مسلم (٤٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٦٥) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه الإمام أحمد (٧٦٤٢)، أخرجه الترمذي (٢٢٩١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعضهم لا يُفسر إلا على أسوئها، فالرؤيا يختلف تفسيرها من شخص إلى شخص ومن زمن إلى آخر، فلهذا كان علم الرؤيا أصعب من بقية العلوم، لو جاء يستفتيك في الطلاق فأدلته موجودة، أما الرؤيا فأنها تختلف من رجل إلى رجل، قال: رأيت أني أؤذن، قال: تسرق، قال: رأيت أني أؤذن قال: تحج، فالرؤيا واحدة، لكن في حق الطائع حج، وفي حق العاصي سرقة، من باب قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، ولكن لا يتوسع فيها حتى تقام بها الأحكام كما يصنع الصوفية برؤيا الشيخ أحمد مؤذن الحرم المدني ولا يعرف أحمد هذا من هو، وفي مرة من المرات كنت راكبًا في السيارة، وأعطاني شخص أوراقًا، وقال: إذا وزعت منها عشرين ورقة تكسب كذا وكذا من الأجر وكذا كذا من الأموال، وإذا قطعتها أو لم تصدقها أصابك كذا، قلت: وها أنا أقطعها أمامك يصيبني ما أصابني، وما وقع إلا الخير، سافرنا نحن وهو في سيارة من صعدة إلى صنعاء، وقد رد على هذه الرؤيا الإمام ابن باز، ومع ذلك مازالت تظهر من وقت إلى آخر في بعض المناطق.

قَوْلُهُ (فَحَمِدَ اللهَ): والحمد: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، وإجلاله، وقد تكلمت عن أحكامها في مقدمة كتاب شرحي على السنة للبربهاري»، والنبي ﷺ حمد الله، واعتبر هذه الرؤيا بشارة؛ لأنها دلالة على خير، ونذارة من شر؛ دلالة على التوحيد، وهو قول: ما شاء الله وحده، وتحذير ونذارة من الشرك، وهو قول: ما شاء الله وشئت.

قَوْلُهُ (ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ): فيه: أن المواعظ تفتتح بالحمد والثناء، ثم بعد ذلك يؤتى بـ(أما بعد)، وأحسن ما تفتتح به الخطب والمواعظ خطبة الحاجة، التي تضمنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كان النبي ﷺ يعلمهم إياها كما يعلمهم السورة من القرآن ولفظه: أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَوَامِعَ الْخَيْرِ، وَخَوَاتِمَهُ، أَوْ قَالَ: فَوَاتِحَ الْخَيْرِ، فَعَلَّمَنَا خُطْبَةَ الصَّلَاةِ، وَخُطْبَةَ الْحَاجَةِ، خُطْبَةُ

الصَّلَاةِ: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، وَخُطْبَةُ الْحَاجَةِ: «أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ تَصِلُ خُطْبَتَكَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٧١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»[١]، وقد صح عن النبي ﷺ غير ذلك، ويجزئ بأي حمد وثناء.

قَوْلُهُ (فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا): فيها إضافة العلم إلى من قاله ونقله.

قَوْلُهُ (أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ولكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ): قد يقول قائل: لماذا أخر النبي ﷺ البيان إلى هذا الوقت؟ لعله لم يوح إليه أنه شرك قبل ذلك، أو غير ذلك من المعاني الله أعلم، وإلا فإن النبي ﷺ لا يؤخر البيان عن وقته.

وقَوْلُهُ: كما في بعض الروايات، (يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ)[٢]: فليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن الحياء من أن ينهى عن شيء لم يأمره الله ﷻ أن ينهى عنه.

وفيه: عدم المؤاخذة إلا بعد العلم، وأما الجاهل فلا يؤاخذ على ما تقدم

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٢) واللفظ له، وأحمد (٣٧٢١)، وأبو داود (١١٠٥)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٢٠) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٩٤) عَنْ طُفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ رضي الله عنه.

بيانه من وجوب العذر بالجهل.

وفيه: منزلة الإيمان بالقدر، وأن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ نافذة وأن المخلوقات مهما كانت فهي عاجزة مقهورة مربوبة من ربها تعالى.

***

٤٤- بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

قَوْلُهُ (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ): أي ما حكمه، وبيان علة النهي عن ذلك؛ فالله ﷻ هو المتصرف في الدهر، المالك والخالق له.

وكان في اعتقاد الكفار أنَّ الدهر هو الذي يفني، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فمن زعم أن الدهر أو الطبيعة هي الخالقة المدبرة لهذا العالم فقد كفر، قال ابن بطال في شرح البخاري» (٩/ ٣٣٧): قال الخطابي: كان أهل الجاهلية يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر الذى هو مر الليل والنهار، وهم في ذلك فريقان، فرقة لا تؤمن بالله ولا تعرف إلا الدهر الليل والنهار اللذين هما محل للحوادث وظرف لمساقط الأقدار، فنسبت المكارة إليه على أنها من فعله، ولا ترى أن لها مدبرًا غيره وهذه الفرقة هي الدهرية التي حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

وفرقة ثانية: تعرف الخالق فتنزهه أن تنسب إليه المكارة فتضيفها إلى الدهر والزمان، وعلى هذين الوجهين كانوا يذمون الدهر ويسبونه، فيقول القائل منهم: ياخيبة الدهر، ويا بؤس الدهر، فقال لهم النبى عليه السلام مبطلا ذلك من مذهبهم: (لا تسبوا الدهر على أنه الدهر، فإن الله هو الدهر) يريد والله أعلم: لا تسبوا الدهر على أنه الفاعل لهذا الصنع بكم، فإن الله هو الفاعل له، فإذا سببتم الذى أنزل بكم المكارة رجع السب إلى الله وانصرف إليه. ومعنى قوله: (أنا الدهر): أنا ملك الدهر ومصرفه فحذف اختصارًا للفظ واتساعًا فى المعنى. انتهى.

وسابّ الدهر له حالات:

الأولى: من سب الدهر على أنه هو الخالق، الرازق المدبر لهذا العالم فقد كفر.

الثانية: من سب الدهر متسخطًا على قدر الله تعالى فقد ارتكب محرمًا، قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»، أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

الثالثة: من أخبر عما في الدهر من غير تسخط أو اعتراض على القدر كقوله: هذا يوم حار، وليل بارد، فهذا لا محذور فيه، فقد قال لوط عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وقالت عَائِشَةُ رضي الله عنها للنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ...»، أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

قَوْلُهُ (فَقَدْ آذَى اللهَ): لا يلزم من الأذى الضرر، فقد يسمع الإنسان القبيح ويتأذى منه ولا يضره، قال تعالى مخبرًا عن تأذيه من أفعال كثير من العباد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي مسلم (٢٨٠٤) عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عز وجل، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قَوْلُهُ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾: قال الطبري في تفسيره» (٢١/ ٩٥): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ خَبَرُهُ عَنْهُمْ: مَا حَيَاةٌ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا الَّتِي نَحْنُ فِيهَا لَا حَيَاةَ سِوَاهَا تَكْذِيبًا مِنْهُمْ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ،...

وقَوْلُهُ: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] نَمُوتُ نَحْنُ وَتَحْيَا أَبْنَاؤُنَا بَعْدَنَا، فَجَعَلُوا حَيَاةَ أَبْنَائِهِمْ بَعْدَهُمْ حَيَاةً لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ وَبَعْضُهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ بِحَيَاتِهِمْ أَحْيَاءُ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِ النَّاسِ: مَا مَاتَ مَنْ خَلَفَ ابْنًا مِثْلَ فُلَانٍ، لِأَنَّهُ بِحَيَاةِ ذِكْرِهِ بِهِ، كَأَنَّهُ حَيٌّ غَيْرُ مَيِّتٍ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: نَحْيَا وَنَمُوتُ عَلَى وَجْهِ تَقْدِيمِ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ، كَمَا يُقَالُ: قُمْتُ وَقَعَدْتُ، بِمَعْنَى: قَعَدْتُ وَقُمْتُ؛ وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْوَاوِ خَاصَّةً إِذَا أَرَادُوا الْخَبَرَ عَنْ شَيْئَيْنِ أَنَّهُمَا كَانَا أَوْ يَكُونَانِ، وَلَمْ تَقْصِدِ الْخَبَرَ عَنْ كَوْنِ أَحَدِهِمَا قَبْلَ الْآخَرِ،... قَالُوا: وَمَا يُهْلِكُنَا فَيُفْنِينَا إِلَّا مَرُّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ وَطُولُ الْعُمُرِ، إِنْكَارًا مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَبٌّ يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهَا فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ». انتهى مختصرًا.

قَوْلُهُ ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي: ليس لهم من حجة وبينة على قولهم، وإنما بنوا هذا القول الباطل على الحدس والكذب.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ بِيدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رُوَايَةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

قَوْلُهُ (وفِي الصَّحِيحِ»): أي: "**صحيح البخاري**"في كتاب التفسير بَابُ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ (٤٨٢٦) ومسلم «كتاب الألفاظ والآداب» (٢٢٤٦).

قَوْلُهُ (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ): أي يفعل ويقول ما يؤدي إلى الأذى لله تعالى، وقد تقدم أن الأذى لا يلزم منه الضرر لا سيما في حق الله تعالى.

قَوْلُهُ (يَسُبُّ الدَّهرَ): بقوله يا خيبة الدهر أو نحوه على ما تقدم.

قَوْلُهُ (وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ): أي أنا مالك الدهر والمتصرف فيه بالإحياء والإماتة ونحوها، وعُرف هذا بالسياقة فهو المقلب لليل والنهار.

وفيه: إثبات كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو كلام يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ بحرف وصوت، وأن الله يتكلم متى شاء وكيف شاء، وقد تقدم شيء من ذلك.

قَوْلُهُ (وَفِي رُوَايَةٍ: لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»): والدهر ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ لأمور:

الأول: أن اسم الدهر اسم جامد لا يتضمن صفة، وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تتضمن صفات، فاسم السميع يتضمن صفة السمع، والبصير يتضمن صفة البصر.

الثاني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أخبر أن الدهر هو الليل والنهار، وأخبر أن هنالك

مقلِّب ومقلَّب، فالمقلَّب هو الليل والنهار، والمقلِّب لليل والنهار هو الله تعـالى، فكانت هنا مغايرة تدل على أن الدهر ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذا الباب وما تقدم من الأبواب: الحرص على سـلامة الألفـاظ، وبيـان شمولية الدين لجميع الجوانب على مـا بينتـه في كتـابي "**الأدلة الرضية في بيان حقيقة الديمقراطية**".

***

٤٥ - بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةُ وَنَحْوِهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةُ وَنَحْوِهِ .

فِي «الصَّحِيحِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لا مَالِكَ إلا اللهُ». قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ. وَفِي رُوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ». قَوْلُهُ (أَخْنَعَ) يَعْنِي: أَوْضَعَ.

قَوْلُهُ (بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةُ وَنَحْوِهِ): أي: حكم ذلك، وبيان ما فيه من محظور، وقاضي القضاة: هو كملك الأملاك، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ» أخرجه مسلم (٢١٤٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أي: ذو الملك المطلق، فينبغي للإنسان أن يلاحظ الألفاظ الشرعية، ولا يُتسمى بأسماء الله المختصة به سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ (فِي «الصَّحِيحِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): يعني: في "**الصحيحين**"، البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

قَوْلُهُ (إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ): يعني: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، والسبب أن هذا تسمى بملك الأملاك، أو شاه شاه، أو قاضي القضاة، ومثله سلطان السلاطين، والظاهر والقاهر، وغير ذلك مما درج على ألسنة الناس من أجل أن يكون رفيعًا، فصار هذا الاسم أوضع اسم، وهذا من باب المعاملة بنقيض القصد، لكن يجوز له أن يتسمى بقاضي قضاة القطر اليماني، أو قاضي قضاة مصر، أو قاضي قضاة الشام، فهذا لا محذور فيه إذا جاء مقيدًا، وإنما المحذور في الإطلاق؛ لأنه بهذا الإطلاق يجعله

نفسه شريكًا مع الله فيما هو من خصائصه.

قَوْلُهُ (لا مَالِكَ إِلاَ اللهُ): أي: لا مالك حقيقة إلا الله فهو ذو الملك المطلق، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وملك غيره تعالى ملك قاصر.

قَوْلُهُ (قَالَ سُفْيَانُ): هو ابن عيينة، أبو محمد الهلالي، إمام في الحديث.

قَوْلُهُ (مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ): كلمة أعجمية، فارسية بمعنى: (مَلِكَ الْأَمْلاكِ).

قَوْلُهُ (وَفِي رُوَايَةٍ: أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»): وأغيظ من الغيظ وهو الغضب.

قَوْلُهُ (أَخْنَعَ: يَعْنِي: أَوْضَعَ): على ما تقدم بيانه؛ من أنه يجب مراعاة الألفاظ الشرعية، وعدم التسمي بما هو من خصائص الله، أو حتى ما في إطلاقه خصيصة من خصائص الله، فإنهم لما قالوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[(١)]، ولما سمع الجارية تقول: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ»[(٢)].

وعَنِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، أَنَّهُ نَادَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَمَا حَدَّثَ أَبُو سَلَمَةَ: «ذَاكَ اللَّهُ ﷻ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٢٩٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، عَنْ أَبِي مُطَرِّفٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠١) عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٥٩٩١) والترمذي (٣٢٦٧)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٦٤) لشيخنا =

وفي الحديث إثبات صفة الغيظ لله عَزَّوَجَلَّ على ما لا يليق بجلاله، وهي من الصفات الفعلية، وقد تقدم الإشارة إلى بعض هذا الباب في موطنه، والحمد لله، إذ أن طريقة أهل السنة والجماعة: إثبات ما أثبته الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، بل هو تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

***

=

مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤٦ - بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الاسْمِ لأجْلِ ذَلِكَ

قَوْلُهُ: (بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الاسمِ لأجْلِ ذَلِكَ): الاحترام هو التقدير والإجلال، واحترام أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته تكون بأمور:

الأول: إثبات ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه، وأثبته رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: إثبات ما تضمنته من الصفات، إذ أن كل اسم يتضمن صفة، فالسميع يسمع، والبصير يبصر، والقوي ذو القوة.. وهكذا.

الثالث: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الرابع: عدم التسمي بها إن كانت مختصة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كانت غير مختصة منع الجمع بين التسمية والصفة على ما يأتي في حديث الباب.

الخامس: اعتقاد عدم حصرها بعدد معلوم لنا على ما بينته في كتابي التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين».

السادس: التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بمقتضاها بمعنى: أن المؤمن يرحم ويحسن وغير ذلك.

السابع: البعد عن الإلحاد فيها بجميع أنواع الإلحاد، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد ذكرت أنواع الإلحاد في كتابي: القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن»، وتقدم ذكر ملخصه.

الثامن: احترام أدلتها وصيانتها من التحريف والتعطيل، والتكييف والتمثيل، والتأويل الفاسد، والتفويض وغير ذلك مما يسلكه المبتدعة.

التاسع: احترامها من الامتهان أو الدوس عليها ونحو ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

العاشر: عدم الحلف إلا بها كما تقدم قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

الحادي عشر: التعبيد بها، قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»(٢)، من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

الثاني عشر: اعتقاد ما تضمنته من المدح، وما دلت عليه من الكمال، فإنها أسماء مدح وكمال.

الثالث عشر: ذكر الله ﷻ بها، قال الله ﷻ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه .

الرابع عشر: إحصائها، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، متفق عليه(٣)، **والإحصاء:** هو الحفظ لها والعمل بمقتضاها.

الخامس عشر: اعتقاد أنها غير مخلوقة، بل هي أسماء وصفات لله ﷻ على الوجه اللائق به.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، والترمذي (٢٨٣٣)، وغيرهما.
(٣) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وكل ما ذكرت من القواعد في كتابي: "**القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن**"، فهو دلالة إلى كيفية احترام هذه الأسماء وما دلت عليه من الصفات، بعيدًا عن سبيل المبتدعين والضالين، وبالله التوفيق.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُم فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُم؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

قَوْلُهُ (عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ) رضي الله عنه ، هو هاني بن يزيد الكندي، جاء وافدًا إلى رسول الله ﷺ مع قومه.

قَوْلُهُ (أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ) أي: ينادى به، والعرب إذا أرادوا المدح ينادون بالكنية، حتى قال بعضهم:

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ... وَلا أُلَقِّبُهُ والسَّوْءَةَ اللَّقَبَ

قَوْلُهُ (إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ): أي: أنكر عليه رسول الله ﷺ هذه الكنية لما يأتي، وحكم الله عز وجل منقسم إلى كوني وشرعي، قال العثيمين في القول المفيد» (٥٣٧):

الأول: كوني، وهذا لا راد له؛ فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن، وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرضَ به ولم يحكم به؛ فهو كافر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٠]، وأما قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعا

للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: (الحَكَمُ)، وأما بالنسبة للعدل؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: (إِنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ)، ولا أعرف فيه حديثًا مرفوعًا، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.اهـ.

قَوْلُهُ (فقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُم فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ): فيه حسن الاعتذار، وبيان سبب التكني بهذه الكنية.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: مَا أَحْسَنْ هـذَا): فيه التغبيط بالأمر الحسن، والضمير يعود إلى الإصلاح بين قومه لا إلى الكنية؛ لأنه قد أنكرها عليه.

قَوْلُهُ (فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُم؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»): فيه التكني باسم الأكبر من الأبناء، وجواز غير ذلك، وفيه تغيير الأسماء القبيحة، وفيه تغيير الألفاظ التي تؤدي إلى التعدي على ما هو من خصائص الله ﷻ، وفيه إنكار المنكر، وفيه سؤال الزائر: من أنت، وفيه الاستفصال، وهذا مأخوذ من قوله: (لماذا سموك أبا الحكم).

وفيه: التلطف مع طلاب العلم والزائرين والمدعوين، وفيه أن السؤال عن أبناء الولد وعن أهله ليس فيه محذور... إلى غير ذلك من الفوائد.

وفي كتاب الآداب من صحيح مسلم» شيء من الأدلة على تغيير الأسماء القبيحة، وأسماء المدح، والسبب في تغيير رَسُول اللَّـهِ ﷺ لهذه الكنية كونها جمعت بين الاسم والوصف، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله ﷻ، وليس لمجرد العلمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، أفاده العثيمين.

وفيه إرشاد السائل إلى ضد ما أنكر عليه.

٤٧ - بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ): أي: ما حكم المستهزئ بآيات الله أو برسل الله عَزَّ وَجَلَّ؟ وسيأتي بيان حكمه، وهو أنه كافر بالله العظيم؛ لأن من استهزأ بالله أو بآياته أو برسوله أو امتهن شيئًا من شعائر الله عَزَّ وَجَلَّ متعمدًا يكفر، وقد ذكر هذا الناقض المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة "**نواقض الإسلام**".

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

عَنْ ابْنِ عمَرَ، وَمُحَمَّدِ بن كَعْب، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ: -دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْض-: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاء أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ؛ يَعْنِي: رَسُولَ اللّه ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءِ.

فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِق، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ.

فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللّه ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ.

فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللّه ﷺ وَقَد ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّه إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ، وَنَلعَبُ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابْنُ عُمَر: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللّه □، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ في شأن النفر الذين وقع منهم الاستهزاء، وما جاءوا به من الاعتذار.

قَوْلُهُ (عَنْ ابْنِ عمَرَ رضي الله عنهما): ، هو عبد الله بن عمر أبو عبد الرحمن العدوي صحابي جليل.

قَوْلُهُ (وَمُحَمَّدِ بن كَعْبٍ): هو القرضي تابعي.

قَوْلُهُ (وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رضي الله عنه): ، العدوي مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قَوْلُهُ (وَقَتَادَةَ): هو ابن دعامة السدوسي.

قَوْلُهُ (دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ): ولم يقبل العلماء نحو هذا إلا في حديث الزهري لإتقانه وجلالته.

قَوْلُهُ (أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ): وكانت غزوة تبوك من أشد الغزوات، وكان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه صرح لأصحابه بها؛ لأنها بعيدة المسافة وشاقة السفر، وتحتاج إلى مؤنة، ولهذا قَالَ ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ»(١)، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ذكر الله عز وجل هذه الغزوة في كتابه الكريم في سورة براءة، وذكر كثيرًا من تفاصيلها، وما لحق المؤمنين من البلاء، وما حصل للمنافقين من الفضيحة، وعذر الله طائفة بكوا لتخلفهم عن رسول الله ﷺ لكون رسول الله ﷺ لا يجد ما يحملهم، فقال الله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة: ٩١-٩٣]، أي: مع النساء: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٩٣]؛ بسبب إعراضهم، وتخلف قوم وهم أهل إيمان، وكان منهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهما، ولما رجع النبي ﷺ طفق المنافقون يعتذرون إليه، بعضهم يقول: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٨)، عَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه.

فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وبعضهم يقول: أنا لا أستطيع أن أصبر عن بنات بني الأصفر: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: ٤٩]، وبعضهم يقول: ما عندي ظهر يا رسول الله، ويحلف، والرسول ﷺ يقبل أيمانهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفرحوا بتخلفهم، كما قال الله تعالى ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، ومع ذلك أراح الله المسلمين من شرهم، وخرج بعضهم ليمكر بالرسول ﷺ وأرادوا قتله في عقبة من العقبات، قالوا: إذا صعد محمد نفروا له بعيره حتى يسقط فيموت، وذكرهم الرسول ﷺ لحذيفة رضي الله عنه، وسألهم: من عرفتم منهم؟ قالوا: صاحب الجمل الأحمر، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ» فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ، يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ[1]. وذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ أن منهم جماعة لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها، ففي حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عند مسلم (٢٧٧٩) أن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فِي أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا، حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ، سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ، حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ».

والثلاثة الذين خُلفوا تاب الله عليهم، وليس المراد أنه لم يتخلف عن غزوة تبوك إلا ثلاثة، لكن المراد الذين خُلفوا عن قبول عذرهم؛ وذلك أنهم لما رجع النبي ﷺ جاء المنافقون يعتذرون ويحلفون أنهم لم يتخلفوا إلا لأعذار ورَسُولُ اللهِ ﷺ يقبل ظاهرهم ويعفو عنهم ويستغفر لهم، حتى قال الله عز وجل:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٠).

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ [التوبة: ٩٤]، والنفر هؤلاء جاءوا إلى النبي ﷺ، معترفين بخطأهم.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه : لَمْ أَتَخَلَّفْ لَمْ أَتخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ، فِي تِلْكَ الغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ.

وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ».

فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لاَ وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» . فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ

المُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ، قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟

فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ، وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاَءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ

الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ».

قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ جالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا، مَا بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلاَمِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا -حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ- شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ [التوبة: ٩٥].

إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]. وَلَيْسَ الَّذِي

ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وفي هذه الغزوة حصل بلاء عظيم بالمسلمين، منها: أن المنافقين أسسوا مسجد الضرار كفرًا وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، ولما رجع النبي ﷺ، كان قد وعدهم أن يصلي لهم فيه إذا رجع، فأمره الله أن يحرقه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

قَوْلُهُ (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ) أي قراء الصحابة ﭫ، يطعنون في أصحاب رسول الله ﷺ ويلمزونهم.

قَوْلُهُ (أَرْغَبَ بُطُونًا): أي: أحرص على الأكل والشرب.

قَوْلُهُ (وَلا أَكْذَبُ أَلْسُنًا): يتهمونهم بالكذب، ونعوذ بالله من الفجور في الخصومة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»، متفق عليه[1].

قَوْلُهُ (وَلا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ؛ يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءِ):

---

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨)، عَنْ عَائِشَةَ ﭬ.

يعني: أجبن وأخوف، ويكون ذلك منهم عند لقاء العدو، ولا والله بل هم أشجع الناس، لاسيما رسول الله ﷺ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشْجَعَ النَّاسِ»(١)، فمن شجاعته وشجاعة الصحابة أنهم خرجوا إلى بدر في ثلاثمائة وبضعة عشر، ومن شجاعتهم ما كان من شأنهم في يوم أحد وعزمهم على غزوة حمراء الأسد مع ما فيهم من الجراح، ومن شجاعتهم مواجهتهم القبائل في الأحزاب، ثم إن من شجاعتهم مواجهتهم لجميع من في الأرض بمخالفة ما هم عليه من العقائد والعادات، ومنه تركهم للأهل والأموال رغبة في الإسلام، ومنه ما هم عليه من الهدى، ولولا الإطالة لأشبعت الموضوع.

قَوْلُهُ (فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه): ، هو الأشجعي الغطفاني، شهد فتح مكة، مات سنة ثلاث وسبعين.

قَوْلُهُ (كَذَبْتَ) فيه الذب عن أهل الصلاح، وفضله عظيم.

قَوْلُهُ (وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ) إخبار بقرينة الحال والمقال؛ لأن هذا القول لا يصدر من مسلم.

قَوْلُهُ (لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ): وهذا ليس من النميمة، فإذا وُجد من يطعن في كتاب الله وسنة رسول الله، أو يخبب المسلمين ويشعل الفتنة بينهم فليس من النميمة أن يُرفع حاله إلى من يستطيع كف شره ودفع ضره، فوجد عوف رضي الله عنه القرآن قد نزل؛ لأن النبي ﷺ كان يأتيه الوحي من السماء، أما الآن فلا وحي، فالسكوت عن المبطلين يعتبر إيواء للمحدثين، لاسيما المبطل الذي يفت في عضد الدولة والدعوة، ويفرق شمل الأخوة، ويزعزع الأخوة الإيمانية، ويشعل الفتن في البلدان، وفي الحديث: «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا» أخرجه مسلم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٠٧).

(١٩٧٨)، عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه .

قَوْلُهُ (فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ): عذر قبيح، يعني: ما وجد من الحديث إلا الطعن في رسول الله ﷺ، وأصحابه.

وفي الحديث دلالة على أن الهزل بالقرآن والسنة والدين كُفر، لأن الله عز وجل سماهم كفارًا، قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، واختلف العلماء في هؤلاء النفر، فقال بعضهم: هم منافقون، وقال بعضهم: هم مؤمنون وفيهم منافقون وقع منهم هذا الصنيع فكفروا بذلك، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن؛ لأن الله عز وجل قال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، ولو كانوا منافقين كلهم ما أثبت لهم الإيمان؛ لأن المنافقين يظهرون الإيمان وليس لهم منه شيء، وقد أنكر الله عز وجل على أولئك الذين قالوا: (آمنا) بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

قَوْلُهُ (مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ): بيان ما عليه رسول الله ﷺ من ردع المفسدين، والإعراض عنهم لما في ذلك من المصالح الدينية والدنيوية، ومن هذا الدليل وغيره يستدل أهل العلم بوجوب هجر أهل البدع.

وعقد المصنف رحمه الله تعالى هذا الباب لبيان أن من أنواع الكفر كفر الاستهزاء وكفر السخرية، وفيه رد على عباد القبور، الذين يقول أحدهم: نحن ما نقصد تعظيم القبور كتعظيم الله، وهو مع ذلك ينذر للقبر ويستعين به، ويدعوه، فصنيعه هذا كفر، سواء قصد أم لم يقصد، ولا عذر في هذه الحالة إلا للمكره، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وفيه: خطر النفاق وضرره على الأمة، وقد أُلِّف في صفات المنافقين كتبًا،

منهما: "**كتاب صفات المنافقين**" للفريابي، وللشيخ جميل الصلوي كتاب "**فتح أرحم الراحمين في بيان أحوال وصفات المنافقين**" في صفاتهم.

وقد فضح الله المنافقين في غير ما آية من القرآن، ولعظم خطرهم ذكر الله ﷻ في وصف الكفار في أوائل سورة البقرة آيتين، وذكر في شأن المنافقين إحدى عشر آية أو أكثر؛ لأن النفاق ينخر في الدعوة من الداخل، يتقمصون بقماص الإسلام وليسوا منه.

وقد ذكرت كثيرًا مما ذكره الله من أوصافهم في تفسير هذه الآيات من سورة البقرة.

ومن أصناف المنافقين في هذا الزمان: الحداثيون والعلمانيون، والماركسيون، والشيعيون، والبعثيون، والرافضة، والباطنية.. وغيرهم كثير، وقد كان السلف يخافون النفاق، حتى قال ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ[1]، وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: بِاللَّهِ، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «لَا، وَلَنْ أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا بَعْدَكَ» أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٣٩٠).

وهم كثير -لا كثرهم الله- منهم من علمهم النبي ﷺ ومنهم من لم يعلمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومع ذلك تكون المعاملة بالظاهر كما قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنَّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ،

---

(١) ذكر الأثر الإمام البخاري في «صحيحه» (١/ ١٨).

وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»(١).

والعجب أننا في هذا الزمان قد رأينا من المستهزئين أنواعًا، ومنهم صاحب الكوميديا الذي يخرج في الإذاعة السعودية طاش ما طاش، يستهزئ باللحى والمستقيمين، وفلم الرهان الخاسر الذي مثل في اليمن، وما كان يقوم به عادل إمام ومن إليه، فكثير من الناس الآن يسخر من حملة القرآن وحملة السنة بتمثيليات ماجنة، وبسخرية فاضحة، وهذا الاستهزاء فيه التحذير من الكتاب والسنة، فالكثير من الناس حين يرى مثل هذه التمثيليات، يصور لهم المستقيم بأنه متشدد، ومتزمت، وربما استهزءوا بالحجاب والخمار واعتبروه كالخيمة، ويقولون: أما آن للنساء أن تتحرر من الخيام التي على رءوسهن... ومثل هذه الأمور كلها استهزاء بالدين.

ومن "**مجموع فتاوى ورسائل العثيمين**"(٢/ ١٥٥) برقم: (٢٣٤):

وسئل فضيلة الشيخ: عن حكم الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله، ﷺ، أو سنته ﷺ؟

فأجاب بقوله: الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ، أو سنة رسوله ﷺ، كفر وردة يخرج به الإنسان من الإسلام لقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فكل من استهزأ بالله أو برسول الله ﷺ، أو بدين رسول الله، ﷺ فإنه كافر، مرتد يجب عليه أن يتوب إلى الله تعالى، وإذا تاب إلى الله فإن الله تعالى يقبل توبته لقوله تعالى في هؤلاء المستهزئين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦].

فبين الله تعالى أنه قد يعفو عن طائفة منهم، ولا يكون ذلك إلا بالتوبة إلى الله ﷻ من كفرهم الذي كان باستهزائهم بالله وآياته ورسوله. اهـ.

***

٤٨- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

قَوْلُهُ (**بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]): قال الطبري في "تفسيره" (٢٠/ ٤٥٨): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَئِنْ نَحْنُ كَشَفْنَا عَنْ هَذَا الْكَافِرِ مَا أَصَابَهُ مِنْ سَقَمٍ فِي نَفْسِهِ وَضُرٍّ وَشِدَّةٍ فِي مَعِيشَتِهِ وَجَهْدٍ، رَحْمَةً مِنَّا، فَوَهَبْنَا لَهُ الْعَافِيَةَ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ السَّقَمِ، وَرَزَقْنَاهُ مَالًا، فَوَسَّعْنَا عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ مِنْ بَعْدِ الْجَهْدِ وَالضُّرِّ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنِّي بِرِضَاهُ عَمَلِي، وَمَا أَنَا عَلَيْهِ مُقِيمٌ... ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يَقُولُ: وَمَا أَحْسَبُ الْقِيَامَةَ قَائِمَةً يَوْمَ تَقُومُ» ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ يَقُولُ: وَإِنْ قَامَتْ أَيْضًا الْقِيَامَةُ، وَرُدِدْتُ إِلَى اللَّهِ حَيًّا بَعْدَ مَمَاتِي ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يَقُولُ: إِنَّ لِي عِنْدَهُ غِنًى وَمَالًا». انتهى.

وفي الآية بيان لحال الإنسان في الشدة والرخاء، وفي السراء والضراء بين القنوط، والبطر والكبر إلا من رحم الله عَزَّ وَجَلَّ، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، وبعده قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ

عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي

قَوْلُهُ (قَالَ مُجَاهِدٌ): وهو ابن جبر المكي، الذي أخذ التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ، فَحَسْبُكَ بِهِ. أخرجه الطبري في تفسيره» (١/ ٨٥).

قَوْلُهُ (هَذَا بِعَمَلِي): أي بسبب عملي الذي عملته، والجهد الذي بذلته.

قَوْلُهُ (وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ): أي مستحق له، والأثر أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٤٥٩)، في بيان قوله تعالى: ﴿هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، يعني: أنه لم يرد النعمة إلى معطيها.

قَوْلُهُ (يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي): يريد بعملي وحذقي، وغير ذلك، بمعنى: أنه لم يرُدّ الأمر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في إسداء النعم ومنعها، والأثر ذكره القرطبي في "تفسيره" (١٥/ ٣٧٣).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِـهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْـنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]. قَالَ قَتَادَةُ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ.

قَوْلُـهُ (وَقَوْلِـهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْـنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، قَالَ قَتَادَةُ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بُوجُوهِ الْمَكَاسِبِ).

قال ابن الجوزي في زاد المسير في علـم التفسـير» (٣/ ٣٩٣): قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ يعني المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: على عِلْمٍ عندي بصنعة الذهب، رواه أبو صالح عن ابـن عبـاس قـال الزجاج: وهذا لا أصل له، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له.

والثاني: برضى الله عني، قاله ابن زيد.

والثالث: على خير علمه الله تعالى عندي، قاله مقاتل.

والرابع: إنما أُعطيتُه لفضل علمي، قاله الفراء. قال الزجاج: ادَّعى أنه أُعطـيَ المال لعلمه بالتوراة.

والخامس: على علم عندي بوجوه المكاسب، حكاه الماوردي. انتهى.

وقـال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الـروم: ٣٣]، وفي الآيـــة الأخـــرى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْـنَةٌ﴾ [الزمـر: ٤٩]، فيجـب رد الـنعم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، قـال الرجل المؤمن لصاحب الجنة: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، يعنـي: قـل: الله عَزَّ وَجَلَّ هـو الذي أعطاني فله الحمد والمنة، فإضافة النعمة إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ، إما أن يـؤدي إلى الكفر الأكبر إذا كان يعتقد أن مسدي النعمة هو هذا المخلوق لا غيـر، أو مـؤداه

إلى الشرك الأصغر، وهو ما تقدم بيانه في باب من قال: مطرنا بنوء كذا.

حتى وإن كنت عليمًا بالمكاسب، فالله ﷻ هو الذي ييسر الرزق ويسهل طرقه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا»[1]، وقوله ﷺ: فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه في "**الصحيحين**"[2].

***

(١) أخرجه ابن ماجة (٢١٤٤)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما. تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣). تقدم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ): وثبت في «الصحيحين»[1] عَنْ خَبَّابٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: «لاَ أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ تُبْعَثَ»، قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

وكثير ما يغفل الناس حتى المستقيمون إلا ما رحم ربي عن إضافة النعمة إلى الله، وإلا فإن الواجب على العبد أن يعلم أن النعم مثل الصحة أو العلم أو المال أو الجاه وغير ذلك من الله، وقد يبتلي الله بالنعم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

قَوْلُهُ (وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ) الأثر في تفسير مجاهد» رقم (٥٨٠). أي: يقول: أوتيته على علم، أو ورثته عن آبائي أو أوتيته بشرفي، ومنزلتي كله سواء، ولكن ليتأمل العبد ما قال الله بعدها: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

---

(١) البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ -أَوْ الْبَقَرُ، شَكَّ إِسْحَاقُ- فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، فَقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ -أَوْ الإِبِلُ- فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ

بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ - بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ- بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ.

فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ﷻ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ ﷻ، فَقَالَ: أَمْسِكْ عَلَيكَ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»، أخرجاه.

قَوْلُهُ (إِنَّ ثَلاَثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ): بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ-.

قَوْلُهُ (أَبْرَصَ): الأبرص هو الذي فيه البرص، وهو مرض يظهر في الجلد يؤدي إلى خروجه عن المعهود ببياض شديد يتأثر من الحر وغيره.

قَوْلُهُ (وَأَقْرَعَ): هو الذي تساقط شعر رأسه، وهذا فيه دليل على أن لون الجلد الطيب، والشعر من نعم الله العظيمة.

قَوْلُهُ (وَأَعْمَى): هو الذي ذهب بصره.

قَوْلُهُ (فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ): أي: يختبرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] أي: يختبركم أيكم أحسن عملًا، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

قَوْلُهُ (فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا): في صورة رجل؛ لأنه أوقع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

قَوْلُهُ (فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ): انظروا إلى هذه النعم التي نتمتع بها؛ الألوان الحسنة والجلود الحسنة، ومع ذلك ربما لا نشكر الله عليها، نسأل الله أن يوفقنا لشكره وذكره وحسن عبادته.

قَوْلُهُ (قَالَ: فَمَسَحَهُ): أي: الملك مسح المريض.

قَوْلُهُ (فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا): أي: شفاه الله تعالى.

وقَوْلُهُ (قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ -أَوْ الْبَقَرُ): هو الإبل، يأتي في السياقة.

قَوْلُهُ (شَكَّ إِسْحَاقُ): أي: أحد رواة الحديث، وهو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري.

قَوْلُهُ (فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ): أي: حامل.

قَوْلُهُ (وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا): فيه: سؤال الله البركة، وفي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، في دعاء الاستخارة: «اللهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ -

ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ- خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ -قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ»، أخرجه البخاري (٧٣٩٠)، فإذا أعطى الله البركة في الشيء نما وترعرع وزاد، والبركة هي وضع الخير الإلهي في الشيء.

قوله (قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، فَقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ -أَوْ الإِبِلُ- فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا): النوق يقال للحامل منها عشراء، وللبقرة يقال لها حامل.

قوله (فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ): وهذه نعمة عظيمة نسأل الله ﷻ أن يحفظ علينا أبصارنا، وكم من مبصر أعمى عن سبيل الله، وأعمى عن الإسلام، وكم من أعمى العيون مبصر القلب، فالشيخ ابن باز مثلًا، وقبله الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وغيرهم كثير ممن نفع الله ﷻ بعلومهم، وأعلى منارهم، ونفع بهم الإسلام والمسلمين وكانا فاقدين للعيون المبصرة، فالأعمى حقًا هو أعمى البصيرة، والمبصر حقًا هو الموفق للإسلام والإيمان، لكن مع ذلك ضعف البصر قد يؤدي إلى حرمان المرء من خيرات عظيمة، ولهذا جاء في الحديث: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ»، يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ. أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ.

قوله (فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ): فيه أن الشفاء والعافية بيد الله ﷻ، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي»، أخرجه أبي داود (٥٠٧٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما. ومنه: «اللهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ

البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا». أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

قَوْلُهُ (قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ): وهذا من فضل الله العظيم، وللبركة التي وضعها في هذه النعم.

قَوْلُهُ (قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ): وهذا بعد زمن ليختبرهم فيما مضى، من شأنهم.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ -بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ- بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ): فيه: وجوب إعطاء ابن السبيل، ولهذا جعل الله عز وجل من مصارف الزكاة إعطاء ابن السبيل، وهو الذي ينقطع به المال في طريقه، واختلفوا في معناه، حتى قيل: نسب إلى ابن السبيل لكثرة سفره.

ومما يستدل به العلماء في هذا الباب:

إِنْ تَسْأَلُونِي عَنِ الْهَوَى فَأَنَا الْهَوَى   وَابْنُ الْهَوَى وَأَخُو الْهَوَى وَأَبُوهُ

وبعضهم يقول: أنا ابن الحرب ربتني صغيرًا.

فقوله: وابن السبيل إضافة إلى كثرة أسفاره.

قَوْلُهُ (فَقَالَ لَهُ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ): وهذا شأن البخلاء بحق الله عز وجل.

قَوْلُهُ (فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ى الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ): انظر كيف كفر نعمة الله، وأضاف النعمة إلى نفسه وإلى آبائه وأجداده.

قَوْلُهُ (فقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إلَى مَا كُنْتَ): وتقدير الكلام أنه عاد إلى ما كان، وأصبح فقيرًا، حقيرًا.

قَوْلُهُ (قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيهِ هَذَا، فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي) فيه: أنك تقول: إلا بالله، ثم بك، لا تقل: إلا بالله، وبك، ولا تقل: لا بلاغ لي إلا بك، فالأمر يضاف إلى الله ﷻ، ثم إذا أردت أن تعطف على الله ﷻ غيره، يكون بحرف العطف (ثم) الذي يقتضي المغايرة.

قَوْلُهُ (فقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إلَيَّ بَصَرِي): فيه بيان لفضيلة هذا الرجل الصالح، حيث اعترف بنفسه كيف كانت حالته، فقبل أن يبادره الملك أنه يعرفه كيف كان، قال: كنت أعمى فرد الله علي بصري، فما زال يشكر نعمة الله عليه.

قَوْلُهُ (فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ ى) سبحان الله! الموفق من وفقه الله، والمخذول من خذله الله، فانظر إلى هذا الموفق؟ (خُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ)، وهذا قد لا يوفق إليه الكرام فضلًا عن غيرهم من اللئام والبخلاء، فالكريم إذا جئته قد يعطيك، ويقول: خذ هذا استعن به، أما هذا لشدة معرفته بنعمة الله عليه، ولتوسيع الله عليه، قال: (خُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ)، كما يقول بعض الناس: المال مالك.

قَوْلُهُ (أَمْسِكْ عَلَيكَ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ. أخرجَاهُ): فيه إثبات صفة الرضا لله ﷻ، وهي من الصفات الفعلية، خلافًا لما تزعمه الأشاعرة والمعتزلة أن الله لا يُوصفُ

بالرضا، وفيه إثبات صفة السخط لله ﷻ، وهو من الصفات أيضًا الفعلية المتعلقة بمشيئة الله ﷻ، فهو سخط يليق بجلاله، ورضا يليق بجلاله.

وفي الحديث من الفوائد على ما تقدم:

أن الله ﷻ قد يبلونا بالشر والخير، كما قال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأن أكثر الناس يكفر نعمة الله إلا القليل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وفيه: أن الشكر من أسباب دوام النعم، واستمرارها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وفيه: أن على أصحاب الأموال في أموالهم حقوقًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ومن حقه الزكاة، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

وفيه: جواز المسألة لمن انقطعت به السبل أو نزلت به الفاقة، والأصل في المسألة الحرمة، وفي **"صحيح مسلم"** (١٠٤٤)، عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ -أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ- وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ

عَيْشٍ -أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ- فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

وفيه: جواز القصص، والنبي ﷺ إذ قص علينا من قصص بني إسرائيل إنما قصه للعبرة والعظة كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

وفيه: أن الأصل في الإسرائيليات التوقف، إلا ما جاءت من طريق النبي ﷺ، فإنه أخذها عن طريق الوحي، وهي حق.

وفيه: كثرة نعم الله ﷻ على عباده، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فمنها الشعر الحسن، والوجه الحسن والجلد الحسن واللون الحسن والكلام الحسن والصحة، وغير ذلك من النعم.

وفيه: أن الناس يتفاوتون في محبة الأشياء، فبعضهم يحب الإبل، وبعضهم البقر، وبعضهم الغنم، وبعضهم الخيل، وبعضهم التجارة، وبعضهم الصناعة، وبعضهم الزراعة، وبعضهم ييسر للعلم.

وفيه: أن الناس قد يقذرون من كان على شاكلتهم، إذا ابتلي بشيء من التغير، ولو كان برائحة الفم أو باضطرابات البطن، أو بغير ذلك، فإن الناس يشمئزون من بعضهم البعض إذا تغير الإنسان عن الخلقة السوية.

وفيه: أن الله ﷻ بيده الخير، فإذا شاء أن يشفي شفى، وفي الحديث «لاَ شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ»[١]، فهذا الأبرص بمسحة شفاه الله.

وفيه كرامات الأولياء، وإن كان هذا ملك، فالملائكة من الأولياء، فإن هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

الملك لكرامته، مسح، فرد الله شعر الأقرع، ومسح فأذهب الله عنه مرضه، وهذا المسح متضمن للدعاء، وقد كان النبي ﷺ ربما داوى بعضهم بريقه، كما تفل لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه لما كان أرمدًا فشفاه الله، ولما جاءه عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وقد انكسرت رجله في مقتل تاجر الحجاز، فردها الله عليه، ولما أعطى أبا دجانة رضي الله عنه تلك العصا وحولت إلى سيف، وكرامات الأولياء بابها واسع، ألف فيها اللالكائي، وألف فيها عبد الرقيب الإبي، وغيرهم. لكن الحذر من مثل كتاب كرامات الأولياء» للنبهاني أو لليافعي ففيهما السم الزعاف.

وفيه: أن البركة من الله، فالله عز وجل حين بارك في أموال هؤلاء الثلاثة، نتجت في زمن يسير، وأصبحوا أغنياء، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، أي: أغنى الإنسان، وأقناه، أي: أعطاه ما يقتنيه من الأموال والبقر والرقيق وغير ذلك.

وفيه في قوله (فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ): أن هذه إرادة كونية من حيث أن الله عز وجل أوقع بهم ما كان، وإرادة شرعية من حيث أن الله ابتلاهم بأوامر، فمنهم من طبق ومنهم من لم يطبق.

وفيه: أن الأعمال بالخواتيم وأن السعادة كل السعادة في رضى الله عز وجل عن العبد، والشقاوة في سخطه وغضبه على العبد أسأل الله السلامة.

وفيه: تبشير المؤمن بما له عند الله عز وجل من الكرامة.

وفيه: جواز الإختبار للحاجة.

وفيه فضيلة الكرم والجود فهو من أسباب بركة الأموال، إلى غير ذلك.

***

٤٩ - باب قول الله تعالى ﴿فلمّا آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمّا يشركون﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قَوْلُهُ (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾): قبلها: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

والشاهد من الآية: أنهم جعلوا لله شركاء فيما أنعم به عليهم، وقد اختلف أهل التفسير في معنى المشاركة هنا فقَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِي الِاسْمِ، قاله الطبري في "تفسيره" (١٠/ ٦٢٣). وقال بعضهم في الطاعة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: (اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ).

قَوْلُهُ (ابْنُ حَزْمٍ): هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تمالأ عليه مبتدعة عصره وأحرقوا كتبه، فقال ابْنُ حَزْمٍ، فِيمَا أَحرق لَهُ المُعْتَضِدُ بنُ عَبَّادٍ مِنَ الكُتُبِ[1]:

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لاَ تَحْرِقُوا ... تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي
يَسِيْرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي ... وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي
دَعُونِيَ مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍ وَكَاغَدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَي يَرَى النَّاسُ مَنْ
وَإِلاَّ فَعُودُوا فِي المَكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُوْنَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سِتْرِ
كَذَاكَ النَّصَارَى يَحْرِقُوْنَ إِذَا عَلَتْ ... أَكفُّهم القُرْآنَ فِي مُدُنِ الثَّغْرِ

وكان شديدًا على أهل البدع والأهواء والآراء والأقيسة الفاسدة، وكتابه "**إحكام الأحكام**" وكتابه "**المحلى**" دليل على ذلك، وكان شديدًا على الخوارج والمعتزلة، والمرجئة في باب الإيمان، وكتابه "**الفصل في الملل والنحل**" يدل على ذلك، وكان واسع الاطلاع، والذي يقرأ في "**طوق الحمامة**" يظن أن الرجل كان ماجنًا وليس كذلك، مع أنه كان يرى حل الغناء، وأقسم بالله لما ذكر شيئًا مما يتعلق بالنساء والمردان، قال: والذي نفسي بيده ما كشفت إزاري على فرج محرم، ابتلي فصبر، كان أبوه من الوزراء أو من مستشاري الوزراء، ثم بعد ذلك لما انتهت الدولة الأموية شرد وسجن وحرقت

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٠٥).

كتبه، وذكر في سبب طلبه للعلم أنه دخل المسجد فجلس، فجاءه أحدهم، وقال: تجلس قبل أن تصلي ركعتين، فقام يصلي ركعتين، فجاءه آخر، فقال: تصلي ركعتين في وقت الكراهة، فذهب يطلب العلم، وكان قد كبر سنه، فأقبل على الحفظ والتصنيف والتأليف، حتى كان لا يجارى ولا يبارى، لولا شدة ظاهريته لكانت كتبه أنفس الكتب، ومع ذلك هي من أنفسها، إلا أنه ظاهري شديد الظاهرية، فمثلًا: في قول النبي ﷺ: «لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ»[1]، قال: إذا بال في كأس وصبه في الماء لا بأس، وتكلم عليه القرطبي بكلام شديد، أقذع فيه إقذاعًا، ودافع عنه الذهبي رحمه الله تعالى في السير» (١٨/ ١٩٠)، وقال: قُلْتُ: لَمْ يُنْصِفِ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ رحمه الله شَيْخَ أَبِيْهِ فِي العِلْـمِ، وَلاَ تَكَلَّمَ فِيْهِ بِالقِسْطِ، وَبَالَغَ فِي الاسْتخفَاف بِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ فَعَلَى عَظمته فِي العِلْمِ لاَ يَبْلُغُ رُتْبَة أَبِي مُحَمَّدٍ، وَلاَ يَكَاد، فَرحمهُمَا الله وَغفر لَهُمَا. اهـ.

وأما إذا نصر مسألة من المسائل فدونك هو، يأتي بالأحاديث والآثار بأسانيدها، وكان قوي الحجة، حتى أنه ربما يأخذك إلى مذهبه، ولهذا كان الشيخ مقبل رحمه الله تعالى، يقول: اثنان إذا قرأت في كتبهما يجرانك إلى مذهبهما، ابن القيم، وابن حزم؛ لغزارة علمهما، ولكثرة اطلاعهما، وأما في العقيدة في باب الأسماء والصفات، فقد قال عنه ابن عبد الهادي، كان جهميًا جلدًا.

قَوْلُهُ (اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ كَعَبْدِ عُمْرو، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ حَاشَى عَبْدَ الْمُطَّلِبِ)،

قاله ابن حزم في مراتب الاجماع» (١٥٥)، ونصه: وَاتَّفَقُوا على تَحْرِيم كل اسْم معبد لغير الله عز وَجل كَعبد الْعُزَّى، وَعبد هُبل، وَعبد عَمْرٍو، وَعبد الْكَعْبَةَ، وَمَا أشبه ذَلِك حاشا عبد الْمطلب، وَاتَّفَقُوا على إباحة كل اسْم بعد مَا ذكرنَا مَا لم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩)، ومسلم (٢٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

يكن اسْم نَبِي أَو اسْم ملك أَو مرّة أَو حَرْب أَو زحم أَو الحكم أَو مَالـك أَو خلـد أَو حزن أَو الاجدع أَو الكويفر أَو شهَاب أَو أَصْرَم أَو العَاصِـي أَو عَزِيـز أَو عَبـدة أَو شَيْطَان أَو غراب أَو حباب أَو المصطجع أَو نجاح أَو أَفْلح أَو نَافِع أَو يسَـار أَو بركَة أَو عاصية أَو برة فَإِنَّهُم اخْتلفُوا فِيهَا. اهـ.

وهذا الكلام منه منتقد، وهو قوله: حاشى عبد المطلب، والذي جـره إلى هـذا الكلام: أن النبي ﷺ قال: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِـبْ»[1]، فقـال: إنَّ النبي ﷺ أقر هذه التسمية، وأقر التعبيد لعبد المطلب وليس كذلك، وإنمـا أخبـر النبي ﷺ بأمر على ما هو عليه، فإن عبد المطلب قد مات واسمه عبـد المطلـب، والنبي ﷺ ينتسب إليه.

ومن الأسماء القبيحة الآن: عبد النبي، وعبد الولي.

***

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إبْلِيسُ، فقَالَ: إنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِّي أَوْ لاجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّهُ، ولأفْعَلَنَّ ولأفْعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا- سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ. فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا. ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قَالَ: أَشْفَقَا أَنْ لا يَكُونَ إِنْسَانًا.

وَذُكِرَ مَعْنَاهُ أَيضًا عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا.

قَوْلُهُ (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: قَالَ لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ): الحديث ضعيف، في سنده شريك بن عبد الله النخعي القاضي، ساء حفظه لما ولي القضاء، وخصيف بن عبد الرحمن الجزري ضعيف، وهذه القصة منكرة وضعيفة متنًا وسندًا، أما سندًا فقد تقدم، وأما متنًا فإن هذا الأثر يدل على أن آدم عليه السلام وقع في الشرك، وهذا محال؛ لأن آدمَ نبيٌّ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلًا؟

قَالَ: «آدَمُ» ، قُلْتُ: وَنبِيًّا كَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيًّا مُكَلَّمًا»(١)، والأنبياء معصومون عن الشرك.

بل أعظم من ذلك: أن إبليس يزعم أنه سيخلق له قرني إيل، فيصدقان ذلك، وهذا شرك في الربوبية.

ومما يدل على نكارتها: أنه يقول: (إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ)، ثم بعد ذلك يطيعانه، مع علمهما بخبثه ومكره.

ومما يدل على ضعفها: أن الله قد ذكر لنا خطيئة آدم بأكله من الشجرة في القرآن، ولم يذكر هذه الخطيئة، وخطيئة الشرك أعظم من خطيئة الأكل من الشجرة التي هي معصية، وذكر الله ﷻ التوبة من المعصية، ولم يذكر التوبة من الشرك، فلو كان كما يقولون، لكان ذكر التوبة من الشرك مقدم.

وإنما الآية على عمومها في جنس بني آدم ومن صنع هذا منهم، وقد بينت ضعفها في كتابي: "**قصة آدم** عليه السلام، **وما فيها من العقائد والآداب والأحكام**".

قال ابن كثير رحمه الله في "**تفسيره**"(٣/ ٤٧٥ ط العلمية): وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]. ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا آثَارًا وَأَحَادِيثَ سَأُورِدُهَا وَأُبَيِّنُ مَا فِيهَا، ثُمَّ نُتْبِعُ ذَلِكَ بَيَانَ الصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي "**مُسْنَدِهِ**": حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سُمْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَلَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ -وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ- فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٩٨).

يَعِيشُ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ وَكَانَ ذلك من وحي الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ، بُنْدَار، عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ، بِهِ.

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى، عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ، بِهِ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الصَّمَدِ مَرْفُوعًا ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، عَنْ هِلَالِ ابْنِ فَيَّاضٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بِهِ مَرْفُوعًا.

وَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْدويه فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ شَاذِّ بْنِ فَيَّاضٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بِهِ مَرْفُوعًا.

قُلْتُ: (وَشَاذٌّ): هَذَا هُوَ: هِلَالٌ، وَشَاذٌّ لَقَبُهُ. وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَعْلُولٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ عُمَرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا هُوَ الْبَصْرِيُّ، وَقَدْ وَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ، وَلَكِنْ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: لَا يُحْتَجُّ بِهِ. وَلَكِنْ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ الْمُعْتَمِرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سُمْرَةَ مَرْفُوعًا، فَاللهُ أَعْلَمُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ قَوْلِ سُمْرَةَ نَفْسِهِ، لَيْسَ مَرْفُوعًا، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ. وَحَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ سَمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، قَالَ: سَمَّى آدَمُ ابْنَهُ (عَبْدَ الْحَارِثِ).

الثَّالِثُ: أَنَّ الْحَسَنَ نَفْسَهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِغَيْرِ هَذَا، فَلَوْ كَانَ هَذَا عِنْدَهُ عَنْ سُمْرَةَ مَرْفُوعًا، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ الْحَسَنِ: ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾، قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمِلَلِ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: عَنَى بِهَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ، وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ -يَعْنِي: قَوْلَهُ ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾، وَحَدَّثَنَا بِشْرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمُ اللهُ أَوْلَادًا، فَهَوَّدُوا ونَصَّروا.

وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ، ﵀، أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَهُ مَحْفُوظًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ تَقْوَاهُ لِلَّهِ وَوَرَعِه، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الصَّحَابِيِّ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ آمَنُ مِنْهُمْ، مِثْلِ: كَعْبٍ أَوْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّه وَغَيْرِهِمَا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى إِلَّا أَنَّنَا بَرِئْنَا مِنْ عُهْدَةِ الْمَرْفُوعِ، واللهُ أَعْلَمُ. اهـ.

قَوْلُهُ(وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ)**:** أي: لابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤)، وأخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٢٦)، وعزاه السيوطي في «**الدر**»(٦/ ٧٠٦)، إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

قَوْلُهُ (قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِه وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ)**:** أي: أنها طاعة في المعصية، وهذا حرام إلا إذا كان في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله مع العلم بذلك، فهو كفر على ما تقدم بيانه في موطنه.

قَوْلُهُ(وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ)**:** أي: لابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).

قَوْلُهُ (عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] **قَالَ: أَشْفَقَا أَنْ لا يَكُونَ إِنْسَانًا):** أي: خافا أن يكون حيوانًا أو جنيًا، لكن هذا مما يدل على نكارة المتن.

قَوْلُهُ (وَذُكِرَ مَعْنَاهُ أيضًا عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا): والحسن هو البصري، وسعيد هو ابن جبير.

وهذا الباب ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى من باب سد ذرائع الشرك، ومنها التعبيد لغير الله سبحانه وتعالى.

وفيه: ما عليه جنس الإنسان من كفر نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ ومسارعتهم في الشرك، ومخالفة دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيه: حرص الشيطان على إغواء بني آدم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وطريق الشيطان على الإنسان بالوعود الكاذبة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ومن طرقه أنه يأتيهم من كل طريق كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، والسلامة منه بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

***

٥٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، وهو من أشرف أبواب العلم، وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم.

ومن كتابي "القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن" (١٦ - ٢١).

قُلْتُ: **توحيد الأسماء والصفات:** هو الإقرار والإيمان بما سمى ووصف الله عَزَّ وَجَلَّ به نفسه في كتابه وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وسيأتي الكثير من ذلك ضمن هذا الكتاب بما يشفي ويكفي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد» (١٩): وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، من توحيد الربوبية والإلهية. والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلًا، وإما عنادًا، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الرعد: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِنْكَارَهُمْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ جُحود وَعِنَادٌ وَتَعَنُّتٌ فِي كُفْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ أُنْشِدَ لِبَعْضِ الْجَاهِلِيَّةِ الجُهَّال:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الفتاةُ هَجِينَهَا ... أَلَا قَضَبَ الرحمنُ رَبِي يَمِينَهَا

وَقَالَ سَلَامَةُ بن جندب الطُّهَوِيُّ:

عَجِلتم عَلَيْنَا عَجْلَتينا عليكُمُ وَمَا يَشَأ الرّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِق

انتهى من «التفسير» (١/ ١٢٧). وهما جاهليان.

وقال زهير:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يُعْلَمِ

قُلْتُ: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردّوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردّوا عليه توحيد الإلهية. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.

وشرف هذا العلم، وفضله بالنسبة لبقية العلوم عظيم؛ وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وبمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تتحقق عبودية العبد لله سبحانه وتعالى من خوف وإنابة، وعلم بالله سبحانه وتعالى، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهو يحبها، وجعلت بين يدي المطلوب مقدمة من العبد في الدنيا والآخرة، كما في حديث فضالة بن عبيد ﷺ عند أبي داود (١٤٨١)، وغيره، قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، والحديث في «الصحيح المسند» (٢/ ١٠) لشيخنا مقبل رحمه الله.

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه، عند ابن ماجه (٣٨٥٨)، وهو في صحيح شيخنا»، أيضًا: أن رسول الله ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ

أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ».

وعنده (٣٨٥٧) عن بريدة ﵁، قال: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ».

فانظر كيف بين رسول الله ﷺ فضيلة من قدم بين يدي سؤاله ثناءً وحمدًا لله بأسمائه وصفاته، وبين من عَجِلَ ودعا بدونها.

ورسول الله ﷺ يقول كما في حديث أنس ﵁ عند البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٤)، وهو حديث الشفاعة الطويل، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عندهما، البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٣) أيضًا: فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي».

فانظر كيف بدأ رسول الله ﷺ قبل شفاعته لأمته بالحمد والثناء على الله بأسمائه وصفاته؟

وجاء من حديث عائشة ﵂ عند مسلم (٤٨٦)، أنه ﷺ كان يدعو الله ويقول: «اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على فضيلة الابتداء بأسماء الله وصفاته بين يدي المطلوب.

قال ابن القيم ﵀ في "**مفتاح دار السعادة**"(٩٣): وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه؛ لوقوف النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السماوات والأرضين، الملك الحق المبين

الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومة إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر اليه في تحقق ذاته...

فالعلم به أصل كل علم... -إلى أن قال-: فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفًا عظيمًا، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسيَّ ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا بمنزلة الأنعام. اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في "**الأصفهانية**"(١٠٨): وهذا بخلاف العلم الأعلى عند المسلمين، فإنه العلم بالله الذي هو في نفسه أعلى من غيره، من كل وجه، والعلم به أعلى العلوم من كل وجه، والعلم به أصل لكل علم، وهم يسلمون أن العلم به إذا حصل على الوجه التام يستلزم العلم بكل موجود. اهـ.

قال ابن القيم رحمه الله كما في "**فضل العلم والعلماء**"(٣٤): أخبر سبحانه أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فدلّ على أن عِلمَ العباد بربهم وصفاته وعبادته هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر.اهـ.

وقول أهل السنة في هذا الباب مبني على قواعد ذكرتها مع التدليل عليها،

والبيان لها في كتابي المذكور، فمنها:

الأول: أن أسماء الله أعلام وأوصاف. **الثاني:** أن كل اسم يتضمن صفة.

الثالث: أن أسماء الله كلها حسنى. **الرابع:** أن الله ﷻ إنما يدعى بها.

الخامس: أن أسماء الله توقيفية، أي: متوقفة على الدليل إثباتًا أو نفيًا.

السادس: أن أسماء الله غير مخلوقة.

السابع: أنها أسماء مشتقة بمعنى: أنها تدل على صفات وليست جامدة.

الثامن: أن أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا.

وهذه الآية نص على أن أسماء الله ﷻ غير محصورة بعدد معلوم لنا؛ حيث جاءت على الإطلاق لا التقييد، ومما يدل على عدم الحصر حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه الذي أخرجه أحمد (٢٩٣١٨) وفيه: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»، فتضمن هذا الحديث ثلاثة أنواع من أسماء الله ﷻ.

الأول: ما أنزله الله في كتابه، وهو القرآن.

الثاني: ما علمه الله ﷻ من شاء مِن خلقه من أنبيائه ورسله.

الثالث: ما استأثر الله ﷻ به في علم الغيب عنده، وهذا لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

وأما حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا،

مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، متفق عليه[1]، فليس فيه الحصر، وإنما فيه: أن من أسماء الله الحسنى الكثيرة تسعة وتسعون اسمًا، من أحصاها أي: حفظها وعمل بمقتضاها دخل الجنة كما قال العلماء، فليس الخبر: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا»، وإنما الخبر: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، أي: من حفظها، وهو كقول القائل: لي مائة دينار أعددتها للصدقة، فليس معنى ذلك أن ليس له أكثر من ذلك، فالقول بحصر الأسماء الحسنى مخالف للمعقول والمنقول والقواعد والأصول التي صار عليها السلف رضوان الله عليهم، وأما تبويب البخاري باب أسماء الله مائة اسم إلا واحد أو بمعناه، فالبخاري يبوب على ألفاظ الأحاديث، وقد رددنا على هذه الشبهة بأكثر من إحدى عشر بابًا بوبها البخاري على لفظ الحديث. وقد سقت عدة أدلة على عدم حصر أسماء الله في تسعة وتسعين، في كتابي التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين».

قَوْلُهُ ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾: الدعاء هو السؤال والطلب من الأدنى إلى الأعلى، ومع ذلك قد يكون الدعاء بلسان الحال والمقال، فما كان بلسان الحال فهو دعاء عبادة وقد يتضمن دعاء المسألة، وما كان بلسان المقال فهو دعاء المسألة، ويكون بأسماء الله تعالى ويَتوسل العبد بين يدي المطلوب بما يناسب الحال فتقول: يا غفور اغفر لي، ويا رحيم ارحمني، وهكذا، ولا يجوز دعاء الصفة، فلا تقول: يا وجه الله اغفر لي أو ارحمني ونحوه.

قَوْلُهُ ﴿وَذَرُواْ﴾: أي: اتركوا.

قَوْلُهُ ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾: أي: الذين يميلون بها عن حقيقتها، فالإلحاد: هو الميل، واللام والحاء والدال تدل على ذلك، ولهذا سُمي اللحد لحدًا؛ لأنه ميل في القبر.

---

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، تقدم.

وهو أنواع: الأول: إلحاد المعطلة:

أن ينكرها، أو ينكر شيئًا منها. أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام كما فعل أهل التعطيل من الجهمية الذين يعطلون الأسماء، والصفات، والمعتزلة الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات، أو كالأشاعرة الذين يثبتون الأسماء، وسبعًا من الصفات.

الثاني: إلحاد الممثلة:

وهو أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين.

الثالث: إلحاد من سمى الله بغير أسمائه الثابتة له:

كتسمية النصارى له، بـ: (الأب)، والفلاسفة (العلة الفاعلة) والعشق، واللذة، وهذا من القول على الله تعالى بلا علم، مع ما تتضمن من المعاني الباطلة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الرابع: إلحاد المشركين ومن إليهم:

حيث يشتقون من أسماء الله تعالى أسماء للأصنام، كاشتقاق العزى من العزيز، واللات من الإله، ومناة من المنان، في قول لأهل العلم.

ومنه أن يُسمى غير الله تعالى بأسمائه المختصة به.

قال ابن القيم رحمه الله في "**تحفة المودود بأحكام المولود**"(١٢٥): ومما يمنع تسمية الإنسان به أسماء الرب تبارك وتعالى، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالى، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار

والمتكبر، والأول والآخر والباطن وعلام الغيوب.

وقد قال أبو داود في "سننه"(١) حدثنا الربيع بن نافع، عن يزيد بن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن جده شريح، عن أبيه هانئ رضي الله عنه : أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه ﷺ فقال: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟»، قال: لي شريح ومسلمة، وعبد الله، قال: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قلت: شريح، قال: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». وقد تقدم ذكر الحديث الصحيح: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ»(٢).

وقال أبو داود رحمه الله: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا بِشْرٌ يَعْنِي: ابْنَ الْمُفَضَّلِ، حَدَّثَنَا أَبُو مَسْلَمَةَ سَعِيدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»(٣)، ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»(٤)، فإن هذه إخبار منه عما أعطاه الله من سيادة النوع الإنساني وفضله وشرفه عليهم.

وأما وصف الرب تعالى بأنه السيد فذلك وصف لربه على الإطلاق، فإن سيد الخلق هو مالك أمرهم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعلمون، وعن قوله يصدرون. اهـ.

---

(١) برقم (٤٩٥٥)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٦٣) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. تقدم.

(٣) برقم (٤٨٠٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٢٩٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله، تقدم.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وقال (١٢٧): وأما الأسماء التي تطلق عليه وعلى غيره، كالسميع، والبصير، والرءوف، والرحيم، فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمى بها على الإطلاق؛ بحيث يطلق عليه كما يطلق على الرب تعالى. اهـ

الخامس: إلحاد المفوضة:

الذين يثبتون ألفاظًا لا معاني لها، وهم من شر أهل البدع؛ لأنهم يزعمون أن ألفاظ القرآن والسنة غير معلومة المعاني، وهذا القول منهم متضمن للطعن في الله ﷻ وفي القرآن وفي الرسول ﷺ على ما بيناه في غير موطن منها: أن الله أمرنا بالتفكر والتدبر والتعقل للقرآن بخلاف قولهم.

قَوْلُـهُ ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازون على إلحادهم في الدنيا والآخرة جزاء وفاقا، وهذا على التهديد.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: يُشْرِكُون. وَعَنْهُ: سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ. وَعَنِ الأَعْمَشِ: يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا.

قَوْلُهُ (ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ): أي: في **"تفسيره"** (٥/ ١٦٢٣)، وهو عند ابن جرير (١٠/ ٥٩٧).

وقَوْلُهُ (يُشْرِكُون): هي عن قتادة تفسير لمعنى الإلحاد وهو تفسير الشيء بجزئه.

قَوْلُهُ (وَعَنْهُ: سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ): تقدم الكلام فيها، وبهذا اللفظ أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جريج، ذكره السيوطي في **"الدر المنثور"** (٦/ ٦٨٩).

قَوْلُهُ (وَعَنِ الأَعْمَشِ): هو سليمان بن مهران، أبو محمد الكوفي، ثقة، رمي بالتدليس.

قَوْلُهُ (يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا): أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣)، أي: ومن أنواع الإلحاد أن يدخلوا فيها ما ليس منها فيسمون الله عَزَّ وَجَلَّ بما لم يسم به نفسه ولم يسمه به رَسُولُهُ ﷺ وهذا باب مهم يحتاج إلى إتقانه ومعرفة قواعده والحق فيه، لكثر المخالفين فيه، ولأنه باب معرفة العبد لربه تعالى.

***

٥١- بَابُ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى الله

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ.

قَوْلُهُ (بَابُ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ): والعلة في ذلك: أن الله هو السلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في "**البدائع**"(٤٦٣)**:** فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا: السلام على الله»؛ لأن السلام هو المسلّم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم، والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو المسلِّم على عباده كما سلَّم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨١]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥]، وقال لنوح: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨]، ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧-٥٨]. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ قُلْنَا: السَّلامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلامُ عَلَى فُلانٍ وَفُلانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا تَقُولُوا: «السَّلامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ».

قَوْلُهُ (فِي الصَّحِيحِ): في البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه): هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أبو عبد الرحمن الهذلي صحابي أسلم قديمًا.

قَوْلُهُ (كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ، قُلْنَا) هذا يشعر بأن هذا الفعل منسوخ، وناسخه ما يأتي.

قَوْلُهُ «فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ»: أي: من أسمائه السلام، وقولك: السلام عليك أو السلام عليكم هو دعاء بالسلامة، والله عز وجل هو السالم من كل نقص وعيب، وهو المتصف بالكمال المطلق من كل وجه.

قال ابن القيم في "**بدائع الفوائد**"(٤٥٥): وإذا عرفت هذا، فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به؛ لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وَهَم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم، وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه، وبكل اعتبار.

فَعُلِم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزهه به رسوله، فهو السلام من

الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك؛ ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها، فحياته سلام من الموت، ومن السِّنَةِ والنَّوم، وكذلك قَيُّومِيَّتِه وقدرته، سلام من التعب واللّغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلًا، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه، أو ذلك أو مصانعة كما يكون من غيره بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه.

وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام: من أن يكون ظلمًا، أو تشفّيًا، أو غِلظة، أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله، ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله، وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به، من خلاف حكمته وقضاؤه، وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة وشرعه.

ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب، وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم، وخلاف حكمته بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة،

ولا لحاجة، ومنعه عدل محض، وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز، واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه فهو الغنى عن العرش وعن حملته، وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش، ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد.

بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه[1] على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرض، ولا غيره بوجه ما، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورًا في شيء، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله وغناه، وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل، وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذلك كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم ينفِ أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفي أن يكون له ولي من الذُّلِّ، وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه، أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه، أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام، كل ما نزه عنه تبارك وتعالى، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني. اهـ.

---

(١) الأولى أن يقال: (وسلطانه)، والله أعلم.

وفي الحديث: إنكار المنكر، فإن النبي ﷺ لما سمعهم يقولون: (السَّلَامُ عَلَى اللهِ) دلهم على اللفظ الصحيح، وقال: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».

وفيه: أن من أسماء الله الحسنى: (السَّلَامُ)، قال ابن القيم في قوله: (إن الله هو السَّلَامُ) صريح في كون السلام اسم من أسمائه.

وفيه: فضيلة الصحابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ برجوعهم إلى الحق.

وفيه: حرص النبي ﷺ على تعليم أصحابه الخير، وهو كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفيه: أن الجهل هو الأصل عند الإنسان، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، حتى يأتي العلم بعد ذلك، والنبي ﷺ كان يسلم من صلاته، ويقول: اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام» عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام» أخرجهما مسلم (٥٩١، ٥٩٢).

وفي حديث أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُقْرِئُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ» فَقَالَتْ: «إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»[1].

وللسلام آداب منها: قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

ومنها: أن يسلم الكبير على الصغير، والقليل على الكثير، والقائم على القاعد.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٥٦)، والنسائي (٨٣٠١).

٥٢- بَابُ قَوْلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

قَوْلُهُ (بَابُ قَوْلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ): يعني: النهي عن قول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»، بل عليه العزم في المسألة وهو الشدة في طلبها بإظهار الحاجة، والرغبة، أما الاستثناء في هذه المواطن فإنه يشعر بالاستغناء، والله المستعان.

وإنما يكون الاستثناء في الأمور المستقبلة، فتقول: سأخرج إن شاء الله، وأدخل إن شاء الله ونحوه.

ومذهب أهل السنة الاستثناء في الإيمان، فإذا سئل: أمؤمن؟ تقول: إن شاء الله، نرجو ذلك، وهذا هو الأصل، وليس الاستثناء على الشك ولكن على ما يختم له، أو على عدم التزكية، أو على التبرك باسم الله تعالى.

والمرجئة يحرمون الاستثناء في الإيمان، وكانوا لا يرون زواج الشافعية من الحنفي، أو الحنفية من الشافعي؛ لاعتقادهم بأن الشافعية كفار؛ لأنهم يرون الاستثناء في الإيمان، وقد أوجب الأشاعرة ومن إليهم الإستثناء بل وصل الحال إلى أن يستثني في نفسه، وفيما هو معلوم، فيقال له مثلًا: ما اسمك؟ قال: محمد إن شاء الله! أمتزوج أنت؟ قال: نعم إن شاء الله، أكلت اليوم؟ قال: نعم إن شاء الله!

وأما الدعاء فلا يجوز فيه الاستثناء، بل قل: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم ارزقني، تكون عازمًا في الطلب، لكن لا بأس أن تستخير الله، كما ثبت في البخاري (٦٣٨٢) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي

الأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ القُرْآنِ: «إِذَا هَمَّ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللهُـمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّـكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُـوبِ، اللهُـمَّ إِنْ كُنْـتَ تَعْلَـمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْـرِي -أَوْ قَـالَ: فِـي عَاجِـلِ أَمْـرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَـذَا الأَمْـرَ شَـرٌّ لِـي فِـي دِينِـي وَمَعَاشِـي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْـرِفْهُ عَنِّـي وَاصْـرِفْنِي عَنْـهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

قَوْلُهُ (فِي «الصَّحِيحِ»): البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): أي في «الصحيح» (٢٦٧٩): «وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ»، أي: الرغبة في الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستجيب دعاءه.

قَوْلُهُ «فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»: قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في "شرحه على صحيح مسلم" (١٧/٧): باب العزم في الدعاء وَلَا يَقُلْ إِنْ شِئْتَ: قَوْلُهُ ﷺ «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُلْ: اللهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ»[(١)] وَفِي رِوَايَةٍ فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ، لَا مُكْرِهَ لَهُ»[(٢)] وفى رواية «ليعزم الرغب فان الله لايتعاظمه شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[(٢)] .

قَالَ الْعُلَمَاءُ عَزْمُ الْمَسْأَلَةِ الشِّدَّةُ فى طلبها والحزم مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ فِي الطَّلَبِ وَلَا تَعْلِيقَ عَلَى مَشِيئَةٍ وَنَحْوِهَا وَقِيلَ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِجَابَةِ وَمَعْنَى الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الْجَزْمِ فِي الطَّلَبِ وَكَرَاهَةُ التَّعْلِيقِ عَلَى الْمَشِيئَةِ قَالَ الْعُلَمَاءُ سَبَبُ كَرَاهَتِهِ أَنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ اسْتِعْمَالُ الْمَشِيئَةِ إِلَّا فِي حَقِّ مَنْ يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْإِكْرَاهُ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ لَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مُسْتَكْرِهَ لَهُ» وَقِيلَ سَبَبُ الْكَرَاهَةِ أَنَّ فِي هَذَا اللَّفْظِ صُورَةُ الِاسْتِغْفَاءِ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَالْمَطْلُوبِ مِنْهُ. اهـ.

وفي حديث عبادة بن الصامت ﵁ عند الترمذي (٣٥٧٣): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ».

وفيه: أن طلب المغفرة من الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .[آل عمران: ١٣٥].

وفيه: تواطؤ القلب واللسان عند الدعاء لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ».

وفيه: أن الله ﷻ لا يعجزه شيء، فلو سألته ما سألته فالله كريم، وأكثر وأكبر، وفي حديث أبي ذر ﵁ عند مسلم (٢٥٧٧): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،

يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

وقد جاء في بعض الآثار: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يسأل ربه حتى ملح الطعام، فليس بعيب ولا نقيصة أن تلح على ربك في كل شيء، أن يرزقك العلم، والذرية الطيبة، وأن يصرف عنك الشر، وأن ييسر لك الخير، وتجعل بين يدي مطلوبك ما يناسب ذلك من أسماء الله الحسنى ومن صفاته العلى، كما صح عن النبي ﷺ.

وفي معنى الحديث ما يؤيده حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم (٩٩٣): أن النبي ﷺ قال: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ»، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضَ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ».

وفيه: إثبات صفة الرحمة لله عَزَّ وَجَلَّ. وإثبات صفة المشيئة لله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيه: أن المشيئة هي مرادفة للإرادة الكونية التي لابد أن تقع: «مَا شَاءَ اللَّهُ، كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ».

وفيه: ضرورة إصلاح الألفاظ، لاسيما الألفاظ المخالفة للكتاب والسنة، وقد ركز الإمام محمد بن عبد الوهاب على هذه المسألة تركيزًا عظيمًا، فذكر عدة أبواب فيها الدعوة إلى إصلاح الألفاظ لما فيها من ذرائع الشرك، أو مخالفات التوحيد.

فائدة: جاء في الحديث الصحيح: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»(١). وهذا الحديث ليس فيه الدعاء بالشفاء، بل فيه الإخبار بأنه يرجو أن يكون هذا المرض طهارة لك إن شاء الله، من الذنوب كأنه أراد كفارة لك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥٣- بَابُ لا يَقُولُ: عَبْدِي وأَمَتِي

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

قَوْلُهُ (بَابُ لا يَقُولُ: عَبْدِي وأَمَتِي): لأن العبودية هي حق لله عَزَّ وَجَلَّ، فالعبيد عبيده، والإماء إماؤه، والعبيد في حق الذكور، والإماء في حق الإناث، وقد جاء في بعض الأحاديث تجويز مثل هذا الأمر، وهذا النهي محمول على الكراهة؛ لأن العبودية المطلقة هي حق لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "**شرحه على صحيح مسلم**"(٢٢٤٩) (باب حكم اطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد): يُكْرَهُ لِلسَّيِّدِ أَنْ يَقُولَ لِمَمْلُوكِهِ عَبْدِي وَأَمَتِي بَلْ يَقُولُ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلِأَنَّ فِيهَا تَعْظِيمًا بِمَا لَا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ اسْتِعْمَالُهُ لِنَفْسِهِ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ الْعِلَّةَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: (كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ) فَنَهَى عَنِ التَّطَاوُلِ فِي اللَّفْظِ كَمَا نَهَى عَنِ التَّطَاوُلِ فِي الْأَفْعَالِ وَفِي إِسْبَالِ الْإِزَارِ وَغَيْرِهِ وَأَمَّا (غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي) فَلَيْسَتْ دَالَّةً عَلَى الْمِلْكِ كَدَلَالَةِ (عَبْدِي) مَعَ أَنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى الْحُرِّ وَالْمَمْلُوكِ وَإِنَّمَا هِيَ لِلِاخْتِصَاصِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ [يوسف: ٦٢]، وقال لفتيته، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وأما استعمال الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهْيِ مَنِ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى جِهَةِ التَّعَاظُمِ وَالِارْتِفَاعِ لَا للوصف والتعريف والله أعلم. اهـ.

□

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ؛ وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، وَمَوْلايَ. وَلا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلامِي».

قَوْلُهُ: (فِي «الصَّحِيحِ»): البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

قَوْلُهُ: (لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ): بيانه فيما تقدم.

وإلا فإن الرجل المتصرف في الأسرة يقال له: رب البيت، ورب الأسرة، وفي قصة أبرهة مع عبد المطلب: أنا رب إبلي، فاسم الرب إذا حُلي بالألف واللام، فالمراد به الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا لم يحلى بالألف واللام يجوز أن يطلق على غيره، فإن رب بمعنى: صاحب كقولهم: أنا رب أبنائي، ومنها قول الناظم:

رَبابٌ رَبَّةُ البَيتِ ... رَبابٌ رَبَّةُ البَيتِ
لَها عَشرُ دَجاجاتٍ ... ودِيكٌ حَسَنُ الصّوتِ

وهذا أمر معروف في لغة العرب لا ينكرونه، لكن الربوبية المطلقة هي حق الله سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ: (وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، وَمَوْلايَ): وقد جاء أيضًا «السَّيِّدُ اللهُ»، وهذه في السيادة المطلقة، ويجوز أن يطلق: سيد القوم وسيد الحي، وسيد شباب أهل الجنة.

قَوْلُهُ: (وَلا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلامِي): فالنهي جاء لمنع إيهام العبودية المطلقة، أو إيهام الشرك اللفظي، فكان في هذا تحذير من ذلك، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في **"شرحه على صحيح مسلم"**(٢٢٤٩)

(١٥/ ٥-٧): (باب حكم اطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد)

قَالَ الْعُلَمَاءُ مَقْصُودُ الْأَحَادِيثِ شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا: نَهْيُ الْمَمْلُوكِ أَنْ يَقُولَ لِسَيِّدِهِ رَبِّي لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ إِنَّمَا حَقِيقَتُهَا لِلَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَالِكُ أَوِ الْقَائِمُ بالشئ ولا يوجد حَقِيقَةُ هَذَا إِلَّا فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا أَوْ رَبَّهَا

فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْحَدِيثَ الثَّانِي لِبَيَانِ الْجَوَازِ وَأَنَّ النَّهْيَ في الأول للأدب وكراهة التنزيه لا للتحريم.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ النَّهْيُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَاتِّخَاذِهَا عَادَةً شَائِعَةً وَلَمْ يَنْهَ عَنْ إِطْلَاقِهَا فِي نَادِرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَاخْتَارَ الْقَاضِي هَذَا الْجَوَابَ وَلَا نَهْيَ فِي قَوْلِ الْمَمْلُوكِ: سَيِّدِي لِقَوْلِهِ ﷺ: «لِيَقُلْ سَيِّدِي» لِأَنَّ لَفْظَةَ السَّيِّدِ غَيْرُ مُخْتَصَّةٍ بِاللَّهِ تَعَالَى اخْتِصَاصَ الرَّبِّ وَلَا مُسْتَعْمَلَةٍ فِيهِ كَاسْتِعْمَالِهَا حَتَّى نَقَلَ الْقَاضِي عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَرِهَ الدُّعَاءَ بِسَيِّدِي وَلَمْ يَأْتِ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالسَّيِّدِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي حَدِيثٍ مُتَوَاتِرٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ ابني هذا سيد» وقوموا إِلَى سَيِّدِكُمْ» يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ اسْمَعُوا مَا يَقُولُ: سَيِّدُكُمْ» يَعْنِي سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَلَيْسَ فِي قَوْلِ الْعَبْدِ سَيِّدِي إِشْكَالٌ وَلَا لُبْسٌ لِأَنَّهُ يَسْتَعْمِلُهُ غَيْرُ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ وَلَا بَأْسَ أَيْضًا بِقَوْلِ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ: مَوْلَايَ فَإِنَّ الْمَوْلَى وَقَعَ عَلَى سِتَّةَ عَشَرَ مَعْنًى سَبَقَ بَيَانُهَا مِنْهَا النَّاصِرُ وَالْمَالِكُ.اهـ.

قلت: قد صح عند أبي داود في "سننه"(٤٨٠٦) وغيره: عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: قُولُوا

بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»(١)، وأثبته بعض أهل العلم اسما.

وفيه: شمولية الإسلام، وهو كما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: علمنا كل شيء حتى الخراءة»(٢)، وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا»(٣)، وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ، عَمْرو بْنَ أَخْطَبَ رضي الله عنه: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ» فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا(٤).

***

---

(١) والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٢٩٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٤٧)، أحمد (٢١٣٦١)، والبزار (٣٨٩٧)، وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٩٢).

٥٤- بَابُ لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

قَوْلُهُ (بَابُ لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللّهِ) مناسبة الباب للترجمة بيان وجوب تعظيم الله عز وجل، وهل تلزم الإجابة مطلقًا فيها تفصيل، فإن سأل في أمر هو له فيجب عليك أن تعطيه، أو سأل شيئًا مضطرًا إليه، كأن يكون في حالة من الجوع الشديد، سواء قال: أسألك بالله، أو بغيرها، فهذا مع الاستطاعة لا يرد، والأصل في الإجابة الاستحباب.

والإنفاق في سبيل الله عز وجل أجره عظيم، قال الله عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فذكره قبل الصلاة وقبل غيره من العبادات بيانًا لأهميته.

وقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالمال محبوب، ومع ذلك يؤتيه للمحتاج إليه، وقال الله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، ينذرون بالصدقات، وبالحج، وغير ذلك، فيوفون بذلك مع الإنفاق. وفي آيات كثيرة حث الله عز وجل على الجهاد بالمال والنفس.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

قَوْلُهُ: (مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ): على ما تقدم.

قَوْلُهُ: (وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ): وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل في ذلك، حيث خطب امرأة إلى أهلها، فجاءوا بها إلى المدينة، فنزلت في بيت بعض الأنصار، فذهب النبي ﷺ ينظرها، فلما دخل عليها، قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ»[(١)]، وأمرهم أن يكرموها وترجع إلى أهلها، فقيل لها في ذلك، فقالت: أنا كنت أدنى من ذلك، أي: أن أكون زوجة للنبي ﷺ، وليس معنى ذلك أن تفارق زوجتك إذا قالت: أعوذ بالله منك، فإن النساء جاهلات، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لكماله في هذا الباب وغيره.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ): لحديث «أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ، وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ»، أخرجه أحمد (٣٨٣٨) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁.

والنبي ﷺ يقول: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا، فَلْيَطْعَمْ» أخرجه مسلم (١٤٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، وفي رواية: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الوَلِيمَةِ فَلْيَأْتِهَا»، متفق عليه[(٢)]، ولمسلم (١٤٢٩) «إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٤)، عَنْ عَائِشَةَ ﵂.

(٢) البخاري (٥١٧٣)، ومسلم (١٤٢٩)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﵄.

وَلِيمَةِ عُرْسٍ، فَلْيُجِبْ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

فإجابة الدعوة أمر مرغب فيه وإجابة الوليمة واجب، «وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ» أخرجه البخاري (٥١٧٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

قَوْلُهُ (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ): أي: اعرفوا المعروف لأهله؛ من ذكرهم الحسن، والمكافأة الطيبة، ولو لم يكن إلا بالدعاء والبشاشة، وجزاك الله خيرًا، وبارك الله فيك، والذي يعرف فضل الناس عليه، يعرف فضل الله عليه، أما الذي تصنع إليه المعروف فلا يؤثر فيه، وكلما تقربت منه بَعُدَ عنك، وكلما أكرمته تنكر لك، فلا ينفع فيه علاج، وكما قيل:

إذا أنتَ أكْرمتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ ... وَإنْ أنْتَ أكْرمتَ اللّئيمَ تَمَرّدَا

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

قَوْلُهُ (فَإِنَّ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ): وهذا من أعظم المجازاة، جزاك الله خيرًا، بارك الله لك، وقال ابن أبي شيبة في مسنده» (٦١٣): حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: نا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَسْلَفَ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا حِينَ غَزَا حُنَيْنًا، فَلَمَّا قَدِمَ قَضَاهَا إِيَّاهُ ثُمَّ قَالَ: «بَارِكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَفِي مَالِكَ، وَإِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْقَضَاءُ وَالْحَمْدُ».

وفي مسلم (١٠٦١)، وغيره: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟» وَيَقُولُونَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، فَقَالَ: أَلَا تُجِيبُونِي؟» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ

اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

وفي «**الصحيحين**»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ، لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»، وفي البخاري (٤٦٤٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ».

وفي «**الصحيحين**»[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»، كل ذلك من المكافأة لهم على ما نصروه.

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند أحمد (١٣٢٦٨)، وهو في «**الصحيح المسند**» (١/ ١٣) لشيخنا مقبل رحمه الله: قَالَ: أَتَتِ الْأَنْصَارُ النَّبِيَّ ﷺ بِجَمَاعَتِهِمْ فَقَالُوا: إِلَى مَتَى نَنْزِعُ مِنْ هَذِهِ الْآبَارِ؟ فَلَوْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَعَا اللَّهَ لَنَا، فَفَجَّرَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ عُيُونًا، فَجَاءُوا بِجَمَاعَتِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَالَ: «مَرْحَبًا وَأَهْلًا لَقَدْ جَاءَ بِكُمْ إِلَيْنَا حَاجَةٌ»، قَالُوا: إِي وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَنْ تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا إِلَّا أُوتِيتُمُوهُ، وَلَا أَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَانِيهِ».

---

(١) البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: الدُّنْيَا تُرِيدُونَ اطْلُبُوا الْآخِرَةَ، فَقَالُوا بِجَمَاعَتِهِمْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَغْفِرَ لَنَا، فَقَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».

وفي **"الصحيحين"**(١) عن أنس ﷺ: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ مَعَهَا أَوْلَادٌ لَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»، فالمكافأة طيبة، تؤدي إلى المحبة والإخاء، وزيادة البر والخير، والألفة بين المسلمين.

أما قول بعضهم: اتق شر من أحسنت إليه، فهذا لأن الكثير من الناس خالفوا ما أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ من وجوب إكرام من أحسن إليهم، فأصبح الناس يتخوفون ممن يحسنون إليه، وهذا القول ليس بصحيح، ففي صحيح مسلم (٢٥٥٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»، قوله: (الْمَلَّ) أي: الرماد الحار.

وقد ألف ابن الزبرقان كتاب **"فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب"** (٤٦)، وذكر فيه قصصًا في المعروف عند الكلاب، وذكر منها:

أن رجل من أهلِ البصرةِ خرج إلى الجبّانة ينتظرُ ركابه فاتبعه كلب له فطردَه وضربَه وذكرٍ أن يتبعه ورماه بحجرٍ فأدماه فأبى الكلب إلا أن يتبعه فلمّا صار إلى الموضع وثب به قوم كانت لهم عنده طائلة وكان معه جار له وأخ فهربا عنه وتركاه وأسلماهُ فجُرح جرحات كثيرة ورُمي به في بئر وحَثوا عليه بالتراب حتى

---

(١) البخاري (٦٦٤٥)، ومسلم (٢٥٠٩).

واروهُ ولم يشكوا في موته والكلب مع هذا يهر عليهم وهم يرجمونه فلما انصـرفوا أتى الكلب إلى رأس البئر فلم يزل يعوي ويبحث بـالتراب بمخاليبـه حتـى ظهـر رأس صاحبه وفيه نفس يتردد وقد كان أشرف على التلف ولو يبق فيه إلا حشاشة نفسه ووصل إليه الروح فبينما هو كـذلك إذ مـر أنـاس فـأنكروا مكـان الكلـب ورأوه كأنه يحفر قبرا فجاؤوا فإذا هم بالرجل على تلك الحال فاسـتخرجوه حيّـا وحملوه إلى أهله.

وقال: كان للحارث ابن صعصعة ندمان لا يفارقهم شديد المحبة لهم فبعث أحدهم بزوجته فراسلها وكان للحـارث كلـبٌ ربّـاه فخـرج الحـارث في بعـض منتزهاته ومعه ندماؤه وتخلَّف عنهُ ذلك الرجل فلما بعد الحارث عن منزله جـاء نديمه إلى زوجته فأقام عندها يأكل ويشرب فلما سكرا واضّطجعا ورأى الكلـب أنه قد ثار على بطنها وثب الكلب عليهما فقتلهما فلما رجـع الحـارث إلى منزلـه ونظر إليهما عرف القصة ووقف ندماؤه على ذلك، وأنشأ يقول طويل:

ومـا زال يـرعى ذِمَّـتي ويحـوطني ... ويحفـظ عـرسي والخليـل يخـون
فواعجبـا للخـلِّ يهتـك حُـرمتي ... ويا عجبًا للكلـب كيـف يصـونُ

قال وهجر من كان يعاشره واتّخذ كلبه نديما وصاحبًا. انتهى.

وفي "**مجمع الأمثال**" لأبي الفضل النيسابوري (٢/ ١٤٤):

وَمَنْ يَصْـنَعِ المَعْـرُوفَ مـعْ غَـيرِ ... يُـلاَقَ الَّذي لاَقَى مُجِـيرُ امِّ عَامِـرِ
أدامَ لها حِينَ استَجَـارَتْ بقُرْبِـهِ ... لهـا مَحْضَ ألبَانِ اللقَـاحِ الدَّرَائِـرِ
وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إذَا مَـا تَكَـامَلَتْ ... فَـرَتْهُ بأنْيَـابٍ لَهَـا وَأَظَـافِرِ
فَقُلْ لِذِوِي المَعْـرُوفِ هَـذَا جَـزَاءُ ... بَـدَا يَصْنـعُ المَعـرُوفَ فِي غَـيْرِ

***

٥٥- بَاب: لا يُسأَلُ بِوَجهِ اللهِ إلا الْجَنَّةُ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَاب: لا يُسألُ بِوَجه الله إلا الْجَنَّةُ

قَوْلُهُ (بَاب: لا يُسأَلُ بِوَجِه اللهِ إلا الْجَنَّةُ): لعظمة وجهه تعالى لا يجوز للإنسان أن يسأل به كل ما خطر على باله بل يجب عليه أن يعظم شأن المسؤول به، وهو الرب العظيم الكريم.

وقَوْلُهُ (إِلا الْجَنَّةُ): لعظيم نعيمها، وفضل طلبها.

وهذا الباب متعلق بما قبله من حيث تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا حلف عليك بالله أو سئلت بالله فأجب إن كان ذلك في مقدورك، وينبغي ألا نكثر من هذا، ومع ذلك لا يلزم الإجابة في كل شيء، فإن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن عَبَّر الرؤيا، قال: فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ، أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا» قَالَ: فَوَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتُحَدِّثَنِّي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ، قَالَ: لاَ تُقْسِمْ»[(١)]. مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بإبرار المقسم.

***

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلا الجَنَّةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

(عَنْ جَابِرٍ) هو ابن عبد الله بن حرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ (لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلا الجَنَّةُ): الحديث أخرجه أبو داود في «سننه» (١٦٧١) وهو ضعيف، في سنده سليمان بن قرم متروك الحديث، ويغني عنه ما أخرجه أحمد (٢٢٤٨) في جواز السؤال بوجه الله تعالى بسند حسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ فَأَعْطُوهُ».

وفي «مسند أحمد» (٢٠٠٤٣) حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، أَخْبَرَنَا بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ أَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أُولَاءِ أَنْ لَا آتِيَكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَجَمَعَ بَهْزٌ بَيْنَ كَفَّيْهِ، وَقَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ بِمَ بَعَثَكَ اللهُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: بِالْإِسْلَامِ». قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ. كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا لِي أُمْسِكُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ؟ أَلَا إِنَّ رَبِّي دَاعِيَّ وَإِنَّهُ سَائِلِي: هَلْ بَلَّغْتُ عِبَادَهُ؟» وَإِنِّي قَائِلٌ: «رَبِّ إِنِّي قَدْ بَلَّغْتُهُمْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخِذُهُ وَكَفُّهُ». قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ: هَذَا دِينُنَا؟ قَالَ: «هَذَا دِينُكُمْ وَأَيْنَمَا تُحْسِنْ يَكْفِكَ».

والحديث فيه إثبات صفة الوجه لله ﷻ، وهي من الصفات الذاتية الخبرية، والذاتية: هي المتعلقة بالذات وهي التي يتصف الله ﷻ بها أزلًا وأبدًا، والخبرية التي لا تُعلم إلا بخبر الكتاب والسنة، وقيل: هي التي مسماها أجزاء وأبعاض لنا.

وقد صح عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١)، ولما أنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال النبي ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ»، أخرجه البخاري (٤٦٢٨) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه ، وقال ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وفي الحديث: النهي عن السؤال بوجه الله ﷻ، وقد جاء حديث يصححه الشيخ الألباني في الصحيحه» (٢٢٩٠): «مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللهِ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ، ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ هَجْرًا» عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه ، يعني: ما لم يسأله أمرًا لا يستطيعه.

قَوْلُهُ (إلا الجنَّةُ): لأنها شيء عظيم، وهي رحمة من الله ﷻ يدخل فيها عباده المؤمنين، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٦٦)، البيهقي في الدعوات «الكبير» (٦٨)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما.

مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»(١).

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة، أنها موجودة الآن، وسقفها عرش الرحمن، وأنها لا تفنى ولا تبيد بل خلقها الله، والنار للبقاء، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. [النساء: ٥٧].

وقد تكلمت على ذلك في كتابي "**سلامة الخلف في طريقه السلف**".

***

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦).

٥٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ(لوْ)

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ(لوْ)

قَوْلُهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ:(لوْ)): أي: من الجواز والمنع إذ قد جاء النهي عن قولها، وجاء الدليل بقولها، قال النبي ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا» متفق عليه[1]، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهذا الحديث فيه جواز قول لو، وهذا إذا لم يكن على التسخط والاعتراض على قدر الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما فيه الترغيب والحث على التمتع في الحج.

وقد بوب البخاري في "**صحيحه**" في كتاب التمني، بَابُ مَا يَجُوزُ مِنَ اللَّوْ، وذكر تحته جمعًا من الأحاديث.

***

(١) البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]

قَوْلُهُ ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: أي: يقولون في أنفسهم، ويخفون ذلك عن رسول الله ﷺ، فأظهر الله ما في نفوسهم لرسوله ﷺ، والآية في غزوة أحد وكانت في السنة الثالثة من الهجرة، والآية بتمامها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (٢/ ١٤٥): فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يَعْنِي: أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمُ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ ويُنْجِز لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يَعْنِي: لَا يَغْشَاهُمُ النُّعَاسُ مِنَ الْقَلَقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.[الفتح: ١٢]

وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ، اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّها الْفَيْصَلَةُ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وأهلُه، هَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ

الْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ، تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّنِيعَةُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ: ﴿يَقُولُونَ﴾، فِي تِلْكَ الْحَالِ:

﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثُمَّ فسر مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أَيْ: يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا ذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَاللهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قول مُعْتَب بن قُشَير، مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ، يَقُولُ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فَحَفِظْتُهَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، لِقَوْلِ مُعتَب. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أَيْ: هَذَا قَدَرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللهِ عز وجل، وَحُكْمٌ حَتْم لَا يُحَادُ عَنْهُ، وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ. ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أَيْ: يَخْتَبِرَكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ، وَلِيَمِيزَ الخبيث مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أَيْ: بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قوله: (وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]): روى مجاهد عن جابر رضي الله عنه أنها نزلت في ابن سلول، وهي قول المنافقين: قالوا: لو أن هؤلاء الذين قتلوا يوم أحد أطاعونا ولم يطيعوا محمد ﷺ، وجلسوا في بيوتهم لما قتلوا وسلموا، فقال الله عز وجل مبينًا فساد قولهم: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.[آل عمران: ١٦٨].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

قَوْلُهُ (فِي الصَّحِيحِ): وهو صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦٦٤)، وأول الحديث: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»، وهذه هي العلة في عدم المجيء بـ: (لو)؛ أنها تفتح عمل الشيطان، في الاعتراض على أقدار الله عز وجل، وعدم الرضا؛ مع أن الله عز وجل أمرنا بالرضا بقدره: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، فالأمر أمر الله، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وما وقع في هذا الكون فهو بقدره وبمشيئته، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: بذنوبك وبمعاصيك، فالذي خلصنا به: أن لو لا يُنهى عنها مطلقًا، ولا يؤتى بها مطلقًا، ويُنهى عنها إذا كانت على الاعتراض على قدر الله عز وجل، ويؤتى بها إذا كانت على الترغيب في الأمر، والتحضيض عليه.

قال النووي في "شرحه على صحيح مسلم"، حديث رقم: (٢٦٦٤)، (باب الايمان للقدر والاذعان له): قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا النَّهْيُ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ قَالَهُ مُعْتَقِدًا ذَلِكَ حَتْمًا وَأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ تُصِبْهُ قَطْعًا فَأَمَّا مَنْ رَدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا ما شاء اللَّهُ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فِي الْغَارِ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ رَأْسَهُ لَرَآنَا» قَالَ الْقَاضِي: وَهَذَا لَا حُجَّةٌ فِيهِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ مُسْتَقْبَلٍ وَلَيْسَ فِيهِ دَعْوَى لِرَدِّ قدر بعد وقوعه قال وكذا جميع ماذكره الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ مَا يَجُوزُ مِنَ اللَّوِّ كَحَدِيثِ «لَوْلَا حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَأَتْمَمْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» ولوكنت راجما بغير بينة لرجمت هذه» ولولا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ» وَشِبْهِ ذَلِكَ، فَكُلُّهُ مُسْتَقْبَلٌ لَا اعْتِرَاضَ فِيهِ عَلَى قَدَرٍ فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنِ اعْتِقَادِهِ فِيمَا كَانَ يَفْعَلُ لَوْلَا الْمَانِعُ وَعَمَّا هُوَ فِي قُدْرَتِهِ فَأَمَّا مَا ذَهَبَ فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: فَالَّذِي عِنْدِي فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّهْيَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَعُمُومِهِ لَكِنَّهُ نَهْيُ تَنْزِيهٍ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» أَيْ يُلْقِي فِي الْقَلْبِ مُعَارَضَةَ الْقَدَرِ وَيُوَسْوِسُ بِهِ الشَّيْطَانُ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي، قُلْتُ: وَقَدْ جَاءَ مِنَ اسْتِعْمَالِ لَوْ فِي الْمَاضِي قَوْلُهُ ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ» وَغَيْرُ ذَلِكَ فَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ إِطْلَاقِ ذَلِكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَيَكُونُ نَهْيُ تَنْزِيهٍ لَا تَحْرِيمٍ فَأَمَّا من قاله تأسفا على ما فات من طاعة الله تعالى أو ما هو مُتَعَذَّرٌ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَنَحْوِ هَذَا فَلَا بَأْسَ بِهِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ أَكْثَرُ الِاسْتِعْمَالِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.اهـ.

***

٥٧- بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

قَوْلُهُ (بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ): مناسبة الباب للترجمة أن الريح مسخرة مأمورة، فسبها قد يفضي إلى سب من أرسلها ونحو ذلك؛ والريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، وفي «**صحيح مسلم**» (٨٩٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قَالَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ، يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨].

والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» متفق عليه⁽¹⁾، فالصبا هي الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وعند ابن جرير (١٩/ ٢٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلَنِي خَالِي عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَرِيحٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ائْتِنَا

---

(١) البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بِطَعَام وَلِحَافٍ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَذِنَ لِي وَقَالَ: «مَنْ لَقِيتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا»، قَالَ: فَذَهَبْتُ وَالرِّيحُ تَسْفِي كُلَّ شَيْءٍ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَمَرْتُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَمَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُنُقَهُ، قَالَ: وَكَانَ مَعِي تُرْسٌ لِي فَكَانَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُهُ عَلَيَّ، وَكَانَ فِيهِ حَدِيدٌ، قَالَ: فَضَرَبَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى وَقَعَ بَعْضُ ذَلِكَ الْحَدِيدِ عَلَى كَفِّي، فَأَنْفَذَهَا إِلَى الْأَرْضِ.

وفي **"صحيح مسلم"** (١٧٨٨) عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟

لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ».

فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا مَا تَكْرَهُونَ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»، صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

قَوْلُهُ (عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): هو ابن قيس النجاري الأنصاري، كناه رسول الله ﷺ بأبي المنذر، وهو من قراء الصحابة رضي الله عنهم، ومن فضائله: ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "الصحيحين"[1]: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١]»، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ» فَبَكَى.

قَوْلُهُ (لا تَسُبُّوا الرِّيحَ): لما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا، فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا»[2]، وفي حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»[3]، والله عز وجل هو المسخر للريح: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.[ص: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ

---

(١) البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٣١) وابو داود (٥٠٩٧)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ١٤٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩)، تقدم.

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣]، وقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وفي الحديث من الفوائد: النهي عن سب الريح؛ لأن سبها من التسخط على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن الريح قد جاءت بالنصر وجاءت بالعذاب، وسبها مطلقًا لا يجوز، ولكن إذا رأيت ما تكره منها كأن تخشى أن تكون ريح عذاب، فاسأل الله عَزَّ وَجَلَّ خيرها، اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخيرها أنها تسوق السحاب الذي ينزل الله عَزَّ وَجَلَّ منه المطر، وتلقح الثمار، وتنقي الجو من الأتربة والغبار.

ولولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ سخر الريح لما سارت السفن على البحر، ولصارت البحار جيف، لكن من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ جعله بحرًا مالحًا، إذا ماتت فيه الحيوانات لا تتحلل تحللًا يصدر منه النتن، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]

***

٥٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قَوْلُهُ (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٤]، الآية): مناسبة الباب للترجمة ما عليه أهل الكفر والنفاق من سوء الظن بالله لأنهم ما قدروه حق قدره، وفي الباب بيان حال الكفار والمنافقين في ظنهم بالله عَزَّ وَجَلَّ غير الحق والتحذير من مشابهتهم، والواجب على المسلمين إحسان الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، ففي الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»(١)، ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمرًا بضد ذلك: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٢)، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في شأن المنافقين: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ويقول الله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمؤمن يحسن الظن بالله في كل الأحوال، وذلك لأن الله ﷻ متصف بصفات الجمال والجلال والرحمة، فلن يضيع عمل عامل، ولن يخذل أولياءه، بل يدافع عنهم وينصرهم ويمكن لهم وإن وقع عليهم شيء، فللابتلاء والاختبار والتمحيص.

وأما قول الله ﷻ في يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فمعناه: أنه تيقن أن لن يضيق الله عليه.

قوله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾: تقدم بيانها في باب ما جاء في (اللو).

قوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾: إن شاء نصر، وإن شاء هزم، وإن شاء أحيا، وإن شاء أمات، وإن شاء أعز، وإن شاء أذل، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وأمره تعالى جاري على مقتضى حكمته.

قوله ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: وهو قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، قالوا في أنفسهم، فأظهره الله لنبيه ﷺ، والله ﷻ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا تخفى عليه خافية.

قوله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: وكان هذا في يوم أحد حين حصل ما حصل على المسلمين فقتل منهم سبعون، منهم حمزة رضي الله عنه

عم رسول الله ﷺ، وكانت هذه الهزيمة بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢-١٥٣].

قَوْلُهُ ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾: أي: قل يا محمد لهؤلاء: لو كنتم في بيوتكم وقد كتب الله عليكم الموت أو القتل فإنه مصيبكم كما قال الله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨]، ويدل على هذا حديث أَبِي عَزَّةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»(١).

مَشَيْنَاهَا خُطًى كُتِبَتْ عَلَيْنَا ... وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًى مَشَاهَا
وأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَرِّقَاتٌ ... فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ مَشْيًا أَتَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ ... فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

قَوْلُهُ ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]: أي: يختبر ما في صدوركم من اليقين والصدق مع الله ﷻ ويظهر سرائرها من إخلاص أو نفاق.

قَوْلُهُ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ﴾: أي: يميزه ويكشفه ويخلصه من

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٠)، والحاكم (١٢٧).

الوسواس.

قَوْلُهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: وهذا لبيان علم الله المحيط بكل شيء، إذ هو تعالى عالم بظواهر الأمور وخافيها، وقد عفا الله عَزَّ وَجَلَّ عن المؤمنين وتجاوز وهذا من فضله العظيم الواسع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿[وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ] ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ [وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦]﴾ [الفتح: ٦].

قَوْلُهُ ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾: فيه بيان ما عليه أهل النفاق والكفر من ظن السوء بالله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا تحذير من سلوك سبيلهم، وبيان أنهم مخلدون في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، والفرق بينهما في الدنيا أن المنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر، والكافر ظاهره وباطنه سواء، ولما كان حال المنافقين إظهار الإسلام وإبطان الكفر، كان عذابهم أشد وأنكى، وإنما ظهر النفاق بعد غزوة بدر بعد قوة المسلمين، وأما قبل ذلك لم يكن إلا مؤمن خالص أو كافر خالص.

وثبت في مسلم (١٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ، قَالَ: «فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبَخَةٌ»، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَوَاللهِ، لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللهِ، لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، قَالَ: فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ، وَبِالْأَيْدِي، وَبِالنِّعَالِ، قَالَ: فَبَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات: ٩]، وبعد ظهور قوة الإسلام جعلوا يتقربون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رحمه الله تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ. فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ». وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ؛ بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

قَوْلُهُ (...فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ..): وإنما الذي يقع أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يديل الكفار على المؤمنين أحيانًا من باب الابتلاء ومن باب الاختبار، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وليقع من المؤمن التضرع واللجوء إلى الله وعدم الفخر والعجب، ولما قال من قال: لن نهزم اليوم عن قلة، عاقبهم الله بما عاقبهم، ثم كان النصر للمسلمين، وقَالَ هرقل لأبي سفيان: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَكْثَرُ النَّاس يَظُنُّونَ باللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إلا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ، وَصِفَاتَهُ، وَمُوجِبَ حِكْمَتَهُ وَحَمْدَهُ.

فَلِيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلِيَتُبْ إلَى اللهِ، وَلِيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى القَدَرِ وَمَلامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ. وَفَتِّشْ نَفْسَكَ، هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ أَمْ لا؟

قَوْلُهُ (وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إلا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتَهُ، وَمُوجِبَ حِكْمَتَهُ وَحَمْدَهُ): كحال المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قَوْلُهُ (فَلِيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا): إلى قوله: (فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ وَفَتِّشْ نَفْسَكَ، هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ أَمْ لا؟): كلنا نحتاج إلى أن نتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والنفوس ضعيفة، وقد يحصل من الإنسان أحيانًا تضجر وعدم الرضا بالقضاء والقدر، لكن عليه أن يستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلا فَإِنِّي لا أُخَالُكَ نَاجِيًا

انتَهَى كَلامُهُ رحمه الله تَعَالَى.

أي: فإن تنج من هذا الخلق الذميم فقد نجوت من عظيمة وبلية كبيرة، وإن كنت لا أظنك تنجو لكثرة الهالكين.

وظن السوء بالله عَزَّ وَجَلَّ من أسباب الهزائم، وحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ من أسباب النصر والتمكين، وانظر إلى هذا الحديث العظيم: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»(١)، أي: سيحصل له الذي يظنه، فليكن ظنك بالله حسنًا.

***

(١) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٧٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللهُ، عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٥٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ): أي: من الوعيد، وبيان ما هم عليه من الحال، وتناسب الإتيان بهذه الأبواب الأربعة، من حيث أنها دالة على تحقيق الرضا بما هو من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وتحقيق الإيمان بالقدر خيره وشره.

وَالقَدَرُ: هو تقدير الله عَزَّوَجَلَّ، وهو علم الله الأزلي الأبدي، وهو سر الله، لم يُطلع عليه نبيًا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا، ومنكرو القدر صنفان:

الصنف الأول: القدرية النفاة: وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق الشر، ومنهم نفاة العلم، فيزعمون أن الله لا يعلم ما يعمل العباد إلا بعد وقوعه، وهذا القول كفر، وسيأتي بيانه في كلام ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصنف الثاني: القدرية الجبرية: وهم اتباع الجهم بن صفوان، وقد غلوا في الإثبات، وزعموا أن الإنسان كالريشة في مهب الريح، أو كالميت بين يدي المغسل ليس له قدرة ولا استطاعة ولا مشيئة.

والقول الحق: أننا نثبت القدر؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومراتب القدر أربعة:

الأولى: العلم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] فلا يخرج شيء عن علمه.

والثانية: الكتابة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي

وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، ويدل عليه حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

والثالثة: المشيئة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فمشيئته نافذة في كل ما يقع في هذا العالم.

والرابعة: الخلق: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي الحديث: «الله خالق كل صانع وصنعته»، أخرجه البخاري في "**الأدب المفرد**"، فهو تعالى خالق الخير والشر. قال السفاريني:

عِلْمٌ كِتابَةُ مَوْلاَنَا مَشِيئَتُهُ ... وخَلْقُهُ وَهُوِ إيجَادٌ وَتَكْوِينُ

فمن آمن أن الله عز وجل يعلم ما كان وما يكون، وأن الله عز وجل قد كتب ما كان وما يكون في اللوح المحفوظ، وأنه لن يكون في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته النافذة، وأن الله عز وجل خالق الخير والشر، فقد حقق الإيمان بالقدر، ومن أنكر إحدى هذه المراتب فهو ضال مبتدع مخاصم في القدر، وأما من أنكر مرتبة العلم فهو كافر بالله العظيم.

ويستدل المعتزلة على نفي الخلق بقول رسول الله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه ، فيزعمون أنهم ينزهون الله عن خلق الشر، والرد على هؤلاء ما ذكره النووي في شرح مسلم» (٦/ ٥٩) قال: وَأَمَّا قَوْلُهُ «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» فَمِمَّا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ لِأَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كُلَّ الْمُحْدَثَاتِ فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَلْقُهُ سَوَاءٌ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا وَحِينَئِذٍ يَجِبُ تَأْوِيلُهُ وَفِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ، أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ قَالَهُ الخليل بن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

أحمد والنضر بن شميل واسحق بْنُ رَاهَوَيْهِ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ خُزَيْمَةَ وَالْأَزْهَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ، وَالثَّانِي: حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ عَنِ الْمُزَنِيِّ وَقَالَهُ غَيْرُهُ أَيْضًا مَعْنَاهُ لَا يُضَافُ إِلَيْكَ عَلَى انْفِرَادِهِ لَا يُقَالُ يَا خَالِقَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ وَيَا رَبَّ الشَّرِّ وَنَحْوُ هَذَا وَإِنْ كَانَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَحِينَئِذٍ يَدْخُلُ الشَّرُّ فِي الْعُمُومِ، وَالثَّالِثُ: مَعْنَاهُ وَالشَّرُّ لَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ إِنَّمَا يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالرَّابِعُ: مَعْنَاهُ وَالشَّرُّ لَيْسَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ فَإِنَّكَ خَلَقْتَهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَإِنَّمَا هُوَ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ، وَالْخَامِسُ: حَكَاهُ الْخَطَّابِيُّ أَنَّهُ كقولك فلان إلى بني فلان إِذَا كَانَ عِدَادُهُ فِيهِمْ أَوْ صَفُّوهُ إِلَيْهِمْ. اهـ.

والله ﷻ خلق الشر لحكمة أرادها وعلمها، ثم أعلم أن الخير مراد لذاته فهو محبوب عند الله، والشر مراد لغيره إذ تتحقق به مصالح دينية ودنيوية، فمن حقق هذا زالت عنه شبه المبتدعة، وقد تكلمت عن هذا الباب بتوسع في "**كتابي سلامة الخلف في طريقة السلف**"، والحمد لله.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

قَوْلُهُ (وَالَّذِي نَفْسُ ابْنُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ): هذا تكفير من ابن عمر رضي الله عنه للقدرية نفاة العلم، والنظر في مقدمة هذا الحديث، يجد أن يحيى بن يعمر يقول: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ -في البصرة- يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ[(١)]، يعني: أن الله لا يعلم حتى يفعل العبد الفعل، وذكر شيخ الإسلام والنووي أن هذه الفرقة انقرضت، وأنا أستبعده؛ لأنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، لكن والله أعلم، لما قويت السنة، وظهر فساد هذا القول لم يجرؤا على إظهاره، لظهور فساده وقبحه.

ثم ذهبوا إلى قول آخر: وهو أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وهذا القول باطل، فإن ما من موجود في هذا العلم إلا وهو جزئي، والكليات لا تكون إلا في الذهن، والله تعالى يقول: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

***

(١) أخرجه مسلم (٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (الإِيمَانُ): أي أركانه.

قَوْلُهُ (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ): ربا ويتحقق الإيمان بالله بتحقيق الإيمان بأربعة أركان:

الأول: الإيمان بوجوده. **الثاني:** الإيمان بربوبيته.

الثالث: الإيمان بألوهيته. **الرابع:** الإيمان بأسمائه وصفاته.

قَوْلُهُ (وَمَلائِكَتِهِ): جمع ملك وهم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكّل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكّل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفا، والناشرات نشرا، والفارقات فرقا، والملقيات ذكرا. ومنهم: النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، والسابقات

سبقا. ومنهم: الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا.

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكّلون بالحياة، فجبريل موكّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكّل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

قَوْلُهُ (وَكُتُبِهِ): جمع كتب، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، مثل التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأما الإيمان بالقرآن: فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب ونؤمن أن غيره من الكتب قد لحقه التحريف والتبديل بينما القرآن محفوظ بحفظ الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، إلى قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قَوْلُهُ (وَرُسُلِهِ): وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ

وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ: فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالًا وتفصيلًا وأنه أرسل إلى الناس كافة وخاتم النبيين، إلى غير ذلك مما هو مقرر في موطنه.

قَوْلُهُ (وَالْيَوْمِ الآخِرِ): هو يوم القيامة وما يتعلق به من أحكام ويدخل فيه الإيمان بما في القبر من النعيم والعذاب، وما يليه من البعث والنشور ووزن الأعمال وتطاير الصحف، ورؤية الله تعالى، ومرور المؤمنين على الصراط، ودخول الجنة والنار وغير ذلك، وأدلته مذكورة في سور المفصل بأوضح بيان.

قَوْلُهُ (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ): هذا هو الشاهد من الحديث في هذا الباب.

فالله عَزَّوَجَلَّ خالق الخير والشر، والهدى والضلال، فما من حركة أو سكنة في هذا العالم إلا والله خالقها والمتصرف فيها قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فلا بد من تحقيق هذا الباب على وفق معتقد أهل السنة والجماعة عقيدة الرسل.

وفيه بيان لما يجب أن يسير عليه أهل العلم من سَوْق الأدلة على أقوالهم؛ لأن الحجة فيها ولن يتحقق الإيمان إلا بالإيمان بالقدر ففي الحديث: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»(١).

***

(١) أخرجه البزار (٦٣٥٧) وهذا لفظه، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤٩٠)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ٤) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيرهم، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: «اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لابْنِ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ».

قَوْلُهُ (عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وهو أبو الوليد الأنصاري أحد النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة.

قَوْلُهُ (إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ): أي: لذته وزيادته.

قَوْلُهُ (حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ): أي: حتى تحقق الإيمان بالقدر وأن كل شيء على ما أراده الله وقضاه، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند الترمذي (٢٥١٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ

يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

وفي الحديث إثبات الكتابة، وأن الله ﷻ قد كتب الخير والشر.

قَوْلُهُ (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ): أي لما خلق الله القلم أمره بكتابة ما كان وما يكون في هذا العالم.

واختلف العلماء في أول المخلوقات، فذهب بعضهم إلى أنه القلم، وذهب بعضهم إلى أنه العرش، واستدل من قال: بأن أول مخلوق هو القلم بهذا الحديث، والصحيح: أن لا دلالة لهم فيه، وإنما الحديث يدل على أن الله لما خلق القلم قال له: اكتب، فكتب، وإلا فإنّ العرش كان موجودًا قبل ذلك، لحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١)، فالكتابة كانت والعرش على الماء.

وفي الحديث أهمية الاستدلال بالكتاب والسنة لرد دعوى المبتدعة.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟): فيه أن المخلوق لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وأن الله قد يجعل الجماد يتكلم.

قَوْلُهُ (اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَى تَقُومَ السَّاعَةُ): أي تقدير الله للمخلوقات من أرزاقها وأجالها، وأحولها فكله مكتوب في اللوح المحفوظ، وفيه رد على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الجزئيات.

قَوْلُهُ (مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي): أي أنه ليس على الطريق النبوي بل من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فهو كافر؛ لأنه ضيع ركنًا من أركان الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

الستة، وأخرج مسلم (٢٦٥): عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]».

قَوْلُهُ (فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ): أي كتب كل ما سيكون في هذا العالم من خير وشر إلى قيام الساعة.

قَوْلُهُ (فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ): إما على الخلود إن أنكر العلم، وكذب بالقدر، وإما على الوعيد إن أنكر بعض ما يتعلق بذلك مما لا يوجب الكفر.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي «الْمُسْنَدِ» وَ«السُّنَنِ» عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ ابْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ».

حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

قَوْلُهُ (وَفِي الْمُسْنَدِ): أي: مسند أحمد (٢١٦٥٣)، **(وَالسُّنَنِ):** أي: سنن أبي داود» (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

قَوْلُهُ (عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ): هو عبد الله بن فيروز ثقة، وأبوه فيروز الديلمي أبو عبد الله رضي الله عنه ، ويقال له الحميري ويقال ابن الديلمي وهو أحد الوافدين على رسول الله ﷺ، وهو قاتل الأسود العنسي.

قَوْلُهُ (أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ...): الحديث، وقد ساق المؤلف الحديث لبيان منزلة الإيمان بالقدر.

قَوْلُهُ (لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ): موافق لقول ابن عمر رضي الله عنهما وهذا تكفير للقدرية لأن الذين لا يقبل منهم هم الكفار.

قَوْلُهُ (وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ

لِيُصِيبَكَ): هذا هو تحقيق الإيمان بالقدر، وبيانه أن كل ما يقع في هذا العالم بتقدير الله تعالى، وما تخلف فبتقديره، وقد تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»(١).

وفيه: أن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة، ومن كفر به كان كافرًا.

وفيه: التثبت وسؤال أكثر من عالم حتى تزول الشبهة بالكلية.

وفيه: أن الوسوسة قد تحصل وتطرأ على العبد فيدفعها، فإن لم تندفع فعليه أن يسأل العلماء حتى يدفعها الله بما يسمع من الأدلة ومن أنفع أسباب زوال الشبه الدعاء والتضرع لله عز وجل بدفعها ورفعها والاستعاذة من الشيطان.

وفيه: بيان الحق لإزالة الشبه التي تضعف الإيمان وربما تذهبه، وقد أخرج الحديث أحمد (٢١٥٨٩): عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: لَقِيتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي. قَالَ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ» قَالَ: فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ»): أي في "**المستدرك**"، والصواب أنه لم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٣٣٦) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

يخرجه في مستدركه، وكأنه سبق قلم من المؤلف، وقد أخرجه أحمد (٢١٥٨٩)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وهو في "**الصحيح المسند**" لشيخنا الوادعي (١/ ٢٩٧-٢٩٨).

وذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب هذا الباب؛ لكثرة المخالفين في القدر، فالرافضة، والزيدية، والأشاعرة، والجهمية، والمعتزلة كلهم مخالفون فيه.

وقد صنف العلماء كتابًا في القدر لأهمية الكلام عنه، والرد على أهل البدع ومن ذلك "**القدر**" للفريابي، و"**القدر**" للبيهقي، و"**الجامع الصحيح في القدر**" للوادعي رحمهم الله جميعًا، وتضمنت المعاجم والمسانيد وكتب السنة كثيرًا من ذلك، وبالله التوفيق.

***

٦٠- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ:
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ): أي: من الوعيد العظيم، ومناسبة ذكر هذا الباب؛ لأن التصوير ذريعة إلى الشرك، وهذا المنكر الذي انتشر في هذه الأزمان انتشارًا واسعًا حتى أضحى أغلب الناس يستخدمونه في جميع شؤونهم مع ما في ذلك من الأحاديث الدالة على حرمة ذلك ومن هذه الأحاديث:

ما ذكرت في كتابي الأدلة البيِّنات على تحريم تصوير ذوات الأرواح» قلت فيه:

ففي "**صحيح مسلم**"(٢١٠٤): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصًا، فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: مَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَا رُسُلُهُ»، ثُمَّ الْتَفَتَ، فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَاهُنَا؟» فَقَالَتْ: وَاللهِ، مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ»، فَقَالَ: مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ، إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ».

وأخرج رقم (٢١٠٥): عَنْ مَيْمُونَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَصْبَحَ يَوْمًا وَاجِمًا، فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدِ اسْتَنْكَرْتُ هَيْئَتَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ، قَالَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَلْقَانِي اللَّيْلَةَ فَلَمْ يَلْقَنِي، أَمَ وَاللهِ مَا أَخْلَفَنِي»، قَالَ: فَظَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَهُ ذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ فُسْطَاطٍ لَنَا، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ مَكَانَهُ، فَلَمَّا أَمْسَى لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ: «قَدْ كُنْتَ وَعَدْتَنِي أَنْ تَلْقَانِي الْبَارِحَةَ»، قَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ»، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، حَتَّى إِنَّهُ يَأْمُرُ بِقَتْلِ كَلْبِ الْحَائِطِ الصَّغِيرِ، وَيَتْرُكُ كَلْبَ الْحَائِطِ الْكَبِيرِ.

وعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ»، أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

وأخرج مسلم (٢١٠٧): قالت عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ لَنَا سِتْرٌ فِيهِ تِمْثَالُ طَائِرٍ، وَكَانَ الدَّاخِلُ إِذَا دَخَلَ اسْتَقْبَلَهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَوِّلِي هَذَا، فَإِنِّي كُلَّمَا دَخَلْتُ فَرَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا» قَالَتْ: وَكَانَتْ لَنَا قَطِيفَةٌ كُنَّا نَقُولُ عَلَمُهَا حَرِيرٌ، فَكُنَّا نَلْبَسُهَا.

وأخرج البخاري برقم (٢٤٧٩): أنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَفِي الْبَيْتِ قِرَامٌ فِيهِ صُوَرٌ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ، وَقَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ».

وعنها رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ هَتَكَهُ وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ» قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنه: «فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ».

وفي لفظ لها رضي الله عنها عند البخاري (٢١٥٠)، ومسلم: «إِنَّ أَصْحَابَ الصُّوَرِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَهَا يُعَذَّبُونَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

وفي البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩): عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

قال: قال رَسُوْلُ اللهُ ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ».

ولهما البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠): عند سعيد بن أبي الحسن قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ أُصَوِّرُ هَذِهِ الصُّوَرَ، فَأَفْتِنِي فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: أُنَبِّئُكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا، نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ» وقَالَ: «إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ»، فَأَقَرَّ بِهِ نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ.

وفي لفظ لهما: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ عز وجل: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً».

ولمسلم (٢١١٢): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ تَمَاثِيلُ أَوْ تَصَاوِيرُ».

قال النووي رحمه الله في شرح أحاديث الباب (١٤/ ٨١): قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ تَصْوِيرُ صُورَةِ الْحَيَوَانِ حَرَامٌ شَدِيدُ التَّحْرِيمِ وَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ لِأَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ الْمَذْكُورِ فِي الْأَحَادِيثِ وَسَوَاءٌ صَنَعَهُ بِمَا يُمْتَهَنُ أَوْ بِغَيْرِهِ فَصَنْعَتُهُ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ لِأَنَّ فِيهِ مُضَاهَاةً لِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَوَاءٌ مَا كَانَ فى ثوب أو بساط أودرهم أَوْ دِينَارٍ أَوْ فَلْسٍ أَوْ إِنَاءٍ أَوْ حَائِطٍ أَوْ غَيْرِهَا وَأَمَّا تَصْوِيرُ صُورَةِ الشَّجَرِ وَرِحَالِ الْإِبِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ صُورَةُ حَيَوَانٍ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ هَذَا حُكْمُ نَفْسِ التَّصْوِيرِ. اهـ.

ونزيد على هذا ما أخرجه مسلم في **"صحيحه"**(٩٦٩): عن علي بن أبي

طالب رضي الله عنه قال لأبي الهياج: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ: «لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا».

وفي بعض الأحاديث: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ»[1]، وابن عباس رضي الله عنهما لما أفتى هذا الرجل بهذا الحديث، قَالَ: «إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ»[2].

قال الشيخ مقبل رحمه الله في "**إجابة السائل**"(٢٤٩): (صورة) نكرة في سياق النفي، يشمل كل صورة، بعدها يأتي بفتوى صاحب الفضيلة: أنه قد أجاز أن يتصور الشخص في التلفزيون، وأن يتصور بالفيديو من أجل الدعوة.اهـ.

فخلصنا بهذه الأحاديث التي غيرها أكثر منها إلى أن تصوير ذوات الأرواح من كبائر الذنوب والآثام، سواء في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو الفيديو أو النحت وغير ذلك من أنواع التصوير.

فعلى المسلم البعد عن هذه البلية العظيمة، والفتنة الجسيمة التي وقع فيها الناس بجهلهم بدين رب العالمين، وسنة سيد المرسلين، وأما القول بجوازها لصنع عائشة رضي الله عنها للعب، أو الفرس الذي له أجنحة فجوابه من أوجه:

الأول: أنها كانت غير مكلفة في ذلك الوقت، وهذا الجواب قد يكون بعيدًا.

الثاني: أنها إنما تصنع كهيئة ما ذكر، وليس معناها أنه تضاهي خلق الله عز وجل.

والثالث: أن ما صنعه الطفل للعب لا ينكر عليه فيه.

الرابع: لم يرد أن النبي ﷺ هو الذي أعانها وصنع لها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، والحديث في «الصحيح المسند»(٢/ ١٤٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.
(٢) أخرجه مسلم (٢١١٠).

وأما الاستدلال بما ألزمت به الحكومات من التصوير للجوازات والبطائق، فالإثم عليهم ولم يكن إلزامهم هذا شرع لنا يجب علينا فعله، وإن فعلناه للحاجة فالإثم على من ألزم مع فعلنا له مع الكراهة، ولا يستدل بالباطل على جواز الباطل.

واعلم أن التصوير يُحرم لعلتين:

الأولى: مضاهاة خلق الله عز وجل.

الثاني: أنه ذريعة إلى الشرك كما تقدم من صنع قوم نوح عليه السلام.

قَوْلُهُ (قَالَ اللهُ تَعَالَى): فيه بيان أن الله عز وجل متكلم بحرف وصوت.

قَوْلُهُ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي..): الحديث، أي: من أشد الناس ظلمًا من ضاهى بخلق الله عز وجل.

قوله (أَخْرَجَاهُ): أي: البخاري (٧٥٥٩)، مسلم (٢١١١).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ».

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا): أي: للبخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

قَوْلُهُ (الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ): أي: يشابهون بخلق الله، والمعنى: أنهم الذين يصورون صور ذوات الأرواح.

قَوْلُهُ (وَلَهُمَا عَنْهُ): البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

قَوْلُهُ (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ): وهذا وعيد عظيم، وأنه يوم القيامة، يكلف ويؤمر أن ينفخ فيها الروح ولن يستطيع ذلك. وكل هذا مما يدل على أن تصوير ذوات الأرواح من كبائر الذنوب.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَنْ لا تَدَعَ صُورَةً إِلا طَمَسْتَهَا، وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتَهُ».

قَوْلُهُ (وَلِمُسْلِمٍ): (٩٦٩). **قَوْلُهُ (عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ):** وهو حيان بن حصين، أَبُو الهياج الأسدي الكوفي[١]، تابعي ثقة.

قَوْلُهُ (أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ..): الحديث.

- **فيه:** أهمية إزالة المنكرات.
- **وفيه:** إنكار المنكر باللسان واليد.
- **وفيه:** سد ذرائع الشرك، فحرمت الصور سدًا للذرائع، وللمضاهاة، كما تقدم، وأمر بهدم القباب سدًا للذرائع.
- **وفيه:** التوكيل لإزالة المنكر.
- **وفيه الوصية:** فإن النبي ﷺ بعث عليًا وأوصاه بهذه الوصية العظيمة.. إلى غير ذلك.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "**شرح مسلم**"(٧/ ٣٦): قَوْلُهُ «وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»، فِيهِ أَنَّ السُّنَّة أَنَّ الْقَبْر لَا يُرْفَع عَلَى الْأَرْضِ رَفْعًا كَثِيرًا، وَلَا يُسَنَّم، بَلْ يُرْفَع نَحْو شِبْر وَيُسَطَّح، وَهَذَا مَذْهَب الشَّافِعِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ، وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاض عَنْ أَكْثَر الْعُلَمَاء أَنَّ الْأَفْضَل عِنْدهمْ تَسْنِيمهَا وَهُوَ مَذْهَب مَالِك، قَوْلُهُ «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتهَا» فِيهِ الْأَمْر بِتَغْيِيرِ صُوَر ذَوَات الْأَرْوَاحِ. اهـ.

---

(١) «تهذيب الكمال» (١٥٧٥).

٦١- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ.

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ): يعني: من النهي؛ لأن كثرة الحلف يدل على ضعف تعظيمهم لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ لتأكيد أمر أو لنفيه.

قَوْلُهُ (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]**):** وحفظ الأيمان يكون بثلاثة أمور:

الأول: حفظها عن الحلف بالله كاذبًا، وقد جاء الوعيد الشديد في ذلك على ما تقدم في باب الحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: حفظها عن كثرة الحلف، لما تقدم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: حفظها عن الحنث فيها إلا إذا كان الحنث خيرًا فيكفر عن يمينه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] **(٥١٣/٤):** هذا مِمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] الآية، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أَيْ لَا تَتْرُكُوهَا بلا كفارة، وَبَيْنَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي "**الصحيحين**" أنه -عليه الصلاة والسلام-

قال: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا -وَفِي رِوَايَةٍ- وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي»(١) لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ وَلَا بَيْنَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هَاهُنَا، وَهِيَ قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ الْمُرَادَ بِهَا الدَّاخِلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَثٍّ أَوْ مَنْعٍ. اهـ.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ أَبَاهَا كَانَ لاَ يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ كَفَّارَةَ اليَمِينِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «لاَ أَرَى يَمِينًا أُرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا قَبِلْتُ رُخْصَةَ اللَّهِ وَفَعَلْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(٢).

وكفارة اليمين: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وهو مخير بين هذه الثلاثة الأشياء.

ويتعين الصيام إذا عجز عن الثلاثة الأمور المتقدمة، ومن وجبت عليه الكفارة في حال يسره لا يجزئه، إلا أن يقضيها بإحدى الثلاثة الأمور، ومن وجبت عليه الكفارة في حال عسره فلا يقضيها إلا بالصوم، على ما بينت ذلك في كتابي "**التبيان في أحكام الأيمان**".

***

(١) البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩)، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٦١٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلْفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ: (الْحَلْفُ): أي اليمين. (مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ): أي: يعجل في بيعها. (مُمْحِقَةٌ لِلْكَسْبِ): أي: يذهب بركتها.

قَوْلُهُ: (أَخْرَجَاهُ): أي البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦).

وفي لفظ: «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ، ثُمَّ يَمْحَقُ»(١).

وفي الحديث التحذير من كثرة الحلف لغير مصلحة شرعية، ولو كان في كثرة الحلف خيرًا ومبرة لما كان ممحقة لكسب البركات، والنبي ﷺ كان يحلف بغير استحلاف، كقوله: «لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»(٢)، «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»(٣)، وبوّب البخاري في "صحيحه" (٨/ ١٣٣): (بَابُ مَنْ حَلَفَ عَلَى الشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يُحَلَّفْ)، لكن يحلف لتأكيد أمور مهمة من أمور الشرع، مع أنه الصادق المصدوق، وأمره الله أن يقسم ثلاثة أيمان في القرآن على إثبات البعث والنشور، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٢٩)، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ سَلْمَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِر، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ: لا يَشْتَرِي إلا بِيَمِينِهِ، وَلا يَبِيعُ إلا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

قَوْلُهُ (سَلْمَانَ): هو أبو عبد الله الفارسي رضي الله عنه، سلمان الخير، أصله من فارس من جَيّ بفتح الجيم، وقصة إسلامه عظيمة وذات عبر أخرجها أحمد في المسند» (٢٣٧٣٧)، وقد آخى رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (ثَلاثَةٌ): وهذا ليس على الحصر فقد جاءت عدة أحاديث في الباب بهذا الوعيد مع اختلاف أصناف من يقع عليهم هذا الوعيد منها:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللهُ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»، متفق عليه[1].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»، أخرجه مسلم (١٠٦).

---

(١) البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ -قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ- وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، أخرجه مسلم (١٠٧).

قَوْلُهُ (لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ): فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل، ومعنى الحديث: لا يكلمهم كلام رحمة وإلا فإن الله يكلم جميع من في الموقف، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قَوْلُهُ (وَلا يُزَكِّيهِمْ): أي: لا يطهرهم من الذنوب، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢].

قَوْلُهُ (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): أي: عذاب شديد موجع وذلك في الآخرة.

قَوْلُهُ (أُشَيْمِطٌ زَانٍ): جاء في مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: شَيْخٌ زَانٍ»، وهو بمعناه: والشمط هو الشيب.

واستحق هذا الوعيد؛ لأن الشيخ الزاني ما عنده دواعي الزنا، ومع ذلك يتكلف الزنا، وربما يستخدم بعض المنشطات، ويحتاج إلى بعض المداعبات حتى يفعله، بينما الشاب يجاهد نفسه في البعد عن المعاصي والسيئات، وهي كبيرة في حق الشاب، لكن في حق الشيخ أشد.

قَوْلُهُ (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِر): هو الفقير المتكبر وخص بالوعيد؛ لأنه ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب نعمة المال والرئاسة وغير ذلك.

قَوْلُهُ (وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ: لا يَشْتَرِي إلا بِيَمِينِهِ، وَلا يَبِيعُ إلا بِيَمِينِهِ): أي: أنه يكثر الحلف في البيع والشراء، وهذا يدل على ضعف تعظيم الربوبية.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ): في "**الكبير**"(٦١١١)، و"**الصغير**" (٨٢١)، ونحوه: عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ لَهُ بِضَاعَةً فَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ».

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ: فَلا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا؟- ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

قَوْلُهُ (وَفِي الصَّحِيحِ): أي البخاري (٣٦٥٠) ومسلم (٢٠٣٥).

قَوْلُهُ (عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): وهو أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر سنة سبع، وكان من فضلاء الصحابة، وفي مسلم (١٢٢٦) «قَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّى اكْتَوَيْتُ»، أي: كانت تسلم عليه الملائكة.

قَوْلُهُ (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي): فيه فضيلة الصحابة -رضوان الله عليهم-.

قَوْلُهُ (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ): فيه فضيلة التابعين، وأن الخير في عهدهم أكثر من غيرهم.

قَوْلُهُ (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ: فَلا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا؟) شك من الراوي وأكثر الروايات على ذكر ثلاثة قرون، وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ» أخرجه مسلم (٢٥٣٦).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» وَاللهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا، قَالَ: «ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» أخرجه مسلم (٢٥٣٤).

قَوْلُهُ (ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ): لضعف الإيمان، وما الجمع بين هذا الحديث وبين حديث زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»، أخرجه مسلم (١٧١٩)؟ أن هذا في حق الذي يشهد، ولا يُحتاج إلى شهادته، وذلك في حق الذي يشهد، ولو لم يشهد لضاع الحق، فيجب عليه أن يؤدي الشهادة، قال الله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قَوْلُهُ (وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ): لسوء أخلاقهم وهذه صفة المنافقين: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، متفق عليه(١). وكانت الأمانة في عهد الصحابة عظيمة ثم تناقصت، فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ» وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ،

(١) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلاَنًا وَفُلاَنًا. أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

قَوْلُهُ (وَيَنْذُرُونَ وَلا يُوفُونَ): لاستخفافهم بالحقوق وتضيعهم لها، وفيه وجوب الوفاء بالنذر، قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾. [الإنسان: ٧].

قَوْلُهُ (وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ): لكثرة أكلهم وراحتهم وبعدهم عن الجهاد والأعمال الصالحة، والسمن المذموم هو الذي يتكلف له أصحابه، أما إذا جاءك السِّمن بغير تكلف فهو من الله ﷻ.

قال النووي ﵀ في "**شرحه على مسلم**"(١٦/ ٨٥): أَنَّ الصَّحِيحَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَرِوَايَةُ خَيْرُ النَّاسِ عَلَى عُمُومِهَا. وَالْمُرَادُ مِنْهُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَفْضِيلُ الصَّحَابِيِّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا أَفْرَادُ النِّسَاءِ عَلَى مَرْيَمَ وَآسِيَةَ وَغَيْرِهِمَا، بَلِ الْمُرَادُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ قَرْنٍ بِجُمْلَتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْقَرْنِ هُنَا، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: قَرْنُهُ أَصْحَابُهُ وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَالثَّالِثُ أَبْنَاءُ أَبْنَائِهِمْ. وَقَالَ شَهْرٌ: قَرْنُهُ مَا بَقِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْهُ وَالثَّانِي مَا بَقِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْ مَنْ رَآهُ ثُمَّ كَذَلِكَ. وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: الْقَرْنُ كُلُّ طَبَقَةٍ مُقْتَرِنِينَ فِي وَقْتٍ، وَقِيلَ: هُوَ لِأَهْلِ مُدَّةٍ بُعِثَ فِيهَا نَبِيٌّ طَالَتْ مُدَّتُهُ أَمْ قَصُرَتْ. وَذَكَرَ الْحَرْبِيُّ الِاخْتِلَافَ فِي قَدْرِهِ بِالسِّنِينَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ إِلَى مِائَةٍ وعشرين، ثم قال: وليس منه شئ وَاضِحٌ وَرَأَى أَنَّ الْقَرْنَ كُلُّ أُمَّةٍ هَلَكَتْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَحَدٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: الْقَرْنُ عَشْرُ سِنِينَ. وَقَتَادَةُ سَبْعُونَ، وَالنَّخَعِيُّ أَرْبَعُونَ، وَزُرَارَةُ بْنُ أَبِي أَوْفَى مِائَةٌ وَعِشْرُونَ، وَعَبْدُ الملك بن عمير مائة، وقال ابن الْأَعْرَابِيِّ هُوَ الْوَقْتُ هَذَا آخِرُ نَقْلِ الْقَاضِي. وَالصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ ﷺ الصَّحَابَةُ وَالثَّانِي التَّابِعُونَ وَالثَّالِثُ تَابِعُوهُمْ.

قَوْلُهُ ﷺ: «ثم يجئ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» هَذَا ذَمٌّ لِمَنْ يَشْهَدُ وَيَحْلِفُ مَعَ شَهَادَتِهِ وَاحْتَجَّ بِهِ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ فِي رَدِّ شَهَادَةِ من حلف معها، وجمهور العلماء أنها لاترد وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُجْمَعُ بَيْنَ الْيَمِينِ وَالشَّهَادَةِ فَتَارَةً تَسْبِقُ هَذِهِ وَتَارَةً هَذِهِ. وَفِي الرِّوَايَةِ الاخرى تبدر شهادة أحدهم وهو يعني تَسْبِقُ، قَوْلُهُ «يَنْهَوْنَنَا عَنِ الْعَهْدِ وَالشَّهَادَاتِ» أَيِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْيَمِينِ وَالشَّهَادَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ النَّهْيُ عَنْ قَوْلِهِ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ أَوْ أَشْهَدُ بِاللَّهِ.

قَوْلُهُ ﷺ: «ثُمَّ يَتَخَلَّفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ» هَكَذَا هُوَ فِي مُعْظَمِ النُّسَخِ يَتَخَلَّفُ وَفِي بَعْضِهَا يَخْلُفُ بِحَذْفِ التاء وكلاهما صحيح أي يجئ بَعْدَهُمْ خَلْفٌ بِإِسْكَانِ اللَّامِ هكَذَا الرِّوَايَةُ، وَالْمُرَادُ خَلْفُ سُوءٍ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْخَلْفُ مَا صَارَ عِوَضًا عَنْ غَيْرِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ خَلَفَ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ لَكِنْ يُقَالُ فِي الْخَيْرِ بِفَتْحِ اللَّامِ وَإِسْكَانِهَا لُغَتَانِ الْفَتْحُ أَشْهَرُ وَأَجْوَدُ وفي الشر باسكانها عن الْجُمْهُورِ وَحُكِيَ أَيْضًا فَتْحُهَا قَوْلُهُ ﷺ.

«ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» وَفِي رِوَايَةٍ وَيَظْهَرُ قَوْمٌ فِيهِمُ السِّمَنُ» السَّمَانَةُ بِفَتْحِ السِّينِ هِيَ السمن. قال جمهور العلماء في مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا كَثْرَةُ اللحم ومعناه أنه يكثر ذلك فيهم وليس مَعْنَاهُ أَنْ يَتَمَحَّضُوا سِمَانًا، قَالُوا: وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَةً فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا، وَالْمُتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَادِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَفِ وَغَيْرِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ جَمْعُهُمُ الْأَمْوَالَ.

وقولُهُ ﷺ: «يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» هَذَا الْحَدِيثُ فِي ظَاهِرِهِ مُخَالَفَةٌ لِلْحَدِيثِ الْآخَرِ خَيْرُ الشُّهُودِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا. قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الذَّمَّ فِي ذَلِكَ لِمَنْ بَادَرَ بِالشَّهَادَةِ فِي حق الآدمي هو عالم بها قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهَا صَاحِبُهَا وَأَمَّا الْمَدْحُ فَهُوَ لِمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةُ الْآدَمِيِّ وَلَا يَعْلَمُ بها

صاحبها فيخبره بها ليستشهد بِهَا عِنْدَ الْقَاضِي إِنْ أَرَادَ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةُ حِسْبَةٍ وَهِيَ الشَّهَادَةُ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَأْتِي الْقَاضِيَ وَيَشْهَدُ بِهَا وَهَذَا مَمْدُوحٌ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الشَّهَادَةُ بِحَدٍّ وَرَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي السِّتْرِ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ هُوَ مَذْهَبُ أَصْحَابِنَا وَمَالِكٍ وَجَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ الصَّوَابُ. وَقِيلَ فِيهِ اقوال ضعيفة منها قَوْلِ مَنْ قَالَ بِالذَّمِّ مُطْلَقًا وَنَابَذَ حَدِيثَ المدح ومنها مَنْ حَمَلَهُ عَلَى شَهَادَةِ الزُّورِ وَمِنْهَا قَوْلُ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الشَّهَادَةِ بِالْحُدُودِ، وَكُلُّهَا فَاسِدَةٌ وَاحْتَجَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُبْرُمَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِمَذْهَبِهِ فِي مَنْعِهِ الشَّهَادَةَ عَلَى الْإِقْرَارِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدَ وَمَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ قَبُولُهَا.

قَوْلُهُ ﷺ «وَيَخُونُونَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَ» هَكَذَا فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ يَتَمَنَّوْنَ بِتَشْدِيدِ النُّونِ وَفِي بَعْضِهَا يُؤْتَمَنُونَ وَمَعْنَاهُ يَخُونُونَ خِيَانَةً ظَاهِرَةً بِحَيْثُ لَا يَبْقَى مَعَهَا أَمَانَةٌ بِخِلَافِ مَنْ خَانَ بِحَقِيرٍ مَرَّةً وَاحِدَةً فَإِنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَانَ وَلَا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الْأَمَانَةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ قَوْلُهُ ﷺ: وينذرون ولا يوفون» هوبكسر الذَّالِ وَضَمِّهَا لُغَتَانِ وَفِي رِوَايَةٍ يَفُونَ وَهُمَا صَحِيحَانِ يُقَالُ وَفَى وَأَوْفَى فِيهِ وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ وَهُوَ وَاجِبٌ بِلَا خِلَافٍ وَإِنْ كَانَ ابْتِدَاءُ النَّذْرِ مَنْهِيًّا عَنْهُ كَمَا سَبَقَ فِي بَابِهِ وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَائِلُ لِلنُّبُوَّةِ وَمُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ كُلَّ الْأُمُورِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا وَقَعَتْ كَمَا أَخْبَرَ. انتهى.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثَمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثَمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

قَوْلُهُ (وَفِيهِ): أي: مسلم (٢٥٣٣).

قَوْلُهُ (ثَمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ): يعني: يشهد ويحلف، أو يحلف ويشهد، والواجب حفظ الأيمان والشهادات ولا تذكر إلا وقت الحاجة إليها. إلا إذا كان لتأكيد أمرٍ كما حلف النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا»، أخرجه مسلم (٥٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ): أي: النخعي. **(كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ):** يعني: لا يأتي بالعهد ولا يشهد إلا إذا طلبت منه الشهادة، وفيه حرص السلف على تعليم الصغار وتعويدهم العمل بالعلم وعدم المسارعة في مخالفة الشرع مع أن الطفل غير مكلف لكن لتعويده على الخير، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَيَنشَأُ نَاشِئُ الفِتيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

ونشكو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا الزمان من فساد الذرية، وسببه أمور:

الأول: فساد الآباء والأمهات ومن حولهم من الأخوة والأخوات.

الثاني: كثرة الفساد في المجتمعات.

الثالث: البعد عن تعليم النشىء تعاليم الإسلام.

الرابع: تقليد الكفار.

الخامس: توفر الأجهزة الحديثة التي تروض الطفل على الشر،وغير ذلك.

٦٢- بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ): أي: من الأدلة في عظيم حقها وبيان أنه لا يجوز للعبد أن يخفر ذمة الله تعالى وذمة نبيه ﷺ، والذمة: العهد، فقد بوب البخاري في "**صحيحه**" بَابُ الوَصَاةِ بِأَهْلِ ذِمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» وَالذِّمَّةُ: العَهْدُ، وفي "**صحيح مسلم**" (٦٥٧) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

وفي قصة موت عمر رضي الله عنه التي أخرجها البخاري بطولها (٣٧٠٠)، قال في وصية الخليفة بعده: وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلاَ يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ.

ومن أسباب تسلط الكفار على المسلمين هو اخفار ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أخرج البخاري (٣١٨٠): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَجْتَبُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا؟ فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ تَرَى ذَلِكَ كَائِنًا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: إِي: وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، عَنْ قَوْلِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ، قَالُوا: عَمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: «تُنْتَهَكُ ذِمَّةُ اللهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، فَيَشُدُّ اللهُ عز وجل قُلُوبَ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَيَمْنَعُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ».

وفي هذا بيان ضلال الخوارج الذين يقتلون الذميين، والمستأمنين، ويستبيحون دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فدماؤهم معصومة إلا بحقها، لحديث أَبِي بَكَرَةَ رضي الله عنه عند أحمد (٢٠٤٠٣) وغيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

قوله ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾: قال الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣٨): يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَأَوْفُوا بِمِيثَاقِ اللَّهِ إِذَا وَاثَقْتُمُوهُ، وَعَقْدِهِ إِذَا عَاقَدْتُمُوهُ، فَأَوْجَبْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَقًّا لِمَنْ عَاقَدْتُمُوهُ بِهِ وَوَاثَقْتُمُوهُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] يَقُولُ: وَلَا تُخَالِفُوا الْأَمْرَ الَّذِي تَعَاقَدْتُمْ فِيهِ الْأَيْمَانَ، يَعْنِي بَعْدَ مَا شَدَدْتُمُ الْأَيْمَانَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَتَحْنَثُوا فِي أَيْمَانِكُمْ وَتُكَذِّبُوا فِيهَا وَتَنْقُضُوهَا بَعْدَ إِبْرَامِهَا، يُقَالُ مِنْهُ: وَكَّدَ فُلَانٌ يَمِينَهُ يُوَكِّدُهَا تَوْكِيدًا: إِذَا شَدَّدَهَا، وَهِيَ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَأَمَّا أَهْلُ نَجْدٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَكَّدْتُهَا أُؤَكِّدُهَا تَأْكِيدًا.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾ [النحل: ٩١] يَقُولُ: وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ بِالْوَفَاءِ بِمَا تَعَاقَدْتُمْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ رَاعِيًا يَرْعَى الْمُوفِي مِنْكُمْ بِعَهْدِ اللَّهِ الَّذِي عَاهَدَ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ وَالنَّاقِضَ. انتهى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠]، ونقض العهود والعقود من صفات المبطلين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، والمراد بالآية العقود والمواثيق التي تجري بين الناس، قال الله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، يعني: لا

يحنث أحدكم في يمينه الذي أكد به المضي على هـذا العهـد، فمثلًا: عاهـد ولي الأمر أن يطيعه، فلا يذهب ويقول: أكفر عن يميني وأعصيه، هذه بيعة لا يجوز نقضها، واليمين هذا عهد وعقد لا ينقض إلا بكفر ذلك الإمام: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»(١)، وقد تقدم قول ابن كثير في الآية في الباب الذي تقدم.

قَوْلُهُ ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: أي: وقد صيرتم الله كفيلًا عليكم، حتى وإن لم تقل: الله كفيل علي، فصنيعك هذا، وقسمك بالله، وإبرامك للعهود على وفق شرع الله ﷻ، من عهد الله فلا يجوز إخفار ذمة الله ﷻ.

قَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: أي: إن الله مطلع عليكم وعلى أفعالكم، وهذا فيه تهديد عظيم لمن نقض العهد والميثاق، والنبي ﷺ يقول: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»، رواه مسلم (١٧٣٥)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وفي لفظ له (١٧٣٨): «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه.

ولما أمر الله تعالى نبيه بنقض العهد مع الكفار قال: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فأرسل النبي ﷺ رسله إلى مكة في المواطن التي يجتمع فيه الناس، يؤذنون الناس أنه لا يحج بعد العام مشرك، وأن الكفار لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض، وبعد هذه الأربعة الأشهر ليس لهم عهد ولا ذمة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١-٢]، وليس معنى ذلك الأربعة الأشهر الحرم كما ظن بعضهم، ولكن منذ أشاع النبي ﷺ أن العهد ينقضي، حتى يتناقل الناس هذا الخبر، فانظر

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه.

إلى ظهور وعزة الإسلام، مع أن الحرب خدعة، لكن خدعة في غير نقض عهد أو ميثاق، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" (٤/ ١٠٢): قَوْلُهُ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَقَالَ قَائِلُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ لِذَوِي الْعُهُودِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَيُكْمَلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مؤقت فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ، مَهْمَا كَانَ؛ لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وَلِمَا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ: وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ»[1]. وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ وَأَقْوَاهَا، وَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورُوِي عَنِ الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١-٢]، قَالَ: حَدَّ اللَّهُ لِلَّذِينِ عَاهَدُوا رَسُولَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ حَيْثُمَا شَاءُوا، وَأَجَّلَ أَجَلَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ، انْسِلَاخَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى انْسِلَاخِ الْمُحَرَّمِ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ لَيْلَةً، فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» أَمَرَهُ بِأَنْ يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ.

وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بَعْدَ قَوْلِهِ: فَذَلِكَ خَمْسُونَ لَيْلَةً: فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا انْسَلَخَ الْمُحَرَّمُ أَنْ يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عَهْدٌ، يَقْتُلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. وَأَمَرَ مِمَّنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ إِذَا انْسَلَخَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى عَشْرٍ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، أَنْ يَضَعَ فِيهِمُ السَّيْفَ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٤)، والترمذي (٨٧١)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَغَيْرُهُ قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَمِيرًا عَلَى الْمَوْسِمِ سَنَةَ تِسْعٍ، وَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِينَ آيَةً أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْ بَرَاءَةَ» فقرأها عَلَى النَّاسِ، يُؤَجِّلُ الْمُشْرِكِينَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَرَفَةَ، أَجَّلَ الْمُشْرِكِينَ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمِ، وَصَفَرٍ، وَشَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، وَعَشْرًا مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَقَالَ: لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]، إِلَى أَهْلِ الْعَهْدِ: خُزَاعَةَ، ومُدْلِجٍ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ أَوْ غَيْرُهُمْ. أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حِينَ فَرَغَ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَجَّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا يَحْضُرُ الْمُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً، فَلَا أُحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّى لَا يَكُونَ ذَلِكَ». فَأَرْسَلَ أَبَا بَكْرٍ وَعَلِيًّا، رضي الله عنهما، فَطَافَا بِالنَّاسِ فِي ذِي المجاز وَبِأَمْكِنَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَبَايَعُونَ بِهَا بِالْمَوَاسِمِ كُلِّهَا، فَآذَنُوا أَصْحَابَ الْعَهْدِ بِأَنْ يَأْمَنُوا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَهِيَ الْأَشْهُرُ الْمُتَوَالِيَاتُ: عِشْرُونَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى عَشْرٍ يَخْلُونَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، ثُمَّ لَا عَهْدَ لَهُمْ، وَآذَنَ النَّاسَ كلَّهم بِالْقِتَالِ إِلَّا أَنْ يُؤَمِّنُوا.

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ: وقَتَادَةَ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ ابْتِدَاءُ التَّأْجِيلِ مِنْ شَوَّالٍ وَآخِرُهُ سَلْخَ الْمُحَرَّمِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ، وَكَيْفَ يُحَاسَبُونَ بِمُدَّةٍ لَمْ يَبْلُغْهُمْ حُكْمُهَا، وَإِنَّمَا ظَهَرَ لَهُمْ أَمْرُهَا يَوْمَ النَّحْرِ، حِينَ نَادَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ. اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ إذَا أَمّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْش أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللّه تَعَالَى، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللّه، فِي سَبِيل اللّه، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإذَا لَقِيتَ عَدُوَّك مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إلَى ثَلاثِ خِصَال -أَوْ خِلال- فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إلَى الْإِسْلام، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُم، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلَى دَار الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللّه تَعَالَى، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمْ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللّه وَذِمَّةَ نَبِيِّهُ، فَلا تَجْعَل لَهُمْ ذِمَّةَ اللّه وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ، وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ إن تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللّه وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْم اللّه، فَلا تُنْزِلْهُمْ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللّه أَمْ لا؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): أبو عبد الله وقيل: أبو سهيل وقيل: أبو الحصيب وقيل: أبو ساسان آخر من توفي من الصحابة بخرسان.

قَوْلُهُ (قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ): (كَانَ) تفيد الاستمرار في مثل هذا.

قَوْلُهُ (إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ): أي جعل على جيش أو سرية أميرًا ينظم أمورهم ويؤدي حقوقهم، وفيه تأمير الأمراء ووضع قادة على الجيوش والسرايا حتى ينضبط شأن الناس، وفيه أهمية تقسيم الجيوش إلى جيش وسرية وكتيبة، حتى يكون لكل كتيبة ولكل سرية قائد يعاد إليه في أوقات المهمات، ويقال: بأن الغزوة ما كان يخرجها النبي ﷺ، والسرية ما كان يبعث فيها بعض أصحابه.

قَوْلُهُ (أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى): أي: حثه ورغبه في تقوى الله ومراقبته على الرعية، وهكذا عند القتال، أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، من قيام الليل وصيام النهار، والمحافظة على الأذكار، وقراءة القرآن، والصدق مع الله، وإخلاص النية، إلى غير ذلك مما يتعلق به هو.

قَوْلُهُ (وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا): أي وأوصاه بمن معه من المسلمين خيرا، بالعدل بينهم، وإعطاء حقوقهم، وعدم ظلمهم، ويحسن إلى الضعيف والقوي، ويعطيهم الحقوق العامة، ثم كلٌّ بما يستحقه.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ): فيه الاستعانة بالله ﷻ في الغزو وغيره، فالنبي ﷺ قال: اغزوا حال كونكم مستعينين بالله سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ (فِي سَبِيلِ اللهِ): كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: ٨٤]، وفيه الإشارة إلى أهمية الإخلاص. فقَوْلُهُ (فِي سَبِيلِ اللهِ): دل على أهمية الإخلاص في هذه العبادة وفي غيرها؛ لأن سبيل الله يتضمن الإخلاص، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولأن القتال الشرعي هو ما كان في سبيل الله نشرًا للإسلام ودفاعًا عن أهله.

قَوْلُهُ (قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ): كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ففيه أهمية الجهاد، لصد من يخالف شرع الله بالكفر، أو بمنع الشرائع كالأذان، أو هدم المساجد أو منع الزكاة ونحو ذلك على ما جاءت به الأدلة.

قَوْلُهُ (اغْزُوا وَلَا تَغْلُّوا): الغزو: هو الخروج للجهاد ولكن أمر ﷺ بالبعد عن الغلول، وهي أخذ الأموال بغير وجه حق، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، والأحاديث في هذا كثيرة، منها حديث أبي هريرة ﷺ في "**الصحيحين**"[(١)] قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ.

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي،

---

(١) البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)، واللفظ له.

فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

قَوْلُهُ (وَلا تَغْدِرُوا): الغدر الخيانة في موطن الائتمان، وفيه تحريم الغدر، وإذا كنت ولابد فائت الأمر من جهته، كما تقدم أن النبي ﷺ نبذ إليهم على سواء، والغدر خيانة، والخيانة صفة ذميمة لا تجوز، وهي من صفات المنافقين: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، متفق عليه[1]، وفي رواية: وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»[2].

قَوْلُهُ (وَلا تُمَثِّلُوا): فيه تحريم المثلة، سواء بالمسلم أو بالكافر، ففي حديث أنسٍ رضي الله عنه: «نهى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ المُثْلَةِ»[3]، وإن مثل الكفار فللعلماء في هذه المسألة خلاف، والصحيح: أنه يقتل بنفس ما قتل به المسلم، كما فعل رسول الله ﷺ بذلك اليهودي الذي قتل الجارية، كما جاء من حديث أَنَس رضي الله عنه: أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، فَقِيلَ لَهَا: مَنْ فَعَلَ بِكِ، أَفُلانٌ أَوْ فُلانٌ، حَتَّى سُمِّيَ اليَهُودِيُّ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا، فَجِيءَ بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى اعْتَرَفَ، «فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَرُضَّ رَأْسُهُ بِالحِجَارَةِ» متفق عليه[4]، لكن ذلك فيما لم يكن من سيئ الأمور كما لو قتله باللواط يقتل فقط من غير أن يُلاط بالقاتل ونحوه.

قَوْلُهُ (وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا): وهذا من كمال الإسلام، وبيان شموله، وأنه بحمد الله فوق قوانين البشر التي يدعي أصحابها أنهم قاموا بحق الإنسان. ففيه النهي عن قتل الأطفال، وقد جاء الحديث: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[5]، لأن مثلهم لا يقاتل، إلا في حال التثبت فقد قال رَسُول اللَّهِ ﷺ:

---

(١) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٤٦)، ومسلم (١٦٧٢) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٤٦)، ومسلم (١٧٤٤)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

هُمْ مِنْهُمْ»[١]، قال النووي في «شرح مسلم»(١٢/ ٤٩): (بَاب جَوَازِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْبَيَاتِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ): قَوْلُهُ (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَبِيتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، فَقَالَ: هُمْ مِنْهُمْ) هَكَذَا هُوَ فِي أَكْثَرِ نُسَخِ بِلَادِنَا سُئِلَ عَنِ الذَّرَارِيِّ... قُلْتُ: وَلَيْسَتْ بَاطِلَةً كَمَا ادَّعَى الْقَاضِي بَلْ لَهَا وَجْهٌ وَتَقْدِيرُهُ سُئِلَ عَنْ حُكْمِ صِبْيَانِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَصِبْيَانِهِمْ بِالْقَتْلِ؟ فَقَالَ: هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ» أَيْ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَحْكَامَ آبَائِهِمْ جَارِيَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْمِيرَاثِ وَفِي النِّكَاحِ وَفِي الْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالْمُرَادُ إِذَا لَمْ يَتَعَمَّدُوا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ السَّابِقُ فِي النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فَالْمُرَادُ بِهِ إِذَا تَمَيَّزُوا، وَهَذَا الْحَدِيثُ الذي ذكرناه من جواز بياتهم وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْبَيَاتِ هُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالْجُمْهُورِ، وَمَعْنَى الْبَيَاتُ وَيَبِيتُونَ أَنْ يُغَارَ عَلَيْهِمْ بِاللَّيْلِ بِحَيْثُ لَا يُعْرَفُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ، وَأَمَّا الذَّرَارِيُّ فَبِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَتَخْفِيفِهَا لُغَتَانِ التَّشْدِيدُ أَفْصَحُ وَأَشْهَرُ وَالْمُرَادُ بِالذَّرَارِيِّ هُنَا النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لِجَوَازِ الْبَيَاتِ وَجَوَازِ الْإِغَارَةِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ مِنْ غَيْرِ إِعْلَامِهِمْ بِذَلِكَ، وَفِيهِ أَنَّ أَوْلَادَ الْكُفَّارِ حُكْمُهُمْ فِي الدُّنْيَا حُكْمُ آبَائِهِمْ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَفِيهِمْ إِذَا مَاتُوا قَبْلَ الْبُلُوغِ ثلاثة مذاهب الصحيح أنهم في الجنة، والثاني فِي النَّارِ، وَالثَّالِثُ لَا يُجْزَمُ فِيهِمْ بِشَيْءٍ والله أعلم. اهـ.

قَوْلُهُ (وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ-): فيه أهمية الدعوة إلى الله ﷻ، وأنها مقدمة على القتال، فمن استجاب لشرع الله ﷻ حقن دمه كما قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي، دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٢) ومسلم (١٧٤٥)، عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رضي الله عنه.

إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[١]، وفي حديث سهل رضي الله عنه في قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تقدم «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ»، وقد جاء أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ» كما في "**الصحيحين**"[٢] عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما.

قال النووي في "**شرحه على مسلم**"(١٢/ ٣٦): قَوْلُهُ «وَهُمْ غَارُّونَ» هُوَ بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ أَيْ غَافِلُونَ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الْإِغَارَةِ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ مِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ بِالْإِغَارَةِ وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ حَكَاهَا الْمَازِرِيُّ وَالْقَاضِي. أَحَدُهَا: يَجِبُ الْإِنْذَارُ مُطْلَقًا، قال مَالِكٌ وَغَيْرُهُ: وَهَذَا ضَعِيفٌ، وَالثَّانِي لَا يَجِبُ مُطْلَقًا، وَهَذَا أَضْعَفُ مِنْهُ أَوْ بَاطِلٌ. وَالثَّالِثُ: يَجِبُ إِنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ وَلَا يَجِبُ إِنْ بَلَغَتْهُمْ لَكِنْ يُسْتَحَبُّ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وبه قال نافع مولى بن عُمَرَ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثور وبن المنذر والجمهور. قال ابن الْمُنْذِرِ: وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى مَعْنَاهُ فَمِنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ وَحَدِيثُ قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَحَدِيثُ قَتْلِ أَبِي الْحُقَيْقِ. اهـ.

قَوْلُهُ (فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوك فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ): والثلاث الخصال هي: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

قَوْلُهُ (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ): هذا أول ما يدعى إليه الكفار.

قَوْلُهُ (فَإِنْ أَجَابُوك): فلا يقل قائل: لن أدعوهم إلى الإسلام، ولكن أقاتلهم من أجل أن آخذ هذه الغنائم، هذا لا يصح، الواجب علينا أن ندعوهم إلى الإسلام، وهذه هي الغاية العظيمة أن يدخلوا في الإسلام، فإذا أبوا الإسلام فعند

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠).

ذلك الجزية يعطوها عن يدٍ وهم صاغرون، أذلة حقراء. فإن أبوا فالحرب بيننا وبينهم، لا يمكن أن يبقى الكافر عاليًا على المسلم.

قَوْلُهُ (فَاقْبَلْ مِنْهُمْ): يقبل منهم ما ظهر من أمرهم ولا ينقب عما في نفوسهم ففي مسلم (٩٧) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ بَعَثَ إِلَى عَسْعَسِ بْنِ سَلَامَةَ زَمَنَ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: اجْمَعْ لِي نَفَرًا مِنْ إِخْوَانِكَ حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَ جُنْدَبٌ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ أَصْفَرُ، فَقَالَ: تَحَدَّثُوا بِمَا كُنْتُمْ تَحَدَّثُونَ بِهِ حَتَّى دَارَ الْحَدِيثُ، فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِ حَسَرَ الْبُرْنُسَ عَنْ رَأْسِهِ.

فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكُمْ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قَوْلُهُ (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ): هذا إذا أسلموا، وهذا لما كانت المدينة دار المهاجرين أما الآن فبلاد الإسلام واسعة، والنبي ﷺ يقول: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. لكن إن كان المجتمع جاهل

بالله وبما يجب لله ﷻ، لا بأس أن يتحول بعضهم إلى بلاد الإسلام التي تقدم الإسلام فيها، حتى يتعلموا تعاليمه، ثم يرجعون إلى قومهم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قَوْلُهُ (وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ): أي: من الفيء والغنائم وغير ذلك.

قَوْلُهُ (وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ): من الجهاد وغيره.

قَوْلُهُ (فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ): أي إن امتنعوا عن التحول، وهذا دليل على أن التحول ليس بواجب إلا في حالة حاجة الإسلام، ويعني: بذلك أنّ لهم ما للمسلمين، لكن ليس لهم في الفيء ولا في الغنيمة نصيب.

قَوْلُهُ (يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى): فيما يفعلونه ويذرونه، فالزاني يقام عليه الحد، إن كان محصنًا يرجم، وإن كان بكرا يجلد، والسارق تقطع يده، والنبي ﷺ قد أرسل أنيسًا رضي الله عنه لإقامة الحد على امرأة من الأعراب، وقال: «اغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»، أخرجه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنهما.

قَوْلُهُ (وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ): لأن هذه خاصة بالمقاتلين، وبمن يحرس مع المقاتلين أو يبقى في البلد بأمر ولي الأمر على ما هو معروف من أحكام الفيء، وفي الحديث: وضع الشروط والالتزام بها والوفاء بما فيها.

قَوْلُهُ (إلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ): وهذا استثناء للأعراب الذين يجاهدون مع جيش الإسلام، فلهم ما لإخوانهم من المجاهدين.

قَوْلُهُ: (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ): فيه الانتقال إلى المرحلة الأخرى وهي مرحلة الجزية، قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فأول الأمر الدعوة إلى الإسلام، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وكل ما وقع منهم هدر، وتبقى لهم أموالهم، ونساؤهم، وأبناؤهم وضيعاتهم، فإن أبوا ألزموا الجزية وادخلوا تحت حكم الإسلام، ولهم ألا يظلموا ولا يهضموا، والجزية لا تؤخذ من الصبي، ولا من الشيخ الهرم، وإنما تؤخذ ممن يستطيع العمل، لكن أراد الله ذلتهم بها، فإن أبوا عُلِمَ أنهم أهل حرب وشقاق، وعتوا ونفور، فعند ذلك يقاتلون ويؤدبون بالسيف.

قَوْلُهُ: (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ): أي: اطلب العون من الله على قتالهم، ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ»[(١)].

قَوْلُهُ: (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ): أي احطَّت بمكانهم، فمُنعت دخول المؤن إليهم، حتى يقع منهم إحدى الثلاث التي تقدم ذكرها.

قَوْلُهُ: (فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ): أي: عهد الله وعهد نبيه.

قَوْلُهُ: (فَلا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ): لأن شأنها عظيم على ما يأتي في نص الحديث.

قَوْلُهُ: (وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٣٢)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه. وهو في «الصحيح المسند»(١/ ٢٥) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلا تُنْزِلْهُمْ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لا؟): وهذا بيان لسبب المنع فينزلون على حكم أمير المعركة فتقول لهم: أنزلكم على حكمي وأجتهد فيكم بحكم الله ﷻ، فإن أصبت فيهم حكم الله لك أجران، وإن أصبت فيهم حكمك لا تأثم، أما أن تقول: أنزلكم على حكم الله، وقد لا توافق حكم الله وهذا كان في حياة رسول الله ﷺ، أما الآن يجتهد فيهم الحكم بالكتاب والسنة، وسعد بن معاذ رضي الله عنه إنما أخبره النبي ﷺ أنه وافق حكم الله فيهم، لما قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِمَا حَكَمَ بِهِ المَلِكُ»[1].

والحديث فيه غير ذلك من الفوائد، لكن هذه إشارات تغني عن كثرة العبارات.

قال النووي رحمه الله في "**شرحه على مسلم**"(١٢/ ٣٧): أَمَّا السَّرِيَّةُ فَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَيْشِ تَخْرُجُ مِنْهُ تُغِيرُ وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: هِيَ الْخَيْلُ تَبْلُغُ أَرْبَعَمِائَةٍ وَنَحْوَهَا، قَالُوا: سُمِّيَتْ سَرِيَّةً لِأَنَّهَا تَسْرِي فِي اللَّيْلِ وَيَخْفَى ذَهَابُهَا، وَهِيَ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى فَاعِلَةٍ يُقَالُ: سَرَى وَأَسْرَى إِذَا ذَهَبَ لَيْلًا. قَوْلُهُ ﷺ: وَلَا تَغْدِرُوا» بِكَسْرِ الدَّالِ، وَالْوَلِيدُ الصَّبِيُّ. وَفِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْحَدِيثِ فَوَائِدُ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا وَهِيَ تَحْرِيمُ الْغَدْرِ، وَتَحْرِيمُ الْغُلُولِ، وَتَحْرِيمُ قَتْلِ الصِّبْيَانِ إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا، وَكَرَاهَةُ الْمُثْلَةِ، وَاسْتِحْبَابُ وَصِيَّةِ الْإِمَامِ أُمَرَاءَهُ وَجُيُوشَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالرِّفْقِ بِأَتْبَاعِهِمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ مَا يَحْتَاجُونَ فِي غَزْوِهِمْ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَمَا يَحِلُّ لَهُمْ وَمَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ وَمَا يُكْرَهُ وَمَا يُسْتَحَبُّ.

قَوْلُهُ ﷺ: «وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٢)، ومسلم (١٧٦٨)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه.

خِلَالٍ» فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ. قَوْلُهُ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ» هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ نُسَخِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ «ثُمَّ ادْعُهُمْ».

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَضِيَ اللَّهُ تعالى: عنه صواب الرواية ادعهم بِإِسْقَاطِ ثُمَّ وَقَدْ جَاءَ بِإِسْقَاطِهَا عَلَى الصَّوَابِ فِي كِتَابِ أَبِي عُبَيْدٍ وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمَا لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلْخِصَالِ الثَّلَاثِ وَلَيْسَتْ غَيْرَهَا، وَقَالَ الْمَازِرِيُّ: لَيْسَتْ ثُمَّ هُنَا زَائِدَةً بَلْ دَخَلَتْ لِاسْتِفْتَاحِ الْكَلَامِ وَالْأَخْذِ. قَوْلُهُ ﷺ: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ» مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ إِذَا أَسْلَمُوا اسْتُحِبَّ لَهُمْ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ كَانُوا كَالْمُهَاجِرِينَ قَبْلَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ وغير ذلك والأفهم أَعْرَابٌ كَسَائِرِ أَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ السَّاكِنِينَ فِي الْبَادِيَةِ مِنْ غَيْرِ هِجْرَةٍ وَلَا غَزْوٍ فَتَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ وَلَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ والْفَيْء، وإنما يكون لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الزَّكَاةِ إِنْ كَانُوا بِصِفَةِ اسْتِحْقَاقِهَا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: الصَّدَقَاتُ لِلْمَسَاكِينِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لا حق له في الْفَيْءِ والْفَيْء لِلْأَجْنَادِ، قَالَ: وَلَا يُعْطَى أَهْلُ الْفَيْءِ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَلَا أَهْلُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْفَيْءِ وَاحْتَجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: الْمَالَانِ سَوَاءٌ وَيَجُوزُ صَرْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى النَّوْعَيْنِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: هَذَا الْحَدِيثُ مَنْسُوخٌ، قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لِمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] وَهَذَا الَّذِي ادَّعَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ لَا يُسَلَّمُ لَهُ. قَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ

وَكُفَّ عَنْهُمْ» هَذَا مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَمُوَافِقُوهُمَا فِي جَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ عَجَمِيًّا كِتَابِيًّا أَوْ مَجُوسِيًّا أَوْ غَيْرِهِمَا، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ إِلَّا مُشْرِكِي الْعَرَبِ ومجوسهم.

وقال الشافعي: لا يقبل إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ عَرَبًا كَانُوا أَوْ عَجَمًا وَيَحْتَجُّ بِمَفْهُومِ آيَةِ الْجِزْيَةِ وَبِحَدِيثِ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» وَيُتَأَوَّلُ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ أَهْلُ الْكِتَابِ لِأَنَّ اسْمَ الْمُشْرِكِ يُطْلَقُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ تَخْصِيصُهُمْ مَعْلُومًا عِنْدَ الصَّحَابَةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي قَدْرِ الْجِزْيَةِ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: أَقَلُّهَا دِينَارٌ عَلَى الْغَنِيِّ وَدِينَارٌ عَلَى الْفَقِيرِ أَيْضًا فِي كُلِّ سَنَةٍ وَأَكْثَرُهَا مَا يَقَعُ بِهِ التَّرَاضِي، وَقَالَ مَالِكٌ: هِيَ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ وَأَرْبَعُونَ دِرْهَمًا عَلَى أَهْلِ الْفِضَّةِ.

وقال أبو حنيقة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُوفِيِّينَ وَأَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَالْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَالْفَقِيرِ اثْنَا عَشَرَ. قَوْلُهُ ﷺ: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذمة الله وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» قال العلماء: الذمة هنا العهد، وتخفروا بِضَمِّ التَّاءِ يُقَالُ: أَخْفَرْتَ الرَّجُلَ إِذَا نَقَضْتَ عَهْدَهُ، وَخَفَرْتَهُ أَمَّنْتُهُ وَحَمَيْتُهُ. قَالُوا: وَهَذَا نَهْيُ تَنْزِيهٍ أَيْ لَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ فَإِنَّهُ قَدْ يَنْقُضُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُ حَقَّهَا وَيَنْتَهِكُ حُرْمَتَهَا بَعْضُ الْأَعْرَابِ وَسَوَادُ الْجَيْشِ. قَوْلُهُ ﷺ: وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حصن فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا» هَذَا النَّهْيُ أَيْضًا عَلَى التَّنْزِيهِ وَالِاحْتِيَاطِ، وَفِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ يَقُولُ: لَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبًا بَلِ الْمُصِيبُ

وَاحِدٌ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَقَدْ يُجِيبُ عَنْهُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مصيب بأن المـراد أنـك لا تـأمن أَنْ يَنْـزِلَ عَلَـيَّ وَحْـيٌ بِخِـلَافِ مَـا حَكَمْتَ وَهَذَا الْمَعْنَى مُنْتَفٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ. اهـ.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ): أي: في كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ (١٧٣١).

***

٦٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ بِلا عِلْمٍ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ بِلا عِلْمٍ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ بِلا عِلْمٍ): أي: من الوعيد، والمراد به في هذا الباب التألي على الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا كثير في هذا الزمان، تقول: والله لا يغفر الله لفلان، ونحوه فإن الله تعالى فعال لما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يُعلم ما في تقديره فقد يسرف الإنسان على نفسه ثم يرزق توبة عند الموت أو قبله تكون كفارة لما سلف فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ» متفق عليه[1]، وربما تجاوز الله عَزَّ وَجَلَّ عنه إن كانت ذنوبه دون الشرك فعقيدة أهل السنة والجماعة أن ما دون الشرك تحت مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ.

***

(١) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَوْلُهُ (جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): هُوَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الْعَلَقِيُّ، وَهُوَ بَطْنٌ مِنْ بَجِيلَةَ، نَزَلَ الْكُوفَةَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْبَصْرَةِ، قَدِمَهَا مَعَ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ(١).

قَوْلُهُ (قَالَ رَجُلٌ): أي: ممن قبلنا، ولعله من بني اسرائيل على ما يأتي في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ): وهذا إقسام وتألي على الله عَزَّ وَجَلَّ بما لا علم له به، وتحجر لرحمة الله الواسعة، والله عَزَّ وَجَلَّ، يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

قَوْلُهُ (فَقَالَ اللهُ عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟): أي من هذا المتعاظم الذي يتألى على الله ويجزم أن الله لا يغفر لفلان؛ بسبب ما عنده من الذنوب والمعاصي.

والمعلوم أن المعاصي تحت مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قَوْلُهُ (إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ): أي: تجاوزت عن ذنوبه، ومحوتها عنه.

قَوْلُهُ (وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ): وهذا يدل على عظم هذا الذنب.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ): أي: في كتاب الإيمان (٢٦٢١).

---

(١) «معرفة الصحابة» (٢/ ٥٧٧).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

الحديث خرجه الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللهُ في **"الصحيح المسند"** (٢/ ١١٠)، وهو عند أبي داود (٤٩٠١): من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

قَوْلُهُ (تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ): ففي الترمذي (٢٣١٩): «وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ» عَنْ بِلَالِ بْنِ الحَارِثِ الْمُزَنِيِّ، والنبي ﷺ يقول: إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» أخرجه مسلم (٢٦٢٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ففي الأحاديث من الآداب التواضع لله عَزَّ وَجَلَّ وعدم القول بلا علم، وفيه النهي عن تقنيط العباد من الله عَزَّ وَجَلَّ ذي الرحمة الواسعة.

وهنا فائدة، أن الإقسام على الله أربعة أنواع:

الأول: الإقسام على الله بمعنى الطلب والدعاء ويكون قد أخذ بأسباب

الإجابة، والظن الحسن بالله ﷻ، ودليل هذا النوع قول رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١)، وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ، وفيه: فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنهما: لاَ وَاللَّهِ، لاَ تُكْسَرُ سِنُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ القِصَاصُ» فَرَضِيَ القَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»(٢).

الثاني: الإقسام على الله ﷻ بما عُلم من وعده الحق، أنه لن يديل على أوليائه كما فعل شيخ الإسلام حتى أقسم بالنصر على الروافض.

الثالث: الإقسام على الله ﷻ بشيء من مخلوقاته كالكعبة والنبي ﷺ، وهذا من البدع المحدثة كأن يقول: بحق محمد ﷺ وبحق الكعبة.

الرابع: الإقسام على الله اعتراضًا على قدرته ومشيئته، وهذا هو المنهي عنه وما دل عليه حديث الباب.

فعلى المسلم أن يعظم حق الرب تعالى عليه ويلتزم شرعه تعالى فيما دقَّ وجلَّ من الأمور، وبالله التوفيق.

***

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٤٦١١)، ومسلم (١٦٧٥).

٦٤- بَابُ لا يَسْتَشْفِعْ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ لا يَسْتَشْفِعْ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ

قَوْلُهُ (بَابُ لا يَسْتَشْفِعْ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ): وبيان ذلك أنه لا يجوز؛ لأن فيه تنقصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، والله عَزَّ وَجَلَّ أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ...»، وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

قَوْلُهُ (عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه): هو أبو محمد جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي، أسلم قبل خيبر، وقيل: يوم الفتح، قال ابن بكار: كان من حكماء قريش وساداتهم. وفي سبب إسلامه ما أخرجه البخاري (٤٨٥٤) أنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.

قَوْلُهُ (أَعْرَابِيٌّ): أي: عربي من أهل البادية.

قَوْلُهُ (نُهِكَتِ الأَنْفُسُ): أي: جهدت وضعفت لقله المطر والزرع.

قَوْلُهُ (وَجَاعَ العِيَالُ): أي: أصابهم الجوع لقله الزرع والضرع واللبن، وذكر العيال دون غيرهم؛ لأنهم أسرع في الجوع وأدعى بالشفقة.

قَوْلُهُ (وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ): جمع مال ويطلق على النقود وغيرها، فإن كان المال من الدواب فقد هلكت جوعًا وأصابها العجاف، وإن كان الزرع أصابه اليباس،

وإن كان النقود أفناه كثرة الإنفاق.

قَوْلُهُ (فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ): أي: ادع الله لنا بالسقيا، والاستسقاء: هو طلب نزول المطر، والاستصحاء: طلب رفع المطر.

قَوْلُهُ (فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ): أي: نتوسل بالله إليك، وهذا هو ممنوع ومحرم.

قَوْلُهُ (وَبِكَ عَلَى اللهِ): أي: نتوسل بك إلى الله، وهذا جائز، أي: التوسل بدعاء الرجل الصالح، وقد تقدم.

قَوْلُهُ (سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ): وهذا للإنكار عليه كما تقدم.

قَوْلُهُ (فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ): أي: لازم التسبيح منكرًا على الأعرابي ومتعاظمًا لقوله حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، إذ كانوا يعرفون حال رسول الله ﷺ ففي صحيح مسلم» (٢٣٥٩)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، خَرَجَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّى لَهُمْ صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَذَكَرَ السَّاعَةَ، وَذَكَرَ أَنَّ قَبْلَهَا أُمُورًا عِظَامًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْنِي عَنْهُ، فَوَاللهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ، مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا» قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَأَكْثَرَ النَّاسُ الْبُكَاءَ حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَكْثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ: «سَلُونِي» فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذَافَةَ فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ».

فَلَمَّا أَكْثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَنْ يَقُولَ: سَلُونِي» بَرَكَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قَالَ عُمَرُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوْلَى، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا، فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» قَالَ

ابْنُ شِهَابٍ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ، لِعَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ: مَا سَمِعْتُ بِابْنٍ قَطُّ أَعَقَّ مِنْكَ؟ أَأَمِنْتَ أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ قَدْ قَارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقَارِفُ نِسَاءُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَفْضَحَهَا عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ؟ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذَافَةَ: وَاللهِ لَوْ أَلْحَقَنِي بِعَبْدٍ أَسْوَدَ لَلَحِقْتُهُ.

قَوْلُهُ: (إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ: في الحديث: أنك إذا كنت سائلًا سل الله ﷻ، واسأله الرحمة والمطر وغير ذلك، ولا تتوسل به إلى مخلوقاته فإن شأنه عظيم، وفي الحديث طلب الدعاء من الرجل الصالح، وفيه أن تفريج الكرب وقضاء الحاجات منه تعالى.

والاستسقاء له ثلاث طرق ذكرها العلماء:

الأول: الدعاء كما في حديث عُمَيْرٍ ﷺ، مَوْلَى بَنِي آبِي اللَّحْمِ، «أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَسْقِي عِنْدَ أَحْجَارِ الزَّيْتِ، قَرِيبًا مِنَ الزَّوْرَاءِ قَائِمًا، يَدْعُو يَسْتَسْقِي رَافِعًا يَدَيْهِ قِبَلَ وَجْهِهِ، لَا يُجَاوِزُ بِهِمَا رَأْسَهُ»[(١)].

والثاني: الدعاء في الخطبة كحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا، دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»، متفق عليه[(٢)].

والثالث: أن يخرج إلى المصلي، ويصلي ركعتين يبدأهما بخطبة، كما في حديث عَائِشَةَ ﷺ عند أبي داود (١١٧٣) أنها قَالَتْ: شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٦٨)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٩٩) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.
(٢) البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

اللَّهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ، فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ، فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَكَبَّرَ ﷺ، وَحَمِدَ اللَّهَ ﷻ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ، وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﷻ أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ»، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبِطَيْهِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ، وَقَلَبَ، أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ، وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ ﷺ، حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، وحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ في الصحيحين»[1]، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَاسْتَسْقَى فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ»

وفيه: التسبيح عند ذكر الأمر المستقبح الذي لا يليق بالله ﷻ، فالله ﷻ لما زعم الكفار أنه اتخذ ولدًا وصاحبه، قال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. [الصافات: ١٨٠].

قَوْلُهُ: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ): أي في سننه» (٤٧٢٦) من طريق جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ ابْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، وكلاهما مجهول.

---

(١) البخاري، (١٠١٢)، ومسلم (٨٩٥).

٦٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

قَوْلُهُ (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ): أي هذا باب فيه ما جاء من الأدلة في حماية رسول الله ﷺ حمى، وهو طوق التوحيد، وسده لطرق الشرك، سواء في ذلك الشرك القولي أو الفعلي، أو القلبي، وهذا ما يسمى بقاعدة سد الذرائع، فالإسلام جاء بسد ذرائع الشرك والمحرمات، وقد حرص رسول الله ﷺ على سد كل ذريعة إلى شرٍ من الشرك فما دونه، وقد تقدم شيء من ذلك، والحمد لله، فمن سد الذرائع: قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فالأمر بغض البصر سد لذريعة الزنا، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، فإبداء الزينة وإطلاق البصر من أسباب الوقيعة في الزنا، وقد جاء من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ». أخرجه الإمام أحمد (٢٢٧٥٧).

وحرم النبي ﷺ الخمر، وما هو من ذرائعه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِي لَهَا، وَالمُشْتَرَاةُ لَهُ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٢٦)

ولعن المصورين؛ سدًا لذريعة التصوير الذي فيه فتنة المضاهاة وذريعة الشرك، ولعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه؛ سدًا لذريعة أكل أموال الناس بالباطل.

ومن العجب: أن سلمان العودة يقول: نحن بحاجة إلى فتح الذرائع وتحقيق هذه القاعدة، لا قاعدة سد الذرائع، ويلزم من هذا أن يفتح على المسلمين التبرج والسفور، وسماع الأغاني، وشرب وبيع بعض المسكرات، ويستدل بعموم أدلة اليسر في الدين، وقد رددت على هذه القاعدة بحمد الله في كتابي "**المبحث البديع في أسباب وحلول ونتائج التمييع**".

***

=

لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

قَوْلُهُ (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه): أبو مطرف، روى له مسلم في صحيحه حديثين.

قَوْلُهُ (قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ): وهم بنو المنتفق، وكان فِي سَنَةِ تِسْعٍ فهو عام الوفود حيث قَدِمَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ عَلَى رسول الله ﷺ، وكانت تُسَمَّى بِذَلِكَ، فَفِيهَا قَدِمَ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَفِيهَا: قَدِمَ وَفْدُ بَنِي عَامِرٍ، فِيهِمْ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَأربد بْنُ قَيْسِ بْنِ جَزْءِ بْنِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَجُبَارُ بْنُ سَلْمَى بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ. انتهى من عيون الأثر» (٢/ ٢٨٦) أبو الفتح الربعي، (المتوفى: ٧٣٤هـ).

قَوْلُهُ (فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا): وقد صح أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيِّدُ النَّاسِ» كما في الصحيحين»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ (فَقَالَ: السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى): أي: ذو السيادة المطلقة، وأنكر عليهم قولهم سدًا للذريعة وإلا فهو سيد، كما تقدم.

قَوْلُهُ (وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا): والطول هنا لا يراد به الطول الجسمي بل الكرم والعطاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ

(١) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، أي صاحب الإنعام والتفضُّل على عباده الطائعين، لا معبود بحق سواه، فهو صاحب المن والفضل سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيْدٍ): أي: في «**سننه**»(٤٨٠٦).

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

قَوْلُهُ (يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا): أي يا أفضلنا وابن أفضلنا.

قَوْلُهُ (وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ): وفي رواية وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ»[1]، قال ابن الأثير في النهاية» (١/ ٢٦٤): أَيْ لَا يَسْتَغْلِبَنَّكم فيتَّخِذكم جَرِيًّا: أَيْ رَسُولا ووكِيلًا. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا مَدَحُوه فكَرِه لَهُمُ المبالغَة فِي المدْح، فنَهاهُم عَنْهُ، يُرِيد: تَكَلَّمُوا بِمَا يَحْضُرُكُم مِنَ الْقَوْلِ، وَلَا تتكلفُوه كَأَنَّكُمْ وُكَلاء الشَّيْطَانِ ورُسُلُه، تَنْطقُون عَنْ لِسَانِهِ. اهـ.

قَوْلُهُ (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ): كما وصفه الله وسماه.

قَوْلُهُ (مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ): سدًّا لذريعة الشرك إذ أن الغلو من أعظم أسباب الشرك إن لم يكن أعظمها، وفيه تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعرفته بحق ربه وحقه.

قَوْلُهُ (رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ): في "**الكبرى**"(١٠٠٠٧)، وأخرجه أحمد (١٣٥٢٩).

القول في هذا الحديث كسابقه، وهناك أحاديث كثيرة في سد الذرائع، منها:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٥٣٠)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ما في مسلم (٩٦٩): عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»، وعند الترمذي (١٠٥٢)، وغيره[١]: من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﭬ، قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا، وَأَنْ تُوطَأَ»، وعند أبي داود (٤٤٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭬ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ»[٢]، وفي الصحيحين»[٣] عَنْ عَائِشَةَ ﭬ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». كل ذلك من باب سد ذرائع الشرك، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»، متفق عليه[٤]، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» متفق عليه[٥]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»[٦]، من باب سد ذريعة القتل، وبالله التوفيق.

***

---

(١) الإمام أحمد (١٥٢٨٦)، عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﭬ.

(٢) والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٣٠٦) لشيخنا مقبل الوادعي ﵀.

(٣) البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٤) البخاري (٦٨٧٤)، ومسلم (٩٨)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﭬ.

(٥) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦١٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ.

٦٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ناسب أن يضع هذا الباب، وهو آخر الأبواب لبيان عموم فضل الله ﷻ، وعموم قدرته تعالى، وبيان عظمته فحقه عظيم وجليل، وهو الرب المالك العظيم، وفيه بيان أن الناس بحاجة إلى الاستمرار في طلب هذا العلم؛ علم الكتاب والسنة، وعلم التوحيد، والعقائد، حتى يعرفوا الله ﷻ، والله ﷻ معروف بآياته الكونية وآياته الشرعية، فمن كفر بالله ﷻ، أو مثل الله ﷻ، أو أشرك بالله، أو ألحد في آياته وأسمائه، فهذا لم يقدر الله ﷻ حق قدره، ولذلك قال الله ﷻ في شأن اليهود: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فهذا الاعتقاد الباطل؛ أن الله لم ينزل كتابًا على أحد من البشر، ولم يرسل رسلًا، فيه طعن في حكمة الله، وطعن في مراد الله ﷻ.. إلى غير ذلك من اللوازم.

وهنا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه مع أن هذه الأرض وما فيها من الجبال، وما فيها من الاتساع في قبضة الله ﷻ سبحانه وتعالى، والسموات يطويها الله ﷻ يوم القيامة بيمينه، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عند الشيخين: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

قَوْلُهُ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تنزه الله سبحانه وتعاظم عن إشراك المشركين المنددين، قال ابن عباس رضي الله عنه: فأما من آمن أن الله عز وجل على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، وقال شيخ الإسلام كما في المجموع» (٨/ ٢٤-٢٥): فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]: مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَمَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ وَمَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ وَعَلَى مَنْ أَنْكَرَ إنْزَالَ شَيْءٍ عَلَى الْبَشَرِ فَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وَقَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ -إلَى قَوْله تَعَالَى- ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَقَالَ فِي الزُّمَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي "**الصَّحِيحَيْنِ**" مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ حَبْرًا مِنْ الْيَهُودِ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. الْآيَةَ.

وَفِي "**الصَّحِيحَيْنِ**" أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» وَكَذَلِكَ فِي "**الصَّحِيحَيْنِ**" مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ: «يَأْخُذُ الْجَبَّارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا

فَجَعَلَ يَقْبِضُهُمَا وَيَبْسُطُهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْجَبَّارُ وَأَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ وَأَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيَمِيلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ حَتَّى نَظَرْت إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ» .اهـ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقَ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللَّهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءُ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقَ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ.

قَوْلُهُ (جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ): أي: من اليهود، والحَبر العالم الكبير، ولهذا سمي ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالحبر؛ لكثرة علمه واطلاعه، والأحبار هم علماء اليهود كما أن الرهبان عباد النصارى.

قَوْلُهُ (يَا مُحَمَّد، إِنَّا نَجِدُ): أي: في التوراة، وإن كانوا قد حرفوا كثيرًا منها لكن بقي ما لم يصبه التحريف.

قَوْلُهُ (أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ -إلى قوله: - ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]): في الحديث إثبات صفة اليدين لله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه إثبات صفة الأصابع لله عَزَّ وَجَلَّ؛ أصابع تليق بجلال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وفيه إقرار النبي ﷺ للحبر في هذا القول، وفيه: أن اليهود والنصارى قد يعلمون بعض العلم، ومع ذلك يكتمونه بغيًا وحسدًا: ﴿وَلَمَّا

جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

والعجب أن تعجب من المحرفين المعطلين، الذين يزعمون أن هذا القول إنما هو قول اليهودي، فكيف تستدل أيها المسلم وتثبت لله ﷻ أصابع، وتجاهلوا أن النبي ﷺ قد أقره، ولا يجوز له تأخير البيان عن وقت الحاجة، فلو كان اليهودي قد مثل الله ﷻ بخلقه لبيَّنه الرسول ﷺ، لكن الواقع أن النبي ﷺ ضحك مقرًا له على ما بيَّنه ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث، ثم قرأ الآية لتدل على ما تضمنه الحديث: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، أي: الله ﷻ أعظم وأعظم مما تظنون ومما تتصورون، سبحان الله عما يصفه به المبطلون علوًا كبيرًا، وقد جاء في حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عند مسلم (٢٦٥٤)، والنواس بن سمعان، وعائشة، وأم سلمة، رضي الله عنهم [(١)]: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ولا يقتضي هذا القول مماسة، ولا اتحادًا ولا اختلاطًا، بل نحن نؤمن أن قلوبنا بين أصبعين من أصابع الله، والله على عرشه استوى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]، فأنت تقول: عمران بين صعدة وصنعاء، وليس بين عمران وصعدة أي مماسة، وتقول: السحاب مسخر بين السماء والأرض، والسماء معروفة،

---

(١) حديث النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْكِلَابِيُّ رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد (١٧٦٣٠)، ابن ماجه (١٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٢٦)، وغيرهم، وحديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أخرجه الإمام أحمد (٢٤٦٠٤)، والنسائي في الكبرى» (٧٦٩٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٥٣٠)، وغيرهم، وحديث أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أخرجه الإمام أحمد (٢٦٥٧٦)، والترمذي (٣٥٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٥)، وغيرهم.

والأرض معروفة والسحاب غير مماس لأحدهما، فالقول بتعطيل الله ﷻ من صفة الأصابع؛ لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن وهذا يقتضي كما زعموا أن أصابع الله في قلوب العباد حالة ومتحدة، وتقبل التجزؤ والانقسام إذا مات فلان أو خلق فلان. هذه أقوال باطلة، فنحن نثبت لله ﷻ صفة الأصابع على ما يليق بجلاله، وقد جاء إثبات صفة الكف، كما في حديث أَبِي هُرَيْـرَةَ رضي الله عنه عند مسلم (١٠١٤): «إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ».

وجاء صفة الهز في قوله: «ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ»، كما في هذا الحديث، والقبض كما تقدم في الآية، والطي، والساعد، ففي حديث أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه: «وَسَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ»[1]، وكل هذه معاني أضيفت إلى الله ﷻ، وهي تقوم بغيرها، فإضافتها إلى الله إضافة صفة إلى موصوف، وتنوع هذه المعاني يدل على إثبات الصفة لله ﷻ.

قَوْلُهُ (فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ): فيه إثبات اسم الملك لله ﷻ وصفة الملك المطلق.

قَوْلُهُ (وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءُ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ): أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

***

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٨٨٨).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: يطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

قَوْلُهُ: (وَلِمُسْلِمٍ): (٢٧٨٨).

قَوْلُهُ: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا): أي: مضاف إلى النَّبِيِّ ﷺ:

وَمَا أُضِيفَ لِلنَّبِيْ الْمَرْفُوعُ ... وَمَا لِتَابِعٍ هُوَ الْمَقْطُوعُ

قَوْلُهُ: (يطْوِي اللهُ ى السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى): (يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ) الباء تقتضي المباشرة، ثم يزعم المعطل أن الله غير موصوف باليدين! ويقول: يأخذهن بقوته بقدرته بنعمته... على تفاسير ارتضوها، وهذا الاختلاف في تفاسيرهم يدل على أنه ليس من عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قَوْلُهُ: (ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟): فيه عظم كبيرة التجبر في الأرض على العباد، والتكبر عن قبول الحق: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ»، كل المخلوقات تطؤهم لصغر أجسامهم، ولنحافة أبدانهم «حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ» أخرجه أحمد (٦٦٧٧) عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وسنده حسن.

قَوْلُـهُ: (ثُـمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُـمَّ يَأْخُـذُهُنَّ بِشِمَالِهِ): الحـديث في «الصحيحين» بغير ذكر الشمال، ولفظ الشمال لا يثبت انفرد به مسلم وهـو مـن طريق عُمَرَ بْنِ حَمْزَةَ، وهو ضعيف، فروايته منكرة، وإنما يثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة اليدين، وكلاهما يمين؛ لحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ» أخرجه مسلم (١٨٢٧)، وفي الحديث: «اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ»(١).

***

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢١٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحديث في «الصحيح المسند»(١٤٠٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُٱللَّهُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِّ أَحَدِكُم».

قَوْلُهُ (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ): رضي الله عنهما، أي: رواه ابن جرير (٢٠/ ٢٤٦)، من طريق عمر بن مالك بن عمر الراسبي، ضعيف عن أبي الجوزاء، وهو أوس بن عبد الله الربعي عنه.

قَوْلُهُ (مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِّ أَحَدِكُم): وهذا يدل على عظمة الله تعالى، والأثر له حكم الرفع، فإن ابن عباس رضي الله عنهما لا يقول هذا برأيه؛ لأن هذا لا مجال للعقل فيه، ومع ذلك قال الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والكرسي في العرش كحلقة في فلاة.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فِي الْكُرْسِيِّ إِلا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».

وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

قَوْلُهُ (أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ): وهو عبد الله بن وهب المصري الإمام صاحب الموطأ والقدر.

قَوْلُهُ (قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وهو جندب بن جنادة العابد الزاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (مَا الْكُرْسِيُّ): دليل أن الكرسي غير العرش، ومن الغلط تفسير الكرسي بالعلم، والكرسي بالنسبة للعرش مخلوق صغير مع أن الله يقول في وصفه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وثبت عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وأبي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»(١).

ذكره الهيثمي فِي «مجمع الزَّوَائِد» (٦/ ٣٢٣)، عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

والعرش هو السرير العظيم وهو أعلى المخلوقات وأوسعها وأولها، وهو سقف الجنة استوى عليه الله عَزَّ وَجَلَّ كما يليق بجلاله.

قَوْلُهُ (إِلا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ): وهذا

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١١٦)، والدارقطني في «الصفات» (٣٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٨، ٢٤٩)، الطبري (٤/ ٥٣٧، ٥٣٨).

يدل على ضئآلة الكرسي بالنسبة للعرش، ودلالة الحديث على عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ من حيث معرفة عظم مخلوقاته، وهو أعظم وأكبر وأجل، والحديث أخرجه ابْنِ مَرْدَوَيْهِ كما ذكر ذلك ابن كثير في "**تفسيره**"(١/ ٦٨٠) من طريق مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، وسنده صحيح.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ».

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رحمه الله تَعَالَى، قَالَ: وَلَه طُرُقٌ.

قَوْلُهُ (بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ): فيه سعة هذا العالم، وأنَّ ما علمه الناس بالنسبة لما جهلوه قليل وهذا كما قال الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ[1].

قَوْلُهُ (أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ): وهو عبد الرحمن بن مهدي أبو سعيد، من مشايخ الإمام أحمد.

قَوْلُهُ (عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ): وهو ثقة سني لم يعتمده البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ (عَنْ عَاصِمٍ): وهو ابن بهدلة حسن الحديث.

قَوْلُهُ (عَنْ زِرٍ): وهو ابن حبيشٍ.

قَوْلُهُ (عَنْ عَبْدِ اللهِ): وهو ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه .

والحديث حسن موقوف، وله حكم الرفع؛ لأن ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه لا يكون له أن يقول هذا من قبيل رأيه.

وفيه: سعة خلق الله عز وجل وعظم مخلوقاته، وأن الله عز وجل أعظم، فانظر كم بين السماء والسماء، وكم بين العرش والسموات والأرضين... وهكذا، والله عز وجل فوق ذلك عالٍ بذاته، ومطلع على أعمالنا لا تخفى عليه خافية.

وفي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»[(١)] وفي رواية: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا»[(٢)]، فلا يستبعد أن الملك على صورة ديك، والله أعلم.

في هذا الحديث إثبات العرش لله عز وجل، وهو مخلوق من مخلوقاته، وليس بالملك كما يقول المعطلة، فالعرش مخلوق، وهو أعظم المخلوقات قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وهو أعلى المخلوقات قال النبي صلى الله عليه وسلم: وسقفها عرش الرحمن»، وله قوائم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ١١٨) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٦٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ» أخرجه البخاري (٣٣٩٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﵁ ، وله ظل: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»[١]، أي: ظل عرشه، كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»[٢]، الحديث.

ويُحمل قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. كل هذا يمنع أن يكون المراد بالعرش الملك، وفسر بعضهم الكرسي بالعلم وهذا باطل، فالكرسي جرم من الأجرام خلقه الله ﷻ، وهو كالمرقاة أمام العرش كما قال ابن عباس ﵄، وجاء عن أبي موسى ﵁ : «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»[٣].

قَوْلُهُ (وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ): هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الكوفي صدوق اختلط قبل موته، وضابطه أن من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط.

قَوْلُهُ (عَنْ عَاصِمٍ): بن بهدلة وهو ابن أبي النجود حسن الحديث.

(عَنْ أَبِي وَائِلٍ): شقيق بن سلمة الأسدي مخضرم.

(عَنْ عَبْدِ اللهِ): لكن هذه طرق يقوي بعضها بعضًا.

قَوْلُهُ (قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رحمه الله تَعَالَى): أي: في كتابه العلو للعلي الغفار»، وقد اختصره الألباني ﵀ في «مختصر العلو»، (قَالَ: وَلَه طُرُقٌ).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧٣٣٣)، من حديث عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ ﵁، والحديث في «الصحيح المسند»(١/ ٤٥٠) لشيخنا مقبل الوادعي ﵀ .

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١١٦)، والدارقطني في «الصفات» (٣٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٨،٢٤٩)، الطبري (٤/ ٥٣٨،٥٣٧). وقد تقدم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

وَعَنِ الْعَبَّاس بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب رضي الله عنه ، قَـال: قَـال رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «هَـلْ تَدْرُونَ كَـمْ بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قُلْنَـا: اللّٰهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَـمُ، قَـالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِـمائَةِ سَـنَةٍ، وَمِـنْ كُـلِّ سَـمَاءِ إِلَـى سَـمَاءِ مَسِـيرَةَ خَمْسَمائَةِ سَنَةٍ، وكِثَفُ كُلِّ سَمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسَمائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّـمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَـا بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَالْـأَرْضِ، وَاللّٰهُ تَعَالَى فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخفَى عَلَيْهِ شَـيْءٌ مِـنْ أَعمَـالِ بَنِـي آدَمَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ (هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟) فيه التعليم بالسؤال.

قَوْلُهُ (قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) فيـه رد العلـم إلى الله فيمـا يُجهـل، ورده إلى رسوله ﷺ في حياته.

قَوْلُـهُ (قَـالَ بَيْنَهُمَـا مَسِـيرَةُ خَمْسِـمائَةِ سَـنَةٍ، وَمِـنْ كُـلِّ سَـمَاءٍ إِلَـى سَـمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ) أي من هذه السنين.

قَوْلُهُ (وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ) أي سمك كل سماء كما بين السماء والأرض، وهذا يدل على سعة ملك الله تعالى.

قَوْلُهُ (وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ): كأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

قَوْلُهُ (وَاللَّهُ تَعَالَى فَوقَ ذَلِكَ): أي عالٍ بذاته تعالى، والأدلـة عـلى علـو الله تعالى بذاته متواترة قد ذكرت جملة منها مع الرد على المخالفين في كتابي " **سلامة الخلف في طريق السلف**".

قَوْلُهُ: (وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ): قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠]، وهذا يدل على عموم علم الله بكل شيء والأدلة على ذلك كثيرة.

قَوْلُهُ: (أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ): في **«السنن»** (٤٧٢٣).

وهو حديث ضعيف، في سنده عبد الله بن عميرة الكوفي مجهول، لكنه في الباب ويشهد له ما تقدم.

وختم بهذا الباب النافع المفيد حيث تكلم عما يجب لله ﷻ، وبين أن الناس عاجزون عن معرفة ما يجب لله ﷻ، وإنما يتلقون هذا الباب من الكتاب والسنة، وأنه يجب تنزيه الله ﷻ عن قول المبطلين والمشركين والمخالفين، وتضمن الإشارة إلى العرش، وأنه مخلوق، وهذا مسائل الاعتقاد التي يذكرها أهل السنة في كتبهم، وفيه الإشارة إلى عقيدة أهل السنة في الكرسي، والإشارة إلى إثبات صفة العلو، وهي من الصفات الذاتية، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، متفق عليه[1]، وقال الله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، كل هذه الأدلة وغيرها كثير جدًا تدل على إثبات العلو لله ﷻ، وفي هذ الآثار الرد على الجهمية ومن إليهم، وتضمن إثبات صفة اليدين لله ﷻ، وإثبات صفة الأصابع لله ﷻ، وإثبات صفة الهز والطي والأخذ والقبض... إلى غير ذلك، فهذا باب عظيم، حقه أكثر من هذا، لكن هذه إشارات تغني عن كثرة العبارات، وتغني عن التطويل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ **:**

وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الكتاب: ولو أراد أحدٌ أن يطيل لأطال، ولو أراد أن يختصر لاختصر، لكن عسى أن نكون قد سلكنا سبيلًا وسطًا.

والله الموفق، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كان الانتهاء من المراجعة الأولية لهذا الشرح في مكة حرسها الله، يوم الأربعاء الحادي عشر من محرم (١٤٣٨هـ)، والحمد لله رب العالمين.

***

فهرس الأحاديث والآثار

المُحْتَوَيَاتُ

***